آفاق المعرفة
AFAQ ALMAAREFA

مختصر
دعوة التقريب بين الأديان

دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية

أ.د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

مختصر

دعوة التقريب بين الأديان

دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

ح أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاضي، أحمد بن عبدالرحمن بن عثمان

دعوة التقريب بين الأديان: دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية - الدمام.

٧٥٥ص؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٤-٤٤٨-٣٩-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٤٥٠-٣٩-٩٩٦٠ (ج ٢)

١- العقيدة الإسلامية - دفع مطاعن

٢- الحوار بين الأديان أ. العنوان

ديوي ٢٤٠ ٢٢/٢٢٠٧

رقم الإيداع: ٢٢٠٧/ ٢٢

ردمك: ٤-٤٤٨-٣٩-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٤٥٠-٣٩-٩٩٦٠ (ج ٢)

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠١٩م

مختصر

دعوة التقريب بين الأديان

دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية

أ.د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

العنوان	الصفحة
مقدمة المختصَر	١٥
مقدمة	١٧
التمهيد	٢٥
المبحث الأول: دين الإسلام	٢٧
المبحث الثاني: أهل الكتاب	٣٢
المبحث الثالث: حكم الإسلام في «أهل الكتاب»	٨١
المبحث الرابع: موقف أهل الكتاب من الإسلام	١٠٩
المبحث الخامس: لمحة تاريخية عن العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب	١٣١
الباب الأول: حقيقة التقريب بين الأديان وأصوله وبواعثه	١٥٥
الفصل الأول: حقيقة التقريب بين الأديان	١٥٧
الفصل الثاني: الأصول التاريخية لدعوة التقريب بين الأديان	١٦٩
المبحث الأول: الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند اليهود	١٧٤

المبحث الثاني: الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند النصارىٰ ١٧٨

المبحث الثالث: الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند المسلمين ١٩٠

الفصل الثالث: حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث ٢٠٥

المبحث الأول: حقيقة التقريب بين الأديان عند الكنيسة الكاثوليكية ٢٠٨

المبحث الثاني: حقيقة التقريب بين الأديان عند مجلس الكنائس العالمي ٢٣٦

المبحث الثالث: حقيقة التقريب بين الأديان عند النصارىٰ العرب ٢٥٢

المبحث الرابع: حقيقة التقريب بين الأديان عند اليهود ٢٧٧

المبحث الخامس: حقيقة التقريب بين الأديان عند الإسلاميين العصرانيين ٢٨٩

الفصل الرابع: بواعث الدعوة إلىٰ التقريب بين الأديان ٣٢٧

المبحث الأول: بواعث التقريب لدىٰ النصارىٰ الغربيين ٣٣٠

المبحث الثاني: بواعث التقريب لدىٰ النصارىٰ العرب ٣٣٨

المبحث الثالث: بواعث التقريب لدىٰ اليهود ٣٤٥

المبحث الرابع: بواعث التقريب لدى الإسلاميين العصرانيين ٣٤٨

الباب الثاني: محاولات التقريب بين الأديان في العصر الحديث ونقدها ٣٥٧

الفصل الأول: المحاولات الفردية للتقريب بين الأديان في العصر الحديث ونقدها ٣٥٩

المبحث الأول: محاولات روجيه جارودي للتقريب بين الأديان ٣٦٣

المبحث الثاني: محاولات الأب «إيميليو غاليندو آغيلار» للتقريب بين الأديان ٤١٨

المبحث الثالث: محاولات «صن مون» لتوحيد الأديان ٤٥٧

المبحث الرابع: محاولات الشيخ أحمد كَفتارو للتقريب بين الأديان ٤٦٤

الفصل الثاني: المحاولات الجماعية للتقريب بين الأديان ونقدها ٤٨٧

المبحث الأول: المحاولات المبكرة للتقريب بين الأديان قبل المجمع الفاتيكاني الثاني ٤٩٢

المبحث الثاني: محاولات الكنيسة الكاثوليكية ٤٩٧

المبحث الثالث: محاولات مجلس الكنائس العالمي ٥١٨

المبحث الرابع: محاولات التقريب بين الأديان في أوروبا الغربية ٥٣١

المبحث الخامس: محاولات التقريب بين الأديان في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي (سابقًا) ٥٦٣

المبحث السادس: محاولات التقريب في الولايات المتحدة الأمريكية ٥٦٧

المبحث السابع: محاولات التقريب بين الأديان في آسيا ٥٧٣

المبحث الثامن: محاولات التقريب بين الأديان في العالم العربي ٥٨٦

المبحث التاسع: محاولات عالمية متفرقة ٦١١

الباب الثالث: نقد دعوة التقريب بين الأديان وتقويمها ٦١٥

الفصل الأول: نقد دعوة التقريب بين الأديان في ضوء العقيدة الإسلامية ٦١٧

المبحث الأول: دلالة الشرع علىٰ بطلان دعوة التقريب بين الأديان ٦٢٢

المبحث الثاني: دلالة الواقع علىٰ بطلان دعوة التقريب بين الأديان ٦٣٧

المبحث الثالث: شبهات دعاة التقريب بين الأديان وكشفها ٦٦٤

الفصل الثاني: المنهج الشرعي في مخاطبة أهل الكتاب ٦٨١

المبحث الأول: مضمون الخطاب الدعوي لأهل الكتاب ٦٨٦

المبحث الثاني: أسلوب دعوة أهل الكتاب ٦٩٢

الخاتمة ٧٢٥

الملاحق ٧٤٣

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة «الدكتوراة» في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية -الرياض، وقد نوقشت ضحى يوم الاثنين الموافق ١٧/٨/١٤٢١هـ، ومنح الباحث مرتبة الشرف الأولى، مع التوصية بطبع الرسالة وتبادلها بين الجامعات.

مقدمة المختصَر

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتمَّ علينا النعمة، ومنَّ علينا ببعثة رسولٍ يعلمنا الكتاب والحكمة، وأنزل علينا أعظم كتبه القرآن، تبيانًا لكلِّ شيء وهدًىٰ ورحمة. أما بعد:

فقد مضىٰ علىٰ صدور الطبعة الأولىٰ من كتابي (دعوة التقريب بين الأديان: دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية) قرابة عشرين سنة. وقد نفد من المكتبات منذ نحو عشر سنين، ورغم كثرة السؤال عنه، وطلب إعادة طباعته، لكنه لم يُتَح ذلك، لما تتطلبه طباعة كتاب في أربعة مجلدات من أعباءٍ مالية، تنوء بحملها بعض دور النشر.

وقد رغب القائمون في مركز (آفاق المعرفة) باختصار الكتاب، وعهدوا بذلك إلىٰ باحث حصيف، هو الأخ عادل الشميري، وفقه الله، فاختصره في نحو ثلث حجمه، والتزم المحافظة علىٰ هدف الكتاب ولُبِّه، واستلهام جميع أبوابه وفصوله وبحثه. فجزاه الله خير الجزاء.

ولا ريب أن الحاجة ماسة إلىٰ الدعوة إلىٰ (الإسلام) باعتباره (الدين) الذي لا يقبل الله سواه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وأن من تديَّن بغيره فهو ردٌّ، وصفقته خاسرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

كما أن الحاجة ماسة لبيان العلاقة مع أتباع الأديان الأخرىٰ، التي أحكمها قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ

فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

وكثيرًا ما يقع الخلط بين القضيتين، فيفضي ذلك إما إلىٰ عنف وعدوان، تحت مبرر التكفير، وإما إلىٰ تمييع وادِّهان، تحت مسمىٰ التقريب والحوار. وقد ضبط الله العلاقة بقوله: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وأصل الدراسة يغطي الجذور التاريخية لهذه الدعوة، وتداعياتها في العصر الحديث، حتىٰ مطلع الألفية الميلادية الثالثة. ورغم أنه قد جدَّ حوادث وأطروحات في الساحة العالمية، تستدعي مواكبةً ودراسة، فإن أهم ما ينبغي أن يقال متضمن في أصل الكتاب ومختصره هذا.

ودعاة الإسلام مدعوون لاستيعاب المشهد العالمي، والتقدم بمشروعهم الإيماني الحضاري، واثقين بصحة دينهم، ونقاوة دعوتهم، وتفوقه علىٰ سائر الملل والنحل والأديان، مستبشرين بنعمة الله عليهم بهذا المد الإسلامي بين أمم الأرض، حافظين دينهم من الغلو والاستزلال، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. والحمد لله رب العالمين.

أ.د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

٢٠/ صفر/ ١٤٤١هـ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد منَّ الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فأقام الله به الحجَّة، وأوضح المحجة. أرسله الله تعالى على حين فترة من الرسل بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وقد كان الناس في جاهلية جَهْلاء، وضلالة عَمْياء، يستوي في ذلك كتابيُّهم ومشركُهم، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ١ - ٣]، (والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابيٌّ معتصم بكتاب؛ إما مبدل، وإما منسوخ، ودين دارس، بعضه مجهول، وبعضه متروك. وإما أميٌّ من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسنه، وظن أنه ينفعه: من نجم، أو وثن، أو قبرٍ، أو تمثال، أو غير ذلك)⁽¹⁾، ففتح الله به قلوبًا غُلْفًا، وأعينًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، ممن سبقت لهم من الله الحسنى، من أهل الكتاب والأميِّين. فقال من آمن من أهل الكتاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال مَن آمن مِن الأميِّين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وأما الذين غلبت عليهم شقوتهم، واستنكفوا، واستكبروا، فلم يقبلوا ما بعثه الله به من الهدى والعلم.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم. ابن تيمية، الطبعة الرابعة (١/ ٦٣).

لقد كانت رسالته ﷺ رحمة للعالمين، وبركة على الخلق أجمعين، فأحيا الله بهذا النبي الكريم ما اندرس من ملة إبراهيم، وسنن المرسلين، من توحيد الله وعبادته وحدَهُ لا شريك له، وأكمل الله لهذه الأمة الدين، وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام دينًا، حتى صارت خير أمةٍ أخرجت للناس، كما وصفها ربها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فنسخ الله بدين الإسلام سائر الأديان، وجعل القرآن آخر كتبه نزولًا وأحدثها عهدًا به؛ مُصَدِّقًا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنًا عليه، وافترض على جميع الخلق الإيمان بنبيه الخاتم واتِّباعه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فمن ابتغى غير الإسلام دينًا خاب وخسر: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ومن سمع بنبيه محمد ﷺ ولم يؤمن به أكبه الله في النار: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»(١).

ولم يَدُر بخَلَد أحدٍ من أمة الإسلام أن يسعى إلى توحيد أو تقريب بين دين الإسلام وما سواه من الأديان، بل ولا يخطر بالبال، ولا يكاد، عند من فقه مراد الله، ودخل الإيمان قلبه.

ولكن الزمان استدار، فعز العلم، وفشا الجهل، وخُذِل أهل الإسلام، واستطال الكفار، فعصفت بأمم الأرض مذاهب شتى، ومقالات سوء، نشأت في أحضان الغرب النصراني، ترضع من لبان يهود، حتى نمت وترعرعت.

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١٣٤).

فمن هذه المقالات التي استحالت دعوات، دعوة التقريب بين الأديان، التي خرجت من حيز الكمون إلى فضاء الاستعلان، ومن طور الفكرة إلى مرحلة التنفيذ، في العقود الأربعة الماضية؛ تدعو المسلمين إلى حل عرى الدين، وموادَّة الكافرين، وجعل المسلمين كالمجرمين، وكسر حاجز النفرة من المشركين. وقد تذرَّع دعاتها بألوان الحيل، وتوسَّلوا بزخرف القول، وبهرج العمل، لتسليكها بين المسلمين، وتأنيسها، وتوطينها، وأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ﴾ [التوبة: ٤٧].

فمنذ انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢م-١٩٦٥م) الذي تواضع فيه أساقفة الكاثوليك على هجر عبارتهم العتيقة: (لا خلاص خارج الكنيسة)، وتوسيع مفهوم «الخلاص» ليشمل غير النصارى، ومؤتمرات التقريب بين الأديان بعامة، وبين الإسلام والنصرانية خاصة تجري على قدم وساق، حتى بلغ عددها خلال العقود الأربعة المنصرمة -حسب علمي- ثلاثمئةً مؤتمر، بل فاق، وأنشئت لها المراكز المتخصصة، وجمعيات الصداقة، بل وشيدت لها مجامع الأديان المؤلفة من كنيسٍ وكنيسة ومعبدٍ ومسجد، وأقيمت لأجلها الصلوات المشتركة!

إن ظهور «دعوة التقريب بين الأديان» بثوبها الجديد، يعد «نازلة» جديدة، «وبدعة» حديثة، تتطلب مواجهةً واعية تقوم على دراسة حقيقتها، وتتبُّع أصولها، واستقراء واقعها، لمعرفة أهدافها وبواعثها، وكشف عوارها وخطرها على المسلمين.

ومما يؤكد ضرورة الاهتمام بهذه الدعوة ونقدها في ضوء العقيدة الإسلامية ما يأتي:

أولًا: خطر هذه الدعوة على أصول الاعتقاد عند المسلمين، من الإيمان بالله وكتبه ورسله، واستزلالهم إلى تصويب عقائد الكفار وتصحيح أديانهم.

ثانيًا: مواكبة هذه الدعوة للاتجاه العالمي السائر نحو «العولمة»، التي ترمي إلى القضاء على خصائص المجتمع الإسلامي العقدية والتشريعية والاجتماعية وغيرها، وصهره في بوتقة «العالمية» مع اليهود والنصارى والذين لا يعلمون.

ثالثًا: الدعم الكبير الذي تحظى به هذه الدعوة من قبل أئمة الكفر، وترويجها بمختلف الوسائل الإعلامية، وإدانة ما يضادها ووصفه بـ«التعصب» و«الأصولية» تمهيدًا لسلخ المسلمين عن دينهم الذي ارتضاه الله لهم.

رابعًا: الانفتاح العالمي الهائل الذي حصل في العقود الأخيرة، اجتماعيًّا وثقافيًّا وإعلاميًّا.

خامسًا: عدم التكافؤ المادي بين الأمم الإسلامية، وكثير من أمم النصارى واليهود، حيث يرزح المسلمون تحت ضغط التخلف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، ويسلبهم الشعور بالاستعلاء والخيرية الضروريين للأخذ بزمام المبادرة، ويجعلهم مسوقين للطرف الأقوى.

سادسًا: انزلاق بعض المنتسبين إلى الإسلام، والمحسوبين عليه، إلى مزالق عقدية خطيرة في هذا المجال، ثم نالوا حظًّا من التصدير والتفخيم ليغترَّ بهم العامة، ويتخذوهم أئمةً.

سابعًا: عدم وجود دراسة متوسعة -حسب علمي- عُنِيت بفحص مناشط هذه الدعوة على المستوى العالمي، وتحليلها، ونقدها في ضوء العقيدة الإسلامية.

ثامنًا: وهو الأهم، الحاجة الماسة إلى إحياء المنهج الشرعي في مخاطبة أهل الكتاب، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين، المبعوث إلى الناس أجمعين، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه والتابعين.

أ.د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

عنيزة. المملكة العربية السعودية
ص.ب. (٢٤٦) الرمز البريدي (٨١٨٨٨)
هاتف: (٠٦٣٦٤٦٩٠٦) جوال: (٠٥٥١٣٢٤٦٨)
البريد الإلكتروني: qadisa@yahoo.com

التمهيد

ويتضمن خمسة مباحث:

- المبحث الأول: دين الإسلام.
- المبحث الثاني: أهل الكتاب.
- المبحث الثالث: حكم الإسلام في أهل الكتاب.
- المبحث الرابع: موقف أهل الكتاب من الإسلام.
- المبحث الخامس: لمحة تاريخية عن العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب.

المبحث الأول

دين الإسلام

- **الإسلام الذي بعث الله به جميع الرسل (الإسلام العام):**

دين الله الذي بعث به أنبياءه من أولهم إلى آخرهم واحد هو «الإسلام»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ودعوة الأنبياء واحدة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ومفتاح دعوتهم التي يبادئون بها أقوامهم واحد: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وسماهم الله المسلمين، ووصفهم بالإسلام، الذي هو الاستسلام لله والخضوع والانقياد والإذعان؛ فقال عن نوح: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وعنه وعن إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ووصف بذلك أنبياء بني إسرائيل قاطبة فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن لوطٍ وأهل بيته: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]، وعن موسىٰ وقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، ولهذا قال سحرة فرعون لما آمنوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وكذا فاه بذلك فرعون لما أدركه الغرق لعلمه من موسىٰ أنه سبيل النجاة فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ

ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن حيث لا ينفعه ذلك. وعن الحواريين أصحاب عيسىٰ عليه السلام: ﴿ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، حتىٰ الجن تسمَّوا بذلك فقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٤].

وبما أمر الله به الأولين من الأنبياء والمرسلين، أمر نبيَّه محمدًا ﷺ فقال: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٢]، فامتثل أمر ربه وقال: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وبذلك يتبين أن دين الله واحد هو «الإسلام»، ولا دين سواه، ولهذا أرشد الله سبحانه وتعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يعتصم بهذا الأصل العظيم، ويأوي إلى هذا الركن المتين عند مجادلة أهل الكتاب وغيرهم، ويفاصلهم على أساسه فقال: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، فليس لله دينٌ يُعبد به سوى الإسلام، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وإنما حصل التنوع في الشرائع التي شرعها الله لكل أمة على لسان نبيها: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، هذا هو المعنى الصحيح الوحيد لوحدة الدين، وما سوى ذاك وسواس الشياطين.

فالإسلام العام هو ما بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين من لدن نوح إلىٰ محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والإسلام الخاص هو ما جاء به

محمد ﷺ من هدىً وبيان، وحلالٍ وحرام: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، فنسخ الله به جميع الرسالات والشرائع السابقة.

فمن جوَّز أو سوغ «تعدد الأديان» وأنها الآن طرق تؤدي إلى الله، فقد افترى على الله الكذب، وقال على الله بغير علم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

والمدلول الشرعي لكلمة «دين»، هو ما بعث الله به أنبياءه ورسله، فهو واحدٌ لا يتعدد، وهو «الإسلام». ولكن بالنظر إلى المعنى اللغوي الدال على العادة والشأن ومطلق الطاعة⁽¹⁾، فإن الأمر واسع، فيتناول الدين الحق الذي هو الإسلام، وسائر البدع والضلالات والأحوال والتقاليد التي يسير عليها بعض الناس، ولهذا قيد الله تعالى لفظ «الدين» في مواضع من كتابه فقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ووصفه بما يخصصه فقال: ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، وسمى ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب والكفار دينًا فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وعن فرعون وقومه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٢٦]، وعن اليهود: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

فتبين بذلك جواز إطلاق لفظ «الدين» و«الأديان» على ما سوى الإسلام، باعتبار تدينهم بها.

أما وصف تلك الأديان -سوى الإسلام- بـ«السماوية» فوصفٌ باطل، لما يحمله من دلالة باطلة، من كونها نزلت من السماء، والواقع أنها تحريف لما نزل من السماء⁽²⁾، وكذلك التعبير بـ«الأديان الثلاثة» عن الإسلام واليهودية

---

(١) الصحاح: الجوهري. (٥/ ٢١١٨-٢١١٩).

(٢) انظر في هذا أيضًا رسالةً بعنوان: (الدين السماوي هو الإسلام) للدكتور عبد العزيز الحميدي.

والنصرانية، فإن فيه غضًّا من الإسلام، وإيحاءً بأن هذه «الثلاثة» متساوية. قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: (قد يسمع ما بين حين وآخر كلمة «الأديان الثلاثة» حتى يظن السامع أنه لا فرق بين هذه الأديان الثلاثة، كما أنه لا فرق بين المذاهب الأربعة، ولكن هذا خطأ عظيم. إنه لا يمكن أن يحاول التقارب بين اليهود والنصارى والمسلمين، إلا كمن يحاول أن يجمع بين الماء والنار)[١].

والإسلام بالمعنى العام الذي جاءت به جميع الرسل متضمنٌ لأصول الإيمان وآثاره، وأمهات العبادات والشرائع، وإن اختلفت كيفياتها.

ثم أكمل الله الدين وأتم النعمة ببعثة نبيه الخاتم، ورسوله إلى الناس كافة، محمد بن عبد الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وذلك هو الإسلام الخاص الذي لا يقبل الله دينًا سواه، وإليه ينصرف المراد عند الإطلاق.

ومن أصول الإيمان:

(١) أعظمها الإيمان بالله تعالى وتوحيده:

- في ربوبيته: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فمن سمَّى أحدًا من خلقه -كعيسى عليه السلام- ربًّا فقد أشرك في ربوبيته.

- في ألوهيته: فهو المستحق للعبادة وحدَهُ دون ما سواه، فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة القلبية أو العملية أو اللسانية لغير الله فقد أشرك في ألوهيته.

- في أسمائه وصفاته: فمن سمى الله بما لم يسمِّ به نفسه، كتسمية النصارى له أبًا، أو وصفه بصفات النقص والعيب ومماثلة المخلوقين كقول اليهود إنه استراح بعد خلق السماوات والأرض، سبحانه وتعالى، فقد ألحد في أسمائه وصفاته.

---

(١) من خطبة يوم الجمعة «الأولى» الموافق ١٥/ ١/ ١٤٢٠هـ.

(٢) الإيمان بملائكته الكرام ووجوب محبتهم وموالاتهم، خلافًا لليهود الذين عادوا جبريل عليه السلام، والنصارى الذين غلوا فيه واتخذوه إلهًا في عقيدة التثليث الفاجرة.

(٣) الإيمان بكتب الله التي أنزلها على رسله من عنده، مما سماه الله لنا كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وقد حفظ الله القرآن من التحريف والتبديل فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ونسخ به الشرائع السابقة.

(٤) الإيمان برسل الله جميعًا، واعتقاد أنهم بشرٌ تلحقهم خصائص البشرية من المرض والجوع والعطش والموت، لكن اصطفاهم الله واختارهم لتحمل وحيه، وتبليغه للناس، وأنهم أكمل الناس عبوديةً، ليس فيهم شيءٌ من صفات الألوهية البتة.

ومباني الإسلام العملية خمسة: فمن أتى بهذه الأركان الخمسة صار مسلمًا حقًّا واستحقَّ الجنة، كما تضمنت الشريعة الإسلامية المبنية على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ تنظيمًا دقيقًا لأحكام المعاملات والعقود والولايات التي تتناول جميع الجوانب الشخصية والاجتماعية والمالية والسياسية للفرد والأمة. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

المبحث الثاني

أهل الكتاب

ورد هذا المصطلح «أهل الكتاب» في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة، على سبيل الخبر أو الطلب، وورد مثل هذا العدد بلفظ «الإيتاء» بتصرفاته المختلفة مثل: «أوتوا الكتاب»، و«آتيناهم الكتاب» ونحوها، وفي أربعة مواضع بلفظ «الميراث» مثل: «أورثوا الكتاب»، فضلًا عن المواضع الكثيرة التي يعبر عنهم بأسمائهم الخاصة. ومجموع ذلك يدل على العناية التامة التي أولاها الإسلام لدعوة أهل الكتاب، كيف لا، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

فمن هم «أهل الكتاب» الذين يتناولهم هذا اللفظ بأخباره وأحكامه؟

قال ابن جرير(١) رحمه الله: (فأما الطائفتان اللتان ذكرهما الله... فإنهما: اليهود والنصارى. وكذلك قال أهل التأويل)(٢).

وإطلاق مصطلح «أهل الكتاب»، وإرادة اليهود والنصارى بذلك خاصة، مستفيضٌ في السنة المطهرة. ومن شواهد ذلك:

(١) ما روى البخاري(٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «مثلكم

---

(١) محمد بن جرير الطبري، ولد سنة ٢٢٤هـ في آمل طبرستان، واستوطن بغداد، إمام في التفسير والتاريخ، توفي سنة ٣١٠هـ. انظر: الأعلام (٦/ ٦٩)، تذكرة الحفاظ (٢/ ٣٥١).

(٢) تفسير الطبري: (٨/ ٩٣).

(٣) محمد بن إسماعيل البخاري، صاحب «الجامع الصحيح». ولد عام ١٩٤هـ، في بخارى، وكانت وفاته سنة ٢٥٦هـ. تذكرة الحفاظ (٢/ ١٢٢)، تاريخ بغداد (٢/ ٤-٣٦).

ومثل أهل الكتابين، كمثل رجل استأجر أجراء، فقال: من يعمل لي من غُدوةٍ إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقل عطاءً؟ قال: هل نقصتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء»(١).

فتبين بهذا أن الله سبحانه سمى «اليهود» و«النصارى» «أهل الكتاب»، ولم يسمِّهم «مسلمين»، وذلك لرغبتهم عن ملة إبراهيم «الإسلام» ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]. قال ابن جرير رحمه الله: (عنى الله بذلك اليهود والنصارى لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام، لأن ملة إبراهيم هي الحنيفية المسلمة، كما قال تعالى ذكره: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧])(٢).

وقد زعم بعض المتأخرين، المداهنين لأهل الكتاب، الداعين إلى التقارب معهم، أنهم مؤمنون، وأنه يسعهم -فيما بينهم وبين ربهم- البقاء على دينهم، والعمل بما في أيديهم من كتب، وأنه لا يلزمهم الدخول في الإسلام، والإيمان برسالة محمدٍ ﷺ، وشبَّهوا ببضع آيات، منها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

---

(١) صحيح البخاري: (٣/ ٤٩-٥٠).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ٥٥٨-٥٥٩).

والجواب عن ذلك يسير -بحمد الله-:

- فآية البقرة وما شابهها، للمفسرين فيها ثلاثة مسالك:

الأول: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جرير رحمه الله: (كان يرى أن الله جلَّ ثناؤه كان قد وعد من عمل صالحًا من اليهود والنصارى والصابئين على عمله في الآخرة الجنة، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥])(١).

الثاني: أن معنى القيد في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ٦٢]، أن: (إيمان اليهود والنصارى والصابئين، التصديق بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به، فمن يؤمن منهم بمحمد، وبما جاء به وباليوم الآخر، ويعمل صالحًا، فلم يبدِّل ولم يغير حتى توفي على ذلك، فله ثواب عمله وأجره عند ربه)(٢)، واستظهره ابن جرير(٣).

الثالث: أن الآية تتناول من كان قبل بعثة نبينا محمدٍ ﷺ وحسب. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: (الصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف، من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ)(٤).

ولم يرَ ابن كثير رحمه الله منافاة بين هذه المسالك: (فإن هذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحدٍ طريقةً ولا عملًا إلا ما كان موافقًا لشريعة

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ٣٢٣).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ٣٢٠).

(٣) تفسير الطبري: (١/ ٣٢٤).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٩٣).

محمد ﷺ بعد أن بعثه الله بما بعثه به. فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدًى وسبيل نجاة)(١).

ويحسن في هذا المقام أن ننبه على بعض الشبه المتعلقة بمدلول: «أهل الكتاب».

الشبهة الأولى: تتعلق بالنصارى خاصة. ومفادها: أن النصارى المذكورين في القرآن، المشمولين بوصف «أهل الكتاب»، ليسوا هم «نصارى اليوم»، بل هم فرقة تاريخية خارجة عن النصرانية الرسمية التي أقرها مجمع نيقية عام ٣٢٥م. وعليه فنصارى اليوم غير معنيين بأحكام الكفر والغلو والضلال التي دمغ القرآن بها تلك الفرقة، ولا تنسحب عليهم آثارها.

ويروج لهذه الشبهة بعض دعاة التقارب والحوار من النصارى العرب خاصة، وربما تابعهم عليها بعض المنتسبين إلى الإسلام. والحق أنه لا فرق بين النصارى المذمومين في القرآن، ونصارى اليوم البتة مهما تمحَّل هؤلاء وتحذلقوا بالألفاظ، فالحقائق واحدة، وعقائدهم متطابقة.

الشبهة الثانية: أن مصطلح «أهل الكتاب» يشمل المسلمين أيضًا! بناءً على أن الكتاب إذا أطلق في القرآن يقصد به كل كتاب جاء من عند الله. ومراد القائلين بذلك مؤانسة اليهود والنصارى بالاندماج معهم في هذا الوصف تحقيقًا للتقارب، لإقامة جبهة «أهل الكتاب» في وجه الإلحاد.

ولا ريب أنه قول ساقط متهافت شاذ لم يسبق إليه قائله، ولا يغير شيئًا من ثوابت الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٥).

فكما تجب المحافظة على الألفاظ الشرعية ويحرم العدول عنها إلى مصطلحات حادثة، تجب المحافظة على مدلولاتها التي أرادها الشارع، فلا يُدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها ما هو منها، بأنواع التعطيل والتحريف.

وحتى تستبين سبيل أهل الكتاب، من يهودٍ ونصارى، وأنها مجافية لسبيل المؤمنين، راغبةٌ عن ملة إبراهيم، نقدِّم تعريفًا باليهودية والنصرانية من حيث هما ديانتان فقط، دون الاستطراد في الجوانب التاريخية إلا ما دعت إليه الحاجة، لمقارنتهما بدين الإسلام الذي جاءت به الرسل.

أولاً: اليهودية

- **موقف اليهود من التوراة:**

حال هذه الأمة المغضوب عليها -إلا من رحم الله ممن آمن- هو الكفر بالله، وسوء الأدب معه، وأذية نبيه الذي كتب الله نجاتهم من عدوهم على يديه. وأما موقفهم من كتاب الله ووحيه الذي به العصمة والنجاة، والهدى والنور، فكان موقف أسلافهم الذين عاينوا الآيات البينات الرفض والعصيان:

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، فلم يرفعوا بذلك رأسًا، ولم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله، وسلك خلوفهم مسالك شتى في الحيدة عن هدى الله منها:

- تحريف الكلم عن مواضعه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، فوقع التحريف منهم في التأويل، وهو الأكثر، وفي التنزيل بزيادة ألفاظٍ أو تبديلها بغيرها(١).

- كتمان ما أنزل الله وإخفاؤه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ [المائدة: ١٥].

- التحايل على شرع الله بوجوه الحيل للتخلص منه، فمن ذلك: لما حرم عليهم الصيد يوم السبت، فاحتالوا على صيد الحيتان يوم السبت، ولم يأكلوها إلا ليلة الأحد(٢).

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (٢/ ٤٨٠ -٤٩٦).

(٢) انظر تفسير الطبري: (٩/ ٩٠ -١٠١).

• الكتب المقدسة عند اليهود:

١ - توراة «عزرا»:

يقول السموأل بن يحيى⁽¹⁾، الذي كان من أحبار اليهود ثم اهتدى إلى الإسلام في القرن السادس الهجري: (ذكر السبب في تبديل التوراة: علماؤهم وأحبارهم يعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم، لا يعتقد أحدٌ من علمائهم وأحبارهم، أنها المنزلة على موسى البتة؛ لأن موسى صان التوراة عن بني إسرائيل، ولم يبثها فيهم، وإنما سلمها إلى عشيرته أولاد ليوي... وكان بنو هارون قضاة اليهود وحكامهم، لأن الإمامة وخدمة القرابين وبيت المقدس كانت موقوفة عليهم. ولم يبذل موسى من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة⁽²⁾... فأما بقية التوراة فدفعها إلى أولاد هارون، وجعلها فيهم، وصانها عن سواهم. وهؤلاء الأئمة الهارونيون، الذين كانوا يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها، قتلهم «بخت نصَّر»⁽³⁾ على دمٍ واحد، يوم فتح بيت المقدس. ولم يكن حفظ التوراة فرضًا ولا سنة بل كان كلٌ واحدٍ من الهارونيين يحفظ فصلًا من التوراة.

---

(١) كان اسمه رحمه الله شموائيل بن يهوذا. وكان والده من فاس وأمه من البصرة، وكلاهما من علماء اليهود. وقد اشتغل في صباه بعلوم الآلة والمنطق والرياضيات، ثم قرأ التواريخ فأسلم، وحسن إسلامه. وصنّف «إفحام اليهود» توفي رحمه الله سنة ٥٧٠هـ. انظر قصته في كتابه المذكور آنفًا: (٧٤ -٧٥).

(٢) لعل المراد نصف سورة من نسخة التوراة المكتوبة، وأما تبليغ الرسالة فقد جرى كاملاً ولا ريب، ولم يكتم شيئًا منه عليه السلام، حاشا رسل الله من الكتمان.

(٣) ملك كلداني بابلي، اجتاح دولة يهوذا، ودمّر أورشليم ونهب الهيكل سنة ٥٨٦ق.م انظر: العهد القديم. سفر الأخبار الثاني (٨٣٠).

فلما رأى «عزرا»(١) أن القوم قد أحرق هيكلهم، وزالت دولتهم، وتفرق جمعهم، ورفع كتابهم، جمع من محفوظاته، ومن الفصول التي يحفظها الكهنة، ما لفق منه هذه التوراة التي بأيديهم الآن... فهذه التوراة التي بأيديهم -على الحقيقة- كتاب عزرا، وليست كتاب الله(٢).

ويقول العالم اليهودي باهليل سلفر في كتابه «موسى والتوراة الأصلية»:

(حتى الوصايا العشر(٣) التي يكاد يجمع العلماء على أنها الشيء الوحيد المتبقي من التوراة الأصلية، لم تكن بكاملها، وعلى هيئتها الحالية، كالتي أتى بها موسى)(٤).

٢- العهد القديم:

لقد تتابع هؤلاء الكتبة على الإضافة إلى التوراة، وإلحاق أسفار جديدة، حتى تكوَّن لديهم ما يسمى بـ«العهد القديم»، وصار يبلغ خمسة أضعاف الأسفار

---

(١) عزرا: كاهن وكاتب يهودي، ظهر في فترة السبي البابلي، عاصر عفو الملك الفارسي «قورش» عن اليهود، وإذنه لهم بالعودة لفلسطين. وكان له دورٌ بارز في تنظيم اليهود، وجمع شملهم، وعزلهم عن باقي الشعوب، وإعادة شريعتهم. انظر: العهد القديم. سفر عزرا (٨٤٧ -٨٥٣).

(٢) إفحام اليهود، للسموأل بن يحيى المغربي تحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي، طبع ونشر إدارات البحوث العلمية والإفتاء. الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م) (١٣٥ -١٤٠).

(٣) وردت هذه الوصايا في سفر التثنية (٥/ ١ -٢٢). العهد القديم: (٣٦٧ -٣٦٨). وملخصها:
لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي.
لا تصنع لك منحوتًا، أي صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. ولا تسجد لها، ولا تعبدها، لأني أنا الرب إلهك إله غيور...
لا تلفظ اسم الرب إلهك باطلًا...
احفظ يوم السبت لتقديسه، كما أمرك الرب إلهك... فلا تصنع فيه عملًا...
أكرم أباك وأمك... -لا تقتل -لا تزنِ -لا تسرق -لا تشهد على قريبك شهادة زور.
لا تشتهِ امرأة قريبك، ولا تشتهِ بيته ولا حقله ولا خادمه ولا خادمته ولا ثوره ولا حماره...).

(٤) نقلاً من: اليهود تاريخ وعقيدة: (١٤٢).

الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى عليه السلام، والتي تؤرخ لبني إسرائيل حتى سنة ٢٤٠٠ق.م(٥).

لقد استغرق تدوين «العهد القديم» زمنًا طويلًا (يربو على تسعة قرون وبلغات مختلفة، واعتمادًا على التراث المنقول شفويًّا. وقد صححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار بسبب أحداثٍ حدثت، أو بسبب ضرورات خاصة، وفي عصور متباعدة أحيانًا... ولم تكتسب شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد المسيح، كما يرى الكثيرون)(٦).

٣- التلمود:

وإلى جانب «العهد القديم» طوَّر حاخامات يهود عبر القرون تراثًا دينيًّا ضخمًا، يعدُّونه الأصل الثاني في ديانتهم، وإن كان في حقيقة الأمر هو محل عنايتهم وحفاوتهم ودرسهم، ذلك هو «التلمود» ويعني بالعبرية «التعليم».

وذلك مصداق قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

ويصفه السموأل بن يحيى: (وأما التلمود، فهو الكتاب الأكبر)(٧). والطبعات الحديثة التي ظهرت في هذا القرن ما بين عامي ١٩٣٥-١٩٥٢م بلغت خمسة وثلاثين مجلدًا(٨).

---

(٥) انظر في دراسة هذه المجموعات ونقدها: القرآن والتوراة والإنجيل. موريس بوكاي (٢٠ -٦٥) تاريخ بني إسرائيل. محمد عزة دروزة.

(٦) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم. (٢٦ -٢٨).

(٧) إفحام اليهود: (١٦٢).

(٨) التوراة تاريخها وغاياتها: (٨٢).

تلك نظرة شاملة على مصادر الديانة اليهودية، وكتبها المقدسة لديهم تكشف بوضوح عن انقطاع السند بين اليهودية وملة إبراهيم، وطروء زيادات خطيرة، وحصول تحريفٍ وكتمان لما أنزل الله، أنتج ديانة محرفة، لا تستقيم وقانون الإسلام العام في شقيها العقدي والتشريعي على نحو ما سنوضحه في الصفحات الآتية:

- **العقائد اليهودية:**

(١) في باب الإيمان بالله:

حفل العهد القديم والتلمود بأنواع الكفر والشرك في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، مما تقشعر منه الأبدان، ولا يصدر من أهل الإيمان، كما شهد عليهم سفر القضاة: (وعاد بنو إسرائيل فصنعوا الشر في عيني الرب، وعبدوا البعل والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة بني عمّون، وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الرب، ولم يعبدوه) ١٠/ ٦(١).

فِرية الرؤية في الدنيا: في سفر العدد يَرِد تَشَفُّع من موسى، وهو يناجي الله قائلًا -حسب زعمهم-: (... إنك يا رب، في وسط هذا الشعب الذي تراءيت له، يا رب، وجهًا لوجه، وأن غمامك مقيم فوقهم، وأنك سائر أمامهم بعمود غمام نهارًا، وبعمود نار ليلًا) ١٤/ ١٤-١٥(٢). وهذا مما افتروه على الله. فإذا كان موسى عليه السلام قد سأل الرؤية فلم ينلها في الدنيا، فكيف بهؤلاء الذين شرطوها على موسى لقاء إيمانهم، فأخذتهم الصاعقة؟ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

---

(١) العهد القديم: (٤٨٩ -٤٩٠).

(٢) العهد القديم: (٣٠٨).

فِرية وصفه تعالى -بالندم-: جاء في سفر التكوين: (فندم الرب على أنه صنع الإنسان على الأرض) ٦/ ٦-٧(١).

وفي سفر صموئيل الأول: (إني قد ندمت على إقامتي شاول ملكًا) ١٥/ ١١(٢)، فسبحان العليم الحكيم!

أما التلمود فيقول: (يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة، حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان، فتحصل الزلازل)(٣). فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم.

فِرية وصفه -تعالى- بالتعب: جاء في سفر التكوين: (وانتهى الله في اليوم السابع من عمله الذي عمله، واستراح في اليوم السابع) ٢/ ٢(٤). وقد كذَّبهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

(٢) في باب أنبياء الله:

إذا كان القدح وسوء الأدب والجرأة في كتب اليهود قد بلغت جناب الله سبحانه وتعالى، فلا غرو أن تطال أذيتها رسله الكرام، ومصطفَيه الأخيار، عليهم صلواته سبحانه. ومن شواهد ذلك:

---

(١) العهد القديم: (٧٧-٧٨).

(٢) العهد القديم: (٥٤٩).

(٣) الكنز المرصود: (٥٦).

(٤) العهد القديم: (٧٠).

نوحٌ عليه السلام: جاء في سفر التكوين: (وابتدأ نوحٌ حارث الأرض يغرس الكَرم، وشرب من الخمر، فسكر، وتكشف في داخل خيمته) ٩/ ٢٠-٢١[١]. وصدق الله، وكذبت يهود: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣].

إسماعيل عليه السلام: لعل بشارة الملك لهاجر في البرية بتكثير نسل ابنها قد أغاظ كتبة سفر التكوين، فنفثوا فيه من حَر غيظهم هذه الجملة: (ويكون حمارًا وحشيًّا بشريًّا) ١٦/ ١٢[٢].

لوط عليه السلام وأهل بيته المؤمنون: سفر التكوين يصوِّر لوطًا -الذي وصفه الله بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ووصف أهل بيته-سوىٰ امرأته- بقوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] - بصورة هابطة: (وصعد لوط من صُوعَر، وأقام في الجبل هو وابنتاه معه، لأنه خاف أن يقيم في صوعر، فأقام في مغارة هو وابنتاه، فقالت الكبرىٰ للصغرىٰ: إن أبانا قد شاخ، وليس في الأرض رجل يدخل علينا علىٰ عادة الأرض كلها، تعالي نسقي أبانا خمرًا، ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلًا. فسقتا أباهما خمرًا هذه الليلة، وجاءت الكبرىٰ فضاجعت أباها، ولم يعلم بنيامها ولا قيامها. فلما كان الغد قالت الكبرىٰ للصغرىٰ: هأنذا قد ضاجعت أمس أبي، فلنسقه خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وتعالي أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلًا. فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغرىٰ فضاجعته، ولم يعلم بنيامها ولا قيامها، فحملت ابنتا لوط من أبيهما) ١٩/ ٣٠-٣٦[٣]. وقد شهد لآل لوط خصومهم فقالوا: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢، والنمل: ٥٦].

---

[١] العهد القديم: (٨٢).

[٢] العهد القديم: (٩١).

[٣] العهد القديم: (٩٦).

موسى عليه السلام: لم يسلم من أذاهم مع ما أجرى الله على يديه من إنجائهم من آل فرعون، وقيادتهم وتعليمهم، حتى إنه عاتبهم على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ أي وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم.

ومن جملة ما سجله سفر الخروج من أذيتهم إياه: (فصرخ موسى إلى الرب قائلًا: ماذا أصنع إلى هذا الشعب؟ قليلًا ويرجمني) ١٧/ ٤[١].

وفي سفر العدد: (وتكلَّم الشعب على الله وعلى موسى، وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لنموت في البرية؟ فإنه ليس لنا خبز ولا ماء. وقد سئمت نفوسنا هذا الطعام الزهيد) ٢١/ ٥[٢].

فلذلك نهى الله هذه الأمة المحمدية عن سلوك سبيل هؤلاء المعتدين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩][٣].

هارون عليه السلام: نسب سفر الخروج إلى هارون عليه السلام الضلوع في صناعة العجل الذهبي، والتهيئة لعبادته، استجابة لطلب مشركي قومه: (...قال لهم هارون: انزعوا حلقات الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم، وأتوني بها. فنزع كل الشعب حلقات الذهب التي في آذانهم، وأتوا بها هارون فأخذها وصبها في قالب، وصنعها عجلًا مسبوكًا. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلما رأى هارون ذلك، بنى مذبحًا أمام العجل، ونادى قائلًا: غدًا

---

(١) العهد القديم: (١٨١).

(٢) العهد القديم: (٣٢١).

(٣) انظر في بيان معنى الأذى تفسير الطبري: (٢٢/ ٥٠ -٥٣)، تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٤٨٤ -٤٨٧).

عيدٌ للرب. فبكروا في الغد، وأصعدوا مُحرقات، وقربوا ذبائح سَلامِية، وجلس الشعب يأكل ويشرب، ثم قام يلعب) ٣٢/ ٢-٦[١].

فالحمد لله الذي برأ نبيه في القرآن من بهتان الذين كفروا وظلموا، فقال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠]. وإنما صنعه سلفهم السامري.

داود عليه السلام: يصمه سفر صموئيل الثاني بوصمة شنيعة، وعمل منحط لا يصدر إلا من أعتى المجرمين وأدنى الخونة، حيث زعم أنه زنى بزوجة أحد جنوده المجاهدين المخلصين «أوريا»، وتعمد إرساله إلى أخطر جبهات القتال، وحمَّله كتابًا فيه: (ضعوا أوريا حيث يكون القتال شديدًا، وانصرفوا من ورائه، فيضرب ويموت)[٢] ١١/ ١٥، كل ذلك ليستأثر بها! حاشا نبي الله وخليفته في الأرض عن اتباع الهوى، وهو الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

عيسى عليه السلام وأمه رضي الله عنها: مما جاء في تلمودهم: (إن يسوع الناصري موجودٌ في لجَّات الجحيم بين الزفت والنار. وأن أمه مريم أتت به من العسكري باندارا بمباشرة الزنى)[٣]، وجاء وصفه فيه عليه السلام بأنه «ساحر» و«مجنون» و«كافر لا يعرف الله» و«تمثال» و«مرتد» و«تعاليمه كفر»[٤]، وأنه (ولد يوسف النجار سفاحًا)[٥].

---

(١) العهد القديم: (٢٠٨).

(٢) العهد القديم: (٤٩٠).

(٣) الكنز المرصود في قواعد التلمود. المقدمة: (٢٧).

(٤) الكنز المرصود في قواعد التلمود: (١٠٥-١٠٦).

(٥) إفحام اليهود: (١٠٣).

(٣) في باب الإيمان باليوم الآخر:

مع كون الإيمان باليوم الآخر من أسس الإسلام الذي بعث الله به الرسل، إلا أن ذكره في العهد القديم نادرٌ جدًّا، لا يتناسب مع أهميته العقدية، والسبب الحقيقي لندرة ذكر البعث واليوم الآخر في كتبهم الدينية، فلعلمهم بما أعد الله لهم من العقوبة، فهم ينفرون من ذكره، ويطمسون مواضعه. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

- **الشريعة اليهودية:**

كما رغبت اليهودية عن ملة إبراهيم في الإيمان والاعتقاد، رغبت عنها كذلك في الأحكام والشرائع. فإن ملة إبراهيم عليه السلام مبنيةٌ على رفع الحرج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨](١)، أما الشريعة اليهودية فقد آلت إلى جملة من الأغلال والآصار المضروبة على رقاب اليهود، بعضها عقوبة من الله، بسبب معاصيهم وتفريطهم في جنب الله، وبعضها من وضع أحبارهم وحاخاميمهم.

فأما الصنف الأول، فدل عليه قوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

وأما الصنف الثاني، فمما شددوا به على أنفسهم في باب الذبائح والأطعمة وغيرها (مما ليس له أصل عن موسى ولا هو في التوراة، وإنما هو من أوضاع

---

(١) قال ابن جرير رحمه الله: (نصب ملةَ، بمعنى: وما جعل عليكم في الدين من حرج، بل وسعه عليكم كملة أبيكم) تفسير الطبري: (١٧/ ٢٠٧).

الحاخاميم وآرائهم)[١]. ويُرجِع السموأل بن يحيى الأمر في تشديدهم الإصر على أنفسهم إلى سببين:

أحدهما: (...مبالغتهم في مضادة مذاهب الأمم حتى لا يختلطوا بهم، فيؤدي اختلاطهم بهم إلى خروجهم من دينهم...

والسبب الثاني: إذا قدم عليهم... أحد أحبار اليهود وعلمائهم فهنالك ترى العجب من الناموس الذي يعتمده، والسنن التي يحدثها ويلحقها بالفرائض، ولا يقدر أحدهم على الاعتراض عليه، فتراهم مستسلمين إليه، وهو يحتلب درَّهم ويجتلب -بحيله- درهمهم)[٢]. فصدق الله العليم بحالهم ومآلهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

---

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٤٤٩). وانظر: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود: غازي السعدي. (٦٥-٦٦).

(٢) إفحام اليهود: (١٧٥، ١٧٧).

ثانياً: النصرانية

بعث الله عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحًا منه، عيسى عليه السلام، إلى بني إسرائيل: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣].

أما مضمون دعوته ورسالته، فكما قيل للرسل من قبله، عبادة الله وتوحيده: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومع ما احتف بحمله ووضعه ومهده من آيات، وما أُيدت به رسالته بعد ذلك من معجزات، فإنه بشرٌ خالص البشرية، مخلوقٌ كما خلق آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وتلحقه صفات البشرية: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وكما كانت ولادته آية، كانت نجاته من أعدائه آية: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

- **مواقف الناس من عيسى ابن مريم عليه السلام ورسالته:**

انقسم الناس تجاه عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، عيسى عليه السلام، ثلاثة أقسام:

– قسم كفر به، وهم عتاة اليهود، وعادوه وكذبوه، ورموه وأمه بالبهتان العظيم، وسعوا في ذمه لدىٰ الحكام الرومان، وراموا صلبه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧].

– وقسمٌ آمن به وصدَّقه وناصره ودعا إلى دينه وشريعته، واحتمل الأذى الفظيع في سبيل ذلك، وهم الحواريون ومن تابعهم: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢، ٥٣].

فكانت نتيجة دعوته: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

– وقسم غلا فيه، ورفعه فوق منزلته التي أنزله الله إياها، وهي العبودية والرسالة، وبالغ في إطرائه، حتى خرج به من وصف البشرية إلى مرتبة الألوهية -والعياذ بالله-.

قال ابن كثير رحمه الله: (إن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تفرق أصحابه شيعًا بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة، وقد حكى الله مقالتهم في القرآن، ورد على كل فريق، فاستمروا كذلك قريبًا من ثلاثمئة سنة)(١).

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧).

- **حال النصارى بعد رفع المسيح:**

لا ريب أن حواريي المسيح عليه السلام، ومن تبعهم بإحسان، قد ساروا على سنن المرسلين، من توحيد رب العالمين، والعمل بشريعته المبلغة بالإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]. ولكن المصادر الدينية التي تؤرخ لتلك الحقبة المهمة قد صيغت وللأسف وفق اعتقاد ضُلَّال النصارى السائد اليوم.

ومن أقدم المصادر التي تصف حال الحواريين بعد رفع المسيح سفر «أعمال الرسل»(١)، وقد جاء فيه: (وكانوا يواظبون على تعليم الرسل، والمشاركة، وكسْر الخبز، والصلوات... وكان جميع الذين آمنوا جماعةً واحدة، يجعلون كل شيءٍ مشتركًا بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كل منهم. يلازمون الهيكل كل يومٍ بقلبٍ واحد... وكان الربُّ كل يوم يضم إلى الجماعة أولئك الذين ينالون الخلاص) ٢/ ٤٢-٤٧(٢).

ولعل أول خلافٍ نشأ بين أتباع المسيح عليه السلام، ليس حول شخص المسيح وطبيعته، وإنما حول دعوة الأمم من غير اليهود.

وكان أن عقد أول مجمع نصراني لمناقشة وضع المؤمنين من غير اليهود، تمخض عن القرار الآتي: (قد حسن لدى الروح القدس، ولدينا، ألا يلقى عليكم من الأعباء سوى ما لا بد منه، وهو اجتناب ذبائح الأصنام والدم والميتة والزنا، فإذا احترستم منها تحسنوا عملًا عافاكم الله) ١٥/ ٢٨-٢٩(٣).

---

(١) يُظن أن كاتب هذا السفر هو «لوقا» صاحب أحد الأناجيل الأربعة. انظر: مدخل إلى أعمال الرسل العهد الجديد (٣٧٢).

(٢) العهد الجديد: (٣٨٠).

(٣) العهد الجديد: (٤١٧).

فإن صح النقل فهذه أول بادرة لهجر الشريعة وقعت من النصارى، وما زالت تتفاقم حتى تحللوا من جميع الشرائع.

- **بولس وإفساد النصرانية:**

لقد استحالت النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام من دين توحيدي إلى نصرانية خداج مشوهة، رسم معالمها خصم عنيد للحواريين، كان يضطهد المؤمنين، من عتاة اليهود، اسمه شاول، فما لبث أن ادعى الإيمان بالمسيح، وتغلغل في خاصة أصحابه، وأحدث في دينه ما أفسده، وخرج به عن ملة إبراهيم، الإسلام، إلى أوضاعٍ شركية، ومقولاتٍ كفرية، وتحلل من الشريعة، وشق كلمة القوم، وطرح بينهم بذور الشقاق والافتراق، حتى ساد مذهبه وغلب على أتباع المسيح.

لقد كان ذلك الدعيُّ هو بولس. جاء في سفر أعمال الرسل: (أما شاول فما زال صدره ينفث تهديدًا وتقتيلًا لتلاميذ الرب... وبينما هو سائر، وقد اقترب من دمشق، إذا نورٌ من السماء قد سطع حوله فسقط إلى الأرض، وسمع صوتًا يقول له: شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا رب؟ قال: أنا يسوع الذي أنت تضطهده، ولكن قم فادخل المدينة، فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل) ٩/ ١-٦، وتمضي الأسطورة لتصنع منه قديسًا ممتلًا من الروح القدس -على حد تعبيرهم-(١) ويبدي نشاطًا ملحوظًا، وحماسًا وقَّادًا في نشر معتقده بين أبناء الأمم.

لقد كان واضحًا منذ البداية أن بولس ينتهج خطًّا مخالفًا لخط الحواريين ويتكلم بلغةٍ مشوبةٍ بمعتقداتٍ وأفكار غريبة عن الهدي النبوي للمسيح عليه

---

(١) العهد الجديد: (٣٩٦-٣٩٧).

السلام، كما يقر بذلك المعجبون به من نصارى اليوم. يقول جون لوريمر، أستاذ تاريخ الكنيسة بكلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة «بروتستانتي»: (يؤخذ من بعض الإشارات أنه كان يمزج في تعاليمه المسيحية بعضًا من الحكمة الوثنية، وربما نوعًا من الغنوسية⁽¹⁾، أو بعض الفلسفات اليونانية)⁽²⁾.

وسواءٌ كان «شاول» يهوديًّا حاقدًا تظاهر بالنصرانية ليفسدها، أم كان «بولس» متنصرًا متحمسًا ذا مواهب شخصية فذة، لم يستطِع أن يتخلص من آثار سابقة ولم يفقه دعوة المسيح وغاياتها، أيًّا كان الأمر، فقد أحدث شرخًا عظيمًا في مسيرة النصرانية، ونقلها نقلةً واسعة من ديانةٍ توحيدية إصلاحية موجهة إلى بني إسرائيل خاصة، إلى ديانةٍ أمشاج صبت فيها ثقافات شتى، في محاولته الرامية لاستيعاب الأمم الأخرى، عبر صياغات عقدية دخيلة، بلغة تفهمها الأمم الوثنية.

ومع ذلك تحوَّل النصارى الخلَّص السائرون على درب المسيح أمام التيار البولسي المتنامي إلى مجرد فرقة صغيرة صنفت فيما بعد ضمن الهراطقة، بعد أن وقفت موقفًا حازمًا واضحًا من تجاوزات بولس وتلاميذه.

يقول أفغراف سميرنوف: (في بادئ الأمر لم يكن لهذه العقيدة صفة هرطقة، لأن جميع المسيحيين من اليهود الموجودين في فلسطين كانوا يتممون حسب العادة المرعية ناموس موسى ويختتنون. ولكن... بعد خراب أورشليم عندما

---

(١) فلسفة صوفية. واسم علم على المذاهب الباطنية. غايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل، وبالوجد لا بالاستدلال. فهي المعرفة بالله التي يتناقلها المريدون سرًا... وتقول بإلهين: أحدهما كبير، خير، مفارق لا يدركه العقل، ولا يحيط به العلم... ولقد ظهر الغنوص أول ما ظهر في الأديان الفارسية... والمسيحية كما طرحها بولس الرسول دينًا غنوصيًا. واقتصر الغنوص فيها على المسيح وحده. الموسوعة الفلسفية (٢٩٦ -٢٩٧).

(٢) تاريخ الكنيسة: جون لوريمر، ترجمة فهيم عزيز. (١/ ٦٥).

لم يعد من الممكن المحافظة على ناموس موسى بحذافيره، فقِسْمُ المسيحيين من اليهود أعرض عن إتمامه بالكلية، وانضم إلى المسيحيين الذين من الوثنيين، وألفوا كنيسة في المدينة التي بنيت مكان أورشليم -إيليا كبيتولينا- ووافقوا على انتخاب أسقفٍ ليس من ذوي الختان.

أما حزب المسيحيين من اليهود المدافع عن إتمام الناموس الموسوي، فقد انفصل بحزمٍ عن الكنيسة، وألف جمعية منفصلة هرطوقية تمامًا...)(١).

وهكذا طويت صفحة هذه الفئة المؤمنة من أنصار المسيح الذين كانوا على ملة إبراهيم، وساد أنصار بولس. فحين جاء الإسلام كان ثمة بقايا من هؤلاء الموحِّدين من أهل الكتاب منتشرون في بعض الدِّيارات والصوامع، قد فارقوا المشركين الذين صارت لهم الدولة والغلبة. فما أعظم فرحتهم ببعثة محمد ﷺ! وما أشد بهجتهم بالقرآن! وقد وصف الله ذلك الفرج عليهم بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤].

- **الكتب المقدسة عند النصارى:**

إذا كانت الجماعة المؤمنة التي حملت دين المسيح بحق قد توارت عن الأنظار، حتىٰ التحق آخرها بدين الإسلام، فما مآل كتابها الذي آتاه الله نبيها،

---

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٨٥ -٨٧). ألفه باللغة الروسية أفغراف سميرنوف. تعريب: الكسندروس جحا. مطرانية الروم الأرثوذكس بحمص -سوريا. طبعة ١٩٦٤م. وقد منحه المجمع المقدم الروسي جائزة، وحبذه ليكون كتابًا مدرسيًا لطلبة الصفوف العالية -من المقدمة.

الإنجيل، ﴿هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]؟ فهل «الإنجيل»، الذي أنزله الله لا يزال موجودًا؟ وهل سلم من التحريف والزيادة والنقصان؟

إن النصارى اليوم يعترفون بـ«الكتاب المقدس» وهو يضم جزأين:

١ - العهد القديم: وقد سبق التعريف به، ونقده عند الحديث عن اليهودية.

٢- العهد الجديد: ويتكون من الأناجيل المنسوبة لأربعة من رواة سيرة المسيح عليه السلام، وهم: متَّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، تمثل أكثر من ثلث الكتاب، يعقبها سفر «أعمال الرسل»، يُظن أن كاتبه «لوقا»، ثم أربع عشرة رسالة موجهة إلى أهالي بعض المدن، وبعض الأفراد، وضعها «بولس»، تمثل قرابة ربع الكتاب، ثم مجموعة من الرسائل العامة لبعض قديسيهم؛ واحدة ليعقوب واثنتان لبطرس، وثلاث ليوحنا، وواحدة ليهوذا، وتختتم برؤيا يوحنا، فيكون مجموعها سبعة وعشرين سفرًا.

وهذه بعض الحقائق المتصلة بالكتب المقدسة لدى النصارى(١):

١ - المرجع الديني المكتوب، هو «العهد القديم» الذي يجمعهم مع اليهود.

٢- عيسى عليه السلام لم يقُم بإملاء نصٍ مكتوب هو «الإنجيل»، بل حُفِظا تعاليمه وأقواله عن طريق الحفظ في الصدور، وظل الأمر على هذه الصفة حتى منتصف القرن الثاني للميلاد، بعد انقراض جيل «الرسل».

٣- رسائل «بولس» هي التي حظيت بالاهتمام والدرس والتداول بين أتباع الكنائس خارج أورشليم، وكانت شهرتها وأثرها يفوق الإنجيل.

---

(١) انظر العهد الجديد: (٨ -٩).

٤- مسوغ اختيار الأناجيل الأربعة من بين سائر الأناجيل، هو أنها نالت انتباه الناس وصحة الشهادة التي تؤديها.

هذه نظرة ضلال النصارى إلى ظروف تكوين «العهد الجديد». وحقيقة الأمر أن الله تعالى علَّم عبده ونبيه عيسى الإنجيل كما علمه التوراة: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]. وهو عليه السلام قد بلَّغ رسالات ربِّه، وعلَّم حوارييه ما علمه ربُّه من الإنجيل، مميزًا إياه عن سائر مواعظه ووصاياه. وقد وُجِدت بالفعل نسخٌ متعددة من الأناجيل، بعضها منسوبٌ إلى كبار حوارييه كإنجيل بطرس، أو كبار الرسل كإنجيل برنابا، أو إلى طوائف معينة كإنجيل الناصريين(١)، وإنجيل الأبيونيين، وإنجيل العبرانيين، وإنجيل المصريين، وغيرها. ولكن أتباع بولس الذي نشَّؤوا المتنصرين من أبناء الأمم، غير اليهود، على رسائل بولس، أقصوا ما لا يتفق وتعاليمهم الشركية، ووصفوا تلك الأناجيل بأنها «منحولة»، واستبقوا ما يوافق أهواءهم، فكانت هذه الأربعة(٢).

إنه لمما يدعو للدهشة والاستغراب أن تُضَم رسائل بولس الأربع عشرة إلى قانون العهد الجديد، ولم يكن بولس أحد الحواريين الاثني عشر «الرسل»، ولم يلقَ المسيح، وتستبعد كتابات تلاميذ المسيح! لا سيما أن رسائل بولس تنحى منحًى مجافيًا لتعاليم المسيح وهديه.

---

(١) ناصري: لقب كان يطلق على المسيح نفسه، نسبة إلى الناصرة. وكان يوصف به أتباعه كما في القرآن. ونصارى اليوم يتنصلون منه، ويقصرون استعماله على المتهودين منهم. وقد تضمن سفر أعمال الرسل ٢٤/ ٥ إطلاقه عليهم، حيث وصف بولس في أثناء محاكمته لدى الحاكم الروماني فيلكس بأنه (أحد أئمة شيعة النصارى) وعلق المحشي بقوله: (هذه هي المرة الوحيدة التي يسمى فيها المسيحيون «نصارى» على مثال يسوع. العهد الجديد: (٤٤٢).

(٢) انظر: تاريخ الكنيسة المسيحية: (٧٧).

إن كنيسة أتباع بولس منذ عام ١٧٠م⁽١⁾ وحتى المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد في روما لعموم أساقفة الكاثوليك في الحقبة (١٩٦٢-١٩٦٥) وإلى ساعتنا هذه، تؤكد بجمودٍ وإصرار مصداقية هذه الأناجيل الأربعة، وتخلع عليها ألقاب القداسة والثقة، وتدعو إلى التشبث بها، فقد جاء في وثيقة المجمع «دستور عقائدي» في الفصل الخامس «العهد الجديد» ما نصه: (لا يغرب على أحدٍ أن الأناجيل تفضل حقًّا سائر الكتب المقدسة، كانت ما كانت، ولو من العهد الجديد، لأنها شاهد ما بعده شاهد على مخلصنا، لكلمة الله المتجسد: على سيرته وتعاليمه.

لقد عدَّت الكنيسة في كل مكان وفي كل زمان، أن الأناجيل الأربعة هي من وضع الرسل... أو بعض من أحاط بهم من المعاونين، مدونين إياه بوحي من الروح القدس...)⁽٢⁾.

إن هذا النص العقدي الذي نقلناه بكامله عن أحدث مجمعٍ من مجامع النصارى ليكشف عن حقائق مهمة تتعلق بالأناجيل المعتمدة عند النصارى:

١- أنهم يعترفون أنَّ أيًّا من هذه الأناجيل ليس كلام الله، لا حقيقة ولا مجازًا، وليس من إملاء المسيح عليه السلام ابتداءً، بل يسلِّمون -ولا يستطيعون غير ذلك- بأن تلك الأناجيل عمل بشري من وضع الرسل أو معاونيهم، شأنهم شأن أي مصنف كتاب، فهم مجرد رواة ومؤرخين: نقلوا، ودوَّنوا، وانتخلوا، ودمجوا، وشرحوا، وسطروا، وسجلوا، وركنوا، إلخ من الأفعال البشرية المسندة إلى بشرٍ عاديين.

---

(١) يرجح النصارى أن هذا التاريخ هو تاريخ اعتماد الأناجيل الأربعة قانونيًّا. انظر: تاريخ الكنيسة المسيحية (٧٧) مدخل إلى العهد الجديد (١٠٨)، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (٧٧-٧٨).

(٢) انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني دساتير -قرارات- بيانات: ترجمة الأب حنا فاخوري (١٣٤-١٣٦).

وغاية ما يبهرجون به هذه «المذكرات» أن يزعموا أنها تمت بوحيٍ من روح القدس، وتلك دعوى عريضة يلوح بها النصارى كثيرًا لتمرير بدعهم وإفكهم، فإذا كان «الروح القدس» ينزل على الحواريين الاثني عشر «الرسل عندهم» -أعمال الرسل ٢/ ١-٤[١]، وعلى قورنيليوس الوثني، قائد المئة، وأهل بيته في أثناء عظة بطرس -أعمال الرسل ١٠/ ٤٤-٤٦[٢]، وغير ذلك من مزاعم، فأي مزية لأنبياء الله على سائر البشر؟ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

إن الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام لا يمكن عقلًا أن يكون قصة حياته، وذهابه وإيابه، وقصة صلبه ودفنه -كما يزعمون-، وغاية ما تبلغ أن تكون بمنزلة «السيرة النبوية» أو «السنة النبوية» التي يشترط لقبولها صحة الإسناد، وفق معايير منضبطة. وبناءً عليه فليست هذه الأناجيل هي «الإنجيل» المنزل من عند الله، بل اكتسبت هذا الاسم الشريف ظلمًا وافتياتًا على الحقيقة، وعرفًا فاسدًا كما قال أ. تريكو A. Tricot في تعليقه على ترجمة للعهد الجديد: (منذ وقتٍ مبكرٍ جدًّا، منذ بداية القرن الثاني، استقر العرف على استخدام الكلمة «إنجيل» للإشارة إلى الكتب التي كان القديس جوستين في نحو ١٥٠ يسميها أيضًا «مذكرات الرسل «Memoirs of the Apostles»)[٣].

وحقيقة الأمر أن النصرانية البولسية طمست كتاب الله «الإنجيل»، واستعاضت عنه بهذه المرويات التاريخية لسيرة المسيح بعد أن لوثتها بتعاليم

---

(١) العهد الجديد: (٣٧٦).

(٢) العهد الجديد: (٤٠٣).

(٣) عن: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٧٧ -٧٨). ولم يسلِّم د. موريس بوكاي استنادًا إلى دراسات متخصصين كاثوليك وبروتستانت على وجود تلك الكتب في بداية القرن الثاني، وأقصى تاريخ ممكن هو ١٤٠م.

بولس الكفرية، وخلعت عليها لقب «الإنجيل». وهكذا يتضح باعتراف المجمع الفاتيكاني الثاني، أضخم مجمع مسكوني للنصارى منذ وجودهم، فقدان الكنيسة للإنجيل الأصلي الموحى به من الله إلى عيسى ابن مريم، ولو محرفًا كالتوراة. وتلك قاصمة الظهر.

٢- أنهم يعترفون أن واضعي هذه الأناجيل ليسوا جميعًا من تلاميذ المسيح. وتلك حقيقة تاريخية لا يملك النصارى إنكارها، وتمثل طعنًا في ثبوت ما تضمنته من أخبار بسبب انقطاع السند.

فأهم هذه الأناجيل وأولها في الترتيب لدى الكنيسة «إنجيل متى» المنسوب إلى أحد الحواريين. ويدور جدلٌ عميق بين دارسي العهد الجديد حول صحة نسبة الإنجيل إلى متى الحواري. وقد خلص د.موريس بوكاي إلى القول: (لنقل صراحة إنه لم يعد مقبولًا اليوم القول إنه أحد حواريي المسيح)(١)، كما أن مترجمه من العبرانية إلى اليونانية مجهول تمامًا.

أما إنجيل مرقص، وهو أقدمها من حيث الظهور التاريخي، وذلك بعد منتصف القرن الأول، ربما بين ٦٥-٧٠م(٢)، فليس مؤلفه من الحواريين قطعًا، لكنه تتلمذ لخاله «برنابا»، وثَمَّ خلاف بين مؤرخي النصرانية حول كاتبه الحقيقي أهو بطرس عن مرقص، أم هو مرقص بتوجيه من بطرس، أم مرقص بغير توجيه من بطرس(٣)! وهذا «الاضطراب» ولا ريب يوهن النسبة، فضلًا عن العيوب المتعلقة بالتحرير والسرد القصصي المضطرب(٤).

---

(١) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٣).

(٢) انظر: تاريخ الكنيسة: (٨٣)، والقرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٨).

(٣) انظر: محاضرات في النصرانية: (٤٧)، وإظهار الحق: (١/ ١٥٢).

(٤) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٨).

أما إنجيل «لوقا» فقد ظهر بعد مرقص وقبل متى، ولوقا طبيب أنطاكي وليس من الحواريين، ولا من تلاميذ الحواريين، بل هو تلميذ لبولس صحبه في بعض أسفاره.

أما إنجيل «يوحنا» فآخرها ظهورًا، ويختلف عن الثلاثة السابقة اختلافًا بيِّنًا في ترتيبه وأسلوبه، بل ومضامينه العقدية، حيث إنه الإنجيل الوحيد الذي صرح بألوهية المسيح. والنصارى ينسبونه إلى الحواري يوحنا بن زبدي الصياد، حِبّ المسيح عليه السلام -كما تحكي كتبهم-، ولكن هذه النسبة أيضًا محل خلاف(١)، فلا يخلو الأمر من أن يكون قد كتبه «يوحنا» آخر، ويؤيد هذا تأخر ظهوره رغم نسبته إلى أحد الحواريين، أو أن يكون وضع أصله يوحنا الحواري ثم دُسَّ فيه إضافات ليست منه(٢).

وعلى كلا الاحتمالين فالباعث الرئيس لاعتماده قانونيًّا، وربما لتأليفه، إدراج عقيدة ألوهية المسيح في الأناجيل، بسبب خلو الثلاثة السابقة منها، إذ كيف يعقل أن تهمل الأناجيل هذه العقيدة البولسية الأساسية؟!

وبهذا تسقط نسبة الديانة النصرانية إلى سنة عيسى عليه السلام الشفهية، كما سقطت نسبتها إلى كتاب الله الإنجيل. وحُقَّ لنا أن نقول: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]. فلا وحي ولا أثر.

وهكذا حجب النصارى عن نور الحق، وانقطعت صلتهم بمشكاة النبوة المضيئة بسبب مكر بولس وأتباعه الذين غيبوا الإنجيل الحق، واستعاضوا عنه برسائل بولس الكفرية.

---

(١) انظر القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٩٤).

(٢) انظر: إظهار الحق: (١/ ١٥٤ -١٥٧).

- **العقائد النصرانية:**

أدخل بولس جملة من العقائد الوثنية المستمدة من عقائد الأمم الكافرة، على النصارى، متخذًا من شخص المسيح عليه السلام مظهرًا لتلك العقائد، وفصل النصارى عن شريعة موسى عليه السلام التي جاء عيسى عليه السلام متممًا لها، لا ناقضًا، حتى فسخهم منها.

وقد جُوبه في العقود الأولى التالية لرفع المسيح برفضٍ من الحواريين وكبار التلاميذ بعد أن تكشَّف لهم فساد طويته ومذهبه. وقد كان من أوائل الدعاة «الرسل» الذين تبينوا أمره «برنابا»، ولهذا ورد في الكتاب المنسوب إلى برنابا في مقدمته ذكر الذين أضلهم الشيطان بدعوى بنوة المسيح لله، وترك الختان: (الذين ضل في عدادهم أيضًا بولص)(١). وفي آخر فصلٍ منه: (وآخرون بشروا ولا يزالون يبشرون بأن يسوع هو ابن الله. وقد خدع في عدادهم بولص) ٥/ ٢٢٢(٢).

وثم إنجيل آخر يسمى الأغنسطي ينسج على نفس المنوال في مقدمته وخاتمته في التنديد ببولس(٣). كما أن قارئ رسائل بولس يلمس بوضوح الروح العدائية التي كان يواجه بها بولس من قبل أتباع المسيح أينما توجه، مما يحمله على النيل منهم، ومحاولة إثبات استقلاله عنهم بكونه تلقى عن المسيح مباشرة -رغم أنه لم يلقه-.

- ففي رسالته إلى أهل غلاطية يصدرها بقوله: (من بولص وهو رسول... هناك قوم يلقون البلبلة بينكم، وبغيتهم أن يبدلوا بشارة المسيح... فأعلمكم أيها

---

(١) إنجيل برنابا: ترجمة: د. خليل سعادة. تحقيق: سيف الله أحمد فاضل (٣٨).

(٢) إنجيل برنابا: (٢٩٧).

(٣) انظر: مقدمة مترجم «إنجيل برنابا» د. خليل سعادة: (٢٧).

الإخوة بأن البشارة التي بشرت بها ليست على سنة البشر، لأني ما تلقيتها ولا أخذتها عن إنسان، بل بوحي من يسوع المسيح) ١/ ١-٢، ٦-٧، ١١-١٢⁽¹⁾. فهو هنا يشير إلى نوعين من البشارة موجهتين إلى نصارى ذوي كنائس، ويشير إلى مخالفين له يبلبلون تعاليمه. ويؤكد أنه يتلقى الوحي مباشرة من المسيح، فليس بحاجة إلى مرجعية الحواريين.

وأخطر العقائد الكفرية التي دسها بولس في الإيمان النصراني ثم صارت مع مرور الزمن أركان العقيدة النصرانية، ما يأتي:

أولًا: دعوىٰ ألوهية المسيح وربوبيته:

- (في البدء كان الكلمة. والكلمة كانت لدى الله. والكلمة هو الله) إنجيل يوحنا ١/ ١⁽²⁾.

- (وهو فوق كل شيء إلهٌ مبارك أبد الدهور) رسالة بولس إلى أهل رومة ٩/ ٥⁽³⁾.

- (ولا يستطيع أحدٌ أن يقول: «يسوع ربٌّ» إلا بإلهامٍ من الروح القدس) رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنتس ١٢/ ٣⁽⁴⁾.

- (فليعلم يقينًا بيت إسرائيل أجمع، أن يسوع هذا الذي صلبتموه، قد جعله الله ربًّا ومسيحًا) أعمال الرسل ٢/ ٣٦⁽⁵⁾.

---

(١) العهد الجديد: (٥٧٢ -٥٧٣). وانظر أيضًا (٥٧).

(٢) العهد الجديد: (٢٨٩).

(٣) العهد الجديد: (٤٨٧).

(٤) العهد الجديد: (٥٢٨).

(٥) العهد الجديد: (٣٧٩).

- (فدنوا منه، وأيقظوه، وقالوا له: يا رب نجنا لقد هلكنا) إنجيل متى ٨/ ٢٥[١].

والأناجيل الأربعة تعج بوصف المسيح بـ«الرب» ومناداته بذلك بما يشق حصره.

ثانيًا: دعوىٰ بنوة المسيح:

- (... فقال لهم: ومن أنا في قولكم أنتم؟ فأجاب سمعان بطرس: أنت المسيح ابن الله الحي. فأجابه يسوع: طوبى لك يا سمعان بن يونا، فليس اللحم والدم كشفا لك هذا، بل أبي الذي في السماوات) إنجيل متى: ١٦/ ١٥-١٧[٢].

- (فقال له عظيم الكهنة: أستحلفك بالله الحي لتقولن لنا، هل أنت المسيح ابن الله؟ فقال له يسوع: هو ما تقول) إنجيل متى ٢٦/ ٦٣٦٤[٣].

- (لأنهم يصلبون ابن الله ثانية) رسالة بولس إلى العبرانيين ٦/ ٦[٤].

ثالثًا: مقالة التثليث:

- (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم: الآب والابن والروح القدس) إنجيل متى ٢٨/ ١٩[٥].

إن هذه العقائد الثلاث: ألوهية المسيح وبنوته لله والثالوث الأقدس، عقائد متلازمة:

---

(١) العهد الجديد: (٥٩).

(٢) العهد الجديد: (٨٢ -٨٣).

(٣) العهد الجديد: (١١٢)، وانظر العهد الجديد: (٥٩)، (١٧٣).

(٤) العهد الجديد: (٧٠٢).

(٥) العهد الجديد: (١١٩).

(فالمسيحيون يعدون أن شخص يسوع البشري هو «ابن» الله الذي يشترك مع الله «الآب» في الألوهية والأزلية. وفي إنجيل يوحنا ١/ ١-١٨ أن يسوع هو كلمة الله الأزلية... التي صارت جسدًا -أي كائنًا إنسيًّا -فعاش يسوع إنسانًا مملوءًا نعمةً وحقًّا، مُظهِرًا للعالم المجد الذي حل به لكونه «الابن» الوحيد لله «الآب».

وعلى هذا الأساس... فإن المسيحية تعد الله «ثالوثًا أقدسًا» غير قابلٍ للتجزئة، تتوحد فيه ثلاثة أقانيم إلهية -باليونانية Hypostasis مادة طبيعية، ماهية- وهذه الأقانيم الثلاثة هي «الأب» وهو الله المنزه؛ و«الابن» وهو الله المتمثل بالمسيح؛ والروح القدس وهو «الرب المحيي» الذي يمثل الوساطة الإلهية في الكون، التي تكلمت تاريخيًّا على ألسنة الأنبياء من بني إسرائيل، والتي تستمر في التبيان عن نفسها من خلال «شركة القديسين»، مشكلة بذلك الرابطة الأبدية بين الإلهي والإنساني على الأرض)(١).

لعل هذه الصياغة الحديثة للعقائد الثلاث السابقة تحاول جاهدة أن تجلي الغموض الذي يكتنف النصوص النصرانية القديمة حول عقيدة التثليث، وحقيقة الأمر -مهما حاول النصارى قديمًا وحديثًا أن يتنصلوا من هذه الحقيقة الدامغة- أنهم يثبتون ثلاثة آلهة منفصلة، ويخلعون على كلٍّ منها خصائص الألوهية والربوبية، ولا تغني عنهم مماحكتُهم اللفظية الممتنعة ببداهة العقول، كقولهم: الآب والابن وروح القدس إلهٌ واحد. تثليث في وحدة، ووحدة في تثليث.

فها هو ذا يوحنا يقول في إنجيله: (فكما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم. فكذلك الابن يحيي من يشاء. لأن الآب لا يدين أحدًا، بل جعل القضاء كله للابن) ٥/ ٢١-٢٢(٢).

---

(١) المسيحية في العالم العربي: (١٦).

(٢) العهد الجديد: (٣٠٢).

فأين القوم من توحيد الربوبية، بل توحيد الألوهية والعبادة؟!

وقد كفَّر الله النصارى بهذه المقالة الفاجرة التي لا تصدر إلا ممن لم يقدر الله حقَّ قدره، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وكرر تكفيرهم، وأقام عليهم الحجة البالغة من قول المسيح نفسه، وحكمه على من وقع منه ذلك، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وأما دعوى البنوة فمهما حاولوا تصويرها تصويرًا فلسفيًّا للنأي بها عن صورة الولادة البشرية، فإن مجرد نسبة الولد لله فرية عظيمة مهولة لا انفكاك لهم عن عارها وشؤمها. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

وأما أسطورة «التثليث» بقولهم: «إن الله ثالث ثلاثة» فمن أعظم أسباب شقاء القوم. فهم يعجزون عن تقريرها بعبارة معقولة مقبولة، ويقرون بذلك(١)، فيفرون إلى ما ينافي العقل، وبئس المفر، فإن النصوص الشرعية الصحيحة قد

---

(١) نقل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله عن أحد مصنفيهم بعد تقريره عقيدة التثليث قوله: (قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهمًا أكثر جلاءً في المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات والأرض) محاضرات في النصرانية: (١٠٣).

تأتي بمحارات العقول، ولكنها لا تأتي بمحالات العقول(١). فالعقل يحار ويكل عن إدراك كيفية ما أخبر الله به عن نفسه، أو أحوال اليوم الآخر، لكنه لا يحكم باستحالة ذلك. يحكم قطعًا بأن التوحيد ينافي التثليث. قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر تفرقهم إلى ملكية ويعقوبية ونسطورية: (وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتحدا أو ما اتحدا، بل امتزجا، أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات. وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى. ونحن نكفر الثلاثة)(٢).

ولما كانت خرافة التثليث من أسفه المقالات، زجرهم الله زجر السفهاء الذين يلقنون الحق، ولا يُنظر في قولهم لتفاهته، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢].

وقد أقام الله دليلًا عقليًّا، قاطعًا لمقالة مدعي الولد ومشركي الألوهية، فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال ابن القيم رحمه الله: (إن هذه الأمة ارتكبت محظورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقلٍ ولا معرفة:

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل: (٥/ ٢٩٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٩).

أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق، وجزءًا منه، وإلهًا آخر معه، وأنفوا أن يكون عبدًا له.

والثاني: تنقُّصُ الخالق وسبُّه ورميه بالعظائم... وبالجملة فلا نعلم أمة من الأمم سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة. كما قال عمر: إنهم سبوا الله مسبَّةً ما سبه إياها أحدٌ من البشر)(١)، يريد اعتقادهم أن عيسى هو الله مع ما وقع له من حملٍ ووضعٍ ورضاعٍ وسائر صفات البشر ثم ما وقع عليه من إهانةٍ ولطمٍ وبصق وصلبٍ في زعمهم.

رابعًا: أسطورة الخطيئة والتكفير والخلاص بالصلب والفداء:

- (هو وسيط لعهد جديد، بوصية جديدة، حتى إذا مات فداءً للمعاصي المرتكبة في العهد الأول نال المدعوون الميراث الأبدي الموعود، لأنه حيث تكون الوصية فلا بد أن يثبت موت الموصي... إنه لم يظهر إلا مرةً واحدة في نهاية العالم ليزيل الخطيئة بذبيحة نفسه... قُرِّب مرة واحدة ليزيل خطايا جماعة الناس، وسيظهر ثانية بمعزل عن الخطيئة للذين ينتظرونه للخلاص) رسالة بولس إلى العبرانيين ٩/ ١٥-١٦، ٢٦، ٢٨(٢).

إن هذه العقائد المتلازمة من سريان خطيئة آدم إلى ذريته، وحصول التكفير والخلاص بافتداء المسيح نفسه عن البشرية على خشبة الصليب، منظومة فلسفية وضعها بولس وأقام عليها سوق النصرانية. ومع أن الأناجيل الأربعة تفيض في ذكر حادثة الصلب المزعومة، بما يجعلها من المعلوم عندهم بالضرورة، إلا أنها

---

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٣٩٧ -٣٩٨).

(٢) العهد الجديد: (٧٠٨)، وانظر نفس المصدر (٤٧٢ -٤٧٣)، (٤٧٨)، (٥٩٢).

تعرضها عرضًا مأساويًّا محزنًا، وتظهر المسيح ضحية لخيانة يهوذا الإسخريوطي، وليس بطلًا فدائيًّا يقوم بمهمة شريفة سامية كما يصور بولس في رسائله[1]، ويقررها أتباعه على النحو الآتي: (محبة الله ظهرت في تدبيره طريق الخلاص للعالم، لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة. ولكن الله من فرط محبته، وفيض نعمته، رأى أن يقربه إليه بعد هذا الابتعاد، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم، ليخلص العالم... وقد كان التكفير الذي قام به المسيح هو الصلب، ولهذا صُلب، ورضي الله عن صلبه، وهو ابنه، ودفن بعد الصلب، ولكنه قام بعد ثلاثة أيامٍ من قبره)[2].

وكل هذا مما أدخله بولس على دين المسيح، وأفسد به أهل ملته، وابتدعه من عند نفسه. وهو طعن في عدل الله سبحانه وحكمته، فكيف يؤخذ اللاحق بجريرة السابق؟ ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ - ٣٩]. فكيف إذا كانت خطيئة آدم عليه السلام مغفورة، وصاحبها مجتبًى مَهْديًّا: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]. وثالثًا: كيف إذا لم يكن عيسى عليه السلام قد صلب: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨][3].

---

(١) انظر: متى (٢٧/ ١١ -٦١)، مرقس (١٥/ ١ -٤٧) لوقا (٢٣/ ١ -٤٩)، يوحنا (١٨/ ٢٨ -٣٧).

(٢) محاضرات في النصرانية: (١٠٧).

(٣) وانظر في إبطال عقيدة الصلب والفداء: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٢/ ١٠٨ -١١٦).

خامسًا: دعوى دينونة المسيح:

- (وإذا جاء ابن الإنسان في مجده، تواكبه جميع الملائكة، يجلس على عرش مجده، وتحشر لديه جميع الأمم، ويفصل بعضهم عن بعض كما يفصل الراعي الخراف عن الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن شماله، ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا من باركهم أبي، فرثوا الملكوت المعد لكم منذ إنشاء العالم... ثم يقول للذين عن الشمال: إليكم عني أيها الملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته... فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبدي، والأبرار إلى الحياة الأبدية) إنجيل متى ٢٥/ ٣١-٣٤، ٤١، ٤٦[1].

فهذا النصُّ الصريح من رسائل بولس يكشف عن اعتقاد النصارى: أن الذي سيتولى الفصل بين الخلائق يوم القيامة والجزاء على الأعمال هو المسيح وليس ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤]. وهذا من شركهم في الربوبية، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٥ - ١٧].

وهذه العقائد النصرانية التي أدخلها بولس، مستمدةٌ في الواقع من النحل الوثنية، كما أخبر سبحانه: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]. قال ابن القيم رحمه الله: (ثم أخذ دين المسيح في التبدل والتغير، حتى تناسخ واضمحل، ولم يبقَ بأيدي النصارى منه شيء، بل ركَّبوا دينًا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عبّاد الأصنام، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى

---

(١) العهد الجديد: (١٠٧)، وانظر إنجيل يوحنا ٥/ ٢٥ - ٢٨، والعهد الجديد: (٣٠٢ -٣٠٣).

يدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا أصل لها، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل، إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس)⁽¹⁾.

وقد اعتنى بعض المعاصرين الحاذقين بالتنظير بين العقائد النصرانية والعقائد الوثنية، والمقابلة بينهما بما يكشف كشفًا جليًّا عن مضاهاة بولس لقول الذين كفروا من قبل، واستمداده منهم⁽²⁾.

• المجامع النصرانية:

ظلَّ الصراع قائمًا بين أتباع المسيح وأتباع بولس، وكان الظهور للمؤمنين الموحدين حتى عام ٧٠م حين حصار أورشليم من قبل الرومان، وفتكهم بأهلها من اليهود، وحيث إن أتباع المسيح كانوا متمسكين بالناموس الموسوي فقد بدوا في أعين الرومان يهودًا فتعرضوا للاضطهاد والشتات، في حين بدا البولسيون مجافين للمظاهر اليهودية فساعد ذلك في تمكينهم، ومع ذلك فقد احتاج أتباع بولس إلى عدة قرون لخلخلة العقائد الصحيحة، وزرع العقائد الوثنية في أجيال النصارى. ونظرًا للاضطهاد العام الذي لقيه النصارى في أرجاء الدولة الرومانية وتخفي علمائهم، وصعوبة التواصل بينهم، فقد حال ذلك دون كشف الشبهات، ومقاومة العقائد الدخيلة، فضلُّوا ضلالًا بعيدًا. ولما اطمأن القوم في مطلع القرن الرابع وتنفسوا الصعداء، وجهروا بما يعتقدون، تكشَّف الحال عن خلافٍ عريض،

---

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٣٨٤).

(٢) انظر كتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية: لمحمد بن طاهر البيروتي، تحقيق: د. محمد بن عبد الله الشرقاوي. وانظر أيضًا: محاضرات في النصرانية: (٣٣-٣٩).

وانقسام عميق، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فلا يجمعهم سوى مجرد الاسم، وفوجئ الإمبراطور الروماني قسطنطين لما اعتنق النصرانية عام ٣١٢م بهذا التشرذم، فأراد أن يجمع كلمتهم في مجمع يضم رؤوسهم، مفتتحًا بذلك سلسلة من المجامع المتعاقبة لتقرير العقيدة النصرانية، ونبذ ما يخالفها.

مجمع نيقية:

هو أول مجمع مسكوني، وقد دعا إليه الإمبراطور قسطنطين، فعُقِد في مدينة نيقية في شهر مايو عام ٣٢٥، وحضره ألفان وثمانمئة وأربعون أسقفًا، لمناقشة عقيدة آريوس، وهو كاهن في كنيسة الإسكندرية، أنكر إنكارًا شديدًا أن يكون «ابن الله» مساويًا لـ«الأب» في الجوهر. (وحظيت هذه العقيدة الأريوسية وما رافقها من تعاليم، بالقبول السهل لدى جماعات مسيحية في أرجاء مختلفة من العالم الروماني، وما يحيط به من مناطق، وأفضى هذا إلى بدعة حظيت بانتشار شعبيٍ واسع، فهددت وحدة الكنيسة كما لم تُهدَّد من قبل. وقد جعلت هذه البدعة من «الابن» في الثالوث الأقدس، وكذلك ضمنيًّا من الروح القدس، وسيطَينِ للآب، وكائنَينِ مخلوقينِ، الأمر الذي حول المسيحية إلى نوعٍ متطور من الإيمان اليهودي، يجعل الآب هو الله الخالق وهو وحده الأبدي. لكن المذهب الآريوسي أقر في الوقت نفسه الماهية الإلهية للابن وللروح القدس في الثالوث، وبذلك خرج عن مبدأ التوحيد، إذ جاء في الواقع معترفًا بثلاثةِ آلهةٍ: واحد أولي واثنين ثانويين)(١).

وكان هذا الحشد الكبير من الأساقفة يمثلون طوائف شتى متباينة الأقوال في أصول الإيمان، فأتاح لهم قسطنطين أن يتناظروا ويتجادلوا، وشارك في تلك المناقشات آريوس نفسه، ثم جنح قسطنطين إلى مقالة أتباع بولس القائلين بتأليه

---

(١) المسيحية في العالم العربي: (٣٩).

المسيح وعددهم ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفًا فقط (أي: ٥ , ١٥٪ من المجتمعين) واستبعد من سواهم، وفوضهم أن يصوغوا قانونًا للإيمان يحمل عليه الجميع ويبدع من لم يقُل به، فكان مجمع نيقية الذي تمخض عن (قانون الإيمان النيقاوي) أو ما يسميه النصارى العرب (الأمانة الكبرى)(١)، ونصها المعدل بعد مجمع القسطنطينية الأول المنعقد عام ٣٨١م ما يأتي:

(أنا أومن: (١) بإلهٍ واحدٍ آب قادر على كل شيء، خالق السماء والأرض، وكل ما يرى ولا يرى. (٢) وبرب واحدٍ يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب، قبل كل الدهور، نور من نور، إلهٌ حق من إلهٍ حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، هو الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء، وصار إنسانًا. وصلب عنا في عهد بيلاطس البنطي، وتألم وقبر وقام أيضًا في اليوم الثالث، على ما في الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء، وهو جالس عن يمين الآب. وسيأتي أيضًا بمجدٍ ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه نهاية. (٣) وأومن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب (والابن)(٢)، المسجود له، والممجد مع الآب والابن، الذي تكلم بالأنبياء. (٤) وأعتقد بكنيسة واحدة رسولية. (٥) وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. (٦) وأنتظر قيامة الموتى. (٧) وحياة الدهر الآتي)(٣).

وسواء كان آريوس موحدًا حقًّا، أو جاء بتوحيد مهجن من توحيد اليهود وتثليث النصارى، فقد انقرض مذهبه تحت حملات الإرهاب البولسي المدعوم بسيف الإمبراطور.

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله: (التي هي الخيانة الحقيرة) (٢/ ٤٨).

(٢) هذه اللفظة (الابن) أدخلت على النص اللاتيني دون اليوناني لاحقًا، وصارت مدعاة للخلاف أيضًا.

(٣) أخذ نَصُّها من: المسيحية في العالم العربي: (٤٢ -٤٣).

(وقد أمر قسطنطين في الرسالة التي وجهها بعد المجمع إلى جميع الأساقفة والشعوب أن تحرق تآليف آري -أي آريوس- ويهدد بالموت كل من يخفيها)(١). فاندثرت مقالة آريوس وسائر المقالات الأخرى التي لا تتوافق مع قانون الإيمان النيقاوي. قال ابن القيم رحمه الله: (وكل مجامعهم كانت تجتمع على الضَّلال وتفترق على اللعن(٢)).

- **الشريعة عند النصارى:**

جاء عيسى عليه السلام مصدقًا لما بين يديه من التوراة، ومتممًا لشريعة موسى، ومخففًا عن بني إسرائيل بعض ما جُوزوا به -كما تقدم- ولم يأتِ ناقضًا لشريعة بني إسرائيل التي أودعها الله في التوراة، وحكم بها النبيون الذين أسلموا -وهو أحدهم- للذين هادوا. وقد جاء في إنجيل يوحنا أنه قال: (لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء: ما جئت لأبطل، بل لأُكْمل) ٥/ ١٧-١٩.

وهكذا كان الحواريون وكبار التلاميذ محافظين على الناموس، ملتزمين بالشريعة الظاهرة التي عليها قومهم بنو إسرائيل، حتى أجلب عليهم بولس في شأن المتنصرين من الوثنيين، وطالب بإعفائهم من الختان وأحكام الشريعة، سوى ذبائح الأصنام، والدم، والميتة، والزنى. أعمال الرسل ١٥/ ٢٣-٢٩، ولم يزل يهون من شأن الشريعة حتى أبطلها بعقيدة الصلب والفداء؛ ذلك أنه لم يكتفِ باتخاذ هذه العقيدة تكفيرًا وخلاصًا من خطيئة آدم الموروثة -بزعمه-، بل جعل منها بزخرف القول، وتشقيق الكلام، ذريعة للتحلل من أحكام الشريعة.

---

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية (٢٢٨).

(٢) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان: (٢/ ٣٨٩، ٣٩٥).

لقد أرسى بولس عقيدة «الإرجاء» لدى النصارى، الذي يجعل الإيمان مجرد المعرفة، وفق الفلسفة الآتية: البشر مرتهنون بخطيئة أبيهم آدم. وقد أعطى الله لإبراهيم عهدًا بالخلاص لذريته من بني إسرائيل لقاء التزام أحكام الشريعة، فمن خالفها فهو ملعون. وعليه فأهل العمل بأحكام الشريعة -فضلًا عن الوثنيين- في حكم اللعنة. والعمل الخلاصي الذي قام به المسيح هو أنه قَبِل ميتة الملعون، وصار لعنةً من أجل البشر ليحررهم من لعنة الشريعة الناتجة عن الخطيئة، ودفع حياته ثمنًا لهذا الخلاص فصار مجرد الإيمان بيسوع من يهودي أو وثني؛ مختون أو غير مختون، هو سبب الخلاص دون العمل بأحكام الشريعة. فالإيمان يفتح قلب الإنسان على الحياة التي في المسيح والشريعة تحبسه في الخطيئة وتتركه في اللعنة. وبذلك يتسع العهد الخلاصي الممنوح لذرية إبراهيم -فرع إسحاق- ليشمل جميع البشر ببركة الإيمان بالمسيح وحسب(١).

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]. هذا هو الأساس النظري لتنصلهم من الشريعة، وقد ساعد على ذلك ما وقع عليهم من اليهود من اضطهادٍ ومضارَّة، فأرادوا مفاصلتهم والخروج عن شعارهم الظاهر، كيدًا وتشفيًا. قال ابن القيم رحمه الله: (... أخذ القوم في التغيير والتبديل والتقرب إلى الناس بما يهوون، ومكايدة اليهود ومناقضتهم بما فيه ترك دين المسيح والانسلاخ منه جملة. فرأوا اليهود قد قالوا في المسيح: إنه ساحر مجنون ممخرق ولد زنية. فقالوا: هو إله تام وهو ابن الله. ورأوا اليهود يختتنون فتركوا الختان. ورأوهم يبالغون في الطهارة فتركوها جملة. ورأوهم يتجنبون مؤاكلة الحائض وملامستها ومخالطتها جملة

---

(١) انظر العهد الجديد: (٥٧٧ -٥٧٨).

فجامعوها. ورأوهم يحرمون الخنزير فأباحوه، وجعلوه شعار دينهم. ورأوهم يحرمون كثيرًا من الذبائح والحيوان فأباحوا ما دون الفيل إلى البعوضة، وقالوا: كل ما شئت ودع ما شئت لا حرج. ورأوهم يستقبلون بيت المقدس في الصلاة فاستقبلوا هم الشرق. ورأوهم يحرمون على الله نسخ شريعة شرعها فجوزوا هم لأساقفتهم وبتاركتهم أن ينسخوا ما شاؤوا ويحللوا ما شاؤوا. ورأوهم يحرمون السبت ويحفظونه، فحرموا هم الأحد، وأحلوا السبت، مع إقرارهم بأن المسيح كان يحرم السبت ويحفظه... فذهبت النصارى تنقضها شريعة شريعة في مكايدة اليهود ومغايظتهم)⁽¹⁾.

• الطقوس البدعية الكهنوتية عند النصارى:

استعاض النصارى من أتباع بولس بالعبادات الشرعية، طقوسًا وثنية يسمونها «الأسرار الكنسية» ويعرِّفونها بأنها: (أعمال مقدسة تمنح بواسطتها بصورة غير منظورة نعمة الله التي تعيد وتجدد وتقدس الإنسان الذي يقبلها...)⁽²⁾.

وهذه الأسرار المزعومة سبعة، ثلاثة أصلية، وأربعة ملحقة:

(١) سر المعمودية أو العماد: وهو غمس الجسم «تغطيسه» في الماء، أو غسله أو رشه ثلاث مرات -على خلاف بين مذاهبهم- ثم مسحه بالزيت المقدس «الميرون» باسم الآب والابن والروح القدس، بغرض تطهير طالب الدخول في النصرانية، أو الطفل المولود لأبوين نصرانيين من الخطيئة الأصلية، خطيئة آدم، وغفران جميع الخطايا.

---

(١) هداية الحيارى:(٢٦٦).

(٢) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٨١ -٨٢).

(٢) سر القربان المقدس «العشاء الرباني»: حيث يقوم الكاهن من أسقفٍ أو قسيس بتقديس خبزٍ وخمر ليأكله الجمهور بعد استدعاء الروح القدس، على التقدمة، فالخبز يصبح بمنزلة جسد المسيح، والخمر دمه، حقيقة! ويسمى أيضًا «سر الشكر» «الأفخاريستيا».

(٣) سر السيامة: وهي انتقال سلطة يسوع الروحية التي وهبها -بزعمهم- للرسل من جيلٍ إلى جيل لقيادة الكنيسة عن طريق «وضع الأيدي» على الرؤوس، فحينئذٍ تسري «الخلافة الرسولية» في الرتب الكنسية الثلاث: الأسقفية، والمشيخة أو القسوسية، والشَّمَّاسية. وهذا السر هو ما يميز رجال الدين النصارى «الأكليروس» عن العلمانيين، أي المؤمنين العاديين. فهذه الأسرار الثلاثة أصلية قديمة.

وأما الفرعية فمنها:

سر الإماتة أو الغفران: وهو نيل الغفران والتكفير عن الخطيئة بالاعتراف أمام الكاهن. ويلتحق به سر الصلاة على المحتضر «الطقوس الأخيرة» لتحقيق الغفران أيضًا.

- **إنجيل برنابا:**

وقد جدد الله إقامة الحجة على النصارى في القرون الأخيرة حين اكتشفت نسخة تامة وحيدة من كتاب لأحد كبار تلاميذ المسيح المخلصين، وهو «برنابا»، وذلك في مطلع القرن الثامن عشر، عرفت باسم «إنجيل برنابا»(١).

---

(١) انظر في قصة العثور عليها: مقدمة المترجم لها الدكتور خليل سعادة في كتاب إنجيل برنابا: (١٧ - ٢٠).

والكاتب لم يزعم أن ما كتبه هو «الإنجيل» المنزل من عند الله، رغم أنه كُتب على طرته: الإنجيل الصحيح لعيسى المسمى المسيح[١]. وغاية ما ذكر أنه حكى في الفصل الحادي والعشرين بعد المائتين، الفصل قبل الأخير، ما يأتي: (والتفت يسوع إلى الذي يكتب وقال: يا برنابا عليك أن تكتب إنجيلي حتمًا، وما حدث في شأني مدة وجودي في العالم، واكتب أيضًا ما حل بيهوذا[٢]، ليزول انخداع المؤمنين ويصدق كل أحد الحق. حينئذٍ أجاب الذي يكتب: إني لفاعلٌ ذلك إن شاء الله يا معلم...)[٣] ١٢١/ ١-٣.

فالكاتب قد كتب في هذا الكتاب بأسلوبٍ إيماني مشرق، ووضوح تام وحميَّة صادقة، تُشعِر القارئ أن كاتبه يقبس من مشكاة النبوة، وقد أفصح برنابا رضي الله عنه في مفتتح كتابه وختامه بنفرته مما أحدثه بولس وأشياعه من كفر وضلال، فاستهل بالخطبة الآتية: (برنابا رسول يسوع الناصري المسمى المسيح يتمنى لجميع سكان الأرض سلامًا وعزاءً. أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب[٤] قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعاليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به

---

[١] المرجع السابق: (٣٧).

[٢] يهوذا الإسخريوطي: أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، باع معلمه بثلاثين من الفضة، فصار اسمه عنوانًا للخيانة. شنق نفسه يأسًا. المنجد في الأعلام (٧٥٢) هكذا عند النصارى، والصحيح أن الله ألقى شبه المسيح عليه، فشبه لهم وصلبوه، وأما المسيح عليه السلام فما قتلوه وما صلبوه، بل رفعه الله إليه.

[٣] المرجع السابق: (٢٩٦).

[٤] هكذا جاء في النص المترجم. ومعلومٌ أن هذا اللفظ ليس من «الأسماء الحسنى»، ولعل ترجمته الصحيحة: «القدير» كما سيدل عليه نص لاحق: (٢١٦/ ٣).

الله دائمًا، مجوزين كل لحم نجس، الذين ضل في عدادهم أيضًا بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته في أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله. وعليه فاحذروا كل أحدٍ يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصًا أبديًّا. وليكن الله العظيم معكم، وليحرسكم من الشيطان ومن كل شر. آمين)[1] ١-١٠، فهذا هو الباعث على تأليف هذا الكتاب. وفي آخر فصلٍ منه يختتم بما يأتي: (وبعد أن انطلق يسوع تفرقت التلاميذ في أنحاء إسرائيل والعالم المختلفة. أما الحق المكروه من الشيطان فقد اضطهده الباطل، كما هي الحال دائمًا. فإن فريقًا من الأشرار المدعين أنهم تلاميذ بشروا بأن يسوع مات ولن يقوم. وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام. وآخرون بشروا ولا يزالون يبشرون أن يسوع هو ابن الله. وقد خدع في عدادهم بولص. أما نحن فإنما نبشر بما كتبتُ، الذين يخافون الله ليخلصوا في اليوم الأخير لدينونة الله. آمين) ٢٢٢/ ١-٦[2].

لقد روى برنابا مما سمعته أذناه ووعاه قلبه عن المسيح مباشرة ما يدحض كفريات بولص وأشياعه، وهو ما يشهد له القرآن العظيم الذي جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب. فنذكر أهمها، ونستشهد بموضوعٍ واحد من كتابه لكل مسألة، ونشير إلى مواضع أخرى بأرقامها، طلبًا للاختصار:

- **أولًا**: إنكاره عليه السلام دعوى ألوهيته، وانزعاجه البالغ من ذلك، وأنه عبد الله ورسوله: (لقد ضللتم ضلالًا عظيمًا أيها الإسرائيليون لأنكم دعوتموني

---

[1] إنجيل برنابا: (٣٧ -٣٨).

[2] إنجيل برنابا: (٢٩٧).

إلهكم وأنا إنسان... أشهد أمام السماء، وأشهد كل شيء على الأرض أني بريء من كل ما قد قلتم. لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية وعرضة لحكم الله، مكابد شقاء الأكل والمنام وشقاء البرد والحر كسائر البشر) ٩٣/ ١-٢، ١٠(١).

- **ثانيًا**: إنكاره عليه السلام دعوى بنوته: (ليكن ملعونًا كل من يدرج في أقوالي أني ابن الله) ٥٣/ ٣٥(٢).

- **ثالثًا**: إثباته العهد لإسماعيل عليه السلام وأنه الذبيح: (فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلًا: خذ ابنك بكرك إسماعيل، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة، فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما وُلد كان إسماعيل ابن سبع سنين؟) ٤٤/ ١٠-١١.

- **رابعًا**: بشارته ببعثة محمد ﷺ وأنه «مسيا» الذي ينتظره بنو إسرائيل: (إن اسم مسيا عجيب، لأن الله نفسه سماه لما خلقَ نفسه... إن اسمه المبارك محمد) ٩٧/ ١٤، ١٧(٣).

- **خامسًا**: إثباته الدينونة لله سبحانه وتعالى، والشفاعة العظمى لنبيه محمد ﷺ: وفيه: (تعالوا للدينونة أيتها الخلائق لأن خالقك يريد أن يدينك) ٥٤/ ١٨، وشفاعة النبي ﷺ، وفيه: (ويكلم الله رسوله قائلًا: مرحبًا بك يا عبدي الأمين، فاطلب ما تريد تنل كل شيء... وبعد أن يتكلم يعطي الله رسوله كتابًا مكتوبًا فيه أسماء كل مختاري الله) ٥٥/ ١٦-١٧، ٣٧(٤). حتى لكأن القارئ يقرأ حديث الشفاعة.

---

(١) إنجيل برنابا: (١٥٤). وانظر أيضًا: (٤٧/ ٩ -١١) (٩٩) ٥٩/ ١ -٤ (٢٣٦).

(٢) إنجيل برنابا: (١٠٧). وانظر: ٧٠ (١٢٨، ٢١٢/ ٥ (٢٨٥).

(٣) إنجيل برنابا: (١٦١ -١٦٢). وانظر: (٣٩/ ١٤ -٢٦) (٨٨، ٤١/ ٣٠) (٩١) (٤٤/ ١٩ -٣١) (٩٦، ٨٢/ ٧ -١٩) (١٤٢، ١٤٣، ٩٦) (١٥٩).

(٤) إنجيل برنابا: (١٠٥ -١١٢).

- **سادسًا**: إثبات رفع المسيح إلى السماء، ونفي صلبه: (ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع... جاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب. فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبِّح الله إلى الأبد) ٢١٥/ ١، ٥-٦(١).

(ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نيامًا. فأتى الله العجيب بأمرٍ عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبهًا بيسوع) ٢١٦/ ١-٤(٢). هكذا روى برنابا مشاهداته الأخيرة بوصفه «شاهد عيان». وتفيض الفصول التالية في وصف ما جرى ليهوذا الخائن من محاكمة وإهانة وصلب بالترتيب نفسه الذي ترويه الأناجيل الأربعة منسوبًا إلى المسيح.

يقول الدكتور خليل سعادة، مترجم كتاب برنابا، في مقدمته: (ولما شاع خبر إنجيل برنابا في فجر القرن الثامن عشر، أحدث دويًّا عظيمًا في أندية الدين والعلم، ولا سيما إنكلترة، فكثر بشأنه الجدل، واحتدمت بين العلماء مناقشات)(٣).

وقد تشبث بعضهم بوجود تعليقات باللغة العربية على هوامش المخطوط، فحاولوا نسبة الكتاب إلى مؤلفٍ مسلمٍ مجهول! وما أحسن ما أجاب به الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله: (ومن الغريب أن يُتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامي، ولا يتخذ من صلبه الإيطالي دليلًا على أصله المسيحي)(٤).

---

(١) إنجيل برنابا: (٢٨٨). وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٢/ ٣٠٢-٣٠٤).

(٢) إنجيل برنابا: (٢٨٨).

(٣) مقدمة مترجم إنجيل برنابا: (٢٠).

(٤) محاضرات في النصرانية: (٦٣).

ومن الثابت لدى مؤرخي النصرانية(١) أن البابا «جلاسيوس الأول» أصدر قرارًا في أواخر القرن الخامس الميلادي يتضمن قائمةً بالكتب المحرَّمة، المنهي عن مطالعتها، وفي عدادها كتاب اسمه: إنجيل برنابا(٢). وذلك قبل بعثة النبي محمد ﷺ بأكثر من قرنٍ من الزمان. فكيف يتسنى أن يؤلفه مسلمٌ عربي؟! وأما وجود البشارة في النبي محمد ﷺ باسمه الصريح «محمد»، فذاك دليلٌ على صدقه لا على تزويره، لموافقته ما في القرآن: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦].

---

(١) انظر: تاريخ الكنيسة: (١٥١)، والقرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (١٠٣).

(٢) مقدمة مترجم إنجيل برنابا: (٢٧).

المبحث الثالث

حكم الإسلام في «أهل الكتاب»

أرسل الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، وحجةً على الناس أجمعين؛ كتابيِّهم ومشركهم، عربهم وعجمهم، في وقتٍ كانوا أشد ما يكونون حاجة إلى نبيٍ من عند الله يخرجهم من الظلمات إلى النور، فجاء هذا «القرآن» الذي هو كلام الله بيانًا شافيًا، وحكمًا فصلًا، وقضاءً عدلًا، فيما كانوا فيه يختلفون، لا سيما أهل الكتاب الذين خُصُّوا بالذكر في آياته، واستُهدفوا في مقاصده وغاياته. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٦ - ٧٨] فهو يرفع الخلاف، ويهدي ويرحم، ثم يقضي ويحكم.

وقد حكم الإسلام في أهل الكتاب حكمين:

أحدهما: حكم علمي: في بيان حقيقة ما هم عليه من الاعتقادات والأعمال، وتعيين مُسمَّاهم في باب أسماء الدين والإيمان، وبيان جزائهم في باب وعيد الله.

الثاني: حكم عملي: في وصف معاملتهم، وما يختصون به من أحكام دون سائر الناس.

فالأول: ثابتٌ لا يتغير بتغير الزمان والمكان والحال. والثاني: أصله ثابت كذلك، لكن قد تتغير بعض أحكامه بتغير الأحوال، وفق ما تقتضيه السياسة الشرعية على نحو ما سنبين لاحقًا -إن شاء الله-.

أولًا: حكم الإسلام في أهل الكتاب من الناحية الاعتقادية

نذكر ههنا حكم الإسلام الفصل في حقيقة ما عليه أهل الكتاب من عقائد وأعمال حين أدركهم الإسلام.

١- الحكم بنفي الإيمان عنهم:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣].

٢- الحكم بكفرهم:

وردت النصوص بتكفير اليهود والنصارى صريحة واضحة لا تحتمل اللبس والتأويل مقرونةً بذكر سبب كفرهم. وقد تنوعت موارد كفرهم، فمن ذلك:

أ- القول بألوهية المسيح:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢].

ب- القول بالتثليث:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

ج- القول بالبنوة:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

د- الكفر بآيات الله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١، آل عمران: ١١٢].

هـ- الكفر برسالة محمد ﷺ:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

و- كفرهم بإطلاق:

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].

٣- الحكم بشركهم وعبادتهم غير الله:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

٤- الحكم بضلالهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

٥- الحكم بفسقهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

٦- الحكم عليهم باللعن والغضب:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

٧- الحكم عليهم بالنار والخلود فيها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم(١).

فهذا حكم الإسلام في أهل الكتاب من الناحية العلمية الاعتقادية:

فهم في باب أسماء الدين والإيمان: كفارٌ، غير مؤمنين، مشركون، ضُلَّالٌ، فساق، ضلالًا وفسقًا مخرجين عن حدِّ الإيمان، مغضوبٌ عليهم، ملعونون. وهم في باب وعيد الله: خالدون مخلدون في النار.

٨- الحكم بنسخ شرائعهم بشريعة الإسلام:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) صحيح مسلم: (١/ ١٣٤).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر الأقوال في معنى «مهيمنًا عليه»: (وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتابٍ قبله)⁽١⁾.

- **صفات السوء التي طبعوا عليها:**

وإلى جانب هذا الحكم العقدي الفاصل كشف الله تعالى في كتابه لعباده المؤمنين من صفات السوء، التي طبعوا عليها، وصارت سمةً لعامَّتهم، للحذر منهم، وعدم الوقوع فيما وقعوا فيه، وأكثرها في اليهود، ومن ذلك:

١- الحسد:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٢- النفاق والخيانة:

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

٣- المكر والخديعة:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٨).

٤- المعصية والعدوان وموالاة الكفار:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨٠].

٥- البخل والشح:

﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٦- الجبن:

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ﴾ [الحشر: ١٤].

٧- قسوة القلوب:

﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ [المائدة: ١٣].

٨- العداوة والبغضاء:

﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ٦٤] في اليهود.

﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ١٤] في النصارى.

٩- الذلة والمسكنة:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢].

١٠- السعي في الفساد:

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤].

١١- نقض العهود:

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

١٢- الدعاوىٰ العريضة الكاذبة:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨].

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ثانيًا: حكم الإسلام في معاملة أهل الكتاب

بناءً على الحكم العقدي الواضح في كفر أهل الكتاب وفسقهم وضلالهم ورغبتهم عن ملة إبراهيم، واستنكافهم عن اتباع خاتم المرسلين ﷺ، جاءت أحكام الشريعة الإسلامية بمعاملتهم معاملةً تجمع بين التزام الحق ولزوم العدل؛ بين تمييز أهل الإيمان وإظهار شرفهم وعلوهم، لشرف الحق الذي يحملونه، ليظهره الله على الدين كله، وبين منع الظلم والاستطالة بغير حق على من يعيش في كنف المسلمين، ويستظل بولايتهم ملتزمًا شرائطهم العادلة المنصفة.

ونثبت فيما يأتي طائفتين من الأحكام المتعلقة بمعاملة أهل الكتاب:

الطائفة الأولى: في الأحكام المقصودة لحفظ الدين، وتميز المسلمين.

والطائفة الثانية: في الأحكام المقصودة لحفظ الحق وقيام العدل والإحسان.

ثم نتبعه ببيان الفارق الدقيق بين هذين المقصودين، وميزان العدل بين هاتين الكفتين الذي خفي على كثيرٍ من الناس فوقع بعضهم في الإفراط وبعضهم في التفريط.

- **الأحكام المتعلقة بحفظ الدين وتميز المسلمين:**

١- كون الدين كله لله بإسلامهم أو إعطائهم الجزية أو قتالهم:

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

- عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا. ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...»(١) الحديث.

قال ابن القيم رحمه الله: (فالجزية هي الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالًا وصغارًا...)(٢).

هذا هو المقصود الأعظم، والهدف الأساسي من فرض الجزية كما نطقت بذلك النصوص. فهي مظهر جلي لكون الدين كله لله، واستسلام العباد لأمره، وكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

---

(١) رواه مسلم: (٣/ ١٣٥٧).

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: (واختلف الناس في تفسير «الصَّغار» الذي يكونون عليه وقت أداء الجزية. فقال عكرمة: أن يدفعها وهو قائم، ويكون الآخذ جالسًا. وقالت طائفة: أن يأتي بها بنفسه ماشيًا لا راكبًا، ويطال وقوفه عند إتيانه بها، ويجر إلى الموضع الذي تؤخذ منه بالعنف، ثم تجريده ويمتهن.

وهذا كله مما لا دليل عليه. ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك. والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم بجريان أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية، فإن التزامهم ذلك هو الصغار) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٢ - ٢٤).

وقد تقترن بهذا الهدف مقاصد أخرى من مقتضى عقد الذمة، وهي الحماية والمنعة المكفولة من قبل الدولة الإسلامية لأهل ذمتها، ومن أجل ذلك رد أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ما أخذه من الجزية على أهل الشام لما بلغه اجتماع جحافل الروم لحرب المسلمين، فخشي ألا يفي بما وعدهم من الحماية: (فكتب أبو عبيدة إلى كل والٍ ممن خلَّفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج)(١).

قال الماوردي(٢) رحمه الله: (يجب على ولي الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل في الذمة من أهل الكتاب لِيُقَرُّوا بها في دار الإسلام، ويلتزم لهم ببذلها حقان: أحدهما: الكف عنهم، والثاني: الحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين)(٣).

والحكمة الأصيلة في هذا التشريع هي إذلال الكفار وإظهار صَغارهم(٤).

ويلتحق بهذا الأصل العظيم؛ كون الدين كله لله، وكون كلمة الله هي العليا، خضوع أهل الذمة لأحكام الشرع العام في الدماء والأموال والأعراض، وعدم مضايقة المسلمين بالاستعلان بشعائرهم الظاهرة. وما سوى ذلك من الأمور التعبدية والشخصية والاجتماعية فيما بينهم فهم أحرار، إلا أن يحتكموا إلينا.

---

(١) كتاب الخراج: أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم. (١٥٠).

(٢) الماوردي علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن، الماوردي. أقضى قضاة عصره. (٣٦٤-٤٥٠هـ) الأعلام (٤/ ٣٢٧).

(٣) الأحكام السلطانية والولايات الدينية: الماوردي (٢٥٤).

(٤) انظر على سبيل المثال: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي د. يوسف القرضاوي. (٣٤-٣٦).

وقد ألحق ابن القيم رحمه الله ذكر الشروط العمرية وأحكامها وموجباتها وشرحها في آخر كتاب «أحكام أهل الذمة» وأشاد بها، وقوى من شأنها فقال: (وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم، وفي كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها)(١).

وسياق هذه الشروط يعطي المتفقه حدود المعالم الرئيسة لمعاملة أهل الكتاب، ودينونتهم لحكم الإسلام، وقد رواها عبد الله بن الإمام أحمد(٢) بسنده أن أهل الجزيرة كتبوا إلى عبد الرحمن بن غنم(٣): (إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا، على أنَّا شرطنا لك على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا كنيسة، ولا في ما حولها ديرًا ولا قلاية(٤) ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا، ولا ما كان منها في خطط المسلمين، وألَّا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًّا للمسلمين، وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضربًا خفيًّا في جوف كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألا نخرج صليبًا ولا كتابًا في سوق المسلمين، وألا نخرج باعوثًا -قال: والباعوث يجتمعون

---

(١) أحكام أهل الذمة: (٢/ ٦٦٣ -٦٦٤).

(٢) عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني البغدادي، أبو عبد الرحمن، ولد سنة ٢١٣هـ، من حفاظ الحديث المتقنين، توفي سنة ٢٩٠هـ. تهذيب التهذيب (٥/ ١٤١)، الطبقات لأبي يعلى (١/ ١٨٠).

(٣) عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري. مختلف في صحبته وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين. مات سنة ثمان وسبعين. تقريب التهذيب (١/ ٤٩٤).

(٤) القِلاَّية: مسكن الأسقف «يونانية» المنجد في اللغة (٦٥٢).

كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر- ولا شعانين(١)، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وألا نجاورهم بالخنازير ولا ببيع الخمور، ولا نظهر شركًا، ولا نرغِّب في ديننا، ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نتخذ شيئًا من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، وألَّا نمنع أحدًا من أقربائنا أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نلزم زيَّنا حيث كنا، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، وأن نجز مقادم رؤوسنا، ولا نفرق نواصينا، ونشد الزنانير(٢) على أوساطنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نركب السروج ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله، ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحدٌ منا مسلمًا في تجارة إلا أن يكون إلى المسلم أمر التجارة، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام، ونطعمه من أوسط ما نجد. ضمنَّا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكيننا، وإن نحن غيرنا أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنا، وقبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا، وقد حل لك منا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق).

فكتب بذلك عبد الرحمن بن غنم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إليه عمر: (أن امضِ لهم ما سألوا، وألحق فيهم حرفين، اشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: ألا يشتروا من سبايانا. ومن ضرب مسلمًا فقد خلع عهده)، فأنفذ عبد الرحمن بن غنم ذلك، وأقر من أقام من الروم في مدائن الشام على هذا الشرط(٣).

---

(١) الشعانين: عيد الأحد الذي قبيل الفصح «عبرانية» مأخوذ من: «هوشيعه نا» أي خلصنا. المنجد في اللغة (٣٣٦).

(٢) الزنانير: جمع زُنَّار وزُنَّارة: ما يشد على الوسط «يونانية». المنجد في اللغة (٣٠٨).

(٣) عن أحكام أهل الذمة: (٢/ ٦٥٧ -٦٦١).

ورغم ما قيل في شأن هذه الشروط من ناحية الثبوت، أو من الناحية الموضوعية، فقد ظلت المرجع الأساسي لفقهاء الأمة(١).

يقول الماوردي: (ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان، مستحق ومستحب: أما المستحق فستة شروط:

أحدها: ألَّا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له. والثاني: ألا يذكروا رسول الله ﷺ بتكذيب له ولا ازدراء. والثالث: ألا يذكروا دين الإسلام بذم له ولا قدح فيه. والرابع: ألا يصيبوا مسلمة بزنا لا باسم نكاح(٢). والخامس: ألا يفتنوا مسلمًا عن دينه، ولا يتعرضوا لماله ولا دينه. والسادس: ألا يعينوا أهل الحرب، ولا يودوا أغنياءهم(٣).

فهذه الستة حقوق ملتزمة، فتلزمهم بغير شرط، وإنما تشترط إشعارًا لهم وتأكيدًا لغليظ العهد عليهم، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضًا لعهدهم.

وأما المستحب فستة أشياء: أحدها: تغيير هيئاتهم بلبس الغيار، وشد الزنار. والثاني: ألَّا يعلوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوين لهم. والثالث: ألَّا يسمعوهم أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم، ولا قولهم في عزير والمسيح. والرابع: ألَّا يجاهروهم بشرب خمورهم، ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم.

---

(١) ذكر ابن حزم هذه الشروط في مراتب الإجماع (١١٥). ورواها بسنده عن عبد الرحمن بن غنم، في المحلى: (٧/ ٣٤٦ -٣٤٧). والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٠٢). وذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم». وقال بعدها: «رواه حرب بإسنادٍ جيد) ثم قال: (وهذه الشروط أشهر شيءٍ في كتب الفقه والعلم. وهي مجمع عليها في الجملة بين العلماء من الأئمة المتبوعين، وأصحابهم وسائر الأئمة) (١/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) في العبارة خفاء. ولعلها: (ولا باسم نكاح) أو (ولو باسم نكاح).

(٣) في العبارة خفاء. ولعلها: (ولا يؤووا عيونهم)، فقد جاء فيما يلزم الذِّمي عند أبي يعلى: (ولا يؤوي للمشركين عينًا، أعني جاسوسًا). الأحكام السلطانية ١٥٨، فربما جرى تصحيف من النساخ.

والخامس: أن يخفوا دفن موتاهم، ولا يجاهروا بندبٍ عليهم ولا نياحة. والسادس: أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقًا وهجانًا، ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير.

وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط فتصير بالشرط ملتزمة، ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضًا لعهدهم، لكن يؤاخذون بها إجبارًا ويؤدبون عليه زجرًا، ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم)[1].

٢- عدم موالاتهم أو ائتمانهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

قال ابن جرير رحمه الله: (﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾، يقول: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم من دونكم، يقول: من دون أهل دينكم وملتكم، يعني من غير المؤمنين، وإنما جعل البطانة مثلًا لخليل الرجل فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه لحلوله منه في اطلاعه على أسراره وما يطويه عن أباعده، وكثير من أقاربه، محل ما ولي جسده من ثيابه)[2].

- وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ومعنى الموالاة في اللغة القرب والنصر والحلف[3]. قال ابن جرير رحمه الله: (إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعًا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا

---

(١) الأحكام السلطانية: (٢٥٨ -٢٦٠)، وانظر أيضًا: الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء: (١٥٨).

(٢) تفسير الطبري: (٤/ ٦٠).

(٣) انظر الصحاح: (٦/ ٢٥٢٨).

وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًّا من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان)⁽¹⁾.

والخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي شهد عهده فتوح الأمصار وانضواء أهل الكتاب تحت عقد الذمة، كان شديد الحرص والحيطة على عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، وزجر عماله ونوابه على استعمالهم على مصالح المسلمين الخاصة. ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن أبي حاتم⁽²⁾ بسنده قال: (قيل لعمر بن الخطاب: إن ههنا غلامًا من أهل الحيرة حافظًا كاتبًا فلو اتخذته كاتبًا. قال: قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين)⁽³⁾، وعقب ابن كثير رحمه الله قائلًا: (ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يغشوها إلى الأعداء من أهل الحرب)⁽⁴⁾.

وقد أفاض ابن القيم رحمه الله في سرد مواقف بعض الخلفاء من أهل الذمة، حين رأوا منهم نفوذًا واستطالةً على المسلمين في دولة بني أمية وبني العباس وانتهاءً بدولة بني أيوب⁽⁵⁾. ثم خلص ابن القيم رحمه الله إلى القول: (ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعًا من توليهم، وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة،

---

(١) تفسير الطبري: (٦/ ٢٧٦).

(٢) عبد الرحمن بن محمد، أبي حاتم، التيمي الحنظلي، الرازي، أبو محمد ولد سنة ٢٤٠هـ، حافظ للحديث، توفي سنة ٣٢٧هـ. الأعلام (٣/ ٣٢٤).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٢/ ٥٠٠) وصحح المحقق إسناده.

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٨).

(٥) انظر: أحكام أهل الذمة: (٢٠٨ -٢٤٤).

فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبدًا، والولاية صلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبدًا)(١).

٣- تحريم محبتهم وموادتهم ومؤاخاتهم:

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وأي محادَّة لله تعالى أعظم من الشرك به ووصفه بالنقائص والعيوب، تعالى عما يقولون علوًّا عظيمًا! وأي محادَّة لرسوله ﷺ أعظم من تكذيبه وإنكار نبوته، ورد الحق الذي جاء به!

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله)(٢).

٤- تحريم التشبه بهم:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»(٣). وهذا التشبه المنهي عنه، المذموم شرعًا، يشمل مماثلة أهل الكتاب

---

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٤٢).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (٣/ ١٢٥)، والبغوي في شرح السنة: (٣/ ٤٢٩). وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل) (٤/ ٣٠٧، ٢/ ٧٣٥).

(٣) رواه أحمد في المسند: (١/ ٥٠)، وأبو داود (٤/ ٣١٤)، وجوّد سنده ابن تيمية، وحسَّنه ابن حجر. انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤٠)، والفتاوى (٢٥/ ٣٣١) وفتح الباري (٦/ ٩٨).

ومضاهاتهم، ومجاراتهم في عقائدهم وعباداتهم وسلوكهم وعاداتهم التي يختصون بها، لما يوجب ذلك التشبه -ولو كان ظاهريًّا- من الميل الباطني. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (... بعث الله محمدًا ﷺ بالحكمة التي هي سنته، وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم، والضالين، فأمر بمخالفتهم في الهدي الظاهر، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة، لأمور:

منها: أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلًا بين المتشابهين يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال. وهذا أمر محسوس، فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلًا يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضيًا لذلك إلا أن يمنعه مانع.

ومنها: أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن أسباب الغضب، وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين، وأعدائه الخاسرين. وكلما كان القلب أتم حياء وأعرف بالإسلام -الذي هو الإسلام- لست أعني مجرد التوسم ظاهرًا أو باطنًا بمجرد الاعتقادات من حيث الجملة، كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا وظاهرًا أتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

ومنها: أن مشاركتهم في الهدي الظاهر توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التمييز ظاهرًا بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحًا محضًا لو تجرد عن مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم، كان شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم، فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له)⁽¹⁾.

٥- الحذر من كتبهم ومروياتهم:

عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيءٍ، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله، محضًا لم يُشَب، قد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا، فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله، ليشتروا بذلك ثمنًا قليلًا. أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم! فلا والله ما رأينا رجلًا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم)⁽²⁾.

وعن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أتى النبي ﷺ بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي ﷺ فغضب، فقال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم بشيءٍ فيخبروكم بحقٍ فتكذبوا به، أو بباطلٍ فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني)⁽³⁾. وفي رواية: (فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا)⁽⁴⁾.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: (١/ ٨٠ -٨٢).

(٢) صحيح البخاري: (٨/ ٢٠٨).

(٣) رواه أحمد. المسند: (٣/ ٣٨٧)، وقد استقصى الشيخ محمد ناصر الدين الألباني طرقه وشواهده وخلص إلى القول: (هو على أقل تقدير حديث حسن). ووصف في فتوى اللجنة الدائمة في المملكة العربية السعودية رقم (١٩٤٠٢) في ٢٥/ ١/ ١٤١٨هـ بالثبوت.

(٤) رواه أحمد. المسند: (٣/ ٣٣٨).

فيجب الحذر من كتبهم ومروياتهم وآثارهم، وهي ما أطلق عليه المسلمون «الإسرائيليات»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (هذه الأحاديث الإسرائيلية، تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا، مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح. والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته، لما تقدم(١)، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود لأمرٍ ديني)(٢).

٦- تحريم بداءتهم بالسلام، وتقديمهم في المرور أو العبور ونحو ذلك:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريقٍ فاضطروهم إلى أضيقه)(٣).

قال ابن القيم رحمه الله: (والمقصود أن السلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذكر له... فحقيق بتحية هذا شأنها أن تصان عن بذلها لغير أهل الإسلام، وألا يحيى بها أعداء القدوس السلام)(٤).

(وأما الرَّدُّ عليهم فأمر أن يقتصر به على «عليكم»... هذا كله إذا تحقق أنه قال السامُّ عليكم، أو شك فيما قال. فلو تحقق السامع أن الذمي قال له: «سلام عليكم» لا شك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السلام؟ أو يقتصر على قوله: «وعليك»؟ فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: وعليك السلام. فإن هذا

---

(١) يعني حديث: (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) رواه البخاري: (٤/ ١٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٣) صحيح مسلم: (٤/ ١٧٠٧).

(٤) أحكام أهل الذمة: (١/ ١٩٧).

من باب العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء: ٨٦]، فندب إلى الفضل وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئًا من أحاديث الباب بوجه ما)⁽¹⁾.

٧- تحريم تهنئتهم بشعائر الكفر وأعيادهم الدينية:

قال ابن القيم رحمه الله: (وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به، فحرام بالاتفاق، مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك عليك، أو: تهنأ بهذا العيد، ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثمًا عند الله، وأشد مقتًا من التهنئة بشرب الخمر، وقتل النفس، وارتكاب الفرج الحرام ونحوه. وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل، فمن هنأ عبدًا بمعصية أو بدعة فقد تعرض لمقت الله وسخطه)⁽²⁾.

٨- تحريم دخولهم الحرم وإقامتهم بجزيرة العرب:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨]، قال الماوردي رحمه الله: (ليس لجميع من خالف دين الإسلام من ذمي أو معاهد أن يدخل الحرم، لا مقيمًا فيه ولا مارًّا به، وهذا مذهب الشافعي رحمه الله وأكثر الفقهاء. وجوز أبو حنيفة دخولهم إليه إذا لم يستوطنوه)⁽³⁾.

---

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ١٩٧ -١٩٩).

(٢) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٠٥ -٢٠٦).

(٣) الأحكام السلطانية: (٢٩٠).

وعن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا)(١).

وهذه النصوص تدل على أهمية بقاء جزيرة العرب معقلًا للإسلام، وحوزةً يفيء إليها أهله، ويأرز إليها الدين، فلا غرو أن تكون بمنأى عن أعدائه لا يهتكون سترها ولا يستبيحون حماها. وسبحان العليم الحكيم.

- **الأحكام المتعلقة بحفظ الحقوق، وقيام العدل والإحسان:**

١- عدم الإكراه في الدين:

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال ابن كثير في تفسير قوله: لا إكراه في الدين: (أي لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جليٌّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا)(٢).

٢- الإحسان إليهم والعدل في معاملتهم وتحريم أذيتهم وحفظ ذمتهم:

قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

---

(١) رواه مسلم: (٣/ ١٣٨٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣١٠).

قال ابن جرير رحمه الله: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم، إن الله عز وجل عمَّ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض)[١].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا»[٢].

وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء -بيت المقدس-: (هذا ما أعطى عبد الله عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود)[٣].

قال موفق الدين بن قدامة[٤] رحمه الله في باب أحكام أهل الذمة: (وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم، واستنقاذ مَن أُسِر منهم).

وقال ابن حزم في مراتب الإجماع: (واتفقوا أن من أسره أهل الحرب من كبار أهل الذمة وصغارهم ونسائهم أن ذمتهم لا تنتقض بذلك ما لم يلحق مختارًا، وأنه

---

(١) تفسير الطبري: (٢٨/ ٦٦).

(٢) رواه البخاري: (٤/ ٦٥)، (٨/ ٤٧).

(٣) تاريخ الطبري: (٢/ ٤٤٩).

(٤) عبد الله بن أحمد بن قدامة، الجماعيلي المقدسي الحنبلي، أبو محمد، موفق الدين. ولد عام (٥٤١هـ) إمام في الفقه عالم بالحديث مات سنة (٦٢٠هـ). انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٩٩)، ذيل الطبقات (٢/ ١٣٣).

إن ظفر المسلمون بالمأسورين المذكورين من أنهم لا يسترقون)⁽¹⁾.

٣- حسن جوارهم:

قال تعالى: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. واختار ابن جرير رحمه الله في معنى «الجنب»: (الغريب البعيد، مسلمًا كان أو مشركًا، يهوديًّا كان أو نصرانيًّا)⁽²⁾.

٤- عيادة مريضهم:

عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطِع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار)⁽³⁾، وقيده بعض أهل العلم بقصد دعوته إلى الإسلام⁽⁴⁾. ولعل في مجرد الزيارة والعيادة من تأليف قلبه، وإظهار محاسن الإسلام، ما يستقل بذلك.

٥- القيام لجنائزهم:

فالنبي ﷺ مرَّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفسًا؟»⁽⁵⁾.

---

(١) مراتب الإجماع: (١٢٣).

(٢) تفسير الطبري: (٥/ ٨٠).

(٣) صحيح البخاري: (٢/ ٩٧).

(٤) انظر: أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٠٠ -٢٠٢).

(٥) صحيح البخاري: (٢/ ٨٧)، صحيح مسلم: (٢/ ٦٦١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: (قام النبي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت)(١). وفي شهود جنائزهم وتعزيتهم تفصيل عند الفقهاء(٢).

٦- الحقوق المعيشية في السكنى والتنقل والتكسب:

قال ابن حزم في «مراتب الإجماع»: (واتفقوا أن لأهل الذمة المشي في أرض الإسلام، والدخول حيث أحبوا من البلاد حاشا الحرم بمكة، فإنهم اختلفوا أيدخلونه أم لا. واتفقوا على أن لهم سكنى أي بلدٍ شاؤوا من بلاد الإسلام على الشروط التي قدمنا حاشا جزيرة العرب)(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: (اشترى طعامًا من يهودي إلى أجل ورهنه درعًا من حديد)(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمرٍ أو زرع)(٥).

٧- حل طعامهم ونسائهم:

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

---

(١) صحيح مسلم: (٢/ ٦٦١).

(٢) انظر؛ أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٠٢-٢٠٥).

(٣) مراتب الإجماع: (١٢٢).

(٤) صحيح البخاري: (٣/ ٨).

(٥) صحيح البخاري: (٣/ ٦٩)، صحيح مسلم: (٣/ ١١٨٦).

فأما الطعام المذكور في الآية ف(لم يختلف السلف أن المراد بذلك الذبائح)(١).

وأما المحصنات هنا ف(هن العفايف)(٢)، وتفاصيل هذين الحكمين في مظانها في كتب الفقه.

٨- تشميت عاطسهم:

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كانت اليهود تعاطس عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لها: يرحمكم الله، فكان يقول: يهديكم الله، ويصلح بالكم)(٣).

هذه الموازنة الدقيقة التي جاء بها الإسلام بين النهي عن موالاة الكافرين وموادتهم، والحث على برهم والإحسان إليهم وإيجاب العدل معهم، تشكل على كثير من الناس فيفضي به الأمر إما إلى إعمال الطائفة الأولى من النصوص والغض عن الطائفة المقابلة، فيقع في ظلم أهل الكتاب -سوى الحربيين- والعنف معهم وجفوتهم وأذيتهم، وإما إلى إعمال الطائفة الثانية من النصوص والإغراق في مداهنة أهل الكتاب وموادتهم حتى تتعطل دلالة النصوص الأولى، ويختلط عليهم أمر الولاء والبراء، ينقض أوثق عرى الإيمان.

وقد تنبه الفقيه المالكي أبو العباس القرافي(٤) رحمه الله لهذا الاشتباه الخطير، فعقد فصلًا في كتابه القيم «الفروق» نتقله بطوله لأهميته وبيانه، فقال: (الفرق

---

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٤٥).

(٢) أحكام أهل الذمة: (٢/ ٤١٩).

(٣) رواه أبو داود: (٥/ ٢٩٢)، والترمذي: (١٠/ ١٩٨ -١٩٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) القَرافِي: (٠٠٠ -٦٨٤هـ) أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، الصنهاجي القرافي. من علماء المالكية. انظر: الأعلام (١/ ٩٥).

التاسع عشر والمئة بين قاعدة بر أهل الذمة، وبين قاعدة التودد لهم. اعلم أن الله تعالى منع من التودد لأهل الذمة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، فمنع الموالاة والتودد. وقال في الآية الأخرى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وقال في حق الفريق الآخر: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]...، فلا بد من الجمع بين هذه النصوص، وأن الإحسان لأهل الذمة مطلوب، وأن التودد والموالاة منهي عنهما، والبابان ملبسان فيحتاجان إلى الفرق.

وسِرُّ الفرق أن عقد الذمة يوجب حقوقًا علينا لهم، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا، وذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام. وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له: أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صونًا لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة. وحكى في ذلك إجماع الأمة. فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صونًا لمقتضاه عن الضياع، إنه لعظيم. وإذا كان عقد الذمة بهذه المنزلة تعين علينا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودات القلوب، ولا تعظيم

شعائر الكفر، فمتى أدى إلى هذين، امتنع وصار من قبل ما نهى عنه في الآية وغيرها. ويتضح ذلك بالمثل: فإخلاء المجالس لهم عند قدومهم علينا، والقيام لهم حينئذٍ، ونداؤهم بالأسماء العظيمة الموجبة لرفع شأن المنادى بها، هذا كله حرام. وكذلك إذا تلاقينا معهم في الطريق، وأخلينا لهم واسعها ورحبها والسهل منها، وتركنا أنفسنا في خسيسها وحزنها وضيقها، كما جرت العادة أن يفعل ذلك المرء مع الرئيس، والولد مع الوالد، والحقير مع الشريف، فإن هذا ممنوع لما فيه من تعظيم شعائر الكفر، وتحقير شعائر الله تعالى وشعائر دينه واحتقار أهله. ومن ذلك تمكينهم من الولايات والتصرف في الأمور الموجبة لقهر من هي عليه، أو ظهور العلو وسلطان المطالبة، فذلك كله ممنوع وإن كان في غاية الرفق والأناة أيضًا، لأن الرفق والأناة في هذا الباب نوع من الرئاسة والسيادة وعلو المنزلة في المكارم، فهي درجة رفيعة أوصلناهم إليها، وعظمناهم بسببها، ورفعنا قدرهم بإيثارها، وذلك كله منهي عنه، وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادمًا ولا أجيرًا يؤمر عليه وينهى، ولا يكون أحد منهم وكيلًا في المحاكمات على المسلمين عند ولاة الأمور، فإن ذلك أيضًا إثبات لسلطانهم على ذلك المسلم. وأما ما أمر به من برهم من غير مودة باطنية؛ فالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفًا منا بهم، لا خوفًا وتعظيمًا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمور دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله، ومن العدو أن يفعله مع عدوه، فإن ذلك من مكارم الأخلاق. فجميع ما

نفعله معهم من ذلك ينبغي أن يكون من هذا القبيل لا على وجه العزة والجلالة منا(١)، ولا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم، وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا ﷺ، وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلوا شأفتنا، واستولوا على دمائنا وأموالنا، وأنهم من أشد العصاة لربنا ومالكنا عز وجل. ثم نعاملهم بعد ذلك بما تقدم ذكره امتثالًا لأمر ربنا عز وجل وأمر نبينا ﷺ، لا محبة فيهم، ولا تعظيمًا لهم، ولا نظهر آثار تلك الأمور التي نستحضرها في قلوبنا من صفاتهم الذميمة، لأن عقد العهد يمنعنا من ذلك، فنستحضرها حتى يمنعنا من الود الباطن لهم المحرم علينا خاصة)(٢).

---

(١) هكذا في الأصل. ولعل صوابها: (من هذا القبيل على وجه العزة والجلالة منا، لا على وجه التعظيم...).

(٢) الفروق: القرافي (١٤ -١٦).

المبحث الرابع

موقف أهل الكتاب من الإسلام

لقد كان أولى الناس باتباع محمد ﷺ، أهل الكتاب. وذلك لأسباب:

أحدها: أنه البشارة المرتقبة التي زفَّها الأنبياء قبله إلى أقوامهم.

والثاني: أنه البينة التي بها افتكاكهم من دوامة الخلاف المرير الذي مزقهم كل ممزق، حتى كفَّر بعضهم بعضًا، وقتل بعضهم بعضًا.

والثالث: أنه فتح لأهل الإيمان على أهل الشرك والأوثان.

ولكن هذا التوقع لم يقع إلا بصورة جزئية فردية، وبدلًا من أن تنضوي زعامتا الديانتين اليهودية والنصرانية، في الديانة الإسلامية التي تمثل الامتداد الطبيعي لملة إبراهيم عليه السلام، ناصبتاها العداء. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨، ٩].

أولًا: موقف أهل الكتاب من الإسلام قبل البعثة النبوية

دل كتاب الله، القرآن العظيم، علىٰ أن أهل الكتاب قد بُشروا بنبي عظيم موصوف بصفات شريفة يبعث في آخر الزمان، وقد أمروا باتباعه، كما أفاضت كتبهم الدينية في الحديث عنه.

- **القرآن الكريم:**

- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

- ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

- وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس: (﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾، أي بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم...)(١).

- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]. قال ابن جرير رحمه الله: (أخبر الله جل ثناؤه أن اليهود لما جاءهم رسول الله ﷺ من الله بتصديق ما في

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ٣٧٠).

أيديهم من التوراة أن محمدًا ﷺ نبي الله، نبذ فريق، يعني بذلك أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا مقرين، حسدًا منهم له، وبغيًا عليه)(١).

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فهذه الآيات القرآنية قاطعة بحصول البشارة بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل وكونه موصوفًا فيهما بأكرم الصفات المقتضية لتعلق أهل هذين الكتابين بالإيمان بنبوته والتشوق لمبعثه، ولما كان عيسى ابن مريم عليه السلام أولى الناس به، حيث لم يكن بينهما نبي انتقلت البشارة من الوصف إلى التسمية الصريحة القاطعة لأدنى التباس.

- **في كتبهم الدينية:**

تضمنت كتب بني إسرائيل عبارات متعددة دالة على مبعث نبي عظيم، مؤيد من عند الله، يخضع الله له الأمم والشعوب، ويظهره على من خالفه، ولكن أهل الكتاب لا يثبتون هذه البشارة في حق نبينا محمد ﷺ، بل يحملها اليهود على موعودٍ منتظر في آخر الزمان يتبعونه، ويحملها النصارى على المسيح عيسى ابن مريم، ورجعته في آخر الزمان. ولا ريب أن هذه العبارات تعرضت لعوامل التحريف اللفظي والمعنوي من قبل الأحبار والرهبان لصرف نظر أتباعهم عن رسالة نبينا محمد ﷺ.

قال الفخر الرازي(٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ٤٤٣).

(٢) محمد بن عمر التيمي البكري، فخر الدين الرازي، إمام في الفلسفة وعلم الكلام، توفي في هراة سنة ٦٠٦هـ. الوفيات (١/ ٤٧٤)، لسان الميزان (٤/ ٤٢٦).

ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]: (اعلم أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقين، وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه، ومنعه من الوصول إليها. فقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، إشارة إلى القسم الأول وهو تشويش الدلائل عليه. وقوله:﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾، إشارة إلى القسم الثاني وهو منعه من الوصول إلى الدلائل)(١).

وسنذكر أدناه نماذج من هذه الجمل المتضمنة البشارة بنبينا محمد ﷺ.

- جاء في سفر التثنية: (أقبل الرب من سيناء. وأشرق لهم من ساعير. وسطع من جبل فاران) ٣٣/ ٢(٢).

قال الشيخ رحمت الله الهندي مبينًا هذه الجمل: (فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام، واستعلانه من جبل فاران إنزاله القرآن؛ لأن فاران جبل من جبال مكة. وفي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في وصف حال إسماعيل عليه السلام هكذا: «٢٠- وكان الله معه، ونما وسكن في البرية وصار شابًا يرمي بالسهام، وسكن برية فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر»(٣).

- جاء في إنجيل «يوحنا» وقد نقل الشيخ رحمت الله الهندي هذا النص عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١م وسنة ١٨٣١م وسنة ١٨٤٤م في لندن على

---

(١) التفسير الكبير: الفخر الرازي (٢/ ٥٤).

(٢) العهد القديم: (٤١١).

(٣) إظهار الحق: (٤/ ١٣٥). والمعروف أن إسماعيل عليه السلام تزوج مرتين من قبيلة جرهم، التي جاورت البيت.

النحو الآتي: (١٥- إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي (١٦) وأنا أطلب من الآب فيعطيكم «فارقليط» آخر ليثبت معكم إلى الأبد)(١).

هذا النص المنسوب إلىٰ المسيح عليه السلام يتفق في مضمونه مع البشارة القرآنية الواردة علىٰ لسانه عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وقد كان عيسىٰ عليه السلام يتكلم بالعبرانية، فلما كتبت الأناجيل باليونانية عبر عن المبشَّر به بلفظ «بيريكليتوس»، فلما عربت الأناجيل كتبها البعض بلفظ «الفارقليط»، وترجمها البعض بمعنىٰ «المعزي». يقول الداعية أحمد ديدات(٢): («أحمد» أو «محمد» المثنىٰ عليه أو الممدوح أو المحمود (The Praised One) هو تقريبًا ترجمة للكلمة اليونانية «بيركليتوس»).

والمقصود من سياق هذه النصوص من التوراة والإنجيل التي بأيدي القوم، بيان موقفهم من الإسلام ونبيه ﷺ قبل البعثة، حيث كانوا قبيل البعثة يخبرون عن نبي أظلَّهم زمانه، كما جاء في قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه الطويلة في رحلته للبحث عن الحق، وتنقله بين الأساقفة؛ كل واحدٍ يوصي به إذا حضرته الوفاة إلى مثله، فكان آخرهم صاحب عمورية، فقال له سلمان لما حُضِر: (يا فلان: إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان

---

(١) إظهار الحق: (٤/ ١١٨٥).

(٢) أحمد حسين ديدات. ولد سنة ١٩١٨م. هندي الأصل، ويعيش في «جنوب إفريقيا». اشتغل بالدعوة إلى الله، واعتنى بالرد على النصارى خاصة. ومناظرتهم في المحافل العامة، منح براءة جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤٠٦هـ. انظر: التعريف به في النشرة الصادرة عن هيئة الجائزة.

نبي هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجرًا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى؛ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل...)(١) الحديث.

---

(١) رواه أحمد بطوله: (٥/ ٤٤٢ -٤٤٣). وأصله مجملاً في صحيح البخاري: (٤/ ٢٧٠) عن سلمان رضي الله عنه أنه تداوله بضعة عشر سيدًا.

ثانيًا: موقف أهل الكتاب من الإسلام بعد البعثة النبوية

يمكن القول إن موقف زعماء أهل الكتاب تحدد إبان العهد النبوي، حيث كان اليهود يقطنون المدينة وما حولها، كما أنه ﷺ قد كاتب ملوك النصارى في مصر والحبشة وبلاد الشام، ووفد عليه نصارى نجران. ويتلخص في رفض دعوة الإسلام، وتكذيب رسوله، والإصرار على دين الآباء المحرف، حتى مع وهج السيف أو ذل الجزية.

أما الموقف «الشعبي» المتمثل في جمهور أهل الديانتين -سوى الزعماء الدينيين والمدنيين- فقد تفاوت تفاوتًا بينًا. فقد كان النصارى أكثر قبولًا للإسلام ومودة للمؤمنين واتباعًا للحق، في حين كان اليهود -كعادتهم- أغلظ قلوبًا وطباعًا، وأشد عداوة للذين آمنوا، وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله: ﴿۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٥].

وتأتي شهادة التاريخ موافقةً لما قرره القرآن الكريم، حيث شهدت العقود الأولىٰ التالية للفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والعراق ومصر، انخراط أعدادٍ كبيرة من سكان البلاد الأصليين من النصارىٰ في الدين الجديد، وقد تمت عملية «إسلام» لا «أسلمة»، بشهادة المؤرخين المنصفين من الأعداء قبل الأصدقاء،

ودهشتهم في الوقت نفسه، وفي الدراسة المتميزة التي أعدها فيليب فارج[1]، ويوسف كرباج[2] بعنوان: «المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي»، الباحثان يعترفان (أن الإكراه عليه -أي اعتناق الإسلام- كان غائبًا في أغلب الأحيان، وهو لم يحدث في تاريخ الإسلام العربي إلا بصفة استثنائية... ومن ثم فإن جزءًا من السكان يتبنىٰ الإسلام بسرعة، ويفوز بحكم تحوله إلىٰ اعتناق الإسلام بالمواطنة التامة، وربما دون مكابدة قطيعة حقيقية، لأن الدين الجديد يقدم نفسه بوصفه امتدادًا للمسيحية واليهودية)[3].

وأيًّا كانت الأسباب المفترضة، فإنا نعتقد أن السبب الحقيقي والأساس يرجع إلى أمرين:

أولهما: صحة دين الإسلام ونقائه ووضوحه وشموله، وموافقته للعقل والفطرة وتصديقه لما بين يديه من الكتاب.

ثانيهما: الأوصاف الحميدة التي ذكرها الله في كتابه عن مؤمني النصارى وهي:

١ - العلم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ﴾.

٢- العبادة: ﴿وَرُهۡبَانًا﴾.

٣- التواضع: ﴿وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

---

[1] مدير مركز البحوث والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (القاهرة)، وباحث في المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية (فرنسا)، مؤلف دراسات ديموغرافية عديدة عن الشرق العربي.

[2] باحث بالمعهد الوطني للدراسات الديموغرافية (فرنسا)، مؤلف دراسات ديموغرافية عديدة عن المغرب الأقصى. من مقدمة كتابيهما.

[3] المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٨).

٤- قبول الحق ورقة الطباع: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

٥- العقل والشجاعة: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤].

تلك هي المؤهلات الحقيقية التي تقود صاحبها للإيمان بالله ورسله في كل زمان ومكان، ومن كل جيل وقبيل بصرف النظر عن الانتماءات العرقية والدينية السابقة، لكن المؤثرات التاريخية والاجتماعية وحظوظ النفس وأهواءها، وحب الدنيا والشيطان صوارف عن سبيل الله، وقد تكثُر في قومٍ وتقلُّ نسبيًّا عند آخرين.

ومنذ العهد النبوي، إلى يومنا هذا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يصر اليهود على يهوديتهم، والنصارى على نصرانيتهم، ويردون دين الإسلام الذي نسخ الله به جميع الشرائع السابقة، ويزعمون أنهم هم الذين على الحق، المستحقون لدخول الجنة، ومن سواهم كافر محروم منها. وفي بيان هذا الموقف العام المشترك يقول الله تعالى عنهم:

- ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

- ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

هذا هو الموقف العام، ولكلٍّ من الفريقين خصوصية زائدة توضحها نصوص خاصة، ووقائع كاشفة من السيرة النبوية.

- **موقف اليهود من الإسلام:**

١ - الجحود والاستكبار بعد العلم والبينة:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

قال ابن جرير رحمه الله: (... ومعنى الاستفتاح: الاستنصار، يستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل مبعثه...)⁽¹⁾.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو آمن بي عشرة من اليهود، لآمن بي اليهود»⁽²⁾. وفي رواية عنه: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»⁽³⁾.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن عبد الله بن سلام⁽⁴⁾ بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فذكرهن، وأخبره بخبرهن... فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال:

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ٤١٠ - ٤١١).

(٢) رواه البخاري: (٤/ ٢٦٩)، مسلم (٤/ ٢١٥١).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٤٦، ٣٦٢، ٤١٦).

(٤) عبد الله بن سلام الإسرائيلي، أبو يوسف، حليف بني الخزرج، قيل كان اسمه الحصين فسماه النبي ﷺ عبد الله. مشهور، له أحاديث وفضل مات بالمدينة سنة ثلاثون وأربعين. تقريب التهذيب (١/ ٤٢٢).

يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهُتٌ فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي. فجاءت اليهود فقال النبي ﷺ: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا. فقال النبي ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلامٍ؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك. فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله. قالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقصوه، قال: هذا كنت أخاف يا رسول الله)⁽¹⁾.

٢- الصد عن سبيل الله وإثارة الشبهات:

قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [البقرة: ١٠٩].

روى ابن جرير رحمه الله بسنده أن جماعة من أحبار اليهود قدموا على قريش ف(قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتاب الأول، فاسألوهم أدينكم خير، أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه، وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] إلى قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾⁽²⁾.

---

(١) رواه البخاري: (٤/ ٢٦٨).

(٢) تفسير الطبري: (٥/ ١٣٥).

وقال تعالى: ﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ١٤٢]، روى ابن جرير رحمه الله عن مجاهد، والبراء، وابن عباس أن السفهاء هم اليهود⁽¹⁾.

قال ابن كثير رحمه الله: (لما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب، والكفرة من اليهود، ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: «ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها»؟ أي قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا. فأنزل الله جوابهم: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾، أي الحكم والتصرف والأمر كله لله)⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. قال ابن كثير: (هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم؛ وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين)⁽³⁾.

٣- محاولة قتل النبي ﷺ وأذيته:

نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وصحح إسناده، ما رواه ابن مردويه⁽⁴⁾

---

(١) تفسير الطبري: (٢/ ١ -٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (١/ ١٩٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٧٣)، وانظر الآثار المروية في ذلك في تفسير الطبري (٣/ ٣١١ -٣١٣).

(٤) أحمد بن موسى الأصبهاني، ويقال له: ابن مردويه الكبير حافظ مؤرخ مفسر. الأعلام (١/ ٢٦١).

بسنده عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ في قصة إجلاء يهود بني النضير، وفيه: (فأجمع بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ، اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك، ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك ففعل، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر. فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخٍ لها من الأنصار، مسلم، تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وصبحهم بالكتائب...)(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فجيء بها، فقيل: ألا نقلتها، قال: لا. فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر النبي ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يومٍ وهو عندي دعا الله ودعاه، ثم قال: أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليَّ، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومَن طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق. قال: فيما ذا؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطَة وجُفِّ طلعةٍ ذكر(٣). قال: فأين هو؟ قال في بئر ذي أروان. قال: فذهب النبي ﷺ في أناسٍ من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لَكَأن ماءها نُقاعة الحِنَّاء، ولَكَأن نخلها رؤوس الشياطين. قلت: يا رسول الله: أفأخرجته؟ قال: لا،

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر (٧/ ٢٥٥). وانظر: المصنف لعبد الرزاق (٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠)، وسنن أبي داود (٣/ ٤٠٤ - ٤٠١).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٤١)، صحيح مسلم (٤/ ١٧١٢).

(٣) المُشط: الآلة التي يسرح بها الشعر، والمشاطة: ما يخرج من الشعر عند التسريح. وجف الطلع: الغشاء الذي يكون عليه.

أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثوِّر على الناس منه شرًّا، وأمر بها فدفنت)⁽¹⁾.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله... الحديث)⁽²⁾، وكان يهوديًّا شاعرًا، وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه⁽³⁾.

٤- موالاة الكافرين والمنافقين، ومعاداة المؤمنين:

قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

وجاء في خبر بني النضير، فيما رواه أبو داود وغيره عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ، وفيه: (... فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتُقاتلُن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شيء -وهي الخلاخيل-، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أجمعت بنو النضير بالغدر... الحديث)⁽⁴⁾. فكانت هذه خيانةٌ منهم لعهد رسول الله ﷺ، كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: (إن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ...)⁽⁵⁾.

---

(١) صحيح البخاري: (٧/ ٢٩ -٣٠).

(٢) صحيح البخاري: (٥/ ٢٥).

(٣) انظر: فتح الباري: (٧/ ٢٥٩).

(٤) سنن أبي داود (٣/ ٤٠٥ -٤٠٦).

(٥) صحيح البخاري: (٥/ ٢٢)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٧)، سنن أبي داود (٣/ ٤٠٧).

ولما تحزب الأحزاب وحاصروا المدينة، نقض بنو قريظة العهد وانضموا إلى الأحزاب، ولحق المسلمين شدة عظيمة، وجهد وجوع، كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]. قال موسى بن عقبة رحمه الله: (وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حيي بن أخطب أن يأخذ لهم من قريش وغطفان رهائن لئلا ينالهم ضيم إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمدًا. قالوا: وتكون الرهائن تسعين رجلًا من أشرافهم، فنازلهم حيي على ذلك فعند ذلك نقضوا العهد، ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد...)(١).

وستظل هذه العداوة بين المسلمين ويهود إلى قيام الساعة، كما تدل عليه الأحاديث النبوية الصحيحة:

ومها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»(٢).

وواقع الحال من تسلط اليهود على أرض فلسطين دليل متجدد على عداوتهم الأزلية الأبدية للمسلمين، وعلم من أعلام النبوة، وبشارات الفرج.

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (٤/ ١٠٣)، وسيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢٣٥ -٢٣٨).

(٢) صحيح البخاري: (٣/ ٢٣٢) واللفظ لمسلم (٤/ ٢٢٣٩).

- **موقف النصارى من الإسلام:**

لا يختلف الموقف العام للنصارى من الإسلام عن موقف اليهود، فكلا الطائفتين أصرت على عقائدها السابقة، وردت الحق الذي جاء به محمد ﷺ، ولا يعهد أن فرقة من فرق النصارى المعروفة -على كثرتها- أعلنت اعتناقها للدين الجديد، وانخلاعها من الأوضاع السابقة، وإنما يتميز النصارى على اليهود على المستوى الفردي، حيث تحفظ وقائع السيرة النبوية مواقف مشرفة صادقة لعدد من الأفراد الذين كانوا على النصرانية، فاعتنقوا الإسلام، أو على الأقل أبدوا مظاهر التبجيل والتعظيم لنبيه ﷺ وتأدبوا معه. ويقع هذا الموقف الفردي المتعاطف من أعلى القيادات السياسية والدينية للنصارى كما يقع من سائر الأفراد، في حين نفتقد هذا الملحظ بالنسبة لليهود.

وسنسوق أدناه بعض الشواهد لاستجلاء هذا الموقف، وبيان أوجه الموافقة والمفارقة مع ما سبق:

- إن أول اتصال جرى بين الإسلام والنصارى كان في الساعات الأولى من البعثة، فقد جاء في قصة بدء الوحي، بعد أن عاد ﷺ من غار حراء -حيث جاءه الملك- إلى زوجه خديجة رضي الله عنها يرجف فؤاده، فطمأنته ثم: (انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امْرَأً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العِبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمي، فقالت خديجة: يا ابن عم: اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أَوَ مخرجيَّ هم؟ قال:

نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي)[١].

- وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قصة الهجرة: (وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له: إن نفرًا من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قالا: في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم. قال جعفر[٢]: أنا خطيبكم اليوم، فاتَّبعوه. فسلم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسولًا، ثم أمرنا ألا نسجد لأحدٍ إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة، قال عمرو: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. قال: فما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه. قال: نقول كما قال الله: هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر، ولم يفرضها ولد. قال: فرفع عودًا من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا، مرحبًا بكم، وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم. والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما...)[٣].

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ

---

[١] صحيح البخاري: (١/ ٣-٤).

[٢] جعفر بن أبي طالب، الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ استشهد في غزوة مؤتة، سنة ثمان من الهجرة. تقريب التهذيب (١/ ١٣١).

[٣] مسند أحمد (١/ ٤٦١)، والبيهقي في دلائل النبوة ص (٢٩٨). وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (وهذا إسناد جيد قوي وسياق حسن) (٣/ ٦٩).

فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه، فقال: أيُّكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن الرجل، فإن كذبني فكذبوه. قال: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبًا لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملكٍ؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أُدخِل فيها شيئًا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحدٌ منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله، لقلت رجل يتأسَّى بقولٍ قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا. فقد أعرِف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشراف

الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميَّ هاتين. وقد كنت أعلم أنَّه خارج، لم أكن أظن أنه منكم. فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية(١) إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأخرجنا. فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.. وقال في آخره: فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرةٍ له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم: هل لكم في الفلاح والرُّشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى

---

(١) هو دحية بن خليفة بن فرزة بن فضالة الكلبي، صحابي جليل، مات في خلافة معاوية. تقريب التهذيب (١/ ٢٣٥).

الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليَّ. وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه. فكان ذلك آخر شأن هرقل)(١).

- عن حذيفة رضي الله عنه قال: (جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعنَّا لا نفلح ولا عقبنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال: لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ. فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام، قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة)(٢).

وخلف هذه الرموز يقف مئات بل ألوفٌ من النصارى يتخذون مواقف مشابهة، لا يتسع ديوان التاريخ لتقييدها جميعًا، لكن المحصلة العامة لحركة التاريخ، تثبت ما أسلفنا من تهيؤ النصارى لقبول الحق أكثر من اليهود، كما تثبت الشواهد السابقة حرص المؤسسة الكنسية بتنظيماتها المختلفة على التمسك بنصرانيتها حفاظًا على السيادة والقيادة والمصالح الشخصية.

ويحلو لبعض الكتاب المحدثين والصحفيين المدهنين، أن يتوددوا إلى النصارى باستدعاء الشواهد التاريخية على تعاطف النصارى مع المسلمين، وتمييع قضية العداوة الأزلية بين الفريقين التي نطقت بها نصوص الوحيين، والتلبيس على الناس بالخلط بين المواقف الفردية لآحاد النصارى الصادقين في طلب الحق، والموقف العدائي الدائم للكنيسة على اختلاف اتجاهاتها، وتعدد

---

(١) صحيح البخاري: (١/ ٥ -٧)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٣ -١٣٩٧).

(٢) صحيح البخاري: (٥/ ١٢٠).

فرقها. إن مقتضى الأمانة التاريخية -فضلًا عن الثوابت العقدية- تقضي بإبراز المواقف العدائية العنيفة للنصارى ضد المسلمين منذ العهد النبوي وحتى يومنا هذا، ومحاولة فتنتهم عن دينهم، شواهد ذلك في العهد النبوي:

- حشدهم مئتي ألف مقاتل من الروم ونصارى العرب في معركة «مؤتة» مقابل ثلاثة آلاف مجاهد من المسلمين⁽¹⁾.

وأما التاريخ الإسلامي فحافلٌ بالعلاقات العدائية الدموية -كما سنلمح إليه في الفصل التالي- بين المسلمين والنصارى. وشواهد العصر الحديث حاضرة ماثلة في مواقع متعددة من العالم كالفلبين، وإندونيسيا، وأريتريا، والبلقان.

يبقى أن نقرر جازمين أن هذه العلاقة العدائية ستظل إلى يوم القيامة عداوةً أبدية، لإخبار الله ورسوله ﷺ بذلك، فقد أخبر النبي ﷺ عن الفتن والملاحم التي تكون في آخر الزمان بين أهل الإسلام وعبدة الصلبان بما لا يدع مجالًا للشك في أبدية هذه العداوة، وأن ما يجري هذه الأيام منهم من مجاملات ومودات إنما هو قشرة رقيقة ظاهرة تخفي تحتها عداوة متأصلة، وكيدًا خفيًّا، وإحنًا وأحقادًا لا يطفئ لهيبها إلا أن نتبع ملتهم -عياذًا بالله- ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ومن أمثلة هذه الأحاديث الصحيحة:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق⁽²⁾، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل

---

(١) انظر: ما أفرد في وصف المعركة مثل: غزوة مؤتة: لمحمد أحمد باشميل. وغزوة مؤتة لشوقي أبو خليل وغيرهما.

(٢) موضعان بالشام قرب حلب.

الأرض يومئذٍ فإذا تصافُّوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبدًا. فيفتحون قسطنطينية، فبينا هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينا هم يُعِدون للقتال يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة. فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فأمَّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته)(١).

- وعن ذي مِخبَر(٢) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، فتغزون أنتم وهم عدوًّا من ورائكم، فتنصرون وتغنمون وتسلمون ثم ترجعون، حتى تنزلوا بمرجٍ ذي تلول، فيرفع رجلٌ من أهل النصرانية الصليب فيقول: غلب الصليبُ، فيغضبُ رجلٌ من المسلمين، فيدقُّه، فعند ذلك تغدر الروم، وتجمع للملحمة)(٣)، وفي رواية: (وتكون الملاحم، فيجتمعون إليكم فيأتونكم في ثمانين غاية، مع كل غاية عشرة آلاف)(٤).

- تلك طبيعة العلاقة مع عباد الصليب في الماضي والحاضر والمستقبل، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٢١).

(٢) ذي مِخْبر، الحبشي، صحابي، نزل الشام، وهو ابن أخي النجاشي. تقريب التهذيب (١/ ٣٩).

(٣) رواه أبو داود (٣/ ٢١٠)، وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٦٩) والحاكم (٤/ ٤٢١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال في الزوائد: إسناده صحيح.

(٤) رواه أحمد (٤/ ٩١)، والحاكم (٤/ ٤٢١) وصححه ووافقه الذهبي.

المبحث الخامس

لمحة تاريخية عن العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب

تبين من المبحثين السابقين أن العهد النبوي شهد اكتمال الأحكام العقدية والشرعية الإسلامية تجاه أهل الكتاب، بما لا يدع مجالًا لتحريفٍ أو ابتداع. كما شهد أيضًا تطبيق تلك الأحكام واقعًا مُعاشًا من خلال مساكنة اليهود المسلمين في المدينة، وفرض الجزية على نصارى نجران، وغيرهم. فلا ريب أن ذلك العهد الزاهر لا يمثل مرحلة تاريخية فحسب، بل مرجعية عقدية شرعية لكل المراحل التالية.

كما أن مواقف زعامات أهل الكتاب الدينية والسياسية إبان ذلك العهد رسمت الطريق لخلفهم في الاستنكاف عن قبول الحق، ومعاداة أهله.

ونقصد في هذا المبحث الإلمام بمجمل العلاقات التاريخية بين المسلمين بعد العهد النبوي المتميز، وأهل الكتاب، سواء كانوا ذميين أو مستأمنين أو كانوا حربيين، ولا شك أن الإحاطة بتفاصيل ومفردات العلاقات التاريخية بين المسلمين وأهل الكتاب عمل موسوعي ضخم يتطلب توافر عشرات الباحثين عليه، لسعة رقعته الزمانية والمكانية وتنوع مادته. والمقصود هنا وضع خطوطٍ عامة بارزة لتكوين خلفية تاريخية يستصحبها القارئ وهو يدلف إلى دراسة قضية معاصرة، ونازلة جديدة هي «دعوة التقريب بين الأديان».

يمكن أن نقسم تاريخ العلاقات الإسلامية -الكتابية إلى خمس مراحل متميزة⁽١⁾، آخذين في الحسبان حين التقسيم العلاقات الإسلامية -النصرانية أساسًا، لكونها الجبهة الساخنة، ذات الشوكة والمواجهة، والكر والفر، والمد والجزر، على مدار التاريخ، في حين تختفي اليهودية في معظم حِقَب التاريخ عن الصدارة بسبب القلة العددية، والشتات القومي ليهود، والذلة والمسكنة التي ضربها الله عليهم دون التقليل من خطرهم وكيدهم الخفي.

- **المرحلة الأولى- من عام ١١هـ إلى عام ١١٤هـ:**

تضم هذه المرحلة عصر الخلفاء الراشدين وصدر الإسلام، وعلى وجه التحديد من وفاة الرسول ﷺ إلى معركة «بلاط الشهداء»، في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك⁽٢⁾، حيث بلغت الدولة الإسلامية الفتية أقصى اتساعها في غرب أوروبا، وشارفت جيوش عبد الرحمن الغافقي⁽٣⁾ رحمه الله على اجتياح

---

(١) سيكون تاريخ الحافظ ابن كثير رحمه الله (البداية والنهاية) مرجعًا أساسيًا في هذا العرض التاريخي، لاستيعابه فترة طويلة من تاريخ العلاقات، ولمزاياه الفنية المنهجية، ودفعًا للتوسع والإطالة في مبحثٍ لا يهدف أصلًا الدراسة التاريخية المتخصصة، وإنما التقاط الشواهد التاريخية التي تتأتى من مصدر واحدٍ وثيق كالبداية والنهاية.

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان (٧١ -١٢٥هـ) من خلفاء الدولة الأموية. بويع له بالخلافة سنة ١٠٥هـ. نشط في عهده الجهاد في سبيل الله فقاتل المسلمون الترك، وقتلوا خاقانهم، واستولوا على بلاد ما وراء النهرين، وكثر المال. كان حسن السياسة، يقظًا في أمره، يباشر الأعمال بنفسه. انظر: الأعلام (٨/ ٨٦)، البداية والنهاية (٩/ ٣٥١-٣٥٤).

(٣) عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي أمير الأندلس، أصله من غافق، من قبيلة عك في اليمن. رحل إلى إفريقية ثم إلى الأندلس، ولاه هشام بن عبد الملك إمارة الأندلس سنة ١١٢هـ، وهو الذي بنى قنطرة قرطبة المشهورة. واجتاز بالمسلمين جبال البرانس لغزو بلاد الغال «فرنسا» فاستولى على أجزاء منها، ودحر جيوش شارل مارتل، فجمع له جيشًا كبيرًا، فدارت معركة هائلة في «بواتييه» عرفت باسم بلاط الشهداء، استشهد فيها رحمه الله. انظر: الأعلام (٣/ ٣١٢).

فرنسا، وتمثل هذه المرحلة «المرحلة الذهبية» للإسلام مع النصرانية، حيث طُوِي بساط النصرانية عن الأقاليم المعمورة؛ في الشام والعراق ومصر والمغرب وإسبانيا وجنوب فرنسا، ونشر أعلام الإسلام عبر سلسلة متتابعة من الفتوحات السريعة المذهلة، كان قوادها، ولحمة سداها، أصحاب محمد ﷺ وخيار التابعين(١).

لقد تميزت هذه المرحلة «الذهبية» المدهشة بجملة من الخصائص الفريدة:

أولًا: الدافع العقدي النقي والحماس الإيماني الجهادي لدى الفاتحين المسلمين.

ومن أمثلة ذلك ما جاء عن موسى بن نصير(٢) رحمه الله، أنه كان يقول: (لو انقاد الناس لي لقدتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية -وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج- ثم ليفتحها الله على يدي إن شاء الله تعالى)(٣). وبهذه الروح الوثابة، وهذا التألق الإيماني، رسم الفاتحون خريطة العالم من جديد، وأزاحوا النصرانية عن أشرف مقدساتها، وأغلى مرابعها، وأرسوا دعائم الدين الحق، ووطدوا أركانه.

ثانيًا: الإقبال العظيم علىٰ اعتناق الإسلام، والدخول في دين الله من أبناء البلاد المفتوحة رضًا وطواعية. يقول برنارد لويس(٤): (... تقدم المسلمون من انتصار إلى انتصار، وعليه نشأ خلال قرن واحد كيان شاسع الأصقاع يمتد من

---

(١) انظر الأصل في تفصيل أهم الفتوحات في هذه المرحلة.

(٢) موسى بن نصير بن عبد الرحمن اللخمي، بالولاء (١٩ -٩٧هـ)، فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز، وجه مولاه طارق بن زياد لفتح الأندلس عام ٩٢هـ، ففتحها ثم التحق به في العام التالي، وأكملا معًا فتح الجزيرة حتى جبال البرانس، وتوفي في وادي القرى. وكان شجاعًا عاقلًا كريمًا، لم يهزم له جيش قط رحمه الله. انظر: الأعلام (٧/ ٣٣٠).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

(٤) برنارد لويس: ولد في لندن عام ١٩١٦م. أستاذ الدراسات الخاصة بالشرق الأدنى في جامعة «برنستون». يشغل العديد من المناصب العلمية. له عشرات الأبحاث المنشورة في التاريخ والفرق. انظر التعريف به في مقدمة كتابه (الإسلام الأصولي).

حدود الهند والصين إلى جبال البيرينيه وسواحل المحيط الأطلسي، وهو كيان يحكم ملايين الأتباع، وبأعدادٍ هائلة، ممن اعتنقوا الدين الجديد...)(١).

إن التفسير الحقيقي لظاهرة الاعتناق الجماعي للإسلام من سكان البلاد المفتوحة؛ كتابيين أو وثنيين، ترجع إلى أمرين أساسيين:

أولهما: صحة العقيدة الإسلامية ووضوحها ومتانتها، وموافقتها التامة للعقل والفطرة وأصول الشرائع السابقة، وبُعدها عن التعقيد والغموض والتكلف والبدعة التي آلت إليها الأديان المحرفة.

وثانيهما: الالتزام الشرعي، والتطبيق الدقيق لحملة هذا الدين من الفاتحين المؤمنين الأولين، حتى ضربوا أروع الأمثلة في الصدق والوفاء بالعهود، وحفظ الذمة والعدل والنزاهة، مع صدق الإيمان وقوة الصلة بالله تعالى.

- **المرحلة الثانية- من عام ١١٥هـ إلى عام ٤٩٠هـ:**

حيث بلغت الفتوحات الإسلامية أقصى امتدادٍ لها، وآذنت بالانحسار التدريجي البطيء، وانتهت بإرهاصات الحملات الصليبية.

والسمة المميزة لهذه المرحلة من ناحية العلاقات الإسلامية الكتابية كونها مرحلة كرٍّ وفر، ومناوشات متبادلة، وفتح بعض البلدان -كأنقرة وعمورية- وعمليات صلح وتبادل أسرى، وحماية ثغور وسقوط بعض المواقع والثغور والبلدان التي كانت بيد المسلمين في جنوب فرنسا، وفي الشام، وجزر البحر المتوسط، في حين يستميت أهل الثغور من المسلمين في الدفاع، دون أن تشهد إضافة أقاليم كبار لدار الإسلام كما كان الحال في المرحلة الأولى.

---

(١) الإسلام والغرب: برنارد لويس(٥).

فهذه المرحلة لم تشهد عمليات فتح كبرى، على الجانب النصراني على الأقل، أخذًا بالحسبان بعض الفتوحات الإسلامية في المشرق، بل اتخذ الجهاد صفة حماية الثغور، وأخذ الجزية في بادئ الأمر، ثم جرت عملية انحسار تدريجي بطيء استغرق قرونًا، في أطراف الدولة الإسلامية بسبب ضعف الخلافة، وإنهاك الدولة بالحروب والفتن الداخلية التي أثارتها الدول الرافضية في أواخر القرن الثالث، والقرن الرابع.

وأما على الصعيد الداخلي فقد سارت عملية فهم الإسلام واعتناقه من قبل السكان المحليين سيرًا حثيثًا(١)، بسبب كثرة العلماء والصالحين والوعاظ، وظهور آثار الإسلام الاجتماعية والنفسية على معتنقيه.

- **المرحلة الثالثة- من عام ٤٩٠هـ إلى عام ٦٩٠هـ:**

تمثل هذه المرحلة حقبة الحملات الصليبية المنطلقة من غرب ووسط أوروبا النصرانية إلى بلاد المشرق الإسلامي (سواحل الشام ومصر وآسيا الصغرى)، في سبع حملاتٍ متعاقبة استغرقت قرابة قرنين من الزمان (٤٩٠-٦٩٠هـ). إضافة إلى استمرار الزحف النصراني جنوبًا على بقية الأندلس المسلمة، وبقية جزر البحر الأبيض المتوسط.

والسمة المميزة لهذه المرحلة هي انتقال المجابهة النصرانية من الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية إلى دول وسط وغرب أوروبا الكاثوليكية بقيادة بابوات روما، ومن ثم انتقال أرض المعركة من الحدود والثغور المتاخمة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا الوسطى إلى العمق الإسلامي في السواحل الشامية وبيت المقدس، بسبب

---

(١) انظر الجداول الإحصائية والرسوم البيانية لنسب السكان من مختلف الطوائف. المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٤٤-٤٧).

عمليات الإنزال البحري التي تقذف بها هذه الحملات، أو الجموع الهوجاء التي تنطلق من الممالك الأوروبية لتلتقي عند أسوار القسطنطينية، وتُفوَّج من هناك.

ويمكن أن يؤرخ لبدء الحملات الصليبية بالاجتماع الحاشد الذي دعا إليه البابا «أربان الثاني» في مدينة «كليرمون» في جنوب فرنسا، في نوفمبر من عام ١٠٩٦م، وحضره كبار الأساقفة والأمراء والإقطاعيين. وقد ألهب البابا حماس المجتمعين بخطبة بليغة مؤثرة، أثار فيها العصبية الدينية، بل والأطماع الدنيوية، تمحورت حول أربع ركائز:

الأولى: الدعوة إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين، استنادًا إلى نصوص من الإنجيل.

الثانية: أنه يدعو إلى هذه الحملة باسم الرب بوصفه نائبًا عنه في الأرض.

الثالثة: الحث على نبذ الخلافات بين المؤمنين بالمسيح وتوحيد الجهود.

الرابعة: منح غفران جزئي لكل من يشارك في هذه الحملة، سواء مات في الطريق أو قتل⁽¹⁾.

واستجاب الحاضرون لنداءات البابا التحريضية، وصاحوا جميعًا في ذلك الحقل الفسيح صيحة مدوية صارت شعارًا في حروبهم المقبلة مع المسلمين قائلين: (الرب يريدها) أو (تلك إرادة الله). ثم شرع الباب أوروبان الثاني يجوب أنحاء فرنسا للدعوة إلى حربه المقدسة. كما برز قادة كنسيون شعبيون من أمثال «بطرس الناسك» هجروا أديرتهم وتفرغوا لتهييج الفلاحين والفقراء لإنقاذ مهد المسيح -بزعمهم-، ودغدغة مشاعرهم بامتلاك الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا⁽²⁾.

---

(١) باختصار من: ماهية الحروب الصليبية. د.قاسم عبده قاسم. (١٠٣ -١٠٦).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية: (١٠٨ -١١١).

وعلى مدى قرنين من الزمان تمخضت أوروبا الصليبية عن سبع حملات شهيرة موجهة نحو بلاد المشرق الإسلامي، نوجزها بما يأتي:

أولًا: الحملة الصليبية الأولىٰ:

تكونت من خمسة جيوش جرارة، قدمت من فرنسا وألمانيا وإيطاليا والتقت في عاصمة الإمبراطورية البيزنطية «القسطنطينية» في أواخر عام ١٠٩٦م، ثم عبرت مضيق البسفور متجهة نحو دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فسقطت عاصمتهم «نيقية» عام ١٠٩٧م، وسقطت أنطاكية. ثم واصل الصليبيون مسيرهم جنوبًا فاستولوا على «معرة النعمان»، وكان الهدف الأخير مدينة «القدس».

قال ابن كثير رحمه الله: (لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمئة، أخذت الفرنج لعنهم الله بيت المقدس، شرفه الله، وكانوا في نحو ألف ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علَوْا تتبيرًا)(١). وهكذا تكونت مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١١٠٠م(٢)، حتى دان لهم شرق البحر الأبيض المتوسط مع ما كانوا يتعرضون له من الهزائم المنكرة على أيدي المسلمين(٣).

ثانيًا: الحملة الصليبية الثانية (١١٤٥-١١٤٩م):

تكونت من جيوش ألمانيا بقيادة الإمبراطور «كونراد الثالث»، وفرنسا بقيادة ملكها «لويس التاسع»، ووصلت إلىٰ المنطقة نهاية عام ١١٤٧م، وقد منيت بالفشل الذريع، وعاد الملكان الصليبيان يجران أذيال الخيبة(٤).

---

(١) البداية والنهاية: (١٢/ ١٥٦).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٢٠ -١٣٠).

(٣) انظر الأصل لمزيد من التفصيل.

(٤) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٣٩ -١٤٠). وانظر البداية والنهاية: (١٢/ ٢٢٤)، حوادث سنة ٥٤٣هـ.

وكان من آثار هذه الحملة على الجانب الإسلامي مزيد من التوحد بين الممالك الإسلامية، فقد صارت بلاد الشام جبهة واحدة تحت قيادة نور الدين محمود، في مواجهة الإمارات الصليبية على امتداد الساحل. وبقيت الجبهة الجنوبية، مصر بأيدي العبيديين.

وقد تصدى نور الدين محمود زنكي لجهاد الصليبيين، وانتزع الحصون والبلاد من أيديهم في بلاد الشام في وقائع مظفرة(١).

وانتزع الصليبيون عسقلان من أيدي العبيديين سنة ٥٤٨هـ، وأثار ذلك مخاوف نور الدين محمود من طمعهم في الاستيلاء على مصر، في وقتٍ كانت الدولة العبيدية تلفظ أنفاسها الأخيرة. وحصل ما توقعه نور الدين -فعلًا- في سنة أربع وستين وخمسمئة(٢)، فبعث نورُ الدين أسدَ الدين شيركوه وابنَ أخيه صلاح الدين، فانسحب الصليبيون، وفُتِحت مصر في تلك السنة، وبعد فك الحصار عن «دمياط» سنة خمس وستين(٣)، اتجه صلاح الدين إلى إصلاح ما أفسده العبيديون الرافضة واجتثت تلك الشجرة الخبيثة من أرض الإسلام، وعادت مصر إلى حظيرة السنة، وعاصمة الخلافة(٤).

وفي الخامس عشر من شهر رجب سنة ٥٨٣هـ سارت جحافل المسلمين إلىٰ بيت المقدس ففتحوه يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب، بعد أن بقي بيد عبدة الصلبان اثنتين وتسعين سنة (٤٩٢-٥٨٣هـ)(٥) (١٠٩٩-١١٨٧م).

---

(١) انظر الأصل لمزيد من التفصيل.

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٥٥).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٦٠).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ١٦٤).

(٥) انظر: تفاصيل ذلك الفتح العظيم في البداية والنهاية (١٢/ ٣٢٣-٣٢٧).

ثالثًا: الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٦هـ-١١٩٠م):

كان وقع أنباء انتصارات صلاح الدين مؤلمًا في أوروبا، حتى إن البابا أربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧م) مات من هول الصدمة حين بلغته الأنباء(١). قال ابن الأثير: (ثم إن الرهبان والقسوس، وخلقًا كثيرًا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم بلاد الفرنج، يطوفها بهم جميعًا، ويستنجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس، وصوروا المسيح عليه السلام، وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشروا، وحشدوا حتى النساء)(٢).

وقد تكونت الحملة الصليبية الثالثة من كبار ملوك أوروبا، وهم:

- الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا (١١٥٢-١١٩٠م)، وملك إنجلترا ريتشارد الأول (١١٨٩-١١٩٩م)، وملك فرنسا فيليب أغسطس (١١٨٠-١٢٢٣م).

وقد وصل الفرنسيون عكا في ربيع الأول سنة سبع وثمانين، ثم وافاهم الإنجليز في السنة نفسها، وحاصروها حصارًا شديدًا، حتى سقطت، وقتل الفرنج ثلاثة آلاف أسير من أهلها صبرًا. رحمهم الله.

ولم تتمكن هذه الحملة التي علقت عليها الآمال تحقيق أهدافها من استعادة بيت المقدس ومدن الساحل حتى يئسوا وطلبوا الصلح والأمان، وجرت الهدنة

---

(١) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٤٨).

(٢) الكامل في التاريخ (١٠/ ٦٩).

بين المسلمين والنصارى في السابع من شعبان من سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمئة على وضع الحرب ثلاثين سنة ونصف.

رابعًا: الحملة الصليبية الرابعة (٦٠٠هـ-١٢٠٤م):

كان هدف هذه الحملة «مصر»، وذلك في عهد البابا «إنوسنت الثالث» (١١٩٨-١٢١٦م)، ولكن مسار الحملة انحرف عن القاهرة إلى القسطنطينية للقضاء على الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، فدمروا المدينة الحصينة ونهبوها، وقتلوا إخوة الدين، (ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام، وقد تقووا بملكهم القسطنطينية، فنزلوا عكا وأغاروا على كثيرٍ من بلاد الإسلام من ناحية الغور وتلك الأراضي فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل(١)، وكان بدمشق، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية، ونازلهم بالقرب من عكا، فكان بينهم قتال شديد وحصار عظيم، ثم وقع الصلح بينهم والهدنة، وأطلق لهم شيئًا من البلاد، فإنا لله وإنا إليه راجعون(٢).

خامسًا: الحملة الصليبية الخامسة (٦١٥-٦١٨هـ) (١٢١٨-١٢٢١م):

استهدفت هذه الحملة مصر، أيضًا، وانطلقت من عكا على الساحل الشامي قوات الصليبيين، ونزلت على «دمياط»، وذلك سنة خمس عشرة وستمئة، فسقطت دمياط وما وراءها، ثم سار الصليبيون متجهين نحو القاهرة، ونازلهم المسلمون في مواقع كثيرة... وحصرهم المسلمون...فحينئذٍ أنابوا إلى المصالحة بلا معاوضة)(٣). وكان ذلك سنة ثماني عشرة وستمئة.

---

(١) محمد بن أيوب بن شادي، أبو بكر، أخو السلطان صلاح الدين ونائبه على مصر. من كبار سلاطين الدولة الأيوبية. (٥٤٠ -٦١٥ هـ)، قضى على بقايا الإسماعيلية بمصر سنة ٦٠٤هـ. قال المقريزي: «ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم»، انظر: الأعلام (٦/ ٤٧).

(٢) البداية والنهاية: (١٣/ ٣٧).

(٣) البداية والنهاية: (١٣/ ٩٥).

سادسًا: الحملة الصليبية السادسة (٦٢٦هـ-١٢٢٨م):

قائد هذه الحملة هو الإمبراطور الألماني فردريك الثاني (١٢١٥-١٢٥٠م)، يصف ابن كثير أحداث سنة ست وعشرين وستمئة فيقول: (... قويت نفوس الفرنج لعنهم الله بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر، وبموت المعظم(١)، واختلاف من بعده من الملوك. فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ منهم، فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك أن يردوا لهم بيت المقدس وحده! وتبقى بأيديهم بقية البلاد. فتسلموا القدس الشريف، وكان المعظم قد هدم أسواره، فعظم ذلك المسلمين جدًّا، وحصل وهن شديد، وإرجافٌ عظيم. فإنا لله وإنا إليه راجعون)(٢).

وظل بيت المقدس بيد الصليبيين عشر سنين (٦٢٦-٦٣٦هـ)، (١٢٢٩-١٢٣٩م)، تمثل الهدنة السابقة. وما إن انقضت سني الهدنة حتى قاتلهم الأيوبيون في غزة سنة ست وثلاثين وستمئة وهزموهم شر هزيمة، ثم استنقذوا بيت المقدس في السنة نفسها ولله الحمد. وظلت بأيدي المسلمين حتى استولى عليها الإنجليز، ثم اليهود الصهاينة في العصور الأخيرة(٣).

سابعًا: الحملة الصليبية السابعة (٦٤٧هـ-١٢٤٩م):

كانت هذه الحملة موجهة أيضًا إلى مصر، انطلقت من ميناء مرسيليا الفرنسي بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزل قبالة «دمياط»، وذلك في آخر حياة الملك

---

(١) الملك المعظم: توران شاه بن أيوب بن شادي، شمس الدولة، فخر الدين، أخو صلاح الدين الأيوبي. تولى اليمن ثم دمشق، ثم انتقل إلى مصر سنة ٥٧١هـ حتى مات فيها سنة ٥٧٦هـ. انظر: الأعلام (٢/ ٩٠).

(٢) البداية والنهاية: (١٣/ ١٢٤).

(٣) ماهية الحروب الصليبية: (١٦٢).

الصالح(١) أيوب. (فهرب من كان فيها من الجند والعامة، واستحوذ الفرنج على الثغر وقتلوا خلقًا كثيرًا من المسلمين)(٢). وفي مطلع سنة ثمانٍ وأربعين وستمئة (في ثالث المحرم يوم الأربعاء، كان كسر المعظم توران شاه للفرنج على ثغر دمياط، فقتل منهم ثلاثين ألفًا، وقيل مئة ألف، وغنموا شيئًا كثيرًا ولله الحمد، ثم قتل جماعة من الأمراء الذين أسروا. وكان فيمن أسر ملك الفرنسيين وأخوه)(٣). وقد أفرج عنه فيما بعد لقاء فدية كبيرة والانسحاب عن دمياط. وقد كانت هذه الحملة آخر حملة صليبية على مصر(٤)، بل كانت آخر حملة صليبية ذات بال على المشرق الإسلامي.

وقد كانت تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام مما قام به القائد المملوكي المظفر السلطان الظاهر بيبرس البندقداري(٥) (٦٥٨-٦٧٦هـ) في موسم حصاد رابح: قيسارية وأرسوف (٦٦٣هـ-١٢٦٨م)، قلعة صفد (٦٦٤هـ-١٢٦٦م)، يافا (٦٦٦هـ-١٢٦٨م).

وفي العام نفسه حصل الفتح الكبير لأنطاكية بعد أن ظلت أسيرة بيد الصليبيين أكثر من مئة وخمسين عامًا.

---

(١) أيوب بن محمد الكامل بن أبي بكر العادل بن أيوب، (٦٠٣-٦٤٧هـ):. من كبار الملوك الأيوبيين بمصر. ولد ونشأ بالقاهرة. وولي بعد خلع أخيه العادل الثاني سنة ٦٣٧هـ. كان شجاعًا مهيبًا عفيفًا صموتًا. أغار الإفرنج في أواخر أيامه على دمياط سنة ٦٤٧هـ. فتوفي بالسل أثناء جهادهم بالمنصورة. ودفن بالقاهرة. انظر: الأعلام (٢/ ٣٨).

(٢) البداية والنهاية: (١٣/ ١٧٧).

(٣) البداية والنهاية: (١٣/ ١٧٨).

(٤) ماهية الحروب الصليبية: (١٦٥).

(٥) بيبرس العلائي الصالحي(٦٢٥ -٦٧٦هـ) ولد بأرض القبجاق، وأسر فبيع حتى آل إلى الملك الصالح، نجم الدين أيوب فقربه ثم أعتقه. صار «أتابك» العساكر المصرية زمن الملك قطز وقاتل معه التتار في «عين جالوت». تولى سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨. وقاتل الصليبيين، وفتح بلاد النوبة. وكان شجاعًا جبارًا. توفي في دمشق. انظر: الأعلام (٢/ ٧٩).

وفي عهد السلطان المنصور قلاوون(١) تابع فتوح سلفه بيبرس، فقد سقط حصن المرقب سنة (٦٨٤هـ-١٢٨٥م)، ثم اللاذقية في سنة (٦٨٦هـ-١٢٨٧م)، ثم طرابلس وبيروت وجبلة سنة (٦٨٨هـ-١٢٩١م) في عهد السلطان الأشرف خليل(٢) ابن السلطان المنصور قلاوون، مؤذنًا بنهاية الوجود الصليبي على أرض الإسلام بعد مئتي عامٍ تمامًا من حملتهم الأولى(٣).

لقد مرت بالمسلمين مرحلة عصيبة طوال هذين القرنين (٤٩٠-٦٩٠هـ) من جراء هذا الغزو الصليبي، ودافع المسلمون دفاعًا مجيدًا عن ديارهم ومقدساتهم.

والحقيقة أنه ما كان يمكن أن يكون للصليبيين موطئ قدم، لولا عوامل داخلية مهدت لهم الطريق، أهمها:

أولًا: تسلط دول الرافضة على رقاب المسلمين(٤).

ثانيًا: التشرذم السياسي، والفتن الداخلية، داخل معسكر أهل السنة، وضعف الخلافة العباسية في معظم الأحوال.

---

(١) قلاوون الألفي العلائي الصالحي، النجمي، (٦٢٠ -٦٨٩هـ) أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام. قبجاقي الأصل. أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ، خدم الظاهر بيبرس، وابنه العادل ثم خلعه، وتولى السلطنة. وكانت له حروب مع التتار والنوبة، ظفر فيها وغنم. مات بالقاهرة. انظر: الأعلام (٥/ ٢٠٣).

(٢) خليل بن قلاوون الصالحي، (٦٦٦ -٦٩٣هـ) من ملوك مصر. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٩، واستفتح الملك بالجهاد واسترد منهم عكا وصورًا وصيدا وبيروت وجميع الساحل، وكان شجاعًا مهيبًا عالي الهمة جوادًا. قتل غيلة بمصر. انظر: الأعلام (٢/ ٣٢١).

(٣) انظر: ماهية الحروب الصليبية: (١٦٦ -١٧٠) والبداية والنهاية (١٣/ ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٢، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٠).

(٤) ومن ذلك الاغتيالات المتكررة لرموز أهل السنة من قبل الإسماعيلية انظر البداية والنهاية (١٢/ ١٥٨، ١٥٩، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٠، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٩٨).

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه رحى حرب صليبية في المشرق الإسلامي، كانت تجري أحداث مشابهة في الساحة الأندلسية. إذ لم تشترك «إسبانيا النصرانية» في الحملات الصليبية المتجهة إلى بيت المقدس لأنها كانت تخوض حربًا صليبية حامية الوطيس في عقر دارها، هدفها طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية وإعادتها إلى المنظومة الأوروبية، والكنيسة الكاثوليكية.

فبعد سقوط «طليطلة» الخطير، مستهل سنة (٤٧٨هـ-١٠٨٥م)، لم يوقف تقدم الإسبان الجارف لالتهام دويلات ملوك الطوائف إلا جواز أمير المرابطين، يوسف بن تاشفين⁽¹⁾ (٤٦٣-٥٠٠هـ) إلى البر الأندلسي، والتحام المسلمين والنصارى في سهل «الزلاقة» في معركة فاصلة من معارك التاريخ الكبرى، كان النصر فيها حليف المسلمين، في الثاني عشر من شهر رجب سنة (٤٧٩هـ-١٠٨٦م)⁽²⁾. وكان من ثمرات هذه المعركة إلى جانب وقف الزحف النصراني، إنهاء عهد ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس المسلمة تحت راية المرابطين، ثم من بعدهم الموحدين، حيث جاءت الوفود الأندلسية تستنصر إمام الموحدين عبد المؤمن بن علي القيسي⁽³⁾ في الدين، فجاز البحر خمسمئة (٥٥٦هـ-١١٦١م)، وضم ممالك الأندلس ومدنها تحت راية الموحدين وأثخن في النصارى.

---

(١) الصنهاجي اللمتوني الحميري (٤١٠ -٥٠٠هـ) ملك الملثمين، سلطان المغرب الأقصى، وباني مدينة مراكش. كتب إليه المعتمد بن عباد، صاحب أشبيلية يستنجده على قتال الفرنج، فجاز إلى الأندلس وكسر النصارى في وقعة الزلاقة الفاصلة سنة ٤٧٩ وبايعه ملوك الطوائف، وملك الجزيرة كلها وبلاد المغرب. انظر: الأعلام (٨/ ٢٢٢).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ (٨/ ٣٠٧).

(٣) مؤسس دولة الموحدين في المغرب وإفريقية وتونس. التقى بابن تومرت فتصادقا وانتهى الأمر بأن ولي ابن تومرت ملك المغرب الأقصى، ولقب بالمهدي، وجعل لعبد المؤمن قيادة جيوشه، ثم خلفه سنة ٥٢٤هـ، وقاتل المرابطين، فاستأصلهم، ودخل الأندلس واستولى على مدائنها. ودفن إلى جوار ابن تومرت(٤٨٧ -٥٥٨هـ) انظر: الأعلام (٤/ ١٧٠).

ثم ابتدأ الوهن في جانب الموحدين في إثر موقعة «العقاب» التي مني فيها أبو عبد الله محمد الناصر⁽¹⁾ -سلطان الموحدين- بهزيمة فادحة، وذلك سنة (٦٠٩هـ-١٢١٢م)، أعقبها انتكاسات خطيرة في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وتهاوت حواضر الأندلس الشهيرة الواحدة تلو الأخرى في ملحمة مأساوية، وبدت الأندلس المسلمة في النصف الثاني من القرن السابع تسير نحو مصيرها المحتوم، لولا نفحة ربانية أجراها الله تعالى على أيدي «المرينيين» أنعشت الوجود الإسلامي في جنوب الجزيرة المتمثل في مملكة بني الأحمر في «غرناطة»، فاستنجد بنو الأحمر بإخوة الدين، فهب أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني⁽²⁾ لنجدتهم، وتمكن من دحر النصارى سنة أربعٍ وسبعين وستمئة، وهكذا اكتشف النصارى أن من الخير لهم الرضا بوجودٍ إسلامي محدود في جنوب الأندلس، دون المخاطرة بعمل عسكري أحمق يثير حمية المسلمين في العدوة المقابلة، فيتعرضون لحملة إسلامية لا يستطيعون التنبؤ بآثارها. وقد أجَّلت هذه التحسبات والمخاوف دولة بني الأحمر قرنين من الزمان، إلى أن سقطت آخر الحواضر الإسلامية من بلاد الأندلس، مدينة غرناطة، في الثامن من ربيع الأول سنة سبعٍ وتسعين وثمانمئة، الموافق (١٤٩٢م). ولله الأمر من قبل ومن بعد⁽³⁾.

---

(١) بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، من خلفاء دولة الموحدين في المغرب والأندلس. في أيامه كانت وقعة «العقاب» مع نصارى الأندلس سنة ٦٠٩، كسر فيها الموحدون. عاد بعدها إلى مراكش، وتوفي بها سنة ٦١٠هـ. انظر: الأعلام (٧/ ١٤٥).

(٢) (٦٠٧ -٦٨٥هـ) بربري من أصل عربي. آلت إليه إمارة بني مرين سنة ٦٥٦هـ، قضى على دولة الموحدين سنة ٦٧٤، وصفا له المغرب كله، ثم جاز إلى الأندلس، فأثخن في النصارى واسترد منهم ما أخذوه من مدائن الأندلس، توفي في الجزيرة الخضراء بالأندلس. انظر: الأعلام ٨/ ١٩٩.

(٣) انظر: مقالة «حرب الاستعادة الإسبانية: هل هي حرب كلونية مقدسة ضد الإسلام؟ ل: فيسنت كانتارينو. مجلة الاجتهاد (٢٩/ ٥٩ -٨١).

لقد كانت حرب الاستعادة الإسبانية -Spanish Reconquest كما يسميها المؤرخون النصارى- حربًا صليبية صرفة، تقف خلفها حركة الإصلاح الكلوني، التي ولدت في «دير كلوني» في مطلع القرن العاشر الميلادي (٩١٠م).

أما على الصعيد الداخلي في «دار الإسلام»، فقد بقي أهل الذمة من حيث العموم يواصلون عيشهم في أحضان المجتمع الإسلامي وفق القواعد المقررة في الكتاب والسنة والإجماع، ولقد كان المسلمون خلال هذين القرنين يفرقون بين «أهل الذمة» و«الفرنج» الحربيين.

- **المرحلة الرابعة (٦٩٠هـ-١٢١٣هـ):**

لم تكد تطوى صفحة الصليبيين في بلاد الشام، وهم يستقلون مراكبهم هاربين من عكا سنة (٦٩٠هـ-١٢٩١م)، حتى فتحت صفحة جديدة من صفحات المواجهة الإسلامية النصرانية.

لقد شهد النصف الأخير من القرن السابع الهجري نشأة إمارة صغيرة لقوم من الترك النازحين إلى هضبة الأناضول -فرارًا من بطش المغول- حيث تأسست دولة مستقلة على يد أميرهم عثمان بن أرطغرل، صارت فيما بعد أطول دولة في التاريخ عمرًا، عرفت باسم الدولة العثمانية(١).

اتجه آل عثمان إلى قتال الروم، ووطئت أقدامُهم أراضِيَ لم يطأها فاتح مسلمٌ من قبل. فقد تمكن السلطان عثمان (٦٩٩-٧٢٦هـ) سنة سبع وسبعمئة من فتح

---

(١) انظر في نشأة الدولة العثمانية وتاريخها: الفتوحات الإسلامية: دحلان، أحمد زيني. (٢/ ٨٩ -٩٠)، صحوة الرجل المريض؛ د. موفق بني المرجة، العثمانيون في التاريخ والحضارة: د. محمد حرب، تاريخ المشرق العربي. د.عمر بن عبد العزيز عمر (٣٥ -٣٨)، الشعوب الإسلامية: د. عبد العزيز سليمان نوار. (٢٣ -٢١٠).

مدينة بروسة. وفتح السلطان «أورخان» بعض بلاد اليونان، وفتح مدينة «غليبولي» مفتاح «القسطنطينية» سنة ثمانٍ وخمسين وسبعمئة. وفي عهد السلطان «مراد الأول» (٧٦١-٧٩٢هـ) فُتِحت «أدرنة»، بحيث صارت «القسطنطينية» محاصرة تمامًا بالأراضي العثمانية، التي بلغت حدود مملكة الصرب وبلغاريا وألبانيا.

وتتواصل الفتوح العثمانية حتى تسقط بلغاريا في أيدي المسلمين، وأُسر أميرها. وفي سنة (٧٩٢هـ-١٣٨٩م) كانت معركة «قوصووة» التي انتصر فيها العثمانيون وأُسر ملك الصرب، وقُتل.

وفي عهد السلطان «بايزيد الأول» الملقب بـ«الصاعقة»، فُتِحت رومانيا وألبانيا وجزيرة رودس.

وفي عهد السلطان «مراد الثاني» (٨٢٤-٨٥٥هـ)، أُخضِع الصرب والبوسنة وبلاد المورة، وضُرِبت الجزية على الأقاليم المجاورة.

ولما آل الأمر إلى «محمد الثاني» (٨٥٥-٨٨٦هـ) الملقب بالفاتح، فتح القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ-١٤٥٣م)، وكان حدثًا مهمًّا اهتز له العالم الإسلامي فرحًا وسرورًا، وهز أوروبا وسائر النصارى في العالم حزنًا وثبورًا، وسقطت الدولة البيزنطية العريقة، وتحولت مدينة قسطنطين «القسطنطينية» إلى مدينة الإسلام «إسلامبول»، وصارت كنيستها العظمى «أياصوفيا» جامعًا للمسلمين.

ثم ولى وجهه نحو بلاد القرم فأخضعها سنة (٨٧٩هـ-١٤٧٥م).

لقد كان النصف الثاني من القرن التاسع الهجري يمثل قمة تألق الدولة العثمانية وقوتها ونفوذها بحيث لا تساميها دولة من دول العالم آنذاك.

وتجددت الأمجاد الإسلامية في عهد أشهر سلاطين «آل عثمان» وهو السلطان «سليمان القانوني» (٩٢٦-٩٧٤هـ)، ومن أشهر مآثره:

- فتح «بلغراد» سنة (٩٢٧هـ-١٥٢١م).

- هزيمة الجيش المجري وحلفائه الألمان والنمساويين في معركة «موكر»، وقتل ملك المجر، القائد الأعلى للقوات النصرانية «لويس الثاني»، سنة (٩٣٢هـ-١٥٢٦م)، والاستيلاء على العاصمة المجرية «بشت»، التي تعرف الآن باسم «بودابست»، وخضوع مملكة المجر للحماية العثمانية.

- حصار «فيينا» عاصمة النمسا، سنة (٩٣٥هـ-١٥٢٩م)، فاضطر «فرديناند» ملك النمسا إلى التوقيع على معاهدة صلح مذلة، ودفع الجزية.

- تحرير «طرابلس الغرب» من احتلال فرسان مالطة النصارى.

- كما قامت القوات البحرية العثمانية بأربع حملات بحرية تأديبية للبرتغاليين المعتدين على مسلمي الهند، بعد اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح، منذ عام (٩٤٤هـ-١٥٣٨م) إلى (٩٦٤هـ-١٥٥٧م).

شهد آخر القرن العاشر بعد وفاة سليمان القانوني فتح العثمانيين لجزيرة «قبرص» وانتزاعها من أهل «البندقية» سنة (٩٧٩هـ-١٥٧١م).

أما القرن الحادي عشر الهجري، فمن أبرز أحداث ذلك القرن على صعيد العلاقات الإسلامية النصرانية:

١- فتوح في المجر في مطلع القرن، زمن السلطان «محمد الثالث» (١٠٠٣هـ-١٠١٢هـ).

٢- فتح جزيرة «كريت» وانتزاعها من البنادقة سنة ثمانين بعد الألف (١٠٨٠هـ-١٦٦٩م).

٣- غزو بولندا سنة ثلاث وثمانين بعد الألف (١٠٨٣هـ-١٦٧٢م).

٤- حصار مدينة «فيينا» سنة إحدى وتسعين (١٠٩١هـ-١٦٨٠م).

لقد نُشِر الإسلام في هذه المرحلة في مواطن كثيرة من آسيا وأوروبا لم تبلغها دعوة الإسلام من قبل، واعتنقت شعوب وأعراق بأكملها هذا الدين في مدَّة وجيزة.

أما القرن الثاني عشر الهجري فقد كان قرن المجابهة مع الروس، واضطر الروس إلى توقيع معاهد مذلة بعد انتصار العثمانيين على القوات الروسية عند نهر «بروث» سنة (١١٢٣هـ-١٧١١م).

أما النصف الثاني من القرن الثاني عشر فكانت الكفة تميل فيه لصالح الروس، وضمت روسيا بلاد القرم إليها سنة (١١٩٧هـ-١٧٨٣م).

لقد شاخ هذا المحارب القديم، وأثخنته الجراحات الداخلية والخارجية، وتكالبت عليه الأعداء ينهشونه من كل جانب.

- **المرحلة الخامسة- (١٢١٣هـ-١٣٦٨هـ):**

تمثل هذه المرحلة حقبةً تمتد من قيام الحملة الفرنسية على مصر عام (١٢١٣هـ-١٧٩٨م)، وتنتهي بالإعلان عن قيام دولة يهود (إسرائيل) فوق أرض فلسطين عام (١٣٦٨هـ-١٩٤٨م).

والسمة العامة لهذه المرحلة هي التقهقر السياسي والعسكري والعلمي للأمة الإسلامية مقابل النمو الأوروبي المطرد في كل المجالات المادية، ما أفضى إلى انهيار الخلافة العثمانية، وطي بساطها وإلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية سنة (١٣٤٤هـ-١٩٢٤م)، بعد حكم دام أكثر من ستة قرون، بعد انتخاب مصطفى

كمال، أتاتورك(١)، رئيسًا للجمهورية التركية العلمانية الحديثة. وكان ليهود «الدونمة» الدور الأكبر في اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة(٢).

وفي هذه المرحلة احتل الاستعمار الأوروبي البلدان الإسلامية العريقة احتلالًا لم يسبق له مثيل حتى في الحروب الصليبية.

والمتغير الوحيد في هذه المرحلة عن مرحلة الحروب الصليبية أن الحكومات الأوروبية المتأثرة بالثورة الفرنسية (١٧٨٩م) العلمانية باتت أكثر دهاءً، وغزت المجتمعات الإسلامية بأسلحتها المتفوقة، تحت شعارات منمقة لا تحمل الطابع الديني الصليبي، بل تحاول أن تتجنب استفزاز المشاعر الإسلامية، وتتستر تحت لافتات سياسية، مثل: «الانتداب» و«الوصاية» و«الحماية»...

أما وضع «أهل الذمة» فقد تحول إلى مشكلة ضخمة في هذه المرحلة. فقد كان يعيش بين ظهراني المسلمين في الولايات العثمانية أكثر من عشر طوائف نصرانية أساسية(٣)، ونصف هذا العدد من اليهود(٤)، وكانت معاملتهم تجري وفق القواعد الشرعية المتبعة من سائر الدول الإسلامية المتعاقبة.

---

(١) مصطفى كمال (١٨٨١ -١٩٣٨ م) ينتمي إلى يهود الدونمة من جهة أمه. شارك في ثورة الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد الثاني، التي دعت إلى إحلال الدستور محل الشريعة الإسلامية، ثم خلعت السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وألغت السلطنة عام ١٩٢٢م، ثم الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م، بعد تأسيس الجمهورية التركية، وكان أول رئيس لها عام ١٩٢٣م. قام بمحاولة القضاء على مظاهر الإسلام في تركيا. انظر: الرجل الصنم، وصحوة الرجل المريض.

(٢) انظر: في الأحداث المسرودة في الفقرات. العثمانيون في التاريخ والحضارة (١٠٧ -١٢٧)، صحوة الرجل المريض (٢٢٨ -٢٥٨).

(٣) هي: الروم الأرثوذكس، الروم الكاثوليك، السريان الأرثوذكس، النساطرة، الموارنة، الأقباط الأرثوذكس، الأقباط الكاثوليك، الكلدان الكاثوليك، اللاتين الكاثوليك، والبروتستانت. وانظر في هذا: المسيحية في العالم العربي، للحسن بن طلال، والعرب والنصارى لحسين العودات.

(٤) وهي: الربانيون، السامريون، السبتيون، الدونمة، وشهود يهوه.

ولكن الأطماع الأوروبية أرادت أن تتخذ من هذه الطوائف موطئ قدم للنفاذ إلى العمق الإسلامي لدولة الخلافة، وأن تتذرع بالدفاع عن حقوقها كلما أرادت أن تسوغ تدخلًا في الشؤون الداخلية لها.

ومع الضغوط المتتالية على الحكومة العثمانية الآخذة في الضعف والاضمحلال منحت الامتيازات للدول الكبرى؛ فرنسا وبريطانيا ثم روسيا والنمسا وغيرها، واختصت كل دولة بحماية طائفة معينة؛ ففرنسا حامية الكاثوليك، وروسيا حامية الأرثوذكس، وبريطانيا حامية البروتستانت، وهكذا.

وقد استغلت الدول الكبرى امتيازات الحماية استغلالًا بشعًا، طال ضرره تلك الطوائف، وحولها من مللٍ مشمولة برعاية الدولة المسلمة وعهدها وذمتها إلى «أقليات» تعيش وسط أغلبية مسلمة ترى فيها وكرًا للتآمر وإيواء الأجنبي.

هكذا بدا العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري إلى منتصف القرن الرابع عشر، (التاسع عشر الميلادي إلى منتصف القرن العشرين). بدت صورته كئيبة قاتمة؛ هزائم متلاحقة، فوضى سياسية، جهل وبدع وانحرافات عقدية ومسلكية، تخلف في جميع مناحي الحياة الفكرية والمادية، أزمة ثقة بين شعوبه، وتحالف مع الأعداء أحيانًا، في مقابل قفزات سريعة لدى الأمم النصرانية في مجال الإعداد المادي، والقوة الصناعية والعسكرية والاقتصادية، وتنسيق دائب على اقتسام التركة، وإذلال الورثة.

وجاء النصارى هذه المرة باسم السياسة لا باسم الدين، فحققوا ما لم يحققه أسلافهم المتعصبون. لقد أوهنوا عرى الدين في المجتمعات الإسلامية، وغزوا الأفكار قبل الديار، وغسلوا الأدمغة، وهزوا الثوابت والعقائد، ونشروا الرذيلة

باسم الحرية، ونفخوا في صورة أهل الذمة باسم حماية الأقليات، وأَحَلُّوا الفكرة «العلمانية» محل الفكرة الدينية.

وبعد هذه القراءة التاريخية الموجزة لأبرز الأحداث التي رسمت حدود العلاقات الإسلامية الكتابية في مراحلها المختلفة على مدى أربعة عشر قرنًا هجريًّا، ندرك مقدار الكم الهائل من الصور والذكريات التي تختزنها كلٌّ من الذاكرتين الإسلامية والنصرانية، وتستدعيها كلما تجدد لونٌ من ألوان المجابهة والتَّماس.

إنه إرث تاريخي لا يتجاهله إلا مغفل مغرور، وبعد: فأين نحن الآن؟ وما طبيعة المرحلة الراهنة؟ هل هي امتداد للمرحلة الخامسة، أم هي مرحلة جديدة لها خصائصها المميزة؟

وحينما حمل الاستعمار عصاه ورحل إلى بلاده، واستقلت الدول الإسلامية، وجدت نفسها في عالم متغير -بعد الحرب العالمية الثانية- عالمٍ يرفع شعارات السلام الدولي، والمواثيق الدولية التي تعلن المساواة بين شعوب العالم في الحقوق والواجبات، وتدعو إلى نبذ التمييز على أساس الدين والعرق واللون، وكوَّن لتمثيل هذه المبادئ وتطبيقها منظمة عالمية عرفت باسم «هيئة الأمم المتحدة» تأسست عام ١٩٤٥م⁽١⁾.

فلا ريب أن الأمة الإسلامية تعيش مرحلة جديدة مستقلة لها خصائصها المميزة، وإن كانت لم تكتمل صورتها بعد، وتحتاج إلى فقه علمي تؤسس عليه «السياسة الشرعية» التي تلائم وضعها الحالي في حلبة الصراع الدولي، دون المساس بالثوابت العقدية.

---

(١) انظر: في تفاصيل ذلك: أصول القانون الدولي العام د. محمد سامي عبد الحميد. المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية. د. محمد حسن الأبياري.

ومن المعالم البارزة التي ترسم خصائص هذه المرحلة الراهنة ما يأتي:

- أولًا: نمو فكرة «العالمية» أو «العولمة» GLOBALIZATION، والدعوة إلى إلغاء الفروق العقدية والعرقية والإقليمية بين شعوب العالم، والسعي نحو قيام «الحكومة العالمية». وبذور هذه الفكرة وضعتها الماسونية العالمية، وخلفها تقف المخططات اليهودية(١).

- ثانيًا: قيام دولة إسرائيل.

- ثالثًا: تنامي الأصولية الإنجيلية، وتأثيرها الظاهر والخفي في السياسات الدولية(٢).

- رابعًا: تنامي الصهيونية المسيحية في أوروبا وأمريكا ضد الإسلام(٣).

- خامسًا: تنامي الصحوة الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي، والأقليات المسلمة في العالم.

- سادسًا: ظهور الدعوة لتقارب الأديان من الجانب النصراني، وتفعيلها بصفة لم يسبق لها مثيل.

كل ذلك يشعرنا أننا أمام وضعٍ جديد، ومرحلة متغيرة عما سبقها في تاريخ العلاقات الإسلامية -الكتابية. وكل معلم من هذه المعالم جدير بالدراسة والفحص والتقويم لكي يتخذ المسلمون الموقف الشرعي والإجرائي المكافئ له.

---

(١) انظر في الماسونية: الماسونية في العراء. د. محمد بن علي الزغبي، الماسونية ذلك العالم المجهول. صابر طعيمة، الماسونية تحت المجهر: د. إبراهيم فؤاد عباس. دار الرشاد -جدة -السعودية. الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م)، القوى الخفية لليهودية العالمية. داود عبد الغفور سنّقرط.

(٢) انظر: الأصولية الإنجيلية. صالح الهذلول.

(٣) انظر: الصهيونية المسيحية. محمد السماك، النبوءة والسياسة. غريس هالسل.

ومن هذه المعالم الجديدة الطارئة في تاريخ العلاقات الإسلامية الكتابية الدعوة إلى تقارب الأديان، وهو موضوع دراستنا هذه التي نسأل الله تعالى أن تسهم في جلاء الغبش وبيان الحق في هذه النازلة.

الباب الأول

حقيقة التقريب بين الأديان وأصوله وبواعثه

ويتضمن أربعة فصول:

- الفصل الأول: حقيقة التقريب بين الأديان.
- الفصل الثاني: الأصول التاريخية لدعوة التقريب بين الأديان.
- الفصل الثالث: حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث.
- الفصل الرابع: بواعث الدعوة إلىٰ التقريب بين الأديان.

الفصل الأول

حقيقة التقريب بين الأديان

تطلق «دعوة التقريب بين الأديان» على مجمل المحاولات الفكرية والعملية الساعية لإيجاد لونٍ من ألوان التلاقي والاتصال بين دين الإسلام وغيره من الأديان المحرفة والملل الوثنية.

ومع أن هذه الدعوة بشقيها الفكري والعملي ذات جذور تاريخية، إلا إنها لم تظهر ظهورًا جليًّا، ولم تنتشر انتشارًا عالميًّا إلا في العصر الحاضر، وعلى وجه الخصوص في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري حتى أيامنا هذه، حيث اكتسبت معانيَ جديدة، وأهدافًا متعددة، ووسائل متنوعة لم تكن متاحة مِن قبل، وصارت -بالفعل- أحد المعالم المميزة لهذه الحقبة من التاريخ التي تسودها شعارات الإنسانية والمساواة والحرية، دون تمييز مبني على أساس ديني أو عرقي، وإنْ بالشعارات فقط، وولد مصطلحٌ جديد هو: «العولمة»، أي توحيد العالم⁽¹⁾. وذلك ما يعني المضي حثيثًا في إزالة الفوارق، وتمييع الحدود، والقضاء على الخصوصيات للمجتمعات المتنوعة دينيًّا، وثقافيًّا، وذلك يتطلب المزيد من التقريب بين الأديان في المرحلة المقبلة⁽²⁾.

فـ(للعالمية تطبيقات واسعة في كل نواحي الحياة وأنشطتها المختلفة، من سياسية ودينية واقتصادية وأدبية ولغوية. وكلها تحاول أن تصل إلى النظام الواحد،

---

(١) انظر: العولمة الجديدة، والمجال الحيوي للشرق الأوسط. مفاهيم عصرٍ قادم. سيار الجميل. مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق. بيروت. الطبعة الأولى (١٩٩٧م).

(٢) انظر: الإسلام والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين (١٧١).

الذي يجمع الناس في كل ميدان من هذه الميادين المختلفة على مذهبٍ واحد،... لتصبح الأرض وطنًا واحدًا يدين بدينٍ واحد، ويتكلم لغةً واحدةً، يتذوق الفنون والآداب بذوقٍ واحدٍ مشترك)(١).

والواقع أن دعوة التقريب بين الأديان التي هبت رياحها بقوة من الغرب النصراني، قبل أكثر من ثلاثة عقود، في إثر المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥م)، لا تحمل مدلولًا اصطلاحيًّا محددًا، فضلًا عن أن تكون ذات حقيقة شرعية. فلفظ «التقريب» أو «التقارب» **Rapprochement**، يدل على مسألة نسبية هي «القرب»، تتفاوت في حقيقتها وتطبيقاتها لدى مختلف الأطراف، فقد تقتصر على حدٍّ أدنى من المجاملات الشكلية، وقد توغل في الاقتراب إلى درجة الاندماج والوحدة وسقوط الفوارق، وبين هذا وذاك مراتب عديدة.

• اتجاهات مؤتمرات التقريب بين الأديان:

ومن بين أكثر من ثلاثمئة مؤتمر من مؤتمرات التقريب بين الأديان، والعديد من المناسبات والاحتفالات المشتركة، جرت في العصر الحديث، يمكن أن نميز ثلاثة اتجاهات:

أولًا: التقريب بين الأديان:

ويقوم على الخصائص الفكرية الآتية:

١- اعتقاد «إيمان» الطرف الآخر، وإن لم يبلغ الإيمان التام الذي يعتقده هو.

٢- نبذ «التلفيقية» أو «التوفيقية» بجمع عناصر من مختلف الأديان أو محاولة حمل بعضها على بعض للوصول إلى وضعٍ موحَّد.

---

(١) المرجع السابق (١٨٠).

٣- الاعتراف بالآخر، واحترام عقائده وشعائره، ورفع الأحكام السابقة.

أما من الناحية المنهجية، فيعتمد الأساليب الآتية:

١- الدعوة إلى التعرف إلى الآخر كما يريد أن يُعرف.

٢- تجنب البحث في المسائل العقدية الشائكة.

٣- نسيان الماضي التاريخي، والاعتذار عن أخطائه، ومحاولة التخلص من آثاره.

٤- إبراز أوجه التشابه والاتفاق، وإقصاء أوجه الاختلاف والافتراق.

٥- التعاون على تحقيق القيم المشتركة.

٦- تبادل التهاني والزيارات والمجاملات في المناسبات الدينية المختلفة.

وقد تبلور هذا التوجه في العصر الحديث في مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، وتجاوب معه ذوو الاتجاه العصراني من المسلمين وغيرهم. ومن ثم فقد حملت عناوين المؤتمرات المعقودة للتقريب بين الأديان في العقود الأربعة الأخيرة شعارات تعبر عن هذه الطبيعة العلائقية الجديدة، نرتبها حسب كثرة ورودها في مسرد المؤتمرات:

(الحوار = ٣٢ مرة)، (السلام = ١٨ مرة)، (التعايش = ١٦ مرة)، (التعاون = ١٤ مرة)، (التفاهم = ٧ مرات)، (الانسجام = ٥ مرات)، (التعددية = ٥ مرات)، (الاشتراك ومشتقاته = ٤ مرات)، (التسامح = ٣ مرات)، (الانفتاح)، (التباحث)، (التعارف)، (الصداقة) = مرتين لكلٍّ منها.

وهي معانٍ تصب في التيار العام للتقارب بدرجاتٍ متفاوتة، وجميعها تذكر مضافة إلى «الدين» أو «الإيمان»، أو إلى دينين معًا -غالبًا: الإسلام والنصرانية-

أو إلى ثلاثة: الإسلام، والنصرانية، واليهودية، أو إلى الأديان الخمسة الكبرى -على حد تعبيرهم- مضيفين البوذية والهندوسية.

وهذا المستوى من العلاقة هو السائد في العقود الأخيرة في المؤتمرات والندوات المعنية، وينخرط في فعالياته العديد من المفكرين ورجال الدين من سائر الملل، وبعض المنسوبين إلى العلم والدعوة من المسلمين.

- يقول د. يوسف القرضاوي: (نحن معًا نؤمن بالله، ولو إيمانًا إجماليًّا، نؤمن بالآخرة والجزاء الأخروي، نؤمن بعبادة الله، وبالقيم الأخلاقية، وبثبات هذه القيم، نؤمن بوحدة الإنسانية، وبأن الإنسان مخلوقٌ مكرم... نأتي بأشياء يمكن أن تجمع بين المختلفين. فإذا وضعنا هذه الأشياء المتفق عليها، يمكن أن تُقرِّب بين المختلفين بعضهم بعضًا. من جهتنا نحن المسلمين مستعدون للتقارب. المهم أيضًا أن يكون عند الآخرين مثل هذه الروح.. فيعاملونا بمثل ما نعاملهم به، ويقتربون منا بقدر ما نقترب منهم)⁽¹⁾.

ولسنا في هذا المقام بصدد مناقشة مفردات هذه المقولات الصادرة عن الإسلاميين، وإنما لرسم معالم هذا الاتجاه تمييزًا له عن غيره.

ثانيًا: وحدة الأديان:

وهو الاعتقاد بصحة جميع المعتقدات الدينية، وصواب جميع العبادات، وأنها طرق إلى غاية واحدة. وهذا الاتجاه يزيد على الاتجاه السابق بالدعوة إلى التخفف من السمات العقدية والتشريعية الخاصة بكل ديانة، بحسبانها ظواهر

---

(١) الإسلام والغرب مع د. يوسف القرضاوي: حسن علي دَبَا. دار البشير للثقافة والعلوم. طنطا -مصر. الطبعة الأولى (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م). (١٦).

وتقاليد تاريخية محلية لشعبٍ معين، في حقبة تاريخية معينة، والانضواء تحت مفاهيم عامة، وجمل فضفاضة.

ويمثل هذا الاتجاه في التاريخ زنادقة الصوفية من أرباب وحدة الوجود، كابن عربي الطائي(١) القائل:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلًا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

والفرق الباطنية مثل: إخوان الصفا وخلان الوفا(٢).

كما يمثله في العصر الحاضر متصوفة العصر السائرون على خُطَا ابن عربي وأمثاله، حيث يقول أحدهم مصورًا الاختلاف بين الإسلام وسائر الأديان: فـ(مثله مثل الزهور المتنوعة الألوان، التي إذا اجتمعت في باقة متناسقة بهرت العيون، وهزت الشعور)(٣).

---

(١) محمد بن علي بن عربي، أبو بكر، الحاتمي الطائي، الملقب بالشيخ الأكبر عند الصوفية. ولد في مرسية في الأندلس سنة ٥٦٠هـ. واستقر في دمشق وتوفي فيها سنة ٦٣٨هـ قال عنه الذهبي: «قدوة القائلين بوحدة الوجود». انظر: الأعلام (٦/ ٢٨١).

(٢) انظر فصل: (الأصول التاريخية لدعوة التقريب) من هذا الكتاب.

(٣) الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مساجد دمشق. (٢/ ٦٧١).

ومن أبرز منظِّري هذا الاتجاه «وحدة الأديان» في العقود الثلاثة الأخيرة، المفكر الفرنسي «روجيه جارودي»، ولكن من منطلقٍ «إنساني» بالدرجة الأولى، قبل وبعد إعلان إسلامه عام ١٩٨٢م، ثم باستدلالٍ «صوفي» بدرجة ثانية، بعد ذلك. وهو يطرح نوعين من الوحدة:

- أحدهما: وحدة صغرى، وهي «الإبراهيمية»، ويهدف من ورائها إلى توحيد الأديان التي تعلن انتماءها إلى أبي الأنبياء «إبراهيم» عليه السلام، أي: الإسلام والنصرانية واليهودية(١)، حيث يقول في كتابه «الإسلام» الصادر عام ١٩٩٦م: (إنهم كثيرون أولئك الذين يتطلعون في العالم المسيحي، كما في العالم المسلم إلى توحيد قواهم، ليبنوا معًا القرن الحادي والعشرين بوجهٍ إنساني، أي بوجهٍ إلهي، باسم إيمانٍ وحيد، بصورة أساسية عبر تنوع العبادات والطقوس)(٢).

- الثاني: وحدة كبرى، تشمل جميع الأديان والملل الوثنية، بل والملحدين! بجامع أن تلكم الوثنيات آثار نبواتٍ سابقة، وأن الملحدين يؤمنون بـ«الإنسان» وأن للحياة «معنى». فيقول: (وليكن كلٌّ منا ما يكون مسلمًا أو مسيحيًّا، فإن ذلك لا يفصله عمن لا يشاركه دينه...، وسنلتقي جنبًا إلى جنب مع كل أعضاء البشرية التي تحطم قيود الجزئي، قيود الفردية والقومية التي تفت العالم)(٣). وهذا غيضٌ من فيض من مقولاته.

---

(١) انظر الإسلام: روجيه جارودي. ترجمة: وجيه أسعد. (٤٢).

(٢) الإسلام: روجيه جارودي. ترجمة: وجيه أسعد. دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م. (٤٢).

(٣) جولتي وحيدًا في القرن (٤٣٧). وقد أفرد لجارودي مبحث مستقل في الباب الثاني (٧٢٧ -٨١٥). وانظر: مقابلة مع مجلة الموقف عام ١٩٨٤م. عدد (٧٥) عن كتاب: روجيه جارودي، من الإلحاد إلى الإيمان: لقاءات ومحاضرات. إعداد: رامي كلّاوي. (١٨١ -١٨٢). ونحو حرب دينية، جدل العصر: روجيه جارودي. (٧٣).

ثالثًا: توحيد الأديان:

ويقصد به المحاولات الساعية، قديمًا وحديثًا، إلى دمج جملةٍ من الأديان والملل في دينٍ واحد مستمد منها جميعًا، بحيث ينخلع أتباع تلك الأديان منها، وينخرطون في الدين الملفق الجديد.

وفرق ما بينه والاتجاه السابق، أن المناداة بـ«وحدة الأديان» تعني تصويب أوضاعٍ قائمة ضمن أطرها الخاصة التي تميزها، بشرط عدم نفي أو استبعاد الآخرين، وربط تلك الوحدات المفردة بإطار عام يسوغ توجهاتها جميعًا. في حين أن «توحيد الأديان» تفعيلٌ يقتضي إنهاء وحل تلك الأوضاع السابقة ونسخها بوضعٍ جديد، وإن كانت عناصره مأخوذة من حطام السابق⁽¹⁾.

ولا يعزب عن البال أن هذه المستويات الثلاثة: «التقريب»، و«الوحدة»، و«التوحيد»، لا يفصلها حدودٌ حاسمة في مجال التطبيق العملي الميداني، حيث تتمازج تياراتها، وتصب مفرداتها الفكرية بنسبٍ متفاوتة في مجرى «سبيل المجرمين» الذي يشطح بعيدًا عن «سبيل المؤمنين»، ويرغب عن «ملة إبراهيم».

وقد آثرت في عنوان هذا البحث تغليب لفظ «التقريب»، لأنه الأعم من حيث الدلالة، والأقدم من حيث الاستعمال، كما أنه الاتجاه السائد من حيث التطبيق.

• الحوار بين الأديان:

شاع في العقود الأخيرة استعمال مصطلح «الحوار» DIALOGUE على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية، فطغى هذا التعبير على ما عداه،

---

(١) انظر: مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام: د.محمد هلال. (٦٨)، وانظر تقدمة الأب الأسباني إيميليو غاليندو آغيلار ومجموعته التي تطلق على نفسها «كريسلام» {rislamC} لأعمال المؤتمر الدولي الأول بالمراسلة (العقيدة للأمام) تنظيم كريسلام (١٢ -١٣)، (١٧٥).

وصارت تعرف بـ(حوار الأديان) أو (الحوار بين الأديان) Inter Faith أو Interreligiouse Dialogue، وصار محبذًا لدى المشتغلين في هذا الحقل، مقدمًا على غيره من الاصطلاحات، مما يستدعي إلقاء الضوء على دلالته:

فـ«الحوار» من حيث اللغة، كما قال الراغب في «مفردات القرآن»: (والمُحاورة، والحوَار: المرادَّة في الكلام. ومنه التحاور. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١])(١).

فحقيقته اللغوية مطابقة لحقيقته الاصطلاحية التي تعني التباحث بين طرفين أو أكثر، ومراجعة الكلام بينهم بغرض التوصل إلى اتفاق، وإبداء وجهة نظر(٢).

ولعل من أسباب شيوع هذا الشعار في دعوة التقريب بين الأديان، كونه لا يفصح -بحد ذاته- عن هدفٍ مبيَّت، أو يوحي بتوجهٍ معين، يمكن أن يعد ملزمًا أو محرجًا للمنادين به من الطرفين. فالحوار لافتة تخفي وراءها أشكالًا متنوعة من المضامين، ووعاءٌ يمكن أن يحوي مواد متباينة. فقد يكون حوارًا يقصد به التقريب وفق الأسس الفكرية والمنهجية التي سبق بيانها، وربما كان غطاءً لوحدة الأديان كما في «الحوار الإبراهيمي».

وفي الوقت نفسه، يستعمل مصطلح الحوار خارج نطاق دعوة التقريب بين الأديان، فيما يعرف بقضايا «التعايش»، وحينئذٍ فالأمر لا يتعلق بالدين من حيث هو دين، عقيدة وشريعة، ولكن بالعلاقة المعيشية البحتة بين معتنقي الأديان. وهو بهذا الاعتبار يهدف إلى تحسين مستوى العلاقة بين شعوبٍ أو طوائف، وربما

---

(١) مفردات القرآن (١٣٥).

(٢) وانظر: الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي: د. عبد العزيز بن عثمان التويجري (٧).

تكون أقليات دينية، ويعنى بالقضايا المجتمعية كالإنماء، والاقتصاد، والسلام، وأوضاع المهجَّرين واللاجئين، ونحو ذلك. ومن أمثلة هذا اللون من الحوار: (الحوار العربي الأوروبي)، و(حوار الشمال والجنوب).

وهذا الحوار بحد ذاته -بصرف النظر عما يصاحبه من تأطيرات قد تلتحق بالأنواع السابقة- تفرضه طبيعة الحياة البشرية، وحاجاتها الفطرية المختلفة، ومن ثم فلا غبار على الدخول في مفاوضاتٍ أو مداولات من هذا القبيل، حسب ما تقتضيه السياسة الشرعية لمصلحة الأمة الإسلامية. وقد رافق هذا اللون من حوار التعايش نشأة الأمة الإسلامية منذ عهد النبوة، كما جرى في المعاهدات النبوية مع يهود المدينة وغيرهم، وزخر الفقه الإسلامي المؤسس على الكتاب والسنة بتراثٍ ضخم في مجال العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين.

وعليه فلا بد من التبين والاستفصال لدعوات الحوار المجملة، ومعرفة أهدافها ومادتها قبل الخوض في غمارها، وألا يجر المسلمون إلى مواقف لم يحسبوا لها حسابًا، ولم يرسموا لها خطة.

ونحن بدورنا إذ نستشرف البحث في موضوعٍ يعد «نازلة» جديدة بالمسلمين -بصورته المعاصرة-، لا بد لنا من منهجية صارمةٍ في استقراء معالم هذه الظاهرة المعاصرة ومراميها المعلنة والخفية، وتتبع أصولها التاريخية ومفهومها المعاصر لدى مختلف الفرقاء.

الفصل الثاني

الأصول التاريخية لدعوة التقريب بين الأديان

مرت دعوة التقريب بين الأديان بمراحل متعددة قبل أن تصل إلى الصيغة السائدة النشطة في النصف الثاني من القرن العشرين؛ ذلك أن المسافة بعيدة جدًّا بين الرفض المطلق والقبول النسبي، أو النبذ الكلي والاعتراف الجزئي، وتحتاج إلى سلسلة طويلة من الممهدات الفكرية لإحداث تغييرات جذرية لدى الملل التي لا تحتكم إلى معايير ثابتة وعقائد راسخة في مبادئها وتقويمها للآخرين، وهذا ما حدث بالفعل من جانب أهل الكتاب، والنصارى خاصة، ومن بعض الشذاذ المنتسبين إلى الإسلام على مدار التاريخ.

وقد بدأت محاولات تقريب الإسلام إلى الملل والأديان الأخرى منذ وقتٍ مبكر، في العهد النبوي المكي، من قبل المشركين، كما حكى الله عنهم: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وحين عرضوا على نبينا محمدٍ ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فأنزل الله آياتٍ حاسمة حازمة تقطع طمع كل طامع مراوغ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦][1].

وتكررت المحاولة في العهد النبوي من قبل أهل الكتاب لزحزحة المسلمين عن دينهم وإعادتهم إلى الشرك، أو الدخول في اليهودية أو النصرانية. ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

---

[1] (١) انظر تفسير الطبري (٣٠/ ٣٣٠-٣٣١)، وأسباب النزول للواحدي (٥٠٥) ومجموع الفتاوى (١٦/ ٥٤٤).

ومن ذلك ادعاؤهم الإبراهيمية، ومحاجتهم المسلمين في ذلك، فأدحض الله حجتهم، وكذَّبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٨].

فإذا تجاوزنا هذه المرحلة من العهد النبوي التي أُرسِيت فيها قواعد الإيمان وقُرِّرت أحكام أهل الكتاب من الناحيتين العقدية والشرعية، وحُذِّر تحذيرًا تامًّا من الانسياق لإغراءاتهم المختلفة: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [المائدة: ٤٩]، نجد أن تاريخ اليهودية والنصرانية والإسلام يضم بعض الشواهد التاريخية المتناثرة، أو بعض الممهدات الفكرية المتسلسلة لفكرة التقريب.

وهدف هذا الفصل تتبع تلك الشواهد، ورد الفروع الراهنة إلى الأصول الماضية في مسارب الزمن، وثنايا التاريخ.

كما أن التاريخ البشري العام، خارج حدود اليهودية والنصرانية والإسلام، يحتفظ بمحاولات للتقريب بين الأديان، لعل من أشهرها محاولة الملك المغولي الإمبراطور أكبر(١)، في الهند، الذي كان يجمع زعماء الأديان المختلفة من مسلمين ونصارى وهندوس، ويعقد بينهم المناظرات إبان مدَّة حكمه في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. «وقد شيد لهذا الغرض بناية فخمة في

---

(١) الإمبراطور أكبر: (١٥٤٢ -١٦٠٥م)، سليل تيمورلنك، ثبَّت إمبراطورية المغل المتداعية حين استلم الحكم ١٥٥٦. يعتبر أعظم الملوك المسلمين، وأباطرة المغل في الهند. ترك إمبراطورية قوية منظمة، امتدت من كابل غربًا إلى بنغال شرقًا، ومن أسفل الهملايا شمالاً إلى نهر نرمدة جنوبًا. المنجد في الأعلام (٥٨).

عاصمة مملكته «فاتحبور سِكري»، أطلق عليها اسم «خان العبادات»، وسعى لتحقيق المساواة بين الأديان، فألغى الجزية والامتيازات الأخرى، وحاول تأسيس دينٍ جديد ملفقٍ من سائر الأديان سماه «دينًا إلهيًّا»، ولكن المناظرات التي كان يديرها الإمبراطور نفسه أسفرت عن اعتناقه الإسلام، وتسميه بمحمد، وتلقبه بجلال الدين، وتكنيه بأبي الفتح(١).

ولا بد من تحديد مدلولٍ واضح لما هو «تاريخي» وما هو «معاصر»، وقد اعتمدت عرف المؤرخين باعتبار التاريخ المعاصر هو القرن الراهن، أي المئة سنة الأخيرة(٢).

وسوف تتم دراسة الأصول التاريخية من خلال ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: عند اليهود.
- المبحث الثاني: عند النصارى.
- المبحث الثالث: عند المسلمين.

---

(١) انظر: المنجد في اللغة والأعلام: لويس معلوف اليسوعي. (٥٨). ومجلة الأمة عدد ٥٤ عام ١٩٨٥م(٤٣).

(٢) ليس ثم تقسيم حاسم، متفق عليه، للعصور التاريخية، والتقسيم الغربي التقريبي.

المبحث الأول

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند اليهود

لم يُبد اليهود ميلًا إلى التقارب مع الديانات الأخرى(١)، ويرجع ذلك إلى عقيدة صارمة راسخة، هي عمدة الديانة اليهودية المتوارثة وهي: «عقيدة شعب الله المختار»، وما أنشأ ذلك من عقائد تلمودية باعثها الحقد والتشفي من الأمم الغالبة، بوصفها «أغيارًا» أو «جوييم» -أي أمميين- لا تستحق مُصافَّة اليهود، فضلًا عن مقاربتهم.

لذا عاش اليهود ردحًا من الزمن في عزلة اجتماعية وفكرية وسياسية عن المجتمعات التي يقطنونها كأقليات. ولم يطوِّر اليهود من موقعهم الديني -خلافًا للنصارى- أي مشروع للتقارب مع الآخرين، رغم شدة الضغوط والاضطهاد التي يلقونها غالبًا، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وحين أبدى الرِّبي إبراهيم بن موسى بن ميمون، الذي ورث عن والده الشهير لقب «رأس الجالوت»، في مصر الأيوبية سنة ١٢٣٧م، نوعًا من الميل والتقارب مع الشريعة الإسلامية، قوبل مقابلةً عنيفةً من أبناء الجالية اليهودية، ورمي بالابتداع

---

(١) انظر: التاريخ اليهودي. الديانة اليهودية، وطأة ثلاث آلاف سنة. إسرائيل شاحاك (٩١).

لأنه دعا إلى (تقليد المحيط المسلم، مثلًا في الصلاة... يقترح إزالة المساند من الكنيس، وتوزيع سجاجيد الصلاة على الأرض، كما هو الحال في المساجد. واقترح أيضًا الركوع كما هو الحال في صلاة المسلمين... ويمتدح الصمت المحترم في المساجد الذي كان على نقيض الضوضاء غير المبجلة والصخب الذي تميزت به المعابد اليهودية في ذلك الزمن...)⁽¹⁾.

وقد آل به الأمر إلى أن اشتكاه اليهود إلى الملك العادل، بدعوى أنه (يحاول إرغامهم على تبني بدعة محرمة في دينهم... لذلك أجبر إبراهيم على أن يعتذر للحاكم المسلم، وأن يعلن توبته، وأنه لن يسيء استخدام سلطته بكونه «رأس الجالوت» للطائفة اليهودية، وذلك عن طريق إدخال بدعٍ عليها)⁽²⁾.

إن اليهود، لبواعث عنصرية بحتة، لم يخضعوا ديانتهم لتجربة التقارب بين الأديان، وحرصوا أشد الحرص على التميز عن الأمميين، ولكنهم استعاضوا على تعريض دياناتهم للمساومة بإنشاء الجمعيات الهدامة التي تدعو إلى «العالمية» وتطلق الشعارات الإنسانية الفضفاضة، كالحرية والإخاء والمساواة؛ ليتم تذويب وصهر جميع الأديان والثقافات العالمية في صهريجه الضخم، وتبقى «اليهودية» نقية متماسكة أمام تيار «العالمية»، فيتسنى لها بعد القضاء على الخصوم، وتحقيق السيادة على العالم.

- **الماسونية:**

ومن أقدم تلك الجمعيات وأشهرها، وأكثرها نفوذًا: «الماسونية». وهي منظمة سرية يهودية عالمية، يرجع بعض الكتاب تاريخ إنشائها إلى حقبٍ بعيدة

---

(١) الفكر الإسلامي والفكر اليهودي: بعض جوانب التأثير الثقافي المتبادل، هافا لازاروس -يافه. مجلة الاجتهاد (٢٨/ ٢٠٤ -٢٠٩).

(٢) المرجع السابق.

في التاريخ، ترفع شعارات إنسانية، وتخفي ملامح يهودية في طقوسها ورموزها واصطلاحاتها، وتهدف في آخر المطاف إلى سيطرة اليهود على العالم.

والذي يعنينا هو موقفها من قضية التقريب بين الأديان، بوصفها جناحًا قويًّا من أجنحة اليهودية، في موازاة الصهيونية، فالماسونية لاستغلال غير اليهود في مصالح اليهود، والصهيونية للحفاظ على هوية اليهود خاصة.

يقول رئيس محفل الشرف الأعظم الماسوني، محمد رشاد فياض، في كتابه النور الأعظم: (الميمات الثلاثة في الموسوية والمسيحية والمحمدية(١) يجتمعون -هكذا- في ميم واحد هو ميم الماسونية، وإن باءي البوذية والبرهمية يجتمعان في باء البناء، بناء هيكل المجتمع الإنساني... الماسونية على حقيقتها ليست عمالة لأي ديانة أو عنصرية معينة، إنها عقيدة العقائد، وفلسفة الفلسفات، وبالمبادئ الإنسانية مزينة. عقيدة الأحرار، هي عقيدة لجميع أبناء البشرية دون تمييزٍ أو تفريق، وإنها لن تمنح الفضل والأولوية لفريقٍ دون فريق)(٢).

وهذه عباراتٌ مشبعة بالرموز الباطنية، وإلا فإن عداء الماسونية للأديان جميعًا أمرٌ لا يخفى قد طفحت به تصريحاتهم، كما جاء في البروتوكول الرابع عشر لحكماء صهيون: (عندما نغدو سادة لن نترك دينًا قائمًا غير ديننا القائل بالإله الواحد الذي يرتبط به مصيرنا، لأننا نحن شعب الله المختار، وبنا ارتبط مصير العالم، ولذا يجب أن نقضي على كل الأديان، فإذا نشأ عن ذلك وجود ملحدين

---

(١) المحمدية: تعبير يراد به المسلمون. وقد نقل الشيخ بكر أبو زيد عن محمد علي مؤلف: الفكر الخوالد قوله: (أما التسمية بمحمدي ومحمدية فلم تكن في يوم من الأيام سائدة ولا مستساغة لدى أتباع هذا الدين، وعقب قائلًا: (إذًا: فالتوقي من هذا الإطلاق مناسب). معجم المناهي اللفظية (٤٩٧).

(٢) النور الأعظم (١١٢ -١١٥). عن الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين (١٨١).

عصريين فإنهم سيكونون عناصر انتقالية، وهذا لا يضر مخططنا لأنهم سيكونون مثالًا للأجيال التي ستعتنق تعاليم دين موسى، الذي بفضل قوته وعقلانيته يجب أن ينتهي بنا إلى التسلط على العالم كله)(١).

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون (٨٦). ترجمة: د. إحسان حقي. وانظر الماسونية تحت المجهر (٥٦ -٥٧).

المبحث الثاني

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند النصارى

لقد كان ظهور الإسلام وانتشاره السريع في القرن السابع الميلادي صدمة عنيفة للكنائس النصرانية المختلفة التي تهيمن على شعوب منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وما جاورها، فقد تهاوت معاقل النصرانية العريقة ومهد المسيح عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل، أمام الفاتحين الجدد من أصحاب العمائم، رعاء الشاء والإبل، الضاربين في تيه الجزيرة العربية لقرون بعيدة، وفي تيه الشرك والوثنية والتخلف لقرونٍ أبعد. وفي مدةٍ تقل عن مئة عام تمكن المسلمون من إخضاع جميع السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر الأبيض المتوسط، وفي مدةٍ تزيد على المئة قليلًا بلغوا أعماق أوروبا النصرانية في جنوب فرنسا. (وهكذا كان الإسلام يتوسع على نحوٍ مندفع مخلفًا، في الحقيقة، صدماتٍ هائلة تستعصي على التصور)(١)، كما عبر أحد الكتاب الغربيين.

والصدمة الكبرى التي تفوق إخضاع الأرض وضمها لدار الإسلام، كانت تتمثل في خضوع القلوب لدعوة الحق، ودخول الناس في دين الله أفواجًا. كما وعد الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، فـ(في مرحلة لاحقة، ومع الرسوخ السياسي واللاهوتي للدين الإسلامي، وتنامي النزعات والاتجاهات الانتقادية للمسيحية،

---

(١) انظر: الشخصية العربية في الجدال المسيحي مع الإسلام. دانيل ساهاس. مجلة الاجتهاد (٢٨/ ١١١).

تحولت الكتلة الأساسية لمسيحيي الشرق الأدنى إلى الإسلام)(١).

ولم تشأ كبرياء الكنيسة النصرانية المصطنعة أن تذعن للحق، كما لم تشأ الإمبراطورية البيزنطية أن تذعن للأمر الواقع، ومن ثم فقد اتسمت العلاقات بين المسلمين والنصارى بالعداء المستمر طوال التاريخ، كما أن العلاقة بين الإسلام والنصرانية المحرفة اتخذت الطابع نفسه، ولم يكن هناك مجالٌ لما عُرف أخيرًا باسم «التقريب» أو «الحوار» من الجانبين، بالصفة التي تمخضت عنها النصرانية في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي(٢).

● أساليب النصارى في مواجهة الإسلام:

لقد احتاجت النصرانية إلى ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، بدءًا من القرن السابع إلى القرن العشرين، حتى تبلغ مرحلة «الحوار». وبين التنافر والتقارب برزت في الفكر النصراني ممارسات متنوعة في مواجهة الإسلام في جانبه العقدي، يمكن تحديدها بما يأتي:

أولًا: أسلوب التشويه والتضليل:

ولد هذا الأسلوب في وقتٍ مبكر، لمواجهة موجات الفتح الإسلامي والاعتناق الجماعي لدين الإسلام. ومن أشهر من أرسى قواعده قسيسٌ دمشقي عرف باسم «يوحنا الدمشقي»(٣)، المتوفى سنة ٧٥٠م.

---

(١) الإسلام والمسيحية. أليكسي جورافسكي. (١٧٨).

(٢) انظر: الإسلام والمسيحية للمستشرق الروسي إليكسي جورافسكي (٣٦-٣٧).

(٣) ولد في دمشق عام ٦٧٥ تقريبًا. من آباء ومعلمي الكنيسة، ويوصف بـ«القديس». انظر: المنجد في الأعلام (٧٥٣). وانظر مقالة: (الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام) دانيل ساهاس مجلة الاجتهاد: (٢٨/ ١٠٩-١٣٦). وقد عاش هو وأبوه منصور بن سرجون في أكناف أمراء بني أمية، وألف عدة مؤلفاتٍ ضمنها القدح في الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه القرآن.

يقول إليكسي جورافسكي: (إذا كنا نتفق على واقعة أن التصورات الأوروبية عن الإسلام تشكلت ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد، فإننا يجب أن نشير إلى حقيقة أن هذه التصورات تكونت في كثير من جوانبها وخطوطها الكبرى على خلفية التفسير المسيحي الشرقي للعقيدة الإسلامية. وتعد المؤلفات التي وضعها يوحنا الدمشقي، المتوفى سنة ٧٥٠م، من أكبر الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام.

والواقع أن التصورات المتكونة عن الإسلام كبدعة مسيحية، مرتدة، ومنشقة، وعن محمد كنبي مزيف، انتقلت من مسيحيي سوريا إلى البيزنطيين، ومنهم إلى الأوروبيين)[١].

وهذا ما حدث بالفعل في أوروبا، طوال القرون الوسطى. فقد رُوجت العديد من الخرافات والتهم السخيفة عن الإسلام، وعن شخص نبينا محمد ﷺ، نعف عن ذكرها إكرامًا له وتوقيرًا، ما حدا بباحث غربي معاصر أن ينتقدها بإنصاف قائلًا: (وللحقيقة، يجب القول أن تلك الأساطير المختلقة تمثل سخرية مأساوية، لأن النبي «محمد» الذي حارب أكثر من أي مخلوق آخر عبادة الأوثان، والذي حطم جميع أصنام الكعبة، يتحول في تصور المسيحيين إلى «صنم يؤلهه أتباعه» الذين يطلقون عليهم ازدراءً واحتقارًا لقب «عبيد سارة» أو «أبناء الجارية»)[٢]. وقد ظل هذا الأسلوب هو الأسلوب السائد والأسهل في الأوساط الشعبية للتنفير من الإسلام والصد عن سبيله، حتى اعتنقت أوروبا المذاهب العقلية، وانعتقت من سلطان الكنيسة الكهنوتي، فانحسر نوعًا ما، وإن كنا لا نزال نطّلع على خائنةٍ منهم، تحملها وسائل الإعلام المختلفة، تنبئ عن حقدٍ دفين.

---

[١] الإسلام والمسيحية (٧٠ -٧٣).

[٢] الإسلام والمسيحية (٧٧)، وانظر أيضًا ما جاء في (٦٧، ٧٤ -٧٦).

ثانيًا: أسلوب المجادلة العقلية وإثارة الشبهات:

ورائد هذا المسلك هو الراهب الفرنسي (بطرس المبجَّل) -كما يصفه النصارى-، عاش في الحقبة ١٠٩٤م-١١٥٦م، وقد عاصر قيام الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٦م والثانية ١١٤٥م، وأدرك فشل المسلك العدواني العسكري في تحقيق الأهداف النصرانية. (وقد انطلق من مُسلَّمة حتمية الصراع ولكن ليس بالسيف، وإنما بالكلمة والإقناع والحجة...، وذلك إذا تمكن اللاهوتيون والمبشرون المسيحيون من أن يظهروا لهم بشكل مقنع)⁽¹⁾.

ومن المعروف أن دير كلوني الذي ينتمي إليه بطرس المبجل -عندهم- كان له دورٌ بارز في تاريخ النصرانية، فيما عرف بـ«الإصلاح الكلوني»، وعلى وجه الخصوص في تأجيج الروح الصليبية في حرب الاستعادة الإسبانية Reconquista، ولكن الحقبة التي تولى فيها هذا الراهب رئاسة الدير، كانت أوروبا مشغولة عنه بتمويل الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ضد منطقة شرق المتوسط، ما أدى إلى إعطاء الحروب الإسبانية ضد المسلمين مكانة ثانوية. ولعل هذا ما حدا به إلى سلوك أسلوب المجادلة العقلية⁽²⁾.

وقد استعان بطرس هذا بجملة من المستعربين في ترجمة بعض الأحاديث النبوية، وكتابة بعض المقالات والمحاورات المزعومة، كما وجه بنفسه خطابًا مفتوحًا إلى (العرب، أبناء إسماعيل، الذين يتبعون قانون الرجل الذي يدعى محمدًا)⁽³⁾.

---

(١) الإسلام والمسيحية (٨١).

(٢) انظر: المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٥ -٢٦).

(٣) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٢ -٨٣).

كما صنف كتابًا سمَّاه «دحض العقيدة الإسلامية»، ضُمَّ لاحقًا إلى ترجمات أتباعه، وعرفت المجموعة باسم «المجموعة الطليطلية» أو «فيلق كلوني»، (وهي المجموعة التي صارت بالنسبة للأوروبيين المصدر الرئيس للمعلومات والمعطيات عن الدين الإسلامي على مدى خمسمئة عام تقريبًا)(١).

وعلى الرغم من أن هذا اللون من المقاربة يراد به النقض والهجوم، فإنه يمثل تحولًا في الاتجاه العام لدى نصارى القرون الوسطى من مرحلة المهاترات والتلفيقات ونسج الأساطير والخرافات بغرض التنفير، إلى مرحلة متقدمة تعتمد التعرف إلى الخصم من كثب، لمجادلته وإثارة الشبهات في وجهه. وقد نسج على منوال بطرس المبجل، فيما بعد، المستشرقون في القرون اللاحقة(٢).

ثالثًا: أسلوب التبشير «الدعوة إلىٰ التنصر»:

ويمثل هذا الاتجاه الراهب الإيطالي فرنسيس الأسيزي «١١٨٢-١٢٢٦م». ويعده النصارى من أكبر قديسيهم، وإليه تنسب طائفة الرهبان الفرنسيسكان. وعمدتهم النص المنسوب إلى المسيح عليه السلام: (اذهبوا في العالم أجمع، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين) (إنجيل مرقس ١٥:١٦)(٣). وقد قام فرنسيس الأسيزي بنفسه بهذه المهمة، فقد صحب الحملة الصليبية السادسة الموجهة نحو مصر عام ١٢١٩م والتقى الملك الكامل الأيوبي ودعاه إلى النصرانية(٤).

ومن أشهر الرهبانيات التي انتهجت هذا الأسلوب، وكانت معاصرة من حيث

---

(١) الإسلام والمسيحية (٨٤).

(٢) انظر: الإسلام والمسيحية (١٠٥).

(٣) العهد الجديد (١٧٨).

(٤) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٧-٨٩).

النشأة للفرنسيسكان، طائفة الرهبان الدومينيكان التي أسسها الراهب الإسباني دومنيك «١١٧٠-١٢٢١م».

ويقوم الفرنسيسكان والدومينيكان بذرع العالم، وبعث الإرساليات التنصيرية إلى شتى أنحاء المعمورة منذ تأسيسهما في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي حتى يومنا هذا.

ومن الجدير بالذكر أن الدومينيكان قد أسسوا معهدًا في القاهرة باسم «معهد الدراسات الدومينيكاني»، انبثقت عنه أولى جمعيات التقارب الديني في البلاد الإسلامية، وهي جمعية «الإخاء الديني» عام ١٩٤١م، كما عقدوا ندوة حوارية حملت اسم الأيام الدومينيكانية(١).

رابعًا: أسلوب التقارب والحوار:

لعل أقدم تراثٍ نصراني يشير إلى نزعة التقارب والحوار الديني المفضي إلى تصويب جميع صور العبادات والأديان هو ما جرى به قلم الراهب «رامون لول»(٢) الذي عاش حقبة الحروب الصليبية في المشرق، والصراع الإسلامي -النصراني في الأندلس. وكانت مدينة «ميورقة» الأندلسية، مسقط رأسه، تضم مسلمين ونصارى ويهودًا. وقد ألف كتابًا باللغة العربية عنوانه: «الملحد -أو الظريف- والحكماء الثلاثة»، (يبين فيه كيف أن «الحكماء الثلاثة»؛ اليهودي والمسيحي

---

(١) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي -ضرورة المغامرة: د. سعود المولى. (١٤٠). وسيأتي التعريف بالجمعية ومناشطها في الباب الثاني.

(٢) راهب فرنسيسكاني، ولد في ميورقة عام ١٢٣٢م، زاول التنصير في إفريقية، وعارض فلسفة ابن رشد. وشجع تعليم اللغات الشرقية. له مؤلفات بالعربية. توفي عام ١٣١٥هـ. انظر: المنجد في الأعلام (٦١٧).

والمسلم، أنقذوا «الظريف» «الكافر» من يأسه، إذ حملوا إليه الرسالة نفسها: ليس الإنسان وحيدًا. وللعالم معنى)(١). ويحكي هذا الراهب، المتأثر بفلسفة ابن عربي، كيف اكتشف هؤلاء الثلاثة وحدة إيمانهم العميقة، وخطيئة انقسامهم.

وقد كان لسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م بأيدي الفاتحين العثمانيين آثارًا بعيدة المدى على جميع المستويات، وكان من آثار ذلك أن (برزت أطروحات ومواقف جديدة كل الجدة في هذا السياق، مثَّلها نيكولاي كوزاني (١٤٠١-١٤٦٤م)، ويوحنا سيغوفي (حوالي ١٤٠٠-١٤٥٨م)، حيث انطلق الاثنان من رؤية مؤداها أن الحرب لا تحل الخلاف بين الديانتين، ولهذا طالبا بضرورة الكشف عن الفوارق والاختلافات الواقعية، والبحث الجاد عن الأمور المشتركة بينهما. ومماشاة لهذا المنحى درس نيكولاي كوزاني ويوحنا سيغوفي فكرة وضع أساسٍ راسخ للحوار بين ممثلي هاتين العقيدتين)(٢). وقد ألف نيكولاي كوزاني عام ١٤٦٢م (شرحًا نقديًا للقرآن الكريم «في غربلة القرآن» هادفًا إلى أن يباشر حوارًا ينطلق مما هو مشترك بين المسيحيين والمسلمين)(٣)، وكذلك صنع صديقه سيغوفي. وهذه المحاولات في تاريخ دعوة التقريب لدى النصارى دفع إليها هول الصدمة الناتجة عن سقوط القسطنطينية.

وحين ظهرت حركة الإصلاح الديني «البروتستانتية» على يد مارتن لوثر(٤)

---

(١) انظر: الإسلام (١٣٦-١٣٨)، الإسلام في الغرب (٢٣٩-٢٤٠) لروجيه جارودي.

(٢) الإسلام والمسيحية. (٩١).

(٣) الإسلام. روجيه جارودي. (١٣٨-١٣٩).

(٤) راهب أوغسطيني. لاهوتي ومفكر وكاتب. بدأ في ألمانيا الإصلاح الديني «البروتستانتية»، وانفصل عن الكنيسة في شأن الغفرانات، وسلطة البابا، والتبتل، وإكرام القديسين، والمطهر والقداس. وفي ١٥١٧م نقل التوراة إلى الألمانية، فكانت الترجمة حدثًا دينيًا أدبيًا، انظر: المنجد في الأعلام (٦١٥).

(١٤٨٣-١٥٤٦م)، بدت وكأنها تتجه نحو الموضوعية في فهم الإسلام، مما أطلق عليه مارتن لوثر «خرافات الأوروبيين وجهالاتهم» حيال الإسلام، ولكنه سرعان ما قلب ظهر المجن، وصب جام غضبه وسبابه المقذع على الأتراك العثمانيين الذين كانوا يحاصرون فيينا عام ١٥٢٩م(١).

و(في عام ١٧٠٥م أصدر هادريان ريلاند «١٦٧٦-١٧١٨م» كتابه «الديانة المحمدية» الذي يعد أول عرضٍ موضوعي للإسلام من وجهة نظر مسيحية... قامت الكنيسة الكاثوليكية بإلقاء الحرم عليه ومنعه)(٢).

ولكن هذه النبرات التي تحاول أن تتسم بالموضوعية في مطلع القرن الثامن عشر، ظلت خافتة ضعيفة وسط ضجيج التعصب والعماية لأصوات أكثر شهرة وقبولًا من أمثال الكاتب الفرنسي الشهير «فولتير»(٣) (١٦٩٤-١٧٧٨م)، الذي ألف مسرحية بعنوان «التعصب، أو النبي محمد»، ونبز فيها شخص نبينا محمد ﷺ بأبشع الصفات، في عصر يوصف في التاريخ الأوروبي بعصر الأنوار.

(وعمومًا يمكن التأكيد أنه بدءًا من القرن الخامس عشر وإلى نهاية القرن التاسع عشر، نمت المعارف الواقعية عن الإسلام بصورة بطيئة لأقصى الحدود، وضمن وسط محدود جدًّا من الدوائر العلمية الأوروبية)(٤).

---

(١) انظر: المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٩)، والإسلام والمسيحية (٩٧).

(٢) انظر: المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٣١).

(٣) فولتير (فرنسوا ماري أراوي) ولد في باريس. أقام في بروسيا وسويسرا. تزعم حركة الفلسفة المادية، وقاوم رجال السلطة الدينية والمدنية، كتب في الشعر والتاريخ والمسرح والمراسلة والفلسفة. من مؤلفاته: المحاورات الفلسفية «كنديد»، «زئير»، «محمد»، «شارل ١٢». انظر: المنجد في الأعلام (٥٣٣).

(٤) الإسلام والمسيحية (١٠٣).

- **الإرهاصات الأولية الممهدة للحوار الإسلامي المسيحي:**

يرى جورافسكي أن (الإرهاصات الأولية، الممهدة فلسفيًا ولاهوتيًا للحوار الإسلامي -المسيحي، الذي نوقش رسميًا للمرة الأولى في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني)، تمت على يد شخصيتين بارزتين:

أحدهما: الفيلسوف الروسي فلاديمير سولوفيوف «١٨٥٣-١٩٠٠»⁽¹⁾، وقد عده جورافسكي (أبًا مؤسسًا للحوار بين الديانات الكتابية -التوحيدية الثلاثة)⁽²⁾ على حد تعبيره.

ولعل هذا الفيلسوف اللاهوتي الأرثوذكسي، قد مهد الطريق للشخصية الثانية، الكاثوليكية، التي هيأت للتقارب والحوار في النصف الأول من القرن العشرين وهو: المستشرق الفرنسي: لويس ماسينيون⁽³⁾ (١٨٨٣-١٩٦٢م)، حيث اتجه إلى فكرة توحيد الديانات الكتابية الثلاث. (وفي رأي الدارسين، فإن مؤلفاته وإسهاماته العلمية ومنطلقاته الروحية ونشاطاته السياسية، مهدت الطريق للتحول الكاثوليكي الجذري بشأن الموقف من الإسلام)⁽⁴⁾.

لقد سلك ماسينيون في سبيل التقريب بين الإسلام والنصرانية مسلكين:

---

(١) انظر: الإسلام والمسيحية (١١٦ -١١٧).

(٢) الإسلام والمسيحية: (١١١).

(٣) لويس ماسينيون: مستشرق فرنسي، عضو في المجامع العلمية في بلدانٍ عديدة شرقية وغربية، اهتم بنشر مؤلفات الحلاج. ترك آثارًا جمة في مختلف الشؤون الإسلامية، ولا سيما الصوفية منها. انظر: المنجد في الأعلام (٦٢٨). وقد كانت أطروحته في الدكتوراه في جامعة السربون بعنوان: (مأساة الحسين بن منصور الحلاج، شهيد الإسلام الزاهد).

(٤) الإسلام والمسيحية. (١٢٠ -١٢١).

أحدهما: مسلك علمي يتجلى بجملة من الآراء والأفكار التي كوَّنها عن الإسلام متأثرًا باهتماماته الشخصية بالتصوف، وعلى الخصوص بالحلاج(١).

(إن تصور ماسينيون للدين الإسلامي يستند بالدرجة الأولى، ومن حيث الجوهر، إلى النقطتين المركزيتين الآتيتين:

١ - انتماء الإسلام للملة الإبراهيمية أو للشجرة الإبراهيمية.

٢- النهج الذي سلكه الحلاج في تفسيره وممارسته للإشكالية اللاهوتية للإسلام)(٢).

وهذه الثانية تكشف سر حماس ماسينيون للتقارب مع الإسلام. ذلك أن الفرق الهائل بين الإسلام والنصرانية يتركز في مفهوم «التوحيد»، حيث ينعى الإسلام على النصرانية عقيدة الحلول والتجسد في شخص المسيح، ويكفر القائلين بها لمنافاتها التوحيد الخالص لله رب العالمين. وحيث إن الخلاف في هذه القضية خلاف أساسي مبدئي، فقد وجد ماسينيون في شخصية الحسين بن منصور الحلاج، الصوفي الزنديق، منفذًا يتسلل به إلى المسلمين، بتمجيد زائغ ينتسب إلى الإسلام ويقول بعقيدة الحلول، أي حلول الإله في شخصه، حتى حمله ذلك على أقوالٍ وأفعالٍ كفرية.

---

(١) أبو مغيث، فيلسوف من كبار الملحدين، كان يعتقد بالحلول ووحدة الوجود. قبض عليه المقتدر العباسي، وقتل شر قتلة سنة (٣٠٩هـ). له كتب في تقرير كفره وزندقته تربو على الأربعين، اعتنى المستشرقون بسيرته وتعاليمه. انظر: الأعلام (٢/ ٢٦٠). قال ابن الجوزي رحمه الله: (اتفق علماء العصر على إباحة دم الحلاج) تلبيس إبليس. (١٧٢).

(٢) الإسلام والمسيحية (١٢٧).

فكأن ماسينيون يريد أن يجتذب المسلمين لعقيدة تأليه عيسى عليه السلام بضرب المثل بشخص الحلاج الذي صلب كما صلب المسيح -بزعمه- فصار شهيد الإسلام(١).

وعليه فقد كان ماسينيون يهدف في دعوته الصريحة إلى التقارب بين الديانتين، ليس إلى الوصول إلى جوامع مشتركة فحسب، بل أساسًا إلى استزلال المسلمين إلى القول بعقيدة الحلول وتأنيسها، وتصوير خصومها متزمتين منغلقين ضد «فردٍ متنور» من المسلمين أنفسهم، وليس من خارجهم، وهو الحلاج، دون أن يمس جوهر النصرانية الشركي القائم على ألوهية المسيح، وبنوته بأدنى تغيير.

وإلى جانب هذه القضية الأساسية التي اتخذها ماسينيون ركيزة أساسية في مشروعه وتفنن في عرضها، يحشد شواهد دينية مشتركة ومواقف تاريخية سلمية لدعم فكرته في التقارب، ويعتقد (أن متابعة بحث تلك المحطات المشتركة -بين الديانتين- من شأنها تهيئة الأرضية الطيبة لحوار لاهوتي مثمر بين المسيحية والإسلام)(٢).

المسلك الثاني الذي سلكه لويس ماسينيون، وتميز به عن كثير ممن سبقوه أو عاصروه، مسلك عملي، لا يكتفي بتحبير الصفحات، وطرح الأفكار من بُعد، بل صاحبه تغلغل في أعماق المجتمع الإسلامي، واهتم بقضاياه السياسية الساخنة ومناصرتها وبتكوين جمعيات الصداقة المختلفة مع المسلمين:

- فقد تعلم اللغات الأساسية التي يتحدث بها المسلمون، وهي العربية والتركية والفارسية، وأتقن العربية حتى صار عضوًا في مجمعيها في دمشق والقاهرة، وحاضر بالعربية.

---

(١) انظر: الاستشراق: المعرفة. السلطة. الإنشاء: إدوارد سعيد. ترجمة: كمال أبو ديب (١٢٧).

(٢) الإسلام والمسيحية. (١٢٧).

- توجه للدراسة في الأزهر، وعين أستاذًا في جامعة القاهرة في الحقبة ١٩١٢-١٩١٣م.

- صار مديرًا لمجلة العالم الإسلامي عام ١٩١٩م.

- أسس الجمعية الفرنسية الإسلامية عام ١٩٤٧م، وجمعية فرنسا -المغرب عام ١٩٥٣م، وأدان الاستعمار الفرنسي لبلاد المغرب: تونس والجزائر، وسجن بسبب ذلك، ووقف مع الفلسطينيين(١).

هذا من جانب المسلمين، أما نشاطه العملي في سبيل تحقيق فكرته مع أبناء ملته فيتمثل في دعوتهم إلى الاعتراف بـ«المصداقية النسبية» للقرآن، والاعتراف الجزئي «المشروط» بنبوة محمد، وأنه يجب على الكنيسة أن تعترف بالإسلام ومكانته الاعتبارية المستقلة كديانة توحيدية(٢). (وضمن هذا الفهم تقدم ماسينيون، بمبادراتٍ كثيرة لتغيير موقف الكنيسة الكاثوليكية -الرومانية «الفاتيكان» تجاه الإسلام...)(٣).

لقد كانت محاولات ماسينيون ذروة المحاولات التاريخية التي تمخضت عنها النصرانية طوال ثلاثة عشر قرنًا في مقاربة الإسلام.

---

(١) انظر الأعلام (٥/ ٢٤٧).

(٢) انظر الإسلام والمسيحية: (١٢٥، ١٢٨).

(٣) الإسلام والمسيحية: (١٢٨).

المبحث الثالث

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند المسلمين

ثَمَّ فارقٌ كبير في تناول هذه القضية بالبحث بين المسلمين وغيرهم. ذلك أن بنية الإسلام المتماسكة عقيدة وشريعة، التي تكفل الله بحفظها بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، تحول دون قبول بدعة في الدين، لا سيما ما يتصل بالأصول الاعتقادية الكبرى؛ من كون دين الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه، وأنه ناسخ لجميع الأديان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وذلك يقطع طمع كل صاحب هوى وبدعة أن ينسب إلى الإسلام ما ليس منه.

فالمسلمون المعتصمون بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، عندهم من العلم والإيمان ما يعصمهم من اتخاذ دينهم غرضًا للأهواء، فلم يقع، ولن يقع -بحفظ الله- في تاريخ السواد الأعظم، أهل السنة والجماعة، أدنى ملابسة تشير إلى مقاربة أهل الكتاب في دينهم ومعتقدهم، والبحث عن صيغة مشتركة، وعقيدة ملفقة يمالئون بها أهل الكتاب. وحاشاهم.

ولكن وقع في غضون التاريخ من بعض المنتسبين إلى الإسلام، الناشئين في أكناف المسلمين، ممن استهوتهم الشياطين، بعض الزنادقة والملحدين قديمًا، والمنهزمين المشبوهين حديثًا، من صار إلى شعبة من هذه الدعوة الخبيثة. ومن

ثم فالحديث عن الأصول التاريخية عند المسلمين حديث عن شواهد التصقت بجسم الأمة الإسلامية، وليست منها، كما يلتصق الدنس بالبدن. أما الحديث عن ذلك عند الآخرين فحديث عن تحولاتٍ حقيقية، وتغيرات جذرية تجري في صلب عقائدهم، وتنطق بها مجامعهم ومراجعهم المعتمدة. وشتان بين الحالين.

• المحطات التاريخية لظهور دعوة التقريب عند المسلمين:

يمكن أن نحدد الأصول التاريخية لظهور دعوة التقريب عند المسلمين بالمحطات الآتية:

- غلاة الصوفية من أصحاب وحدة الوجود.
- الفرق الباطنية.
- طلائع العصرانيين.

أولًا: غلاة الصوفية، القائلون بوحدة الوجود:

وهم الذين استزلهم الشيطان فأوحى إليهم أن لا موجود في الكون إلا الله، وأن سائر الأعيان والأشياء والأفعال ما هي إلا مظاهر وجوده، وتجليات أفعاله. ومن ثم فكل ما في الكون هو ذات الحق سبحانه، وكل حركة وسكون، وخيرٍ وشر، وطاعة ومعصية، وإيمان وكفر، تنغمر في بحر وحدة الوجود حتى تعود شيئًا واحدًا، وتسقط الحواجز والحدود والرسوم بين الذات والغير. وهذا غاية التوحيد عندهم، في عبارات مبهرجة عليها من زخرف القول وبريق المعنى ما يستهوي كل قلبٍ مفتون(١).

---

(١) انظر ما جمعه محمود عبد الرؤوف القاسم في: «الكشف عن حقيقة الصوفية» (١٠٥ -٢٦٢).

قال شيخ الإسلام: (وهؤلاء المتفلسفة ومتصوفوهم كابن سبعين وأتباعه، يجوزون أن يكون الرجل يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مشركًا يعبد الأوثان. فليس الإسلام عنده واجبًا، ولا التهود والتنصر والشرك محرمًا، ولكن قد يرجحون شريعة الإسلام على غيرها. وإذا جاء المريد إلى شيخ من شيوخهم، وقال: أريد أن أسلك على يديك. يقول له: على دين المسلمين أو اليهود أو النصارى؟ فإذا قال له المريد: اليهود والنصارى! أما هم كفار؟ يقول: لا، ولكن المسلمون خير منهم)[١]. وقد أجمع الدارسون على أن من نتائج القول بوحدة الوجود القول بوحدة الأديان.

يقول برهان الدين البقاعي[٢] رحمه الله: (وعلى هذا الأصل المخبث الخبيث -وهو الاتحاد بين جميع الكائنات، وأنه لا غير، ولا غيرية في شيء من الوجود- فرع صحة كل دين، لأن الفاعل عنده، إنما هو الله)[٣].

بل قد أدرك هذا المعنى كبار المستشرقين من أمثال جولدتسيهر[٤]، حيث يؤكد أنه (مهما تظاهر الصوفيون بتقديرهم للإسلام، فلغالبيتهم نزعة مشتركة إلى محو الحدود الفاصلة بين العقائد والأديان. وعندهم أن هذه العقائد كلها لها القيمة النسبية نفسها إزاء الغاية المثلى التي ينبغي الوصول إليها)[٥].

---

(١) كتاب الرد على المنطقيين ابن تيمية. (٢٨٢).

(٢) إبراهيم بن عمر البقاعي، أبو الحسن، ولد سنة (٨٠٩هـ)، مفسر، محدث، مؤرخ. توفي بدمشق سنة ٨٨٥هـ. الأعلام (١/ ٥٦).

(٣) تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي: برهان الدين البقاعي (٢٤٠ -٢٤١).

(٤) إجناس جولدتسيهر Ignas Goldziher، مستشرق مجري يهودي، ولد سنة (١٢٢٦هـ = ١٨٥٠م)، رحل إلى البلاد العربية، وصنف في الإسلام والأدب العربي، وترجم إلى العربية كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام» وفيه شبهات ومطاعن. وأخرج جزءًا كبيرًا من كتاب «فضائح الباطنية» للغزالي. توفي في بودابست سنة (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م). انظر: الأعلام (١/ ٨٤).

(٥) العقيدة والشريعة. (١٧٠).

ونسوق أدناه أمثلة صريحة لهذه الزندقة التي تفوه بها بعض كبار المتصوفة:

- قال ابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلًا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني(١)

- وقال جلال الدين الرومي(٢): (من قصيدة مترجمة عن الفارسية).

انظر إلى العمامة أحكمتها فوق رأسي.

بل انظر إلى زنار زرادشت حول خصري.

أحمل الزنار وأحمل المخلاة...

مسلمٌ أنا، ولكني نصراني وبرهمي وزرادشتي...

---

(١) ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق «ديوان ابن عربي» د. محمد الشقيري، (٢٤٥). وانظر كذلك: فصوص الحكم (٣٤٥).

(٢) جلال الدين الرومي: شاعر صوفي فارسي. ولد سنة (٦٠٤هـ = ١٢٠٧م) استقر في قونية وتوفي بها سنة (٦٧٢هـ = ١٢٧٣م). الأعلام (٢١٥)، ومعجم المؤلفين (٣/ ١٥٣).

ليس لي سوى معبد واحد، مسجدًا كان أو كنيسة أو بيت أصنام)(١).

وينقل عنه ر.ا. نيكلسون(٢) شعرًا:

إن يكن في الدنيا محب -أيها المسلمون- فأنا ذلك المحب.

إن يكن في الدنيا مؤمنٌ، أو كافر، أو راهب نصراني، فأنا هو...

أنا الثنتان وسبعون فرقة ومذهبًا في الدنيا، وأقسم بربي أنها ليست شيئًا غيري)(٣).

ومن هنا استنتج هذا المستشرق أن (هذه المذاهب -منطقيًّا(٤)- تلغي كل قانون ديني أو أخلاقي. وليس عند خيال العارف مثوبات أو عقوبات ربانية، ولا مقاييس للحَسَن أو القبيح... ومن هنا كانت جميع أشكال الأديان متساوية، وليس الإسلام بأفضل من الوثنية. وليس شيئًا عقيدة يعتقدها الإنسان، أو شعيرة يؤديها)(٥).

ثانيًا: الفرق الباطنية:

يطلق هذا الاسم «الباطنية» على جملة من الفرق والحركات والاتجاهات الكفرية، ويجمعها جميعًا مبدأ التحلل من النصوص الشرعية في العقائد

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه، (٩٤).

(٢) ر.ا. نيكلسون: رينولد ألين نيكلسون Reynold Allen Nicholson مستشرق إنجليزي، ولد سنة (١٢٨٥هـ-١٨٦٨م). تعلم العربية والفارسية، وتخصص في التصوف الإسلامي، ألف في التصوف: «الصوفية في الإسلام» و«دراسات في التصوف الإسلامي» وغيرها. وتوفي سنة (١٣٦٤هـ-١٩٤٥م)، انظر: الأعلام (٣/ ٣٩). ومقدمة الصوفية في الإسلام.

(٣) الصوفية في الإسلام: د.ر.ا. نيكلسون. ترجمة وتعليق: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي. القاهرة -مصر. طبعة (١٣٧١هـ = ١٩٥١م) ص١٥١.

(٤) أي كنتيجة منطقية للقول بوحدة الوجود.

(٥) الصوفية في الإسلام. (٨٥).

والأعمال، بدعوى أن لكل ظاهر باطنًا ولكل تنزيل تأويلًا. وجعلوا التأويل رسالة الأئمة. وراموا بذلك التحلل من نصوص الشرع كلها، وإدخال أديانهم الباطلة على الإسلام باسم الإسلام، وكل يتدين بدينه باسم الإسلام.

قال أبو حامد الغزالي(١): (إن الباطنية إنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صورًا جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة)(٢).

وقد نشأت معظم هذه الفرق وتفرعت عن شجرة «الرفض» كما وصفهم الغزالي، وفضحهم بقوله: (ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض)(٣).

قال عبد القاهر البغدادي(٤): (الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها، لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع)(٥).

أ- إخوان الصفا:

ومن أقدم مأثوراتهم الخبيثة جملة من الرسائل تبلغ اثنتين وخمسين رسالة، عرفت باسم: «رسائل إخوان الصفا، وخلان الوفا»، اعتنى بإخراجها وقدم لها

---

(١) محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الملقب بحجة الإسلام، ولد عام (٤٥٠هـ)، كان من كبار الشافعية وعظماء الفلاسفة والصوفية، توفي عام (٥٠٥هـ). انظر: طبقات الشافعية (٤/ ١٠١)، شذرات الذهب (٤/ ١٠).

(٢) فضائح الباطنية (١١).

(٣) المرجع السابق.

(٤) عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أبو منصور، عالم متفنن من أئمة الأصول، توفي سنة (٤٢٩هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٤٨)، طبقات السبكي (٣/ ٢٣٨).

(٥) الفرق بين الفرق: عبد القادر بن طاهر البغدادي (٢٩٤).

بطرس البستاني⁽¹⁾، وقال في مقدمتها: (تألفت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري⁽²⁾ «القرن العاشر للميلاد»، وكان موطنها البصرة، ولها فرعٌ في بغداد، ولم يعرف من أشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك، ولا يسفر اليقين عن حقيقة أمرهم بما يطمئن إليه الخاطر وينشرح له الصدر لما كانوا عليه من التستر والاكتتام)⁽³⁾.

ويتضح بجلاء لقارئ تلك الرسائل أن أولئك «الإخوان» جماعة شيعية سرية منظمة، تعتمد أسلوب الدعوة الفردية، للتغلغل في مختلف طبقات الناس. وقد استمدوا معلوماتهم من كلام الفلاسفة، وزوَّقوه بالنصوص الشرعية، فأولوها تأويلًا باطنيًّا، وصاغوا ذلك بأسلوبٍ متأدب متلطف.

وقد نقل البستاني عن المستشرق دي بور قوله: (إن آراء إخوان الصفاء ظهرت في جملتها من جديد عند فرق كثيرة في العالم الإسلامي: كالباطنية والإسماعيلية والحشاشين والدروز، وقد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق، وذلك عن طريق إخوان الصفاء)⁽⁴⁾.

وقد تبين منزلة الأديان عندهم، وكونها على حدٍ سواء، وأن كتبها المنزلة

---

(١) بطرس بن سليمان البستاني (١٣١٦ -١٣٨٩هـ=١٨٩٨ -١٩٦٩م). أديب لبناني، أشرف على طبع كتب منها: لسان العرب. انظر: الأعلام (٢/ ٥٩).

(٢) تميز القرن الرابع الهجري باستيلاء الرافضة على معظم الممالك الإسلامية، فقد استولى البويهيون على مقر الخلافة العباسية في العراق، منذ عام ٣٣٤. وظهر القرامطة قبلهم في الأحساء والبحرين وعمان واليمن وأجزاء من الشام منذ ٢٧٨هـ حتى ٤٦٦هـ، وانطلق العبيديون من المغرب عام ٢٩٦، واحتلوا مصر عام ٣٥٨هـ، ثم بلاد الشام حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨هـ.

(٣) مقدمة رسائل إخوان الصفاء (١/ ٥) وانظر في تحقيق نسبتها كتاب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي. د. محمد أحمد الخطيب (١٦٩ -١٧٧).

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام (١١٣)، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. (١/ ٧).

من توراة وإنجيل وفرقان، وغيرها من صحف الأنبياء -كما زعموا- على درجة واحدة في المرجعية. ولهذا نجدهم يهونون في مواضع كثيرة من شأن اختلاف الشرائع، ويجوزون الجميع، ويسوغونه بما يفضي إلى القول بوحدة الأديان. فمن ذلك قولهم: (اعلم أن اختلاف الشرائع ليس بضار... واختلاف أهل الديانات في أمر الدين وسنن أحكامه، حكمة جلية لا يعرفها إلا المحققون المستبصرون)(١). فجعلوا اختلاف الأديان كاختلاف المذاهب في الدين الواحد، والكل سائغ صحيح.

بل إن مذهبهم الباطني يتسع لكل شيء، ويقبل كل نحلة وملة، ولا يعادي أحدًا. وبهذا يتواصون قائلين: (ينبغي لإخواننا، أيدهم الله تعالى، ألَّا يعادوا علمًا من العلوم، أو يهجروا كتابًا من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها)(٢).

ب- البهائية:

ومن فروع هذه الشجرة الباطنية الخبيثة، فرقة «البهائية»، المنسوبة إلى مؤسسها الميرزا حسين علي المازندراني(٣)، المتلقب بـ«البهاء» أو «بهاء الله»، الفارسي، المولود سنة ١٢٣٣هـ، الذي ورث دعوة «البابية» في إثر إعدام مؤسسها

---

(١) رسائل إخوان الصفا. (٩/ ٤٨٧، ٤٩١).

(٢) رسائل إخوان الصفا. (٧).

(٣) حسين علي نوري الميرزا (١٢٣٣ -١٢٠٩هـ)، المعروف بالبهاء، أو بهاء الله. رأس «البهائية» ومؤسسها. إيراني مستعرب، أصله من «مازندران». اعتنق دعوة «البابية»، دعا إلى بدعته في العراق والآستانة، فنفي إلى أدرنة ثم إلى سجن عكا. ثم أفرج عنه والتف حوله مريدوه، ودفن في حيفا. من آثاره: «الأقدس»، و«الإيقان»، و«الهيكل»، انظر: الأعلام (٢/ ٢٤٨).

الباب، علي بن محمد الشيرازي(١) سنة ١٢٦٥هـ-١٨٤٩م. والبهاء كان أكثر مراوغة وذكاء، واحتماء بأعداء الإسلام، فاستحالت دعوته دعوة عالمية، واسعة الانتشار، وإن كانت قليلة الأتباع(٢). وساعده على ذلك مناداته بالتقارب بين الأديان، والوحد العالمية(٣)، ونسخ الجهاد، والتنصل من أحكام الإسلام، وموالاة اليهود والنصارى، وهي مسوغات كافية لدعمه وتشجيعه وتمكين أتباعه، من قبل الاستعمار الإنجليزي والروسي في ذلك الزمان.

يقول الميرزا حسين المازندراني «البهاء»: (يا علماء الأمم غضوا الأعين عن التجانب، وانظروا إلى التقارب والاتحاد، وتمسكوا بالأسباب التي توجب الراحة والاطمئنان لعموم أهل الإمكان)(٤).

وهو لا يدعو إلى مجرد إقرار جميع الديانات القائمة، ولكنه يدعو إلى وحدة الأديان بالانسلاخ من الأديان السابقة، واعتناق ديانة ملفقة نحتها عقله المأفون من جميع الأديان، ونسخت ما سبقها.

ومن ثم فقد نادى البهاء (أن يتحد العالم على دينٍ واحد، ويصبح جميع الناس

---

(١) الباب (١٢٣٥ -١٢٦٦هـ): علي محمد ابن الميرزا الشيرازي. مؤسس البابية، التي هي أصل البهائية. إيراني. جاهر بعقيدة سنة ١٢٦٠هـ وظاهرها توحيد الأديان وقوامها تلفيق دين جديد. فادعى أنه «الباب» ثم «المهدي المنتظر» وتبعه خلق كثير. قام عليه علماء الشيعة، فحوكم وسجن، ثم قتل رميًا بالرصاص. الأعلام (٥/ ١٧).

(٢) انظر في تاريخ هاتين الدعوتين وعقائدهما: حقيقة البابية والبهائية: د. محسن عبد الحميد. البهائية: تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية، عبد الرحمن الوكيل، البابية: عرض ونقد. إحسان إلهي ظهير.

(٣) يقول المستشرق جولد تسيهر: (بينا البابية، في حقيقتها ترمي إلى إصلاح الإسلام، يتقدم بهاء الله بفكرة واسعة النطاق، وهي إيجاد ديانة عالمية يتحقق بواسطتها الإخاء الديني بين الناس كافة) العقيدة والشريعة في الإسلام (٢٧٥).

(٤) نبذة من تعاليم بهاء الله. (١٢٣). عن حقيقة البابية والبهائية. (٢٠٧ -٢٠٨).

إخوانًا، وتتوثق عرى المحبة والاتحاد بينهم، وتزول الاختلافات الدينية)⁽¹⁾، ولكن كيف تزول الاختلافات الدينية، ويتحد العالم على دينٍ واحد؟ يكون ذلك بالدعوة إلى «الديانة العالمية» والتبشير بها، وهي البهائية الملفقة من شظايا الديانات الأخرى. يقول عباس عبد البهاء⁽²⁾ -ابن مؤسس الفرق البهائية-: (لقد خطر ببالي أن أطوف البلاد الغربية، وأدعو في المنتديات الكبرى وفي الكنائس، إلى وحدة العالم الإنساني حسب تعاليم حضرة بهاء الله... فهي تدعو العالم بأجمعه إلى الاتحاد والسلام العام، وإلى التحري عن الحقيقة، وتأسيس التآلف والمحبة بقوة الدين، وتحكيم العلم والعقل والدين في المعاملات)⁽³⁾. لقد جهر البهاء بما أَسَرَّه إخوان الصفاء بعد تسعة قرون. وهلك بعد ألف سنة من مهلك سلفه الحلاج سنة ١٣٠٩هـ.

ثالثًا: طلائع العصرانيين:

لعل أول من جهر بالدعوة إلى التقريب بين الأديان من الإسلاميين في العصر الحديث مؤسس المدرسة العصرانية الحديثة، وواضع لبناتها الفكرية الأولى: جمال الدين الأفغاني⁽⁴⁾، إذ يقول: (... هكذا نجد الأديان الثلاثة: الموسوية،

---

(١) بهاء الله والعصر الجديد. ل: أسلمنت ج.أ (١٢١). عن البهائية والقاديانية (٩١).

(٢) عباس عبد البهاء (١٢٦٠ -١٣٤٠هـ): صحب أباه في نفيه إلى العراق والأستانة وأدرنة وعكا. خلف أباه في قيادة البهائية وتنظيم جماعتها سنة ١٣٠٩هـ. زار أوروبا وأمريكا عامي (١٣٣١، ١٣٣٠هـ)، وعاد إلى فلسطين، فمات بحيفا. وله أتباع في أوروبا وأمريكا وغيرها من دول العالم. الأعلام (٣/ ٢٦١)

(٣) من رسالة بعث بها عبد البهاء إلى مدير مجلة المشرق البريطانية عام ١٩١٣. نقلاً عن المصدر السابق (٩٥).

(٤) هو محمد بن صفدر، ولد سنة ١٢٥٤هـ ١٨٣٨م، قيل في أسعد آباد التابعة لولاية كنر من أفغانستان، وقيل في أسد آباد التابعة لهمدان في إيران. كما اختلف في نسبه فقيل إنه شريف ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهم، وقيل بل هو فارسي الأصل. دعا إلى ما أسماه=

والعيسوية، والمحمدية، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، إذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية... لقد لاح لي بارق أمل كبير: أن يتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها، وبهذا الاتحاد يكون البشر قد خطوا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة. وأخذت أضع لنظريتي هذه خططًا، وأخط أسطرًا، وأحبر رسائل للدعوة... ولما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان تلك الهوات العميقة... علمت أن أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة، ونبذ الاختلاف، وإنارة أفكار الخلق بلزوم الائتلاف، رجوعًا إلى أصول الدين الحقة، فذلك الرجل هو هو، يكون عندهم قاطع أرزاق المُتَّجرين في الدين، وهو هو في عرفهم الكافر الجاحد المارق المخردق المهرتق، المفرق...)⁽¹⁾.

- ويتبين من هذا النص ما يأتي:

١- أن «وحدة الأديان» في نظر الأفغاني لا تقتصر على الاتفاق في المبدأ والغاية -مع أن هذا غير مسلَّم بعد ما طرأ التحريف على اليهودية والنصرانية- ولكنها تعني أيضًا «التلفيقية» بدليل قوله: إذا نقص في الواحدة شيء استكملته الثانية.

٢- أنه لا يرى «الإسلام» ناسخًا لما قبله من الأديان، ولا «مهيمنًا» عليها، بل ينظر إلى الأديان الثلاثة على حدٍّ سواء.

=بـ«الجامعة الإسلامية». وشخصيته غامضة مريبة، اتهم بالرفض وبالانخراط في الماسونية. توفي سنة ١٣١٥هـ-١٨٩٧م. انظر: الأعلام ٦/ ١٦٨ -١٦٩، دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام (٩ -٥٤). جمال الدين الأفغاني وفلسفة الجامعة الإسلامية: سمير أبو حمدان، (١٥ -٧٤).

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، د. محمد عمارة. القاهرة، ٢٩٦٨م. (٢٩٠ -٢٩٥).

٣- وبه يتبين أي لون من الائتلاف كان يدعو إليه، وأي لونٍ من الاختلاف كان ينبذه، فهو يريدها ديانة فضفاضة ينضوي تحت لوائها كل جاهل زنديق لا يقيم وزنًا للحدود والرسوم، بل يردد شعاراتٍ عامة لا تلتزم بما جاء به ﷺ من الهدى ودين الحق. وهذا ما يفسر المقاومة العنيفة التي قوبلت بها دعوته من وصفه بالكفر والجحود والمروق.

٤- وأخيرًا، فإن هذا الاعتراف الشخصي يدل على قِدم الفكرة في ذهنه وعشعشتها في خياله، كما يدل على تخطيط وعمل ودعوة لهذه الفكرة بكتابة الرسائل والتأليف. ثم جاءت سيرته الذاتية شاهدًا عمليًّا على نظريته في توحيد الأديان، فقد كان تلاميذه خليطًا من اليهود والنصارى⁽¹⁾.

وقد تبعه على هذا المنهج أخص تلاميذه، وأشهرهم نسبةً إليه، وهو الشيخ محمد عبده⁽²⁾، الذي حدث عن نفسه قائلًا: (في أثناء نفيي في دمشق سنة ١٨٨٣م كان أحد القسس في إنجلترا واسمه «إسحاق تيلور»⁽³⁾ يقوم بالدعاية لتوحيد الإسلام والنصرانية، على أساس فكرة التوحيد الموجودة في الإسلام،

---

(١) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب: محمد حامد الناصر. (٣٦٨-٣٦٩).

(٢) محمد عبده بن حسن التركماني، ولد عام ١٢٦٦هـ-١٨٤٩م في مصر. تعلم بالأزهر، وتصوف وتفلسف، ولما قدم جمال الدين الأفغاني إلى مصر عام ١٨٧١م اتصل به وافتتن به. ناصر الثورة العرابية ونفي إلى بلاد الشام سنة ١٢٢٩هـ. ثم سافر إلى باريس، والتقى بشيخه الأفغاني، وأصدرا معًا جريدة «العروة الوثقى» وعاد إلى مصر عام ١٣٠٦هـ، وعين قاضيًا. وتوثقت صلته باللورد كرومر، المندوب السامي لبريطانيا أثناء احتلالها لمصر. ثم ولي منصب المفتي العام للديار المصرية عام (١٣١٧هـ). وتوفي بالإسكندرية عام (١٣٢٣هـ). انظر: الأعلام (٦/ ٢٥٢)، الإمام محمد عبده. جدلية العقل والنهضة.

(٣) نقل محمد رشيد رضا قطعًا من مقالاته في الصحف الإنجليزية في الثناء على الإسلام والدعوة إلى التقارب مع النصرانية. انظر تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١/ ٨٢٢-٨٢٧).

والموجودة عند الكنيسة الإنجليكية(١). وكان لي صديق فارسيٌ «اسمه ميرزا باقر»(٢)، يعتقد إمكان تحقيق هذه الفكرة. وقد تمكن هذا من إقناعي أنا وآخرين من علماء دمشق بكتابة رسالة إلى تيلور في الموضوع. وما إن وصلت هذه الرسالة إلى القس تيلور حتى فرح بها ونشرها، مستعينًا بها على إثبات صحة دعواه)(٣). ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تابع الإيراني المتذبذب ميراز باقر مهمته للجمع بين رجالات الدينين الإسلامي والنصراني لتحقيق فكرة التقريب. ويصف محمد رشيد رضا(٤)، تلميذ محمد عبده، ومؤرخ سيرته الذاتية -الخطوة التالية- بقوله: (عرف ميرزا باقر في لندن وغيرها بعض رجال الإنجليز المستقلي الفكر، المحبين لحرية البحث في الدين.... وألفوا جمعية سياسية دينية سرية موضوعها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة، وإزالة الشقاق بين أهلها(٥).

---

(١) التوحيد في الإسلام ليس مجرد «فكرة» بل هو «عقيدة» راسخة، ربانية المصدر، وليست بشرية من نتاج الأفكار كما عبر الكاتب. أما الكنيسة الإنجيليكية فلا تخالف سائر الكنائس بالقول بالتثليث. وحاشا الإسلام أن يكون موافقًا لها في مسألة الألوهية والتوحيد.

(٢) ذكر محمد رشيد رضا أن ميرزا باقر كان إيرانيًا قد تنصر، وتسمى بميرزا يوحنا، ونشط في الدعوة للنصرانية. ثم أظهر توبته وعودته إلى الإسلام وشارك في ترجمة بعض المقالات الإنجليزية لجريدة العروة الوثقى، وكان يحتج بالقرآن دون الحديث على أصول الإسلام التي يدعو إليها ويعمل بها، وكان له شذوذ في ذلك غريب.
انظر تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨١٧ -٨١٩).

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين. (٢/ ٣١٩) (نقلاً عن مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٣٩م ذي الحجة ١٣٥٧ س٤٧ ص٣٩٠ -٣٩٣).

(٤) محمد رشيد بن علي رضا الحسيني، ولد ونشأ في «القلمون» من أعمال طرابلس الشام عام ١٢٨٢هـ هاجر إلى مصر سنة ١٣١٥هـ، ولازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له. وأنشأ مجلة المنار عام ١٨٩٨م. تأثر أخريات عمره بالدعوة السلفية، وطبع في مطابع المنار كثيرًا من كتب أئمة السلفية. وتوفي فجأة عام ١٣٥٤هـ. انظر: الأعلام (٦/ ١٢٦)، الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل: سمير أبو حمدان. (٩ -٥٥).

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: محمد رشيد رضا. (١/ ٨١٩ -٨٢٠).

ومن هذه الوقائع والاعترافات الشخصية نستخلص ما يأتي:

١- اقتناع الشيخ «محمد عبده» بفكرة التقريب بين الأديان.

٢- الانتقال من طور الفكرة إلى العمل.

٣- ضلوع الرافضة المبكر، بل وقوفهم خلف قيام هذه الجمعية فكرة وعملًا ومشاركة، كما يتضح من جهود الإيراني ميرزا باقر، ومؤيد الملك، وحسن خان، وكلهم إيرانيون.

وبهذه المواقف الفكرية والعملية لرائدي المدرسة العصرانية، أُرسِيت دعامة كبيرة من دعائم الاتجاه العصراني الحديث، وهي الدعوة إلى «وحدة الأديان»، وتمييع الحواجز والحدود بين دين الله الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه، وهو دين الإسلام الذي جاء به محمدٌ ﷺ عقيدة وشريعة، والأديان المحرفة المنسوخة من اليهودية والنصرانية.

وقد تتابع تلاميذ هذه المدرسة على النسج على منوال أشياخهم، وترديد أفكارهم، بل والتوسع والإيغال فيها بما تقشعر منه جلود المؤمنين، ويذكر بمقالات الزنادقة والملحدين.

الفصل الثالث

حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث

جرت الإشارة في الفصل الأول من هذا الباب إلى الاتجاهات العامة لدعوة التقريب بين الأديان. وفي هذا الفصل نحاول الوقوف من كثب على حقيقة هذه الدعوة لدى مختلف الفرقاء من خلال وثائقهم الرسمية أو كتابات زعاماتهم الدينية في هذه الحقبة من التاريخ المعاصر.

ونظرًا لكون الجانب النصراني هو صاحب المبادرة في هذه الدعوة وتفعيلها على اختلاف طوائفه، وهيئاته الرسمية، فسُيعرض موقفه عرضًا أكثر تفصيلًا، ثم نتبعه بالحديث عن اليهود، ثم الإسلاميين العصرانيين، على النحو الآتي:

١- المبحث الأول: حقيقة التقريب بين الأديان عند الكنيسة الكاثوليكية.

٢- المبحث الثاني: حقيقة التقريب بين الأديان عند مجلس الكنائس العالمي.

٣- المبحث الثالث: حقيقة التقريب بين الأديان عند النصارى العرب.

٤- المبحث الرابع: حقيقة التقريب بين الأديان عند اليهود.

٥- المبحث الخامس: حقيقة التقريب بين الأديان عند الإسلاميين العصرانيين.

المبحث الأول

حقيقة التقريب بين الأديان عند الكنيسة الكاثوليكية

- **تعريف بالكنيسة الكاثوليكية:**

تعني كلمة «كاثوليكية» جامعة. وهو الوصف الذي تضمنه الإيمان النيقاوي الذي أقر في مجمع «نيقية» سنة ٣٢٥م للكنيسة الشرعية، فجاء فيه: (وأعتقد بكنيسة واحدةٍ جامعة رسولية)(١).

وقد عدت الكنيسة الغربية التي مقرها حاضرة الفاتيكان(٢) في روما نفسها مستحقةً لهذا الوصف دون ما سواها من الكنائس، بدعوى أن مؤسسها هو «بطرس» حواري المسيح ورسوله، بل كبير الحواريين ورئيسهم، والباباوات بعده خلفاؤه(٣). وكان أخطر وأكبر انقسام جرى في تاريخ الكنيسة هو الانفصال بين روما والقسطنطينية عام ١٠٥٤م(٤)، أفضى إلى تمايز مزمن بين:

١ - الكنيسة «الرومانية» «اللاتينية» «الكاثوليكية».

٢ - الكنيسة «البيزنطية» «اليونانية» «الأرثوذكسية».

---

(١) راجع التمهيد.

(٢) الفاتيكان Vatican: مقام البابوات في روما. يتألف من البلاط والمعابد والمتاحف والمكتبة... ودولة الفاتيكان: دولة اعترفت بها إيطاليا في معاهدة «لاتران» ١٩٢٩م. رئيسها «البابا»، مساحتها نحو ٤٤ هكتارًا، عدد سكانها لا يتعدى الألف شخص. المنجد في الأعلام (١٥٦)، وانظر كتاب: الفاتيكان عاصمة الكثلكة في العالم. تأليف بول بويار.

(٣) انظر: محاضرات في النصرانية (١٤٦).

(٤) انظر: تاريخ الكنيسة المسيحية. (٣٨١ - ٣٩٠).

وقد تبادلتا قرارات الحجب والحرمان عبر القرون، وتحاولان التقارب في النصف الأخير من هذا القرن(١).

وتعد الكنيسة الكاثوليكية أكبر الكنائس النصرانية أتباعًا، إذ يتجاوز عددهم تسعمئة مليون نسمة موزعين في شتى أنحاء العالم، ويتركزون في دول الغرب القديمة: إيطاليا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا وغيرها(٢)، إضافة إلى مستعمرات تلك الدول في أمريكا اللاتينية -الجنوبية- والفلبين.

وتتميز الكنيسة الكاثوليكية بتنظيم هرمي دقيق، يتربع على سدته «البابا» أسقف روما، وخليفة بطرس الرسول -كما يزعمون- ويلقب بـ«الحبر الأعظم». وقد منحته بعض مجامعهم صفة «العصمة»(٣).

• المجمع الفاتيكاني الثاني والموقف من المخالفين:

أطلق المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد في مدينة «روما»، في الحقبة الممتدة من ١٩٦٢م إلى ١٩٦٥م، عقال الكنيسة الكاثوليكية في نظرتها وتعاملها مع الآخرين المخالفين، من النصارى أتباع الكنائس الأخرى، وغير النصارى من اليهود والمسلمين، بل والوثنيين والعلمانيين.

ولقد كان هذا المجمع حدثًا كبيرًا في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، التي آلت إلى حالة من الجمود والشلل في أعقاب الحربين العالميتين، وما أعقبهما من تغيرات كبرى في العالم، وانفتاح بين الشعوب والأفكار والمعتقدات. وكان لا

---

(١) انظر: تاريخ الحركة المسكونية: الأب: روبير كليمان اليسوعي. ترجمة الأب: صبحي حموي اليسوعي. ج(١، ٢).

(٢) انظر: تاريخ الكنيسة الشرقية، وأهم أحداث الكنيسة الغربية: المطران ميشيل يستيم. الأرشمندريت أغناطيوس ديك. معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت حريصا. (٣٨٨).

(٣) جرى ذلك في المجمع الفاتيكاني الأول عام ١٨٦٩م.

بد لهذه الكنيسة الصارمة أن تنفض عنها غبار القرون الوسطى، ولغتها الإملائية لتتمكن من العيش في هذا الواقع الجديد المنفتح.

لقد وجدت الكنيسة الكاثوليكية نفسها في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي أمام ثلاثة خيارات فيما يتعلق بصلتها بالعالم:

(١- موقف «الجيتو»[١] الهارب إلى عالمه الخاص، والمنكفئ على ذاته.

٢- موقف التحريم، والاقتراب من العالم بهدف إدانته فقط.

٣- موقف الحوار)[٢]. ولا ريب أن المصلحة اقتضت ترجيح الخيار الثالث، حتى مع بعض التنازلات الجوهرية، والتخلي عن بعض التقاليد والأفكار العتيدة، في سبيل مواكبة حركة المجتمع الإنساني التي لم تنتظر إذنًا من الكنيسة، ولم تعد تخشى حجبًا أو حرمانًا منها. ومن ثم كانت ولادة المجمع الفاتيكاني الثاني.

وبعد ما يقرب من أربع سنوات من المداولات والمجادلات، بل والنزاعات بين التيار المحافظ والتيار التقدمي، تبنت الكنيسة الخيار التقدمي المنفتح على الآخرين، ما يعد «تطويرًا لاهوتيًا» في هذا المجمع (الذي أدخل في الكنيسة نهجًا جديدًا في التفكير اللاهوتي والعمل الراعوي)[٣]. فبعد أن كانت الكنيسة ترى أنها

---

(١) الجيتو أو «الغيتو» Ghetto تعني في الأصل حي اليهود، حيث ينعزل اليهود عادة في تجمعات سكنية خاصة، ولا يختلطون بالسكان المجاورين. ثم صار تعبيرًا شائعًا في الدلالة على العزلة.

(٢) انظر: الإسلام والمسيحية. إليكسي جورافسكي (١٦٤).

(٣) انظر مقدمة: المجمع الفاتيكاني. (٢١) للمطران كيرلس سليم بسترس. وانظر فصل: المجمع الفاتيكاني الثاني ولاهوت التحرر من كتاب: الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة (٧٩-٩٣). والراعوي أو الرُّعوي أو الرعِائي اصطلاح كنسي تنظيمي فـ(الراعي... كل من ولي أمر قومٍ كالأسقف والبطريرك وغيرهما... والرعية... الخاضعون لأوامره. ومنه رعية الأسقف ونحوه) المنجد (٢٦٨).

وحدها تمتلك «الحقيقة المطلقة»، وأنه لا سبيل إلى «الخلاص»(١) إلا عن طريقها، أبدت قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني مرونةً وتنازلًا عن هذه المعتقدات العتيدة التي كانت الأساس في القرون السابقة لقرارات الحجب والحرمان.

جاء في أول دساتير المجمع (الكنيسة: دستور عقائدي)، فقرة ١٦: (... بيد أن تدبير الخلاص يشمل أيضًا أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يعلنون أنهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد الرحمن الرحيم، الذي يدين الناس في اليوم الآخر)(٢). وهذا النص (يسجل تغيرًا جذريًّا في موقف الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة إلى سائر الأديان. وهو تغير لا رجوع ممكن عنه... وهو ملزم بما للمجمع المسكوني من سلطة)(٣).

وفي البيان المتعلق بعلاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية: (... والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئًا مما هو في هذه الديانات حقٌّ ومقدس، وتولي تقديرها باحترام صادق هذه الطرق المسلوكة في العمل والحياة، وهذه القواعد والتعاليم التي وإنِ اختلفت في أمور كثيرة عما تقول به وتُعلِّمُه، تحمل غير مرة قبسًا من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس. غير أنها تبشر، ويجب أن تبشر بلا انقطاع بالمسيح الذي هو «الصراط والحقيقة والحياة» (يو ١٤: ٦).

من أجل ذلك تحرض أبناءها على الاعتراف بالقيم الروحية والأدبية والاجتماعية والثقافية التي توجد عند أتباع الديانات الأخرى، والمحافظة عليها

---

(١) الخلاص: مصطلح كنسي عقدي يعني (النجاة... يوم الخلاص: الفوز بآخرة صالحة. المخلِّص: لقب السيد المسيح) المنجد (١٩١). وراجع العقائد النصرانية في التمهيد. (٩٠-٩٣).

(٢) المجمع الفاتيكاني الثاني: دساتير، قرارات، بيانات (٥٢).

(٣) البيانات الإسلامية المسيحية. جولييت حداد (٢٨). وانظر: الإسلام والمسيحية. (١٣٧-١٣٨).

وإنمائها، وذلك بطريق الحوار والتعاون معهم، بمقتضى الفِطنة والمحبة، مع الشهادة للإيمان والحياة المسيحية).

وبعد هذا الانفتاح العام على الآخرين، والاعتراف بما لديهم من قيمٍ ومثل في سابقة ليس لها نظير في الخطاب الكنسي، يتوجه البيان إلى خصوصية المسلمين بهذه الدعوة فيتابع قائلًا:... ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرضهم جميعًا على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم فيما بينهم، وأن يحموا ويعززوا كلهم معًا، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية).

ثم يتوجه البيان الكنسي إلى اليهود، فيذكر بأواصر الرحم والقربى، والتراث الروحي المشترك بين ورثة العهد القديم وورثة العهد الجديد، ويخلص إلى القول: (وبإزاء هذا الواقع، واقعَ التراث الروحي العظيم، المشترك بين المسيحيين واليهود، يريد المجمع أن يشجع ويحرض على التعاون والتقدير المتبادل بين الملتين، وذلك خصوصًا بالدراسات الكتابية واللاهوتية، وبطريق الحوار أيضًا).

وفي مسعًى مُلَطَّف لتبرئة اليهود من دم المسيح في زعمهم، -خلافًا لما درج عليه النصارى طوال القرون السالفة- يتابع البيان قائلًا: (ولئن يكن ذوو السلطان من اليهود ومشايعوهم هم الذين دفعوا على قتل المسيح، فإن ما اقترفته الأيدي إبان آلامه لا يمكن إسناده، في غير تمييز، إلى جميع اليهود الذين عاشوا آن ذاك، ولا إلى اليهود العائشين في عصرنا. من أجل ذلك لا يجوز على كون الكنيسة هي الشعب الجديد لله(!) أن يُشَهَّر باليهود بأنهم منبوذون من الله، وأنهم ملعونون، كما لو كان ذلك يستنتج من الكتاب المقدس. فليحرص الجميع إذًا، في التعليم

المسيحي، وفي الوعظ بكلمة الله، ألَّا يعلموا شيئًا لا يتوافق مع حقيقة الإنجيل وروح المسيح.

وإلى ذلك، فإن الكنيسة التي تستنكر جميع ألوان الاضطهاد لجميع الناس أيًّا كانوا، ولا قِبَل لها بأن تنسى التراث المشترك بينها وبين اليهود تأسف -لا لبواعث سياسية البتة بل بدافع من محبة الإنجيل الدينية- للأحقاد والاضطهادات وجميع مظاهر العداء للسامية التي أَلَمَّت باليهود، أيًّا كان عهدها، وأيًّا كان فاعلوها)(١).

إن هذه الفقرات من دساتير المجمع الفاتيكاني الثاني وبياناته، لتمثل موقفًا عقديًّا جديدًا، تبني عليه طريقة عمل جديدة أيضًا. وهي تمثل أساسًا متينًا لمشروع الحوار والتقارب بين الكنيسة والأديان الأخرى، وقاعدة انطلاق عريضة استند إليها الناشطون من دعاة التقارب والحوار منذ ذلك الحين. وبتحليل تلك الفقرات نلمس ما يأتي:

أولًا: إيجاد المسوغ العقدي لمشروعية الحوار بتوسيع دائرة الخلاص، وإمكان شمولها غير النصارى.

ثانيًا: الاعتراف بالأصول الإيمانية، العقائد والشرائع الدينية لدى المسلمين، وإن لم يبلغ الأمر الاعتراف بنبوة محمد ﷺ.

ثالثًا: إبداء الأسف على النزاع التاريخي العدائي مع المسلمين، والاعتذار لليهود مما نالهم من اضطهاد وتشهير.

رابعًا: دعوة المسلمين واليهود إلى التفاهم والتعاون عن طريق الحوار الأخوي.

---

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ -٦٣١).

وتبقى قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني معلمًا بارزًا في رحلة التقارب بين الأديان.

الكتب والوثائق الكاثوليكية المتعلقة بقضية التقريب بين الأديان:

لِتبيُّن فهم الكنيسة الكاثوليكية لنصوص المجمع، وأسلوب تطبيق مقرراته، نختار بعض الكتابات والوثائق التي تجلي حقيقة التقريب في نظر الكنيسة:

أ- (نحو حوارٍ مع الإسلام):

من أقدم البيانات الكاثوليكية بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، المقالة التي كتبها «لويس جاردت»، ونشرتها أمانة سر شؤون غير النصارى عام ١٩٦٦م بعنوان «نحو حوار مع الإسلام»(١)، يختار الكاتب «موضوعات محتملة للبحث» في الحوار الإسلامي المسيحي.

وهذه القضايا «الإسلامية» التي يريد الكاتب أن يجعلها مادة للبحث والحوار على النحو الآتي:

أولًا: (... القضية الكبرى في الفكر اللاهوتي الإسلامي مشكلة أفعال الله وأفعال الإنسان، ويتبع ذلك مشكلة حرية الإنسان)(٢).

أليس هذا الكلام ترديدًا لما افتراه بعض المستشرقين من اتهام العقيدة الإسلامية بـ«الجبر».

---

(١) انظر: Towards a Dialoge with Islam. Louis Gardet Secretaraitus pro-non Christainis: Bulletin, VOL, NO.٣ نحو حوار مع الإسلام. لويس جاردت. عن مجموعة وثائق صادرة عن المؤسسة الإسلامية، ليستر. بعنوان الحوار بين النصارى والمسلمين ج(٢)، (٢، ٣). وانظر نقد هذه الوثيقة في أصل الكتاب.

(٢) المرجع السابق، (٣).

ثانيًا: مفهوم «الشهادة»: فيقول: (... وتتركز المشكلة الإسلامية على الشهادة وتهتم بها بشكلٍ ربما كان شديد العنف)[١].

فالكاتب يلمز الشهادة الإسلامية بكونها تؤدي «بشكل ربما كان شديد العنف»، وذلك في إشارة واضحة إلى «الجهاد في سبيل الله»، الذي يثمر الشهادة في أعظم صورها، ويسمى مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا «شهيدًا» إذا قُتل في هذا السبيل.

وعليه فالكاتب يريد أن يخضع قضية «الجهاد» التي تقض مضاجع المستعمرين النصارى لمبضع الجراح، لكن من خلال دائرة أوسع، وتحت عنوانٍ آخر هو مفهوم الشهادة، ويبدي تشوفه لحدوث تغيير أو تعديل في الموقف الإسلامي)[٢].

ثالثًا: «القيم الخلقية الإسلامية». يقول الكاتب: (... ويبدو غريبًا أن التقدم الحديث في علوم الإنسان لم يجعل المفكر المسلم يعيد النظر في مشكلة «التكليف» في إطار الأبعاد المتجددة لعلم الإنسان، وعلم الاجتماع، وبتعبير آخر ضمن أبعادٍ فلسفيةٍ خُلقيةٍ تأخذ بالحسبان الماديات الأساسية لوضعِ لاهوت خلقي)[٣].

إن الكاتب يعيد صياغة شبهات المستشرقين والمبشرين بطريقة «حوارية». فأحد المطاعن التي يدندن حولها المستشرقون والمبشرون أن الإسلام دين تكاليف و«أحكام شرعية»، وأن «الفلاح» في نظر المسلمين، إنما يكون بحسب التزام المسلم بهذه الأحكام فعلًا وتركًا، بخلاف النصرانية التي تخلي عهدة أتباعها من جميع الالتزامات والأعمال اكتفاءً بالإيمان القلبي بالمسيح[٤].

---

(١) المرجع السابق، (٤).

(٢) المرجع السابق، (٤).

(٣) المرجع السابق، (٤).

(٤) راجع مبحث الشريعة عند النصارى في التمهيد (٩٨ - ١٠١).

والكاتب يحاول أن يقرر أن هذه الجملة من التكاليف الخلقية ليست من أصل الإسلام في صياغتها الحالية، وفي ذلك إشارة إلى ما يزعمه البعض من أن الفقهاء المتأخرين هم الذين قننوا هذه الأعمال وأكسبوها الصفة الشرعية.

إن هذه المقالة تكشف نوعًا من أنواع الأداء المبكر في أسلوب الحوار النصراني الإسلامي، يستهدف بحث مسائل عقدية، يأخذ الجانب النصراني فيها بزمام المبادرة والتخطيط والتوجيه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ب- (توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين):

ومن الإصدارات المهمة للكنيسة الكاثوليكية في مجال الكشف عن حقيقة التقريب بين الأديان لديها ما كتبه الأب «موريس بورمانس» بعنوان: «توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين»، وحظي بمراجعة لفيفٍ من كبار الآباء والخبراء في طبعته الثانية عام ١٩٨٠م، وتبنته ونشرته أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين (لتوطئة الحوار وقيام تعاون بين المسيحيين والمسلمين)[١]، ما يجعله وثيقة رسمية للكنيسة الكاثوليكية، وشرحًا لعبارات ومقاصد المجمع الفاتيكاني الثاني.

والكتاب في أصله موجهٌ إلى النصارى، وبالأخص الكاثوليك منهم. وتتضح لنا معالم أساسية نستخلصها من هذه الوثيقة[٢]:

أولًا: أن تاريخ العلاقات الإسلامية النصرانية خلا من الحوار بصورته الصحيحة، وعلى الأخص ما جرى في العهد النبوي مع نصارى نجران، حيث

---

(١) من مقدمة الرئيس المساعد لأمانة السر، جان جادو للكتاب (١٤).

(٢) توجيهات في سبيل الحوار(١٩، ٢٠، ٢٥-٢٦، ٤٥، ٤٩-٥١، ٥٧-٦٢، ١٠٩، ١٣٧-١٣٩، ١٤٧، ١٤٩).

يصفه المؤلف بأنه «مأسويٌّ» انتهى بالمباهلة والإخضاع، واعتمد أسلوب التحريم والنبذ. وما أعقبه بعد ذلك طوال التاريخ كان سلسلة من المصادمات والمماحكات والتحديات.

ومن ثم فالحوار المطلوب وليد هذا العصر الحديث. وأسلوب المناظرة والمجادلة والردود لا يتفق ومشروع الحوار الحقيقي المقترح.

ثانيًا: حقيقة الحوار المطلوب انفتاح مطلق على الآخر يأبى كل اعتزال، ويعنى دائمًا بالآخر، يتقبله ويحترم تراثه، ويحاول أن يكتشفه ويتعرف إليه، ومن ثَمَّ يتعايش معه ويشاركه آلامه وأفراحه، وينطلق معه في حوار مطلق بلا قيد ولا شرط إلى المجهول، (كالمسافرين في الطريق لا يعرفون جيدًا إلى أين يقودهم الله، ولكنهم يقرون بأنه يريدهم أن يسيروا معًا)(١). تلك حقيقة الحوار وأسلوبه في نظر الكنيسة الكاثوليكية.

ثالثًا: هدف الحوار تعزيز التعاون بين الجميع، الموصل إلى التعمق في العقيدة والتراث الديني، الحامل للتغيير إلى الأفضل، ومحاولة الارتقاء نحو الوحدة الروحية، والمشاركة التعبدية، بل واستنباط صيغ مشتركة جديدة للصلاة والتسبيح يمارسها الطرفان معًا.

رابعًا: والحوار الحقيقي، والتقارب الصادق يربأ في نظر المؤلف عن محاولات الاجتذاب الديني والدعوي بجميع أشكاله، بل يعد ذلك خيانة لا تليق بالهدف النبيل الذي يسعى إليه. كما يرفض الحوار الصادق التكيف الكاذب والمجاملة على حساب الضمير والمعتقد، بل يؤكد الكاتب لمواطنيه النصارى أن مجرد التعبير عن إيمانه بعموميات، وحجب معتقده الذي يخالف صريح القرآن

---

(١) المرجع السابق، (٦٢).

إلى الحد الذي يجعله مقبولًا لدى المسلمين انتقاص وسعي كاذب. كما لا بد لطرفي الحوار من السلامة من مشاعر الارتياب تجاه بعضهما بعضًا من تبييت نية مسبقة للضم والتشكيك والاجتذاب.

خامسًا: ومع طلاقة الحوار، ورحابة الدعوة إلى الانفتاح، إلا أن للحوار حدًّا لا يجوز تخطيه، بل ولا الاقتراب منه، ذلك ما يتصل بعقيدة التثليث والتجسد والفداء في شخصية المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فالحوار هنا ضار بل مستحيل.

إن الحوار الذي يصفه الأب موريس بورمانس، شارحًا بذلك مضامين قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني وأهدافه ليمثل نمطًا غريبًا، وبدعة محدثة على منهج الدعوة الإسلامية في ماهيته وفي أسلوبه وفي غاياته.

إن الكاتب يغالي في تعظيم شأن الحوار وتمجيده، حتى يستحيل في حس القارئ إلى هدف بدلًا من كونه وسيلة. لقد عرف المسلمون منذ فجر الدعوة الإسلامية دعوة أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسن، بالحجة والبيان والدليل والبرهان، وتركوا في ذلك تراثًا ضخمًا، ولكن المحاور النصراني يريد أن يبرئ الحوار الصادق من أدنى تهمة للدعوة والاجتذاب والإقناع، ويرى في ذلك تعكيرًا لصفاء الحوار!

كما استقر عند المسلمين بداهة أن أهم القضايا التي يجادلون فيها أهل الكتاب هي قضية التوحيد المطلق لله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ونبذ مظاهر الشرك وعبودية سوى الله تعالى، وعمدتهم في هذا الجدل الشرعي الصحيح قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟

ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] ولكن دعاة الحوار الحديث يريدون تنحية هذه القضية الأساسية وتحاشيها، لأن الحوار فيها يفسد الحوار، وهكذا يصبح الحوار غاية لا وسيلة. وفضلًا عن ذلك هو غاية غير واضحة يخبط المتحاورون فيه في التيه، بحرية ومغامرة لا يدرون إلى أين ينتهون! وكل ذلك مرفوض عقلًا، فضلًا عن كونه ردةً وزندقةً دينًا وشرعًا. ولا أدل على ذلك من تلك المطالب والمقترحات التي تقدم بها الكاتب للمشاركات الروحية من صلوات وابتهالات، لا يمكن أن يقبل بها مسلم يعي حقيقة دينه. وربما وجدت صدًى لدى بعض الزنادقة من المنتسبين إلى الإسلام من غلاة الصوفية الذين يسقطون الحدود والرسوم والشعائر، أو الفرق الباطنية الضالة. وهذا يفسر ميل الكاتب(١) وغيره من الآباء الروحيين للنصارى إلى أقطاب التصوف من القائلين بوحدة الوجود والاتحاد والحلول، وإعجابهم بهم، وتمجيدهم لهم، وذلك لاتفاق المشرب.

ج- (حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل):

وقد أثار هذا التحول التاريخي في موقف الكنيسة الكاثوليكية من الأديان، سواء ما يتعلق بالقاعدة النظرية حول توسيع فكرة الخلاص وشمولها من هم خارج الكنيسة، أو ما ترتب على ذلك من الدعوة إلى الحوار والبحث عن القيم المشتركة والتعاون في تنميتها، أثار جدلًا واسعًا في أروقة الكنيسة ذاتها وخارجها، واشتعل فتيل الجدل -بطبيعة الحال- في الملتقيات الأولى للمجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٢م بين الدوائر الكنسية المحافظة في الفاتيكان والآباء التقدميين الراغبين في الانفتاح على عالم جديد منفتح.

---

(١) انظر في المرجع السابق، (٨٩ -٩١، ١٠٣، ١٠٥، ١٥٠).

وفي دورة المجمع الثانية عام ١٩٦٣م، بعد وفاة البابا يوحنا الثالث والعشرين وتتويج البابا بولس السادس، بلغ الجدل ذروته في مناقشة أهم دساتير المجمع المتعلق بتحديد هدف الكنيسة ورسالتها وعلاقاتها، ويصور الأب غابي هاشم البولسي هذه الأزمة بقوله: (احتل مشروع «الكنيسة(١)» مكان الصدارة في هذه الدورة... لقد شكل هذا المشروع المنعطف الخطير، وتسبب بأزمة حادة، وضعت مصير الكنيسة وتوجه المجمع على المحك. وسرى الريب في النفوس الضعيفة، فراحت تتساءل: هل تقوى الكنيسة على مواجهة ذاتها والانفتاح على العالم المعاصر، أم تتمسك بأهداب سلطة زمنية، وامتيازاتٍ إدارية، ومن ثم تدير ظهرها للفرصة الذهبية، ضاربة عرض الحائط بآمال الكثيرين وتطلعاتهم؟ تلك لعمري أوج الأزمة التي بلغتها المناقشات قبيل التصويت التاريخي الذي جرى في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩٦٣م)(٢).

وأسفر التصويت عن تفوق النزعة التقدمية، وتمخض المجمع عن تلك الوثيقة التاريخية المسماة «الكنيسة. دستور عقائدي» متضمنة تلك الفقرة المشار إليها آنفًا حول مفهوم الخلاص، والتخلي عن اعتبار الإسلام هرطقة دينية مسيحية، والاعتراف به دينًا رسميًّا جديرًا بالاحترام(٣).

ولكن هذا الجدل الذي حسم رسميًّا بصدور دساتير المجمع وقراراته وبياناته(٤)، لم تنحسم مادته واقعيًّا في العقول والصدور، فثارت إشكالات متعددة

---

(١) المقصود مشروع صياغة الدستور العقدي الأول للمجمع المسمى «الكنيسة».

(٢) من مقدمة: (المجمع الفاتيكاني الثاني) (١٦، ١٧).

(٣) المرجع السابق، (٥٢).

(٤) (... الدستور غير القرار، وكلاهما غير البيان، ذلك لأن الدستور يحمل سمة الديمومة، فيما القرار له صفة عملية، وأحكام مرتبطة بظروف الزمان والمكان، وأما البيان فإعلان موقفٍ من موضوع ما، وهو رهن بمناسبته التاريخية). من مقدمة كتاب: المجمع الفاتيكاني الثاني: دساتير، قرارات، بيانات) (٢٠).

حول بنوده المختلفة. ومن أبرز هذه الإشكالات المتصلة بموضوع بحثنا، معضلة العلاقة بين الحوار والبشارة، ومحاولة التوفيق بينهما.

وقام «المجمع البابوي للحوار بين الأديان»، بإعداد وثيقة جديدة بعنوان: «حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل»، أُقِرَّت في الجمعية العمومية للمجلس البابوي من أجل الحوار بين الأديان في نيسان -أبريل سنة ١٩٩٠م(١). وقد اشترك في وضع الوثيقة كل من: رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان، ورئيس مجمع تبشير الأمم، ووقَّعاها في أيار -مايو سنة ١٩٩١م.

ونظرًا لحداثة الوثيقة وأهميتها ورسميتها، فسنعتمدها مرجعًا أصيلًا في استجلاء حقيقة الحوار من وجهة النظر الكاثوليكية بعد خضوعه لمطارق النقد من داخل الكنيسة نفسها.

- في مقدمة الوثيقة تصوير لأبعاد المشكلة: (إن عمل الحوار يبعث في نفوس الكثيرين بعض المسائل. فهنالك من يبدو لهم في تفكيرهم الخاطئ، أن الحوار في رسالة الكنيسة الحالية يجب أن يقوم مقام البشارة. وهنالك آخرون يقفون موقفًا معاكسًا، ويمتنع عليهم فهم قيمة الحوار بين الأديان. وهنالك أخيرًا من تولتهم الحيرة فتساءلوا قائلين: لئن بلغ الحوار بين الأديان هذه الدرجة من الأهمية، فهل فقدت الرسالة الإنجيلية دورها المُلِح؟ هل أصبح العمل على ضم الناس إلى حظيرة الكنيسة أمرًا ثانويًّا، أو بالأحرى نافلًا؟ من هنا الحاجة إلى بعض التوجيهات العقائدية والراعوية، ترمي هذه الوثيقة إلى المشاركة فيها، من

---

(١) انظر مقدمة: حوارٌ وبشارة: تأملاتٌ وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل، المجمع البابوي للحوار بين الأديان. تعريب دائرة الترجمة في المكتبة البولسية (٧، ٨).

غير أن تدعي التمكن من الإجابة الشافية عن شتى الأسئلة المعقدة التي يثيرها الموضوع)(١).

تحاول الوثيقة أولًا إيجاد قاعدة لتسويغ وتبرير عملية الحوار مع غير النصارى بإثبات تضمن عقائدهم وتقاليدهم ما يستحق الاحترام والتقدير أولًا، ثم، وهذا هو الجديد ههنا، إشعار النصراني أن تلك الجوانب المشرقة لدى الآخرين إنما هي أثر للنعمة الحاصلة بيسوع المسيح بطريقة سرية غير مدركة لدى أولئك الأقوام.

وهكذا تجمع الوثيقة أزمة «الخلاص» التي سبق أن أثبتها المجمع الفاتيكاني لغير النصارى، بيد العقيدة النصرانية، فالآخرون لم يهتدوا في نظر الكنيسة إلى طريق الله، وسبيل الخلاص، بصفة مستقلة، وإنما بنوعٍ من التأثير غير المدرك من الروح القدس، أحد أقانيم التثليث النصراني، وعليه فكل «عنصر نعمة» موجود في تلك الأديان والتقاليد الأخرى، فمن عمل يسوع، وما سوى ذلك مما لا تقره العقيدة النصرانية فمن أثر الخطيئة، ولا يمكن حينئذٍ التغاضي عنها.

وبهذا يتضح أن عملية «تأنيس» الحوار للرافضين له من الجانب الكاثوليكي، الذين يعتقدون أنه يعارض مهمة «البشارة»، تنطلق من محاولة نسبة ما لدى غير النصارى من معتقداتٍ وممارسات صائبة، إلى تأثرهم غير الواعي بعمل الخلاص النصراني، ومن هنا فقط، تستحق الاحترام والتقدير، فلا تعارض إذًا يقع في ضمير النصراني الذي يعتقد أنه يمتلك «الحقيقة المطلقة»، ما دامت عناصر الخير والصواب لدى الآخرين هي من تأثير الأسرار النصرانية، شعر الآخرون أم لم يشعروا.

---

(١) حوار وبشارة (٩).

وبهذا الوضوح تفشي الوثيقة هدف الحوار وثمرته، وتوزع المهام على طرفي الحوار كالآتي:

١- على أصحاب الديانات الأخرى إعادة النظر في مفردات عقائدهم، عَلَّهم أن يكتشفوا أصولها النصرانية التي أثمرت لهم هذه الممارسات والمعتقدات الصائبة.

٢- على النصارى حثهم على ذلك بطريقة سلمية وهي «الحوار»، لا «المجابهة». وليس عليهم أن يعيدوا النظر في معتقداتهم، لأنها حقٌّ مطلق! لكن عليهم أن يقبلوا -صابرين محتسبين- أن تكون تلك العقائد موضوع تساؤل من قبل الآخرين فحسب، وبذلك يلتقي «الحوار» و«البشارة» في هدفٍ مشترك، هو «الخلاص» بالمفهوم الكنسي⁽¹⁾.

وهكذا يتبين أن الحوار ليس مشروعًا مستقلًا، بل هو مشمول بالمشروع الأساسي العتيد؛ البشارة، حتى إن القارئ ليتساءل في ظل هذه التأكيدات الواضحة لأهمية التبشير المباشر الصريح، لِمَ الحوار إذًا؟ وما الحاجة إليه؟

وتجيب الوثيقة عن هذا التساؤل في نهاية الفصل: (من البَديهِيِّ إذًا أن تكون الكنيسة لأسباب سياسية أو غير سياسية، في أوضاعٍ يستحيل فيها عمليًّا إعلان البشرى، فتقوم برسالتها التبشيرية ليس بحضورها وشهادتها فقط، بل بنشاطاتها، كالالتزام بالإنماء البشري، وبالحوار نفسه. أما في الأوضاع التي تتوافر فيها للناس الاستعدادات لسماع رسالة الإنجيل، والإمكانات للاستجابة لها، فينبغي للكنيسة أن تبادر إلى تطلعات هؤلاء الناس وتحقيق آمالهم)⁽²⁾.

---

(١) حوار وبشارة (٢٩).

(٢) حوار وبشارة (٦٤).

إن هذا النص يدل على أن «الحوار» تَقِيَّة تتخذ في الظروف غير المناسبة، أو بعبارة أخرى: هو «أضعف الإيمان». فحينما يتعذر عمليًّا إعلان البشرى فلا أقل من طرح الموضوع للحوار، فلن يعدم المحاور فائدةً مهما قلَّت: (الحوار الحقيقي بين الأديان يفترض من قبل المسيحي الرغبة في حمل الغير على معرفة يسوع ومحبته أكثر فأكثر).

العبارات واضحة المدلول جدًّا على كون الحوار وظيفة وقتية تمليها ظروف محلية يقدرها الفرد أو الكنيسة، وهو على كل حال يهدف إلى حمل الغير على معرفة يسوع ومحبته أكثر فأكثر. لقد سقطت الأقنعة، وظهرت الحقيقة من بين ركام الجمل الغائمة والعبارات المطاطية، والأساليب حمالة الأوجه.

إن هذه التحولات والتقلبات في مناخ الكنيسة الكاثوليكية تجاه قضية الحوار، لتكشف عن صراع مبطن بين أجنحة القوى داخل الكنيسة، والتي تمتد جذورها إلى المداولات الحامية التي دارت في أروقة المجمع الفاتيكاني الثاني في أثناء مناقشة مسودات الدساتير والقرارات والبيانات بين أصحاب النزعات المختلفة، بل في الحقيقة إلى ما قبل المجمع ذاته فيما يتعلق بالإسلام والقرآن والنبوة، في مجال الدراسات الكاثوليكية المعاصرة (الإسلاميات)؛ إذ يشير إلكسي جورافسكي إلى وجود ثلاثة اتجاهات سابقة للمجمع:

(اتجاه الحد الأعلى: ويعترف أنصاره بصورة أو بأخرى بالطابع الإلهي للقرآن. أما الاتجاه المضاد فيمثل في التيار «المنغلق» أو «المتحفظ» إزاء الإسلام، ويطلق على أتباعه «أصحاب الحد الأدنى»... الذي يرى في الإسلام محاولة فاشلة قام بها حاخام مكي لتهويد العرب. مستخدمًا لهذه الغاية «الأمي» محمد(١).

---

(١) قد حكى الله هذه المقولة البائرة عن أمثالهم من المنكرين في مكة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

تيار الوسط: الموقف الرسمي للكنيسة المعاصرة -موقف الود، والانفتاح، والحوار مع المسلمين. مع أن موقفهم بالنسبة لنبوة محمد ﷺ، والطبيعة الإلهية للقرآن أكثر تحفظًا... وينطلق موقفهم من ضرورة الحوار والتقارب مع الإسلام في الميادين الاجتماعية والسياسية، والثقافية والروحية، مع ابتعادهم عن المنطقة التي لا تمس، أو التي لا تتحمل المناقشة المفصلة لحساسية الأمر، ونعني بها المسائل المتعلقة بالأسس والمبادئ العقائدية الكبرى في كلتا الديانتين)(١).

والحقيقة أن المجمع الفاتيكاني الثاني قد سجل انتصارًا لأنصار التقارب والحوار، لكنه لم يقضِ على الاتجاهات الأخرى، بل ظلت تصطرع في الخفاء.

إن هذه النزعات داخل الكنيسة الكاثوليكية عميقة متجذرة، وتتأثر كل منها قوة وضعفًا بحسب متغيراتٍ شتى، مثل مستوى الاستجابة الإسلامية للحوار، والأحداث العالمية السائدة في العالمين الإسلامي والنصراني، وقبل ذلك وفي أثنائه وبعده المصلحة العليا للكنيسة ورسالتها التنصيرية.

وحيث إننا لا نترقب مجمعًا مسكونيًّا وشيكًا ليفصل بين هذه الاتجاهات ويرجح إحدى الكفتين بقانون التصويت المعتمد في تلك المجامع منذ فجر النصرانية، فإننا لا نملك أن نقطع بالرأي السائد المعتمد إلا من خلال زاوية رصدٍ واحدة في نظري، وهي منهجية بابا الفاتيكان الذي يملك سلطات واسعة تصل إلى حد «العصمة» عندهم، ويقوم تباعًا بتوجيه الرسائل لأساقفته في مختلف القضايا في نشاطٍ دائب لا نظير له في تاريخ باباوات روما، وعليه فإن موقفه من قضية التقريب يعبر عن الموقف الرسمي الراهن للكنيسة الكاثوليكية. ونحاول في الصفحات التالية استطلاع هذا الموقف.

---

(١) الإسلام والمسيحية. (١٢٨ -١٣٠).

- **موقف البابا يوحنا بولس الثاني من التقريب بين الأديان:**

يقف على رأس هرم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية منذ عام ١٩٧٨م البابا «يوحنا بولس الثاني»، الذي تميز بنشاطه وحيويته، ورحلاته المتعددة لمختلف أقطار العالم لنشر النصرانية، وتفقد أحوال رعيته الكاثوليكية(١).

ويعد بابا روما الرئيس الأعلى لنصارى العالم على اختلاف طوائفهم وتعدد انقساماتهم، ولا يداني منصبه هذا أي منصب ديني نصراني في العالم، ويحمل هذا البابا ألقابًا فخمة، تشي بالمكانة الكبرى التي يتبوؤها بين أتباع ملته. مثل: خليفة القديس بطرس، ونائب يسوع المسيح، والحبر الأعظم للكنيسة العالمية، إلى غير ذلك من الألقاب الدالة على مستوى تمثيله الرفيع للنصارى.

وقد دأب البابا يوحنا بولس الثاني على ترديد نصوص المجمع الفاتيكاني الثاني المتعلقة بالمسلمين في كل مناسبة يحصل بها نوع اتصال أو زيارة تتعلق بالمسلمين، والحوار معهم. وقد كان أيام انعقاد المجمع قد تجاوز الأربعين من عمره وكان من الأعضاء المشاركين الأساسيين بدرجة أسقف(٢).

وفي مرحلة بابويته كثر الحديث عن قضية الحوار، والعلاقة بين الحوار والبشارة، واستضاف «الفاتيكان» العديد من اللقاءات الدينية المنوعة، وشارك في الكثير من مؤتمرات التقارب والحوار، وأصدر الوثائق والإرشادات المتعلقة بقضية الحوار والبشارة، وأكد البابا بنفسه تبني الحوار مع الأديان عمومًا، والإسلام خصوصًا، انطلاقًا من مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه وضع

---

(١) سيأتي مزيد تفصيل لمحاولات البابا يوحنا بولس الثاني العملية للتقريب بين الأديان في فصل: المحاولات الجماعية من الباب الثاني.

(٢) انظر: يوحنا بولس الثاني والإسلام. للدكتورة: زينب عبد العزيز (١٩).

الحوار في إطار المهمة الأساسية للكنيسة، وهي التبشير. فمع عناية البابا بالحوار واستمراره، كقوله في رسالة الفادي: (المؤمنون جميعهم، والجماعات المسيحية كلها، مدعوون إلى ممارسة الحوار... إن الحوار هو الطريق إلى الملكوت)(١)، إلا أنه في خطابه الموجه إلى أعضاء الجمعية العمومية للمجلس البابوي للحوار بين الأديان المنعقد عام ١٩٧٨م يجعله قسيمًا توأمًا للتبشير، فيقول: (... كما أن الحوار بين الأديان هو مادة من مواد رسالة الكنيسة، فإن إعلان عمل الله الخلاصي في سيدنا يسوع المسيح هو أيضًا مادة أخرى... وإنه من غير الجائز أن يختار الواحد، ويتجاهل الآخر، أو يطرح)(٢).

أما الرحم الجامع لهذين التوأمين فيتبين بقوله: (... إن الخلاص يأتي من المسيح، وإن الحوار لا يعفي من التبشير بالإنجيل...

تعد الكنيسة أن ليس ثمة من تناقض بين البشارة بالمسيح، والحوار بين الديانات، ولكنها تشعر بضرورة تنسيقهما في إطار رسالتها إلى الأمم)(٣)، ولعل سر احتفاء البابا يوحنا بولس الثاني بالحوار، هو أنه يرى فيه معبرًا ثقافيًّا ينفذ التبشير من خلاله إلى أعماق الحضارات الأخرى، بعد تأنيسه بالحوار، وذلك ما اصطلح الكنسيون على تسميته بالغرس الثقافي للمسيحية المستنبت في تربة ثقافات أخرى. يقول البابا في الإرشاد الرسولي المعنون بـ«تبليغ التعليم الديني»: (إن رسالة البشارة متضمنة في الثقافة الإنجيلية التي لا يجب أن تنفصل عنها... لذلك لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات)(٤).

---

(١) رسالة الفادي: البابا يوحنا بولس الثاني. اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام. جل الديب -لبنان. صدرت في روما ١٩٩٠م. (٩٠).

(٢) عن حوار وبشارة (١٠).

(٣) رسالة الفادي (٨٦ -٨٧).

(٤) نقلاً عن: تنصير العالم. (مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني): د. زينب عبد العزيز. (١٠٧).

وفي هذا القدر تفسير وبيان لطبيعة «الحوار» الذي ينشده راعي الكنيسة الكاثوليكية. إن الحوار في نظر البابا عملية نفسية يخضع لها المحاور الآخر، فيتعرض لحالة اهتزاز قيم، وزلزلة ثوابت تنتج «الارتداد» الذي يوصل في نهاية المطاف إلى اعتناق موقفٍ عقدي جديد.

وإذا تجاوزنا ما بين أقواس التنصيص، والصياغات الرسمية، والجمل ذات الصفة التعميمية الصادرة عن البابا يوحنا بولس الثاني في حاضرة الفاتيكان، وشهِدنا مواقف عملية، وتصريحات ميدانية خاض غمارها في تطوافه في بلاد العالم، تستوقفنا زيارته التاريخية لبلدٍ مسلم بأكمله هو «المغرب»، حيث التقى الشبيبة المغاربة في الملعب الرياضي «الاستاد»، في الدار البيضاء يوم الاثنين ١٩/ أغسطس/ ١٩٨٥م، وخاطب ألوف الشباب المسلم الذين غصت بهم مدرجات الملعب، قائلًا:

(... فالاحترام والحوار يتطلبان إذًا المعاملة بالمثل في جميع الميادين، ولا سيما في ميدان الحريات الأساسية، وبالأخص، الحرية الدينية، وهما يعززان السلام والوئام بين الشعوب. ويساعدان على الحل المشترك لمشكلات الرجال والنساء في هذه الأيام، وبالأخص لمشكلات الشبان والشابات...)(١)، ماذا يمكن أن تعني المطالبة بالحرية الدينية في بلدٍ جميع أهله من المسلمين، سوى طلب الفسح بالردة عن دين أهل ذلك البلد، وقبول النشاط التنصيري تحت شعار الحرية والسلام والمحبة والحوار. الحوار الذي يفترض في الطرف المقابل إخضاع كل شيء للنقاش مهما كانت قداسته، على حد تعبير البابا حين ينادي:

(أيها الشبان والشابات، إنني على يقين من كونكم قادرين جميعًا على هذا الحوار. فأنتم لا ترضون أن تتقيدوا بالأحكام السابقة. إنكم مستعدون لبناء صرح

---

(١) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: (١٩١).

حضارة قوامها المحبة. وبإمكانكم أن تعملوا على هدم الحواجز التي شيدتها كبرياء الناس في بعض الأحيان، وضعفهم وخوفهم في أغلب الأحيان، وإنكم تريدون أن تحبوا الآخرين بصرف النظر عن أي حدود أمة أو عرق أو دين)(١). ومقابل هذا الخطاب الإملائي الداعي إلى التحرر من الثوابت، وعدم التقيد بالأحكام السابقة، والدعوة إلى كسر الحواجز، ينبري البابا يوحنا بولس الثاني في ختام كلمته الكنسية في نشر العقيدة النصرانية الكفرية، مستغلًا هذا الاجتماع الحاشد للشبيبة المسلمة في المغرب، لتقرير عقيدة ألوهية المسيح، فيقول: (... ومع ذلك فإن الصراحة تقتضي أيضًا أن نعترف بتبايناتنا، وأن نحترمها. ومن البديهي أن أهم هذه التباينات هي نظرتنا إلى شخص سيدنا يسوع الناصري وعمله. إنكم تعلمون أن سيدنا يسوع في اعتقاد المسيحيين هو الذي يدخلهم في معرفة حميمة للذات الإلهية التي تفوق كل إدراك بشري، وفي نوع من الاتحاد الابنيِّ بعطايا الله ومواهبه، ولذلك فهم يشهدون ويقرون أنه هو الرب والمخلص. إنها لتباينات مهمة جدًّا، يمكننا قبولها بتواضع واحترام، وبروح التسامح المتبادل، ففي ذلك سر من الأسرار، أنا على يقين بأن الله سينيرنا بشأن خفاياه يومًا من الأيام)(٢).

ثم ينهي هذا الخطاب التاريخي بدعاء وابتهال تؤمِّن عليه الجموع المحتشدة. وهكذا يتحول خطاب الاثنين إلى موعظة الأحد، وينقلب أسلوب الحوار واحترام ما لدى الآخر إلى قداس كنسي.

لقد كانت هذه الزيارة لبلدٍ مسلم عريق، ومخاطبة شبابه الذين يمثلون معظم البنية السكانية فيه، سابقةً خطيرة، ظل البابا يوحنا بولس الثاني يتغنى بذكرها، ويلهج بالإشادة بها، فيقول في عام ١٩٩٤م:

---

(١) المرجع السابق، (١٩٣ -١٩٤).

(٢) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (١٩٦).

(إن الرحلة التي قمت بها إلى المغرب... يمكن عدُّها بالتأكيد حدثًا تاريخيًّا.

إنها لم تكن ببساطة زيارة ودية، بل كانت بحق ذات طابع رعوي.

لقد كان اللقاء مع الشبيبة في ملعب الدار البيضاء عام ١٩٨٥م، غير قابل للنسيان.

إن انفتاح الشباب لكلمات البابا كان مدهشًا عندما تحدث عن الإيمان بالله الواحد. لقد كان بالتأكيد حدثًا لا سابقة له)[١].

وثم شاهدٌ عملي صارخ على الأسلوب الذي يتناول به البابا يوحنا بولس الثاني قضية الحوار والعلاقة مع الأديان الأخرى، يتمثل في دعوته إلى الصلاة المشتركة بين أتباع الديانات في بلدة «أسيزي» الإيطالية عام ١٩٨٦م[٢].

وعوضًا عن الجلوس على «مائدة مستديرة» كما تقتضي ذلك روح الحوار والتكافؤ لدى المنادين به، فإن (البابا قدم نفسه للعالم بأنه القائد الروحي للأديان جميعًا، وأنه حامل رسالة السلام للبشرية جمعاء)[٣].

و(شدد البابا يوحنا بولس الثاني في الكلمة التي وجهها... بعد يوم الصلاة في أسيزي... قائلًا: «كل صلاة صحيحة هي من عمل الروح القدس الحاضر سريًّا في قلب كل شخص بشري»، سواء كان مسيحيًّا أو غير مسيحي)[٤]. و(أصر قداسة البابا يوحنا بولس الثاني على ألا تبقى صلاة أسيزي حدثًا منفردًا... فنشأت هذه اللقاءات السنوية للصلاة من أجل السلام)[٥].

---

(١) عبور عتبة الرجاء (٩٤) Crossing the thershold of hope.

(٢) سيأتي وصف دقيق لهذه الصلاة المشتركة في الباب الثالث.

(٣) سلسلة تقارير المعلومات، صادر من مركز المعلومات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت برقم ١٥/ ٨٧ بتاريخ ٥/ ٨/ ١٩٨٧م (١٠٠).

(٤) حوار وبشارة (٢٤).

(٥) عن نشرة «لجنة الصداقة الإسلامية المسيحية» الصادرة عن جمعية سانت إجيديو -روما (٤).

وإذا فحصنا أهم الجوامع المشتركة التي يتذرع المجمع الفاتيكاني الثاني، سابقًا، والبابا يوحنا بولس الثاني، حاليًّا، لتكون قاعدة للحوار والتقارب بين المسلمين والنصارى، وهي قضية الإيمان بالله، فسنجد اعترافًا صريحًا من البابا بالتباين بين الديانتين في هذا الأصل الأصيل، ليس من جهة عقيدة التثليث فقط، بل حتى بقصر النظر على أقنوم (الأب) الذي يفترض أن يقابل عند المسلمين العقيدة في (الله) سبحانه وتعالى. بل نجد اتهامًا وتنقصًا وطعنًا علنيًّا من داعية الحوار الفاتيكاني في العقيدة الإسلامية.

جاء ذلك في ثنايا كتابٍ صدر عام ١٩٩٤م بعنوان: (عبور عتبة الرجاء: Crossing the Threshold of Hope أو كما يترجمه البعض: (ادخلوا في الرجاء)، طبع منه ملايين النسخ بمختلف اللغات. وفي الفصل المعنون بـ«محمد» حسب الطبعة الإنجليزية، نال البابا يوحنا بولس الثاني من المفهوم القرآني لله سبحانه وتعالى، فقال: (... بعض أكثر الأسماء جمالًا في اللغة البشرية أطلقت على إله القرآن، ولكنه في النهاية إله خارج العالم، إله جلالة فحسب، وليس «عمانويل» أي: إله معنا. الإسلام ليس دين فداء، ليس فيه مجال للصليب والقيامة.

لقد ذكر يسوع ولكن بصفته نبيًّا مبشرًا بالنبي الخاتم محمد فحسب، هناك ذكرٌ أيضًا لمريم، والدته العذراء، ولكن مأساة الفداء غائبة بالكلية، ولهذا السبب فليس علم اللاهوت فقط، بل حتى علم الناسوت الإسلامي بعيد جدًّا عنه في المسيحية)⁽¹⁾.

فماذا بقيَ يا ترى لكي يكون أساسًا لحوار مشترك مؤسس على جوامع مشتركة بين ديانتين لا تتفقان، ولا تكادان تقتربان من بعضهما بعضًا في علم اللاهوت -كما الاصطلاح الكنسي- ولا علم الناسوت؟!

---

(١) عبور عتبة الرجاء (٩٢، ٩٣) Crossing the threshold of hop.

وحسبنا في هذا المقام أن نميط اللثام عن حقيقة عبارات الاحترام والتقدير، ولغة المجاملات والمراوغات التي يتذرع بها أئمة النصارى وهم ينادون المسلمين إلى الحوار والتقارب، وما تخفي صدورهم أكبر مما يظهر أحيانًا على فلتات ألسنتهم، ولحن قولهم.

- **خلاصة وتحليل:**

إن نظرة شاملة لمسيرة الكنيسة الكاثوليكية خلال العقود الثلاثة الأخيرة التالية لمقررات المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥م) حول قضية الحوار مع الإسلام، تكشف عن ثلاث مراحل متميزة:

١- المرحلة الأولى: وهي التي أعقبت المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي قدم المسوغ اللاهوتي للحوار، عن طريق توسيع عقيدة الخلاص، وهجر الدعوى الكنسية القديمة القائلة: «لا خلاص خارج الكنيسة»، والتخفف من لوازم عبارة إنجيل يوحنا القائلة: «أنا الطريق والحق والحياة» (١٤/ ١)[1].

وتميزت هذه المرحلة التي امتدت حتى نهاية السبعينيات تقريبًا بالتوق إلى «الحوار الروحي»، و«الوحدة الروحية»، والتقاط شواهد التراث الروحي المشتركة بين الديانتين، حتى لو لم تكن تتمتع بالصفة المرجعية المقبولة لدى الجانب الإسلامي، كالاحتفاء بالتراث الصوفي والفلسفي، لإثبات أواصر القربى والتشابه بين الديانتين.

كما سادت في هذه المرحلة التأكيدات المتتالية على نبذ نوايا الاجتذاب، والتحايل والإيحاء، والتزام النزاهة المطلقة في الحوار.

---

(١) العهد الجديد (٣٣٦).

ومما يمثل هذه المرحلة تمثيلًا صادقًا كتاب: «توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين» للأب موريس بورمانس، وطبع طبعة ثانية عام ١٩٨٠م(١).

ولعل روح الانفتاح والجدة التي كانت سائدة ذلك الوقت، إضافة إلى الشعور بالخطر الإلحادي الشيوعي، كانا وراء صياغة أدبيات تلك الحقبة، ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية في أي وقت مضى أقرب إلى مدلول «الحوار»، من الناحية اللفظية على الأقل، وأصدق لهجة منها في هذه المرحلة. وقد انتهت بنهاية حياة البابا بولس السادس الذي مهر قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني بختمه، وكان مشبعًا بأهدافها، حتى وافاه الأجل في أغسطس ١٩٧٨م.

٢- المرحلة الثانية: تمثل هذه المرحلة تنامي ردود الفعل المضادة للانفتاح على الديانات والتقاليد الأخرى، وعد أسلوب «الحوار» و«التقارب» خيانة لرسالة الكنيسة وتخليًا عن البشارة.

وهذه المرحلة واكبت السنوات الأولى من سيامة يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان، وتولي رئيس الأساقفة جان جادوت الأمانة العامة للعلاقات بغير المسيحيين، الذي لم يكن في مستوى سابقيه رتبة كهنوتية، ولا حماس ونشاط في العمل، ما فسح المجال لنمو الرأي المضاد، حتى استقالته عام ١٩٨٤م.

هذا هو المناخ السائد في نهاية السبعينيات ومطالع الثمانينيات، وحيث لا يمكن التنصل من مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني وإعلاناته، فقد اتجهت الكنيسة لفلسفة مفهوم الحوار وفق المعطيات الجديدة.

---

(١) مما يصب في هذا الاتجاه أيضًا مقالة بعنوان: (ما هو الاتجاه الديني الذي يجب أن يتبناه المسيحيون) أصدرتها أمانة سر شؤون غير المسيحيين عام ١٩٦٩م ضمن إضمامة من (إرشادات من أجل الحوار بين المسلمين والمسيحيين).

فجاءت وثيقة عام ١٩٨٤م الصادرة عن أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين، المعنونة بـ: «موقف الكنيسة من مؤمني سائر الأديان: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار والرسالة» وجرى تطويرها وتنقيحها، حتى أقرها المجلس البابوي للحوار بين الأديان، وصدرت موقعة من رئيسه، ورئيس مجمع تبشير الأمم عام ١٩٩١م، بعنوان: «حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل»، كما سبق التعريف بها.

وحقيقة الحوار في هذه المرحلة الثانية مساعدة الآخرين على اكتشاف التأثير الجزئي للنعمة الحاصلة بتأثير الروح القدس في تقاليدهم الدينية، والسير بهم إلى اكتشاف كامل الحقيقة. وبذلك يصبح مشروع الحوار مشمولًا بمشروع البشارة لاهوتيًا وعمليًا.

٣- المرحلة الثالثة: وهي الحقبة الممتدة من أواسط الثمانينيات وحتى وقتنا الراهن. وتتسم باستمرار تأكيد أهمية الحوار من الناحية الإعلامية والمظهرية، ولكن باعتبار الحوار جسرًا لنقل الثقافة الإنجيلية إلى الآخرين، أو ما صار يسمى «بالغرس الثقافي». وهذه المرحلة أعقبت رحلات البابا يوحنا بولس الثاني لأجزاء من العالم الإسلامي، ولقائه بمسلمين في آسيا وإفريقيا وأوروبا على مدى أربع سنوات (١٩٨٠-١٩٨٤م).

ومن الملاحظ في هذه الحقبة تكثيف النشاط التنصيري، واستخدام كل وسائل التقنية الحديثة لتنصير العالم ومن أخطرها مشروع Lumen ٢٠٠٠، أي نور سنة ٢٠٠٠م، وهو القمر الصناعي المخصص لبث برامج التنصير عبر القنوات الفضائية(١).

---

(١) انظر: تنصير العالم (٩٤ -٩٥).

هذه المرحلة أخطر مراحل الحوار الذي تمارسه الكنيسة الكاثوليكية، حيث تمطر الآخرين بعبارات ذات مدلولٍ فارغ تخدرهم فيها، وتصرف أنظارهم عن الاشتغال بما يهمهم حقًّا، في الوقت الذي تستنفد فيه كل السبل والوسائل للتبشير، والغرس الثقافي طويل الأمد، تحت ستار «الحوار» الطعم.

أما المرحلة القادمة فعلمها عند الله، لكن رؤية المنحنى المنحدر يشي بشيءٍ من معالمها الذي سيسفر عن الوجه الكالح للصليبية الجديدة.

المبحث الثاني

حقيقة التقريب بين الأديان عند مجلس الكنائس العالمي

- **تعريف بمجلس الكنائس العالمي:**

يمثل مجلس الكنائس العالمي الطوائف النصرانية غير الكاثوليكية، ويتمتع بنفوذٍ واسع يضاهي نفوذ «الفاتيكان»، وتنضوي تحته جميع الكنائس البروتستانتية(١)، والإنجليكانية(٢) والأرثوذكسية(٣)، التي يبلغ عددها (٣١٦) كنيسة موزعة على أكثر من مئة بلد، ويتبعها قرابة أربعمئة مليون نصراني(٤).

---

(١) الكنائس البروتستانتية: (هي الكنائس المسيحية الغربية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية تحت تأثير لوثر وكالفن، انتشرت في ألمانيا والبلدان السكندنافية وإسكتلندة وسويسرة ثم في أميركا الشمالية.... وتعتبر هذه الكنائس الكتاب المقدس مصدرًا وحيدًا للوحي، ولا تعترف بالكهنوت). المنجد في الأعلام (١٢٨).

(٢) مذهب الدولة الرسمي في إنكلترة. أنشأه هنري الثامن الذي كان ملكًا في إنكلترا من (١٥٠٩ ١٥٧٤م)، وانفصل عن الكنيسة الكاثوليكية سنة (١٥٣٥م)، وقد واصل إدوارد السادس تثبيت أركان هذا المذهب، ثم أتمته إليزابيث الأولى سنة (١٥٦٢م) «المترجم» الإسلام والمسيحية. جورافسكي (٩٩).

(٣) هي الكنائس المسيحية الشرقية البيزنطية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية على أيام ميخائيل كيرولارس، بطريرك القسطنطينية (١٠٥٤م). انتشرت في روسيا، وبلاد البلقان واليونان ومختلف بلدان الشرق الأدنى، حيث تؤلف كنائس مستقلة تحت سلطة بطاركتها. المنجد في الأعلام (٣٢).

(٤) انظر نبذة عن المجلس في: تاريخ الكنيسة الشرقية للمطران ميشيل يستيم، والأرشمندريت أغناطيوس ديك. (٣٩٥ ٣٩٧). وانظر: الحوار الإسلامي المسيحي، ضرورة المغامرة لسعود المولى (١٣٠ ١٣١)، (١٥٥ ١٦٨).

وقد ولد المجلس بغية توحيد العمل التبشيري في البلدان غير النصرانية.

وقد تمخضت الحركة المسكونية(١) عن ولادة مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٤٧م. وانضمت الكنائس الأرثوذكسية إلى المجلس في مؤتمر «نيودلهي» عام ١٩٦١م.

ولكن هذا التجمع المتعدد الأطراف والاتجاهات، لا يعتمد البناء التنظيمي الهيكلي الذي تسير عليه الكنيسة الكاثوليكية بدقة وتراتبية وصرامة، بل يكتفي باللقاء حول جوامع مشتركة في العمل التبشيري، وإصدار توصياتٍ ليس لها صفة الإلزام(٢).

إن قطب رحى هذا المجلس يدور حول هدفين بارزين: توحيد الكنائس النصرانية، وتعزيز العمل التبشيري في العالم أجمع، (ولعل أول محاولة بروتستانتية لفهم الإسلام، ودراسة مسألة العلاقة به قد تمثلت في «البرلمان العالمي للأديان» الذي عُقِد في إيفانستون بولاية إيللينوس عام ١٨٩٣م، والذي حضره ألكسندر راسل وب، أول أمريكي مسلم وهو دبلوماسي سابق، حمل اسم «محمد»)(٣).

أما «الحوار» مع الإسلام فيرجع إلى تاريخ تأسيس المجلس رسميًّا عام ١٩٤٧م. وهو ذات التاريخ الذي ظهرت فيه عبارة «الحوار»، وخصوصًا الحوار مع الإسلام في المذهب البروتستانتي(٤).

---

(١) الحركة المسكونية: يقول الأب روبير كليمان اليسوعي: (كانت لفظة «مسكونة» تدل على الأرض المسكونة... أما في الكنيسة فاستعملوا صفة «مسكوني» للدلالة على لقاءات الأساقفة للبحث في المسائل المختصة بالكنيسة كلها، وفي مطلع القرن العشرين استعمل هذا اللفظ لوصف الجهود المبذولة لجمع شمل المسيحيين كلهم في كنيسة واحدة). تاريخ الحركة المسكونية (١/ ١٧).

(٢) تاريخ الكنيسة الشرقية (٣٩٦).

(٣) الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة. (١٥٥).

(٤) انظر: تصورات بروتستانتية حول الإسلام. جان باسّيه، مجلة الاجتهاد: (٣١/ ٥٩).

- **مواقف الجمعيات العمومية لمجلس الكنائس العالمي من قضية التقريب بين الأديان:**

شكل مجلس الكنائس مشروعًا دراسيًّا حمل عنوان «كلمة الله والأديان الحية للبشر»، استمر منذ ١٩٥٥م حتى عام ١٩٧١م، حيث عملت المجموعة المكلفة به على إجراء دراسات وتقديم تقارير وأوراق عمل وعقد مؤتمرات استشارية... ولعل أبرز نتاجات هذه المجموعة يتمثل في كتاب «كنيث كراغ»: «نداء المئذنة». وهو دعوة إلى فهم الإسلام كما هو بنظر أهله أو معتنقيه، وإلى إعادة التفكير في الموقف المسيحي التقليدي في هذا المجال)(١).

وفي يونيو ١٩٦٦م دُعِي بعض المسلمين إلى للقاء تم في «كرتينيه» قرب جنيف في المدة بين ٢ و٦ مارس ١٩٦٩م جاء في نتائجه ما يأتي:

(يرى المشتركون في المؤتمر أن الحوار بين المسيحيين والمسلمين ضروري، وأنه ينبغي التوسع فيه على أصعدة مختلفة. هذه الضرورة تأتي:

أ- من القرابة الخاصة والتاريخية بين الديانتين.

ب- من النقد الذاتي الذي تمتاز به الديانتان.

ج- من الوضع الناجم عن اختلاط السكان...

د- من الوضع التاريخي الحالي الخاص.

غاية الحوار الأولى هي حمل الديانتين على تأمين الاحترام المتبادل وتعزيز التفاهم. فعلاقاتهما قد أثقلتها عصورٌ مشحونة بكثير من سوء التفاهم. والغاية الأخرى هي طرح مشترك للأسئلة التي تؤدي إلى التجدد والتعمق الروحي،

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة. (١٦١).

ويؤدي مثل هذا الحوار إلى تعهد مسؤولياتٍ مشتركة على الصعيد العملي وتحقيقها)[١]. وهذا اللقاء هو أول اتصال بين مجلس الكنائس العالمي وممثلين مسلمين يصدر عنه بيان مشترك، ويمثل حدثًا بارزًا في تاريخ العلاقة بين دعاة التقارب من الجانبين.

وفي عام ١٩٧١م تم تأسيس الوحدة الفرعية للحوار مع معتنقي المعتقدات الحية والأيديولوجيات.

لقد كان مجلس الكنائس العالمي مدفوعًا في الستينيات إلى الانفتاح والحوار محاكاةً للخطوة الجريئة التي اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية، المنافس التقليدي، في المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢م-١٩٦٥م)، ولكنه انفتاح مشوب بالحذر والترقب، يثير التساؤلات أكثر مما يقرر التوصيات، كما في بيانات لقاء «كارتينيه» عام ١٩٦٩م: (كيف يمكننا تصور التبشير والدعوة، ومحاولة اجتذاب الآخرين؟

هل بالإمكان القيام بصلاة مشتركة بين المسلمين والمسيحيين؟)[٢]. في اجتماع اللجنة المركزية للمجلس العالمي للكنائس المنعقد في «أديس أبابا» مطلع عام ١٩٧١م، صدرت إرشادات لشرح سياسة الوحدة الفرعية للمجلس حول الحوار مع معتنقي الأديان والمثل «الأيديولوجيات» الحية، تضمنت الفقرات الآتية:

(١- إن المجلس العالمي للكنائس... يلتزم بعلاقاتٍ مزدوجة مع الناس في مختلف الأقطار، والحوار باعتباره نشاطًا إنسانيًّا... إنه أمرٌ لا محيد عنه، لأن

---

(١) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة. نصوص مختارة: جمع: جولييت حداد. إشراف: الأب أوغسطس دوبره لاتور، د. هشام نشابة. جامعة القديس يوسف. بيروت. معهد الدراسات الإسلامية المسيحية. دار المشرق. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٥م. (٣٦، ٣٧).

(٢) البيانات المسيحية الإسلامية. (٣٨).

النصارى في كل مكانٍ في العالم يعيشون في مجتمعات تشمل أديانًا عديدة. إنه أمر عاجل، لأن الناس جميعًا واقعون تحت ضغوطٍ مشتركة في البحث عن العدالة والسلام والمستقبل المأمول. وهو مملوء بالفرص، لأن النصارى يستطيعون الآن بأساليب حديثة أن يكشفوا عن مظاهر جديدة من العبودية والسيادة للمسيح، وعن مضامين جديدة من واقع الكنيسة في مجال التحرك نحو مجتمع إنساني مشترك.

٢- إن إيماننا بعيسى المسيح الذي أصبح إنسانًا من أجل جميع البشر في جميع العصور، يؤيدنا في هذا الحوار. إن التعبير عن هذا الإيمان في حياة وواقع الكنيسة يقودنا إلى تطوير علاقات مع البشر من مختلف الأديان والمثل. إن عيسى المسيح الذي حررنا هو الذي يخرجنا من العزلة إلى الحوار الصادق الذي ندخله مؤمنين بوعد عيسى المسيح، أن روح القدس ستقودنا إلى الحقيقة الكلية)(١).

إن هذا المدخل يشعر أن «الحوار» مع الآخرين بالنسبة لمجلس الكنائس العالمي:

١- اضطراري: فرضته أحوال العالم الراهنة، واختلاف النصارى بغيرهم.

٢- مستعجل: فيتحتم الدخول فيه بسبب الضغوط المشتركة التي تواجهها أطراف الحوار.

٣- وأخيرًا: مملوء بالفرص للتعبير عن الإيمان النصراني، بمباركة الروح القدس، أي البشارة.

وقد كشف البيان اختلاف التوجهات في مؤتمر «أديس أبابا» حيال قضية الحوار، فقال: (١١- وقد لمس المجلس العالمي آثارًا صريحة، وأنواعًا كثيرة من الإقناع.

---

(١) بيان وإرشادات حول سياسة مؤقتة (١٢) عن وثائق صادرة عن المؤسسة الإسلامية. ليستر.

لذلك فلا يوجد لديه رأي موحد حول الحوار مع أهل الأديان الأخرى... يجب أن نفهم ممارسة المجلس العالمي للحوار على أنها مغامرة مشتركة للكنائس)(١).

هكذا بدا موقف المجلس العالمي للكنائس في مطلع السبعينيات تجاه قضية الحوار أنه أمر اضطراري مستعجل لا محيد عنه، بل هو مغامرة، ومن ثم فهذه الإرشادات «سياسية مؤقتة» كما سماها.

ومرد هذا التردد والحذر إلى إشكالاتٍ حقيقية لدى القوم تتلخص في ثلاثة أسئلة:

١- ما المضامين اللاهوتية الأساسية للحوار؟

٢- ما العلاقة بين الحوار والبشارة والشهادة؟

٣- كيف يُفهم الحوار ويمارس في مجال تأهيل الأشخاص(٢)؟

وكل سؤالٍ له إجابتان متضادتان لدى القوم. والبيان يقول بكل صراحة: (هناك خلافٌ دقيقٌ بيننا وفي كنائسنا، فيما إذا كان التركيز على الحوار سوف يضعف مضاء هذه المهمة التبشيرية أم أن المجتمع الإنساني، والحديث الذي سيوجده الحوار سوف يجعلانها تتقدم)(٣).

ولهذا جاءت التوصيات في مؤتمر أديس أبابا منصبةً على قضيتين:

الأولى: العناية بتأهيل (مجموعاتٍ من الناس قادرين على الاشتغال في حوار موثوق مع أصحاب الأديان والنظريات...)(٤) وتدريبهم وتهيئتهم.

---

(١) المرجع السابق، (١٥).

(٢) انظر هذه التساؤلات في المرجع السابق، (١٦).

(٣) المرجع السابق، (١٦).

(٤) المرجع السابق، (١٧، ١٨).

الثانية: التركيز في الحوار على قضايا إنسانية عامة، كالعدالة والسلام والتطور.

وفي المؤتمر العام للمجلس العالمي للكنائس المنعقد في «نيروبي» عام ١٩٧٥م، رأى بعض المشاركين (أن الحوار كان خيانةً للرسالة المسيحية، وبابًا مفتوحًا أمام التوليف)(١).

وقد حملت هذه التجاذبات لجنة الحوار الفرعية على إجراء استفتاء شامل لمختلف الكنائس المعنية بالحوار تحت عنوان: «استشارة لاهوتية بشأن الحوار ضمن الجماعات الدينية». وقد درست نتائجه في مؤتمر «شيانغ ماي» في «تايلند» من ١٨ إلى ٢٧ إبريل ١٩٧٧م(٢). وتمخض المؤتمر عن تطوير الخطوط المباشرة للحوار، ثم تبناها مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٧٩م(٣) بعد صدور كتاب ستانلي سامارثا «الدين وسط الأديان: تأملات على الحوار في المجتمع» عام ١٩٧٧م.

(وأصبحت هذه الوثيقة فيما بعد أساسًا لعمل قسم الحوار)(٤). وفي مطلع عام ١٩٧٩م اجتمعت اللجنة العامة لمجلس الكنائس العالمي في «جامايكا»، ونشر المجلس الإرشادات الصادرة عنها(٥).

تضمنت تأكيد قضية الحوار بعدِّه أسلوب حياة، يعبر فيه الفرد عن إيمانه النصراني، ويتلقى النقد من مخالفيه، الذين هم في أحيان كثيرة جيران. وقد شاع

---

(١) تصورات بروتستانتية حول الإسلام. جان باسيّه. مجلة الاجتهاد (٣١/ ٦٠).

(٢) انظر: توجيهات في سبيل الحوار. موريس بورمانس (١٦٣).

(٣) تصورات بروتستانتية حول الإسلام. مجلة الاجتهاد (٣١/ ٦٠).

(٤) إيمان جاري وإيماني. مقاربات لاهوتية من خلال الحوار بين الأديان. إصدار مجلس الكنائس العالمي. تعريب: طارق متري. (٨٧).

(٥) إرشادات توصي بها الكنائس للدراسة والتطبيق. (٢٦) عن مجموعة وثائق من إصدار المؤسسة الإسلامية. ليستر.

التعبير بوصف «الجيرة» في بيانات المجلس في حقبة الثمانينيات للدلالة على حتمية المواجهة والاحتكاك، وما تتطلبه من انفتاح على «الجيران». ومن ثم فقد انصبت الإرشادات على الحديث عن مؤهلات الحوار وشروطه، وتفهم الآخرين واحترامهم، في نقاط تدور حول أربعة محاور:

أولًا: دراسة الأديان الأخرى دراسة متعمقة تبلغ أعلى التخصصات العلمية تحت ستار «زيادة تفهم أصحاب الأديان والمثل الأخرى».

ثانيًا: تدريب وتأهيل فرسان الحوار علميًّا وميدانيًّا، ولو عن طريق السياحة.

ثالثًا: تخفيف الحساسيات السابقة والمتوقعة التي تستعدي الآخرين، وتثير تعصبهم، بمراجعة المواد المستعملة في المناهج التعليمية، وإزالة ما لا يناسب الجيران، أو يبلد أحاسيس الأتباع.

رابعًا: الاستفادة من جميع الوسائل الدعائية والإعلامية الممكنة للوصول إلى المستمعين(١).

إن هذه التوصيات والإرشادات لتكشف رجحان كفة المنادين بالحوار، ولكنها في الوقت نفسه تكشف طبيعة ذلك الحوار في جانبه الثقافي، إنه حوار البشارة والاجتذاب والأنجلة المؤسس على خطط مدروسة، وإدراك ووعي بطبيعة الآخر، وتأهيل للأفراد لاحتراف الحوار.

لا شك أن مؤشر مؤتمر نيروبي المنعقد عام ١٩٧٥م، الذي قيل فيه إن الحوار خيانة للرسالة النصرانية، قد قفز إلى الجهة المقابلة في جامايكا عام ١٩٧٩م حين يتبنى الحوار إلى درجة المشاركة في المناسبات الدينية وربما الصلاة أيضًا، وعد ذلك (فرصًا ممتازة لزيادة الفهم المتبادل بين الجيران).

---

(١) المرجع السابق، (٢٨ ٢٩).

وأخيرًا يرسم المجلس سياسة واضحة حيال منظمات تقارب الأديان التي تتبنى قضايا معينة، ذات صبغة سياسية أو اجتماعية، فيقرر: (هناك الآن منظمات كثيرة تربط بين أديان العالم وتبحث في تمكين هذه الأديان من التعاون لأغراضٍ متنوعة مثل الكفاح من أجل السلام، والعدالة في المجتمع الواحد وبين الأمم... يجب أن يكون الممثلون النصارى حريصين على الاعتراف المتبادل والاحترام والإخلاص لكل دين. وأحيانًا يكون ضروريًّا أن يوضحوا أن مشاركتهم لا تدل بالضرورة على قبول المطالب الضمنية لاجتماع أو منظمة معينة... إن المجلس العالمي للكنائس يقبل إيفاد ملاحظين استشاريين إلى اجتماعات منتقاة من هذه النوعية، ولكنه في الوقت الحاضر لن يشارك مباشرة رسميًّا في التركيب التنظيمي للمنظمات العالمية ذات الأديان المتعددة)(١).

- **الكتب والبيانات الصادرة عن بعض منسوبي مجلس الكنائس العالمي:**

وخارج قباب المؤتمرات، وبعيدًا عن نصوص البيانات الرسمية، نعرض نماذج مستقلة لطروحات بعض دعاة الحوار والانفتاح من أعضاء المجلس، ونصوصًا مقابلة للرافضين للحوار، لمزيدٍ من استيضاح حقيقة التقريب لدى النصارى غير الكاثوليك.

١ - (تحديات العلاقات بين الأديان الكبرى):

ألقى «جورج ليونارد كاري» رئيس أساقفة كانتربري، رئيس الكنيسة الإنجليكانية في بريطانيا، محاضرة بعنوان: «تحديات العلاقات بين الأديان

---

(١) المرجع السابق، (٣١ ٣٢).

الكبرى»(١) في جامعة الأزهر عام ١٩٩٥م. ونظرًا للمنزلة الكبيرة التي يتبوؤها في العالم غير الكاثوليكي، ولحداثة هذه المحاضرة، فإنها تصلح نموذجًا لاستقراء ما آلت إليه النظرة النصرانية، غير الكاثوليكية، تجاه العلاقة بالمسلمين.

خلص إلى ترديد ما أكده الرائد اللاهوتي الألماني البرفسور هانز كونج عام ١٩٩٤م أنه: (من دون سلامٍ بين الأديان ستكون هناك حرب بين الحضارات. لا سلام بين الأديان دون حوار بينها، ولا حوار بين الأديان دون البحث في الأسس)(٢).

ثم حدد المحاضر أربعة أسس لبناء علاقة جديدة بين الديانتين: (١- الصداقة لا العداء:... ٢- التفهم لا الجهل:... سوف يكون بإمكاننا انتزاع التطرف الذي يجنح إلى العنف من جذوره إذا ما وقَّرنا عقائد بعضنا بعضًا... ٣- الانفتاح لا الانغلاق:... فإذا كنا ننشد السلام والتآلف على ظهر هذا الكوكب المزدحم، فيجب أن تكون روح الصداقة والاحترام متبادلة).

ويطرح التساؤل بين الحين والآخر: «هل يمكن للذين يخلصون الإيمان بقلوبهم، ويؤمنون بأن دينهم هو عقيدة ذات رسالة تدعو للحقيقة والقداسة أن يدخلوا في حوار؟»، وأجيب: نعم، من الممكن ما دام لدينا الاستعداد لسماع الآخرين، وما دمنا ملتزمين بالسلام والرغبة في الفهم. وكما يعلم الكثيرون في هذا المقام فإنني متمسك لأقصى الحدود بمعتقداتي كمسيحي، ولكن لا يقلل هذا من استعدادي للسماع والتعلم والتزود...

---

(١) انظر النص الكامل للمحاضرة في مجلة الاجتهاد ٣٠ (٢٠٥ ٢١٥).

(٢) المرجع السابق (٢٠٧).

٤- التعاون لا المجابهة:... فنحن في حاجة إلى رسم طرقٍ جديدة للتعاون والسلام... فهذه الاختلافات حقيقة ولا يجب إنكارها كما لا يجب أيضًا أن يفهم منها أنه ليس هناك شيء مشترك بينها...

اسمحوا لي أن ألخص الطرق التي يمكن من خلالها تقوية أواصر التعاون:

١- التعاون في محاربة الفقر والشقاء الإنساني... ٢- السلام والتآلف بين الشعوب...٣- التسامح والتفهم...)(١).

إن الطرح الذي تقدم به رئيس الكنيسة الإنجليكانية أمام رئيس جامعة الأزهر، يحمل توجهًا معدلًا للغة الخطاب المطروحة في السبعينيات. إن مشروعه يستبعد أحلام «التقارب الروحي» إنه ينهج منهجًا «واقعيًّا» نحو التعايش والسلام والتعاون. وحتى حين يقول: (نعم) للحوار، فإن ذلك يأتي في سياق المطالبة بالحريات الدينية. لعل هذا العرض لمقالة أحد أركان النصرانية غير الكاثوليكية يفصح عن القناعة التي توصل إليها مجلس الكنائس العالمي أخيرًا، من إخراج الحوار من أطره الدينية إلى «مفاوضات» في أسلوب العيش المشترك، كما يتحاور سائر البشر على قضايا حياتية مشتركة، إذ لا جدوى من الحوار اللاهوتي -حسب تعبيرهم- بين ديانتين كل منهما (تطرح فرضيات مطلقة)، وتمتلكان (الرغبة القوية في نشر دينهما).

ولعل هذه القناعة هي التي آلت بمجلس الكنائس العالمي إلى إلغاء اللجنة الخاصة بالحوار مؤخرًا، وجعل اللقاء بالمسلمين يندرج في إطار العلاقات الدولية(٢)، وهو إصلاح إداري يناسب القناعة المشار إليها.

---

(١) باختصار من المرجع السابق (٢٠٨-٢١٥).

(٢) جان باسيّه: (تصورات بروتستانتية حول الإسلام) مجلة الاجتهاد (٣١/ ٦١).

بقي أن نشير إلى أن هذه المحاضرة المفعمة بعبارات الصداقة والسلام والتعاون والتفهم والانفتاح، ألقيت في الوقت الذي كان التعصب الصليبي الحاقد يحصد أرواح المسلمين العزل في بلاد البوسنة والهرسك، هذا لون، ولون آخر يتمثل في ضراوة النشاط التنصيري.

وصدق الله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨]. تلك لغة دعاة الحوار ومؤيديه، أما أعداؤه ومعارضوه من القوم، فلا يستهان بهم كثرةً وحجةً ومنطقًا داخل الدوائر الكنسية، مما ينبغي أن يحمل المتهافتين على موائد الحوار من الإسلاميين على التريث، وعدم التوغل في درب يقال لهم فيه بعد حين: ارجعوا أدراجكم، لا حاجة لنا بكم.

يقول أحد مناوئي الحوار موضحًا العلاقة مع بقية الأديان: (... إنجيل يسوع المسيح يصدر حكمًا مسبقًا عليها... هؤلاء يعطون للحياة معنى خارج ذاك الذي أعطاه الله في قصة الكتاب المقدس، الذي تتوجت بيسوع المسيح، وينظمون حياتهم بمعزلٍ عن العهد الذي بيسوع المسيح...)⁽¹⁾. لقد اختصر المسافة، وأصَّل القضية، وأصدر الحكم الصريح والنهائي قائلًا: دعونا من العبث.

ولئن اكتفى هذا بمجرد الإعراض والصد عن الديانات الأخرى بحجة أن القضية محسومة مسبقًا بالإنجيل، فإن غيره يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول:

(... الديانات الأخرى... الواجب أن نواجهها بمواقف إنجيلية من شأنها أن تؤول إلى هدمها كليًّا. وبينما نحكم الحصار عليها وندك أسوارها، نحاول أن

---

(١) عن: الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى. (٤٦) The Gospel In Dispute Edmond. Perry. P. ٨٣.

نخرج من نستطيع ممن هم في داخلها، فننظِّفهم، ونعمدهم، ونستعملهم كرأس حربة في عملية الحصار هذه)(١).

- **خلاصة وتحليل:**

لقد لفتت مبادرات مجلس الكنائس العالمي للتقريب بين الأديان الأنظار في أواخر الستينيات، وطوال السبعينيات الميلادية، بتتابعها. فقد عقد المجلس أكثر من خمسة عشر لقاءً دوليًا أو إقليميًّا خلال عشر سنوات، موزعة في أوروبا وآسيا وإفريقيا(٢). ولكن هذا النشاط الدائب سلسلةً من التجارب المشبعة بروح المغامرة، والرصد لانعكاسات التقارب على الحركة المسكونية.

لقد واجه المجلس معضلة العلاقة بين «الحوار» و«البشارة»، وبعبارة أدق: بين «التقارب» و«التنصير»، بصورة أعنف مما واجهته الكنيسة الكاثوليكية. ومرد ذلك إلى أمرين:

١ - أن قوام الحركة البروتستانتية والكنائس المتأثرة بها، هو العمل التبشيري، بشقيه العقدي والاجتماعي، ومن ثَمَّ فالحديث عن الحوار، والاقتراب من العقائد الأخرى، طعن بأخص خصوصيات الحركة الذي قامت على أساسه، وخيانة لمبادئها. في حين حُلَّت هذه العقدة بالنسبة للكاثوليك بتوسيع قاعدة «الخلاص» وإنْ بصورة جزئية، وربما مؤقتة.

٢- أن مجلس الكنائس العالمي لا يتمتع بالمركزية في صنع «القرار»، كما المجامع الكاثوليكية، فكنائسه المتعددة والمتباينة حرةٌ في اتخاذ ما تراه مناسبًا،

---

(١) المرجع السابق، (٥٠). عن: Sharing Jesus In The Two Thirds World P. ١٣٢.

(٢) سيأتي تفصيل لهذه المبادرات في فصل «المحاولات الجماعية للتقريب بين الأديان» من الباب الثاني.

وليس للمجلس صفة الإلزام. بخلاف الصبغة الكهنوتية لمجامع الأساقفة الكاثوليك، الذي يعتقد الكاثوليك أنفسهم أنها موجهةٌ وملهمة من الروح القدس(١). ومن ثم فقراراتهم معصومة مقدسة. في حين يتمكن البروتستانت والإنجليكان والكالفينيون من الصدع بآرائهم، مستندين إلى سلطة الكتاب المقدس مباشرة، دون وسائط كهنوتية.

لقد تبلور داخل أروقة مجلس الكنائس العالمي ثلاثة تيارات: (١- التيار الحصري الضيق: وهو الأكثر قوة وسيطرة. إذ إنَّه يستند إلى القناعة الثابتة بأن يسوع المسيح هو الطريق الوحيد للخلاص... ٢- الاتجاه الاشتمالي الاحتوائي:... وقد قال أتباع هذا التيار... بالتجلي أو التجسد الكامل والنهائي لله في يسوع المسيح وحده... والمسيحية... فريدة ونهائية، ولكن هذا لا يعني أن أعضاءها وحدهم... يستحقون الخلاص. إنها الطريق العادية نحو الخلاص، مع وجود طرقٍ «غير عادية» ظاهرة في العالم، وناجمة عن القوة الخلاصية ليسوع المبثوثة في التاريخ البشري.

٣- تيار التعددية: أتباع هذا التيار لا يرون في المسيحية الطريق الوحيد للخلاص، ولا يعدون أنها تشتمل وتحتوي وتكمل بقية الديانات. بل يؤمنون بتعدد طرق الخلاص)(٢). وطوال نصف قرنٍ منذ تأسيس المجلس عام ١٩٤٧م، حتى الآن لم يصدر عن جمعيته العمومية، أو لجنته المركزية، أو الوحدة التي أنشأها للحوار مع أصحاب العقائد والمثل الحية، قرار ذو صفةٍ عقدية يؤيد التقارب أو ينفيه، ويمكن أن نميز ثلاث مراحل:

---

(١) راجع التمهيد. مبحث «الكتب المقدسة عند النصارى» من الأصل(٧١-٧٧).

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (١٦٤ ١٦٧). وانظر: الحوار المسيحي الإسلامي في الواقع والرؤية. د. طارق متري. في كتاب: المسيحية والإسلام مرايا متقابلة (١٨٠ ١٨٢).

١. **المرحلة الأولىٰ**: مرحلة الدراسة، في إثر انعقاد المجلس عام ١٩٥٥م، حيث شكل مشروعًا دراسيًّا بعنوان: «كلمة الله والأديان الحية للبشر»، استمر حتىٰ مطلع السبعينيات. وكانت حصيلته الدعوة إلىٰ الانفتاح والحوار مع الإسلام، ومجاراة ما كان سائدًا في النصف الثاني من الستينيات في إثر المجمع الفاتيكاني الثاني. وكانت ذروة هذه المرحلة مؤتمر «كارتيني» عام ١٩٦٩م، الذي رأىٰ ضرورة الحوار لحمل الديانتين علىٰ تأمين الاحترام المتبادل وتعزيز التفاهم. وفي العام ذاته أنشئت وحدة الحوار.

٢. **المرحلة الثانية**: مرحلة التجربة العملية: وقد استهلت بإصدار الإرشادات لشرح سياسة وحدة الحوار مع معتنقي الأديان والمثل الحية عام ١٩٧١م، وفيها يوصف الحوار بأنه اضطراري ومستعجل ومملوء بالفرص، ومع ذلك يعترف المجلس أنه لا يوجد لديه رأي موحد، وأن ممارسة المجلس للحوار مغامرة، وقد استغرقت هذه المرحلة عقد السبعينيات تقريبًا.

٣. **المرحلة الثالثة**: مرحلة حوار البشارة: تبتدئ هذه المرحلة عام ١٩٧٩م، في إثر صدور إرشاداتٍ بشأن الحوار في اجتماع اللجنة العامة للمجلس في جامايكا. فقد عُرِّف الحوار بأنه ليس مجرد نشاط اجتماعات ومؤتمرات بل أسلوب حياة للإيمان النصراني، مرتبط بالجيران، يؤدي فيه المحاور الشهادة، ويتذرع بجميع الوسائل الحديثة للوصول إلىٰ مستمعيه.

ومن ثم فقد انحسر عدد المؤتمرات التي يرعاها المجلس بين الأديان بصورة ملحوظة إلى حد إلغاء وحدة الحوار، وإدراجها ضمن إطار العلاقات الدولية

للمجلس، فقد استفرغ المجلس وسعه في السعي لاستغلال الحوار من حيث هو حوار للتنصير، فلم يأتِ بطائلٍ يرضي طموحه، فاستبقى الاسم ستارًا لمشاريعه، وفرَّغه من المضمون.

المبحث الثالث

حقيقة التقريب بين الأديان عند النصارى العرب

كان بعض الأفراد والقبائل العربية يدين بالنصرانية(١) قبل بعثة النبي ﷺ. ورغم أن معظمهم قد اعتنق الإسلام عبر القرون، فإنه قد بقيت بقية أصرَّت على عقائدها السابقة إلى يومنا هذا، إضافة إلى أعراقٍ أخرى «استعربت» إبان الفتح الإسلامي المحمول باللسان العربي، كالقبط، والأنباط، والبربر، والأكراد، وغيرهم، فصاروا جزءًا من المجتمع العربي رغم تمسك بعضهم بدياناتهم، وعُدُّوا «أهل ذمة».

وقبل الحديث عن حقيقة التقريب بين الأديان لدى النصارى العرب القاطنين بين ظهراني المسلمين العرب، نلقي نظرة سريعة على ما آل إليه حالهم في العصر الحديث:

مطلع القرن العشرين الميلادي شهد اضمحلال الدولة العثمانية، التي تعد اليهود والنصارى المقيمين تحت ولايتها «أهل ذمة»، على ما اعترى هذه القضية من مساومات وتنازلات في العقود الأخيرة من العهد العثماني. فالنصراني العربي كان «الربيب المدلل» للدول الغربية الكبرى التي تبحث عن موطئ قدم في أراضي الإمبراطورية العثمانية الشاسعة، فحظيت الطوائف النصرانية المختلفة بحماية

---

(١) (كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة... وقد اجتمع على النصرانية في الحيرة قبائل شتى من العرب يقال لهم «العِباد»... وكان بنو تغلب أيضًا من نصارى العرب... وكان أهل نجران أيضًا من نصارى العرب) انظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود شكري الألوسي. (٢/ ٢٤١ ٢٤٢).

وعناية الأسياد، تعليمًا وتأهيلًا ومنزلة ونفوذًا وتمكينًا، وكان لا بد من ملء الفراغ الفكري الذي خلَّفه سقوط الخلافة العثمانية بفكرة جديدة مناسبة، فلا غرو أن كان رواد فكرة القومية العربية من النصارى العرب.

(... وتستفيد الديموغرافيا(١) المسيحية من هذا الوضع الملائم، ويصل ثقلها إلى أوج لم تعرفه قط منذ زمن الحملات الصليبية...)(٢). حيث نعم النصارى بالمزايا السياسية والاقتصادية والصحية التي قدمها الانتداب الفرنسي والإنجليزي لهم، في مقابل التدهور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والصحي الذي عاناه المسلمون في تلك الحقبة(٣).

(...والإحصاءات المتاحة لأعداد المسيحيين في العالم العربي المعاصر تتفاوت بين رقمٍ مبالغ فيه، وعددٍ متحفظٍ إلى حدٍّ إطلاق النذير بقرب زوال المسيحية من بين العرب. ولعل الرقم التقديري المعقول لمجموع المسيحيين في البلاد العربية هو عشرة ملايين...هذه الأعداد الضئيلة نسبيًّا للمسيحيين في العالم العربي المعاصر لا تعادل إطلاقًا الأهمية التي يتميز بها حضورهم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وحضورهم السياسي في بعض الحالات في الأقطار التي ينتمون إليها، بل وفي المجتمع العربي قاطبة)(٤).

ومع تراجع الفكر القومي العربي، وتنامي الصحوة الإسلامية في الثلث الأخير من القرن العشرين، وتفعيل قضية الحوار الإسلامي النصراني مع العالم

---

(١) الديموغرافيا Demography: (الدراسة الإحصائية للسكان من حيث المواليد والوفيات والصحة والزواج.. إلخ) المورد (٢٦٠).

(٢) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٦٢).

(٣) انظر: المرجع السابق.

(٤) المسيحية في العالم العربي للأمير الحسن بن طلال (١٢٩ ١٣٠).

الغربي، تعود حالة الشعور بالقلق تجاه المستقبل، ومحاولة البحث عن سياق إلى الجماعة النصرانية العربية.

فما موقف النصارى العرب من هذه القضية تحديدًا؟ سنحاول تبين ذلك من خلال بعض الكتابات الصادرة عن الزعامات الدينية لطائفتي الأرثوذكس والكاثوليك العرب في بلاد الشام، وطائفة القبط في مصر، ثم نختم ببيان حقيقة التقريب لدى بعض الجدليين من النصارى العرب.

- **أولًا: الأرثوذكس العرب:**

ويعرفون بـ«الروم الأرثوذكس»، ويبلغ مجموعهم في البلاد العربية مليوني نسمة تقريبًا، معظمهم في سوريا، وهم ثاني أكبر طائفة نصرانية عربية بعد الأقباط في مصر(١).

يقول المطران جورج خضر، رئيس أساقفة جبل لبنان للروم الأرثوذكس: (... الحوار لا يكتمل ما لم يجرِ مع مسيحيي الشرق... ويمتاز حوارهم في أنه غير مرتهن للقوة... إن الإنسان إن لم يكن في موقع القوة، قد يكون أكثر صفاءً إن هو حاور... المسيحيون العرب يحسون بتهميش، إذا انحصر الحوار المسيحي الإسلامي بالتلاقي بين المسلمين وأهل الغرب)(٢).

وهذه الدعاوى متعقبة بأن الطرف النصراني العربي طالما اتخذ من موقعه الضعيف مدعاة لتدخل النصراني الغربي في أرض الإسلام قديمًا وحديثًا، وتواطأ

---

(١) المسيحية في العالم العربي (١٣٠).

(٢) العلاقات الإسلامية المسيحية قراءة في الراهن والمستقبل من كتاب العلاقات الإسلامية المسيحية. قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل: مجموعة من المفكرين. المشرف على المشروع: سمير سليمان. مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٤م. (٢١٠ ٢١١).

مع الأجنبي من أبناء ملته ضد مواطنيه المسلمين، بل وحوَّل الحوار الذي يصفه المطران جورج خضر بالصفاء وعدم الارتهان إلى ورقة ضغط يلوح بها الأجنبي بإيعاز من حليفه الداخلي⁽¹⁾. فماذا عن الحوار نفسه والعلاقة بين الديانتين كما يراها هو أيضًا؟

كتب المطران خضر في جريدة النهار البيروتية، يوم الأربعاء ١٢ تموز ١٩٧٢م، بمناسبة انعقاد مؤتمر «برمَّانا» للحوار الإسلامي النصراني ما نصه: (كل حديث عن وحدة الديانتين كما نعرفهما حقًّا، إنما هو حديث مجاملة، ولا يقول به رصين. فالله الواحد الذي نعبده نختلف في صفاته اختلافًا بينًا، ولا الإنسان موصوفًا هنا وهناك واحد. ولا العلاقة بين الله والإنسان واحدة. ولا مفهوم الوحي يجمع... فلا الصلب ولا بنوة المسيح لله مقبولة عند المسلم في حال)⁽²⁾. بهذا الوضوح يدرك المطران جورج خضر، الفرق الجذري بين أصول الديانتين.

ويقول: (... إن المسيحي يؤمن بأن المسيح في قوله على الصليب: «قد تم» أبان أنه خاتم النبيين جميعًا... فلا مكانة لرسالة جديدة... فلم الحوار؟ ما لا يمكن المسلم تجاوزه هو أن محمدًا خاتمة النبيين. بمعنى أنه صاحب رسالة جديدة... تنكر إلهية عيسى... كما تنكر الصلب الذي هو محور المسيحية المعروفة... فكيف التوفيق، وكل توفيق يبدو هنا تلفيقًا. والحوار بادئ ذي بدء مرفوض بسبب من أصالة المسيحية وأصالة الإسلام؟ فنحن أمام منظومتين، ليست واحدة منهما قابلة للاختراق أو للتكامل)⁽³⁾.

---

(١) انظر: المسيحية والإسلام: مرايا متقابلة (١٧٧).

(٢) مواقف أحد. (٧٤). إصدار: دار النهار للنشر.

(٣) العلاقات الإسلامية المسيحية. قراءة في الراهن والمستقبل. من: العلاقات الإسلامية المسيحية قراءة مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢١٣). والجلجلة: اسم تلة صغيرة قرب أسوار بيت المقدس، جرى عليها الصلب في زعمهم. انظر: العهد الجديد (٣٥٤).

لقد أفصح المطران خضر عن حقيقة التباين والتقابل بين العقيدة الإسلامية، واللاهوت النصراني المحرف، الذي عليه نصارى اليوم، وكان محقًّا في أن أي محاولة للتوفيق لا تعدو أن تكون تلفيقًا.

فما حقيقة الحوار الذي يدعو إليه المطران بصفته الشخصية: إنها دعوة إلى مصالحة تاريخية، واعتذارٌ عن مظالم الماضي فقط دون المساس بالعقائد الخاصة(١). وهذا مفهوم، غير أن المطران خضر يتمادى فيخلط بين ما هو «تاريخي» بما هو «ديني»، فيقول: (بعضٌ آخر من الجواب أن ثمة بونًا بين الوحي وتفسيره. فالمفسرون كلهم بشر، وبينهم تباين. واللاهوتيون وعلماء الكلام والفقهاء بشر. ما جانب الإلهية فيما أتوا به، وما جانب الناسوتية المعرض للزلل؟)(٢).

- وعلى هذه الدعاوى السابقة التعقيبات الآتية:

أولًا: حاول المطران خضر أن يسلخ المعتقدات الإسلامية الآنفة الذكر من أصولها القرآنية، ويلبسها ثوب التراث التاريخي الذي شَكَّلَهُ في زعمه المفسرون والفقهاء، ببساطة متناهية، وتأويلات متهافتة(٣)، ولكنه لم يلتفت للتراث التاريخي الذي خلفه اللاهوتيون وآباء الكنيسة، ولم يشرع في اختراقه على الأقل، من باب المعاملة بالمثل وقصارى الأمر أن اكتفى بالاعتذار عن المظالم التاريخية فقط، وتمنى أن يعامل بالمثل.

ثانيًا: كيف يطالب المطران خضر المسلمين وحاشاهم بإخضاع القرآن الكريم لمعاول النقد التاريخي؟... بل ويعد ذلك من مقتضيات الحوار، فيقول في مقالة نشرتها جريدة النهار البيروتية في ١١/ ١/ ١٩٩٢م، تحت عنوان «هل من حوار

---

(١) انظر: العلاقات الإسلامية المسيحية (٢١٢-٢١٨).

(٢) المرجع السابق، (٢١٢).

(٣) المرجع السابق، (٢١٥).

إسلامي مسيحي؟»: (الحوار يقتضي منهجًا أكاديميًّا صارمًا، ولست أرى أسلوبًا له سوى النقد التاريخي الذي يقرأ كل كتاب بما في ذلك الكتب المقدسة على الخلفية التي ظهر منها)(١).

ولئن ارتضى نصارى اليوم، ومنهم أسقف جبل لبنان للروم الأرثوذكس نقد ما يزعمونه كتبًا مقدسة إلهية عندهم، لإدراكهم التام أن أيدي العبث والتحريف نالت منها، ولا أدل على ذلك من تباين نسخها وتعددها بل واضطرابها وتناقضها(٢)، لئن سوغوا لأنفسهم ذلك فإن المسلمين بحمد الله لم ولن تهتز ثقتهم وإيمانهم بسلامة القرآن من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل.

وحسب المطران خضر وأمثاله من نصارى العرب، المنادين بالحوار أن يكتفوا بالدعوة إلى الاعتذار عن مظالم التاريخ، وألَّا يستزلهم الشيطان -وقد فعل- إلى المساس بالعقيدة الإسلامية المتينة. وخير لهم أن يمعنوا بإخلاص في نقد كتبهم المقدسة علَّه يتبين لهم ما داخلها من وثنية الرومان واليونان، ويعودوا إلى التوحيد الحق الخالص الذي كان عليه عيسى عليه السلام، وجاء به عبد الله ورسوله محمد ﷺ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

تلك نظرات كبير من أساقفة الأرثوذكس العرب، المطران جورج خضر، في قضية الحوار والتقارب، وهو يتمتع بحضور قوي في المنتديات الدينية والسياسية والثقافية، ويعلن آراءه في الصحف السيارة وغيرها من القنوات الإعلامية، وهو يؤسس مشروعه في التقريب بين النصرانية والإسلام على دعوى التمييز بين ما

---

(١) عن مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٢٢١).

(٢) راجع مبحث الكتب المقدسة عند اليهود (٣٦ ٤٤)، والكتب المقدسة عند النصارى (٧١ ٨١).

هو ديني وما هو تاريخي، بحسبان أن الاختلافات العقدية الكبرى بين الإسلام والنصرانية مردها إلى خطأ المفسرين في فهم موجبات تكفير النصارى، وفي تنزيلهم تلك الموجبات على من يسميهم «المسيحيين».

فمثلًا:

بنوة المسيح: فالمطران خضر في سبيل رفع وصمة التكفير يحاول التفريق بين مادة «الولادة» ومادة «البنوة»، في حين أن اللغة لا تفرق بينهما. قال الفيروزآبادي⁽¹⁾: (الابن: الولد...)⁽²⁾.

ثم إن القرآن لم يقتصر على النكير على من زعم اتخاذ الله للولد، بل عبر صراحة بلفظ «الابن» الذي يلتزمه سائر النصارى فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]. وهكذا لا نرى فرقًا بين نصارى الأمس ومسيحيي اليوم كما يسمون أنفسهم في هذه القضية.

● ثانيًا: الكاثوليك العرب:

في شهر أغسطس من عام ١٩٩١م تأسس «مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك». وهو مكون من الكنائس الشرقية التي اتحدت مع الكنيسة الكاثوليكية، في روما وخضعت لها، مع محافظتها على طقوسها الخاصة. وعرفت باسم الكنائس الكاثوليكية الاتحادية. وأقدمها اتحادًا وتبعية لكرسي روما الكنيسة المارونية في لبنان (ق١٢م)، ثم الكنيسة الآشورية «الكلدانية» (ق١٦م) في العراق، وأخيرًا

---

(١) محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزآبادي، إمام اللغة والأدب، ولد سنة ٧٢٩هـ، بشيراز، وتنقل في البلدان توفي في زبيد سنة ٨١٧هـ الأعلام (٧/ ١٤٦)، البدر الطالع (٢/ ٢٨٠).

(٢) القاموس المحيط (٤/ ٤٤٢).

كنائس «الروم الكاثوليك»، و«الأرمن الكاثوليك»، و«السريان الكاثوليك» (ق١٧م) في بلاد الشام، إضافة إلى الكنائس اللاتينية التي أنشأها المبشرون الكاثوليك في المنطقة، واجتذبت بعض السكان المحليين⁽¹⁾.

ولا يعزب عن البال أن إنشاء هذا المجلس جاء في أعقاب الحرب الأهلية اللبنانية ذات الطابع «العقدي» و«الطائفي»، التي استمرت زهاء خمسة عشر عامًا (١٩٧٥-١٩٩٠م)، وأثارت المخاوف الكبيرة حول مستقبل النصارى في المشرق العربي⁽²⁾. كما أن هاجس «الصحوة الإسلامية» المتنامية في المنطقة العربية، والعالم بأسره كان ماثلًا.

وفي سنة ١٩٩٢م أصدر المجلس الرسالة الثانية بعنوان: (الحضور المسيحي في الشرق: شهادة ورسالة. رسالة راعوية مشتركة يوجهها بطاركة الشرق الكاثوليك إلى مؤمنيهم في شتى أماكن وجودهم.

وفي عام ١٩٩٤م أصدر مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك رسالته الثالثة المعنونة بالعبارة الآتية: (معًا أمام الله. في سبيل الإنسان والمجتمع. «العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي»). لقد خصصت هذه الرسالة⁽³⁾ لقضية «العيش المشترك» تحت غطاء من الشعارات العاطفية من أمثال: «الحوار والتلاقي»، «العيش والملح المشترك»، إلخ.

---

(١) انظر: الفصل التاسع من: (المسيحية في العالم العربي). (١٠٧ ١١٥).

(٢) انظر على سبيل المثال مقدمة كتاب: (حياة مسيحيي الشرق وموتهم. من البدايات حتى أيامنا) للفرنسي المتعصب: جان بيار فالونيو.

(٣) انظر: رسالة بطاركة الشرق الكاثوليك الأولى. والحضور المسيحي في الشرق. شهادة ورسالة: مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك. المطبعة البولسية. الطبعة الثانية ١٩٩٥م. (٤٢، ٤٣). (٤٥، ٤٦)، (٥١، ٥٥). معًا أمام الله. في سبيل الإنسان والمجتمع: مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك. نشر الأمانة العامة بكركي لبنان. طبعة ١٩٩٥م. (٧، ٨، ٩، ٢٢، ٢٣، ٢٤)

ولكنها جاءت كعريضة مطالب للطائفة النصرانية، لتحسين وضعها في المجتمعات الإسلامية، يتضح ذلك في الفقرات الآتية من الرسالة:

- تحت عنوان: «المشاركة في الحياة العامة»: (... من حق كل فئة وطنية أن تسهم في بناء المجتمع بجميع مجالات الحياة الوطنية فيه «أجهزة الدولة والمؤسسات العامة والخاصة والوظائف والمصالح الاقتصادية وغيرها»، وهذا يعني ألا يهمش أحد لسبب انتمائه الديني، أو لأي سبب من الأسباب، بل تتاح الفرص لكل مواطن، أيًّا كان، ومهما كانت عقيدته، لكي يجد موقعه في الحياة بعيدًا عن الحدود والحساسيات الطائفية)(١).

- وتحت عنوان: «التربية الدينية» تقول الرسالة: (يظل الطالب المسيحي... لا تُتاح له، بخلاف زملائه المسلمين، التربية اللازمة في مدرسته الحكومية نفسها. وفي بعض البلدان لا يتاح له ذلك حتى في المدرسة المسيحية الخاصة... ويشمل هذا المجال أيضًا الكتب المدرسية التي لا تأخذ بالحسبان الطالب المسيحي وواقع تعدد الأديان والثقافات في وطننا العربي.

وفي القسم الثاني من الرسالة يتساءل بطاركة الشرق الكاثوليك: «كيف نبني المستقبل؟»، وتأتي الإجابات دائرة حول نبذ الطائفية والتعصب الديني، والتحرر من الأفكار السابقة، وقبول التعددية والتنوع، وتطوير الخطاب الديني بإحلال الاحترام المتبادل محل التشويه والجدل، ونحو ذلك من الشعارات التي لا تخدم في الحقيقة سوى الطرف الأضعف، الذي يعاني عقدة «الأقلية»(٢).

---

(١) معًا أمام الله. (٢٢).

(٢) انظر: «معًا أمام الله» من (٢٧ ٣٧).

وفي القسم الثالث الذي يحمل عنوان: (من أجل مجتمع عربي متكافئ»، يتحدث البطاركة عن قضية الدين والسياسة، في وقتٍ تتعالى فيه مطالبات المسلمين بالعودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية. فيقولون: (... يعلمنا تاريخ المجتمعات البشرية المختلفة أن خلط الدين والسياسة ما يلبث أن ينتج عنه ضرر عميق على الدين والسياسة معًا...)⁽¹⁾.

استنادًا إلى الرسائل الثلاث التي وجهها بطاركة الشرق الكاثوليك «إلى مؤمنيهم في شتى أماكن وجودهم»، نحدد أبعاد قضية «التقريب» و«الحوار» في نظر النصارى الكاثوليك العرب.

أولًا: الحوار الذي ينادي به الكاثوليك العرب مع الآخر يعني: (معرفته والتعرف عليه والاعتراف به، معرفته كما يعرف هو نفسه، والتعرف عليه بكامل شخصيته والاعتراف به كمكمل لنا أكثر منه خصمًا أو منافسًا أو عدوًّا... بعيدًا عن الأفكار السابقة). هذا هو حَدُّ الحوار وتعريفه لديهم، فعلام ينطوي هذا الكلام. يقول المطران كيرلس: (إن العلاقات بين المسيحية والإسلام، لا يمكن أن تبنى اليوم وفي المستقبل على أساس ما ورد في القرآن... هذا ما يجب تأكيده بكل جرأة وصراحة...وعليه فإن تكفيرها لا يطالني. وهذا في رأيي هو الحل الوحيد للخروج من المأزق الذي يقع فيه المسيحيون والمسلمون على السواء. فالمسيحيون يتساءلون كيف يدخلون في حوار مع مسلمين يعدونهم كفرة؟

والمسلمون يؤمنون من جهة بأن القرآن كلام الله، ويريدون من جهة أخرى الدخول في حوار ديني مع المسيحيين...الطريق الوحيد... هو الإقرار بأن ما ورد في القرآن حول إيمان «أهل الكتاب النصارى» لا يعد التعبير الصحيح عن الإيمان

---

(١) المرجع السابق، (٤٣ ٤٤).

المسيحي الذي يعتنقه المسيحيون اليوم. انطلاقًا من هذه المقولة التمهيدية يمكن للمسيحية والإسلام الدخول في حوار ديني يبنون عليه علاقاتهم في الحياة والعيش المشترك)⁽¹⁾.

بهذه البساطة المتناهية حسم المطران المشكلة وأخرج الطرفين من المأزق! إنه باختصار يطالب المسلمين برفع الأحكام الربانية، والمعتقدات القرآنية المعلومة بالضرورة من دين الإسلام عن نصارى اليوم، دون أن يتزحزح هو وملته قيد أنملة عن موقفه العقدي، وبذلك يكون الطرفان مهيَّأين للحوار، وتحل المشكلة!

يقول: (وهنا لا بد لنا من التأكيد أن إيماننا هذا بالله الواحد، لا يناقض إيماننا بالتثليث. ذلك أن الآب وكلمته وروحه ليست في اعتقادنا ثلاثة آلهة منفصلة أحدها عن الآخر، بل إله نميز فيه ثلاثة أقانيم، أي صفات ذاتية غير منفصلة أحدها عن الآخر. فكما نميز بين الإنسان وعقله وروحه دون أن نفصل بين هذه الثلاثة، كذلك، وإن ميزنا في الله الواحد بين الله وعقله وكلمته وروحه، إلا إننا لا نفصل بين الثلاثة. لذلك نعلن في صلاتنا إيماننا «بالثالوث الواحد في الجوهر وغير المنفصل».

لذلك نؤكد أن المسيحية ديانة توحيدية، وقولها بالتثليث هو تعمق في سر الله، وتفسير لتجلي الله في عالم البشر. فلا تكتفي بالقول إن الله أرسل إلينا أنبياءه، بل إنه أتى إلينا في شخص كلمته يسوع المسيح، وفي روحه القدس. فكلمة الله وروحه حضرا فيما بيننا. أما التثليث الذي يكفره القرآن فهو عبادة كائنين من دون الله؛ أي لا علاقة لهما بالله. وهذا التثليث نحن منه براء، لأن كلمة الله وروح الله ليسا كائنين من دون الله، إنما هما صفات ذاتية في الله الواحد نفسه)⁽²⁾.

---

(١) العلاقات المسيحية الإسلامية تاريخًا وحاضرًا ورؤية مستقبلية. من كتاب العلاقات الإسلامية المسيحية: قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل. (٢٢٥).

(٢) العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢٣٢).

وقبل أن نحلل ما قاله المطران، نستدعي بداهة العقل والفطرة حيال نص القرآن: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

ترى! هل قال القرآن عن النصارى سوى ما يقوله النصارى اليوم عن أنفسهم؟ هل ظلمهم القرآن، أو لنقل تنزلًا مفسرو القرآن؟ أم أنها حقيقة واحدة، ومقالة واحدة، رغم حركات الالتفاف اللفظية؟

إنها عقدة النصارى الأبدية؛ محاولة التوفيق القسري بين التوحيد والتثليث، وأنى لهم. إن مدار خطاب المطران كيرلس حول اعتبار الكلمة وروح القدس بمنزلة الصفات الذاتية للآب، وعليه فالله وصفاته الذاتية شيءٌ واحد.

والجواب عن ذلك ببساطة، أن صفات الله الذاتية ملازمة لذاته سبحانه، غير منفصلة عنه بحالٍ من الأحوال، كحياته، وسمعه، وبصره، وعلمه...، أما ما أضيف إليه سبحانه مما يستقل بنفسه فهو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وقد يكون في بعض الأحوال إضافة تشريف لذلك المخلوق، كوصفه تعالى لعيسى عليه السلام بأنه رسول الله، وكلمته، وروح منه، و«من» هنا ليست للتبعيض قطعًا. إذ لا يعقل ولا يمكن أن يكون «بعض» من الله منفصل عنه، سبحانه وبحمده!

وأخيرًا فلنا وقفة مع قول المطران: (أما التثليث الذي يكفره القرآن فهو عبادة كائنين «من دون الله» أي لا علاقة لهما بالله، وهذا التثليث نحن منه براء، لأن كلمة الله وروح الله ليسا كائنين من دون الله). فينبغي أن يعلم أن تكفير القرآن

لأهل التثليث هو من جهة شركهم في الربوبية، قبل أن يكون شركًا في العبادة. إنكم معشر النصارى لم تحرروا توحيد الربوبية فضلًا عن أن تخلصوا توحيد الألوهية(١).

بقي أن نجيب عن تساؤل المطران كيرلس سليم بسترس: (فالمسيحيون يتساءلون: كيف يدخلون في حوار ديني مع مسلمين يعدونهم كفرة؟)(٢).

والجواب: تمامًا كما يدخل النصارى مع مسلمين يعدُّهم النصارى كفرة. إن الكنائس النصرانية لم تزل تصدر قرارات الحرمان والكفران والهرطقة ضد مخالفيها من الكنائس الأخرى والأفراد. فكيف بمن هم خارج دائرتهم أصلًا. وحتى هذا اليوم ورغم بيانات المجاملة من بعض الدوائر الكنسية تجاه المسلمين، لم ترتقِ لغة الخطاب إلى الاعتراف بنبوة نبينا محمد ﷺ، فكيف يطالبون محاوريهم من المسلمين بالاعتراف بإيمان النصارى، ورفع صفة الكفر التي حققها القرآن عليهم في مواضع متعددة!

لقد سبق بيان تهافت هذه الدعوى، وبيان أن لا فرق بين الأولين والآخرين. ولكن رئيس أساقفة بعلبك للروم الملكيين الكاثوليك، يتخطى هذا القدر حين يشارط المسلمين قبل الدخول في حوار أن يرفعوا وصف الكفر والشرك الذي وضعه القرآن على رقاب عباد الصليب، ولا يكلف نفسه أن يفترض سؤالًا مقابلًا يمكن أن يطرحه المسلمون الموافقون على مشروع الحوار: كيف ندخل في حوارٍ ديني مع نصارى ينكرون نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن كلام الله، وأن الدين عند الله الإسلام؟ وحسبك من حوارٍ هذه عتبة بابه! فماذا في ثنايا الدار؟

---

(١) انظر: العقائد النصرانية في التمهيد (٨١ ٩٥).

(٢) العلاقات الإسلامية المسيحية قراءة مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢٢٥).

ثانيًا: والحوار لدى الكاثوليك العرب فرصة للتخلص من العقد الاجتماعية والنفسية التي خلَّفها التاريخ القديم والحديث لهم. فهم يعانون عقدة الشعور بالذنب والخيانة والتواطؤ مع الغزاة والمستعمرين.

والمقصود أن الحوار والتقارب مركب يمتطيه هؤلاء للوصول إلى مصالح خاصة، هم المستفيد الأول والأخير فيه، فيعلنون براءتهم من وصمة الخيانة والتواطؤ مع الأجنبي، وتأكيد الأصالة والتجذر في المنطقة الإسلامية مهما ضؤل تمثيلهم العددي.

ثالثًا: أن الحوار في نظرهم كما هو الحال لدى الأرثوذكس العرب بديلٌ مناسب يملأ الفراغ الذي أحدثه تراجع فكرة القومية العربية.

رابعًا: وأخطر وأهم الأمور في مناداتهم بالحوار والتقارب والتواصل، قضية «العيش المشترك». إن الحوار بالنسبة لنصارى العرب منبرٌ للمطالبة بتحقيق مكاسب جديدة، فضلًا عن المكاسب التي تحققت بانتقالهم من حال «أهل ذمة» إلى «مواطنين» من الدرجة الأولى. فهم يريدون استئصال جميع صور التمييز ورواسبه في العقل المسلم، والكتاب المدرسي، والإنتاج الفكري، والخطاب الإعلامي، بل وحتى الخطاب الديني.

والطامة الكبرى لدى هؤلاء النصارى المطالبة بإقصاء الدين عن السياسة، وبعبارة أخرى، فالقوم يريدون «علمنة المجتمع الإسلامي».

الأمر جد واضح. فالحوار الذي يغلفه هؤلاء بأغلفة التفاهم، واكتشاف الآخر، والتعاون...، محسوم النتائج سلفًا، وقضاياه غير قابلة للنقاش أصلًا. إن من يقف على هذا الكلام ولديه أدنى ذرة من إدراك طبيعة الدين الإسلامي ورسالته إلى

البشرية، يعلم يقينًا أن القوم يدعون محاوريهم المسلمين إلى الانسلاخ من دينهم، ونقلهم إلى الفهم الكنسي الضيق لمهمة الدين في الحياة.

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

- **ثالثًا: القبط:**

يمثل الأقباط أكبر طائفة نصرانية في العالم العربي من الناحية العددية، وتتراوح نسبتهم التقديرية إلى مجموع السكان في مصر ما بين ٥,٨٧٪ إلى ضعف هذه النسبة، ويتبعون كنيسة الإسكندرية التي انفصلت عن سائر الكنائس إبان الانشطارات المبكرة في تاريخ الديانة النصرانية، وتحديدًا في إثر مجمع «خلقيدونية» المعقود سنة ٤٥١م لمناقشة معضلة «طبيعة المسيح» عندهم. وقد كان بطريرك الإسكندرية يتبنى مذهب «الطبيعة الواحدة»، ولكن المجمع المذكور أسفر عن انتصار القائلين بالطبيعتين، وتبع ذلك حوادث شغب واضطهاد أدت إلى انفصال الكنيسة المصرية انفصالًا تامًّا عن الكنيسة الغربية(١). وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن الأقباط استقبلوا الفتح الإسلامي بالترحاب، وربما بالمساعدة(٢) وسرعة انقياد الأقباط للدخول في الإسلام في العقود الأولى من الفتوح الإسلامية... ولعل

---

(١) انظر: في هذا: تاريخ الكنيسة المسيحية. أفغراف سميرنوف (٢٦٢ ٢٧٠)، محاضرات في النصرانية. محمد أبو زهرة (١٣٧ ١٤١) المسيحية في العالم العربي. الحسن بن طلال (٥٧ ٦٩).

(٢) انظر: الأقباط في مصر في العصر العثماني: د. محمد عفيفي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة مصر. طبعة ١٩٩٢م. (١٩ ٢٠).

مرد ذلك إلى سوء المعاملة، والاضطهاد الذي كانوا يرزحون تحت وطأته من قبل النصارى الرومان الذين يخالفونهم في المعتقد(١). ولم تخلُ الأمور بطبيعة الحال من استثناءات، فقد وقع العديد من حركات التمرد والانتقاض لأسباب متعددة(٢)، وقد تقدم في النبذة التاريخية إلماحات إلى بعض الأحداث التي جرت في أثناء الحملات الصليبية، ثم إبان الاستعمار الأوروبي الحديث.

أخذ النفوذ القبطي بالظهور مجددًا منذ عهد «محمد علي وخلفائه»، وألغيت الجزية عنهم عام ١٨٥٥م، ونالوا عددًا من المناصب الإدارية والقضائية، وفي عهد الاحتلال البريطاني عين «بطرس غالي باشا»(٣) رئيسًا للوزراء عام ١٩٠٨م، وقد اغتيل سنة ١٩١٠م. أنشأ الأقباط «حزب مصر» عام ١٩٠٨م.

وعقدوا مؤتمرًا عام ١٩١١م ضمنوه مطالبهم الاجتماعية والسياسية والدينية، وعقد المسلمون مؤتمرًا لمناقشة المسألة القبطية، تمخض عن رفض بعض المطالب القبطية.

تنامى القلق القبطي من المستقبل ووقفوا موقفًا عدائيًا من المبادئ الداعية لأسلمة المجتمع المصري، وأسفرت عن مواجهات دامية، وفتن متلاحقة، لا سيما في عقدي السبعينيات والثمانينيات الميلادية.

---

(١) انظر: المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٢).

(٢) يرى المقريزي رحمه الله إن خاتمتها كانت في عهد الخليفة العباسي المأمون سنة ٢١٦هـ. قال: (ومن حينئذٍ أذل الله القبط في جميع أرض مصر، وخذل شوكتهم، فلم يقدر أحدٌ منهم على الخروج ولا القيام على السلطان، وغلب المسلمون على القرى، فعاد القبط من بعد ذلك إلى كيد الإسلام وأهله بأعمال الحيلة واستعمال المكر، وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج. وكان للمسلمين فيهم وقائع...) الخطط المقريزية (١/ ١٤٣).

(٣) بطرس «باشا» ابن غالي نيروز (١٢٦٢ ١٣٢٨هـ) (١٨٤٦ ١٩١٠م): وزير مصري من الأقباط الأرثوذكس. انظر: الأعلام (٢/ ٥٩).

ونحاول أدناه استطلاع الموقف القبطي من قضية التقريب والحوار من زوايا رصدٍ متنوعة.

١ - الكنيسة القبطية:

رغم توافق الكنيسة مع مواقف الحكومات المتعاقبة على مصر من الأحداث السياسية في المنطقة، وصدور بيانات رسمية مؤيدة من قبل الكنيسة القبطية «كنيسة الإسكندرية» على الدوام، ورغم المجاملات المتبادلة بين رجال الدين النصارى، ومشيخة الأزهر في المناسبات الدينية للفريقين، فإن المتتبع لا يلاحظ تطوير أي مشروع للتقارب والحوار الديني.

وقد حضر وفدٌ من الكنيسة القبطية بصفة مراقب إلى المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٣م، وأعلن أن: (نقط الالتقاء بين الإسلام والمسيحية أعظم من نقط الالتقاء بين اليهودية والمسيحية)⁽¹⁾.

ولعل عدم حماس الكنيسة القبطية لقضايا الحوار الإسلامي النصراني في هذه الفترة الهادئة نسبيًّا راجعٌ إلى أمرين: أحدهما: الطبيعة الانعزالية التاريخية للكنيسة تجاه الكنائس الأخرى.

الثاني: الإدراك الأفضل لطبيعة الدين الإسلامي بحكم المعايشة التاريخية على أرضٍ واحدة، وعليه فليس ثَمَّ جديد يسوغ مبادرتهم إلى الحوار الديني بعد هذه العِشرة الطويلة سوى التعرض للتهمة.

---

(١) عن: المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية: طارق البشري. دار الشروق القاهرة. الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م). (٦٩٤).

ولكن السبب الذي جاء لاحقًا منذ أن تقلد البابا شنودة(١) الثالث منصب بابا الإسكندرية عام ١٩٧١م قطع الطريق على جميع الفرص الممكنة لطرح فكرة التقريب. ذلك أن حقبة السبعينيات وما تلاها، تميزت بتصعيد قبطي خطير تجاه الطروحات ذات الصبغة الإسلامية، مثل إضافة عبارة «والشريعة الإسلامية مصدر رئيس من مصادر التشريع» إلى المادة الثانية من دستور ١٩٧١م «الإسلام دين الدولة»، ثم عدلت عام ١٩٧٩م لتصبح «والشريعة المصدر الرئيس للتشريع».

وقد قابلت الكنيسة القبطية هذه التوجهات بالاعتراض. ومما جاء في مذكرةٍ قدمها «المجمع المقدس» للأقباط إلى مجلس الشعب حول مشروع قانون الردة: (إننا لن نستطيع أن نقبل مشروع هذا القانون، ولن نخضع له إذا نفذ. وبحكم ضمائرنا سنسعى وراء كل مسيحي ترك مسيحيته لكي نرده من جديد، مهما حكمت مواد هذا القانون بالقتل على هذا التحريض، ومستعدون أن ندخل في عصر استشهاد جديد من أجل ديننا والثبات فيه)(٢). وقد رد الأزهر على المؤتمر القبطي بالدعوة إلى (مؤتمر الهيئات والجماعات الإسلامية) في العام نفسه، جاء في توصياته:

- (إن كل تشريع أو حكمٍ مخالف لما جاء به الإسلام باطل. ويجب على المسلمين رده، والاحتكام إلى شريعة الله التي لا يتحقق إيمانهم إلا بالاحتكام

---

(١) البابا شنودة الثالث: بطريرك الأقباط الأرثوذكس، المئة وسبعة عشر واسمه: نظير جيّد. ولد في مركز (أسيوط) ١٩٢٣م. تخرج من الكلية الأكليريكية عام ١٩٤٩م ثم درس فيها. ترهب في دير السريان عام ١٩٥٤م. أسقف التعليم الكنسي ١٩٥٤م. بطريرك عام ١٩٧١م. انظر: المنجد في الأعلام (٣٩٣).

(٢) عن: الأقباط والقومية العربية (١٧٥).

إليها...)⁽¹⁾. وتمادى البابا شنودة في تصلبه، وصدرت منه (تصريحات وتعليمات لأبناء طائفته تتضمن زيادة نسلهم... والاهتمام بالتبشير بالدين المسيحي، وتعبئة الرأي العام المسيحي بالخارج ضد السلطات والنظام في مصر للتدخل والضغط على المسؤولين لمنع تطبيق الشريعة الإسلامية... ورفض أبناء الطائفة لمشروع قانون الردة... وإشعارهم برفض الشعب المسيحي ذلك التعديل معترضًا على تطبيق الشريعة الإسلامية، وتهديده بأنه في حالة عدم موافقة المسؤولين على الضمانات التي طلب إدخالها على تعديل المادة الثانية من الدستور: سيجعلها دمًا للركب من الإسكندرية إلى أسوان)⁽²⁾.

في مثل هذه الأجواء المحمومة، وإفرازاتها الميدانية، تتلاشى فكرة الحوار والتقارب.

ونخلص من هذا العرض إلى أن الكنيسة القبطية لم ترفع شعار التقريب بين الأديان للأسباب الثلاثة آنفة الذكر.

٢- أقباط المهجر:

كوَّنوا هيئاتٍ سياسية في المهجر لعل أبرزها: «الهيئة القبطية الأمريكية». يعرفها أبو سيف يوسف بأنها: (حركة سياسية انعزالية... تأسست عام ١٩٧٤م... وأهداف الهيئة المعلنة هي: خلق مجتمع دولي قبطي متحد، والمساهمة في دعم كيان الأقباط بمصر...)⁽³⁾. فأمر هذه العيِّنة القبطية من قضايا التقارب والحوار واضح لا يحتاج إلى تعليق.

---

(١) عن: الأقباط والقومية العربية (١٧٥).

(٢) العلاقات الاجتماعية الدينية في المجتمع المصري المعاصر: د. عبد الوهاب إبراهيم. مكتبة نهضة الشرق. جامعة القاهرة القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٨٧م. (٤١).

(٣) الأقباط والقومية العربية. (١٨٣ ١٨٤).

٣- الوطنيون الأقباط:

في القرن التاسع عشر وحتى السبعينيات من القرن العشرين، كان ممثلو الأقباط من الوجهاء وأصحاب الأموال، أما رجال الدين (الإكليروس) فكانوا منكفئين على أنفسهم في أديرتهم. و(مع وصول البابا شنودة الثالث إلى الكرسي البابوي في عام ١٩٧١م... اتخذت قيادات الكنيسة طريقًا خاصًّا بها في هذا المجال كان أقرب إلى أساليب الاحتجاج والاعتراض، هذه الأساليب التي كانت ترمي لعدة أهداف:

١- قيام الكنيسة بدور الممثل للشعب القبطي.

٢- فرض سلطة الكنيسة على الصفوة القبطية.

٣- تحقيق آمال الطبقة الوسطى القبطية.

٤- كسر حالة السلبية التي ميزت الكنيسة والأقباط لأوقات طويلة...)⁽¹⁾.

إن نبرة التململ في صفوف المثقفين من الأقباط آخذة في التصاعد حيال مواقف الكنيسة)⁽²⁾.

وينتظم في الاتجاه الوطني عامة المثقفين الأقباط، ويركز هؤلاء على شعارات الوطنية والتآخي بين مكوني المجتمع المصري؛ المسلمين والأقباط، بل والحديث عن «القومية المصرية»، ومن أبرز هؤلاء الكتاب: وليم سليمان قلادة...)⁽³⁾.

---

(١) عن عرض للكتاب المذكور ل: ياسر زغيب في مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٤٨ ٢٤٩).

(٢) الكنيسة القبطية بين المحافظة والتحديث. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ١٤٧).

(٣) انظر: العلاقات الإسلامية المسيحية في الواقع المصري. من: العلاقات الإسلامية المسيحية قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل. (ص٣٤٥ ٣٤٦).

ألف كتاب (الحوار بين الأديان) عام ١٩٧٦م، ووضع فيه قواعد للحوار هي: (القاعدة الأولى: فهم الآخر كما يريد أن يكون مفهومًا... وليس مع فكرتي عنه. القاعدة الثانية: عن عقيدة الشخص: الحوار دعوة لأن يزداد الشخص تفهمًا لدينه، فليس الهدف من الحوار الوصول إلى موقف وسط بين العقائد...)[١].

ولكن هذا الكتاب ليس نتاج حوار ديني محلي.

- **خلاصة وتحليل:**

تبين مما سبق أن الأقلية النصرانية في مصر -وعامتها من الطائفة القبطية- لم تَتَبَنَّ قضية التقريب والحوار بالصيغة السائدة عالميًّا في النصف الأخير من القرن العشرين الميلادي. وهي في أحسن الأحوال تلوذ بعباءة الوطنية لإيجاد موقعٍ لها في نسيج المجتمع المصري الحديث.

ولا ريب أن للأحداث الطائفية، والتعصب من الجانبين الذي تستفزه طبيعة التغلغل الاجتماعي، والضغوط المعيشية، دورًا كبيرًا في إقصاء فكرة التقريب بالحوار، والاستعاضة عنها بعرائض الشكاوى والمطالبات باسم الوطنية.

رابعًا- حقيقة التقريب عند بعض الجدليين من النصارىٰ العرب:

من أمثلة هؤلاء: الأب الكاثوليكي «يوسف درة الحداد (١٩١٣-١٩٧٩م»[٢].

---

(١) الحوار بين الأديان. نقلاً عن مقالة «الحوار المسيحي الإسلامي» لعفيف عثمان. مجلة الاجتهاد عدد (٣١ ٣٢/ ١١٨).

(٢) يقول د. رضوان السيد: (أما المحاولة التي تحولت إلى نهجٍ أفاد منه سائر المجادلين المسيحيين العرب في مواجهتهم للإسلام؛ فهي المغامرة الحياتية للأستاذ يوسف درة الحداد، التي تعتبر من وجهة نظري أهم الجدليات الحديثة ضد الإسلام، بعد كتاب «ميزان الحق» للقس البروتستانتي Pfander. ويرجح أن تكون صدرت مؤلفاته بين عامي (١٩٥٦ ١٩٧٠م). جدال مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية (٣).

أصدر مجموعةً من الكتب تحت مسمى: «في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي» تضمنت الآتي:

١- مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي.

٢- القرآن دعوة «نصرانية».

٣- القرآن والمسيحية.

أسَّس الأب الحداد بنيان مشروعه الحواري على شفا جرفين هاريين:

أحدهما: عَدُّ الدين الإسلامي ونبيه وكتابه مرحلةً من المراحل التاريخية للنصرانية المنشقة في نظره عن المسيحية القويمة. وبناءً عليه فحوار الإسلام مع المسيحية حسب اصطلاحه هو حوار الفرع مع الأصل(١).

الثاني: التفريق بين «النصرانية المذمومة في القرآن» و«المسيحية التي يتسمى بها نصارى اليوم»(٢).

ويقرر الأب الحداد بكل جرأة ضابطًا في فهم القرآن فيقول: (كل تأييد أو استشهاد بأهل الكتاب أو ببني إسرائيل هو للنصارى من بني إسرائيل. وكل تكفير لأهل الكتاب أو لبني إسرائيل هو لليهود. أما المسيحيون فليسوا من بني إسرائيل، وهم أهل «الغلو» في شأن المسيح بلغة القرآن، وإن سماهم أيضًا أهل الكتاب)(٣).

---

(١) انظر: القرآن دعوة نصرانية (٧٨٣).

(٢) انظر: القرآن دعوة نصرانية. (٧١١)، وقد تشبث بهذه الدعوى؛ دعوى أن نصارى اليوم غير معنيين بتكفير القرآن وذمه، دعاة الحوار من نصارى العرب من أمثال جورج خضر، وكيرلس سليم بسترس وأضرابهم. فضلًا عن الجداليين العدوانيين من أمثال الأب الدكتور جوزيف القزي، المتستر بلقب أبي موسى الحريري في كتابه «قس ونبي»، وإلياس المر في كتابه «الإسلام بدعة نصرانية». انظر بحث الدكتور رضوان السيد: جدال مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية.

(٣) القرآن دعوة نصرانية. (١٠٣).

لقد أخرج الكاتب المسيحية التي ينتمي إليها من حلبة الصراع، وبرأها من جميع صور النقد والتخطئة والتكفير التي صرح بها القرآن، ووجه هذه الحملة على «اليهودية» فقط...)(١).

بعد هذا نتساءل: هل يظن الأب الحداد في نفسه أنه يسعى في طريق الحوار فعلًا؟ أم هي محاولة للتغرير بالبسطاء والسذج من المنتسبين إلى الإسلام؟

يقول الكاتب تركي علي الربيعو معلقًا على كتاب «القرآن دعوة نصرانية»: (إن هذا النوع من الخطابات... لا يهدف فعلًا إلى إقامة الحوار بل إلى إلغائه، لأن الحوار يحميه الاختلاف، وتعززه الخصوصية، في حين أن الضم بالقسر والإلحاق والتبعية يقوم على إلغائه)(٢).

وأيًّا كان هدف الأب الحداد في قرارة نفسه؛ إقامة الحوار أم إلغاءَه، وأيًّا كانت البواعث وراء هذه الصياغة المُغرِبة، فإن النتيجة النهائية لفكرته أنه لم يأتِ بجديد في مجال الحوار، فأي ثمرة يجنيها الأب الحداد «في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي» مؤسسة على نبش أحقاد الماضي، وبعث معضلات عقدية عميقة فشلت الكنائس في تجاوزها طوال القرون.

كما أن فكرة التفريق بين «المسيحية» والانحرافات «النصرانية» المذكورة في القرآن، بهدف تبرئة «المسيحية» من «الكفر» و«الغلو» لم تأتِ بجديدٍ أيضًا، ولم تحل إشكالًا أصلًا. في الوقت الذي يردد فيه قانون الإيمان النصراني: (أومن بالله الواحد الآب... والرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد،... وبالروح القدس، الرب المحيي، المنبثق من الأب، (بالابن)، الذي هو مع الأب والابن معبود ومحمود...)(٣).

---

(١) انظر: القرآن دعوة نصرانية. (٤٥٧).

(٢) الخطاب المستتر في الحوار المسيحي الإسلامي. مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١٣٩).

(٣) مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي. (٣٠٥-٣٠٦).

عجبًا لهاتيك العقول المغيَّبة في عماء التعصب والتقليد، كيف تسمي هذا التثليث الشركي «توحيدًا»؟ لقد جمع قانون إيمانهم شِركَيْ الربوبية والألوهية، فكان مشركو الأمم من الوثنيين أحسن حالًا منهم لوقوعهم في شرك الألوهية دون الربوبية.

وتذهب محاولات الأب الحداد سدى وهو يحاول أن «يفلسف» القضية ويجمع النقيضين؛ التوحيد والتثليث.

فليقضِ القارئ عجبًا من «وحدة الكيان الإلهي»، والتوحيد الخالص، وهو يقرأ في نص قانون الإيمان النيقاوي الذي يردده النصارى في جميع الأرض: (... وبالرب الواحد، يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، النور من النور، الإله الحقيقي من الإله الحقيقي، مولود غير مخلوق، في جوهر واحد مع الأب. وهو الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء، وتأنس وصلب لأجلنا على عهد بنطيوس بيلاطس، وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب. وارتفع إلى السماء وجلس على يمين الأب)(١).

إله مولود من إله، نزل، وتجسد، وتأنس، وصلب، وتألم، وقبر، وقام، وارتفع، وجلس على يمين الإله الأول! ومع ذلك فهما إله واحد!

لقد كانت محاولة الأب يوسف درة الحداد في مجال التقريب بين الإسلام والنصرانية ضربًا من الاحتواء المكشوف الذي تأباه لغة العصر، فضلًا عن الحقائق الثابتة.

---

(١) المرجع السابق، (٣٠٥).

يقول الدكتور رضوان السيد(١): (أراد الأستاذ الحداد من المسلمين الاقتناع بأنهم نصارى/ مسيحيون في الأصل، وعليه فلا حاجة للاستقلالية الدينية، فالاجتماعية والسياسية...)(٢).

---

(١) د. رضوان السيد: حصل على الدكتوراه في الفلسفة (قسم الإسلاميات) من جامعة توبنغن بألمانيا الغربية عام (١٩٧٧م)، أستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية، ومدير المعهد العالي للدراسات الإسلامية في بيروت منذ ١/ ١١/ ١٩٩٤م، له حضور قوي في المؤتمرات والندوات الفكرية، يشغل منصب رئيس تحرير مجلة «الاجتهاد» منذ عام ١٩٨٨م. انظر ملاحق مجلة الاجتهاد (٢٩ ٣٢)، وكتيب: «حركات الإسلام السياسي والمستقبل» (٣١).

(٢) جدالٌ مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية (٧).

المبحث الرابع

حقيقة التقريب بين الأديان عند اليهود

إن موقف اليهود من التقارب بين الأديان، بل وبين أهل الأديان، مرتبط ارتباطًا وثيقًا باعتقادهم أنهم شعب الله المختار. إذ يعتقد «اليهود» على اختلاف طوائفهم واتجاهاتهم القديمة والحديثة أنهم عنصر متميز، وشعب مختار يفوق سائر الأعراق والأجناس البشرية. وهذا الاعتقاد عقيدة راسخة تمثل جزءًا من الدين اليهودي. فنصوص التوراة، بل الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام تتضمن أصول هذا الاعتقاد، مثل:

- جاء في سفر الخروج: (وأتخذكم لي شعبًا. وأكون لكم إلهًا)(١) (٦/ ٧).

- وفي سفر التثنية: (لأنك شعب مقدس للرب إلهك... تعلق الرب بحبكم واختاركم)(٢) (٧/ ٦-٨).

ولا نبادر بدوافع عاطفية تنكر أصل التفضيل والاصطفاء الإلهي، ولكننا نضع هذه المعاني في موضعها الصحيح كما قررها القرآن الكريم بعدل وحكمة:

فالاصطفاء والاختيار حاصل ولا ريب بمشيئة الله وحكمته: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٥]. يثبت القرآن ذلك العهد ويقيده بالقيود الإيمانية، لا الاعتبارات الوراثية العرقية: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ

---

(١) العهد القديم (١٦١).

(٢) العهد القديم (٣٧٠).

عَهۡدِی ٱلظَّـٰلِمِینَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: (أي لا ينال الإمامة في الدين، من ظلم نفسه وضرَّها وحط قدرها لمنافاة الظلم لهذا المقام)(١).

وقد أثبت الله في كتابه، وعلى لسان عبده ونبيه موسى عليه السلام، هذا التفضيل لبني إسرائيل في مواضع متعددة، في سبيل تذكيرهم بنعمه، وإقامة الحجة عليهم، ومطالبتهم بالوفاء بالعهود والمواثيق المفروضة عليهم، فمن ذلك: ﴿یَـٰبَنِیٓ إِسۡرَ ٰۤءِیلَ ٱذۡكُرُوا۟ نِعۡمَتِیَ ٱلَّتِیٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَیۡكُمۡ وَأَنِّی فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِینَ﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢]، فلا ريب إذًا (أنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله)(٢).

ولكن القوم تنكبوا الطريق، وبدلوا نعمة الله كفرًا، وأحلوا قومهم دار البوار. فبدر منهم الكفر وسوء الأدب مع الله، والتطاول على أنبيائه بالقتل وصنوف الأذى، ونقض العهود والمواثيق، ما أوجب أن يرفع الله به عنهم هذه المزية والفضل، ويبدلهم بها خزي الدنيا وعذاب الآخرة. كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَیۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَیۡنَ مَا ثُقِفُوۤا۟ إِلَّا بِحَبۡلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَاۤءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَیۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَ ٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُوا۟ یَكۡفُرُونَ بِـَٔایَـٰتِ ٱللَّهِ وَیَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِیَاۤءَ بِغَیۡرِ حَقࣲّۚ ذَ ٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ یَعۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

فماذا بقي لشذاذ الآفاق، وقتلة الأنبياء، من دعوى الاصطفاء والاختيار، بعد أن أحلَّ الله عليهم غضبه ولعنته، وأوقع بهم المثلات؟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٣٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٧٣).

● موقف الحركات اليهودية من «الأغيار»:

١ - الحركة الأرثوذكسية (المحافظون):

يصر عامة اليهود على أنهم «شعب الله المختار»، ويحاولون تفسير هذه الدعوى بشتى التفسيرات، (ولكن أكثر التفسيرات تواترًا... هو أن الاختيار غير مشروط ولا سبب له، فهو من إرادة الله التي لا ينبغي أن يتساءل عنها أي بشر، فهو قد اختار الشعب ووعده بالأرض، وليس لأي إنسان أن يتدخل في هذا.

ويبدو أن الاختيار لا علاقة له بالخير والشر، ولا بالطاعة أو المعصية، فهو لا يَسْقُط عن الشعب اليهودي حتى ولو أتى هذا الشعب بالمعصية.

هذا على عكس المفهوم الإسلامي للاختيار، حيث جعل الاختيار مشروطًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽¹⁾، كما أنه ليس اختيارًا عنصريًّا أو عرقيًّا بل هو اختيار أخلاقي، غير مقصور على أمة بالذات بالمعنى العرقي للكلمة)⁽²⁾.

والوجه الآخر للمشكلة يكمن في أن الشعور بالفوقية يستلزم بطبيعة الحال نظرة دونية تجاه «الأغيار»، أي من ليسوا من اليهود. «الأغيار» تعني (بالعبرية «غوييم»...)⁽³⁾.

وقد لعب «التلمود» دورًا خطيرًا طوال القرون في تشكيل العقلية اليهودية في نظرتها تجاه ذاتها، وفي نظرتها تجاه الآخرين، نقتطف بعض ما ورد فيه حسب ترجمة الدكتور يوسف نصر الله لكشف خبيئة الضمير اليهودي تجاه الآخرين:

---

(١) والإيمان بالله كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(٢) الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود. غازي السعدي (٩٩).

(٣) المرجع السابق، (٣٤).

- (الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، فإذا ضرب «أمِّي» إسرائيليًّا فكأنما ضرب العزة الإلهية).

- (إذا ضرب أمِّي إسرائيليًّا فالأمِّي يستحق الموت... وأنه لو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق الموجود بين اليهود وباقي الشعوب).

- (إن لحم الأميين لحم حمير، ونطفتهم نطفة حيوانات غير ناطقة. أما اليهود فإنهم تطهروا على طور سيناء. والأجانب تلازمهم النجاسة لثالث درجة من نسلهم، ولذلك أمرنا بإهلاك من كان غير يهودي).

- (إذا وقع أحد الوثنيين في حفرة يلزمك أن تسدها بحجر)(١).

بهذه الروح العدائية الإجرامية ربى أحبار السوء من الحاخامات أتباعهم عبر القرون.

ومن جراء هذه التعاليم عاش اليهود في تجمعات خاصة مغلقة، منعزلين عن سائر البشر.

ونتيجة لهذه المعادلة الصعبة؛ أعني الرفض الداخلي للآخرين في الضمير اليهودي، واضطرارهم للعيش بين ظهرانيهم، عانى اليهود الذلة والمسكنة والاضطهاد في المجتمعات الأوروبية والروسية، وهو جزء من العقوبة الإلهية التي تأذن الله بها لبني إسرائيل.

---

(١) انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود. (٧٣ ١١٢)، وانظر: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود لمحمد علي البار وانظر على سبيل التفصيل والربط بالواقع التشريعي لدولة إسرائيل حسب تعاليم التلمود الفصل الخامس «القوانين ضد غير اليهود» من كتاب إسرائيل شاحاك (١١٩ ١٥٠).

والآن ونحن في سياق معرفة الموقف اليهودي من «الأمميين» عقيدة وتاريخًا، لنصل من بعده إلى معرفة موقفهم من قضية التقريب بين الأديان المطروحة حاليًّا.

٢- الحركة اليهودية الإصلاحية:

والسؤال الآن: كيف تحرر اليهود في القرنين الأخيرين (١٩، ٢٠م) من ربقة الانعزال الاجتماعي والثقافي، وانخرطوا في المجتمع العالمي؟ وهل كان ذلك نابعًا عن تغيير عقدي في نظرتهم لأنفسهم وللآخرين؟

«فالحركة اليهودية الإصلاحية» تمردوا علىٰ «اليهودية الكلاسيكية المحافظة» التي ظلت متحكمة في حياة اليهود حتىٰ القرن التاسع عشر تقريبًا، حيث حاول مؤسسو هذا المذهب أن يصلوا إلىٰ صيغة معاصرة لليهودية تلائم العصر، وقد جاء في قرارات مؤتمر بتسبرج الإصلاحي ١٨٨٥م: أن الكتاب المقدس ليس من صنع الله، بل هو وثيقة من صنع الإنسان، كما ركز الإصلاحيون علىٰ الجوهر الأخلاقي للتلمود، مهملين التحريمات المختلفة التي ينص عليها القانون اليهودي، وقد عدل الإصلاحيون بعض الأفكار الرئيسة في الديانة اليهودية، فنادىٰ «جايجر» بحذف جميع الإشارات إلىٰ خصوصية «الشعب اليهودي»، وقد حاول بعض الإصلاحيين الإبقاء علىٰ هذه الفكرة مع إعطائها دلالة أخلاقية عالمية جديدة، فجعلوا الشعب شعبًا مختارًا يحمل رسالته الأخلاقية لينشرها في العالم، وأضفىٰ الإصلاحيون علىٰ فكرة العودة والمسيح طابعًا إنسانيًّا. إذ رفض ممثلوهم في «بتسبرج» فكرة العودة الشخصية للمسيح المخلص، وأحلوا محلها فكرة العصر

الماسيحاني(١)، أي عصر يحل فيه السلام والكمال(٢).

واضحٌ أن الاتجاه الإصلاحي التحرري يعني التخلي عن الثوابت العقدية، والسمات التاريخية، للشخصية اليهودية، بدءًا من تحطيم أسطورة «شعب الله المختار» بالمعنى التلمودي، وانتهاءً بتأويل «باطني» لعقيدة المسيح المخلص.

٣- الحركة الصهيونية العنصرية:

وأيًّا كانت مبررات ظهور هذا الاتجاه، فقد خفت صوته أمام النبرة العالية لحركة قومية دينية عنصرية مضادة، عرفت باسم الحركة الصهيونية، سعت سعيًا حثيثًا على المستويين السياسي والشعبي لإنشاء وطن قومي لليهود فوق أرض فلسطين، وعقدت أول مؤتمرٍ لها في «بال» بسويسرا عام ١٨٩٧م. وأمام النجاحات التي حققتها «الحركة الصهيونية»، قلص ظل اليهودية الإصلاحية بأفكارها الليبرالية(٣) الطارئة على الحس اليهودي، واضطرت إلى إجراء تعديلات توفيقية بين الاتجاهين القومي والإنساني(٤).

---

(١) المسيحانية: Messianisme، أصلٌ من أصول العقيدة اليهودية، تقوم على فكرة بعثة مسيح مخلص من اليهود يؤتى الملك والبركة والمعجزات، يكون بمبعثه ارتفاع غضب الرب على اليهود، وتجديد العهد معهم، وسيادتهم على جميع الشعوب، وأن عصره الماسيحاني عصر اضمحلال العداوات والبغضاء بين بني إسرائيل... إلخ. انظر: الفكر الديني اليهودي. أطواره ومذاهبه: د. حسن ظاظا. (٩٥ ١٢٨). والمسيح المنتظر وتعاليم اليهود. د. محمد علي البار.

(٢) انظر: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود (١١٢ ١١٦).

(٣) الليبرالية: Liberalism و«ليبرالي» Liberal. متحرر من التزام السنن والأشكال التقليدية إلخ. وتستعمل في الفكر والسياسة والاقتصاد والدين النصراني. «ليبرالية بروتستانتية». انظر: المورد (٥٢٥).

(٤) انظر المرجع السابق، (١١٥ ١١٦).

قطفت الحركة الصهيونية الثمرة بإعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م. تعرف نفسها، أنها «دولة يهودية».

٤ - الحركة الأصولية الدينية:

ومن أبرز هذه الحركات الأصولية اليهودية حركة: «غوش إيمونيم Gush Emunim»، أي جماعة المؤمنين.

وغوش إيمونيم، تفارق سائر المتدينين بتوظيف الجوانب العقدية، التوراتية والتلمودية، لصالح مشروعها السياسي وهي نواة الأصولية اليهودية المنظمة وشعارها هو: «أرض إسرائيل لشعب إسرائيل بحسب توراة إسرائيل». وتعد هذه المنظمة، بلا شك، أنجح حركة غير برلمانية نشأت في إسرائيل منذ تأسيس الدولة سنة ١٩٤٨م.

فرجال غوش إيمونيم ونساؤها قد آلوا على أنفسهم أن ينفقوا حياتهم من أجل ضمان بسط السيادة اليهودية على أرض إسرائيل الكاملة، وفق ما جاء وصفها في التوراة، والاستعاضة من أشكال الحكم الليبرالية الديمقراطية الغربية النمط، بأشكال «يهودية أصيلة» وإعادة بناء الهيكل في القدس)(١).

والذي دعانا لهذا الاستطراد هو الرغبة في استكمال جوانب الموقف الأصولي اليهودي المتنامي في المجتمع الإسرائيلي.

---

(١) انظر: «الأصولية اليهودية في إسرائيل من أجل الأرض والرب» إيان لوستك. ترجمة: حسني زينة. مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩١م. (١٤ ١٥). وغوش أمونيم: الوجه الحقيقي للصهيونية: تأليف داني روبنشتاين. ترجمة غازي السعدي دار الجليل.

وهذا يمنحنا تصورًا جازمًا عن رفض هذا الضرب من اليهود مجرد التفكير في دعوة التقريب بين الأديان، سواء من الإسلام أو من النصرانية. فاليهود يملكون «الحق المطلق»، في نظرهم، والآخرون من الأمميين لا يملكون حتى الحق النسبي، لأن القضية عند هؤلاء الأصوليين مبنية على الاختيار الإلهي لشعب إسرائيل، ولا مجال للمفاوضات السلمية لتحقيق السلام، بل هي ضربٌ من العبث ومصادمة القدر الواعد بمجيء المسيح المخلص ومملكته التي تنشر السلام الحقيقي.

إن هذا النمط من التفكير الأهوج، ينفي ويستبعد أدنى خاطرة للحوار مع المخالف في المسائل العقدية، أو محاولة البحث عن القيم المشتركة.

٥- الحركة اليهودية التقاربية:

أما على الجانب الآخر، جانب الداعين إلى الحوار والتقارب من اليهود، فلا نكاد نعثر على شيءٍ يذكر سوى كتابٍ مهم نشره اتحاد الجمعيات اليهودية (UAHC) بنيويورك، في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٣ عنوانه:

(شالوم/ السلام أسس مشتركة للحوار بين اليهود والمسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية).

قام على إخراجه كل من: الحاخام جاري م. بريتون جرانيتور، مدير قسم شؤون ما بين الأديان، ومدير مشارك لجنة العمل الاجتماعي لليهودية الإصلاحية باتحاد الجمعيات الأمريكية اليهودية UAHC، والحاخام أندريال. ويس في القسم المذكور. والكتاب يتكون من قسمين:

أحدهما: قاعدة نظرية في قضية الحوار.

الثاني: برامج عملية ثمانية مقترحة لتطبيق عملية الحوار.

وفي سبيل التعرف على الأهداف الحقيقية غير المعلنة سنقوم بتحليل المقالات اليهودية في هذا الكتاب.

١- «الحاجة إلى حوار بين المسلمين واليهود»: عنوان مقالة الحاخام جاري م. بريتون جراناتور، أحد مُعِدِّي الكتاب، ويعنى الكاتب بإبراز صور التشابه بين الديانتين على أنها لون من التأثير المتبادل، في العقيدة والشريعة، لا على أنها دليلٌ على وحدة المصدر.

والحق الذي لا مرية فيه أن ما يوجد من نقاط تشابه أو تطابق مرده إلى أن القرآن نزل مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْـحَقِّ مُصَدِّقًا لِّـمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ونظرًا للصفة الدينية التي يمثلها الحاخام جاري م. بريتون جرانتور نبادر باستخلاص النتائج الآتية التي ربما تكون أساسًا لتوجه معين لدى بعض الاتجاهات اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية ودول الشتات:

١- اللغة التي يتحدث بها لغة مسالمة، ذات أبعاد إنسانية تختلف تمامًا عن لغة الأصوليين السياسيين في إسرائيل.

٢- الاستعداد للحوار الديني وتحت شعارات اكتشاف الآخر، والتعرف على تراثه، بل ومشاركته فيه، والتخلص من أحقاد الماضي وأخطائه، والسعي نحو السلام، إلخ.

٣- هيمنة الهاجس السياسي المتعلق بإقامة دولة إسرائيل، على مشروع الحوار، فرغم المحاولات الذكية بالحيدة عنه، لكنه بعد أن يتأهل الجانبان بالفهم المتبادل، وبعد أن تكون هذه المهام قد وضعتهما على الطريق على حد تعبيره، يستدعي المسائل السياسية إلى الحوار حينذاك.

٢- أما الحاخام أندريا. ل. ويس والمشارك في مشروع الكتاب أيضًا فيقول: (إن قائمة العقبات الكامنة قائمة طويلة منها العقبات السياسية والعقائدية والتاريخية.

فالحاخام «ويس» يدرك تمامًا عمق المشكلة المترتبة على اقتطاع أرض فلسطين من قبل اليهود، واستيلائهم على المقدسات الإسلامية، وأثر ذلك على مشروع الحوار. ومن ثم فهو يطمح إلى حصر المشكلة بالمسلمين العرب الذين لا يمثلون سوى عشرين في المئة فقط من المسلمين، لكونهم طرفًا مباشرًا في النزاع. ويحاول تجنيب بقية المسلمين وتنحيتهم عن القضية باعتبارها نزاعًا عربيًّا إسرائيليًّا ذي صفة سياسية وحسب.

ولكن هذه الأساليب الملتوية غير مستنكرة على إخوان القردة والخنازير الذين ينقضون عهد الله وميثاقه، ويفترون على الله الكذب، ويقتلون النبيين بغير الحق.

- **خلاصة وتحليل:**

تبين من خلال ما سبق أن لليهود في العصر الحديث موقفين متضادين من قضية التقريب والحوار بين الأديان:

أحدهما: موقف الرفض، والنبذ للآخرين المتمثل في اليهودية الأرثوذكسية بشقيها: التقليدي، كطائفة «الحريديم»، والأصولي السياسي، مثل «غوش إيمونيم»، وحزب كاخ.. وغيرهما ممن يستظهر تعاليم «التلمود» عقديًّا، ويفسر الأحداث السياسية المعاصرة وفق «النبوءات» التي تضمنها العهد القديم. وهذا الاتجاه ينشط في دولة إسرائيل محط آماله، وأرض ميعاده الموهوم، وهو آخذ في النمو والانتشار وزيادة النفوذ، كما تشهد بذلك موازين القوى السياسية في

إسرائيل، برجحان كفة الأحزاب الدينية المتعصبة التي قادت حزب «الليكود» إلى السلطة في العقد الأخير من القرن العشرين الميلادي.

ويظهر -والله أعلم- أن هذا الخط العقدي المتعصب سيظل في تنامٍ مستمر حتى يتمحض اليهود ليهوديتهم، والمسلمون لإسلامهم، وتقع الملحمة التي يترنم بها اليهود، والنصارى الإنجيليون⁽¹⁾، ويسمونها «هرمجدون»⁽²⁾، ويتطلع لها المسلمون، لبشارة النبي ﷺ بها، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)⁽³⁾.

الثاني: موقف القبول، وربما المبادرة الذي تتبناه اتجاهات ذات أصولٍ مرتبطة بالحركة اليهودية الإصلاحية. وتنشط هذه الاتجاهات بين يهود الشتات «الدياسبورا»، بغرض تحقيق بعض المكاسب المحلية، واستغلال الأقليات الأخرى للوصول إلى بعض المطالب الاجتماعية، دون أن تبدي أدنى تنازلٍ عن الأصول العقدية المتزمتة التي تؤمن بها الطائفة. وبواعثها مصلحية صرفة.

وفي مطلع عام ١٩٩٨م شارك اليهود في ندوة الحوار بين الأديان المنعقدة في الرباط، يمثلهم الحاخام الأكبر لليهود السفارديم بإسرائيل «إلياهو باكشي»، وقد

---

(١) الإنجيليون النصارى: حركة أصولية تنصيرية، تعتقد بعصمة العهدين القديم والجديد، والإيمان برجعة المسيح. وهي تؤيد وتدعم دولة إسرائيل لكون ظهورها يصدق النبوءات التي تضمنها العهد القديم. انظر: الأصولية الإنجيلية، صالح الهذلول؛ الصهيونية المسيحية، محمد السماك؛ المنظمات الصهيونية المسيحية. أحمد تهامي سلطان.

(٢) انظر: العهد القديم. سفر حزقيال ٣٨، (١٨٣٢). في النبوءات القديمة للمعركة، والأصولية الإنجيلية. صالح بن عبد الله الهذلول، (٥٩). في التفسير الحديث لها.

(٣) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٣٩).

أجرت معه جريدة الشرق الأوسط حوارًا صحفيًّا قال فيه ردًّا على سؤالٍ عن النتائج التي يمكن أن تتحقق من حوار الأديان:

(أولًا: أعتقد أن انعقاد ندوة الرباط التي جمعت ممثلي الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والإسلامية والمسيحية، في بلدٍ إسلامي كالمغرب يعد كسبًا في حد ذاته.

وثانيًا: استبعاد بعض الأفكار الخاطئة مثل: الصراع بين الأديان. ويتعين تجنيب الأديان الصراعات أو النزاعات التي يمكن أن تقع بين الدول لاعتبارات سياسية، لأن الدين هو رمز التفاهم والتوحد، وهو فوق الاختلافات. وفي رأيي فإن أهم رسالة في ندوة حوار الأديان هي الدعوة للصبر والتعايش والسلام، وأن يتمسك السياسيون بمنطق السلام، وأبعد من ذلك فإن السلام ينبغي أن يكون بين الشعوب وليس بين الدول وحسب. ويمكن لرجال الدين أن يؤدوا دورًا أساسيًّا في إرساء السلام لأن رجال الدين لهم مكانة خاصة لدى شعوبهم)[1].

إن هذا اللون من التصريحات الوقتية، غير مستنكر على الشخصية اليهودية المخادعة المتلونة حسب مقتضيات المصلحة الراهنة على نمط ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ۚ﴾ [المائدة: ١٤]، وأسلوب ﴿ءَامِنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، وإلا فإنه غير خافٍ على أحد أن دولة «إسرائيل» إنما ولدت وترعرعت باسم «الدين»، على ما يعتقدونه «أرض الميعاد». وأحبار السوء الذين يتشدقون اليوم بعبارات السلام والتعايش والتفاهم هم الذين غذوا بالأمس، ويغذون اليوم، وسيغذون غدًا روح التعصب للشعب المختار، واحتقار الأمميين من غير اليهود، حتى هجَّروا شعبًا مسلمًا عن أراضيه، ووضعوا أيديهم القذرة على مقدساته، ويتحينون الفرصة التاريخية المناسبة لنسف المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان.

---

(١) جريدة الشرق الأوسط. عدد (٧٠٢٣) في ١٩/ ٢/ ١٩٩٨م.

المبحث الخامس

حقيقة التقريب بين الأديان عند الإسلاميين العصرانيين

مصدر هذه التسمية راجع إلى التشابه بينهم وبين الحركة العصرانية في الديانة المسيحية (Modernism)، وهي:

(حركة دينية كاثوليكية، تطورت في أواخر القرن التاسع عشر...، وكانت غايتها تحديث الفكر الديني، والتوفيق بين التراث والآراء العصرية في الفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع والعلم)(١). ففي الحقبة نفسها ظهر في نواحٍ من العالم الإسلامي الذي كان يرزح تحت وطأة الاستعمار الأوروبي دعاة مشبوهون، حملوا لواء «التحريف» باسم «التجديد»، ورفعوا مبادئ «التغريب باسم «الاستنارة»، وخلعوا على أنفسهم لقب «أصحاب الفكر الديني المستنير»(٢)، وسمى تلاميذهم عصرهم ذاك بـ«عصر النهضة»(٣)، وطريقتهم بـ«المدرسة الإصلاحية».

وقد استحيا رواد هذه المدرسة رفات الفكر الاعتزالي الذي اندرس أو كاد(٤)، يضاهئون به الاتجاهات العقلانية المنتصرة في أوروبا على الكنيسة حينذاك.

---

(١) الموسوعة الفلسفية. د. عبد المنعم الحفني (٢٨٢).

(٢) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب. محمد حامد الناصر (١٧٥).

(٣) انظر: سلسلة موسوعة عصر النهضة. سمير أبو حمدان.

(٤) الواقع أن الفكر الاعتزالي اختفى اسمه، وبقي مضمونه لدى بعض الفرق والطوائف كالإمامية والزيدية.

ومن أبرز معالم تأثرهم بالمعتزلة: الغلو في تقديس العقل، وتقديمه علىٰ النقل مطلقًا عند التعارض الظاهري(١).

كما استظهر هؤلاء العصرانيون بعض أفكار المستشرقين ودعاة التغريب، فأورثهم ذلك رقة في الدين، وجرأة على التلاعب بأحكامه، والخروج على إجماع الأمة، باسم «الاجتهاد» و«التجديد» و«التطوير»، ولكن دونما ضوابط ولا أهلية، وإنما أرادوا تطويع المجتمعات الإسلامية لمقتضيات الحياة الغربية العلمانية.

ومن أهم مفردات هذه الأفكار والدعوات، في مجال التطبيق والسلوك: موادة أهل الكتاب، وتوليهم، والدعوة إلىٰ تقارب الأديان.

وقد حظي هؤلاء بعطف المستعمرين ودعمهم، فمكنوا لهم في الأرض ينشرون فكرهم المنحرف، وفتاويهم الشاذة تحت ستار التجديد والاجتهاد(٢).

وكل فقرة من مفردات فكر هؤلاء العصرانيين، إن في منهج النظر والاستدلال، أو في مجال التطبيق والسلوك، تحتاج إلى بحثٍ مستقل لا تتسع له صفحات

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، وإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح. ولكن كثيرًا من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ومراده كان عارفًا بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول... وكذلك «العقليات الصريحة» إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحًا، لم تكن إلا حقًا، لا تناقض شيئًا مما قاله الرسول) مجموع الفتاوى (١٢/ ٨٠ ٨١). وقال أيضًا: (إن الرسول لا يجوز عليه أن يخالف شيئًا من الحق، ولا يخبر بما تحيله العقول وتنفيه، لكن يخبر بما تعجز العقول عن معرفته. فيخبر بمحارات العقول لا بمحالات العقول) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٩٧).

(٢) انظر: العصريون، معتزلة اليوم: يوسف كمال(٧). ومقدمة: العصرانيون بين مزاعم التجديد، وميادين الغريب (٧).

هذا المبحث المتخصص(١)، وحسبنا أن نعنى بموقفهم من «قضية التقريب بين الأديان»، وإماطة اللثام عن أبعاده العقدية والعملية عندهم.

وبين يدي هذا العرض لمقولات العصرانيين واتجاهاتهم، نلفت الانتباه إلى أن أفراد هذه المدرسة والمتأثرين بها ليسوا على درجة واحدة من الانحراف الفكري، ففيهم الفقيه الذي طغت عليه ثقلة المتغيرات الحديثة.

وفيهم الصحفي الذي يفتقر إلى العلوم الشرعية، ويقتات على محض الآراء والأذواق، ويتحدث باسم الإسلام، ويُعرَّف بوصفه «كاتبًا إسلاميًّا» لدى عامة القراء.

وفيهم العقلاني المغرق في عقلانيته، الذي لا يرى في الكتاب والسنة مرجعية عند الاختلاف، بل يحكم فكره وتصوره اتجاهات المدارس الغربية الحديثة(٢).

وعليه فإن هؤلاء العصرانيين يقفون على درجات متفاوتة في سلم الانحراف.

وتتفاوت مقالاتهم ما بين «البدعة» و«الكفر»، بصرف النظر عن قائليها، فذلك لا يعنينا ههنا، وإنما يعنينا كشف خطر هذه المقالات على عقيدة الأمة(٣).

وأول من نادى بالتقريب بين الأديان في أوساط المسلمين بصورته الأخيرة جمال الدين الأفغاني، ثم تلميذه محمد عبده. ولم يزل دعاة التقريب من العصرانيين يمجدونهما، ويشيدون بمآثرهما في هذا المضمار، وينسجون على منوالهما.

---

(١) انظر في ذلك: المعتزلة بين القديم والحديث. الفصل الرابع (١٢٩ ١٣٩). محمد العبدة، طارق عبد الحليم، مفهوم التجديد بين السنة النبوية وبين أدعياء التجديد المعاصرين. د. محمود الطحان.

(٢) انظر: التدين المنقوص. فهمي هويدي. مقالة: «ليبراليون وسلفيون» (٢٥٩).

(٣) انظر: مقدمة: العصرانيون بين مزاعم التجديد، وميادين الغريب (٧).

حقيقة التقريب عن العصرانيين

وسوف نعرض «حقيقة التقريب» عند هؤلاء الإسلاميين العصرانيين من خلال ثلاثة محاور:

الأول: الشبهات العقدية لدعوة التقريب.

الثاني: التطبيقات العملية في معاملة أهل الكتاب.

الثالث: مفهوم التقريب ومنهجيته عندهم.

- **المحور الأول: الشبهات العقدية لدعوة التقريب عند الإسلاميين العصرانيين:**

كان لا بد لدعاة التقريب بين الأديان، بله التوحيد، من مقدماتٍ عقدية يسوِّغون بها مشروعهم البدعي، تمامًا كما احتاجت الكنيسة الكاثوليكية في المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥م) إلى استحداث فكرة تعدد سبل الخلاص لأتباع الديانات الأخرى لتمرير مشروع التقارب، والخروج من أسر الإطلاقية الدينية: «لا خلاص خارج الكنيسة»(١).

ولكن الأمر يختلف بالنسبة للإسلام، فعقيدته محفوظة مصونة، وحدوده بيِّنة واضحة، لا مجال فيها لتلاعب المتلاعبين، وتحريف المحرفين.

ومن ثم صُدِم هؤلاء العصرانيون بصراحة النصوص القرآنية، فلجؤوا إلى باب التحريف الذي سموه «تأويلًا»، بل قد سلكوا مسلكًا أبشع، حيث مالؤوا كفرة أهل الكتاب على فكرة إخضاع النص القرآني لمعاول النقد التاريخي، واعتضدوا

---

(١) انظر: المبحث الأول من هذا الفصل.

في سبيل بلوغ هذا الهدف الخبيث بالدعوة إلى إحياء عقيدة القول بخلق القرآن عند المعتزلة، لينزعوا عن الكتاب العزيز صفة القداسة والعصمة الإلهية، بوصفه مخلوقًا، ثم يشرعوا في إعمال مباضعهم في تجريح النصوص، وفق أهوائهم. فبئس الهدف، وبئست الوسيلة(١).

بقي أن نقول إن المعتزلة رغم قولهم بخلق القرآن، لم يقصدوا بذلك ما قصده هؤلاء العصرانيون من إنكار عصمته، وإمكانية نقده، على ما وقعوا فيه من تحريف، بل إنهم يعدونه أعظم الدلائل على صدق نبوة محمد ﷺ لكونه معجزًا للعالمين(٢)، ولم ينحطوا إلى ما انحط إليه هؤلاء مداهنةً وتملُّقًا لأعداء الله.

وهذا يكشف عن منهج القوم تجاه التعامل مع النصوص القرآنية المتعلقة بأهل الكتاب، فإذا ما دلفنا إلى تفاصيل مسعاهم إلى «التقريب» و«التوحيد» بين الأديان، نجده يتجه إلى محاولة إثبات إيمان اليهود والنصارى اليوم، وأنهم ناجون يوم القيامة. وقد سلكوا في سبيل هذه الغاية مسالك شتى يتداخل بعضها مع بعض، نحاول تمييزها فيما يأتي:

أولًا: التلبيس بأن أهل الكتاب اليوم مشمولون بـ«الإسلام» بمعناه العام:

وإليك أيها القارئ هذا المثال(٣) من مغالطات القوم في هذا الباب.

---

(١) ومن هؤلاء صاحب كتاب: اللاهوت المسيحي وعلم الكلام الإسلامي. طريف الخالدي.

(٢) انظر: على سبيل المثال: «المختصر في أصول الدين» للقاضي عبد الجبار المعتزلي من مجموعة رسائل العدل والتوحيد. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة (١/ ٢٦٦). وانظر: في الرد على محاولات نقد النص القرآني: «هجمة علمانية جديدة ومحاكمة النص القرآني» د. كامل سعفان.

(٣) راجع الأصل فقد ذكر المؤلف من هؤلاء محمد سعيد عشماوي، وعبد اللطيف غزالي، محمد عمارة، فهمي هويدي، محمد الطالبي، سعد غراب.

محمود أبو رية قال: «إن النجاة من الخوف والفزع، ونيل المثوبة والأجر، أمران منعقدان بأن يؤمن الإنسان بالله وباليوم الآخر، وأن يأتي من الأعمال ما هو لصلاح الدنيا والآخرة. فمن فعل هذا فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليه ولا حزن. لا فرق في ذلك بين من كانوا على ملة إبراهيم، ومن كانوا على دين غيره من الأنبياء كموسى وعيسى، بل وغيرهم ممن لم يدينوا بشيء من تلك الأديان»(١).

فهذا الكاتب الذي اشتهر بالتجني على السنة النبوية، وعلى شخص الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه(٢)، قد تجنى على الكتاب العزيز، في تأويل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، فحمله على إيمانٍ مطلق، وعمل مطلق، دون مراعاة دين الله وشرعه في زمان معين. وهو لا يكتفي بالخلط والتلبيس، وعدم التمييز بين مؤمني أهل الكتاب قبل بعثة النبي ﷺ، ومشركيهم الذين أبوا واستكبروا عن قبول ما جاء به محمد ﷺ، بل يحشد معهم من لم يدن بشيء من الأديان، ويفرق بين ملة إبراهيم ودين موسى وعيسى، وهم جميعًا على ملة إبراهيم، التي وصاهم الله بها جميعًا كما في قوله: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

---

(١) دين الله واحد: محمود أبو رية. غالم الكتب. (٥٢).

(٢) انظر كتابه: أضواء على السنة المحمدية. وكتابه: شيخ المضيرة أبو هريرة. وقد ألّف في الرد عليه أكثر من خمسة عشر كتابًا، منها: كتاب: الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء السنّة من الزلل والتضليل والمجازفة. للعلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، وكتاب: السنّة ومكانتها من التشريع. للدكتور مصطفى السباعي. وغيرها.

وقد حكى عنه فهمي هويدي حكاية تكشف عن مقاييسه الطائشة في أحكام الآخرة، من أنه حضر مجلسًا لبعض المشايخ، وسألهم عن «أديسون» مخترع المصباح الكهربائي، فأخبروه أنه حيث لم ينطق بالشهادتين فهو من أهل النار، فخاطبهم قائلًا: (إذا كان مثل هذا الرجل العظيم، وغيره من الذين وقفوا حياتهم على ما ينفع البشرية جمعاء بعلومهم ومخترعاتهم، لا يمكن حسب فهمكم أن يدخلوا الجنة شرعًا، لأنهم لا ينطقون بالشهادتين، أفلا يمكن أن يدخلوها عقلًا بفضل الله ورحمته، ما داموا يؤمنون بخالق السماوات والأرض)[1].

ألم يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]. بل وأكثر مما ذكر، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٩٠]. وهذه إقرارات لمشركي العرب أعظم مما أثبته أبو رية مؤهلًا لأديسون وأمثاله لاستحقاق الجنة، ومع ذلك لم ينفعهم -مشركي العرب- إقرارهم بتوحيد الربوبية دون إقرارهم بتوحيد الألوهية وتصديق محمد ﷺ.

أما إن كان يرىٰ استحقاقهم الجنة بما قدموا من أعمال نافعة للبشرية فتلك ظلمات بعضها فوق بعض، فقد قال الله عن المشركين الذي يطعمون الحجيج، ويفكون العاني ونحو ذلك من صور الإحسان: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. والخلق إما كافرٌ وإما مؤمن: ﴿هُوَ ٱلَّذِى

---

[1] (١) مجلة العربي الكويتية عدد (٢٦٧) (٥٠) ربيع الأول ١٤٠١هـ. فبراير (١٩٨١م).

خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ [التغابن: ٢]، فمن لم نعلم اعتناقه لدين الإسلام بعد بعثة محمدٍ ﷺ حكمنا بكفره في الدنيا. والحكم بالنار علىٰ كل كافر هو صريح الكتاب والسنَّة، وأما استحقاق معين للنار فمتوقف علىٰ ثبوت شروط، وانتفاء موانع، كقيام الحجة الرسالية، ونحو ذلك.

ثانيًا: التهوين من شأن الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ:

لما تذرع العصرانيون بدعوى الإسلام العام، ليحشدوا تحت شعاره كل مشرك وكافر، كان من لازم ذلك ومقتضاه محاولة التهوين من شأن الإسلام الخاص الذي جاء به محمد ﷺ، وعدم اشتراط الإيمان برسالته لاستحقاق وصف «الإيمان» في الدنيا، و«النجاة» في الآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الإسلام الخاص الذي بُعِث به محمَّدٌ ﷺ، المتضمن لشريعة القرآن: ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ. والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا)[1].

وقال: (فكل من لم يعبد الله بعد مبعث محمد ﷺ بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم)[2]. هذا منطق أهل الإسلام في قديم الدهر وحديثه، عليه ينشأ الصبيان، ويهرم الشيوخ، ولا يخالج مسلمًا شكٌّ في هذه العقيدة الراسخة.

فلنستمع الآن إلى «لحن القول» من دعاة التقريب بين الأديان:

محمد عبده[3] قال: (إن الكتابية ليس بينها وبين المؤمن كبير مباينة، فإنها

---

[1] مجموع الفتاوى (٣/ ٩٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٥٢٢ ٥٢٣).

[2] مجموع الفتاوى (١/ ١٩٠)، وانظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٥٢).

[3] وقد ذكر المؤلف في الأصل مثالين آخرين وهما: محمد حسين فضل الله، ومحمد عمارة.

تؤمن بالله وتعبده، وتؤمن بالأنبياء، وبالحياة الأخرى، وما فيها من الجزاء، وتدين بوجوب عمل الخير وتحريم الشر. والفرق الجوهري العظيم بينهما هو الإيمان بنبوة محمد ﷺ، ومزاياها في التوحيد والتعبد والتهذيب. والذي يؤمن بالنبوة العامة لا يمنعه من الإيمان بنبوة خاتم النبيين إلا الجهل بما جاء به، وكونه قد جاء بمثل ما جاء به النبيون، وزيادة اقتضتها حال الزمان في ترقيه واستعداده لأكثر مما هو فيه، أو المعاندة والجحود في الظاهر، مع الاعتقاد في الباطن، وهذا قليل، والكثيرُ الأول.

فإذا كان الفرق بيننا وبين أهل الكتاب يشبه الفرق بين الموحدين المخلصين العاملين بالكتاب والسنة، وبين المبتدعة الذين انحرفوا عنهما، فكيف يكون أهل الكتاب كالمشركين في حكمه تعالى؟)(١).

هكذا يؤول «الفرق الجوهري العظيم» بين المؤمن الحنيف، والكتابية المثلثة إلى ما يشبه الفرق بين الموحد المخلص العامل بالكتاب والسنة، والمبتدع الذي تجمعه مع الموحد دائرة الدين الواحد! ويقال لمن جحد نبوة محمد ﷺ: ما أنت إلا مبتدع معذور بالجهل، أو الجحود الظاهري مع سلامة اعتقادك الباطني، كما يصور «الأستاذ الإمام».

ثالثًا: التلاعب بألفاظ الدين والإيمان:

خاض دعاة التقريب من أتباع المدرسة العصرانية في إطلاق أسماء الدين والإيمان بغير نور من الله ولا برهان، فكانوا ينزعون إلى الإرجاء والتهاون وتمييع الحدود بين الكفر والإيمان، وهو أمرٌ لا يقل خطورة عن التكفير.

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. نقلاً عن: الإسلام والوحدة القومية (٦٥).

محمد عمارة[1] قال: «(... من يؤمن، كأتباع محمد، بكل ما نزَّل الله، قرآنًا فما سبقه، وبكل الرسل، منذ بدأت الرسالة، فهو «المهتدي»، ومن يترك الإيمان بشيءٍ مما سوى التوحيد والطاعة فهو في شقاق، وهو «كافر» أي «جاحد» بهذا الذي لم يؤمن به، ولكنه غير «مشرك» لأنه متدين وموحد، بل ومسلم)[2].

تُرى ما ثمرة هذا التفريق بين «الكافر» و«المشرك» في حكم الله في الدنيا والآخرة؟ وهل الشرك إلا ضربٌ من ضروب الكفر؟

لكن الكاتب، بناءً على أصله الفاسد في عدم اشتراط الإيمان بنبوة محمد ﷺ، يجعل كفر اليهود كفرًا مقيدًا بهذا الذي لم يؤمنوا به على حد تعبيره، ولا يجسر على إطلاق ما أطلقه الله من تكفيرهم مراعاة للوحدة القومية، ويخلع عليهم جزافًا ثلاثة ألقاب: «متدين» و«موحد» بل و«مسلم». والله تعالى قد كفَّر النصارى في ثلاثة مواضع صريحة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ﴾ [المائدة: ١٧، ٢٧]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وهي آخر ما نزل من سور القرآن.

رابعًا: الاعتذار عن كفر «أهل الكتاب» بالتأويلات الباطلة:

لقد حكم الله سبحانه وتعالى بكفر أهل الكتاب كفرًا عقديًّا بسبب وقوعهم في شرك الربوبية، وشرك العبادة، من بعد ما جاءهم العلم. ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

---

[1] وقد ذكر المؤلف في الأصل مثالين آخرين وهما: محمد حسين فضل الله، وعبد اللطيف غزالي.

[2] الإسلام والوحدة القومية (٦٣).

فقطع الله معاذيرهم، وأقام عليهم الحجة، وكان من آخر البينات التي أظهرها الله لهم بعثة محمد ﷺ. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهي أوصاف منطبقة غاية الانطباق على نبينا محمد ﷺ، فمن سبقت له من الله الحسنى آمن به وعزره ونصره واتبع النور الذي أنزل معه، ومن ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وكان من جملة ما كفَّرهم الله به إضافة إلى جحودهم وتكذيبهم نبيه الخاتم ﷺ النصارى خاصة ثلاث مسائل: ادعاء ألوهية المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وقولهم إن الله ثالث ثلاثة، ودعوى بنوة المسيح لله تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ولم يخامر أهل الإسلام الشك في أن ما أخبر الله به هو عين ما عليه القوم اعتقادًا وعملًا، حتى انبرى في هذه الأزمنة الأخيرة رجال من بني جلدتنا يتكلمون بألسنتنا ينافحون عنهم، ويعتذرون لهم، ويركبون الصعب والذلول للدفاع عنهم، يلوون أعناق النصوص ويتكلفون تحريفها.

محمد حسين فضل الله:

ممن تولى كبر الاعتذار لكفريات أهل الكتاب في العصر الحديث داعية التقريب بين الأديان، محمد حسين فضل الله، فنسوق جُملًا من تأويلاته:

(... إن القرآن الكريم قد تحدث عن ربوبية السيد المسيح على أساس نظرية «التجسد» أو «التجلي» أو نحو ذلك، بحيث يختزن الإنسان في وعيه صورة الله

في صورة السيد المسيح، وعدَّ ذلك كفرًا، لأنه يخالف الحقيقة التوحيدية، من وجه المفهوم القرآني الذي ينكر التجسد الإلهي، أو التجلي في بعض خلقه. وبذلك فإن هذه العقيدة تخالف بساطة المفهوم العقيدي للتوحيد، مما يجعله كفرًا فلسفيًّا في التفاصيل بلحاظ الصفات. تمامًا كما هو الرأي الكلامي أو الفقهي الذي يرى المجسمة في الدائرة الإسلامية كافرين بالمعنى العميق... وفي ضوء ذلك فإن الكفر لا يتصل بالمبدأ. تمامًا كما هي نسبة الصفة للكافرين بالله المنكرين وجوده، ولكنه كفر فلسفي أو نسبي بالمعنى الذي يفقد الإيمان بالمعنى التوحيدي في حقيقته بحسب المفهوم القرآني. وهذا هو ما توحي به كلمة الشرك في ضوء التعددية في تثليث الأقانيم على أساس لوازمها الخفية بالمعنى الفلسفي، لا بالمعنى المباشر في الطبيعة الإيمانية)⁽¹⁾.

(... المسألة التي لا بد من استيعابها: أن الإسلام لا يعد أهل الكتاب مشركين، وإنما يعدهم موحدين. وإن كانوا يفهمون التوحيد بطريقة أو بأخرى... إذ يوحدون الله، ولكنهم يعدون أن عيسى عليه السلام تجسيدٌ لله. بمعنى أن عيسى ليس شيئًا منفصلًا عن الله، بل الله أراد أن يتجسد في عيسى ليتحمل آلام البشرية)⁽²⁾.

(... إن الحوار لا بد أن يرتكز على مواجهة العقيدة المعاصرة للإسلام والمسيحية، وعلى أساس أن الكثير من مفاهيم العقيدة لكلٍّ منهما ربما تجاوزها الواقع الفكري لهذا أو ذاك، ما يجعل الدخول في مناقشتها حركة في الفراغ. كما نلاحظه في بعض الأفكار التي يثيرها القرآن في عصر النزول في مثل: «الابنية

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءة في الراهن والمستقبل. من العلاقات الإسلامية المسيحية قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (١٤٣ ١٤٤) أو: آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (١٠٠ ١٠١).

(٢) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (٦٠).

المتجسدة» أو «التثليث المادي المتعدد» أو نحو ذلك مما يقول بعض المسيحيين عنه أنه لا يمثل العقيدة المعاصرة لهم، بل يمثل لونًا من ألوان التفكير البائد لبعض فرقهم التي يرفضون خطها العقيدي، كما يرفضه المسلمون، فلا يجوز لهم أن يلزموهم به كما لو كان يمثل الحقيقة الإيمانية للمسيحية في بعدها الفكري العقدي)(١).

إن الكاتب ينطلق في الاعتذار عن كفر النصارى من منطلقات، يقوم هو بنفيها في مواضع أخرى في تناقضٍ صريح:

أولًا: يصور الكاتب أن الأساس القرآني لتكفير النصارى هو نظرية التجسد أو التجلي الإلهي في شخص المسيح، الذي لا يمثل الحقيقة الإيمانية النصرانية، وعليه فلا يجوز إلزامهم بما لا يلتزمونه، بل ويرفضونه. وفي جملة أخرى يقول: (ولكنهم أي المسيحيين يعدون أن عيسى تجسيد لله، بمعنى أن عيسى ليس شيئًا منفصلًا عن الله، بل الله أراد أن يتجسد في عيسى لتحمل آلام البشرية). ما الفرق بين ما أثبته وما نفاه يا ترى؟!

ثانيًا: ينادي الكاتب بأن يرتكز الحوار على مواجهة العقيدة المعاصرة للنصرانية دون ما تجاوزه الواقع الفكري لها، ويمثل لذلك بـ(الأفكار التي يثيرها القرآن عن التفكير النصراني في عصر النزول في مثل: «الابنية المتجسدة» أو «التثليث المادي المتعدد». ثم يعترف في موضعٍ آخر أن الوجدان الشعبي للنصارى في قضية ألوهية المسيح يختلف عن الجانب الفلسفي.

---

(١) في آفاق الحوار الإسلامي مقدمة. وقد تقدم الاستشهاد بهذا النص في أول هذا المبحث لبيان تطبيق منهج النقد التاريخي الذي ينادي به دعاة التقريب.

فأيهما يعتمد في المواجهة بوصفه عقيدة معاصرة؛ الوجدان الشعبي أو الفكر الفلسفي(١)؟

- **المحور الثاني: التطبيقات العملية في معاملة أهل الكتاب عند الإسلاميين العصرانيين:**

ظهرت الانحرافات العقدية السابقة في مرحلة الانحطاط التي منيت بها الأمة الإسلامية في أواخر القرن الهجري الثالث عشر، وخضوع الممالك الإسلامية المختلفة للغزاة النصارى المصاحب لانفراط عقد الخلافة الإسلامية العثمانية.

وقد انعكست آثار هذه الشذوذات العقدية على الواقع الميداني والتطبيق العملي في معاملة أهل الكتاب للوصول إلى صيغة فكرية واجتماعية مغايرةٍ تمامًا لما درج عليه المسلمون منذ عهد النبوة، تماشي في نظرهم متطلبات المرحلة.

والفقه الإسلامي، والسياسة الشرعية، يتسعان لمواجهة الأوضاع المختلفة لحال الأمة الإسلامية ضعفًا وقوة، دون المساس بالأصول العقدية، ومحاولة تكييفها أو تحريفها لتسويغ وضع ما، وهذا مكمن الخطر في فكر المدرسة العصرانية، فهي لا تقدم اجتهادات «مرحلية» لمعالجة أزمة طارئة، أو وضعٍ مؤقت مع إحلال الحلال وتحريم الحرام، بل تسعى لاجتثاث بعض الثوابت العقدية والتشريعية المعلومة من الدين بالضرورة. كما سنرى في الصفحات الآتية:

---

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (٦٠). راجع الأصل للمزيد من التفصيل.

أولًا: موادة أهل الكتاب وموالاتهم:

محمد عبده: تبلغ الجرأة بمحمد عبده في كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» أن يرسم العنوان الآتي: (الأصل السابع للإسلام: مودة المخالفين في العقيدة)[1]، هكذا!

سبحانك هذا بهتان عظيم! كيف وقد قال الله تعالى:

- ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والآيات والأحاديث الصحيحة في هذا المعنى كثيرة وفيرة[2]. أما هذا الأصل الفاسد الذي أصَّله محمد عبده، ونسبه إلى الإسلام، والإسلام منه براء، فلم يجد ما يستدل له سوى مسألة «حل نكاح الكتابية»، وغاية ما في الأمر من شبهة يتذرع بها، هو ما يحصل بين الزوجين من محبة وانجذاب. والجواب عن ذلك أن تلكم المحبة محبة غريزية طبعية، كمحبة الإنسان للطعام والشراب، وليس الوصف المؤثر فيها هو «المخالفة في العقيدة»، كما صور محمد عبده بقوله: «مودة المخالفين في العقيدة»، فضلًا عن أن تلك المودة توجب الآثار العملية من الموالاة والمناصرة

---

[1] الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية: محمد عبده. (٧٣).

[2] انظر في هذا: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم. لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومن الكتب الحديثة: الولاء والبراء في الإسلام ل محمد سعيد القحطاني. وانظر: مبحث (حكم بغض الكافرين) من كتاب أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، والرد على الطوائف الضالة فيه: د. علي بن نفيع العلياني. (٣٥٠-٣٦١).

كما زعم. فهو يخلط بين المحبة الطبيعية الجِبِلِّيَّة، كمحبة الزوجة والوالد والولد، والمحبة الإيمانية التي هي من أوثق عرى الإيمان، ولا يميز بينهما.

ولهذا يقول محمد عبده معلقًا علىٰ آيات الولاء: (إن بعض الجهلة المتشدقين ربما تعرض لهم الشبهة في فهم هذه الآيات... علىٰ أنه لا شبهة فيها لهؤلاء الجهلة تسوغ لهم تفسيق إخوانهم أو تكفيرهم بعد ما جاء في الآية المحكمة من قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩] [١]. وقد تقدم من كلام الإمام القرافي المالكي في الجمع بين آيات النهي عن موالاة اليهود والنصارىٰ وآيتي المجادلة ما أغنىٰ عن إعادته هنا[٢].

إن محمد عبده يقصر صور موالاة أهل الكتاب على صورة واحدة، هي نصرة غير المؤمن على المؤمن فيما هو من دينه، ويقيد البطانة المنهي عن اتخاذها من دون المؤمنين فيما كان من شأنها الخذلان وإيصال الضرر، وما لا فلا. وما كان سوى ذلك فهم «إخوان» للمسلمين، لا يجوز تفسيقهم أو تكفيرهم. ومن فعل ذلك فهو من الجهلة المتشدقين!

هذا فهم أصحاب المدرسة الإصلاحية التجديدية، فلننظر في فهم سلف الأمة؛ يقول إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: (لا تتخذوا بطانةً من دونكم) يقول: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم

---

[١] الأعمال الكاملة (٨٠٧ ٧١٤) عن: الإسلام والوحدة القومية (١٢٧ ١٢٩).

[٢] راجع مبحث: «حكم الإسلام في أهل الكتاب» من التمهيد.

من دونكم، يقول من دون أهل دينكم وملتكم، يعني من غير المؤمنين... فنهى الله المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخلاء وأصفياء، ثم عرَّفهم ما هم عليه لهم منطوون من الغش والخيانة، وبغيهم إياهم الغوائل، فحذرهم بذلك منهم عن مخالَّتهم...)(١).

هذا فهم السلف وذاك فهم الخلف، وما بين محمد بن جرير الطبري، ومحمد عبده، يتضح الفرق بين المنهجين:

- فهم السلف: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم من دون أهل دينكم وملتكم، ولا توادُّوهم.

- وفهم الخلف: لا تتخذوا مَن ناصَرَ غير المؤمنين على المؤمنين أولياء، فقط، وما سوى ذلك فإخوانكم لا يجوز تكفيرهم ولا تفسيقهم، بل إن مودتهم من أصول الإسلام.

هذا منهج القوم من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فالأمر أوسع بكثير، فهذا محمد عبده يركن إلى المستعمر الإنجليزي في مصر، ويعيش في كنف اللورد كرومر(٢)، المندوب السامي لبريطانيا في مصر، ويواليه ضد الخديوي عباس الثاني(٣) الذي كان يحاول التحرر من سلطة المحتل. وتبلغ المصافاة بين

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٦٠).

(٢) كرومر، أفلين بارينغ، ولد عام ١٨٤١م، لورد إنجليزي، شغل منصب المندوب السامي في مصر من عام ١٨٨٣م إلى ١٩٠٧م، وتوفي عام ١٩١٧م. انظر: المنجد في اللغة والأعلام (٥٨٨).

(٣) الخديوي عباس حلمي بن توفيق بن إسماعيل، حفيد محمد علي، ولد في القاهرة عام ١٢٩١هـ، وتولى الخديوية عام ١٣٠٩هـ، كان فيه دهاءٌ وذكاء ينقصه الحزم والكتمان. توفي في سويسرا عام ١٣٦٣هـ. انظر: الأعلام (٣/ ٢٦٠).

محمد عبده واللورد كرومر، حتى يقول اللورد كرومر للخديوي عباس: (إنه ما دام لبريطانيا العظمى نفوذٌ في مصر، فإن الشيخ محمد عبده يكون هو المفتي حتى يموت)⁽¹⁾. وعلى هذا المنوال نسج خريجو هذه المدرسة⁽²⁾.

ثانيًا: التنصل من أحكام أهل الذمة والاعتذار عنها:

فإذا ما انتقلنا إلى الفقه العصراني التشريعي في معاملة أهل الكتاب، وخصوصًا القاطنين اليوم بين ظهراني المسلمين، نجد محاولاتٍ تحريفية للأصول الشرعية المستقرة طوال القرون، بغرض إلغائها نظريًّا وإن كانت قد ألغيت عمليًّا منذ عقودٍ بعيدة بسبب الضعف الذي لحق بالمسلمين وإحلال صيغ مبتدعة محلها.

من نماذج ذلك⁽³⁾:

١. **سعود المولىٰ⁽⁴⁾**: قال: (إن ما يسمىٰ أحكام الذمة، والمستأمنين، والمعاهدين، كما وردت في النصوص الفقهية، فهي أحكامٌ تدبيرية اقتضاها الواقع التنظيمي الإسلامي والدولي حين كانت الدولة الإسلامية دولة جامعة. وكان هناك تطابقٌ بين مشروع الدولة وواقع الأمة... ومصطلح «أهل الذمة» أنتجه مناخ فقهي كان سائدًا في تلك المرحلة، وهو كان نتيجة لعرفٍ سائدٍ في العالم، فليس في القرآن ولا في السنة

---

(١) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٥٠١، ٥٦٤).

(٢) انظر المزيد من الأمثلة في الأصل.

(٣) انظر مزيدًا من النماذج في الأصل.

(٤) سعود نعمة المولى: ولد في بيروت سنة ١٩٥٣م، حصل على درجة الدكتوراه في علم «الاجتماع السياسي للبلدان العربية» من جامعة السربون فرنسا عام ١٩٨٤م، رئيس تحرير مجلة الغدير الصادرة عن المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان. انظر ذيل كتابه: الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة.

مصطلح أهل الذمة، بما هم جماعة سياسية تنظيمية منفصلة عن موجبات الالتزام التنظيمي في المجتمع)(١).

٢. **فهمي هويدي**: قال متحدثًا عن «أهل الذمة» تحت عنوانٍ من عناوينه الفَجَّة: (هم أصحاب حق. ولسنا أصحاب فضل!) ما يأتي: (كل هذه الآراء، سواء منها ما يتعلق بتصنيف الخلق، أو قسمة الأرض والديار، لا تستند إلىٰ نصوصٍ شرعية من كتابٍ أو سنة، وإنما هي اجتهاداتٌ طرحها الفقهاء والباحثون في ضوء قراءاتهم للواقع الذي عايشوه)(٢).

هذه مرحلة إسقاط جملة أحكام «أهل الذمة»، ونزع الصفة الشرعية الدينية عنها. فقد دأب كثيرٌ من المستشرقين وتلاميذهم على تحميل الفقهاء «وزر» أحكام أهل الذمة بعدِّها نتاج «مناخ فقهي» أو «اجتهادات فقهاء»، ونحو ذلك(٣).

ولفظ «الذمة» ليس موجودًا في القرآن، ولكن أحكام الذمة موجودة قطعًا. وأما السنة، فيقول ابن الأثير(٤) رحمه الله: (قد تكرر في الحديث ذكر «الذمة» و«الذِّمام» وهما بمعنى العهد، والأمان، والضمان، والحرمة، والحق. وسمي أهل الذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم)(٥). ومن شواهد ذلك:

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة (١٩٨).

(٢) مجلة العربي الكويتية عدد (١٦٩) (٤١).

(٣) انظر: الجزية والإسلام دانييل دينيت. ترجمة د. فوزي فهيم جاد الله، أهل الذمة في الإسلام د.ا.س.ترتون. ترجمة د. حسن حبشي، أحوال النصارى في خلافة بني العباس جان موريس فييه. ترجمة حسني زيني، (انظر: عرضًا له في مجلة الاجتهاد (٢٨/ ٢١٣ ٢٣٠) مراجعة: عائدة مازح.

(٤) المبارك بن محمد بن محمد الجزري، أبو السعادات، ولد سنة ٥٤٤هـ، مات سنة ٦٠٦هـ. وفيات الأعيان (١/ ٤٤١) طبقات الشافعية (٥/ ١٥٣).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٦٨).

ما رواه مسلم وغيره في وصية رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيشٍ أو سرية، وفيه: «وإذا حاصرت أهل حصنٍ فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله...»(١).

- وما رواه البخاري وأحمد من وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد طعنه: «أوصيكم بذمة الله، فإنهم ذمة نبيكم»(٢).

فأصول أحكام أهل الذمة، وتصنيفهم، ثابتة بالكتاب والسنة، وهدي الخلفاء الراشدين المهديين، لا سيما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي اتسعت في عهده الفتوحات.

وإنما يقع الاجتهاد من الفقهاء والولاة بحسب ما يقتضيه المقام والحال والسياسة الشرعية للدولة الإسلامية، في حدود الأصول الشرعية، لا الأعراف الدولية، كما زعم سعود المولى، ولا طروحات الفقهاء والباحثين، كما زعم فهمي هويدي. وقد يتعذر تطبيق أحكام أهل الذمة كما في زمننا هذا، لكن هذا لا يعود على أصلها بالإبطال، كما يحاول أهل العصرنة.

ثالثًا- المناداة بـ«الرابطة الوطنية» و«الحرية الدينية»، وإنكار تميز المسلمين:

لكن دعاة العصرانية، والتقريب، وإزالة الفوارق بين المؤمنين والكافرين، لا يكتفون بهذا الخضوع والتساهل، إنهم يريدونها خليطًا ممتزجًا، (بعضهم من بعض) لا (بعضهم أولياء بعض)، ولذلك يجاهرون بكل قحة بالمساواة بين

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٣٧٥ ١٣٥٨).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ٦٤).

المسلم وغير المسلم، وإنكار تميز المؤمنين وخيريتهم، كما في النقول الآتية(١):

فهمي هويدي: قال: (ليس صحيحًا أن المسلمين في هذه الدنيا صنفٌ متميز ومتفوق من البشر لمجرد كونهم مسلمين. وليس صحيحًا أن الإسلام يعطي أفضلية للمسلمين، ويخص الآخرين بالدونية. وليس صحيحًا أن ما كتبه أكثر الفقهاء في هذا الصدد هو دينٌ ملزم، وحجج لا ترد، إنما هو اجتهاد يصيب ويخطئ.

إن دعاوى التميز على الآخرين، وتكريس هذا التميز من جانب أكثر الفقهاء، إنما تستخدم لغةً ليست مقبولة دينًا، فضلًا عن أنها لغة باتت محل إدانة هذا العصر... إن خصومته مع الآخرين، بسبب من توهم التميز أو الفوقية، فهو ما لا يمكن فهمه ولا قبوله بأي حالٍ ولا بأي معيار)(٢).

الكاتب هنا ينقض أصلًا عقديًا عامًّا في خيرية هذه الأمة، وتميزها على سائر الأمم، بجراءة منقطعة النظير، تحمل عبارة (ليس صحيحًا)! ونقول لهذا المتجرئ: فما تصنع بقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله ﷺ فيما رواه مسلم: (إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، ما أنتم في سواكم من الأمم إلا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»(٣).

ألا يكفي «الإيمان» الصحيح، و«العقيدة» النقية معيارًا للتميز؟!

---

(١) انظر مزيدًا من النماذج في الأصل.

(٢) المسلمون والآخرون. أشواك وعقد على الطريق. مجلة العربي عدد (٢٦٧) (٤٩).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٢٠١).

ويجيب الكاتب بما يكشف عن معيار التميز والتفوق في نظره، ونظر أمثاله، من خلال القصة المتكلفة الآتية: «لقد سمعت واحدًا من خطباء الجمعة، اعتلى المنبر ليحدثنا في أن المسلمين «خير أمة أخرجت للناس». وذهب به الحماس حدًّا دفعه إلى أن يسفه غير المسلمين جميعًا، ويتهمهم بمختلف النواقص والمثالب، ثم يدعو الله في الختام وحوله مئات من المصلين يؤمنون أن يدك بيوتهم، ويزلزل عروشهم، ويفرق شملهم، ويهلك نسلهم وحرثهم!

كنت جالسًا في الصف الأول، في مسجدٍ فرش بسجادٍ مصنوعٍ في ألمانيا الغربية، وترطب حرارته مكيفات أمريكية، وتضيئه لمبات «تونجسرام» الهنغارية، في حين كلمات الخطيب تجلجل في المكان عبر مكبر للصوت هولندي الصنع. وعندما هبط شيخنا ليؤمنا في الصلاة، تفرست في طلعته جيدًا، لأجد أن عباءته من القماش الإنجليزي، وجلبابه من الحرير الياباني، وساعته «زودياك» السويسرية، وقد وضع إلى جوار المنبر حذاءً إيطاليًّا لامع السواد»⁽¹⁾.

هذا هو معيار الخيرية والتفاضل بين الأمم عند هؤلاء العصرانيين، المعيار المادي الدنيوي، وليس الإيمان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما أخبر الله تعالى.

إن هذا المسلك الذي يسلكه إسلاميون عصريون، باسم تجديد الدين، أشد خطورة على الأمة من مسلك بعض الكتاب الليبراليين -المتحررين الذين يهاجمون الدين صراحة، وينتقدون بعض جوانبه علنًا، من جهة أن الاغترار بالصنف الأول أكبر، لما يمارسه من تلبيس وحجب للحقائق على العامة، تلطفًا في الوصول إلى مقاصده.

---

(١) المسلمون والآخرون. أشواك وعقد على الطريق. مجلة العربي عدد (٢٦٧) (٤٩).

أما بالنسبة للتصور الإسلامي الأصيل للقضية فلا إشكال البتة.

فأهل الذمة في المجتمع الإسلامي ليس لهم حق التحزب السياسي، أو التكتل الاجتماعي، أو التظاهر العقائدي في دار الإسلام. بل هم مشمولون بالمظلة العامة لإمام المسلمين، مكفولون من النواحي الاجتماعية بما يحفظ لهم الخدمات الحيوية كسائر المسلمين، ممكنون من العمل والاتجار والتنقل حيث شاؤوا من دار الإسلام باستثناء مكة ومناطق أخرى مختلف فيها⁽¹⁾، محميون من العدوان الداخلي والخارجي بضمانات دينية عليا؛ ذمة الله وذمة نبيه ﷺ، وليست ضمانات مدنية أو خلقية فحسب. ومع ذلك كله فهم في نظر أهل الإسلام كفار مشركون. ولا غرابة فهم يعتقدون أن المسلمين كذلك، ولولا ذلك لاتبعوهم، فممَّ الجزع؟

إننا ابتداءً لا نسلم بهذا التعبير «الحرية الدينية»، ولا نعده مصطلحًا شرعيًّا، بل هو تعبير وافد من بلاد الغرب له مدلولاته ومقتضياته الخاصة. والقاعدة الشرعية المقابلة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ولكن هذا المصطلح العصري «الحرية الدينية» أوهم بعض الناس أن الإسلام يبيح سائر أنواع الممارسات الدينية التي تروق لصاحبها، وحرية التنقل بين الأديان كيفما شاء، ولم يقل بذلك أحدٌ من علماء الإسلام، ومن ثم استشكلوا حد الردة ورأوا فيه مصادمة للحرية الدينية، وحرية الضمير كما يعبرون.

وقد ذكر القرطبي⁽²⁾ رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾

---

(١) انظر: مبحث «حكم الإسلام في أهل الكتاب» من التمهيد.

(٢) محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الأندلسي، أبو عبد الله القرطبي، من كبار المفسرين، من أهل قرطبة، ورحل إلى المشرق واستقر بمصر وتوفي فيها سنة ٦٧١هـ. نفح الطيب (١/ ٤٢٨)، الديباج (٣١٧).

[البقرة: ٢٥٦]، ستة أقوال لأهل العلم ليس فيها قولٌ بالعموم⁽¹⁾.

وقال إمام المفسرين ابن جرير الطبري: (وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآية في خاصٍّ من الناس، وقال: عني بقوله تعالى ذكره: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ أهل الكتابين والمجوس، وكل من جاء إقراره على دينه المخالف دين الحق، وأخذ الجزية منه، وأنكروا أن يكون شيءٌ منها منسوخًا... ثم وجه ترجيحه:

إن الناسخ غير كائنٍ ناسخًا إلا ما نفى حكم المنسوخ، فلم يجُز اجتماعهما. فأما ما كان ظاهره العموم من الأمر والنهي، وباطنه الخصوص، فهو من الناسخ والمنسوخ بمعزل، وإذا كان ذلك كذلك، وكان غير مستحيل أن يقال: لا إكراه لأحدٍ ممن أخذت منه الجزية في الدين، ولم يكن في الآية دليل على أن تأويلها بخلاف ذلك، وكان المسلمون جميعًا قد نقلوا عن نبيهم ﷺ أنه أكره على الإسلام قومًا، فأبى أن يقبل منهم إلا الإسلام، وحكم بقتلهم إن امتنعوا منه، وذلك كعبدة الأوثان من مشركي العرب، وكالمرتد عن دينه، دين الحق إلى الكفر، ومن أشبههم، وأنه ترك إكراه آخرين على الإسلام بقبوله الجزية منه، وإقراره على دينه الباطل، وذلك كأهل الكتابين، ومن أشبههم، كان بينًا بذلك أن معنى قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ إنما هو لا إكراه في الدين لأحدٍ ممن حل قبول الجزية منه بأدائه الجزية، ولا معنى لقول من زعم أن الآية منسوخة الحكم بالإذن بالمحاربة)⁽²⁾.

فتبين أن معنى الآية لا يتناول المرتد أصلًا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٨٠ ٢٨١).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ١٧).

• المحور الثالث: مفهوم «التقريب» ومنهجيته عند الإسلاميين العصرانيين:

إن ما مضى من بيان الموقف العقدي للعصرانيين تجاه أهل الكتاب، وما تلاه من بيان الموقف العملي التطبيقي، في حسبانهم والمسلمين على حدٍّ سواء، واستهجانهم الأحكام الشرعية المتعلقة بأهل الذمة، ينبئُ عن تطلعات هؤلاء، وما تستشرفه نفوسهم من وراء قضية التقريب، والحوار بين الأديان.

ونلحظ بادئ ذي بدء، أن القوم يهجرون المصطلح الشرعي للقرآن في شأن دعوة أهل الكتاب، كما ورد في الآية: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ويستعيضون عن لفظ «المجادلة بالتي هي أحسن» بألفاظٍ واصطلاحات مولدة مثل: «التقريب» و«الحوار».

وكما هجروا المصطلح الشرعي، هجروا المنهج الشرعي، وسنكشف عن مفهوم التقريب ومنهجيته في نظر هؤلاء العصرانيين من خلال معالجتهم لهذه القضية.

أولًا: الغلو في تمجيد الحوار:

وثم بعض الشواهد:

د. يوسف القرضاوي: قال: (... إذا نظرنا إلى القرآن الكريم نجد أنه كتاب حوار من الطراز الأول. وقد حاور الأنبياء أقوامهم، وذكر أمثلة، ومن أعجب الحوارات في القرآن الكريم، حوار الله تعالى مع بعض خلقه في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، وحوار الله تعالى مع أعدى أعدائه، وأبغض خلقه، وهو الشيطان

الذي لعنه الله. لذلك لا عجب في أن نقتدي بالقرآن الكريم، في أن نتحاور مع من خالفنا)(١).

ولا شك أنه كما قيل: (لا مشاحة في الاصطلاح) إلا في الألفاظ الشرعية فإنها ذات دلالات خاصة، وحتى إذا عدل عنها إلى غيرها فيجب أن تكون مقرونةً بما يعين المراد، ويقطع اللبس. فلو ساغ لنا أن نعبر بالحوار، فيجب أن نضمنه معنى الدعوة وإقامة الحجة، وقطع الشبهة، وألَّا نطلق أعِنَّة الكلام تجري في مسارح الأفكار المتباينة، والمفاهيم المختلفة.

والنتيجة الحاصلة لهذا اللون من التمجيد لمشروع «الحوار»، أن تحول «الحوار» إلى غاية بحد ذاته، وليس وسيلة إلى غاية، كما وصفه د. يوسف الحسن في كتابه «الحوار الإسلامي المسيحي: الفرص والتحديات»، المطبوع عام ١٩٩٧م، بأنه (أحد مقاصد الشرع الكبرى(٢)).

كما أن هذا المديح المطلق للحوار، من حيث هو حوار، يجعله «طُعمًا» لاصطياد ذوي النوايا الحسنة، والحماس العاطفي، ويستدرجهم للولوج في هذا الدهليز المضيء أوله، المظلم آخره.

ثانيًا: تضخيم أهمية (معرفة الآخر):

دأب دعاة التقارب من العصريين على الطرق على هذا الوتر، بفرض أن «المعرفة» قيمة محترمة، ولا يجرؤ أحدٌ على رفضها، فرددوا كلمات دعاة التقارب من النصارى بالتعرف على الآخر كما هو وكما يريد أن يعرف، ومن شواهد ذلك(٣):

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي، محاضرة منشورة في مجلة المسلم المعاصر عدد ٨٦. (١٤٤).

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات (١١، ١٢).

(٣) انظر الأصل للمزيد من الشواهد.

١. د. مصطفىٰ عثمان إسماعيل(١): قال: (إخوة الإيمان... إن هذا اللقاء يسعىٰ لتأسيس حوار حقيقي بين الإسلام والمسيحية، يبدؤه الطرفان، وكل منهما مقتنع ومستعد أن يتعلم شيئًا من الآخر، ليس فقط حديث عن التسامح، وتبادل مهذب لوجهات النظر، وهذا بالضرورة يدعو كلًّا منا لمعرفة ديانة الآخر)(٢).

٢. محمد حسين فضل الله: يقول: (وقد يكون من الضروري في هذا الاتجاه، أن ينشأ في الدائرة الثقافية الإسلامية أو المسيحية برنامجٌ علميٌّ فكري للدراسات المشتركة التي تمنح كل فريق معرفة أصول فكر الفريق الآخر وفروعه. وذلك من خلال المصادر التي يرتضيها حتىٰ يحتفظ للفكرة بنقائها، وبأصالتها في الجانب الآخر... وباعتبار أن الناس قد يتصورون مفاهيمهم بطريقة مختلفة عن التصور الفكري للمفردات المرتبطة بالمضمون الانتمائي له)(٣).

هل المسلمون في شكٍّ من معرفة أصول فكر الفريق الآخر وفروعه، بعد أن جلاها القرآن الكريم والسنة الصحيحة؟

وهل من شرط نقاء الفكرة وأصالتها أن يتلقاها المسلمون من المصادر التي يرتضيها النصارىٰ(٤)؟ وهل سيقبل النصارىٰ بالمصادر التي يرتضيها المسلمون لدينهم؟

---

(١) الأمين العام لمجلس الصداقة الشعبية العالمية، ورئيس اللجنة التحضيرية لمؤتمر حوار الأديان، المنعقد في الخرطوم في أكتوبر عام ١٩٩٤م، ووزير الخارجية لاحقًا.

(٢) من كلمة اللجنة التحضيرية لمؤتمر الحوار بين الأديان: د. مصطفى عثمان إسماعيل. المنعقد في الخرطوم عام ١٩٩٤م.

(٣) العلاقات الإسلامية المسيحية. قراءة إسلامية في الراهن والمستقبل. من: العلاقات الإسلامية المسيحية قراءات مرجعية في التاريخ الحاضر والمستقبل. (٣٤).

(٤) راجع في مبحث «حكم الإسلام في أهل الكتاب»: (الحذر من كتبهم ومروياتهم).

ويقول أيضًا: (إننا نعتقد أن من الضروري العمل على إدارة الحوار في المسألة اللاهوتية على مستوى دراسة كل المفردات التي يختلف فيها أحدهما عن الآخر، ومحاولة كل منهما التعمق فيما لديهما من المصادر الثقافية الأصيلة، من الكتب المقدسة، والتراث الفكري، للدخول في عملية مقارنة فيما يلتقيان فيه، وحوار فيما يختلفان فيه)(١).

إن الحوار بهذا المضمون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، وليس من علوم أهل الإسلام، ولا من مناهجهم في إبلاغ دين الله، بل هو ضربٌ من الزندقة والتلفيق، وإقرار الكافر على كفره، دون دعوته والإنكار عليه.

ثالثًا: تحريف معنىٰ الدعوة إلىٰ «كلمة سواء» عن مدلولها العقدي إلىٰ مضامين أخرىٰ:

إن الأصل في باب مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، هو آية آل عمران: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها: (قل يا محمد لأهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل: تعالوا: هلموا إلى كلمة سواء، يعني إلى كلمة عدلٍ بيننا وبينكم، والكلمة العدل: هي أن نوحد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبودٍ سواه، فلا نشرك به شيئًا.. ولا يدين بعضنا لبعضٍ بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله، ويعظمه بالسجود له كما يسجد لربه)(٢).

---

(١) من مقدمة كتابه: في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي. «غير مرقمة بأعداد أو حروف».

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٣٠١ ٣٠٢).

ولكن الذين في قلوبهم زيغ يحرفون الكلم عن مواضعه، ويخرجون النص عن مقاصده، ويزعمون معاني مدعاة ليست مراد الله في هذه الآية. فقد عطلوا النص أولًا عن دلالته الصحيحة، وحرفوه ثانيًا إلى دلالات مزعومة.

وأولى صور التحريف لمعنى الآية المحكمة: الإيهام أن الكلمة السواء هي القدر الجامع المشترك، المتحقق وجوده فعلًا، لا أنه يُطلب الالتقاء عليه، كما هو صريح النداء والدعوة في قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾، فيفسرون «سواء»: أي نحن وإياكم متساوون في هذه القضايا، لا فرق بيننا وبينكم! ومن شواهد ذلك(١) ما تقدم به د. **حسن الترابي**(٢) من مشروع علمي لم تتفتق عنه أفكار الأولين، مؤسسٍ على تحريفٍ جديد لمعنى «الكلمة السواء» فيقول:

(... هذه هي دعوتنا اليوم: أن نقيم جبهة «أهل الكتاب». والكتاب عندما يطلق في القرآن يقصد به كل كتابٍ جاء من عند الله. وميثاق هذه الجبهة: ألا نعبد إلا الله، ولا يتخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله(٣). ونفهم من ذلك: ألا نقبل أي فكرٍ وضعي ينقض الهدي الإلهي، وألَّا نقبل الدعوات اللادينية التي ترمي إلى هدم المُثل والأخلاق الدينية...

---

(١) انظر الأصل للمزيد من الشواهد.

(٢) ولد في السودان عام ١٩٣٢م. تخرج من جامعة الخرطوم عام ١٩٥٥م، نال شهادة الماجستير في القانون في لندن عام ١٩٥٧م، والدكتوراه من السربون عام ١٩٦٤م. انخرط في العمل السياسي منذ نهاية الستينيات. أسس الجبهة الإسلامية القومية التي حكمت السودان. تولى منصب الأمين العام للمؤتمر الشعبي العربي الإسلامي. حوارات في الإسلام الديموقراطية، الدولة، الغرب (١٩) بقلم بشير نافع.

(٣) لا أدري لم أسقط الجملة القرآنية ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ من سياق الآية هل كان ذلك سهوًا، أم أنها لا تتفق وميثاق جبهة أهل الكتاب المقترح؟

ونحن اليوم مواجهون بتحدي الدفاع عن أصل التدين في الأرض. وهذا التحديث ينبغي أن يدفعنا نحو تجاوز الشكوك والتوجسات، لنتعاون على البر المشترك بين الأديان، ولنبدأ صفحة جديدة من الحوار الذي يُحْيِي مثالًا دينيًّا في كيفية التعامل مع الآخر بالبر والحسنى. فقد ظلت الأمراض ملازمة لحركة المتدينين، تعيبهم بالعجز عن الحوار مع الآخر، والعجز عن التعايش مع الآخر)(١).

- **ونعقب على هذا الكلام بما يأتي:**

١. لأوَّل مرةٍ في تاريخ المسلمين يُحشر المسلمون مع اليهود والنصارىٰ تحت مسمىٰ أهل الكتاب. وقد علم القاصي والداني، والصغير والكبير، أن مصطلح أهل الكتاب يستعمل في الكتاب والسنة باطراد، ويراد به اليهود والنصارىٰ، بل كان ذلك مستقرًّا حتىٰ عند المشركين، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٦]، وليس كما أوهم الترابي، أن الكتاب عندما يطلق في القرآن يقصد به كل كتابٍ جاء من عند الله، إذ الحديث عن مصطلح «أهل الكتاب» وليس عن كلمة «الكتاب»(٢). وإنما يخاطب الله أتباع نبيه محمد ﷺ بقوله: (يا أيها الذين آمنوا)، ولا يشك أحد أن قوله: (يا أهل الكتاب) لا يتناول المسلمين.

٢. حول مفهوم «التدين» الذي يتمسح به الدكتور الترابي، ويراه جامعًا مشتركًا لجبهة أهل الكتاب، هل يعتقد أن أهل الكتاب علىٰ دينٍ حقٍّ، وأن ما يمارسون من شركيات تديُّن لله ربِّ العالمين؟

---

(١) الحوار بين الأديان، التحديات والآفاق (٥).

(٢) على أن كلمة «كتاب» ترد في القرآن باستعمالات شتى مثل: القَدَر، واللوح المحفوظ، والأجل... إلخ، انظر: مادة (كتاب) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٥٩٢ ٥٩٥).

نعلم أنَّ أهل الكتاب خيرٌ من سائر أصناف الوثنيين، ولكن هذا لا ينقلهم أيضًا إلى دائرة المؤمنين، ولا يدفعنا -كما قال الترابي- (نحو تجاوز الشكوك والتوجسات لنتعاون على البر المشترك بين الأديان)، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ألا يوجب ذلك ما هو أعظم من الشك والتوجس؟

٣. يتطبب الدكتور الترابي، ويشخص أمراض المتدينين، فيجد من بينها العجز عن الحوار مع الآخر والتعايش مع الآخر. وهي كلمات مجملة تثير التساؤلات، فهل يدخل في هؤلاء «المرضىٰ» رسول الله ﷺ وصحابته الكرام وسلف هذه الأمة؟ أم هو عموم أريد به الخصوص؟ نرجو ذلك. وماذا يعني «الحوار» و«التعايش» الذي عيب أولئك المتدينون بالعجز عنه؟ أهو من قبيل: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وإلغاء الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا. فهنيئًا لهم ما عيبوا به.

إن العقيدة الإسلامية، والشريعة الإسلامية، تملكان من فرص التواصل مع البشرية، وآفاق التعاون، ما لا تملكه أيديولوجية أخرى، ولكن وفق معاييرهما لا معايير الآخرين. إن الإسلام انفتاح واتصال وحركة دؤوب، وهو أبعد ما يكون عن الانغلاق والانكفاء والعنصرية. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولكن لِنَأْتِ البيوت من أبوابها، ولنفتح القلوب بمفاتيحها.

ولكن دعاة التقريب بين الأديان يصرون في مشروعهم البدعي على تنحية أخص أوصاف أطراف الحوار، وهو «الصفة الدينية»، فيكاد ينعقد إجماعهم على تنحية «الحوار الديني» وإحلال البدائل المعاشية الدنيوية محله، وتلك لعمر الله ليست سبيل المؤمنين. ومن شواهد ذلك(١):

سعود المولى: حين يشرح فكرة مشروع الحلف الإبراهيمي المذكور آنفًا ويبين موقع «النظرية الدينية» و«الحوار الديني» في ذلك المشروع قائلًا: (إن الانطلاق من النظرية الدينية، ومن الأصول الكبرى للتوحيد الإبراهيمي لصوغ مشروع حضاري جديد، هو الذي يسمح للحوار أن يكون ولودًا خلاقًا، فيستنطق الخبرات والتجارب، ويضع التفكير الديني في سياقٍ مجتمعي تعددي. ويعيد اكتشاف القيم والمبادئ الروحية والأخلاقية المشتركة، داخل خبرة وتراث الجميع، ومن أجل الجميع... إن الدين وقيمه ومبادئه يصبح منطلقًا للحوار، لا موضوعًا له)(٢).

وفي موضعٍ آخر: (إن المطلوب من الحوار هو توليد قيمة جديدة نابعة من الإيمان الديني الإبراهيمي، واكتشاف المساحات المشتركة التي توحد بين الدينين في قضايا الإنسان والمجتمع. فيكون الدين في نطاق الأصول الإيمانية المشتركة منطلقًا للحوار، لا موضوعًا له، ويكون الحوار هادفًا لاستنباط صيغٍ جديدة في الإدارة والتنظيم السياسي والمجتمعي، ووسائل جديدة في الثقافة والاقتصاد والإنتاج، تجعل الإنسان يحتفظ برقيه المادي، ويستعيد في الوقت نفسه ذاته وإنسانيته)(٣).

---

(١) انظر الأصل للمزيد من الشواهد.

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة (٤٥).

(٣) المرجع السابق (٢١١).

إن دور الدين في مشروعهم دورٌ صوري، وهو ليس مادة للحوار ولا موضوعًا له، بل مجرد لافتة فارغة تمارس باسمها المناشط الحياتية المادية في الإدارة والتنظيم والاقتصاد والإنتاج. أما «التفكير الديني» فسيحشر في سياق مجتمعي تعددي.

لِمَ لا يمارس هؤلاء ما تصبو إليه نفوسهم وتطلعاتهم المادية بعيدًا عن مظلة التقريب بين الأديان، حيث كل شيءٍ يناقش ويبحث، سوى الدين ذاته؟!

إن استبعاد الحوار العقدي هاجس حاضر لدى دعاة التقريب، مع أن المسلمين هم أسعد الأطراف بنتائجه، فأي ديانة تستطيع أن تصمد اليوم أمام صلابة العقيدة الإسلامية وعمقها وشمولها وتوازنها، وكل ما سواها فخليطٌ من المتناقضات والخرافات والفلسفات الباهتة. ودعاة التقريب من العصرانيين أو بعضهم يدركون هذا، ولكنهم لا يريدون نقل الحوار إلى هذه الأصعدة مداهنة لأهل الكتاب الذين يرونهم يمسكون بزمام الحضارة المادية اليوم.

فمما يؤسف له أن يصدر هذا الاحتراز، استبعاد الحوار العقدي، من الدوائر الإسلامية، أو التي تدعي تمثيل الإسلام، ولا يصدر مثله أو قريبًا منه من الطرف الآخر. إن هذا يحمل في طياته مغمزًا لهذا الدين، وحاشاه، الذي يحرص دعاة التقريب من المنتسبين إليه على مواراة هذا الجانب العظيم منه.

ومن هذا العرض يتكشف مفهوم الحوار لدى العصرانيين؛ هدفه، ومهمة المتحاورين، ومادة الحوار:

- فالحوار أولًا ليس وسيلة للدعوة إلى الدين الحق، وكشف الشبهات، وإقامة الحجة.

- أما مهمة المتحاورين فليست (نشر المعرفة الدينية المتمحورة حول الحقيقة المطلقة للدين)، بل قد أحضروا لكي (يبقوا الحوار بعيدًا عن الأمور الجوهرية التي تمس الحقيقة الدينية التي يعتقدونها).

- أما مادة الحوار الجدي فتنحصر بالشؤون التي تعد معرفتها نسبية، وهي مجمل المعرفة البشرية، سوى الحقائق الدينية.

إن دعاة التقريب يرون في الحقيقة الدينية الصادقة، المؤسسة على التوحيد الخالص، والاتباع المحض الذي لا تشوبه شائبة البدع، يرون في ذلك «عائقًا» أمام طروحاتهم الليبرالية المتحللة، و«سدًّا منيعًا» في وجه إذابة التميز الحقيقي للأمة أمام تيارات التغريب والمسخ العلماني. فمن ثم يؤطرون مشاريعهم الاندماجية مع الأعداء الدائمين للأمة الإسلامية بإطار الدين، مدركين بعمق أن الحقيقة الدينية عميقةٌ لا يمكن اجتثاثها، شاهقة لا يمكن القفز من فوقها، صلبة لا يمكن اختراقها.

يقول كامل الشريف: (بالرغم من اقتناعي بوجوب الابتعاد عن الجدل الديني، وخصوصًا في اللقاءات المعلنة في هذه المرحلة، إلا إنني أرى تشجيع حركة الكتابة والتأليف التي تتجه للبحث في القواعد المشتركة للديانتين، أو تعمل على تحقيق الاعتراف المتبادل بينهما، وتبني نشر ما يصدر عنها من إنتاج)(١).

إن هذا المنهج ليس منهجًا شرعيًّا، ولا يندرج تحت مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، لأنه لا يستهدف أصلًا دعوتهم إلى الإسلام، بل يستهدف مجرد

---

(١) مستقبل الحوار الإسلامي المسيحي على ضوء التجارب السابقة (٤٠). العدد (١١٥) رجب (١٤٠٨هـ) آذار (١٩٨٨م).

التقريب، وإقرار الغير على كفره وباطله، وعدم النكير عليه، بل الاعتراف به، وتبني ما يصدر من إنتاجه، فأين هذا من منهج القرآن، وهدي نبي الإسلام ﷺ؟!

بل إن هذا المنهج لا يتفق وفلسفة الحوار التي يتغنون بأنها تقوم على عنصر التنوع والاختلاف، وإلا لما كان للحوار مسوغٌ أصلًا. فتصبح تلك المداولات التي تلهث في إبراز نقاط التشابه، وطمس نقاط الخلاف، مجرد صدى ورجع الصدى فحسب.

رابعًا: الدعوة إلىٰ إيقاف الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ:

إن من لازم حرف مسار العلاقة بأهل الكتاب عن الجانب العقدي، وإشغالها بأمور جانبية، ومسائل ثانوية، الزهد بأمر الدعوة إلى الله، بل السعي نحو إيقافها وتجميدها، باعتبارها لا تتفق ونزاهة الحوار. وقد صرح بإبطال هذا الأصل العظيم بعض دعاة الحوار والتقريب(١):

يقول د. يوسف الحسن: (إن الحوار الذي نفهم ليس دعوة مبطنةً. فمن التزم الحوار وقبله نهجًا، يكف عن الدعوة والتبشير في الوقت الذي فيه يحاور. فالحوار الذي نقصد، له مصالح أخرى مشتركة، لا يدخل التبشير أو الدعوة ضمنها)(٢).

بمثل هذه الصراحة المخزية ينحط دعاة التقريب المفتونون بالحوار إلى هذه الدركات، ويهدرون مقاصد الشرع، ومنهج الأنبياء في سبيل مصالح موهومة. فما تلك المصالح التي تفوق مصلحة تعبيد الناس لرب العالمين، وغاية سعي الأنبياء والعلماء والدعاة والمجاهدين، وسر خيرية هذه الأمة؟ لا شك أنها كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

---

(١) انظر الأصل فقد ذكر المؤلف عدة نماذج لمقولاتهم.

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات (١٢).

ويقول: (في إطار المنطلق الإسلامي إلى هذا الحوار، نجد من الضروري توضيح مدى ما تتيحه العقيدة الإسلامية من أساسٍ قوي للحوار مع الأديان، حيث تعد «أن الاختلاف بين الناس هو إحدى سنن الله في خلقه، وهو واقعٌ بمشيئته سبحانه»(١).

إن هذه النصوص وأمثالها التي تؤكد مشيئة الله، وسابق قدره في خلقه، تساق لا في مقام تلمس الحكمة الإلهية من تنوع البشرية، واختلاف مشاربها، واستجلاء آثار معاني أسماء الله وصفاته وأفعاله في خلقه، حين يتأملها المؤمن بعين القدر، ولكنها تأتي في سياق تأنيس الحوار، وتلطيف بشاعة التقريب بين الأديان، ثم تُشهر سيفًا مصلتًا في وجه الدعوة إلى الله تعالى، والسعي لنشر دينه، واستنقاذ الخلق من الظلمات إلى النور، حتى أصبحت هذه النزعة معلمًا من معالم الفكر العصراني في قضية التقريب بين الأديان.

خامسًا: الدعوة إلى الانخراط في العالم الغربي، والأخذ بثقافته:

هذه نهاية الدهليز المظلم، وربما قصر بعض دعاة التقارب والحوار دونها، ولكن طائفة من المفكرين الليبراليين، درجوا على الافتتان بالحضارة الغربية المعاصرة ونتاجها الفكري والعلمي، يعلنونها صريحة مدوية، أن الحل هناك، فَوَلَّوا وجوههم شطر مغيب الشمس، ودعوا الأمة إلى اللحاق بهم، والانخلاع من جذورهم، بكل جرأة. فلنستمع إذًا:

الفضل شَلَق(٢): قال: (لكي يدخل العرب والمسلمون في حوار مع الغرب المسيحي، يجب عليهم أن يأخذوا بخياراتٍ ثقافية ومصيرية غير تلك المطروحة

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات (٤٢).

(٢) انظر الأصل للمزيد من النماذج.

راهنًا، أو التي طرحوها على أنفسهم خلال العقود الماضية من السنين... إن علينا أن نعترف بالأمر الواقع، ونعمل كي نتجاوزه. ولن يكون هذا التجاوز ممكنًا دون الأخذ بثقافة الغرب، والانخراط بالعالم، والعمل في الوقت نفسه لتجاوز هذه الثقافة، ولتجاوز ثقافتنا الموروثة، كي نصل إلى ثقافةٍ جديدة لعالمٍ جديد، يكون الإنسان محوره وهدفه ومبتغاه... إن دمج العالم في ذاتنا، هو الوجه الآخر لانخراطنا في العالم، واندماجنا فيه دون الخوف من ضياع الهوية أو التراث... ومن غير الممكن الدخول في حوار مثمر يصل إلى نتائج إيجابية إلا إذا أبدى كلٌّ من الطرفين المسيحي والإسلامي، الغربي والشرقي، الاستعداد لبعض التنازلات)(١).

هذه نهاية المطاف في دعوة التقريب والحوار... تكشف عن تقريب باتجاهٍ واحد. إنه تقريب المسلمين إلى النصارى ليصبحوا ذيلًا لهم، منخرطين في ثقافتهم، مقتنعين أنه لا سبيل للخروج من مأزقهم إلا بتسليم قيادهم لهم. إننا أمام فكرٍ موحش غريب، فكرٍ لا يرعى إلًّا ولا ذمة، ولا يتورع عن تحطيم الثوابت العقدية والحضارية للأمة الإسلامية، ويزفها أسيرة ذليلة لعلوج الروم.

---

(١) مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١٠ ١١).

الفصل الرابع

بواعث الدعوة إلى التقريب بين الأديان

تضمن الحديث عن مفهوم التقريب لدى دعاته من سائر الأديان بعض الإشارات إلى الأهداف المعلنة، والبواعث الخفية المتصلة بدعوة التقريب. ذلك أن الوحدة الموضوعية لقضية ما تأبى فصل حقيقة الشيء عن هدفه وباعثه. إلا إننا نسعى في هذا الفصل إلى محاولة تحديد البواعث الحقيقية، والدوافع المحركة المستترة خلف الأهداف المعلنة من قبل أطراف التقارب.

ونظرًا لوجود تمايزٍ في تلك البواعث فسنلجأ أيضًا إلى تقسيمها إلى عدة مباحث:

١ - المبحث الأول: بواعث التقريب لدى النصارى الغربيين.

٢ - المبحث الثاني: بواعث التقريب لدى النصارى العرب.

٣ - المبحث الثالث: بواعث التقريب لدى اليهود.

٤ - المبحث الرابع: بواعث التقريب لدى الإسلاميين العصرانيين.

المبحث الأول

بواعث التقريب لدى النصارى الغربيين

في مقام الحديث عن البواعث لا تظهر الحاجة إلى التمييز بين الكنيسة الكاثوليكية من جهة، والكنائس البروتستانتية والإنجليكانية.

ويمكن أن نميز البواعث الآتية الكامنة خلف دعوة التقريب في العصر الحديث لدى النصارى الغربيين:

- **الباعث العالمي:**

ونقصد به الوضع العالمي المتغير، الذي اتسم بالانفتاح بين أمم الأرض، واحتكاك الأديان والثقافات المتنوعة، وسيادة الأفكار العلمانية والتحررية العقلانية، لقد كانت الكنيسة تضرب عزلةً على مخالفيها، وتصدر قرارات الحجب والحرمان على مناوئيها، وتمد ذراعها الطولى لقمع الملوك والأباطرة الأوروبيين في العصور الميلادية الوسطى، فإذا بها تجد نفسها في النصف الأول من القرن العشرين منكمشة معزولة مهجورة، بفعل الانفجارات الثقافية والاجتماعية التي عصفت بأوروبا، وجعلت الكنيسة وتعاليمها موضع السخرية والتندر.

(... فوجدت نفسها أمام عالمٍ مختلف، وحقيقةٍ جديدة... فكان لا بد من خلق الحوار... لإزالة التباعد، وإحلال التعاون البناء)(١).

---

(١) من مقدمة المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٧).

لقد أرادت الكنيسة من خلال المجمع الفاتيكاني الثاني إعادة تأهيل نفسها للحفاظ على موقعها العالمي، ولو على حساب معتقداتها العتيدة البالية، التي كانت تعدها «وحيًا» و«نصوصًا مقدسة»⁽¹⁾.

لقد أرادت الكنيسة أن تجد لها موطئ قدم في كل بقعة من بقاع العالم المفتوح، الذي تحول بفعل وسائل الاتصال الآخذة في النمو ذلك الوقت، إلى «قرية كونية». وكان لا بد لتَقَبُّل الكنيسة وتمكينها، أن تنسلخ من جلد القرون الوسطى، وتلبس حلة براقة تلائم أصول الضيافة والاستضافة في عالمٍ تسوده شعارات الحرية والعدالة وحقوق الإنسان.

ففي دستور (الكنيسة)، أول وأهم دساتير المجمع الفاتيكاني الثاني: (بيد أن تدبير الخلاص يشمل أيضًا أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يعلنون أنهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد، الرحمن الرحيم، الذي يدين الناس في اليوم الآخر)⁽²⁾.

كما تمخض المجمع عن ولادة متعسرة لمشروع بيان «الحرية الدينية»، وقد جاء في البيان: (... يعلن هذا المجمع الفاتيكاني أن الحرية الدينية حق للشخص الإنساني، وهذه الحرية تقوم بأن يكون جميع الناس بمعزلٍ عن الضغط سواء أتى من الأفراد أو من الهيئات الاجتماعية، أو أتى من أي سلطةٍ بشرية، وهكذا ففي أمور الدين، لا يجوز لأحدٍ أن يكره على عمل يخالف ضميره، ولا أن يمنع من العمل في نطاق المعقول وفاقًا لضميره. سواء كان عمله في السر أو العلانية، وسواء كان فرديًا أو جماعيًا)⁽³⁾.

---

(١) انظر للمزيد: الكنيسة في عالم اليوم. من مقدمة المجمع الفاتيكاني الثاني (٢٤٩).

(٢) المجمع الفاتيكاني الثاني (٥٢).

(٣) بيان «الحرية الدينية» من المرجع السابق (٦٠٨).

إن ضغط العالم المعاصر بشقيه، الفكري والاجتماعي، قد حفز الكنائس الغربية، المنتمية إلى دول العالم الأول، المتقدمة ماديًّا، إلى الأخذ بزمام المبادرة ومبادأة الطرف المقابل، ودعوته للحوار، كما هو الواقع في جميع أو معظم اللقاءات المعقودة، فيقوم الطرف النصراني بالتخطيط لها، وتحديد موادها، واختيار المشاركين من الطرف الإسلامي، ثم إدارة الحوار، ورسم برنامج العمل.

إن الباعث العالمي يحس به الجانب الأقوى ولو ماديًّا فقط لأنه يملك «خطة»، و«فريق عمل»، و«إمكانات ضخمة»، لبلوغ أهدافه واهتبال الفرص، أما الجانب الضعيف فغارقٌ في مشكلاته العقدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتداعياتها المختلفة. ومن ثم يكون دوره في لقاءات الحوار ينحصر في «الحضور»، و«المجاملات»، ثم «التوقيع» على البيانات الختامية، وذلك آخر عهده بالأمر! لأنه لا يملك مشروعًا يفرض عليه إيجاد دراسات متنوعة، ورسم خطط، ومفاوضات متكافئة.

- **الباعث التنصيري:**

لا ريب أن التنصير، أو«البشارة» كما يسمونه، يحتل موقعًا مميزًا في الديانة النصرانية، ولطالما رددوا في مواعظهم وتعاليمهم عبارة ينسبونها إلى المسيح عليه السلام بعد قيامته من موته في إثر صلبه -كما يزعمون-: (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس) متى (٢٨/ ١٩)⁽¹⁾.

---

(١) العهد الجديد (١١٩).

ويرددون كلمة بولس في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس: (إذا بشرتُ فليس في ذلك لي مفخرة. لأنها فريضة لا بد لي منها. والويل لي إن لم أبشر)(١) (٩/ ١٦)، فيقول البابا يوحنا بولس الثاني: (أشعر بشدة، بواجب تكرار نداء القديس بولس، باسم الكنيسة كلها. منذ بداية حبريتي، اخترت السفر إلى أقاصي الأرض لأظهر هذه الغيرة الرسولية، وبالتحديد بعد احتكاكي المباشر مع الشعوب التي تجهل المسيح، زادت لدي القناعة بالحاجة الماسة إلى النشاط الرسولي)(٢).

إن مهمة التنصير لم تكن يومًا من الأيام مهمة ثانوية لدى النصارى، فضلًا عن أن تكون محل مساومة في سوق الحوار، أو مقايضة في مقابل الدعوة الإسلامية.

(والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئًا مما هو في هذه الديانات حقٌّ ومقدس... غير أنها تبشر، ويجب أن تبشر بلا انقطاع، بالمسيح الذي هو «الصراط والحقيقة والحياة» (يوحنا ١٤ : ٦)، وفيه يجب على الناس أن يجدوا ملء الحياة الدينية، وبه صالح الله مع نفسه جميع الأشياء)(٣).

وجاء في وثيقة «حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل»، الصادرة عن المجلس البابوي للحوار بين الأديان عام ١٩٩١م، ما يأتي: (إن المسيحيين وهم يعتمدون الحوار بروح منفتح مع أتباع التقاليد الدينية الأخرى، يستطيعون أن يحثوهم سلميًّا على التفكير في محتوى معتقدهم)(٤).

---

(١) العهد الجديد (٥٢٣ ٥٢٤).

(٢) رسالة الفادي يوحنا بولس الثاني (٥)، وجدير بالذكر أن رحلات البابا يوحنا بولس الثاني تجاوزت مئتين وعشر رحلات في الدعوة إلى النصرانية، وتدعيم وجودها في مختلف أقطار العالم. انظر هذا في مجلة المجلة عدد ٩٤٠ في ٢١/ ٢/ ١٩٩٨م تحت عنوان: «لماذا البابا في كوبا، وشيخ الأزهر ليس في الجزائر» لفهمي هويدي.

(٣) المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٨).

(٤) حوار وبشارة (٢٥).

(نظرًا إلى هذا الهدف، أي قيام الجميع بارتداد أعمق إلى الله، يكون للحوار بين الأديان قيمته الخاصة. وفي أثناء هذا الارتداد، «قد يولد القرار بالتخلي عن موقفٍ روحي أو ديني سابق لاعتناق آخر» موقف الكنيسة ٣٧)(١).

هذان النصان يدلان على أن خطاب المحاور النصراني مسكون بروح التبشير، وأنه لا ينفك عنه أبدًا، وأن الحوار أسلوب محدث من أساليب التبشير، وليس مشروعًا مستقلًا يهدف إلى البحث عن الحقيقة، بل هو مشمول بالمشروع الأساسي والدائم للكنيسة، وهو التنصير. كما أنه في ظروفٍ معينة يمثل «أضعف الإيمان» حين لا يتمكن المنصرون من الجهر بالحقيقة كاملة. تقول الوثيقة آنفة الذكر:

(من البديهي إذًا أن تكون الكنيسة لأسبابٍ سياسية أو غير سياسية في أوضاعٍ يستحيل فيها عمليًا إعلان البشرى، فتقوم برسالتها التبشيرية ليس فقط بحضورها وشهادتها، بل بنشاطاتها، كالالتزام بالإنماء البشري وبالحوار نفسه، وأما في الأوضاع التي تتوافر فيها للناس الاستعدادات لسماع رسالة الإنجيل، والإمكانات للاستجابة لها، فينبغي للكنيسة أن تبادر إلى تطلعات هؤلاء الناس وتحقيق آمالهم)(٢).

أما مجلس الكنائس العالمي الذي تأسس أصلًا لتوحيد العمل التنصيري للكنائس غير الكاثوليكية في العالم، فإن الحوار إطارٌ جديد للشهادة. وفي كتاب «توجيهات في الحوار» الصادر عن مجلس الكنائس العالمي جاء ما يأتي: (نحن لا نخال أن بين الحوار والشهادة تناقضًا. وما من شك أنه عندما يدخل المسيحي في

---

(١) حوار وبشارة (٣٠).

(٢) حوار وبشارة (٦٤).

الحوار، وهو ملتزم بيسوع المسيح، غالبًا ما يكون الحوار مجالًا لشهادة حقيقية، لذا... يمكننا بكل صدق أن نحسب الحوار كإحدى الوسائل التي من خلالها تتم الشهادة ليسوع المسيح في أيامنا)(١).

هذه خبيئة نفوس النصارى تجاه مؤتمرات التقارب والحوار، أما مواقفهم المعلنة في البيانات الختامية فإنها تندرج في باب المجاملات أو المراوغات للوصول إلى أهدافٍ مبيتة.

- **باعث الصد عن سبيل الله:**

عبر الدكتور علي بن نفيع العلياني عن هذا الباعث الخفي بقوله: (الدعوة إلى زمالة الأديان في هذا العصر دعوة خبيثة تظهر أحيانًا بهذا الاسم، وأحيانًا باسم التقريب بين الأديان، وأحيانًا باسم جمعيات الصداقة بين الأديان ونحو هذه المسميات. وجوهرها وهدفها في الحقيقة هو أن يكسب اليهود والنصارى في هذا العصر اعترافًا من المسلمين بصحة دينهم. وهذا له دورٌ كبير في صد النصارى واليهود عن الدخول في الإسلام. وذلك لأن كثيرًا من النصارى وبعض اليهود متعطشون إلى دينٍ شامل كامل كالإسلام. وقد سئموا مما يسمى عندهم بالمسيحية أو اليهودية التي هي من صنع الأحبار والرهبان، وليستا الدين الصحيح الذي أنزله الله على موسى وعيسى عليهما السلام. فإذا سمع هؤلاء تلك الشنشنة التي تصدر من أشخاصٍ يطلق عليهم ألقابٌ علمية ودينية كبيرة، المتضمنة لاعترافهم بالدين النصراني والدين اليهودي المحرفين، وسمعوا حرص أولئك العلماء الأكابر إلى مد أيديهم إلى دين النصارى واليهود، والبحث عن مزاملته بأي ثمن، ومحاولة تقريبه من الإسلام، خاب ظنهم وقالوا: لماذا ننتقل إلى الإسلام وهو كديننا الذي

---

(١) انظر الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى (٧٠).

نشعر فيه بالتعاسة، بل إن ديننا أفضل منه بدلالة حرص أصحابه على تقريبنا إليهم ليكسبوا بذلك شرفًا وعزًّا)(١).

- **الباعث السياسي:**

دعت جمعية الأصدقاء الأمريكان للشرق الأوسط في بادرة هي الأولى من نوعها، في العصر الحديث، إلى لقاء بين المسلمين والنصارى، فانعقد المؤتمر الإسلامي المسيحي في «بحمدون» في لبنان عام ١٩٥٤م تحت شعار «القيم الروحية للديانتين المسيحية والإسلامية».

وسرعان ما صوبت أصابع الاتهام إلى النوايا السياسية المبيتة لتلك الجمعية، وافتضح أمرها، بل كان بعض أقطابها يصرحون بذلك الباعث السياسي، كما قال أحدهم حينذاك: (إن العالم الحر اليوم، أكثر من أي زمنٍ آخر، يحسب الحساب للتطورات العالمية، وازدياد خطر الشيوعية، وإن الولايات المتحدة الأمريكية تنظر بعين القلق إلى التطورات والأحداث الجارية في الشرق الأوسط، وترى من واجبها أن تقوم بكل ما في وسعها، كقائدة للدول الخارجة عن الستار الحديدي الشيوعي، للقضاء على الشيوعية التي أخذت تتفشى في الشرق الأوسط خصوصًا، بشكل مريع. وإن أمثال هذا المؤتمر هي من الضرورة بمكان لتوطيد العلاقات بين دول الشرق الأوسط والولايات المتحدة، وللحؤول دون نجاح الحركات الشيوعية في هذه البقعة الحساسة من العالم التي يعدها العالم الحر قطعة يجب أنه تظل في جوٍّ مليء بالاستقرار)(٢).

---

(١) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه (٤٤٩).

(٢) انظر: هرطقات فِرِّيسية... تأليف د. جورج حنا عام ١٩٥٤م، وقد نقل النص السابق عن مقابلة مع مدير الأبحاث والنشر في جمعية الأصدقاء الأمريكان للشرق الأوسط مع مجلة الإصلاح عدد (٢٤) نيسان ١٩٥٤م.

والحق أن «الباعث السياسي» هو أحد البواعث الكامنة خلف عملية التقريب. وتتفاوت حصته قلةً وكثرة بحسب الظروف المحلية، والأحداث العالمية المصاحبة أو السابقة لعقد مؤتمر ما.

فالكنائس الغربية لا تألو جهدًا في استثمار لقاءات التقارب لتحقيق بعض المكاسب السياسية المتعلقة بالأقليات النصرانية في البلاد الإسلامية، وقضايا «الحريات الدينية»، ومفهوم «الدين والدولة» ونحوها. ويراد من ورائها تعزيز النفوذ السياسي والاجتماعي لتلك الأقليات، وتمكينها من بناء المزيد من الكنائس والمؤسسات الخاصة. ومهاجمة «حد الردة»، وحرية تغيير الدين، ومشروع الدولة الإسلامية(١). وفي الوقت نفسه تتم عمليات الإبادة والتطهير العرقي، والتهجير الجماعي، والإلجاء إلى اعتناق النصرانية، في مواقع متعددة من العالم، وتكتفي البيانات بعبارات عامة تعرب عن أسفٍ مطلق لما يجري هنا أو هناك.

---

(١) انظر: البيانات المسيحية الإسلامية: جمع جوليت حداد: حول الحرية الدينية، وحول الردة عن الدين، حول الأقليات الدينية. ذكر المؤلف في الأصل مراجع هذه النقاط الثلاث في البيانات المسيحية الإسلامية.

المبحث الثاني

بواعث التقريب لدى النصارى العرب

لم تبدِ الكنائس الشرقية عمومًا، والعربية خصوصًا، حماسًا أو مبادرة في الدعوة إلى التقريب والحوار مع الإسلام إلا في السنوات الأخيرة التي أعقبت الحرب الأهلية اللبنانية، أي بعد المبادرات الغربية بحوالي أربعين سنة، من مؤتمر «بحمدون» المنعقد عام ١٩٥٤م. كما أنها نأت عن الحوار العقدي، واتجهت نحو حوار التعايش.

والقدر الذي عني بالجوانب العقدية كان مبادرات شخصية شاذة، لا تمثل توجهًا عامًّا، كتلك التي صدرت من الأب يوسف درة الحداد، واكتست ثوبًا من التزييف والإفك الذي يبعد الآخر ولا يقربه، ولا يهدف فعلًا إلى إقامة الحوار بل إلى إلغائه(١).

(لماذا... لا نجد حماسًا شديدًا في الدعوة إلى مثل هذا الحوار من جانب الكنائس الشرقية...؟ لعل السبب في هذه الظاهرة أن الكنائس الشرقية أعلم من غيرها بأحوال المسلمين، وبتمسكهم بعقيدتهم الإسلامية، وعدم جدوى هذه الوسيلة لتنصيرهم. وإن كان لهذا التفسير ما يبرره، إلا أن هناك تفسيرًا آخر لعله أقوى وأقرب إلى الصحة، وهو أن الكنائس التي تعيش بين المسلمين، ويتكلم تابعوها العربية التي هي لغتهم الأم، يقرؤون مؤلفات المسلمين، ويعرفون حججهم القوية في الدفاع عن دينهم الإسلامي، الحجج المثبتة لصحة الدين

---

(١) انظر: حقيقة التقريب لدى النصارى العرب. مبحث (الجدليين من النصارى العرب).

الإسلامي، وكذلك الحجج المثبتة لتحريف الأناجيل التي بني دينهم عليها، هذا من شأنه أن يجعل نتيجة الحوار في غير صالحهم، ولعلها تؤدي إلى عكس ما ينتظرونه. ولعل وجود النصارى في المجتمع الإسلامي، كأقلية ضعيفة الشأن في مقابل أغلبية ساحقة من المسلمين، لا يكون مناسبًا أو مساعدًا على ظهورهم بمظهر الواثق بنفسه، وبقوة حجته، هذا على عكس الكنائس الغربية التي تدعو إلى الحوار على أرضها، حيث تكون الأغلبية الساحقة لأتباعهم، ولا تشكل المجموعة الإسلامية سوى أقلية ضعيفة الشأن. وثمة سبب آخر يمكن أن يكون تفسيرًا لعدم حماس الكنائس الشرقية للدعوة إلى الحوار مع المسلمين، وهو تخوفهم من احتمال أن يسبب دفاعهم عن عقيدتهم، وإبداء حججهم، إثارة فتنة طائفية في المجتمع الذي يعيشون فيه، تكون نتيجتها في غير صالحهم، وغير صالح المجتمع ككل. تلك احتمالات واجتهادات لعل فيها أو في بعضها يكمن شيءٌ من الحقيقة)⁽¹⁾.

ونضيف سببًا خامسًا مهمًّا يفسر تأخر النصارى العرب عن ركب الحوار والتقارب، وهو انخراطهم في الاتجاهات القومية والوطنية التي كانت مزدهرة في الفترة الماضية.

- **الباعث القومي والوطني:**

وهو مركب امتطاه النصارى العرب بغرض إقصاء فكرة «الجامعة الإسلامية» و«الحكومة الدينية»، والاستعاضة عنها بـ«الرابطة القومية» أو «الوطنية»، وإقامة «الحكومة المدنية العلمانية»، حيث يتساوى جميع أفراد المجتمع على أساس «القومية» و«الوطنية».

---

(١) التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام: د. محمد الشاهد. (٦).

- **الباعث الأمني:**

يعيش نصارى العرب حالة من الخوف والقلق من المستقبل. ويرى بعضهم أن النصرانية المشرقية في طريقها إلى الاندثار والاضمحلال والذوبان، في خضم البحر المتلاطم من الكثافة السكانية الإسلامية المتنامية. وقد غذَّى هذا الشعور في الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي وقائع الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥-١٩٩٠م)، وتداعياتها... كما يغذيه أيضًا «نذير الشؤم» الذي تقرعه أجراس الكنائس الغربية، وينعق به متعصبوها.

إن الخوف من المستقبل الذي تنتجه شحنات التشاؤم هذه، حملت نصارى العرب على التفكير الجاد، بل والشروع عمليًّا في الدخول في حوار مع المسلمين، بدلًا من القطيعة والركون الكلي إلى النصارى الغربيين، في محاولة لتهدئة المخاوف، وتحقيق المزيد من المكاسب التي تحققت لهم في هذا القرن.

ففي محاضرة للدكتور كمال الصليبي، أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت، ورئيس المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمَّان، ألقاها في دير سيِّدة النصر عام ١٩٩٦م في لبنان بعنوان «دعوة المسيحيين في الشرق إلى الانفتاح على الإسلام الحضاري»، يعرب فيها عن مشاعر النصارى العرب، وبواعث تلك المشاعر فيقول:

(المسيحيون في لبنان والبلاد العربية عمومًا خائفون أو على الأقل غير مرتاحين بالنسبة إلى ما قد يخبئه لهم المستقبل، وذلك أكثر ما يكون للأسباب الآتية: ١- أعداد المسيحيين في هذه البلاد مطلقًا ونسبيًّا هي في تضاؤل مستمر. وهذا التقلص في الوجود المسيحي في المنطقة مرشحٌ لأن يزداد حجمًا وسرعة

مع الوقت. ٢- الدور المسيحي في القرار العربي سياسيًّا واقتصاديًّا وحضاريًّا وفكريًّا هو أيضًا في تقلص مستمر، ومرشح لمزيدٍ من التضاؤل، مطلقًا ونسبيًّا... ٣- صوت العصبية والتطرف في الإسلام وهو الذي يُدوِّي حاليًّا(١)).

ويستعرض عددًا من الحلول المطروحة ويقوم بتفنيدها، كالهجرة، والانعزال الجغرافي، وغيرها، ويخلص إلى رسم العنوان الآتي: (حلٌّ مستقبليٌّ لا بدَّ منه: يبقى حلٌّ واحد لم يجرَّب بعد، وهو تغيير الخطاب المسيحي، والجهة التي يوجه إليها هذا الخطاب تماشيًا مع التغيرات التي حصلت وتحصل في المنطقة وفي العالم...)(٢).

إن الكابوس المخيف الذي يجثم على صدور النصارى العرب هو ما يسمونه «الإسلام السياسي»، أو «الحركات الإسلامية الأصولية»، التي تسعى إلى تطوير نظام اجتماعي سياسي مستمد من الكتاب والسنة، يعيد وضعهم في «قالب» أهل الذمة. لذلك يشنون الحملات الضارية ضد هذا اللون من الاتجاهات ويتعاونون مع الإعلام العالمي في تشويه صورته وإبراز أخطائه.

ففي كتابٍ ألفه وزير لبناني سابق هو الدكتور ألبير منصور، بعنوان: «قدر المسيحيين العرب وخيارهم»، يعلن صراحة هذا العداء المستحكم قائلًا: (الإسلام السياسي تحدٍّ مشترك يواجه جميع المسيحيين العرب، لأنه يعمل على قيام دولة دينية إسلامية، مصير المسيحي فيها إلى مصير الغربة...)(٣).

---

(١) المسيحيون في لبنان والشرق. «رؤية مستقبلية» (٣٧ ٣٨). وانظر بقية الأسباب التي ساقها د كمال الصليبي في الأصل.

(٢) المسيحيون في لبنان والمشرق. رؤية مستقبلية (٣٩ ٤١).

(٣) قدر المسيحيين العرب وخيارهم (٢٣٦). وانظر: مراجعة تركي علي الربيعو وتحليله العميق للكاتب والكتاب في مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٦٣ ٢٦٧).

وإننا ندعو أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية أن يراجع التاريخ بصدقٍ وإنصاف، وسوف يجد من شهادات بني دينه ما ينصف المسلمين أو يكاد، من جنس قول المستشرق الإنجليزي أرنولد: ت. ويلسون(١): (من الحق أن نقول إن غير المسلمين نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد معادلًا لها في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة)(٢). وقول غوبينو: (لا دين يضارع الإسلام في التسامح)(٣).

- **الباعث الاجتماعي:**

عاش النصارى طوال القرون الإسلامية المتعاقبة «ذميين» داخل إطار المجتمع المسلمٍ لهم حقوق، وعليهم واجبات. ولا ريب أن الإسلام؛ عقيدة، وشريعة، وثقافة، وتاريخًا، ينظر إليهم نظرة دونية، ولا يضعهم على قدم المساواة مع سائر المسلمين، ولكنه في الوقت نفسه يحمي أشخاصهم وأعراضهم وأموالهم، ويفسح لهم مزاولة عباداتهم الخاصة، ولا يكرههم على الدين، كما تقدم(٤).

والنصارى العرب يشيرون إلى تلك الحقبة إشاراتٍ بغيضة، ويعدون الرجوع إليها ضربًا من الإذلال والامتهان، دونه خرط القتاد، ذلك أنها تميِّزهم اجتماعيًّا بأنماطٍ من المعاملة والسلوك في الملبس والمركب والعمل، (فما زالت الشروط العمرية تخيف الذميين إلى اليوم)(٥).

---

(١) سير أرنولد تالبوت ويلسون (١٨٨٤ ١٩٤٠م) بدأ حياته عسكريًا، والتحق بجيش بريطانية في الهند. ثم عمل في القسم السياسي. وكان مستشارًا سياسيًا في الخليج العربي. انظر: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي. د. مازن المطبقاني (٤٥).

(٢) انظر: تعدد الأديان وأنظمة الحكم. جورج قرم (٢٣٧).

(٣) انظر: تعدد الأديان وأنظمة الحكم. جورج قرم (٢٣٨).

(٤) انظر مبحث: حكم الإسلام في أهل الكتاب من التمهيد.

(٥) سعاد أبو الروس. مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١٢١).

لذلك يعمدون في حوارهم مع المسلمين إلى الحديث باستفاضة عن الجانب الاجتماعي وحقوق المواطنة، والمساواة في كل شيء، وهو ما لا نجده بطبيعة الحال في الحوار الإسلامي النصراني الغربي.

النصارى العرب آلوا إلى شبه قناعة بأن الحل الأمثل والأجدى أن يسعوا جاهدين إلى إعادة ترتيب أوضاعهم الداخلية، ومحاورة جيرانهم المسلمين، الذين يعيشون بين ظهرانيهم، لضمان ما يرونه حقوقًا لهم، ودفعًا لما قد يتوقعونه غير ملائمٍ لهم مستقبلًا⁽١⁾.

وتأسيسًا على ذلك، فقد خصصوا رسالتهم الآتية: «معًا أمام الله. في سبيل الإنسان، والمجتمع»، للحديث عن «العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي» جاء فيها: (من حق كل فئة وطنية أن تسهم في بناء المجتمع بجميع مجالات الحياة الوطنية فيه: «أجهزة الدولة والمؤسسات العامة والخاصة والوظائف والمصالح الاقتصادية وغيرها». وهذا يعني ألا يهمش أحد لسبب انتمائه الديني، أو لأي سبب من الأسباب، بل تتاح الفرص لكل مواطن، أيًّا كان، ومهما كانت عقيدته، لكي يجد موقعه في الحياة العامة بعيدًا عن الحدود والحساسيات الطائفية)⁽٢⁾.

ثم لم تكتفِ الرسالة بهذه الخطوط العامة، بل شرعت في وضع النقاط على الحروف، وتطبيق القاعدة على المثال، في مجال الأسرة، والتربية الدينية في المدارس الحكومية، وصياغة الكتب المدرسية، والمؤسسات الفكرية والإعلامية، لترسيخ مفاهيم الأمن الاجتماعي لطوائف النصارى العرب، والأهم من ذلك كله التحذير من خلط الدين بالسياسة⁽٣⁾.

---

(١) انظر: الحضور المسيحي في الشرق. شهادة ورسالة (٤٥).

(٢) معًا أمام الله (٢٢).

(٣) انظر تفصيل ذلك في مبحث النصارى العرب (٥٠٠ ٥٠٧).

إن الباعث الاجتماعي للحوار مع المسلمين لدى النصارى العرب باعثٌ أصيل، وهمٌ ماثل دائم، وإن كان في الحقيقة يمثل جزءًا من الباعث الأمني الأكبر؛ وهو الخوف من الاضمحلال البطيء.

ولذلك فهو ليس اجتماعيًّا صرفًا، بل هو اجتماعي مسيَّس؛ بمعنى أنه لا يكتفي بالمطالبة بالعيش المشترك، والمساواة الاجتماعية فقط، بل لا بد من أن تحميه قوانين الأنظمة الديمقراطية للحكم.

- **باعث القيام بدور الوسيط في الحوار الإسلامي النصراني:**

وهو دورٌ ما فتئ نصارى العرب يلوِّحون به، ويتباهون بخصوصيتهم وتميزهم في إدارة دفته سوى الأقباط لانفصالهم التاريخي والعقدي العميق عن العالم الغربي(١). وربما كان هذا الدور مطلوبًا منهم من قبل المسيحية العالمية، كما أفصح عن ذلك الدكتور كمال الصليبي إذ يقول: (... والأجدى بالمسيحية الشرقية أن تكون هي صاحبة الدور الأول في محاورة الإسلام، لكونها هي المسيحية التي رافقت الإسلام تاريخيًّا، وخَبِرَته من قرب. ولعل المسيحية العالمية تتوقع من المسيحيين العرب لعب هذا الدور)(٢).

---

(١) انظر: معًا أمام الله في سبيل الإنسان والمجتمع (٥٣). العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءة في الراهن والمستقبل من: العلاقات الإسلامية المسيحية قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢١٠ ٢١١)، وانظر: مبحث النصارى العرب: «الأرثوذكس العرب» (٤٣١).

(٢) المسيحيون في لبنان والشرق (٤١).

المبحث الثالث

بواعث التقريب لدى اليهود

- **الباعث السياسي:**

ويتمثل لدى يهود الشتات في تحسسهم للنمو الإسلامي المطرد في البلدان الغربية، وآثار ذلك المستقبلية على نفوذ الأقليات اليهودية⁽¹⁾. هذا نمطٌ من البواعث السياسية تجاه الحوار يحفز يهود الشتات إلى التقارب مع المسلمين. أما في إسرائيل ذاتها حيث يهيمن الفكر الأصولي العنصري فليس ثمَّ مجال لمثل هذه الطروحات، لكن على المستوى الرسمي، وتماشيًا مع سياسة التطبيع التي تلف المنطقة، تسعى الدولة العبرية إلى ممارسة نمطٍ من التقارب مع الدول العربية والإسلامية بغية تحقيق أهدافٍ سياسية.

- **الباعث الاجتماعي:**

وهو باعث يجده اليهود حيث كانوا أقلية في المجتمعات النصرانية. ونظرًا لكون اليهود يعيشون أوضاعًا مشابهةً من بعض الوجوه للمسلمين في الجوانب الاجتماعية المعيشية، من حيث الالتزام بأحكام فقهية في العبادات والطهارات والملبس والمأكل ونحو ذلك، فإنهم يجدون في الاعتضاد بالمسلمين مصلحة لتحقيق بعض مطالبهم⁽²⁾.

---

(١) انظر: شالوم السلام (٥٨ ٥٩)، (٨٥، ٨٦).

(٢) انظر: شالوم السلام (٦٢، ٦٣).

- **باعث الصد عن سبيل الله:**

ولليهود في هذا البال تفنن عجيب، وإفك قديم، يوجب للمؤمن أن يقف منهم موقف الحذر التام، وظن السوء. كيف لا، وهم الذين حكى الله عنهم ما يلي: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ومن شواهد ذلك في قضية التقارب والحوار بين الأديان أن يتوصلوا إلى تحسين صورتهم، واستدراج المسلمين إلى تعطيل النصوص الواردة في ذمهم كما صنعوا مع النصارى، ففي حصة التعليم اليهودية التي يعرضها التلفاز الفرنسي صباح كل أحد، تحدث الحاخام «جوزي آيزنبرغ» يوم ٤/ ٢/ ١٤٠٥هـ، الموافق ٢٨/ ١٠/ ١٩٨٤م، عن الحوار بين اليهودية والإسلام، وكان مما قال وهو يعدد محاسن الحوار: (إن ثمة افتراءات على اليهود في كتب النصارى، وقد ساعد الحوار الطائفتين على التحقق من هذه الافتراءات ورفعها من كتب النصارى... ولعل الحوار مع المسلمين يؤدي إلى حذف الافتراءات المقولة في كتبهم مع اليهود)⁽¹⁾.

إن اليهود بما أوتوا من خبث ودهاء، وبما يملكون من تأثيرٍ إعلامي واسع يمكن أن يستغلوا قضية التقريب بين الأديان والحوار مع المسلمين خاصة استغلالًا بشعًا للوصول إلى بعض مقاصدهم الشريرة في الصد عن سبيل الله، وطمس معالم الحق.

---

(١) من تقرير لمكتب رابطة العالم الإسلامي في باريس مؤرخ في ١٢/ ٢/ ١٤٠٥هـ.

يقول د. طارق متري مسؤول العلاقات مع المسلمين في مجلس الكنائس العالمي (اليهود يطلقون، ويشاركون في حواراتٍ كثيرة. لكن الذي يتابع الحوارات اليهودية مع المسيحيين، يلاحظ أنها:

- يغلب عليها الحساب السياسي.

- موظفة لخدمة المشروع الصهيوني.

- ابتزاز للمسيحيين.

- ليس فيها حوار حقيقي. فاليهود أنفسهم الذين يعنون بالحوار مع المسيحيين يقولون: إن الهدف من الحوار مع المسيحيين:

أولًا: أن يعترف المسيحيون بالجرائم التي ارتكبوها تاريخيًّا، وإلى حد الآن.

ثانيًا: أن يطهر المسيحيون كتبهم الدينية، ونصوص صلواتهم من كل الإيحاءات المعادية لليهود والسامية.

ثالثًا: أن يعترف المسيحيون أن بين الشعب اليهودي ودولة إسرائيل علاقة خاصة، أي أن الحوار عندهم، لا علاقة له بما يتحدث فيه المسيحيون والمسلمون عن التعارف والتعاون)⁽¹⁾.

---

(1) من مقابلة مسجلة صوتيًا، أجراها الباحث معه، في بيروت يوم الاثنين ٨/ ٤/ ١٤١٨هـ ١١/ ٨/ ١٩٩٧م.

المبحث الرابع

بواعث التقريب لدى الإسلاميين العصرانيين

تنوعت بواعث التقريب لدى دعاته من الإسلاميين العصرانيين تبعًا للمتغيرات العالمية، واختلال ميزان القوى في غير صالح المسلمين من جهة، وبسبب الجهل وفقدان التأصيل الشرعي من جهة أخرى. حيث يحكم الهوى والمصلحة الموهومة، ويغلب إعجاب كل ذي رأيٍ برأيه. وهم في كثير من الحالات يجارون الطرف المقابل ويمالئونه على غير هدًى من الله وبرهان، لا سيما أن الدعوة إلى التقريب غربية المولد والمنشأ والتوجيه، ولم تصدر عن اجتهادات علمية إسلامية موثوقة. ومن هذه البواعث:

- **الباعث العالمي:**

ويتمثل في الدعوة إلى التقارب مع العالم النصراني الغربي باعتباره الممسك بمقاليد الحضارة المادية المعاصرة والانخراط فيه، وتحقيق التجانس الذي تفرضه حال العالم اليوم من انفتاح بعضه على بعض⁽¹⁾.

ومن الشعارات العالمية السائدة إعلاميًّا، الدعوة إلى «السلم العالمي» ونبذ «الحروب». وقد حفلت بعض البيانات الختامية لمؤتمرات التقارب والحوار بهذه الدعوة⁽²⁾. وردد أصداءها بعض الإسلاميين العصريين كباعث من بواعث الحوار.

---

(١) انظر: مجلة الاجتهاد (١١، ٣١، ٣٢/ ٣٣). الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (١٧٨).

(٢) انظر: البيانات المسيحية الإسلامية، وقد أشار المؤلف في الأصل إلى مواضع عدة في تلك البيانات فيما يتعلق بهذه الدعوة.

ومن استزلال شياطين الجن والإنس لبعض الإسلاميين العصريين، التنصل من مقتضيات الإيمان؛ من الحب في الله، والبغض في الله، والمعاداة في الله، ومجاراة أهل الكتاب على القول بأن ما وقع في التاريخ من مجابهات مجرد «عداوات»، وليس نابعًا عن عقيدة.

وبالجملة فالقوم مسوقون نحو الحوار والتقارب، محكومون بالقانون العالمي السائد، ويرون في الخروج عن قيمه وأدبياته أمرًا مستحيلًا، ومصادمة للأمر الواقع. وقد عدَّ الدكتور الترابي من دواعي الحوار ومبرراته أنه (ضرورة عملية يفرضها الواقع العالمي، القائم على الاتصال، والاعتماد المشترك بين الأمم والشعوب والجماعات والحركات، مما يوجب علينا فهم الآخرين، وتفهم واقعهم، ومعرفة الحقائق للتعامل معها)(١).

- **الباعث القومي والوطني:**

وهو باعث يرمي إلى إحلال «الرابطة القومية» و«الوطنية» محل «الجامعة الإسلامية» و«الرابطة الدينية». في حقبة الاستعمار الأوروبي النصراني لممالك المسلمين، في مصر والشام، في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، تنمرت بعض طوائف النصارى العرب، وطالبت رغم كونها أقلية بصلاحيات واسعة، تجعلها على قدم المساواة والندية مع الأكثرية الساحقة من المسلمين، واستغلت في ذلك أسلوبًا عنيفًا، محتمية بالاستعمار الأوروبي من أهل ملتها، كما جرى في مصر سنة ١٩١١م بين المسلمين والأقباط، منذرًا بعواقب وخيمة.

وفي تلك الأجواء نشأت دعوات تجاوز الأطر العامة للوحدة الوطنية بين عناصر الأمة، إلى المناداة بوحدة الأديان، مدركة أن الولاء الديني هو سر التميز،

---

(١) شؤون الأوسط. عدد (٣٦) كانون الأول ديسمبر ١٩٩٤م. (٩١).

وأساس الانتماء، فأرادت أن توهن عراه، وتحل رابطته، في سبيل صنم «الوطنية».

ومن شواهد ذلك لدى الإسلاميين العصرانيين:

-قول أحمد شوقي(١):

أعهدتنا والقبطَ إلا أمةً
للأرض واحدةٌ تروم مراما
نعلي تعاليم المسيح لأجلهم
ويوقرون لأجلنا الإسلاما
الدين للديَّان جل جلاله
لو شاء ربك وحَّد الأقواما(٢)

- وقال معروف الرصافي(٣):

---

(١) (١٢٨٥ ١٣٥١هـ): أحمد شوقي بن علي. أشهر شعراء العصر الأخير. يلقب بأمير الشعراء. أصله كردي، نشأ وأسرته في ظل الخديوي، بعث للدراسة في فرنسا، فدرس الحقوق، واطلع على الأدب الفرنسي. من آثاره: «الشوقيات» و«دول العرب» و«مصرع كليوباترة». وفي شعره غلو وكفريات. انظر: الأعلام (١/ ١٣٦).

(٢) الشوقيات (٣/ ١٤٤). وهذا ليس بمستغربٍ عليه، وهو القائل:

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم   أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولّوا إليه في الدروس وجوهكم   وإذا فرغتم واعبدوه هجودًا

الشوقيات (١/ ١١١).

(٣) معروف الرصافي (١٢٩٤ ١٣٦٤هـ): معروف بن عبد الغني الرصافي، البغدادي. شاعر العراق في عصره. ولد ببغداد، وتتلمذ لمحمود شكري الألوسي في علوم العربية وغيرها. من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. كان جزل الألفاظ في أكثر شعره وفيه مجون وتحلل. له ديوان مطبوع، وكتب منها: «دفع الهجنة»، و«نفح الطيب في الخطابة والخطيب»، و«الأناشيد المدرسية». انظر: الأعلام (٧/ ٢٦٨).

إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة
لسان وأوطان وبالله إيمان
فأي اعتقاد مانع من أخوة
بها قال إنجيل كما قال قرآن

وظلت هذه النعرات الجاهلية تجوس خلال الديار، تحاول إخفاء الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والتسوية بين توحيد أهل الإيمان، وتثليث عباد الصلبان، حتى صارت بذورًا لدعوة التقريب بين الأديان بصورتها الوافدة من الغرب النصراني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، فليس كثيرًا ولا كبيرًا حينئذٍ أن يحفز صنم القومية والوطنية بعض متألهيه للتقارب مع النصارى العرب، وتمييزهم على سائر بني ملتهم، بوصفهم عربًا أو مواطنين، وإشراكهم في مشروع الحوار الإسلامي النصراني، ووحدة الأديان(١).

- **باعث التصدي للإلحاد والانحلال الخلقي والمادية:**

يكاد يكون الحديث عن هذا الأمر فقرة دائمة في البيانات الختامية لمؤتمرات التقارب(٢)، لكونه قدرًا مشتركًا بين الأديان. والمدافعون عن فكرة التقريب والحوار يدفعون بهذا الباعث إلى الواجهة الأمامية لتسويغ شرعية هذه الدعوة.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي في مستهل تعداده لأهداف الحوار الديني بين الإسلام والنصرانية: (الوقوف في وجه تيار الإلحاد والمادية، الذي يعادي كل الرسالات السماوية، ويسخر من الإيمان بالغيب، ولا يؤمن بألوهية، ولا نبوة، ولا

---

(١) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (٢٢٥). (١٧٧ ١٧٩). (٢١٠).
(٢) انظر: البيانات المسيحية الإسلامية جمع جوليت حداد.

جزاء، ولا قيم روحية. وكذلك تيار الإباحية والانحلال الخلقي، الذي يكاد يدمر خصائص الإنسانية وفضائلها التي كسبتها من هداية النبوات)[1].

- **الباعث الدعوي:**

يرى بعض الإسلاميين في «الحوار» وسيلة إلى الدعوة، أو دفع الشبهات عن الإسلام. وبصرف النظر عما إذا تم ذلك فعلًا، وعن أسلوب أداء تلك الدعوة وترتيب أولوياتها، فإنا نثبت أدناه تنظيرهم لهذه القضية باعتبارها أحد بواعث الحوار.

فالدكتور حسن الترابي يضع هذا الباعث في أعلى قائمة دواعي الحوار ومبرراته قائلًا: (إنه ضرورة شرعية لتبليغ الرسالة، وحمل أمانة الدعوة. فالأصل هو التفاعل التبليغي، وعدم جواز السكون)[2].

ولعمر الله إنها لمسوغات صحيحة لغاية مشروعة؛ ألا وهي الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ دينه، ولكن: أي إسلام يريد هؤلاء العصرانيون عرضه من خلال مؤتمرات الحوار وندواته؟ أهو الإسلام النقي القائم على توحيد الله واتباع نبيه ﷺ، الذي لا إسلام بحقٍّ سواه؟ أم إسلام مهجن أعيد إنتاجه في معامل التكرير العصرانية فجاء خداجًا مشوهًا ملفقًا، لا يرى فيه الغربي إلا تقربًا إلى النصرانية التي ملَّها ومجها، ولم تعد تهديه في حيرته؟

ويلتحق بالباعث الدعوي، الرغبة في تحسين صورة الإسلام في نظر الغربيين. يقول د. يوسف الحسن: (... الإسلام في المرحلة الراهنة، هو موضع حملةٍ ضارية

---

(١) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة (١٧٥ ١٧٦)، وانظر: مجلة المجتمع الكويتية عدد (١٢٣٣). وانظر: مجلة البيان الأعداد: (١١٢، ١١٧، ١٢٤)، تأملات في صيغة الحوار الإسلامي المسيحي. مقدمة كتاب: الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (٢٢).

(٢) شؤون الأوسط. عدد (٣٦) كانون الأول/ ديسمبر (١٩٩٤م) (٩١، ٩٤)، وانظر (٨١).

في الغرب، دأبت على خلط الأوراق بين الإرهاب من ناحية، والإيمان والدين من ناحية أخرى. وعليه فإن الحوار يجب أن يكون متوازيًا، بمعنى أن يسهم الغرب نفسه في إعطاء مساحةٍ من المكان والزمان لعرض الوجه الحقيقي للإسلام)(١).

- **باعث الرغبة في الحصول على اعتراف من أهل الكتاب:**

ويستند هذا الباعث إلى فكرة مُسِفَّة يرددها بعض رواد الحوار من العصرانيين، مفادها أن الإسلام بحاجة إلى اعترافٍ من أهل الكتاب بانتمائه إلى الأصل الإبراهيمي. ومردها إلى مركب النقص، وفقدان الشعور بالعزة الإيمانية.

- يقول الدكتور رضوان السيد: (وبدا من ناحية أخرى توق المسلمين الشديد ليعترف بهم المسيحيون دينًا مستقلًّا، كما اعترف بهم الإسلام باعتبارهم أهل الكتاب)(٢).

وثَمَّ فرقٌ بيِّن واضح بين أن يطالب الإسلام والمسلمون أهل الكتاب بالإيمان بدين الحق ورسوله خاتم النبيين، والإقرار بأنه من عند الله فيلزمهم حينئذٍ اتباعه، والانخلاع مما هم عليه مما يخالف دين الإسلام، وبين أن يُصوَّر ذلك الطلب بصورة الحاجة إلىٰ اعتراف، أو محاولة استصدار شهادة تزكية، وحسن سيرة وسلوك. إن الكاتب بهذه الصياغة المتكررة يهين دينه وقد أغنىٰ الله عباده المؤمنين عن شهادة المغضوب عليهم والضالين بصدق الانتساب إلىٰ إبراهيم عليه السلام، وشهد بذلك بنفسه لرسوله والمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

---

(١) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات (٢٣). وسيأتي في الباب الثالث مناقشة لشبهات دعاة التقريب.

(٢) مجلة الاجتهاد (٢٨/ ١٠).

- **باعث التحالف مع النصارى لمجابهة اليهود:**

يعلق بعض الإسلاميين آمالًا على الحوار الإسلامي النصراني لتحقيق مكاسب سياسية ضد اليهود بعد أن استولوا على فلسطين، وصاروا على رأس قائمة أعداء الأمة الإسلامية. ويتجلى ذلك في بعض فقرات البيانات الختامية لمؤتمرات التقارب⁽¹⁾، نختار منها أوضحها، وهو ما جاء في بيان قرطبة الصادر عن المؤتمر الإسلامي المسيحي الأول في شعبان عام ١٣٩٤هـ الموافق أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٤م، ونصه: (٢٢- تأكيد الحقوق الوطنية والإنسانية للشعب الفلسطيني، مع اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد لهذا الشعب، وتأكيد عروبة القدس، ورفض مشروعات التهويد، والتقسيم والتدويل، وإدانة الاعتداءات التي تقوم بها سلطات الاحتلال الإسرائيلي على الشعوب، والمقدسات الإسلامية والمسيحية، وبخاصة المسجد الأقصى، والمطالبة بإطلاق سراح جميع المعتقلين، لا سيما رجال الدين الإسلامي والمسيحي. وتأييد النضال للشعب الفلسطيني والمطالبة بتحرير جميع الأراضي العربية المحتلة)⁽²⁾.

وقد يصور بعض دعاة التقريب اليهودية خصمًا مقابلًا للإسلام والنصرانية، غافلًا عما أثبته القرآن العظيم من موالاةٍ بين الملتين ضد الإسلام كما قال تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) انظر: البيانات المسيحية الإسلامية. جمع جولييت حداد، ذات الأرقام: (١/ ٦،٥)، (٧/ ١٨، ٣٢)، (٩/ ٥)، (١٠/ ٢٢)، (١٣/ ٣٠، ٣١)، (١٨/ ٢٨)، (٢١/ ٤)، (٢٦/ ٢٦).

(٢) المرجع السابق (٧١).

وقد يفرط بعضهم في الأماني فيتمنى أن يندد النصارى باليهود، أو على الأقل أن يتراجعوا عن بعض ما صدر منهم من بيانات إيجابية في حقهم. والذي حصل هو العكس، فهذا البابا بولس السادس يمهر بيان «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية»، تليه توقيعات آباء الكنائس في الثامن والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر من سنة ١٩٦٥م، وفيه يشيد البيان باليهود، ويمنحهم الخلاص، ويبرئهم مما تعاقب النصارى عليه طوال القرون من تحميل اليهود خطيئة صلب المسيح، ويقدم لهم الاعتذار الحار، والاستنكار البالغ عما لحقهم من آلام واضطهاد، ويدعوهم إلى التلاقي على التراث الروحي المشترك بينهما، والتعاون والتقدير والحوار الأخوي(١).

---

(١) انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ ٦٣١).

الباب الثاني

محاولات التقريب بين الأديان في العصر الحديث ونقدها

ويتضمن فصلين:

- الفصل الأول: المحاولات الفردية ونقدها.
- الفصل الثاني: المحاولات الجماعية ونقدها.

الفصل الأول

المحاولات الفردية للتقريب بين الأديان في العصر الحديث ونقدها

إن دعوة التقريب بين الأديان، التي ظلت فكرة منبوذة في معظم أطوارها التاريخية، لم تكن لتبلغ ما بلغت في العصر الحديث من الظهور والاستعلان إلا بجهودٍ حثيثة، ومساعٍ متواصلة على كل الأصعدة، النظرية والعملية، حتى استحالت إلى هدفٍ إنساني، وغاية حميدة، لدى كثيرٍ من الناس. ولم يعد دعاتها يستحون من الجهر بها، أو يرعوون عن السعي في سبيلها.

وقد استشرفها في العصر الحديث أفرادٌ من المفكرين والمنظرين، فوسعوا قاعدتها، وفصلوا مجملها، ورسموا لها خططًا، وناقشوا عوائقها، وحاولوا بما أوتوا من قُوًى علمية وعملية الدفع بها، وإقرارها بين المجتمعات الدينية المختلفة، على اختلاف نسبي بينهم في المقاصد والغايات، فألفوا ونشروا، وحاضروا وناظروا، وارتحلوا وظعنوا، وأسسوا المراكز، وعقدوا المنتديات بمبادرات فردية، وقناعات شخصية، ميزت جهودهم عن سائر الجهود الجماعية التي تتبناها جمعيات أو حكومات أو هيئات عامة، يغلب فيها الجانب العملي على التنظير الفكري. ومن بين كثيرٍ من المحاولات الفردية الصادرة في العصر الحديث، بل العقود الأخيرة، تم اختيار بضع محاولات جمع أصحابها بين:

١- الإنتاج الفكري في تقرير وتسويغ الدعوة لتقارب الأديان.

٢- الجهد العملي في نشر هذه الدعوة. وهي كما يأتي:

١- محاولات المفكر الفرنسي «روجيه جارودي(١)».

٢- محاولات الأب الأسباني «إيميليو غاليندو(٢)».

٣- محاولات الكوري صن مون(٣).

٤ - محاولات الشيخ أحمد كفتارو.

واستُبعِد ما اقتصر على أحد الوصفين دون الآخر، مثل جداليات الأب يوسف درة الحداد، التي سمَّاها «في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي»(٤)، وما جمع الوصفين لكن غلب عليه التمثيل الرسمي لجهة من الجهات، مثل محاولات البابا يوحنا بولس الثاني(٥) ضمن محاولات الكنيسة الكاثوليكية.

---

(١) راجع الأصل.

(٢) راجع الأصل.

(٣) راجع الأصل.

(٤) راجع الباب الأول مبحث حقيقة التقريب لدى الجدليين من النصارى العرب.

(٥) انظر: الفصل الثاني من هذا الباب.

المبحث الأول

محاولات روجيه جارودي للتقريب بين الأديان

تمثل محاولات الفيلسوف الفرنسي (روجيه جارودي Roger Garaudy) واحدة من أخطر المحاولات الفردية في العصر الحديث للتقريب بين الأديان. وتكمن خطورتها في كونها محاولة للقضاء على مدلول «الإسلام الخاص» الذي جاء به محمد ﷺ، في سبيل بعث فكرة «الإسلام العام» أو «الإبراهيمية» التي تجمع -بزعمه- الإسلام والنصرانية واليهودية، بل ما هو أبعد من ذلك الديانات الوثنية الأخرى؛ من هندوسية وبوذية وكونفوشية بدعوى أنها آثار نبوة سالفة، وبقايا وحي قديم.

ومما زاد الأمر خطورة أن صاحب هذه المحاولات عمل من خلال الانتماء للإسلام ودعوى اعتناقه، وكان لما يتمتع به من مكانة عالمية في الفكر والفلسفة، وثقافة موسوعية، وتجارب فكرية مع مختلف الأيديولوجيات، أثرٌ كبير في تسويق آرائه الكفرية والاحتفاء به في سائر البلدان الإسلامية.

وقد تقدم روجيه جارودي منذ أشيع نبأ إسلامه عام ١٩٨٢م بمشروع واضح المعالم ضمنه كتاباته في مجال «الإسلام» من أجل تشكيل «إسلامٍ معاصر» مؤهل للذوبان في بحر الوحدة العالمية التي يبشر بها.

وحينما زكمت رائحة زندقته الأنوف، قيل إنه «ارتد» عن الإسلام! لكن الراسخون في العلم قالوا غير ذلك، وصدقوا، قالوا: (لا يحكم عليه بأنه «مرتد» عن دين الإسلام... وإنما هو كافر أصلي لم يدخل في الإسلام)⁽¹⁾.

---

(١) من بيان لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله في مجلة الدعوة عدد ١٥٨٣ الخميس ١ ذي الحجة عام ١٤١٦هـ الموافق ١٨ أبريل عام ١٩٩٦م (١٤ ١٥).

وسوف نتناول دراسة هذه المحاولة الخطيرة، وصاحبها من خلال:

١- تعريف موجز، وسيرة ذاتية لروجيه جارودي، وأطوار حياته، وما صاحب ذلك من إنتاج فكري وعملي.

٢- دراسة مشروع روجيه جارودي الفكري للتقريب بين الأديان، والحضارات.

٣- محاولات روجيه جارودي العملية للتقريب بين الأديان والحضارات.

• أولًا: السيرة الذاتية لروجيه جارودي:

- ولد روجيه جان شارل جارودي عام ١٩١٣م في مدينة مرسيليا الفرنسية، لأسرة عاملة لا تنتمي إلى دين، ثم اعتنق البروتستانتية وانضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي في سنة واحدة ١٩٣٣م. يقول واصفًا تلك المرحلة: (... لم أكن في يوم من الأيام ملحدًا حتى عندما كنت عضوًا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي في عام ١٩٣٣م، لقد كنت في الوقت نفسه رئيس الشبان المسيحيين البروتستانت، وانتسبت للحزب الشيوعي كمسيحي، هذا اتفاق مع النظرية التي تقول: إن الشيوعية إنجاز نصراني لمعالجة القضية الاقتصادية... ويرجع السبب في اختياري النصرانية إلى رغبتي في أن أعطي لحياتي معنى في وقتٍ كنا نعتقد لشدة الأزمة أننا نعيش نهاية العالم.

أما الشيوعية، فقد كانت الاختيار الوحيد الذي يطرح بديلًا للخروج من أزمة الرأسمالية، كما أنه أفضل جبهة تقاوم هتلر والنازية في هذه الحقبة)(١).

- وفي عام ١٩٣٦م حصل على إجازة «الفلسفة» بعد دراسة في كلية الآداب بأكس.

---

(١) من مقابلة مع مجلة الأمة. العدد ٢٩ جمادى الأولى عام ١٤٠٣هـ، فبراير عام ١٩٨٣م.

- وفي عام ١٩٣٧م انتخب عضوًا في فيدرالية تارن الشيوعية.

وحين عصفت رياح الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م، واحتلت ألمانيا الهتلرية فرنسا، وأقامت حكومة موالية لها، كان جارودي جنديًّا في الجزائر التي كانت مستعمرة فرنسية، فاعتقل بسبب نشاطه الثوري المعادي للهتلرية، ونفي إلى معتقل في منطقة «جلفا» في الصحراء الجزائرية، وذلك عام ١٩٤٠م، فكان أول اتصالٍ له بالإسلام.

حيث يحكي جارودي أنه حوكم سريعًا وصدر حكم بإعدامه رميًا بالرصاص وصدر الأمر للجنود الجزائريين للتنفيذ، ورفض هؤلاء الجنود إطلاق النار، وأخبره مساعد جزائري بالجيش الفرنسي سبب رفضهم، وهو أن شرف المحارب المسلم يمنعه من أن يطلق النار على إنسانٍ أعزل... وكانت هذه أول مرة يتعرف فيها على الإسلام من خلال هذا الحدث المهم في حياته.

وحينما أطلق سراحه التقى بالزعيم الإسلامي الشيخ البشير الإبراهيمي⁽¹⁾ رئيس رابطة العلماء المسلمين الجزائريين الذي كان له أكبر الأثر في نفسه كما ذكر...⁽²⁾.

---

(١) ولد عام ١٨٨٩م في الجزائر. وحفظ القرآن، ودرس بعض متون الفقه واللغة. وتابع تعليمه في المدينة النبوية عام ١٩١١م، وتعرف فيها على الشيخ عبد الحميد بن باديس عندما زار المدينة عام ١٩١٣م. وعاد إلى الجزائر، وأسس مع ابن باديس جمعية العلماء عام ١٩٢٤م، وصار نائبًا لرئيسها، واشتغل بالدعوة، ونشر العلم الشرعي، ومنابذة البدع، والاستعمار الفرنسي، حتى نفته فرنسا عام ١٩٣٩م إلى بلدة «أفلو» الصحراوية، ولم يفرج عنه إلا عام ١٩٤٣م. وانتخب رئيسًا للجمعية بعد وفاة ابن باديس عام ١٩٤٠م وهو في المنفى، توفي رحمه الله عام ١٩٦٥م انظر: مجلة البيان عدد ١٣ ذي الحجة ١٤٠٨هـ (١٣ ١٥).

(٢) من مقابلة مع مجلة الأمة. العدد ٢٩ جمادى الأولى عام ١٤٠٣هـ، فبراير عام ١٩٨٣م.

وقد قام بتأليف كتابٍ، لعله أقدم كتبه على الإطلاق، عنوانه «الإسهام التاريخي للحضارة العربية الإسلامية»، بعد إطلاق سراحه عام ١٩٤٣م، ثم طوى ذكر «الإسلام» وعاد إلى موطنه عام ١٩٤٤م.

وهكذا وُضعت بذور الاتجاهات الثلاثة المتغايرة؛ الماركسية، والنصرانية، والإسلام، في عقل هذا المفكر في العقود الثلاثة الأولى من عمره (١٩١٣-١٩٤٣م) لتنمو وتظهر في أوقات لاحقة.

- **أما المرحلة التالية**، فقد امتدت من عام ١٩٤٤م إلى عام ١٩٧٠م، وهي حقبة ما عرف بالحرب الباردة، وعلى الصعيد الفكري: الصراع بين الفكر الشيوعي والرأسمالي، فكان روجيه جارودي من أقطاب الفكر الشيوعي ومنظريه خلال هذه الحقبة، فتفرغ لخدمة الحزب الشيوعي الفرنسي بعد عودته من الجزائر، على مستويين:

- فعلى مستوى العمل الحزبي: انتخب نائبًا في البرلمان للحقبة ١٩٤٥-١٩٦٢م، وعضوًا في مجلس الشيوخ عام ١٩٥٩م لمدة ثلاثة سنوات.

كما طاف معظم دول أمريكا اللاتينية عام ١٩٤٩م، واتصل بالحركات الثورية.

كما أسس في مطلع الستينيات «مركز الدراسات والبحوث الماركسية» التابع للحزب الشيوعي الفرنسي وأداره عشر سنين.

- **وعلى المستوى الفكري**: أعد رسالتي دكتوراة، إحداهما في جامعة السوربون الفرنسية بعنوان «النظرية المادية في المعرفة» عام ١٩٥٣م، والثانية في معهد الفلسفة في أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي بعنوان «الحرية» عام ١٩٥٤م.

كما أصدر أكثر من عشرين كتابًا في الفكر الماركسي، والاشتراكية الفرنسية، على مدى عشرين سنة، ينافح فيها عن الشيوعية ويمجد رموزها، واتسمت مؤلفاته الأخيرة بروح النقد والاحتجاج، ما أدى إلى تفاقم خلافاته مع الحزب الشيوعي الفرنسي، فوضع حدًّا لذلك بتأليف كتابه «الحقيقة كلها» عام ١٩٧٠م، وفُصِل من الحزب، وقد كان وقع ذلك شديدًا عليه إلى الحد الذي جعله يفكر في الانتحار)⁽¹⁾.

أما المرحلة التالية التي أعقبت تحرره من الإسار الحزبي، فكانت بداية مشروعه الوحدوي العالمي لتوحيد الأديان والثقافات والفلسفات المختلفة، الذي نحن بصدد مناقشته، فأكب على دراسة الكتب المقدسة لدى مختلف الطوائف وأصدر في تلك المرحلة التي شغلت عقد السبعينيات عدة كتب في هذا الاتجاه، وخلال هذه المرحلة أسس روجيه جارودي «المعهد الدولي للحوار بين الحضارات» في جنيف عام ١٩٧٤م، (... بهدف إبراز دور البلاد غير الغربية، وإسهامها في الثقافة العالمية، حتى يتوقف الحوار ذو البعد الواحد من جانب الغرب، أو «المونولوج» الذي يقوم على وهم عقدة تفوق الإنسان الغربي...)⁽²⁾.

وقد ظل جارودي يردد هذه المعاني دون انقطاع، ووجد في الحضارة الإسلامية التي ألفت بين العلم والعقيدة ضالته، ورأى بصورة انتقائية في بعض أصوله، وتراث بعض أتباعه والمنتسبين إليه، ما يمثل إطارًا للحلم الذي ظل يداعب مخيلته الشمولية في وحدة العالم.

وبذلك يكون جارودي قد تهيأ لولوج مرحلة جديدة في نظر الآخرين، وهي المرحلة الإسلامية، وإن كان لا يراها هو بالمنظار نفسه كما سيتبين.

---

(١) انظر: روجيه جارودي، والمشكلة الدينية. محسن الميلي. تقديم: روجيه جارودي. دار قتيبة. بيروت دمشق. الطبعة الأولى عام (١٤١٣هـ-١٩٩٣م). (٣٢).

(٢) من مقابلة مع مجلة الأمة عدد ٢٩ جمادى الأولى عام ١٤٠٣هـ فبراير عام ١٩٨٣م.

- في مطلع الثمانينيات أصدر جارودي كتابين عن «الإسلام»:

أحدهما: «ما يعد به الإسلام» أو «وعود الإسلام» عام ١٩٨١م.

والثاني: «الإسلام دين المستقبل» أو «الإسلام يسكن مستقبلنا» عام ١٩٨٢م، ينتقد فيهما النظرة الغربية الإقصائية والتشويهية للإسلام، ويكشف عن قدرته على حل مشكلات العالم الراهنة، ولكنهما حملا أيضًا انحرافاتٍ فكرية خطيرة ظلت تصاحب جارودي في كتاباته التالية. وعلى إثر صدور هذين الكتابين أعلن نبأ اعتناق روجيه جارودي الإسلام عام (١٤٠٢هـ ١٩٨٢م). ولكنه دأب على إنكار أن يكون قد وقع له «تحول» Convertion بالمعنى المعهود، فعلى سبيل المثال: (يقول البعض عني اليوم بأنني اكتشفت الدين مؤخرًا. ليس صحيحًا. الدين كان حاضرًا في وعيي منذ البداية. الدين كإيمان جوهري، لا كنصوص حرفية وطقوسٍ محددة... لقد لازمني هذا الإيمان في أشد مراحل التزامي بالماركسية)(١). ويقول: (إن تحولي نحو الإسلام لم يكن محطة في طريق، بل كان الطريق كله)(٢). وهذا ملحظ ينبغي أن يتفطن له من يذيع البشائر بإسلام جارودي بعبارات لا يرتضيها جارودي نفسه ولا يقرها.

وعلى إثر إعلان نبأ إسلامه قام جارودي ببعض الخطوات «الإسلامية»:

- تزوج السيدة «سلمى الفاروقي» في نهاية شهر رمضان من العام التالي لإسلامه ١٤٠٣هـ الموافق ١٩٨٣م. وهي فلسطينية مقيمة في جنيف(٣). وكان لها دورٌ في إشهار إسلامه ورافقته في العديد من رحلاته إلى البلدان العربية، وقامت بدور المترجم في المؤتمرات والمقابلات واللقاءات التي أجراها(٤).

---

(١) المرجع السابق (١٢٢).

(٢) من مقابلة مع مجلة الموقف العربي. ديسمبر عام ١٩٨٧م.

(٣) انظر: روجيه جارودي. من الإلحاد إلى الإيمان. (٣٩-٤٠).

(٤) من مقابلة مع مجلة الأمة. عدد (٢٩) جمادى الأولى ١٤٠٣هـ فبراير ١٩٨٣م.

- أدى مناسك العمرة عام ١٩٨٣م برفقة زوجته.

- زار كلًّا من لبنان وسوريا في مارس عام ١٩٨٤م، والتقى الشيخ أحمد كفتارو مفتي سوريا، وألقى بعض المحاضرات.

- زار عددًا من دول الخليج العربي، والمملكة العربية السعودية، حيث حضر:

١. المؤتمر السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامي حول «الأقليات المسلمة في العالم»، المنعقد في الرياض في ١٤٠٦هـ الموافق ١٩٨٦م، وشارك فيه بإلقاء محاضرة بعنوان: «دور الإستراتيجية الصهيونية في الصراع العقائدي في الغرب، وكيفية مواجهته»(١)، مساء يوم ١٦/ ٥/ ١٤٠٦هـ.

٢. تسليمه جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام لعام ١٤٠٦هـ، مناصفة مع الشيخ الداعية: «أحمد حسين ديدات»، من جنوب إفريقيا. وقد جاء قرار الأمانة العامة للجائزة مسوغًا منحه إياها بثلاثة أسباب:

أ- إصداره الكتب التي تبرز صورة أمينة للإسلام، مثل: «الإسلام يسكن مستقبلنا»، و«وعود الإسلام»...

ب- دفاعه عن فلسطين وأهلها دفاعًا مجيدًا في مواقفه المختلفة...

ج- مشاركته في العديد من المؤتمرات العالمية التي يوازن فيها بين الحضارات، وينوه بالمبادئ والأصول الإسلامية، ويؤكد أن التزامها كفيل بالوصول إلى الخلاص من الويلات التي تهدد العالم)(٢).

---

(١) انظر نص المحاضرة في المجلد الثالث لأعمال المؤتمر (١٣٧٤ ١٣٥٩).

(٢) مجلة الفيصل. عدد (١٠٧) (١٤٠ ١٤١).

كما ألقى محاضرة بعنوان «كيف أسلمت»، مساء اليوم الأول من رجب عام ١٤٠٦هـ.

- زار مصر في أغسطس عام ١٩٨٦م، وحاور علماء الأزهر.

- شارك في الملتقى الإسلامي في الجزائر حول الإسلام والعلوم الإنسانية، المنعقد في مدينة «سطيف» عام ١٩٨٦م، وطرح بعض أفكاره الشاذة، ونوقش من قبل بعض العلماء المشاركين(١).

- وخلال هذه المرحلة ألف عددًا من الكتب التي تحمل فهمه وتصوره عن الإسلام ومستقبله منها: «من أجل إسلام القرن العشرين» أو «ميثاق إشبيلية»، عام ١٩٨٥م، وأصدر جملة من الكتب المناهضة للصهيونية ودولة إسرائيل من أهمها(٢):

١. كتاب «ملف إسرائيل» أو «قضية إسرائيل والصهيونية السياسية» عام ١٩٨٢م. وقد امتنعت كثير من دور النشر الكبرى عن نشره.

٢. كتاب «فلسطين مهد الرسالات السماوية» ١٩٨٦م، وهو يمثل دراسة

---

(١) في (الملتقى الإسلامي العشرون) في مدينة سطيف في الجزائر أغسطس عام ١٩٨٦م عرض جارودي أمام علماء المسلمين خمس نقاط خطيرة:

١ - تطوير التشريع الإسلامي ليلائم العصر.

٢ - مهاجمة العصر الأموي والعباسي.

٣ - الإشادة بـ«سارتر» والفكر الوجودي، والدعوة للأخذ منه في بناء منهج إسلامي للعلوم الإنسانية. وكذلك ماركس وأفكاره.

٤ - تحسين التصوف، وتمجيد القائلين بالحلول ووحدة الوجود.

٥ - دعوته إلى الموسيقى.

وقد هزت هذه المحاضرة دوائر الملتقى، وطلب الرد عليه سبعة وثلاثون باحثًا، ونصح بعدم الخوض فيما لا يعرف، وأن يقتصر على فضح الحضارة الغربية، انظر: تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة (١٧٥ ١٧٦).

(٢) يراجع الأصل للمزيد من مسميات الكتب التي ألفها في تلك الفترة.

تاريخية موثقة لفلسطين تبطل المزاعم الصهيونية بـ«الحق التاريخي» لليهود في فلسطين، كما يحمل فكرة «الإبراهيمية» التي ظل يعمل من أجلها.

وكان اللوبي اليهودي في فرنسا قد نجح عام ١٩٩٠م في استصدار قانون، عرف بقانون «جيسو فايوش»، يعد أن «إعادة النظر في تاريخ اليهود جريمة ضد الإنسانية»(١)، وعليه قدم جارودي للقضاء في إثر صدور هذا الكتاب، وقضت محكمة الجزاء الفرنسية في باريس يوم ٢٧ فبراير عام ١٩٩٨م بتغريمه مبلغ ١٢٠ ألف فرنك فرنسي (٣٠ ألف دولار)، بموجب ذلك القانون(٢).

وبعد، فهذه معالم بارزة في شخصية هذا الفيلسوف المفكر الذي يصدق عليه الوصف «مالئ الدنيا وشاغل الناس»(٣). وبلغ ما ألفه من الكتب أكثر من خمسة وخمسين كتابًا، سوى المقالات والمحاضرات. تُرجم بعضها إلى أكثر من اثنتين وعشرين لغةً عالمية، وسائرها إلى ثلاث لغاتٍ على الأقل، كما كُتب عنه أكثر من ثلاثين كتابًا(٤).

---

(١) انظر: مقدمة الطبعة العربية لكتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» للناشر حمدان جعفر. مدير عام دار الغد العربي (٨).

(٢) انظر الصحف الصادرة في ٢٨ فبراير عام ١٩٩٨م، ومجلة «العالم» العدد، الأول صفر ١٤١٩هـ-يونيو ١٩٩٨م (٢٤).

(٣) انظر في ترجمته وتحليل أبعاد شخصيته: - غارودي سلسلة أعلام الفكر العالمي. تأليف سيرج بيروتينو. ترجمة منى النجار «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» ١٩٨١م.
- روجيه جارودي والمشكلة الدينية. تأليف محسن الميلي. قتيبة بيروت ١٤١٣هـ. وقد امتدح جارودي نفسه هذه الدراسة، وفضلها على تسع عشرة أطروحة عنه.
- مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية. المبحث العاشر (٣٤٢ ٣٨٢). تأليف د. محمد بن عبد الله السحيم. دار الفرقان الرياض ١٤١٧هـ وغيرها.

(٤) انظر مسردًا تفصيليًا بأعمال جارودي والدراسات التي تناولته في ذيل كتابيه الجديدين:
- الإسلام، نحو حرب دينية: جدل العصر. دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ١٩٩٦م. وكذلك في ذيل كتاب روجيه جارودي والمشكلة الدينية.

فهل أسلم روجيه جارودي حقًّا؟ والجواب ندعه لجارودي نفسه:

- قال في مقابلة مع جريدة «البعث» السورية في ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م: (إنني عندما أعلنت إسلامي لم أكن أعتقد بأني أتخلى عن مسيحيتي، ولا عن ماركسيتي، ولا أهتم بأن يبدو هذا متناقضًا أو مبتدعًا)(١).

- قال في مقابلة مع جريدة تشرين السورية في ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م:

(أحب هنا أن أؤكد بأنني لم أُدِر ظهري للماركسية على الإطلاق، ولم أقُل ذلك... إيماني بالإسلام هو إنجاز وليس انشقاقًا، في الوقت الذي لا أنكر فيه المسيح ولا ماركس(٢)، ولا قضية حياتي المركزية. وأنا سعيد الآن وأنا في السبعين من عمري لأنني بقيت مخلصًا لأفكاري)(٣).

أما ثناؤه على ماركس والماركسية فلم ينقطع، ولا يكاد يخلو منه كتاب من كتبه الأخيرة ومقابلاته(٤).

وظل جارودي يشيد بأفكار ماركس الاقتصادية، ويلقي باللائمة على الأتباع الذين أخطؤوا التطبيق، وخانوا الماركسية، من السوفيات، وفي واحدٍ من أخريات كتبه قبل سنيات(٥).

---

(١) عن: روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (٢٠٠).

(٢) ماركس (كارل) (١٨١٧ ١٨٨٣): ولد في تري (ألمانيا)، من رجال السياسة والفلسفة الاجتماعية. حرر «البيان الشيوعي» بالتعاون مع «إنغلز»، وأسس «الدولية الأولى». له «رأس المال» وهو عرض لنظريته، أصبح فيما بعد دستور الماركسية والنظام الشيوعي. المنجد في الأعلام (٦٢٦).

(٣) المرجع السابق (١٨٩).

(٤) انظر: مقابلة مع مجلة الموقف عام ١٩٨٤م. عن روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (١٧٨ ١٧٩). كتابه «نحو حرب دينية» (٥٤ ٧٢). نحو حرب دينية. جدل العصر. روجيه جارودي. مقدمة: ليوناردو بوف. ترجمة: صياح الجهيم. (٥١ ٥٤).

(٥) انظر: كتابه «نحو حرب دينية» (٥٤ ٧٢).

وقد دأب على ترديد عبارات الاستمساك بماضيه طوال المدَّة اللاحقة لإسلامه المزعوم، وفي عقر دار المسلمين.

فهل يبقى شك عند مسلم أن الرجل لم ينعتق من ماضيه، ولم يسلم وجهه إلى الله وهو محسن، بل أسلم وجهه إلى عقله وهو مسيء، فاختار ما راق له من أصول الإسلام العظام، وأعرض عما لا يوافق مشروعه العقلي، تمامًا كما صنع المتكلمون والفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام من قبله.

وهذه النصوص التي سقناها آنفًا من كلامه عن نفسه كفاحًا، كافية للحكم عليه، أما تفاصيل مشروعه التوحيدي بين الأديان والوثنيات، ومفهومه للإسلام فبابٌ من أبواب الكفر واسع، وهو ما نعرض له الآن.

• ثانيًا: مشروع روجيه جارودي الفكري للتقريب بين الأديان:

خلافًا لسائر المحاولات السائدة للتقريب بين الأديان التي تجري على حذر، وتتحاشى المساس بالمعتقدات الأساسية لدينٍ ما، أو تكتفي بمعالجة جانبية لموضوع من الموضوعات المشتركة بين ديانتين أو أكثر، تمثل محاولة المفكر الفرنسي روجيه جارودي مشروعًا فكريًّا ذا صفة شمولية، واقتحامات جريئة لحدود الأديان، في سبيل تمييع تلك الحدود ضمن أطر قيمية، ومنظومة عالمية وحدوية تستوعب كل الحضارات والديانات والتقاليد، متخذة من «الإسلام» الذي صاغه جارودي، المجرى الكبير الذي تصب فيه مختلف الروافد، وتمتزج به.

ويتضح ذلك عندما يتحدث جارودي عن بواعث اعتناقه للإسلام، فيقول: (إن الفكرة الأولى لعلاقات المسلمين مع بقية الطوائف الدينية في فكر ورأي

النبي ﷺ(١)، كانت إقامة ما نسميه اليوم «وحدة فيدرالية» للطوائف الدينية. لكن حصل أن هذا الأمر لم يتحقق أبدًا في التاريخ، لا في المسيحية، ولا في اليهودية أو في الإسلام. لكن أعتقد أن هذه المعادلة قابلة للعيش والاستمرار، أي أن تصل بنا إلى روابط الجماعة، وروابط الأرض، وروابط السوق المشترك، وحتى روابط الماضي والثقافة، وإقامة كل شيء على أساس المستقبل، أي على الإيمان المشترك بمعناه الأرحب والأوسع، وحتى الملحدون ممكن أن يكون لديهم إيمانٌ بالإنسان، وبإمكانهم إقامة طائفة دينية بالمعنى الذي قلناه فيما سبق لتعميق هذا الاحترام الأساسي للإنسان.

هكذا أعتقد ما هو ممكن، لكنني أعترف أن هذا أحد الأسباب التي جذبتني للإسلام، ذلك أن الإسلام هو أكثر الديانات جمعًا وتوحيدًا للناس، وهو بمنزلة «عصارة وزبدة الأديان»)(٢) نحو تحقيق مشروع «مستقبل ذي وجه إنساني»(٣)، فظل جارودي يرسم صورته، ويحدد أبعاده في حقبة السبعينيات من خلال «المعهد الدولي لحوار الحضارات».

ومن ثم فقد أقبل جارودي على الإسلام الذي وجد فيه العناصر الأساسية لمشروعه الوحدوي الإنساني، وقد بيت ما يريد، لم يعتنق الإسلام وهو مستعد للتلقي، فالقبول، فالتنفيذ، كما هو حال من يسلم وجهه لله، خالعًا على عتبة الإسلام كل ما كان من أمر الجاهلية، مطرحًا كل مقدمة، ووسيلة، ونتيجة،

---

(١) ما جاء به نبينا محمد ﷺ ليس مجرد «فكر» أو «رأي» كما زعم جارودي، بل هو اتباع الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. وقال: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠].

(٢) من مقابلة مع مجلة الموقف عام ١٩٨٤م. عن روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (١٨١ ١٨٢).

(٣) هكذا كان يسمي جملة من أبحاثه في الفترة التي تلت فصله من الحزب الشيوعي.

تخالف النص الإلهي والتوجيه النبوي. كلا، بل احتكم إلى عقله ورأيه وتجربته المتنوعة، فاعتقد ما يراه صوابًا، ثم خاض في عالم الإسلام يصطفي، ويستبعد، ويقدم ويؤخر، ويعظم ويهون، وفق ما يناسب مشروعه في التقريب بين الأديان والثقافات.

وسنحاول في الصفحات التالية استبيان سبيل جارودي في توصيفه للإسلام الحي، إضافة إلى نقده التاريخي لمسيرة الإسلام وأهله، ورؤاه المستقبلية. وذلك من خلال أقدم كتاباته الإسلامية في منتصف الثمانينيات، وأحدثها في منتصف التسعينيات، ليتضح جليًّا ما سبق تقريره من أن جارودي دخل عالم الإسلام بمشروع مبيَّت واضح المعالم والأبعاد، وظل مقيمًا عليه حتى الآن، وأنه لم يطرأ عليه «ردة» بعد إسلام كما ظن بعض الناس، بل لم يصح إسلامه أصلًا، وإنما حجب هذه الحقيقة الواضحة رهج العواطف، وغبار العجلة.

١) إرساء المدلول العام للإسلام، وإقصاء المدلول الخاص:

من المعلوم بداهة أن الإسلام دين الله الذي أوحى به إلى جميع أنبيائه، من حيث أصل الاعتقاد، وهو الاستسلام لله سبحانه بالعبودية المطلقة، والخلوص من الشرك، والانقياد له وحده بالطاعة؛ كما نطق بذلك جميع أنبياء الله ورسله، ودعوا أقوامهم قائلين: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

وقد درج علماء الإسلام على تقرير هذا المعنى في مقام بيان أن التوحيد أول دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وفي سياق بيان منزلة نبينا محمد ﷺ العالية، وشرفه وفضله على سائر الأنبياء، بوصفه خاتمهم وسيدهم، الذي أخذ الله ميثاق الأنبياء قبله على الإيمان به، وتعظيم شأنه.

ولكن جارودي حين يقرر هذا المعنى يشدد على الإسلام بالمعنى العام، ويغفل الإسلام الخاص الذي أكمل الله به الدين وأتم به النعمة، ولا يشير إلى نسخه لبقية الأديان، ويثبت أن القرآن مصدق للتوراة والإنجيل ولا يقرر أنه مهيمن عليهما، وغاية ما يبلغه أن الجميع على قدم المساواة، وليس لأهل الإسلام «المسلمين» أن يتميزوا عمن سواهم بدعوى أن عقيدتهم هي الأفضل. وفوق ذلك يغمط نبينا محمدًا ﷺ فضله بكلامٍ فيه جفاء، أو مقتضٍ تفضيل عيسى عليه السلام عليه. وإليك البيان:

قال في وثيقة إشبيلية عام ١٩٨٥م:

١- لا يمكن أن يكون إسلام القرن العشرين إلا الإسلام الأزلي، ذلك لأن الإسلام ليس دينًا ضمن سائر الأديان، ولكنه الدين الأصيل والأول منذ أن نفخ الله في الإنسان من روحه... ذلك هو الإسلام الذي سماه القرآن «سنة الله»... وأول واجب علينا هو أن نعلن عقيدتنا الإسلامية بأن نعيش الإسلام بكليته، دون انحياز إلى عصبية، أو أعرافٍ خاصة.

٢- لم يزعم محمد ﷺ قط أنه جاء بدينٍ جديد... إننا نضعف عقيدتنا لو زعمنا بأننا أفضل الخلق، لمجرد تجاهلنا جميع من هم سوانا)⁽¹⁾.

وقال بعد عشر سنين في كتابه «الإسلام» عام ١٩٩٦م: (ليس الإسلام دينًا جديدًا ولد مع نبوة النبي محمد ﷺ، ليس الله إلهًا خاصًا، وقفًا على المسلمين.

«الله» هو الترجمة الحرفية لكلمة تدل على الإله الواحد الأحد. والمسيحي العربي يقول في صلاته وشعائره: الله، ليتضرع إلى ربه. ويعني الإسلام: التوكل

---

(١) من أجل إسلام القرن العشرين «ميثاق إشبيلية» روجيه جارودي. (٦٥). قال الدكتور سعد عبد المقصود في تعقبه لجارودي ووثيقة إشبيلية: (أليس إرجاع الشيء الفاسد إلى صحته، وتطهير الدين من رجس أصحاب الأديان وجلاؤه مما يعتبر جديدًا؟ أليست العودة إلى الصحيح، ورد الاعتقاد الفاسد إلى مصدره الأصيل من الصحة جديدًا؟) لا لجارودي ووثيقة إشبيلية (٤٥).

الإرادي والحر على الإله الواحد الأحد، وذلك هو القاسم المشترك بين الأديان المنزلة: يهودية ومسيحية وإسلام)(١).

وقال في كتابه: «نحو حرب دينية» عام ١٩٩٦م أيضًا: ... أترك الكلام للقرآن الكريم حيث يجري الكلام عن يسوع أفضل مما هو عن محمد ذاته...)(٢).

إن جارودي يرمي إلى ألَّا يتطلع المسلمون إلى قصر مفهوم الإسلام على ما جاءهم به رسول الله ﷺ، بل أن يعدوا أنفسهم شركاء فقط في «الإيمان الإبراهيمي»، سواءً بسواء كاليهود والنصارى، ومن ثم فعليهم أن يكفوا عن محاولة طبع العالم بطابعهم التقليدي الخاص، أو ما يسميه أسطورة «الأسلمة».

ويعُد اعتقاد المسلمين بأن دينهم الخاتم هو الدين الكامل «تطرفًا» و«أصولية»، فيقول: (التطرف الإسلامي مرض الإسلام، كما أن الأصولية مرض جميع الأديان. الأصولية هي ادعاء الأصولي أنه يمتلك الحقيقة المطلقة وأنه يمتلك، من ثم، لا الحق فحسب، بل والواجب أيضًا في فرض تلك الحقيقة على الجميع ولو بالحديد والنار... والادعاء الغربي أنه «الثقافة»، وليس ثقافةً بين ثقافات أخرى، تعارضه حينئذٍ أسطورة «الأسلمة» التي تنسى الطابع الشامل للإسلام «التسليم لله»، وتطرح نفسها مالكةً دون غيرها للحقيقة المطلقة...)(٣).

إن هذا الأصل الفاسد هو الأساس الذي بنى عليه جارودي مسجد ضراره، فجاءت فروعه ظلمات بعضها فوق بعض، وشبهات بعضها يأخذ برقاب بعض، كما سيأتي.

---

(١) الإسلام (١٧).

(٢) نحو حرب دينية (٢٢ ٢٣). وغير خافٍ أن الفضل الخاص لا يقضي على الفضل العام، وإلا فإن خلق آدم عليه السلام بيدي الله، ونفخه فيه من روحه، أعظم من الولادة الخارقة للطبيعة.

(٣) نحو حرب دينية (٣٠ ٣١).

٢) التفسير التاريخي للإسلام، من منظور التقريب بين الأديان والحضارات:

تقدم جارودي بتفسير جديد للتاريخ الإسلامي، لا سيَّما وهو حديث عهد بالتفسير المادي للتاريخ الذي جاءت به الفلسفة الشيوعية.

فأراد جارودي التقليل من الأهمية التاريخية للإسلام بوصفه دينًا جديدًا، جاء بعقيدة صافية نقية كاملة شاملة، تفارق سائر العقائد السائدة في الأرض حينذاك، وتعلو عليها، وشريعة عادلة حكيمة متضمنة لمصالح العباد الدينية والدنيوية، أراد تفريغ حركة الفتح الإسلامي الجهادي من هذا المحتوى، وتصويره مجرد «يقظة دينية» لمذهب «الأريوسية»⁽¹⁾، الذي يصنف كواحدٍ من «الهرطقات» النصرانية المنقرضة، و«ثورة اجتماعية» تعيد تقسم الثروات بين الناس، و«تحولًا ثقافيًّا» يفسح المجال أمام نمو العلوم والحِكم والفلسفات والصناعات وعمارة الأرض، وهو في هذا الأخير، يسلط الأضواء على تراث الفلاسفة والمعتزلة والصوفية والباطنية، ويطمس التاريخ العلمي الحقيقي للأمة، المتمثل في نتاج علماء العقيدة والفقه والحديث.

ومن شواهد هذه «القراءة التاريخية» الجائرة لحركة الفتح الإسلامي، كما يتهجَّاها جارودي بعنت ومشقة وتتعتع مفضوح، نقتطف ما يأتي:

(إن شعوبًا كان الإيمان القديم قد كفَّ عن أن يمنح حياتها ومؤسساتها روحًا، المسيحية في الإمبراطورية البيزنطية، والمزدكية في الإمبراطورية الفارسية، هي التي استقبلته استقبالًا حماسيًّا. فالإسلام يكوِّن يقظة دينية تمنح روحانية هذه الشعوب حياة جديدة... كانت الشعوب تحتفي بالمسلمين بوصفهم محررين، ورجال إيمان يحترمون إيمان الآخرين وينعشونه، في ضوء آخر الأنبياء)⁽²⁾.

---

(١) راجع مبحث النصرانية في التمهيد.

(٢) الإسلام (٢٧ ٢٨).

فهل يظن جارودي أن أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى، ودخلوا في دين الله أفواجًا، قد بقوا مثله متمسكين بنصرانيتهم ومزدكيتهم، كما صنع هو بتمسكه بنصرانيته وماركسيته معًا، مع ادعاء الإسلام أيضًا؟

ثم يقدم مثالًا تاريخيًّا يكشف عما يعتمل في قلبه من حسدٍ للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وهو تعليل انتشار الإسلام في إسبانيا:

(إن الإسلام طعَّم الأريوسية من الناحية الدينية، في شبه الجزيرة الإيبيرية، فكانت أجمل فسيل من فسائله)(١). ويبلغ التجاهل والطمس لمضمون الفتح الإسلامي الجهادي ذروته، حين يزعم جارودي، أنه حتى بعد مرور مئة وأربعين سنة من فتح المسلمين للأندلس، لم يكن أيًّا من اللاهوتيين المسيحيين الناطقين باللاتينية من مدرسة قرطبة يعرفون اسم «محمد» ﷺ، ولا اسم القرآن الكريم!

فيقول: (**إن الإسلام الذي كان ينتشر على الشاطئ انتشارًا بطيئًا**، وبخاصة في «ألميرة» حيث الاتصالات مع الشرق أكثر وثاقة، **لم يعبر عن نفسه بوصفه تيارًا جديدًا في الداخل**، وفي قرطبة على وجه الخصوص، إلا بدءًا من هذا العصر... وكان ممكنًا للإسلام خلال قرن ونصف ألَّا يكون متميزًا، باستثناء مدن الشاطئ(٢)...

ونقول باختصار: إن الانتشار السريع للإسلام في إسبانيا لم يكن نصرًا حربيًّا، إنه يمثل للأغلبية الواسعة من هذا الشعب يقظة دينية: لم تكن -بالنسبة للجزء الأريوسي من السكان- الأكثر عددًا متناقضة مع إيمانه، بل ذات استمرارية

---

(١) الإسلام (٣٢).

(٢) علق في الحاشية بقوله: (لأن في مدن الشاطئ يرسو فقهاء آتين من الشرق لا يعتبرون «مسلمًا» إلا من كان بعد النبي محمد).

معه، وكانت قد حررته من الاضطهاد الذي كان ضحيته حتى ذلك الزمن بوصفه هرطقة...)(١).

ذلك ما يسعى جارودي لإرسائه بشأن التاريخ الإسلامي:

١- أنه لا يحمل دينًا جديدًا مميزًا، بل مجرد يقظة دبت في أمم تختزن أديانًا سابقة، نبهتها من سباتها حركة بطيئة لم تعبر عن نفسها بوصفها تيارًا جديدًا، إلى الحد الذي يمضي قرن ونصف من الزمان دون أن يكتشف الناس، بل ولا رجال الدين المتخصصون، اسم نبي هذا الدين واسم كتابه!

وليت شعري ألم يكن بناء المساجد، ودوي المآذن في مدائن الأندلس بالشهادتين، ومنها جامع قرطبة الذي يتغنى جارودي بموسيقى حجارته كما يعبر(٢) كافيًا لتقديم هذه المعلومة الأولية لآحاد الناس فضلًا عن الأساقفة الموتورين؟!

٢- إنكار الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

يقول جارودي: (المثال النموذجي للإرادة في تخريب الإسلام، وذلك منذ قرون طويلة حتى أيامنا هذه، يكمن في ترجمة كلمة «جهاد» بـ«حرب مقدس»... ويميز التقليد الإسلامي الأسمى، والأكثر أمانة، «الجهاد الأكبر» أي النضال ضد أنفسنا، ونزعاتنا الأنانية التي تدمر «الأمة»، من «الجهاد» الأصغر، وهو أيضًا «جهد» وتضحية يتجه شطر الخارج للدفاع عن الإيمان، ومقاومة كل ظلم يمارس على أولئك الذين يريدون أن يعملوا وفق هدى الله، وليس بهدف نشر الإيمان الذي لا يمكنه أن يكون بالقوة)(٣).

---

(١) الإسلام (٣٨- ٣٩، ٤٣- ٤٤).

(٢) انظر: الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة الروح والفكر. لجارودي. ترجمة: د.محمد الصدر. دار الهادي. بيروت لبنان. الطبعة الأولى (١٤١١هـ-١٩٩١م). (٢٢٩ - ٢٣٠).

(٣) الإسلام (١٠٦ - ١٠٧).

ومن هنا يلح جارودي على أن الانتشار السريع للإسلام في إسبانيا لم يكن نصرًا حربيًّا. ويصف أمجاد الفتح الإسلامي الجهادي في الأندلس بـ(خرافة الغزو العربي لإسبانيا)⁽¹⁾.

إن مجمل حركة التاريخ الإسلامي باعثها الجهاد في سبيل الله، لنشر دين الله وإعلاء كلمته، لا لإكراه الناس على الدين، وإنما لتكون كلمة الله هي العليا.

أما جارودي فقد قرأه مغمضًا عينيه، متنكرًا لأمانة المؤرخ، فسلب الأمة الإسلامية خيريتها، وغمطها حقها، زاعمًا أن الإسلام الذي أنتج أعظم حضارة في التاريخ سرى سريانًا بطيئًا لا يكاد يتبينه أحد، ولم يحدث تحولًا جذريًّا في حياة الناس وعقائدهم، بل نفض الغبار عن إيمانهم الراكد، لا عن طريق الجهاد بل عن طريق الفكر والفلسفة، وهو بذلك يوجه رسالة للأمة الإسلامية التي تحاول أن تنهض من رقدتها قائلًا للمسلمين: كُفُّوا عن الشعور بالعلو والخيرية، فلستم وحدكم المسلمين، وإياكم والتفكير بنشر دينكم الخاص، فليس لديكم مستند ديني ولا تاريخي يخولكم القيام بهذه المهمة المزعومة، وهيئوا أنفسكم للانخراط في موكب الوحدة الإنسانية العالمية.

ذلك فحوى معالجته التاريخية للإسلام، أما نص خطابه المستقبلي المؤسس على تلك المعالجة فهو ما يأتي: (إن الأمر اليوم بالنسبة إلينا، بعد أن نبين كيف يمكن أن يعيش الإسلام، ويعبد الله في مجتمعاتنا، لا في الانعزال، والحلم بعودة الماضي، بل بالنضال مع كل المؤمنين الذين يعتقدون أن للعالم معنى، وأن العالم واحد... يناضل فيه المسلمون والمسيحيون والبوذيون، لكي يعطوا كل إنسان مهما يكن لونه، وأصله ودينه، كل الوسائل التي تساعده على تفتيح كل الإمكانات التي يحملها في داخله)⁽²⁾.

---

(١) الإسلام في الغرب (١٧).

(٢) الإسلام (١١ ١٢).

وقد فاجأ جارودي علماء المسلمين المبتهجين بإسلامه بهذه الأفكار، فحكى الأستاذ أنور الجندي انطباعاته عن اللقاء أو ربما الصدام الذي جرى بين جارودي وبعض علماء المسلمين في ملتقى «سطيف» بالجزائر عام ١٩٨٦م قائلًا: (كان أول ما يفاجئ به جارودي سامعيه تلك الحملة الواسعة على تراث الإسلام وتاريخ الإسلام، وانتقاص عصر الأمويين والعباسيين على نحو يكشف عن غاية هي أكبر محاولة تجاوز تاريخ الإسلام وتراثه جميعًا، من أجل التطلع إلى آفاقٍ عصرية يراها لا تحتاج أبدًا إلى النظر إلى ذلك التراث، أو الاهتمام به، فجاء تناوله هذا يحمل طابع الاستخفاف والتجاهل. ويمكن أن يفهم هذا في ظل ما حاول أن يدعو المسلمين إليه من الانتفاع بميراث ماركس وسارتر⁽¹⁾ حين حاول أن يحسنه ويدعو المسلمين إليه كمصدر من مصادر النهضة)⁽٢⁾.

٣) تقويم الحضارة الإسلامية وتراثها، من منظور التقريب بين الأديان والحضارات:

في دراسته وعرضه للتراث العلمي والحضاري للأمة الإسلامية، سلك روجيه جارودي مسلكًا انتقائيًّا مجحفًا، يعتمد إبراز الاتجاهات المنحرفة، وتمجيد رموزها، والحط من سبيل المؤمنين، أهل السنة والجماعة، والسواد الأعظم للأمة الإسلامية عبر القرون. ويتماشىٰ هذا المسلك مع مشروعه التقاربي بين الأديان والحضارات، حيث التقط من مطاوي التاريخ كل زنديق، ومغموط في دينه، ومبتدع ينتسب إلىٰ الإسلام، فحسَّن صورته، وعظَّم شأنه، وأشاد بأقواله،

---

(١) سارتر (جان بول)، فيلسوف وكاتب فرنسي، ولد في باريس ١٩٠٥م، من روّاد الوجودية المتشائمة. عرض أفكاره في محاولات وقصص ومسرحيات منها «الكائن والعدم»، «طرق الحرية»، «الجدار». المنجد في الأعلام (٣٤٤).

(٢) تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة (١٧٥).

فأصحابه أصحاب وحدة الوجود والقول بالحلول والاتحاد، من زنادقة الصوفية والباطنية، ومؤلهة العقل، من المعتزلة وأشباههم، وأعداؤه أئمة الحديث والسنة والفقه في الدين، من السلف الصالح. وعليه فإن الحضارة الإسلامية التي يشيد بها ويتغنىٰ بأمجادها ليست ميراث النبوة الحقيقي والوحي الأمين، وإنما الفلسفة وعلم الكلام وشطحات الصوفية، ذلك أن أهل الإسلام الذين حفظوا الوحيين، وضبطوا حدود الدين، يحولون بينه وبين ما يشتهي من «شيوعية» دينية، ووحدة عالمية كفرية. في حين أن أرباب الصوفية يوافقونه في قبول كل صورة من صور الكفر والإلحاد، ويقاربونه في نصرانيته التي لا يزال مقيمًا عليها في فكرة حلول الإله بالإنسان، كما أنه اعتضد بمنهج المعتزلة العقلاني، وقولهم بخلق القرآن، وأنه ليس كلام الله حقيقة، يمهدون له الطريق للقول بتاريخية النص القرآني، وقابليته للنقد. أما الباطنية علىٰ اختلاف درجاتهم في التأويل الفاسد، فيتيحون له المجال للعبث بأحكام الشريعة، وصرفها عن ظواهرها إلىٰ ما يراه مناسبًا لـ«إسلام القرن العشرين».

ومن ثم جاءت كتاباته ومقابلاته طافحةً بذم الفقهاء والمحدثين وتنقصهم، وتمجيد المتصوفة والمعتزلة وإبرازهم. ويربط جارودي ربطًا تاريخيًّا «مقلوبًا» بين ظهور هؤلاء الزنادقة وامتداد الحضارة الإسلامية ونموها في زعمه من جهة، وتسلط الفقهاء وتمكنهم وانحسار الحضارة الإسلامية من جهة أخرى.

علىٰ أن «الامتداد» و«الانحسار» عنده ليسا كما يتبادر إلى ذهن كل مؤرخ منصف، من حيث كونهما معيارًا لتقدم الفتوح الإسلامية ودخول الناس في دين الله أفواجًا، ونشر أعلام السنة، بل لامتداد الفكر الباطني، وانحسار العلم الشرعي. فمن ثم يبتدع تقسيمًا تاريخيًّا للحضارة الإسلامية، فيزعم حصول ثلاثة انحسارات للإسلام:

(**الانحسار الأول للإسلام**: مناسبة تاريخية ضائعة: مذهب المعتزلة الذي أدانه التعصب من الأشعري(١) إلى ابن حنبل(٢): التشويه الأول الذي أصاب الفكر الإسلامي بإدانة المعتزلة... فكر الانفتاح والبحث...

الانحسار الثاني للإسلام: بعد النهضة الصفوية في فارس، وحكم أكبر في الهند وإشعاع قرطبة... عندما حاول بعض الخلفاء القليلي الثقة بالقوة والإشعاع الحر للإيمان الإسلامي، أن يجعلوا سلطتهم أكثر مركزية وأكثر استبدادية، وضعوا نهايةً لهذه الحرية المبدعة... وهذا الانطواء المرعب كان سيضغط على كل التاريخ اللاحق للإسلام، إذ يحكم عليه بسيادة التقليد القديم والانغلاق على الذات... وما يميز «الانحطاط الحنبلي» هو الآتي:

- الميل إلى تقليص مبادئ الإسلام في تطبيقها الذي مورس في القرون الأولى... فرسالة القرآن كانت كلية، في حين أن هذا التقليد كان قد أصبح ذا خصوصية. كان إنتاج الأحاديث يجري في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام وحمل بالطبع بصمتها التاريخية...

---

(١) علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد بالبصرة عام ٢٦٠هـ. وتلقى مذهب المعتزلة وبرز فيه ثم رجع وجاهر بخلافهم. وتوفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ، ومن مصنفاته «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، «الإبانة عن أصول الديانة»، الأعلام (٤/ ٢٦٣)، طبقات الشافعية (٢/ ٢٤٥)، البداية والنهاية (١١/ ١٨٧).

(٢) إن هذا الابتداء والانتهاء «من الأشعري إلى ابن حنبل» ليكشف عن القراءة العجول المتسرعة للتاريخ الإسلامي التي تقدم المتأخر، وتؤخر المتقدم. فالإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ٢٤١هـ) رحمه الله سابق للأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤هـ) زمنًا ورتبةً وبلاءً حسنًا، في نقض أصول المعتزلة وصد بدعتهم، واحتمال محنتهم في سبيل حفظ الدين والسنة.

ومع تقطيع أوصال الملكيات المسماة «إسلامية» في الشرق... وفي الغرب... أفلت الفكر من الضغوط الخانقة لهذه المركزية السلطوية، وعندئذٍ ازدهرت عبقرية الإسلام: من ابن سينا(١) إلى الرومي في الشرق، ومن أبي القاسم إلى ابن عربي في إسبانيا: ثمة انطلاقة جديدة في البحث العلمي والتقني، وانتشار جديد للثقافة والفنون.

وتنتصر الدوغماتية(٢) مرة إضافية أخرى. والخوف من الاجتهاد وتواطؤ الأمراء المستبدين مع العلماء الخدم... ومات العلم الإسلامي بسبب هذه الدوغماتية، وهذا الرفض للروح النقدية زوح المعتزلة وإخوان الصفا فيما بعد، وروح كل المحاولات ليقظة الفكر المبدع، فكر الإسلام.

ويتجلى على المستوى الروحي هذا الإذلال للفكر الإسلامي، عندما قاد الجفاف الفقهي، والميل الرئيس إلى النظام، بعد قرنين، ابن تيمية إلى إدانة ابن عربي، أحد التعبيرات الأكثر سموًّا لداخلية الإسلام وأبعادها في الحب، وإلى إدانة الشعراء الصوفيين الفارسيين...

ويظل ابن تيمية معًا، على الرغم من جهوده في إضفاء الداخلية على الإيمان، تلميذ ابن حنبل الذي كان، وقد أخرس المعتزلة، النصير الأنشط لـ«إغلاق

---

(١) الحسين بن عبد الله بن سينا. أبو علي، ولد في بخارى سنة ٣٧٠هـ. اشتغل في الفلسفة والطب والمنطق. كان هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم العبيدي. من تصانيفه: الشفاء والإشارات والقانون. توفي سنة ٤٢٨هـ./ انظر: الأعلام (٢/ ٢٤١)، وفيات الأعيان (١/ ١٥٢)، لسان الميزان (٢/ ٢٩١).

(٢) الدوغماتية Dogmatism من Dogma أي عقيدة أو مبدأ، وغالبًا ما تستعمل كلمة دوغماتية للدلالة على العقائد القطعية التي تفرض بنوع غطرسة، ومن غير مبررات كافية. انظر: المورد (٢٨٧).

الاجتهاد»، على عكس ابن تيمية الذي كان يقتصر على جعله اختصاص القلة، وأستاذ عبد الوهاب... وهو، بوصفه كذلك، معلم المحافظين جميعهم وصنمهم...

الانحسار الثالث للإسلام بعد جهد «بناءٍ جديد» للفكر الإسلامي من الأفغاني إلى إقبال: الإسلاموية مرض الإسلام، كما الأصولية مرض الأديان كلها. فالأصولية هي الادعاء بملكية الحقيقة المطلقة، ومن ثم وجوب فرضها على الجميع... وتعود المنابع العميقة للحركة الحالية إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما ولدت حركة النهضة «النهضة الإسلامية» مع الأفغاني (١٨٣٦-١٨٩٧م).

فالأفغاني فتح الدرب لبحث سيستمر خلال قرن، وينتشر على محورين:

- كل نهضة للإسلام سياسية وروحية معًا، تقتضي قراءة جديدة للقرآن متحررة من التفسيرات الجافة والمجففة، تفسيرات «العلماء» الرسميين.

- مشكل الحداثة، لا ينبغي أن تكون مقاربته انطلاقًا من أيديولوجية غربية تسمى «حديثة»، تستبعد مسألة «الغايات الأخيرة» «غايات الإنسان»، وتحيل العقل إلى بحثٍ عن الوسائل التقنية، وسائل القوة والثورة، مبدأ استعمارها الحربي والاقتصادي والثقافي.

ذلك هو الإلهام الأولي الذي سيعرف، خلال قرن، كثيرًا من التغيرات، وضروب التحريف)(١).

ولقد وقع جارودي على أشباهه، وانحاز إلى فئته، وصوَّب وخطَّأ، ووالى وعادى، بناءً على أصله الفاسد في توحيد البشر، بإزالة الحواجز، وتعدي الحدود، باسم الاجتهاد والتحرر والانفتاح التي لا تعرف ضابطًا.

---

(١) الإسلام (٦٣، ٧٢ ٧٣، ٧٨ ٨٠).

وعلى قراءته «المقلوبة» للتاريخ الإسلامي وانحساراته المزعومة، تعقبات:

أولًا: أن «الانحسارات» الحقيقية والنكبات الكبرى التي منيت بها الأمة الإسلامية طوال تاريخها كانت مقترنة اقتران النتيجة بالمقدمة، والأثر بالمؤثر بظهور هذه الاتجاهات المنحرفة، من فلسفة وتصوف واعتزال وتشيع، كما يشهد بذلك التاريخ. قال ابن القيم رحمه الله: (سلط النصارى على بلاد المغرب لما ظهرت فيها الفلسفة والمنطق، واشتغلوا بها، فاستولت النصارى على أكثر بلادهم، وأصاروهم رعية لهم(١). وكذلك لما ظهر ببلاد المشرق، سلط الله عليهم عساكر التتار، فأبادوا البلاد الشرقية واستولوا عليها.

وكذلك في أواخر المئة الثالثة وأول الرابعة، لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد، سلط الله عليهم القرامطة الباطنية فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات)(٢).

ثانيًا: من المغالطات الصارخة أن ينبز جارودي علماء السنة بـ«العلماء الخدم»، والمتواطئين مع الأمراء المستبدين، ونحو هذه الألفاظ، ويضرب المثال بالإمامين الجليلين مالك بن أنس(٣)، وأحمد بن حنبل، ثم بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله، وقد علم القاصي والداني ما نالهم في ذات الله من أذى حكام زمانهم.

---

(١) يريد بالمغرب بلاد الأندلس، وذلك حين سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ ١٠٨٥م، وما أعقبها من تراجعات وانتكاسات، وهي الحقبة التي شهدت ظهور الفلاسفة المتصوفة الذين يمجدهم جارودي.

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (٢/ ٣٨٣).

(٣) الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، أبو عبد الله، إمام دار الهجرة، ولد سنة ٩٣هـ. كان صلبًا في دينه بعيدًا عن الملوك، حافظًا ثبتًا ورعًا، توفي سنة ١٧٩هـ. الأعلام (٥/ ٢٥٧)، الوفيات (١/ ٤٣٩)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٥)، صفوة الصفوة (٢/ ٩٩)، اللباب (٣/ ٨٦)، حلية (٦/ ٣١٦).

ثالثًا: أن الغاية من هذا التقويم، ونقد الرجال، هو سلخ الأمة من دينها الذي جاء به محمد ﷺ، بحسبانه «مواصفات» لحقبة تاريخية معينة فقط. فـ«الانحطاط الحنبلي» -على حد تعبيره- يساوي في تعريفه تطبيق الإسلام كما مورس في القرون الأولى، وبعبارة نبوية محكمة: (ما أنا عليه وأصحابي)(١)، فهنيئًا للحنابلة بهذه المذمة من ناقص.

أما أداة السلخ، فمِدية ذات حدين: قراءة جديدة متحررة للقرآن، تؤوله على غير تأويله، ورفض للأحاديث التي جرى إنتاجها في زعمه الكاذب خلال القرون الثلاثة الأولى للإسلام.

أما أهل الزندقة والفلسفة ووحدة الأديان، فيسبح بحمدهم ويقدس. ومن نماذج ذلك:

- الإمبراطور المغولي أكبر بن همايون (١٥٤٢-١٦٠٥م) أبو الفتح، جلال الدين محمد: يصفه جارودي بأنه: (وجه من أعظم وجوه التاريخ الكلي... يعبر أكبر عن هذا الفكر المنفتح ذي النزعة الكلية: إنه سيسحب من السنة امتيازاتها بوصفها الدين الرسمي، ويستقبل شيعة الفرس على قدم المساواة. وأصدر أمر تسامح لمصلحة دين الهندوس والسيخ الذين كانوا يعدون هذا الإمبراطور معلمهم الروحي، ولكنهم كانوا مضطهدين حتى ذلك الحين، يضطهدهم أباطرة المغول، تلقوا من الإمبراطور أكبر معبد «أمريتسار»، الذي ظل حتى أيامنا هذه مركزهم الروحي.

وفي عام ١٥٧٥م بنى ضربًا من «بيت للدين»، يستقبل فيه على الرغم من معارضة الاستقامات الفارسية جميعها، براهمانيي الهندوس، وبوذيين، وجائنيين،

---

(١) رواه الترمذي (١٠/ ١٠٩- ١١٠).

ومزدكيي الهند، ومسيحيين جزويت برتغاليين على وجه العموم، وأطلق المتعصبون من كل فج، ولا سيما العلماء الطائفيون في كابول وأوزبكستان، فتوى الإدانة ضده)⁽¹⁾.

ومن يتناولهم جارودي بالجرح والتعديل وفق معاييره الفاسدة كثير. وليس كل من امتدحه جارودي يكون مبطلًا بكل حال، فربما امتدح بعض أرباب المهن والعلوم المباحة كالخوارزمي⁽²⁾ في الجبر والرياضيات، والحسن بن الهيثم⁽³⁾ في البصريات، والإدريسي⁽⁴⁾ في الجغرافيا، وابن خلدون⁽⁵⁾ في الاجتماع.

وربما امتدح بعض علماء الإسلام المعتبرين، لخصلة راقت له، وموقف منفرد أعجبه، أو فهمه، حسب منظور لا يلتزمه ذلك الفقيه، كما يصنع مع أبي حنيفة رحمه الله حين يمجد اجتهاداته وآراءه التي عالج بها مشكلات اعترضت مجتمعًا يخالف مجتمع المدينة⁽⁶⁾، ويفرع على ذلك فروعًا باطلة لا يقرها أبو

---

(١) الإسلام (٦٠ - ٦١).

(٢) (بعد ٢٣٢هـ): محمد بن موسى الخوارزمي، رياضي، فلكي، مؤرخ، من أهل خوارزم ينعت بالأستاذ. أقامه المأمون العباسي قيِّمًا على خزانة كتبه، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية، وترجمتها. وله كتاب «الجبر والمقابلة» ترجم إلى اللاتينية ثم إلى الإنجليزية. عاش إلى ما بعد وفاة الواثق بالله. انظر: الأعلام (٧/ ١١٦).

(٣) (٣٥٤ ٤٣٠هـ): محمد بن الحسن بن الهيثم، مهندس من أهل البصرة. يلقب ب«بطليموس الثاني». له تصانيف في الهندسة. اتصل بالحاكم العبيدي، وتوفي بالقاهرة. وكتبه تزيد على السبعين. انظر: الأعلام (٦/ ٨٣، ٨٤).

(٤) (٤٩٣ ٥٦٠هـ): محمد بن محمد بن إدريس الإدريسي، الحسني، الطالبي، مؤرخ، من أكابر العلماء بالجغرافية. من أدارسة المغرب الأقصى. الأعلام (٧/ ٢٤).

(٥) ابن خلدون: عبد الرحمن ابن خلدون، الفيلسوف المؤرخ العالم الاجتماعي البحاثة، ولد سنة ٧٣٢هـ، اشتهر ب«المقدمة» وهي تعد من أصول علم الاجتماع توفي سنة ٨٠٨هـ. الأعلام (٣/ ٣٣٠)، نفح الطيب (٤/ ٤١٤).

(٦) انظر: وثيقة إشبيلية (١٨)، الإسلام (٧٣)، روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (١٨٣). مقابلة مع مجلة الموقف عام ١٩٨٤م، (٢١٦) مقابلة مع مجلة المستقبل مايو ١٩٨٥م...وغير ذلك.

حنيفة، وليست من مذهبه، أو يمتدحه لكونه لم يعتمد إلا سبعة عشر حديثًا فقط في زعمه(١).

ولكنه يشيد خصوصًا بطلائع العصرانيين لاقترابهم من منهجه في تقارب الأديان مثل «الأفغاني» و«محمد عبده»(٢). أما الصوفية على اختلاف مراتبهم فعيبة نصحه، وأهل ثقته، ومستراح فؤاده(٣).

٤) الفصل بين الشريعة والتشريع:

تأسيسًا على الأصل الفاسد الذي أصله جارودي في الاقتصار على «الإسلام العام»، عمد إلى طمس الخصائص المميزة لدين الإسلام، المتمثلة في جوانبه التشريعية الشاملة لجميع مناحي الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها، ومحاولة تزهيد المسلمين بالتراث الفقهي الضخم الذي خلفه الفقهاء عبر القرون، بدعوى «الاجتهاد» و«التجديد» و«نبذ الجمود»، إلى درجة التنكر التام للنظام الجزائي؛ من حدود، وعقوبات ثابتة بالآيات المحكمات، والأحاديث الصحاح، وإجماع المسلمين.

لقد كان جارودي يغمغم بهذه المعاني، ويحوم حولها في منتصف الثمانينيات، كما ورد في «وثيقة إشبيلية» عام ١٩٨٥م، حين طرح سؤالًا: (كيف نعمل لإحياء الإسلام؟)، وأجاب بجملته المتكررة في كتبه: (... يجب ألا نقرأ القرآن والسنة بعيون الأموات... خليقٌ بنا أن ندرس فقههم بما هو أهل له من احترام، دراسة خالصة صادرة من أعماقنا، ممزوجة بما يشغل بالنا من ضرورة حل مشكلاتنا كما

---

(١) انظر: الإسلام (٦٥).

(٢) انظر: أصول الأصوليات والتعصبات السلفية: روجيه جارودي. مكتبة الشروق. القاهرة. طبعة يناير ١٩٩٦م (٣١).

(٣) انظر: الإسلام (٧٨، ٨٠).

حلُّوا مشكلاتهم من قبل، ولا يتأتى ذلك بتكرار ما قرروه من أحكام، ولكنه يتأتى باستلهام الوسائل التي طبقوها حتى يعيشوا إسلامهم... في ظروفهم التاريخية التي اختلفت من جذورها عن ظروف مجتمع المدينة...

أما الوحي القرآني فإنه يعطينا أمثلة مادية لحلول ساقها في معرض مشكلة تاريخية محددة،... فلا مجال لتطبيق نصوص آية تطبيقًا حرفيًّا بمعزل تام عن مضمونها التاريخي التي نزلت فيه، وعن مجمل الوحي الذي يستوعبها... يمكن أن يعبر عن مشكلة مستقبل المسلمين بتعبير غاية في البساطة والوضوح: فإما أن نتقهقر، وقد سُمِّرت عيوننا على الماضي، نستعيد ما كتبه السابقون من تعليقات، وتعليقات على التعليقات، حول المسائل الفقهية التي ثارت في عصور الأمويين والعباسيين، وإما أن يبدي المسلمون مقدرتهم على حل المشكلات المستحدثة...)(١).

ثم أفصح عن هذا الإجمال في منتصف التسعينيات، ووضع النقاط على الحروف، فقال في كتابه «الإسلام»، الصادر عام ١٩٩٦م، في معرض رده على الإسلاميين المنادين بتطبيق الشريعة الإسلامية: (ما يناسب تسميته «الإسلاموية» هو في أيامنا هذه: مرض الإسلام، لأن هذه الإسلاموية لا تميز «الشريعة» الدرب الأخلاقي الأبدي والكلي الذي فتحه كل الأنبياء باسم الله، من «التشريع» الذي يمكنها أن تُلهمه في كل عصر لحل مشكلات هذا العصر.

ويكمن هذا المرض، على سبيل المثال، في إرادة مفادها تطبيق القانون الجزائي السائد في القرن السابع، كاليد المقطوعة بسبب السرقة، أو الجلد، وبالسوط، بسبب الزنى.

---

(١) وثيقة إشبيلية (١٧ - ١٩، ٢١ - ٢٢).

- ويضيف إليها الفقهاء، ضد القرآن الكريم، وباسم «التقليد»، الرجم حتى الموت(١)، وفي إرادة مفادها تطبيق القانون المدني والأحوال الشخصية، اللذين كانا يتوافقان مع شروط القرن السابع التاريخية، على الزواج والطلاق والمواريث... ويعقد فصلًا في كتابه هذا بعنوان: (كيف يمكن أن يتوطن إسلامٌ في مستقبلنا؟ ماذا يعني تطبيق الشريعة؟)، يقول فيه:

(الادعاء بتطبيق حرفي لحكم تشريعي بحجة أنه مكتوب في القرآن الكريم، إنما هو خلطٌ بين القانون الأبدي، قانون الله، «الشريعة» التي هي «ثابت» مطلق، مشترك بين الأديان كلها والحِكم كلها، وبين التشريع المخصص للشرق الأوسط في القرن السابع الميلادي، تشريع كان تطبيقًا تاريخيًّا، خاصًّا بهذه البلدان، وبهذا العصر، للقانون الأبدي...

والقانون الإلهي، الشريعة، يوحد المؤمنين كلهم، في حين أن الزعم بفرض تشريع القرن السابع الميلادي، وللجزيرة العربية، على الناس جميعهم في القرن العشرين، إنما هو عمل يعطي صورة مزيفة رافضة للقرآن الكريم. إنها جريمة ضد الإسلام، وليس لـ«تطبيق الشريعة» الحقيقي أي علاقة بهذه الحرفية الكسول»(٢).

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب فقال: «إن الله بعث محمدًا بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها، ووعيناها، وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها، وإن الرجم حق في كتاب الله، على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف»، رواه البخاري (٧/ ٢٦) ومسلم (٣/ ١٣١٧)، أما جارودي فينكر أيضًا ما يجد في كتاب الله مثل حد السرقة - كما سيأتي -.

(٢) الإسلام (٨١، ١٠٤، ١٢٦).

إذًا فقد كان يهدف من وراء دعوته إلى التجديد والاجتهاد ونبذ الجمود والتقليد، إلى سلخ الأمة عن العمل بكتاب ربها، وسنة نبيها ﷺ، بحسبان تلك الشرائع «وقتية»، وذات مناسبات تاريخية، ليست لها صفة الديمومة، بل ربما سماها «عادات» و«تقاليد» عربية، فنزعها حتى من أصلها الشرعي.

*** شواهد الكفر والضلال في فكر جارودي:**

أ - دعوىٰ تاريخية القرآن ورمزيته:

في عام ١٩٨٥م قال روجيه جارودي في وثيقة إشبيلية: (علينا أولًا أن نتعلم كيف نقرأ القرآن)(١). وجاءت الإجابة المفصلة عام ١٩٩٦م في كتابه: «الإسلام» بما يأتي: (أولًا: قراءة القرآن في التاريخ)(٢). واتخذ من قضية النسخ التي هي من خالص حقِّ الرب المشرِّع سبحانه، كتغيير القبلة، مدرجًا لمنح هذا الحق لمن هب ودب من الزنادقة أمثاله، وتذرع بذلك إلى توسيع دائرة «التاريخية»، وأن الأحكام القرآنية مرتبطة بظروفٍ تاريخية معينة، وليست ملزمة ولا دائمة.

فيقول: (وليست هذه «التاريخية» تاريخية القرآن الكريم، أكثر وضوحًا في أي نص منها كما في النصوص الخاصة بالمرأة)(٣). ثم يشرع في اجترار شبهات المستشرقين حول «القوامة» و«شهادة المرأة» و«تعدد الزوجات» و«الطلاق» و«ولاية المرأة» و«حجاب المرأة» و«ميراث المرأة»، مخولًا نفسه حق الاعتذار عن الإسلام بأن (كل ذلك مرتبط بشروطٍ تاريخية معينة...)(٤). ويمضي في ضرب الأمثلة على تاريخية القرآن -كما يزعم-: فيطبق ذلك على أحكام الحدود، كحد

---

(١) وثيقة إشبيلية (١٦).

(٢) الإسلام (٩٥) وما بعدها.

(٣) الإسلام (٩٩) وما بعدها.

(٤) الإسلام (١٠٣).

السرقة مثلًا، داعيًا إلى تعطيل النصوص القرآنية المحكمة الصريحة في ذلك، بحجة تلك «التاريخية»(١).

ب - الطعن في السنة المطهرة:

يقول: (لم يظهر في أي مكان من القرآن الكريم تعبير «سنة النبي»(٢). وهذا الغياب له ما يسوغه تمامًا، لأن القرآن الكريم يوضح أن النبي، فيما عدا التنزيل، ليس سوى بشرٍ مثل بقية البشر... أي أنه غير معصوم، ويرتكب أخطاء. ويوصي القرآن إذًا المؤمنين بطاعته... وبأن يروا فيه قدوة... وذلك لا ينطوي على الإطلاق أن المسألة مسألة تقليده تقليدًا أعمى في كل شيء. فهل يعني أن «الأحاديث» ينبغي أن ترفض جملة؟ كلا، ولكن الواجب يقضي استخدامها بتعقل، فمنها مجرد تكرار للقرآن الكريم، فهي ليست إذًا ذات جدوى، ومنها ما يتناقض مع القرآن الكريم، وينبغي استبعادها. وثمة أحاديث أخرى تنصبُّ على أمور تافهة، حتى لدى «علماء الحديث» ذوي الشهرة، مثل البخاري، ثم مثَّل بأحاديث تتبع الدباء في القصعة، وآداب الانتعال، وتوفير اللحى وحف الشوارب، وتمشيط الشعر، وقال: فأي علاقة لذلك بالإيمان والعلم الذي يوحى به؟

والتحقق من صفة الشهود والنقل «المسمى علم الحديث» في مثل هذه الحالات ممارسة من الأفضل أن يخصص الزمن الذي يستغرقه فيها «علماء الحديث» الرسميون للتفكير في متضمنات القرآن الراهنة لحل المشكلات التي ترهقنا)(٣).

---

(١) المرجع السابق (١٠٨-١١١).

(٢) عجبًا لهذه الحرفية المغرقة التي كان ينتقدها في دعوته للرمزية، فكيف والآيات المحكمات ظاهرة الدلالة على المعنى المراد. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٢]، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

(٣) المرجع السابق (٦٨-٦٩).

ويمتدح «المعتزلة» لزهدهم بالحديث النبوي قائلًا: (ويميز المعتزلة تمييزًا واضحًا كلام الله، الكلام الذي أنزله في «شريعة» القرآن الكريم، من الكلام البشري غير المعصوم... ومن هنا منشأ حذرهم أمام «الأحاديث»، وهي أقوال منسوبة إلى محمد ﷺ تكاثرت بعد موته خلال القرون الثلاثة الأولى»(١).

فلا عجب بعد هذا أن يلغ جارودي في حياض السنة النبوية الشريفة، يصحح ويضعف، ويقبل ويرد، وفق ما يمليه عقله وهواه، دون أدنى تحرج وحياء، ومن أمثلة ذلك قوله: (منذ عهد الأمويين بدأ الاعتداء الأكثر إجرامية ضد الإسلام: الميل إلى أن يصنع منه أيديولوجية تبرير لسلطة الملوك المطلقة، ومدرسة خنوع بالنسبة للشعوب...(٢).

وصيغ حديث هدفه محاربة هذه التمردات، وإلى الأبد، حديث يقدس الحاضر والماضي، فزُوِّر قول على لسان النبي ﷺ: «أفضل جيل جيلي، ثم الجيل الثاني على الأخص ذلك الذي يأتي بعده، ثم الجيل يخلفه»(٣)... ويبرهن نص القرآن على بطلان حديث مزعوم، يروي أن النبي ﷺ كان قد لام أحد أنصاره على أنه يقرأ التوراة(٤). إنه نوع من الحديث المزيف، المتناقض على نحوٍ جذري مع

---

(١) المرجع السابق (٦٥).

(٢) لعله رواية بالمعنى للأحاديث الصحيحة الدالة على الصلاة خلف الأئمة أبرارًا كانوا أم فجارًا كما هو معتقد أهل السنة والجماعة ومنهجهم. انظر شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٥٢٩).

(٣) يريد حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: (خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين...) صحيح مسلم (٤/ ١٩٦٢، ١٩٦٥).

(٤) يشير إلى ما رواه الدارمي في مقدمته من حديث جابر، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما (أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ، فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسول الله ﷺ، رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ نبيًا. فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، لو كان حيًا وأدرك نبوتي لاتبعني) المقدمة (١١٥).

القرآن الكريم، الذي يقود إلى إفقار الإسلام وإشراقته بوصفه تنزيلًا أخيرًا، لا يلغي التنزيلين السابقين بل يؤكدهما)(١).

وقد توهم هذا المتهوك أن كون القرآن العظيم مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، يقتضي صحة ما بأيدي اليهود والنصارى حينذاك.

٥) مضاهاة النصرانية(٢):

سعى روجيه جارودي سعيًا حثيثًا في مشروعه التقريبي بين الأديان إلى التقريب بين الإسلام والنصرانية خاصة، وذلك بسبب نصرانيته المتجذرة في أعماق نفسه، التي لم ينفك أبدًا عن إعلان تمسكه بها في جميع أطوار حياته، ومواقعه الفكرية المتنوعة، ويصرح بهذا التقارب الخاص في واحدٍ من أواخر كتبه، فيقول: (إنهم كثيرون أولئك الذين يتطلعون في العالم المسيحي، كما في العالم المسلم، إلى توحيد قواهم، ليبنوا معًا القرن الحادي والعشرين بوجه إنساني أي بوجه إلهي، باسم إيمانٍ وحيد، بصورة أساسية عبر تنوع العبادات والطقوس)(٣).

* مسالك جارودي لتخطي التناقضات الأساسية بين الإسلام والنصرانية:

قد لا يجد جارودي صعوبةً في تأطير منظومته التقاربية بإطار «الإسلام الأزلي» للأديان الإبراهيمية، كما لا يجد حرجًا في تسويغ تنوع العبادات والطقوس، ولكن ما تراه فاعلًا في التناقضات الأساسية في أصول ذلك الإيمان «الوحيد» الذي

---

(١) الإسلام (٦٨ - ٦٩، ٨٧ - ٨٨).

(٢) روى الإمام أحمد رحمه الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح بيت المقدس قال لكعب الأحبار: أين ترى أن أصلي؟ فقال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك. فقال عمر رضي الله عنه: ضاهيت اليهودية، لا، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ. المسند (١/ ٣٨).

(٣) الإسلام (١٤٢).

ينشده بين الإسلام والنصرانية حول مسائل التوحيد، والتثليث، والعلو، والحلول، ونفي المثل، ودعوى البنوة، وغيرها من القضايا العقدية الماحقة لكل لونٍ من ألوان التقريب والدمج؟!

لقد سلك جارودي لتخطي هذه الحواجز الشاهقة مسلكين:

المسلك الأول: التهوين من شأنها بحسبانها خلافًا لفظيًّا حول حقيقة متفق عليها.

أ- التثليث:

انبرى جارودي للدفاع عن الوثنيات النصرانية المتهافتة، ليرفع عنها تلك الوصمة التي لا يقبلها قلب سليم ولا عقل صحيح، زاعمًا أنها لا تناقض ما جاء به الإسلام فيقول:

(ليس من الجد في شيءٍ أن يتهم الإيمان المسيحي بالتثليث، بأنه إيمان بثلاثة آلهة...

يعلن القرآن التوحيد بقوة: «الله أحد... لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»، ولا تقول المسيحية شيئًا آخر. إن مجمع لاتران ١٢١٥م... يقول بالنص: «إن الحقيقة العليا هي في آنٍ واحد آبٌ وابنٌ وروحٌ قدس. وهذه الحقيقة لا تلد ولا تولد ولا تنبثق من غير ذاتها». ليس ههنا إذًا تشكيك بالوحدة الإلهية، وإنما ههنا مجرد تعقيدها الذي لا يمكن أن يرتد إلى مفاهيم على الطريقة اليونانية)[١].

وهذا هو التثليث الصريح الذي أنكره القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النساء: ١٧١].

---

[١] نحو حرب دينية. جدل العصر. (٢٣).

ويشحذ جارودي سلاحه العتيق «تاريخية القرآن»، لدفع هذه الوصمة عن أهل ملته، فيقول: (بوسع المرء أن يكثر الأمثلة على تاريخية القرآن الكريم هذه. فعندما نبذت، على سبيل المثال، فكرة أن مريم هي الشخص الثالث في الثالوث لدى المسيحيين، فإن إدانة هذه العبادة «عبادة مريم» كان لها على وجه الدقة تاريخها... لدى شعب الأورفيت، الذي كان لا يميز مريم العذراء من روح القدس. فالجدال يقع إذًا في حقبة محددة من التاريخ، ولن يكون له أي سبب للوجود في أيامنا هذه...)⁽¹⁾.

ولكن كون مريم ابنة عمران رضي الله عنها ليست أحد الأقانيم، في ثالوث المعاصرين وعموم النيقاويين لا يعني براءة هؤلاء من التثليث من جهة، إذ هو خلاف في تعيين الأقنوم الثالث فقط، كما لا يعني براءتهم من عبادتها التي دل عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، فتأليهها قدر زائد علىٰ حسبانها أحد الأقانيم.

ومن ثم فتعطيل الآية عن دلالتها بدعوى التاريخية دعوى ساقطة.

لقد كان اللائق على الأقل بجارودي الذي يدعو إلى الإسلام الأزلي، وإيمان إبراهيم عليه السلام، أن يدعو النصارى إلى إبطال هذه المقالة الكفرية، بدلًا من الاعتذار والمماحكة بالباطل.

ب- ألوهية المسيح وبنوته:

يقول جارودي: (والجدل الخاطئ الآخر يدور حول ألوهية المسيح، وهو ناشئ عن اللاهوتيين، لا عن الإنجيل ولا عن القرآن. يقول القرآن: «إن مثل عيسى

---

(١) الإسلام (١١٢).

عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) هذا النص جزءٌ من الجدل بين محمد ﷺ ونصارى نجران حول ألوهية المسيح الذي كانوا يعدونه «ابنَ الله»⁽¹⁾.

إن جارودي يزعم أنه يحسم الجدل القائم بين المسلمين والنصارى بالقول بأن التعبير القرآني في وصف عيسى عليه السلام بأنه كَلِمَتُهُ ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾ [النساء: ١٧١]، مطابق لوصف النصارى إياه: (ابن الله) وأنهم لم يؤلهوه. وقد غالط من وجوه:

- أن معنى «كلمته ألقاها إلى مريم» (أي: إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه، قال له: كن، فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم: أي خلقه بالكلمة. التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذن الله عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله عز وجل. ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن، فكان. والروح التي أرسل بها جبريل)⁽²⁾.

أن جارودي فَرَّ من زاوية من الكفر إلى زاوية أخرى حين حمل دعوى «التأليه» على «البنوة».

- زعْم جارودي أن البنوة تعني الخضوع، أو إيهامه بذلك، دعوى لا دليل عليها، ولا تتسع لها لغة، ولا يقول بها عامة النصارى.

---

(١) نحو حرب دينية. جلد العصر (٢٣-٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٧ - ٤٧٨).

ثم إن حيدة جارودي عن تهمة «تأليه المسيح» إلى «دعوى البنوة»، بحسبانه جزءًا من الجدل بين محمد ﷺ ونصارى نجران، هل يعني تنصل النصارى من هذه المقالة البشعة التي كفَّرهم الله بها في موضعين في سورة واحدة بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢]؟ هذا ما لا يستطيع جارودي إثباته مهما تفنن في تشقيق الكلام، وتأويل اليقينيات.

المسلك الثاني: التنظير بين عقائد النصارىٰ، ومقالات أهل وحدة الوجود والحلول، المنسوبين إلىٰ الإسلام.

وجد جارودي في غلاة الصوفية المنتسبين إلى الإسلام من أمثال ابن عربي، وجلال الدين الرومي، والحلاج، بغيته للتسلل إلى تقريب الإسلام إلى النصرانية من باب التصوف.

حيث يقترب أكثر من عقيدة الحلول التي يشترك فيها النصارى وغلاة الصوفية حين يقول: (إن عيسى المسيح رمز وحدة الإنسان والله)⁽¹⁾.

ومن ثَمَّ فإن جارودي لا يجد حرجًا رغم ادعائه الإسلام أن يقول في كتاب صدر عام ١٩٩٦م: (مع يسوع صار الإله إنسانًا، وصار الإنسان إلهًا في برعمه... ما الذي يمكن أن يخشاه إنسان يعلم بطريق يسوع، أنه مسكون بالله؟)⁽²⁾.

فما أسهل تقبل فكرة الحلول الإلهي بالمسيح الجثماني -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- لدى الفكر الصوفي الذي يوسع دائرة الحلول والاتحاد لتشمل جميع الكائنات. وذلك سر القربى والرحم بين جارودي والصوفية، فلا عجب أن يقول: (إن تجريم الصوفية هو جريمة ضد الإسلام... الصوفية هي باطنية الإسلام. فلعل

---

(١) الإسلام (١٩).

(٢) نحو حرب دينية. جدل العصر (٥٨).

إسلامًا بلا باطنية، إسلامًا مقتصرًا على طقوسه، دون حب الله الذي يعطيها معنى، هو إسلامٌ ميت. وكل إحياء للفكر الديني للإسلام يمر عبر إعادة الاعتبار للتصوف)(١).

٦) تمجيد ملل الكفر، ودعوة المسلمين إلىٰ الانفتاح عليها والتلاقي معها:

يقول في وثيقة إشبيلية عام ١٩٨٥م: (... الإسلام اليوم لن يستطيع أن يستأنف مسيرته إلا إذا وسع كل حكمة، وكل عقيدة، يمكن أن يتضمنها ويضمها إليه...)(٢).

وقد تعقبه الدكتور سعد عبد المقصود، بقوله: (واتساع الإسلام لكل حكمة أمر على إطلاقه غير مفهوم. واتساعه لكل عقيدة أمر في غاية الخطر، لأنه يؤدي إلى انهيار قواعد الإسلام من أساسها...)(٣).

● ثالثًا- محاولات روجيه جارودي العملية للتقريب بين الأديان والحضارات:

اتخذ روجيه جارودي جملة من الإجراءات العملية للتعبير عن تطلعاته الفكرية. فبحكم طبيعته «الحركية» لم يكتفِ بالنتاج المكتوب، بل كان له حضورٌ فاعل، وحركة دائبة، وسفر متصل إلى كثير من دول العالم.

وفي سعيه الحثيث لإرساء مشروعه في توحيد العالم، أو التقريب بين حضاراته المختلفة، تمكن جارودي من تأسيس وإنجاز بعض المشاريع العملية، في إثر فك ارتباطاته بالحزب الشيوعي الفرنسي، وهي: (**المعهد الدولي للحوار بين الحضارات - الملتقىٰ الإبراهيمي في قرطبة عام ١٩٨٧م مؤسسة روجيه جارودي المركز الثقافي في القلعة الحرة**).

---

(١) الإسلام في الغرب (١٦٦).

(٢) وثيقة إشبيلية (١١ - ١٢).

(٣) لا لجارودي ووثيقة إشبيلية (٥١).

أ - المعهد الدولي للحوار بين الحضارات:

انبعثت فكرة هذا المعهد لدى جارودي في أواخر الستينيات، وكانت البداية رغبة في تطوير وتوسيع دائرة الحوار النصراني الماركسي لتشمل بقية الثقافات العالمية (١).

ثم تمكن جارودي من تنفيذ فكرته، بالتعاون مع منظمة اليونسكو، فأسس «المعهد الدولي للحوار بين الحضارات» عام ١٩٧٤م في جنيف، وعمل مديرًا له. ومكنه الدعم القوي للمنظمة، وجهاتٍ ودولٍ أخرى من جمع مواد توثيقية عن مختلف الحضارات العالمية، ثم الانكباب على دراسة تلك الحضارات وقراءة تراثها بروحٍ شمولية(٢).

وقد توَّج هذه الدراسات الميدانية والتراثية بتأليف كتابه الشهير «من أجل حوار بين الحضارات» عام ١٩٧٧م، الذي أحدث ضجة ثقافية في العالم، وحاز مؤلفه جائزة البحر المتوسط في إيطاليا.

وقد انطلق في مشروعه هذا من تحطيم فكرة «تفوق الغرب» وفرادة «الحضارة الغربية» بنقدٍ رصين، وضرورة وضعها في حجمها الطبيعي دون مغالاة، ليتم له بعد ذلك التحرر من إسارها وبهرجها، وإدراجها في مشروعه الكلي للحضارة الإنسانية المستقبلية، أو ما يعبر عنه بـ«ابتكار مستقبلٍ ذي وجهٍ إنساني»(٣).

وبعد أن طوَّف في حضارات العالم؛ شعرها، ونثرها، معابدها، ومسارحها، عامرها وأطلالها، فلسفاتها، ودياناتها، عقد فصلًا أخيرًا بعنوان «الحلف الثالث»،

---

(١) ينظر: من أجل حوار بين الحضارات: روجيه جارودي. ترجمة: د. ذوقان قرقوط. دار النفائس بيروت. الطبعة الأولى (١٤١١هـ ١٩٩٠م). (٢٢٥ - ٢٢٦).

(٢) انظر مقدمة «من أجل حوار بين الحضارات» (١١ ١٧)، ومقابلة في كتاب: روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (١٥٧).

(٣) ينظر: من أجل حوار بين الحضارات (١١ ١٢).

أشار فيه إلى ثلاثة أحلاف: (كان الحلف الأول حلف يهوه مع الشعب اليهودي. وبدأ الحلف الثاني عندما أبان يسوع المسيح أنه من أجل السعي إلى الله فلا بد من الإقلاع عن دعوى الانتماء إلى الشعب المختار...

لقد أزفت ساعة الحلف الثالث، الحلف الذي سيستأنف في مرحلة جديدة مسعى يسوع المسيح، متجاوزًا حدود الـ«شعب المختار»، ليتوجه إلى الجميع لا من أجل هدايتهم إلى معتقد، ولكن من أجل إيقاظهم على حياةٍ أكبر... فالحلف الثالث هو الإيمان الذي يعثر من جديد على جذوره في صميم الشعوب، وهو الشعوب المستمدة من إيمانها القوة والأمل في تغيير العالم والحياة)⁽¹⁾.

وجارودي في مشروعه هذا، كما انطلق من فكرة حوار بين الحضارات المختلفة، تكون النصرانية دومًا أحد طرفي ذلك الحوار. فقد ظلت تصاحبه رؤاها وأهدافها وتجديد مسعى يسوع عبر الحلف الثالث. ولم ينقض اعتناقه للإسلام عروة هذا الحلف، أو يغير وجهة المعهد الدولي لحوار الحضارات، وقد استمر جارودي بعد أن دخل عالم الإسلام يطوف بلاد المسلمين وإمارات الخليج خاصة ويبشر بأهدافه ويجمع له المساعدات، مع تطعيم تلك الأهداف بجرعة أكبر من معاداة الصهيونية وإسرائيل⁽²⁾.

ب - «الملتقىٰ الإبراهيمي»:

عقد في مدينة «قرطبة» في إسبانيا في المدَّة: ١٢-١٥ جمادى الآخرة عام ١٤٠٧هـ الموافق أيضًا ١٢-١٥ فبراير عام ١٩٨٧م، وضم خمسين مشاركًا.

---

(١) المرجع السابق (٢٢٠-٢٢١، ٢٢٦).

(٢) انظر مقابلات جارودي بعد إعلان إسلامه في جريدة البعث السورية ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م.

وقد أفصح جارودي عن طبيعة هذه التسمية التي تطلق لأول مرة في فضاء الحوار بين الأديان، فقال في مقابلةٍ صحفية مع مجلة (Cambio 16) في ٩/ ٢/ ١٩٨٧م، ص(١٩)، أي قبل انعقاد المؤتمر بثلاثة أيام: (... اليوم أقوم بهذه المبادرة؛ الحوار الإبراهيمي، بالاشتراك مع أصدقائي اليهود والكاثوليك والبروتستانت، فإني أتابع المسير بقصد تجميع الإيمان الإبراهيمي...)(١).

وقد حرص جارودي على تمثيل جميع الأديان، بل والطوائف الكبرى، وربما غير ذلك من كل ديانة، في أعمال المؤتمر، كما حرص على استقطاب المشاهير، فجاءت على النحو الآتي:

*** اليهود:**

١- إلمر بيرجر: وهو حاخام يهودي من قدامى الداعين إلى تقارب الأديان، اعتذر عن الحضور، واكتفى بإرسال دراسة بعنوان «الوعد»(٢).

٢- يهودي مناحيم: وهو كاتب وعازف كمان مشهور. وقد اعتذر أيضًا وأرسل معزوفةً موسيقية مسجلة، سُمعت في المؤتمر(٣).

٣- إميل معاطي: ممثل الجالية في فرنسا، إلا إنه حضر في اليوم الأخير، وأثار ضجة إعلامية بسبب تبنيه الأفكار الصهيونية بما لا يتفق وأفكار جارودي.

---

(١) عن سلسلة تقارير المعلومات: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت. رقم المسلسل ١٤/ ٨٧ بتاريخ ٢١/ ٧/ ١٩٨٧م (٢).

(٢) جريدة الدستور الأردنية. موضوع «عائد من الندوة الإبراهيمية» كامل الشريف الأحد ١/ ٣/ ١٩٨٧م (٥).

(٣) المرجع السابق.

وأما الجهات اليهودية المدعوة فبعثت برسائل تأييد للمؤتمر، واعتذار عن الحضور. كما كانت إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي بعثت بعثة إعلامية كاملة لتغطية الملتقى(١).

*** النصارىٰ:**

فمن أشهر من حضر:

١- القس الألماني هانس كونج Hans Kung، وهو لاهوتي كاثوليكي مشهور، يعمل مديرًا لمعهد أبحاث توحيد الكنائس، وأستاذًا بجامعة توبنجن.

٢- الأب ميشيل لولونج: رئيس لجنة العلاقات المسيحية الإسلامية في الكنيسة الفرنسية، وعضوٌ سابق في الأمانة الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين.

٣- يورغن مولتمن: بروتستانتي. أستاذ اللاهوت في جامعة «توبنجن» الألمانية.

*** المسلمون، والمنتسبون إلىٰ الإسلام، من أشهر من حضر:**

١- الأستاذ كامل الشريف، رئيس المكتب التنفيذي للمؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس. أردني.

٢- عبد الهادي بو طالب. المدير العام لمنظمة الإيسيسكو «المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة».

٣- الدكتور مختار كريم أمبو. المدير العام لمنظمة اليونسكو، ومدير الملتقى.

٤- أحمد جنتي، شيعي إيراني.

٥- الدكتور عبد السلام، قادياني، حائز على جائزة نوبل في الفيزياء.

---

(١) المرجع السابق.

٦- صدر الدين أغا خان. إسماعيلي(١).

لقد اختار جارودي ضيوفه بعناية بما يتفق وأبعاد مشروعه التقاربي.

فاختار من اليهود من يعلن رفض الصهيونية، وينحى نحو التقارب.

ومن النصارى من عرف بتحفظه أو معارضته لبعض ممارسات الكنيسة الكاثوليكية ومعتقداتها، كعصمة البابا، ومن المسلمين مزيج من المنتسبين إلى السنة المعادين للصهيونية، وشيعة ليبراليين، وقادياني، وإسماعيلي يمثلون الباطنية التي يشيد بها جارودي ويسعى لإبرازها، وتمجيد رموزها، إضافة إلى المنظمات الثقافية العالمية.

وغاب عن المؤتمر الهيئات الإسلامية المشهورة، إما لكونها لم توجه إليها الدعوة أصلًا، وإما لتحفظها.

أبرز موضوعات الملتقىٰ وبحوثه:

١. (اللقاء الإبراهيمي) لروجيه جارودي:

ختم محاضرته قائلًا: (هذا يعني بأننا نكافح، كل واحدٍ منا، علىٰ جبهة ضد الأصوليين الذين لا تخلو منهم أي مجموعة دينية. وأعني بالأصولية الاتجاه والنزعة في خلط ديننا وعقيدتنا بالشكل الذي أخذته في هاته أو تلك الحقبة من التاريخ.

إن رسالة القرآن عالمية، وتحويل هذه الرسالة إلى التقاليد الخاصة بحقبة من الزمن أو بشعبٍ ما يعد دفاعًا عن فلكلور وليس عن عقيدة... استرجاع رسالة

---

(١) أخذت الأسماء من تقرير «تساؤل حول مؤتمر الحوار الدولي للوحدة الإبراهيمية» من سلسلة تقارير المعلومات الصادرة عن مركز المعلومات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت في ٥/ ٣/ ١٩٨٧م. ومقالة الأستاذ كامل الشريف في جريدة الدستور الأردنية (عائد من الندوة الإبراهيمة) عدد الأحد ١/ ٣/ ١٩٨٧م (٥).

إبراهيم التي هي مُوحِّدة، وذلك للإجابة والرد على التحديات في عصرنا هذا بعيدًا عن تناقضاتنا)(١).

هذا هو مضمون «الإبراهيمية» لدىٰ جارودي:

- تخلي كل أهل ديانة عن «شريعتهم» بل و«عقيدتهم» المميزة لهم عن سائر البشر، بحسبانها وقتية لزمنٍ معين، وشعب معين.

- الوحدة في العالم بما يحمله من تنوع واختلاف وربما تضاد.

فليس مراد جارودي بـ«التوحيد» و«الأديان التوحيدية» توحيد الخالق بالعبادة، ويقول في تعريف التوحيد: (التوحيد، أي الاعتراف لا بوحدانية الله فحسب، بل بوحدانية كل واقع، بما فيه وحدانية الجماعة البشرية الشاملة)(٢).

إن امرَأً يُدعى لحضور ملتقى باسم «إبراهيم» عليه السلام لَيتبادر إلى ذهنه التوحيد الخالص الذي دعا الله إليه عبده وخليله إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢].

- والتوحيد المهم عند جارودي هو توحيد العالَم، أفراده، وأديانَه، وثقافاته، وفنونَه، وسائر مناشطه حول معنى، أيًّا كان ذلك المعنى.

ويقول معربًا عن هدفه: (إن مهمتنا هي أن نجمع جميع الناس ذوي الإيمان أيًّا كان إيمانهم)(٣).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) نحو حرب دينية. جدل العصر (٣٣).

(٣) نحو حرب دينية. جدل العصر (٧٣).

٢. (معاني اللقاء حول إبراهيم) للأستاذ كامل الشريف:

وقد فهم من هدف الملتقىٰ ما يأتي: (إنها محاولة للعودة لأصل الأديان السماوية، والتأمل في مصدرها الأول قبل أن تتشعب إلىٰ الأديان الثلاثة المعروفة... وأن يكون هذا التأمل وسيلة للتعرف علىٰ عناصر التشابه، وصور اللقاء، علىٰ أمل أن تشكل هذه العناصر قاعدة للتعاون بين المؤمنين الصادقين من أتباع الديانات السماوية، لنصرة الإيمان، ودعم الحق، ورفع المظالم، وإنقاذ الإنسانية من مهاوي الردىٰ)(١).

وواضح أن هذا المستوى من الطرح، قد تجاوزه جارودي، ويندرج ضمن أدب المجاملات، أو بالأحرى المداهنة في دين الله. فأي «إيمان صادق» يثبته الأستاذ الشريف لليهود والنصارى، وقد كفَّرهم الله وذمهم في كتابه، وأي نصرة للإيمان، ودعم للحق يرجوه من قومٍ قال الله فيهم: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

والأستاذ كامل الشريف بحكم موقعه الرسمي في بلده تلك الحقبة، ومنطلقاته الدينية والقومية ضد «دولة إسرائيل»، يهدف بالدرجة الأولى إلى استثمار الملتقى للتنديد بالصهيونية الباغية، وفلسفتها القائمة على فكرة (وعد الله لإبراهيم بجعل نسله من سارة، شعبه المختار، ومنحهم أرض فلسطين)، وقد أسرف -عفا الله عنه- في الاستشهاد بنصوص منسوبة إلى التوراة والإنجيل، وأقوال لقديسي النصارى وفلاسفة اليهود، في مقامٍ كان ينبغي حيث صار إليه أن يشهد لدين الله الحق.

---

(١) جريدة الدستور الأردنية. الاثنين ١٦/ ٢/ ١٩٨٧م (٧).

٣. (هل يوجد دين واحدٌ صحيح أم أديان متعددة؟):

للدكتور هانس كونج وهي دراسة مطولة في قرابة أربعين صفحة، وخلاصة الإجابة عن هذا التساؤل، كما نقل الأستاذ الشريف: (أنه يعتقد -كرجل دينٍ مسيحي- أن المسيحية هي الدين الصحيح، إلا أنه يسلم أنها لا تملك كل الحقيقة، كما يعتقد أنَّ انفتاح الفاتيكان على الأديان الأخرى ليس كافيًا، وأن التبشير المسيحي في العالم الثالث ليس أخلاقيًّا، لأنه يعتمد على القوة، أو استغلال الظروف الاجتماعية. ويرى أن التبشير بالأديان يجب أن يجري في مناخٍ متحرر من الضغوط، وهي أفكار تشكل في مجموعها خطواتٍ للأمام نحو ما يسميه «إنسانية الأديان»)⁽¹⁾.

وليت واحدًا من المسلمين قال: إن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو الدين الصحيح الذي لا يقبل الله دينًا سواه، كما فعل هذا القس ولكن القوم ما بين باطني، إسماعيلي أو قادياني، أو شيعي، أو سني غلبت عليه المجاملة ومداهنة النصارى الذين لا يجاملون في دينهم أحدًا، إلى الحد الذي لم يلبوا رغبة ضيوفهم المسلمين في أداء صلاة الجمعة في ركنٍ من جامع قرطبة السليب، كما حكى الأستاذ كامل الشريف نفسه⁽²⁾.

أما جارودي، فيكفيه وإن لم يبلغ سائر المتحدثين مبلغه، ويعوا فكرته الموغلة في الزندقة، أن يتحقق هذا المظهر الجمعي للديانات الثلاث في قرطبة.

يقول الأستاذ أنور الجندي عن الإبراهيمية: (هي في أصلها محاولة لخداع المسلمين بما يسمى الرابطة التي تربطهم بالمسيحية واليهودية عن طريق إبراهيم

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

عليه السلام، أبي الأنبياء إسحاق وإسماعيل، دون أن يكشف المخدوعون كيف تغيرت خطة الأديان السابقة للإسلام، وخرجت عن الخط الحقيقي الذي رسم لها... وقد بدا أن الدعوة إلى إحياء الإبراهيمية هي بدل للماسونية، أو هي الماسونية بثوبها الجديد. فهي محاولة اقتحام ترمي إلى الحوار بين الأديان الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام... وهكذا يمكن أن تتحقق رغبة الصهيونية العالمية لأول مرة في الجلوس على موائد الحوار مع المسلمين، وخاصة وهي تبدأ من منطلق خطير هو «الإبراهيمية»)(١).

إن جارودي يهدف من خلال النفخ في صورة هذه الوثنيات التافهة، والأديان المحرفة، إلى الحط من عزة المؤمن الشعورية، باستعلاء إيمانه وعقيدته، لأن هذا الانحطاط شرط في مشروعه لصهر الأديان والوثنيات والفلسفات، في بوتقة الأممية العمياء التي ينشدها، ولا يتم له ذلك إلا بتخلي أهل الإيمان الحق عن شعورهم بعزة الإيمان، وكمال الدين، وتمام النعمة.

ج- مؤسسة روجيه جارودي. المركز الثقافي في القلعة الحرة:

في خطوة عملية كبيرة لإرساء أفكاره التقاربية بين الإسلام والنصرانية واليهودية، أقدم روجيه جارودي في منتصف الثمانينيات على استئجار، ومن ثم استثمار، موقع تاريخي قديم في مدينة «قرطبة»، يعرف باسم «القلعة الحرة»، ويلفظه الأسبان: كَالَاهُورا CALAHORRA، تحريفًا عن الأصل العربي.

وتقع هذه القلعة على الجانب المقابل لجامع قرطبة الشهير، ويفصلهما نهر قرطبة، المسمى الوادي الكبير، وتربطهما القنطرة التاريخية، قنطرة الوادي، أحد معالم قرطبة.

---

(١) تأصيل اليقظة، وترشيد الصحوة (١٧١، ١٧٢).

وقد بشَّر جارودي بهذا المشروع الثقافي، وطوَّف عددًا من البلدان الإسلامية لجمع المساعدات لتجهيزه(١).

وجمع معظم تكاليف المشروع التي قدرها بسبعمئة ألف دولار من إحدى دول الخليج(٢).

أما الهدف الحقيقي لهذا المشروع «المتحف»، فهو الهدف ذاته الذي وقف عليه جارودي حياته بعد هجره الحزب الشيوعي، وهو توحيد الأديان والحِكم والحضارات. وقد صرح بذلك في محاضرته في أثناء الملتقى الإبراهيمي حيث قال: (إن الهدف الأساسي للقائنا الإبراهيمي، وللمؤسسة التي افتتحناها في برج «كالاهورا» هو: إحياءٌ جديد للنظرة الكاملة للعقل الذي وصل ذروته في الأندلس. إنه العقل الذي لا يفرق أبدًا بين العلوم التطبيقية والرياضية، والحكمة التي تفكر في هدف البحث العلمي، وفي الإيمان والعقيدة التي نستخلص منها وعي الحدود، والملتمسين لهذا العلم ولهذه الحكمة)(٣).

ونظرًا لخطورة هذا المشروع من حيث المحتوى والأهداف، واتساع أثره، حيث يؤم المتحف مئة ألف زائر سنويًّا، حسب إفادة بعض المقربين من جارودي، يجدون فيه عرضًا جذابًا باستخدام التقنيات الحديثة، فسوف نصِف ما يلقاه الزائر ويشاهده في القلعة الحرة(٤):

---

(١) ينظر: مجموعة مقابلات في كتاب: روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان (٢٣١، ٢٣٢).

(٢) كما جاء في سلسلة تقارير المعلومات الصادرة عن وزارة الأوقاف بالكويت بتاريخ ٥/ ٣/ ١٩٨٧م.

(٣) نص المحاضرة.

(٤) قام الباحث بزيارة القلعة الحرة والوقوف على مقتنياتها، والاستماع للشروح المسجلة في أرجاء القلعة، واقتناء المطبوعات ذات العلاقة، وذلك يوم الجمعة الموافق ٧/ ٤/ ١٤١٧هـ.

حين يدلف الزائر من باب القلعة يجد نفسه في بهوٍ علقت فيه سجادة إيرانية، ووضع في زواياه بعض المشغولات اليدوية القديمة، والصناديق الخشبية المزخرفة. وعليه أن يضع طوق السمَّاعات على أذنيه ليسمع الآتي بإحدى اللغات الثلاث: الإسبانية، الفرنسية، الإنجليزية: (مرحبًا بك في برج القلعة الحرة... إننا نلج داخل حقبة خاصة جدًّا من تاريخ العالم: من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر في قرطبة، حيث كان يعيش مليون نسمة من الناس في أكبر مدينة أوروبية، ومركز الثقافة في ذلك العهد.

هناك تحقق عدم الفصل بين الدراسة العلمية الدقيقة، والحكمة والإيمان. لا شرق منفصل عن غرب، ولا مسلم عن يهودي أو مسيحي. هنا بدأ عصر النهضة الحقيقية، حيث أزهر ونما).

وبعد هذه القاعة الأولى «المدخل»، ثَمَّ ثماني غرف متخصصة:

القاعة الثانية: وهي أهم ما في القلعة من الناحية الفكرية المتعلقة بمشروع جارودي، حيث اتخذ أربعة تماثيل مجسمة بحجم الرجل العادي تمثل:

١- ابن رشد الفيلسوف (٥٢٠-٥٩٥هـ = ١١٢٦-١١٩٨م)، محمد بن أحمد القرطبي ويسميه الأوروبيون {Averroes}.

٢- الميموني، الفيلسوف اليهودي (٥٢٩-٦٠١هـ = ١١٣٥-١٢٠٤م)، موسى بن ميمون القرطبي. ويسميه الأوروبيون {Maimonides}.

٣- ابن عربي الصوفي (٥٦٠-٦٣٨هـ= ١١٦٥-١٢٤١م)، محمد بن علي الطائي.

٤- ألفونسو العاشر (١٢٥٢-١٢٨٤م) ويلقب بـ«لوساج» أي «العاقل» أو «الحكيم».

وبينما تصطف الشخوص الأربعة المكسوة بملابس ذلك الزمان؛ النصراني واليهودي في هيئة الجالس، وبينهما ابن رشد وابن عربي قائمين! يتناوب الأربعة في الحديث، والإعراب عن نظرتهم للحياة، كما صاغ ذلك جارودي من مقالاتهم، نذكر منها على سبيل المثال:

- يقول ألفونسو العاشر، ملك ميورقا: (ههنا كان الأداء الأكثر تألقًا في مدَّة حكمي: أن نخلق في ميورقا، مع الفيلسوف المسلم محمد الريقوتي، أول مدرسة في العالم يعلم فيها النصارى واليهود والمسلمون معًا.

«يا يسوع/ يامن تقدر أن تُحيِّي/ المسيحيين واليهود والمسلمين/ ما دام إيمانهم/ يوجههم نحو الرب».

في ظل حكمي، شكرًا لجهود الرجال الحكماء من الأديان الثلاثة، لقد استطاعت إسبانيا القرن الثالث عشر أن توقظ في جميع أوروبا نهضة صحيحة، تجري ليس ضد الرب، ولكن مع الرب). ثم تعقيب كسابقيه.

- ويختم ابن عربي بالقول: (الرب وحدة. وحدة الحب والمحب والمحبوب. كل محبة فهي رغبة بالاتحاد. كل محبة فهي بوعي أو غير وعي محبة للرب...).

وتعقبه أسئلة «المريدين»، وإجابات الشيخ بما فيها أبياته في وحدة الأديان والأوثان.

القاعة التاسعة: قاعة عرض سينمائي لفيلم يعالج ذات القضية، ويتضمن التعليق الختامي الآتي: (إن أول نهضة أوروبية لم تبدأ في إيطاليا في القرن السادس عشر، بل في القرن الثالث عشر في إسبانيا.

منذ آلاف السنين كان جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية، الأندلس، محل لقاء لمختلف ثقافات وروحانيات الشرق، وحوض البحر المتوسط. الشرق، أرض الرسالات الإلهية، جلب تقاليد أنبيائه من إبراهيم إلى موسى، من عيسى إلى محمد.

انتشر الإسلام بسلاسة عبر هذه الأرض، لأنها تحوي جميع تلك التمثيلات، وأيضًا لأنها كانت مفتوحة لكل أحد، لكونها تعترف بجميع الإيمانيات السابقة. لقد أغنت مرحلة انتقالية جديدة في حياة جنسنا البشري، هذه الفكرة المكتملة للعقل، التي لا تفصل العلم عن الحكمة أو الإيمان، كما ازدهرت في قرطبة...)(١).

إن هذا ما يريد جارودي، وليس بالبساطة والسذاجة التي تصورها بعض الناس المغرر بهم؛ أنه يريد تصحيح صورة الإسلام في أذهان الغربيين، ونشر مآثر الحضارة الإسلامية الحقة. لقد تجاهل جارودي جهود علماء المسلمين في نشر التوحيد والعقيدة الصحيحة، ودحض الشرك بأنواعه، وإبطال دين اليهود والنصارى.

وحفظ السنة النبوية، وإثراء الفقه وأصوله، من قبل جهابذة الأئمة والحفاظ والزهاد والعبَّاد الذين فاضت بذكرهم العَطِر كتب التراجم والسير، وطفق يبحث عن كل زنديق ونحوِه، يؤلف منهم عصابة سوء، ورهط ضلالة، من يهودٍ ونصارى وفلاسفة وباطنية وصوفية، ويقول للناس: هذا هو الإسلام، وتلك نهضة الأندلس.

إنه حين يتحدث عن «الإسلام»، ويقول عنه قولًا حسنًا يطرب له أصحاب العواطف والنوايا الساذجة، فإنما يضمر في نفسه الإسلام الذي اصطنعه، ورسم صورته، وحدد

---

(١) تمت ترجمة جميع المقاطع السابقة من كتاب: CORDOBA-CALAHORRA. bridge From East to West قرطبة. القلعة الحرة. جسر من الشرق إلى الغرب p. 3, 6, 7, 12, 14, 16, 18, 24.
وانظر أيضًا: The Meaning of life in Andulusia.

أركانه، ليس إسلام محمد بن عبد الله ﷺ، عقيدة وشريعة، بل ولا إيمان إبراهيم عليه السلام عقيدة دون شريعة، ولكنه إسلامه الخاص الذي بناه على ركنين:

أحدهما: ركن (التعالي) الذي يعني وجود قيم مطلقة، أيًّا كانت تلك القيم، المهم أن يكون للحياة معنى. ونبيُّه في ذلك كير كجارد.

الثاني: ركن (الجماعية) الذي يعني شيوعية الثقافة والاجتماع والاقتصاد للإنسانية المناضلة، ونبيُّه في ذلك كارل ماركس.

فلا مكان «لشريعة مهيمنة» بحسبانها تقاليدَ وفلكلورًا لشعبٍ معين في تاريخٍ معين، ولا إقرارًا بأمةٍ متميزة تكون «خير أمة أخرجت للناس»، فجميع الطرق تؤدي إلى الله في زعمه ما دامت الأفعال كلها محبة، وكل محبة فهي بوعي أو بغير وعي محبة للرب، كما قال سلفه ابن عربي.

كل هذا الكفر شيد بأموال المسلمين وتبرعاتهم، والأنكى من ذلك أن يُحمى بأقلام كتابهم، ومن ينسب إلى العلم منهم، ببواعث عاطفية عمياء كالوقوف معه باسم الإسلام في صراعه مع الصهيونية. فحين حوكم في فرنسا مؤخرًا، أقيم له مهرجان مناصرة في الدوحة و(استقبل استقبال الفاتحين، ولقي ترحيبًا رسميًّا وشعبيًّا منقطع النظير، بدأ منذ وصوله إلى مطار الدوحة، ثم أقيمت للضيف مهرجانات عدة، كان أنجحها مهرجان مركز شباب الدوحة، الذي احتشد فيه عدد من السفراء، والرسميين، ورجال الفكر والسياسة، كما كان د. يوسف القرضاوي، على رأس الخطباء، حيث قال مرحبًا بالضيف:

إننا في هذه الليلة نعيش وقتًا أعده من الأوقات المباركة النافعة الإيجابية في زمن التجبر الإسرائيلي، والتفرد الأمريكي، والعجز العربي، والغياب الآسيوي.

نرى هذه البادرة بصيصًا من النور، لتبين أن للحق أنصارًا يخرجون من حيث لا يحتسب الناس...

لقد قال هذا المفكر كلمة الحق، ولم يبالِ بعد ذلك.. أراد بعض الناس أن يجردوه من دينه، ومن عواطف المسلمين معه... لو لم يكن مسلمًا لوقفنا معه أيضًا، لأننا مع الحق، فكيف به وقد أضيفت إليه أخوة الإسلام؟! وقد قلت له في رمضان: نحن معك في قطر والخليج وبلاد الإسلام، ومعك أكثر من مليار مسلم... سر في طريقك، واثبت على موقفك، وثِقْ أن الله هو ناصرك، وأن الله هو الحق المبين)(١).

يا أسفى على يوسف!

إذا كان بعض علماء المسلمين في هذا الزمان لا يحتكمون إلى نصوص الكتاب والسنة، ولا يَزِنون الأقوال والأفعال بميزان الشريعة، فما بالك بالصحفيين، وأنصاف المثقفين، بلْه عامة الناس؟! فكيف إذا كان الأمر لم يبلغ درجة الاشتباه الذي يحتاج إلى تحرير الفقهاء، واجتهاد المجتهدين؟ إذا كان صاحب الشأن نفسه أعني روجيه جارودي يقول بملءِ فِيه، ويسطر ذلك بأنامله، لا يخاف لومة لائم: (دخلت الإسلام، وبإحدى يدي الإنجيل، وباليد الأخرى كتاب «رأس المال» لماركس، ولست مستعدًا للتخلي عن أيٍّ منهما)(٢)، وذلك بعد إعلان إسلامه المزعوم بسبع سنين.

ويقول أيضًا: (إنني عندما أعلنت إسلامي لم أكن أعتقد بأني أتخلى عن مسيحيتي ولا عن ماركسيتي، ولا أهتم بأن يبدو هذا متناقضًا أو مبتدعًا)(٣) بعد إسلامه بسنتين. ويقول: (أحب أن أؤكد بأنني لم أُدِر ظهري للماركسية على الإطلاق)(٤).

---

(١) مجلة العالِم. العدد الأول. صفر ١٤١٦هـ يونيو ١٩٩٨م.

(٢) جولتي في القرن وحيدًا (٣٣٧). طبع عام ١٩٨٩م.

(٣) جريدة «البعث السورية» عدد ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م.

(٤) جريدة «تشرين» السورية عدد ٢٥/ ٣/ ١٩٨٤م.

فهل يبقى بعد هذا معنًى لقول القرضاوي: (أراد بعض الناس أن يجردوه من دينه)، فهل جرده أحدٌ أم أنه لم يلبسه أصلًا؟!⁽¹⁾.

في حُميَّا العواطف المشبوبة، والنظرة القصيرة، يغفل الدكتور يوسف القرضاوي عن سبب عداء جارودي للصهيونية ودولة إسرائيل المؤسسة على أسطورة «شعب الله المختار»، إن السبب باختصار أن هذه النظرة القومية لا تتفق ومشروع جارودي وأمله في إنسانية موحدة.

إن السبب ذاته سوف يحمل جارودي على الانقضاض على المسلمين أنفسهم حين يعتقدون ما قال الله في كتابه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٩٣] سواءً بسواء.

إن ميزان جارودي في الباطل مطرد، وميزان هؤلاء في الحق مضطرب.

ونختم بهذين النص الصارخ لجارودي.

(وليكن كلٌّ منا ما يكون، مسلمًا أو مسيحيًّا، فإن ذلك لا يفصله عمن لا يشاركه دينه.. وسنلتقي جنبًا إلى جنب مع كل أعضاء البشرية التي تحطم قيود الجزئي، وقيود الفردية والقومية التي تفتت العالم)⁽²⁾.

---

(١) لقد خبر الدكتور يوسف القرضاوي جارودي وشطحاته في مؤتمر سطيف المعقود في الجزائر عام ١٩٨٦م، وناقشه في أفكاره. كما أفاد الأستاذ أنور الجندي في تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة (١٧٥، ١٧٨).

(٢) جولتي وحيدًا في القرن (٤٣٧). عن روجيه جارودي والمشكلة الدينية (٢٥٩).

المبحث الثاني

محاولات الأب «إيميليو غاليندو آغيلار» للتقريب بين الأديان

تمثل محاولاته للتقريب بين الأديان عمومًا، والإسلام والنصرانية خصوصًا، لونًا مميزًا من المحاولات المبذولة في هذا السبيل، إذ تقوم على السعي لتجميع المفكرين المتحررين «المارقين» من كلتا الديانتين في جبهة واحدة، ونشر أفكارهم وتعزيزها ضمن خطةٍ يرسمها مسبقًا، ووفق أهدافٍ ومنهجية يرتئيها، ويستكتب لها من يصطفيه من المفكرين من الجانبين، ثم يخرجها بصورة كتبٍ متلاحقة عادًّا كل كتاب مؤتمرًا إسلاميًّا مسيحيًّا بالمراسلة عن بُعد».

أهمية هذه المحاولة:

تبرز أهمية هذه المحاولة في الجوانب الآتية:

١- أنها أول مبادرة نصرانية جادة للحوار العقدي، وبحث النقاط الشائكة التي تتجنبها مؤتمرات الحوار الإسلامي - النصراني عادةً، أو تمسها مسًّا رقيقًا.

٢- انعتاقها من الأطر الرسمية للدول والمؤسسات الدينية التي تتبنى مؤتمرات الحوار غالبًا.

٣- حشد عدد من الكتاب والمفكرين المعنيين بشأن الحوار من رجال الدين النصارى المتمرسين بالتنصير والحوار، وندرة من الزائغين المنسوبين إلى الإسلام.

٤- جاءت بعد أكثر من عقدين من إطلاق المجمع الفاتيكاني الثاني دعوته التاريخية للحوار ١٩٦٢ - ١٩٦٥م، حيث ابتدأ المؤتمر الأول لهذه المحاولات عام ١٩٨٨م والثاني ١٩٩٤م، والثالث ١٩٩٧م، متضمنةً الرؤية النصرانية الحديثة للحوار.

٥- الأسلوب السهل في عقد هذه المؤتمرات؛ وذلك عن طريق المراسلة.

- **أولًا: سيرة ذاتية، وتعريف موجز:**

- ولد إيميليو آغيلار بغرناطة «إسبانيا» في عام ١٩٢٧م، وتدرَّج في السلك الكنسي الكاثوليكي حتى رُسم كاهنًا بجماعة الآباء البيض التي تزاول نشاطها التنصيري في إفريقيا، عام ١٩٥٣م. ونال درجة الدكتوراة في الفلسفة من روما عام ١٩٥٦م، وفي الدراسات العربية الإسلامية من تونس عام ١٩٥٨م. أسهم مساهمة فعالة في التحضير لمؤتمرات الحوار الإسلامي المسيحي المنعقدة في قرطبة منذ عام ١٩٧٤م، وشغل منصب «الأمين العام» لها، وأسس جماعة «كريسلام» لتعبر عن آرائه وآراء أمثاله من المتحررين من القيود الرسمية.

وقد ألف «غاليندو» بضعة كتب كلها تتعلق بالإسلام، منها: «الصوفيون: أولئك الرجال المقلقون للإسلام»، مدريد ١٩٨٣م، كما أنه بصدد إصدار كتاب آخر عن «الصوفية»، لاعتقاده أنها الطريق إلى «توحيد الأديان»(١)، «تجربة الإله في الإسلام» مدريد ١٩٨٥م.

كما يدير نشرة دورية تصدرها مؤسسته، عنوانها: «لقاء إسلامي مسيحي»(٢).

---

(١) كما أخبرني بذلك شخصيًا أثناء زيارتي لمؤسسته، دارك - نيومبا في مدريد يوم الأربعاء ٥/ ٤/ ١٤١٩هـ.

(٢) انظر ترجمته لنفسه في كتاب: «العقيدة للأمام» بالإسبانية FE ADELANTE (١٧٥). ويتضمن أعمال المؤتمر الإسلامي المسيحي الأول بالمراسلة عن بُعد.

- **ثانيًا: محاولات غاليندو العملية للتقريب بين الأديان:**

ترجع محاولاته إلى حقبة السبعينيات، حين انعقد أول لقاءٍ إسلامي - نصراني في عاصمة الخلافة الأموية، قرطبة، سبتمبر عام ١٩٧٤م، وما تلاه من مؤتمرات(١)، كان يقوم فيها بدور الأمين العام(٢).

وقد أسس في مدريد مكتبًا لمزاولة أنشطته المختلفة، وسماه دارك - نيومْبا عام ١٩٧٠م. وأراد بذلك الكلمة العربية «دارك» أي بيتك.

أما الخطوة العملية المهمة التي أبرزت مشروعه للتقريب بين الإسلام والنصرانية، فكانت تأسيس مجموعة «كريسلام» عام ١٩٨٤م. وهو مصطلح نحته غاليندو من اسمي الديانتين: كريستيانيتي Christanity أي «النصرانية» والإسلام، وركبه تركيبًا مزجيًّا، ليحمل الدلالة على ما تمثله هذه المجموعة.

"كريسلام" مجموعة الدراسات الإسلامية المسيحية

نحن جماعة نواتها المركزية محدودة العدد بدوافع الفاعلية، متوازنة من حيث عدد أعضائها من المسلمين والمسيحيين، وهي ليست مغلقة ولا تستثني أحدًا من ميادين نشاطها.

تتألف من مسلمين ومسيحيين مشبعين بالأصول الدينية التي ننتمي إليها، تجتمع لإعادة قراءة تعاليمنا الدينية قراءة مشتركة تستهدف إبراز تطلعاتها الإنسانية، قراءةً «موضوعية ترفض الأحكام السابقة، وانفتاح لاستيعاب وجهات النظر الجديدة، وتحليل ناقد تجاه الاستنتاجات التي يتم التوصل إليها»، مستبعدين في

---

(١) انظر محاولات التقريب في إسبانيا في الفصل الثاني من هذا الباب.

(٢) انظر: مقدمته لكتاب «العقيدة إلى الأمام» (٧).

لقائهم هذا أي موقفٍ قائم على مجرد استظهار المقولات الدينية المعهودة التي تقف حائلًا دون اللقاء الأصيل.

جماعة من الأحرار المستقلين المنضمين إليها بصفتنا الشخصية المجردة، فنحن لا نمثل أي جهة، ونمارس حريتنا تجاه الجماعة نفسها، وتجاه الموضوعات التي نطرحها للبحث، يستلهم المسلمون منا مبدأ الاجتهاد، ويستلهم المسيحيون منا نص وروح المجمع الفاتيكاني الثاني.

جماعة ملتزمة بقضية الإنسان(١).

تلك هي الوثيقة الأولى التأسيسية لـ«كريسلام»، ومن بين عشرات المقالات التي تضمنتها إصدارات «كريسلام» الثلاثة -حتى الآن- لعشرات من المسلمين والنصارى الذين يتفقون مع أهداف «كريسلام»، ما يؤكد بروز الجانب الفردي لإيميليو غاليندو في هذا المشروع، وإن كان يحرص في كتاباته على صبغها بصبغة «الجماعية» و«الدولية».

وقد أُتبعت الوثيقة السالفة ببيان إلحاقي يعيد التعريف بالجماعة، ويلقي الضوء على منهجها في العمل وموقفها من المؤسسات الدينية، جاء فيه:

كريسلام مجموعة الدراسات الإسلامية المسيحية تعلن:

١- أنها تستقي وعيها من الدينين معًا، وتعيد النظر في أنظمتها المذهبية، لصياغتها بشكل يعين على النمو الروحي لكل الناس نموًّا أفضل.

---

(١) ينظر: PLIEGOS DE ENCUENTRO ISLAMO - CHRISTIAN. P. 19.
«بالإسبانية» نشرة لقاء إسلامي مسيحي. عدد (٥) Crislam, nuevo estilo كريسلام. أسلوب جديد.

٢- على المؤسسات الدينية أن تجعل من مبدأ مساواة جميع الناس في حقوقهم الأصلية عنصرًا من عناصر سلوكها.

وتعلن موقفها النقدي بإزاء أي عنصرية تمارس ضد الأقليات الدينية أو الجنسية أو العرقية أو الثقافية، كمحاولة لرفض سماتها وخصوصيتها.

٣- تعلن الجماعة مساعدتها لكل عمل يرمي إلى تحقيق حرية الضمير، والتدين، وإعلان العقيدة، واختيار شريك الحياة في الزواج، وتربية الأبناء، والتعبير الأيديولوجي، وإبداء الرأي في الدين.

ينشئ «كريسلام» هيئةً دائمة ذات غايتين:

- تربوية تسعى لخلق عقلية جديدة، وإيجاد التفاهم والمصالحة والتعاون والأخوة بين كل الناس. عملنا الثاني:

- تعرية كل الأعمال المذهبية والقانونية والاجتماعية والبنيوية التي تمارس أو تعلن أو تشجع لأسباب دينية، والتي تحرم الإنسان من إنسانيته في عالمنا الإسلامي والمسيحي الفسيح⁽¹⁾.

وهذا البيان يكشف عن الموقف «المستوفز» لجماعة «كريسلام» تُجاه المؤسسات الدينية، إسلامية ونصرانية، التي تتوقع إدانتها لما ستتقدم به من أفكار ناسفةٍ للثوابت العقدية لدى الجانبين.

ويدرك «غاليندو» أن مشروعه للحوار الإسلامي المسيحي المتحرر من المرجعيات الدينية، المحتكم لغايات الانفتاح وتوحيد الأديان والتقاليد والثقافات، سوف يكون مرفوضًا من جميع الأطراف المؤسسية، ويعبر عن

---

(١) ينظر: PLIEGOS DE ENCUENTRO ISLAMO - CHRISTIAN. P. 17. 18.

«بالإسبانية» نشرة لقاء إسلامي مسيحي. عدد (٥) Crislam, nuevo estilo كريسلام. أسلوب جديد.

هذا الإدراك في مواضع عديدة من تقدماته لنصوص مؤتمرات الحوار عن بعد -بالمراسلة- نقتطف منها:

(ينبغي التخلص من وصاية المؤسسات الدينية، التي أثبتت أنها بدلًا من أن تكون بمنزلة مساعدة، فهي عقبة إضافية)(١).

في حين أن نقده المرير واضح جدًّا بالنسبة للطرف الإسلامي، الذي لا يجد منه التجاوب الذي يريد من إعلان الشك والرفض والتمرد، ويحاول أن يفسره تارة بالانشغال، وأخرى بالخطر المضاعف(٢).

إنَّ الرجل يتحسر بمرارة ألَّا يجد من الجانب الإسلامي من يجاريه في مروقه وزندقته.

- من خلف مكتبه في غرفة صغيرة في شُقَّة بأحد شوارع مدريد، عقد إيميليو غاليندو ثلاثة مؤتمرات دولية! وذلك بالمراسلة -عن بعد- كما يسميها، إذ يطرح في كل مرة جملة من التساؤلات والتشككات على من ينتقيهم من الجانبين الإسلامي والنصراني، بالمراسلة البريدية، ثم يضم ما تلقاه من إجابات بين دفتي كتاب، بعد أن يضع له مقدمة، ويسهم بدوره في الإجابة على ما طلب بنفسه، ويؤطره بعنوانٍ ذي دلالة رمزية، ويسميه «مؤتمرًا»، رغم أنه لم يجرِ لقاء أو نقاش بين المؤتمرين، ولم يظلهم سقفٌ واحد.

وقد عدَّد غاليندو الأسباب التي دعته إلى انتهاج هذا الأسلوب المميز في الحوار بالمراسلة، بأربع نقاط، نوجزها كما يأتي:

---

(١) العقيدة للأمام (٨). وينظر: (العقيدة للأمام) (١٢ - ١٣) - من مقدمة المؤتمر الأول بالمراسلة عن بعد. إلى الجذر (١٠ - ١١) من مقدمة المؤتمر الثاني بالمراسلة عن بعد.

(٢) ينظر: العقيدة إلى الأمام (١١).

(١- حينما يتفكر المرءُ في خلوته ووحده، يصير الأمر أمامه أسهل، للهروب من الرقابة الذاتية النفسية، ومن الضغوطات الخارجية...

٢- لما كان هذا المؤتمر بغير تنظيم من أي هيئة أو مؤسسة دينية، ولا سياسية، فإمكانات استقلاليته باتت أكبر...

٣-... العنصر الاقتصادي... وإنجاز مؤتمر هو أمرٌ مكلف...

٤- خطرٌ آخر مؤكد في المؤتمرات، خاصة حينما يتعلق الأمر بالموضوعات الدينية، وذاك هو: الغرق في اعتبارات نظرية وعلمية، متفاديًا الموضوعات الحقيقية والمحددة...)(١).

إن الباعث الحقيقي وراء هذه الأسباب -بما فيها الاقتصادي- هو رغبة غاليندو الجارفة للغوص في الجوانب العقدية الحاسمة التي تفصل بين المسلمين والنصارى.

وقد قوَّم المؤتمرات الرسمية وشبه الرسمية للحوار بقوله: (إن الشيء الوحيد الذي تم بوضوح في تاريخ الحوار الإسلامي المسيحي، كان الخبرة الواقعية في المداراة)(٢). أما القضايا الأساسية العميقة فـ(لم يكن من أحدٍ يستطيع أو يجرؤ على أن يتطرق إليها بعمق أو أن ينكرها، خشية أن يقطع هذا الخيط الرقيق أو الرهيف في علاقاتنا، وبذلك فإننا نطفئ الومضة الضعيفة الواهنة للحوار)(٣).

وقد صدق «غاليندو» في هذا، بل نحن -المسلمين- أشد حرصًا على الوضوح والعمق والقصد إلى أصول الخلاف بدلًا من الاشتغال بالمجاملات

---

(١) ينظر: العقيدة للأمام (٩ - ١٠).

(٢) العقيدة للأمام (٨).

(٣) إلى الجذر (٧).

الباردة، ولكن إلى ماذا يرمي «غاليندو» من دعوته للحوار الحقيقي العميق؟ هذا ما سيكشفه المبحث التالي إن شاء الله.

• ثالثًا: محاولات «غاليندو» الفكرية للتقريب بين الأديان:

على مدى عشر سنواتٍ -تقريبًا- أنجز الأب غاليندو ثلاثة مؤتمرات بالمراسلة، كان فيها «العقل المدبر» في التخطيط والتنفيذ، وجمع مادتها في ثلاثة كتب.

وسوف نسير مع هذه المحاولات الثلاث لتبين معالم فكر غاليندو ورفاقه.

أ - المؤتمر الدولي الأول بالمراسلة. تنظيم كريسلام: العقيدة للأمام. المشكلات الجوهرية أمام الحوار الإسلامي المسيحي عام ١٩٨٨م.

في مقدمته لأعمال هذا المؤتمر يقول: (جاء المؤتمر الإسلامي المسيحي الأول بالمراسلة...، لنطرح على أنفسنا بصدقٍ وموضوعية وشجاعة، الموقف الحالي للحوار الإسلامي المسيحي، وبعد تشخيص ذلك الموقف، نفتح سبلًا للمستقبل)(١).

وتشخيصه للحوار أنه «يمر بأزمة عميقة»، وأنه كوَّن «خبرة واقعية في المداراة».

وبعد حملة قوية في الدعوة للتشكك استعان فيها بمقولاتٍ لبعض أئمة المعتزلة والمتكلمين، طرح ثلاثة أسئلة، قد وجهت للمساهمين في هذا المؤتمر:

(١ - في رأيك: ما الموضوعات ذات العمق التي لا نتطرق إليها بتعمق، والتي ينبغي ألَّا تصير بعد ذلك أمرًا «لا مساس به» حتى يتطور الحوار بيننا بصدق؟

٢ - في رأيك، ما الأسباب المحددة التي تدفعك إلى الاعتقاد بأن تناول هذه أو تلك من الموضوعات أمرٌ أساسي من أجل حوار حقيقي؟

---

(١) العقيدة للأمام (٧، ٩).

٣ - اقترح بإيجاز منهجية لتناول وتطوير هذه الموضوعات من أجل أن تكون مساعينا مثمرة فعلًا)(١).

وقد نشر غاليندو في كتاب «العقيدة للأمام» خمس عشرة مقالة، سوى ما كتبه هو، ثلاث منها فقط لكتَّابٍ يحملون أسماء إسلامية، والباقون نصارى، وصدَّر كل مقالة بنصوصٍ مختارة أراد إبرازها، لكونها تتفق مع أفكاره الخاصة.

ونعرض أدناه لأسماء أصحاب المقالات ونذكر مقتطفاتٍ من تلك النصوص لما يرونه من عوائق وحلول للحوار:

أسماء المشاركين:

١ - المونسينور: هنري تِيسير(٢) {Monsenor Henri Teissier}.

٢ - محمد أركون(٣).

---

(١) المرجع السابق (٩).

(٢) ولد في مدينة ليون «فرنسا» عام ١٩٢٩م. حصل على الإجازة في اللاهوت، وعلى دبلوم في اللغات السامية من المعهد الكاثوليكي في باريس. حصل على الجنسية الجزائرية عام ١٩٦٩م، وشغل المناصب التالية: مدير مركز اللغات والكهنوت في الجزائر من عام ١٩٦٧م - ١٩٧٢م. أسقف وهران. عام ١٩٧٢م، كبير الأساقفة في الجزائر عام ١٩٨١م. عضو الأمانة الفاتيكانية لغير المسيحيين منذ عام ١٩٧٣م، وعضو المجمع الكنسي منذ عام ١٩٨٣م. من مؤلفاته: الكنيسة في الإسلام، تأملات حول الوجود المسيحي في الجزائر.

(٣) محمد أركون: ولد في الجزائر عام ١٩٢٨م. درس في وهران، وفي باريس، دكتوراه في الآداب، أستاذ ملحق للغة العربية، ورئيس قسم العلوم الإنسانية في جامعات باريس. نشر من بين مؤلفات أخرى: «مقالة حول الفكر الإسلامي»، «الفكر العربي ط ١٩٧٥، ١٩٧٩»، الإسلام؛ الأمس والغد ط ١٩٨٢»، «الإسلام دين ومجتمع ط ١٩٨٢»، قراءات القرآن ط ١٩٨٢»، «في سبيل نقدٍ للعقل الإسلامي ط ١٩٨٤»، «الإسلام أخلاقياته وسياساته ط ١٩٨٦»، انظر: «العقيدة للأمام» (٢٩).

٣ - رايموندو بانيكّار {Raimundo Panikar}(١).

٤ - رفائيل إيستبان بيراستيغي(٢) Rafael Esteban Verastegui.

٥ - مونسينور: بيير كلافري(٣) Monsenor Piere Claverie.

٦ - عبد الرحمن شريف شيرغي(٤).

٧ - أنطونيو كاسترو ثافر(٥) Antonio Castro Zafra.

---

(١) ولد في برشلونه عام ١٩١٨م لأبٍ هندي وأم كاثوليكية. دكتور في الكيمياء والفلسفة واللاهوت رسم كاهنًا عام ١٩٤٦م، أستاذ بعددٍ من الجامعات الأوروبية والأمريكية والهندية. من مؤلفاته: الهند: أهلها وثقافاتها ط ١٩٦٥م. الآلهة والرب. ط ١٩٦٧م، السر والتنزيل ط ١٩٧٠م الحوار بين الأديان. ط ١٩٨٥م. كتب حوالي ثلاثين كتابًا، وقرابة ألف مقالة. العقيدة للأمام (٣٧).

(٢) ولد في بيتوريا - إسبانيا - عام ١٩٣٩م، رسِّم كاهنًا عام ١٩٦٤م، حصل على الدكتوراه في اللاهوت من روما عام ١٩٦٨. عين أستاذًا للاهوت في غانا على مدى ست سنين ١٩٨٠ - ١٩٨٦م. كان مديرًا لمركز المعلومات والتوثيق الإفريقي(CIDAF) سيداف، التابع للآباء البيض ومقره مدريد. حاليًا هو أستاذ في الديانات الإفريقية والإسلام والتنمية الاقتصادية لبلدان العالم الثالث في معهد البعثات التبشيرية بلندن. من مؤلفاته: الديانات غير المسيحية على مدار التاريخ، «الخلاص» عام ١٩٦٩م، المغامرة المسيحية الرامية إلى التقاء الأديان ط عام ١٩٧٨م. العقيدة للأمام (٤٧).

(٣) ولد في الجزائر عام ١٩٣٨م. التحق برهبانية القديس دومينغو، حصل على الإجازة في اللغة العربية، نشر ترجمة لمصنف ابن رشد «تهافت التهافت». كان مديرًا لمعهد الدراسات الأبرشية في الجزائر. وفي عام ١٩٨١م عيّن أسقفًا لطهران. من مؤلفاته: «حول تحول شخصٍ لدينٍ آخر». العقيدة للأمام (٥٧).

(٤) ولد في الناضور - المغرب - عام ١٩٣٩م. بعد إتمام دراسته الثانوية في المغرب شرع في دراسته العليا في مدريد، فحصل على الإجازة الجامعية في الفلسفة والآداب، قسم علوم التربية بجامعة مدريد المركزية. وحصل على العالمية في علم النفس من جامعة مدريد المستقلة، وعمل بها أستاذًا بقسم اللغة العربية. من مؤلفاته: الجانب الإنساني والجانبي الإلهي في الشريعة الإسلامية، المفهوم الذاتي عند ابن عربي. العقيدة للأمام (٦٧).

(٥) ولد في إسبانيا - عام ١٩٢٨م، وحصل على الإجازة في التاريخ الكنسي من جامعة غريغوريو في روما. حصل على الإجازة في القانون المدني من جامعة مدريد المركزية. صحفي. من مؤلفاته: روما والقسطنطينية، المجمع الفاتيكاني الثاني، سيرة يوحنا الثالث والعشرين، بيو الثاني عشر: هكذا صرت بابا. العقيدة للأمام (٧٩).

٨ - جورج قنواتي(١).

٩ - فيديريكو بيروني(٢) PeironeFederice.

١٠ - عبد الوهاب بوحديبة(٣).

١١ - موريس بورمانس Maurice Bormans.

١٢ - سيغريد فون ثيميل(٤) e Von Thimmel Sigrid.

---

(١) جورج بن شحاتة قنواتي: مدير معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومينكان الكاثوليك بالقاهرة. ولد سنة (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م) في الإسكندرية، من أصل سوري، وتخرج مهندسًا كيماويًا في جامعة ليون - وانضم إلى الرهبانية الدومينكانية عام (١٩٣٤م) وتخصص في الفلسفة واللاهوت، واشتغل بأعمال ابن سينا، وابن رشد. وكلف من قبل جامعة الدول العربية بالبحث عن مخطوطات ابن سينا في مكتبات العالم، ونشر نتائج بحثه عام (١٩٥٠م) في كتابه: «مؤلفات ابن سينا». توفي سنة (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
انظر: تتمة الأعلام. محمد خير رمضان يوسف (١/ ١١٨)، ذيل الأعلام. أحمد العلاونة (٦٠).

(٢) ولد في «تورين» - إيطاليا - دكتوراه من جامعة لشبونة عنوانها: «المسيح عيسى في القرآن» دبلوم في اللغة العربية من تونس. أستاذ لمادة «نظرية الإسلام» بكلية «ميلات»، وأستاذ مساعد للغة العربية وآدابها في جامعتي تورين، وبافيا. عضو ومستشار باللجنة الدائمة للحوار الإسلامي المسيحي. أهم أعماله ترجمة معاني القرآن بتعليق وملاحظات باللغة الإيطالية عام ١٩٧٩م، طبعت أكثر من خمس طبعات، «الحركة الإسلامية في ميلان» ط ١٩٨٣م، الروحانية الإسلامية. ط ١٩٨٣م، ١٩٨٦م. العقيدة للأمام (٩٧).

(٣) ولد في تونس عام ١٩٣٢م. حصل على دكتوراه الدولة من باريس عام ١٩٧٢م. عمل أستاذًا لعلم الاجتماع الإسلامي في جامعات تونس وكيبك ومنتريال ولييج ولوفانيا وأبيجان. خبير دائم بهيئة اليونسكو في الفترة ١٩٦٧ - ١٩٧٢م. خبير بهيئة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان منذ عام ١٩٧١م. مدير مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بجامعة تونس منذ عام ١٩٧٢. عضو مؤسس ونائب رئيس الرابطة التونسية لحقوق الإنسان منذ ١٩٧٨م. رئيس اللجنة العربية الدائمة لحقوق الإنسان منذ عام ١٩٨٣م، من مؤلفاته: الجنس في الإسلام. ط ١٩٧٥م، الحوار والسياسة ط ١٩٧٩، سبب الوجود ط ١٩٨٠م. العقيدة للأمام (١٠٧). (ينظر هل سبق في المختصر).

(٤) ولدت في برشلونة - إسبانيا - وحصلت على الإجازة الجامعية في تاريخ العصور الوسطى. عضوة بمركز الأبحاث الإسباني العربي والإسلامي المسيحي «دارك - نيومبا».=

١٣ - جوسيت جيان غوينول(١) Jean GwenoleJeuss.

١٤ - غبريال عبُّود أوزون(٢).

١٥ - بول خوري(٣).

أبرز العوائق أمام الحوار والحلول في نظر كريسلام(٤):

بتحليل النصوص التي أبرزها «غاليندو» من إجابات المشاركين في مؤتمره الدولي بالمراسلة عن بعد، لمعالجة «المشكلات الجوهرية أمام الحوار الإسلامي المسيحي»، والإجابة عن أسئلته الثلاثة حول الموضوعات العميقة التي يتحاشاها الحوار، وأسباب أهميتها ومنهجية تناولها، نجد أولًا إجماعًا علىٰ نقد مسيرة الحوار، وعدم نهوضه بالتطلعات التي يرجوها المشاركون علىٰ اختلاف انتماءاتهم الدينية والطائفية. فالحوار بين المسيحيين والمسلمين، دائمًا، منذ نشأة الإسلام

=من مؤلفاتها: غاية نحو المشرق، والخروج من ناحية الغرب. ط ١٩٧٧م، كتب المرحلة الثانوية والإسلام، مقالة في العدد ٦ من نشرة لقاء إسلامي مسيحي ط ١٩٨٣م، مزامير صوفية ١٩٨٦م. العقيدة للأمام (١٣٩).

(١) ولد عام ١٩٣٥م في فرنسا. التحق بالآباء الفرنسيسكان عام ١٩٥٤م، ورسِّم كاهنًا. رحل عام ١٩٦٨م إلى ساحل العاج، وتولى شؤون العلاقة بالمسلمين عام ١٩٦٩م. وفي نفس العام عين عضوًا باللجنة الأسقفية للعلاقات مع المسلمين غرب إفريقيا، ثم رئيسًا للجنة الدولية للفرنسيسكان للعلاقات مع المسلمين. من مؤلفاته: صديق الإله وصديقنا: الحاج أبو بكر ساخو. ط ١٩٨٦م. العقيدة للأمام (١٤٩).

(٢) ولد في حلب - سوريا - عام ١٩٤٥م - حصل على الجنسية الإسبانية. ودرس الطب في بلنسية وغرناطة. تخصص في علم النفس بالمستشفى الإكلينيكي بمدريد.

(٣) ولد في لبنان عام ١٩٢٢م. كاهن يوناني ملكاني، دكتوراه في الآداب من جامعة ليدن بهولندا. أستاذ الفلسفة بجامعة الكسليك من مؤلفاته: الإسلام والمسيحية، حوار ديني وتحد معاصر. ط ١٩٧٣م، قراءة في الفكر العربي ط ١٩٨١م. العقيدة للأمام (١٩٣).

(٤) ينظر: العقيدة للأمام (١٥)، (٢٩)، (٣٧)، (٤٧)، (٥٧)، (٦٧)، (٧٩)، (٨٩)، (٩٧)، (١٠٧)، (١١٧)، (١٣٩)، (١٤٩)، (١٦١)، (١٩٣).

الأولىٰ كان أمرًا صعبًا (بورمانس)، والآن، فإن اللقاءات قد اقتصرت علىٰ عروضٍ تتسم بالنفاق بصورة أو بأخرىٰ، أو علىٰ الأقل متذبذبة (بيروني)، والتصريحات الرامية للمصالحة الصادرة عن اللقاءات الرسمية لا تتطابق مع أي تغير حقيقي في السياسات الدينية (تيسير).

ومن ثم فسنقوم بتلخيص أبرز العوائق التي تعترض «الحوار الحقيقي» في نظر الدائرين في فلك «كريسلام»، ثم نتبعها بالحلول والاقتراحات التي يستشرفونها للمستقبل.

أولًا: العوائق:

١. **المسلمون أنفسهم:** لأنهم الآن يسبحون ضد التيار، ويرفضون نقد مصادرهم (تيسير)، (غوينول)، ويعانون الانغلاقات والرفض، وعدم التفهم، ونقص الاستعداد، والتأهيل، (أركون). ومن النادر أن تجد من جانب المسلمين متحدثًا يكون من الناحية الفكرية والثقافية معاصرًا لأقرانه المسيحيين (كلافري). فلقد أثبتت التجربة أن التوجه إلى من يمثلون الإسلام رسميًّا «الأزهر وغيره من المؤسسات الإسلامية»، هو بمنزلة التعرض لحوار الصُّم، فهؤلاء الأشخاص ينتمون إلى قرونٍ أخرى (قنواتي)، وهم يدورون في حواراتهم دائمًا حول فكرة ثابتة مؤداها نفي ألوهية عيسى (بيروني)، ويجدون من العادي تمامًا أن يعترف المسيحيون لإخوانهم بحق الانتقال إلى الإسلام دون أن يقابلوا ذلك بالمثل بمنح الحرية لمن قد يرغب من المسلمين في التحول للمسيحية (غوينول)، ولا يتنازلون عن تطبيق عقوبة الردة كما فعل المسيحيون (بورمانس)، لأن التساوي بين أتباع الديانات لا يتماشى مع الإيمان الإسلامي (غوينول)، والمثقفون منهم لا تساندهم مجتمعاتهم، ولا يتبعهم رجال الدين، ولا يملكون حمل جماعاتهم على تغييرات فكرية ذات وزن (تيسير)، فضلًا عن ندرتهم أصلًا (كلافري).

وأخيرًا، فالمسلمون تنقصهم مؤسسة توحيدية وتنسيقية كالكنيسة ومجمع الأساقفة، فمن ثم يتفرقون (بوحديبة)، ولهذا يعد الحوار الإسلامي - الإسلامي، أصعب من الحوار الإسلامي المسيحي (بوحديبة).

٢. **ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة:** هو الموضوع الأساسي الذي يسد سبل أي مشروعٍ للحوار بين المجتمعات الدينية (كاسترو).

٣. **غياب الروح الناقدة شبه الكامل** (كلافري)، حيث تسود حالة من الخوف من التطرق بعمق للموضوعات التي تفرق بيننا، خوف أن يوجه أحدنا إهانةً للآخر (بيروني). وفي يومنا هذا فإن النقد الذاتي غير معترفٍ به حتى الآن في الإسلام كحاجة (غوينول).

٤. **سلطة رجال الدين:** إن لم تكن أولى المشكلات، فإنها بالفعل إحدى القضايا الرئيسة أمام أي حوار مفيد بين الأديان (كاسترو)، فالحوار لا يمكن أن يقوم به رجال اللاهوت (بيراستيغي)، فقبل الجلوس للتناقش حول عقائد الأديان المنمطة والمفروضة من لدن لاهوتيين محدودين بثقافة زمانهم، ينبغي التفكر حول رجل الدين الذي نتخيله (أركون). فإذا كان الإسلام هو ما يطرحه ممثلوه الرسميون فليس يستأهل أن نشغل أنفسنا به، كما أن الكنيسة المؤسساتية تنزعج على الدوام بمجرد الحديث عن إلهٍ يحب ويحترم حرية البشر (ثيميل).

٥. **لغة التعبير الديني:** التي تطورت في مناخٍ يسوده التريُّب والتعارض والخوف والرغبة في غزو الآخر، حتى جعلنا التاريخ جميعًا أصوليين (بيراستيغي)، فلن يكون هنالك حوار ما إن انطلقنا من فرضيات لاهوتية مسبقة (شيرغي) تؤدي إلى عدم اتفاق حول معاني الكلمات (غوينول).

٦. **الجهل المتبادل من كل طرفٍ نحو الآخر** هو أكبر عائقٍ أمام الحوار (بوحديبة) بين رسالتين عالميتين تتجابهان، وتتنافسان، وتتجاهل كل منهما الأخرى (بورمانس).

٧. **الانغلاق على نمطٍ إيماني معين،** كالمحجر البشري للأسرة الدينية - الثقافية الإبراهيمية التي تندرج فيها المسيحية والإسلام (بانيكّار)، حيث نضع ونفرض على الله الكلمة الأخيرة، وحدودًا ضيقة لمحبته للبشر، وتنزيل تاريخي واحد أوحد (عبُّود)، ما يؤدي إلى صعوبة قبول التعددية الدينية (غوينول).

٨. **عدم وجود تفسير مشترك لحقوق الإنسان، والحريات الدينية، في تغيير** المرء دينه والقيام بالعمل التبشيري (بورمانس)، (غوينول).

٩. **ثالوث الاستئثار:** شعب الله المختار، لا خلاص خارج الكنيسة، كنتم خير أمة (عبُّود).

١٠. **الموقف من اليهودية** مشكلة تسمم الحوار (بوحديبة).

ثانيًا: الحلول:

١. **إحداث فكرٍ ديني جديد:** عن طريق ثورة اجتماعية، كشرطٍ مسبق لأي حوار ديني (أركون).

٢. **إيجاد لغة تواصلية** مع أشخاصٍ من ديانات ومعتقداتٍ أخرى (بيراستيغي).

٣. **إخضاع الكتب المقدسة، الكتاب المقدس والقرآن، لمتطلبات النقد التاريخي** (بورمانس). فنقص التساؤلات يمنع التقدم في الفهم (كلافري)، والمسلمات العقدية ينبغي أن يحل محلها موقفٌ ناقد (خوري)، مع الاحترام المتبادل (كلافري)، وتقبل الانتقادات بهدوء (بيروني).

٤. **جعل الأشياء المطلقة نسبية** (خوري). فجميع الكتابات المقدسة والصياغات اللاهوتية جميعها يمكن أن يفهم من زاوية خاصة، فليس هنالك ولا يمكن أن يوجد رؤية وحيدة إنسانية عالمية، ويستلزم لعقد لقاء ديني حقيقي القبول بأن الكتب الدينية والمفاهيم اللاهوتية والفلسفية والاجتماعية إنما هي صحيحة ومفهومة في سياقٍ معين (بانيكّار). فما من تنزيلٍ مكتوب يمكنه أن يحتوي كلمة الله (عبُّود). والحقيقة الإلهية لم يمتلكها أحدٌ بكاملها (كلافري).

٥. **قبول التعددية الدينية** (غوينول)، فالإبراهيمية ليست هي العرق، ولا الثقافة الوحيدة، ولا أيضًا الطبقة الدينية الوحيدة في محجر الإنسانية، فلا بد من إيضاح إن كانت المسيحية -مثلًا- تريد أن تظل ديانة توحيدية ذات صبغة إبراهيمية، أم أنها مستعدة للانفتاح دون أي ثقة أخرى سوى الإيمان بالمسيح (بانيكّار)، والرجال القائمون على الحوار، إن كانوا مؤمنين حقيقيين فعليهم الالتزام بالاعتراف من كل طرفٍ للآخر بحقه في القيام برسالته الرسولية، بل وأيضًا القيام بعمل تبشيري. (بورمانس). وقبول كل طرف بحرية تغيير الدين (غوينول) دونما عقوبة للردة (بورمانس).

٦. **التخلي عن السلطة، والمساواة والتسامح**: فحينما يتنازل أحد المجتمعات الدينية رسميًّا وبصراحة عن استثناء الآخرين وقدحهم، وينسلخ من السلطة، تحدث هزة اجتماعية في مواقف كل مجتمع، وينصبغ بالتسامح (كاسترو). وليس المراد التسامح الذي يفترض علاقة تفوُّق وتدنٍّ، بل حوار مساواة (خوري)، يقضي على ثالوث الاستئثار، ونرجسية الأديان (عبُّود)، ومن ثم استبعاد أي مفهوم ديني تقوم عليه الدولة، لئلا يستحيل سياسيًّا واجتماعيًّا إلى حكمٍ قهري (قنواتي).

٧. **البحث عن «الحقيقة الإلهية»** والتعجل في عقد حوار في «الحقيقة» (كلافري)، أو «السِّر» Mistery (خوري)، إذ يوجد خطر قصر الحوار على الأبعاد

الثقافية والاجتماعية والسياسية، متناسين البحث عن الله في العالم المعاصر (بورمانس). فالتأكيد الذي يقول إنه في نهاية المطاف يوجد إلهٌ واحد متساوٍ بالنسبة للجميع، ومن ثمَّ فالمسلمون والمسيحيون هم في مكانهم الصحيح، إنما هو تأكيد لا يتجاوب والحقيقة. إن هذا مكان مشاع وسطحي (بيروني). وثالوث الاستئثار: شعب الله المختار، لا خلاص خارج الكنيسة، وكنتم خير أمة، يرتكز بين عناصر لها -حسب زعمها- نفس إلهٍ واحد (عبُّود)، فلا بد من التساؤل حول الدين وأساسه، إذ هو الوسيلة لفك جمود الحوار بين الأديان، وإعطائه مضمونًا (خوري). والإيمان الحي يتخطى حدود كل إيمانٍ أرثوذكسي، فيهرب من عبء التاريخ، ومن ذكرياته التاريخية المكتوبة (بانيكار). فقط نحتاج إلى شيءٍ ضروري أن نعيش الإيمان، بمعنى أن يترك الإنسان نفسه يعمل حسب المعنى الذي يسكن بداخله، والإيمان فقط هو الذي يقود إلى الله (خوري).

وقد جمع «غاليندو» هذه المعاني الرامية إلى الخروج بصيغة عالمية لتوحيد الأديان، عن طريق إزالة الحدود، وطمس الخصوصيات، والبحث عن «الحقيقة الإلهية» فيما وراء لغة العقائد «اللاهوت» المعهودة، للوصول إلى «السر» أو «الجذر» كما يسميه(١).

وقد ذيل هذه المقدمة بالتوقيع الآتي:

كريسلام

الأب إيميليو غاليندو آغيلار

قرطبة، ٢ فبراير ١٩٨٨م، من محراب المسجد - الكاتدرائية

---

(١) ينظر: العقيدة للأمام (١٢، ١٣، ١٤).

إننا أمام محاولة باطنية ترسل خيوطها العنكبوتية في أرجاء متفرقة من فضاء العالَمين الإسلامي والنصراني، ويقبع في كل ركنٍ من أركانها زنديقٌ من زنادقة «كريسلام» ينسج خيوطه الخاصة، ثم تجتمع تلك الخيوط في «البؤرة» حيث العنكبوت الأكبر «غاليندو»، الذي اجتمع فيه ما تفرق في غيره.

قد لا يكون بعض من أسهم في مؤتمره هذا، وعامتهم من دولٍ كاثوليكية عريقة، إيطاليا، وإسبانيا وفرنسا، وممن أفنوا أعمارهم في العمل التنصيري مع الآباء البيض في إفريقيا، وممن يتبوؤون مناصب كنسية رفيعة، يسلمون بجميع أفكار «غاليندو»، ولكنهم يلتقون معه قطعًا فيما يتصل بالإسلام، لا سيما أن كثيرًا منهم من أرباب الحوار الإسلامي - النصراني، ورواده الأوائل، وممن خبروا المسلمين من كثب في بلدانهم، وعرفوا عمق انتمائهم لدينهم، وشعورهم بالعلو والفوقية العقدية، رغم التخلف المادي الذي يحيق بمجتمعاتهم في هذه الحقبة من التاريخ.

إن «غاليندو» يحاول شيئًا! ولكنه في الخطوة الأولى يسعى إلى إقرار بعض النظرات العامة في تقويم تجربة الحوار الإسلامي - النصراني، وهي نظرات على خطورتها؛ كالنسبية العقدية، والاعتراف بالتعددية، وتحطيم المؤسسات الدينية والقائمين عليها، والدعوة إلى فكرٍ ديني جديد تحمله لغةٌ جديدة غير مثقلة بدلالات الماضي والعهد الذهني، إلخ، إنما تمهد الطريق لفكرة مبيتة يتدسس غاليندو عبر خيوطه وشبكته العنكبوتية للإيقاع بفرائسه وامتصاص دمائهم. وهو في هذه الإرهاصات يومض بإشاراتٍ وتعبيرات مريبة كما يفعل إخوان الصفا، وزنادقة الصوفية الباطنية، ومن الجدير بالذكر أنه يعمد إلى إبراز بعض الكلمات بالخط الأسود العريض، كلما تكرر ذكرها مثل: (السِّر)، (البؤرة)، (الجذر)، (النواة) (الكلمة)، (الروح).

وسنحاول إماطة اللثام عن مقاصده، قبل أن «ينخنق» غاليندو في مضيه صوب السِّر.

ب - المؤتمر الدولي الثاني بالمراسلة - تنظيم كريسلام: إلىٰ الجذر «البحث عن لغةٍ مشتركة من أجل حوارٍ مشترك بين الأديان» عام ١٩٩٤م.

جاء هذا المؤتمر الثاني ليحقق نقلةً جديدة، كما يقول غاليندو: (أن نترك القشرة، قشرة الكلمات والخطب، لندخل في اللب، ونذهب إلى الجذر... وكان ذلك بالتحديد هو المهمة التي فرضها هذا المؤتمر الثاني، وكل منا سيحاول أن يرد على السؤال الآتي: ما الأصل العميق، «الجذر» الضارب في الأرض الذي يمسك ويغذي ويفسر ويستلزم القضايا العميقة التي أشير إليها في المؤتمر الأول؟)⁽¹⁾.

وطرح غاليندو سيلًا من التساؤلات في سبيل (إيجاد بعض الخطوط ولغةٍ مشتركة تتيح لنا حوارًا حقيقيًّا بين الأديان.

أولًا: هل يمكن للمرء أن يكون مسيحيًّا دون أن يكون من الناحية الدينية من أصلٍ سامي، ولا من الناحية الثقافية إغريقيًّا؟ وهل يمكن أن يكون المرء مسلمًا دون أن يكون من الناحية الروحية ساميَّ الأصل، أو من الناحية الثقافية عربيًّا أو إغريقيًّا؟...⁽²⁾.

جليٌّ من مسرد هذه التساؤلات المتلاحقة أن غاليندو يسعى إلى سلخ الديانتين من ملَّة إبراهيم، وإن كانت النصرانية لم يبقَ لها من الانتساب إلى إبراهيم سوى مجرد الدعوى، تمهيدًا «لتدويلهما» بإسقاط لغة التنزيل الخاصة، فقد عرض في كتابه المتضمن لأعمال هذا المؤتمر الثاني بالمراسلة، ثنتي عشرة مقالة لتسعة من النصارى، اثنان مشترِكان في مقالةٍ واحدة، والبقية لبعض المنتسبين أو المنسوبين

---

(١) إلى الجذر (٧).

(٢) انظر بقية التسأولات: إلى الجذر (٧ - ٩).

إلى الإسلام. وسوف نعرض أبرز أفكار تلك المقالات، مع التعليق على ما تدعو إليه الحاجة.

١. أ. تورنس كوبيلُّو(١) A. Tornos Cubillo:

- (إن كسر طوق اللغات انفتاح على مجالاتٍ أخرى لم يكن يشار إليها البتة.

- طبقًا لما يقوله أحد رجال الدين الكاثوليك الصينيين: سيأتي اليوم الذي تكون فيه كتابات «كونفوشيوس»... معترفًا بها مثل «العهد القديم»(٢).

٢. روجيه جارودي Roger Garaudy:

- (تعبير «تطبيق الشريعة»، وعملية «التبشير بالإنجيل»... هما حاليًّا أكبر عقبتين أمام الحوار.

- لا ينبغي أن نطلب من مسيحيٍّ أن يكون بوذيًّا، ولا من مسلم أن يعود إلى المسيحية. بل بالأحرى أن نساعد البوذي بأن يكون بوذيًّا بصورة أفضل، وأن يكون هناك مسيحيٌّ بصورة أفضل، وأن يكون هناك مسلم بصورة أفضل.

- ينبغي أن ننشر الإنجيل بين بعضنا بعضًا، ونصبغ أنفسنا بالصبغة الإنجيلية، لأن الأمر لا يتعلق بتصديقٍ من طرفٍ واحد، لعقيدة معينة، بل للقاء مع الشيء

---

(١) ولد في مدريد عام ١٩٢٧م. حصل على الدكتوراه في اللاهوت من النمسا عام ١٩٥٩م، دكتوراه في الفلسفة من «ميونيخ» عام ١٩٦٠م، دبلوم في علم النفس السريري «الإكلينكي» في مدريد عام ١٩٦٤م. ومنذ عام ١٩٧٣م يدرس اللاهوت بجامعة كوميسي. عضو بمعهد الإيمان ورجال الدين غير المرسمين. كان أستاذًا زائرًا في الأرجنتين وبيرو وتشيلي وزائير. من مؤلفاته: المجتمع واللاهوت. ط عام ١٩٧١م، وقت البحث. ط عام ١٩٧٧م، خدمة الإيمان في ثقافة اليوم ط عام ١٩٨٨م، موقف المتدينين والتبشير بالثقافة ط عام ١٩٩٢م. إلى الجذر (١٣).

(٢) إلى الجذر (١٣).

الإلهي الذي هو أثرى وأغنى، لأننا نشترك فيه، وتقع فيه عملية التخصيب المتبادلة للثقافات من جميع القارات، وتجارب الجميع في العصر الإلهي)(١). وهذا الكلام الأخير يفسر ماذا يريد جارودي بأن يكون البوذي أو النصراني أو المسلم باقيًا على دينه ولكن بصورة أفضل.

٣. ميغيل كروث إيرناندث(٢) M. Gruz Hernanadez:

- (ينبغي أن يتوافر جوٌّ من الحرية الكاملة كي يفهم بعضنا بعضًا...)(٣).

ويختم مقالته بالدعوة إلى: (أن نقترب من بعضنا بعضًا، وأن نقترب بصورة أحسن من الإله حتى نخدمه ونحبه بصورة أفضل، وأن يعرف بعضنا بعضًا بصورة أحسن، وأن نكسر جميع القوالب والأشياء المعهودة، وأن نغفل، ولا نذكر التقاليد والعرف غير الجوهري والأساسي، وأن نتلاقى في مبدأ حول العقيدة المشتركة التي هي الإله الواحد)(٤).

٤. رايموندو بانيكار(٥) o PanikkarRaimund:

- (... لا يمكن في عالم اليوم، أن يكون هناك لاهوت مسيحي مقنع. وبالمثل لا يمكن أن يوجد أي تفكير فلسفي بشأن أي دين من الأديان، إن لم يأخذ في

---

(١) إلى الجذر (٤٣).

(٢) ولد في «مَلَقا» - جنوب إسبانيا - عام ١٩٢٠م، حصل على الدكتوراه في الفلسفة والآداب عام ١٩٤١م. أستاذٌ في جامعة غرناطة، وأستاذ كرسي في جامعتي سلمنكا، ومدريد المستقلة من مؤلفاته العديدة: الميتافيزيقية» «ما وراء الطبيعة» عند ابن سينا ط عام ١٩٤٩م، الفلسفة الإسبانية الإسلامية ط عام ١٩٥٧م، فكر رامون لول ط عام ١٩٧٧م، تاريخ الفكر في العالم الإسلامي ط ١٩٨١م، ابن رشد: حياته وأعماله ومؤلفاته وتأثيراته ط عام ١٩٨٦م، الإسلام في الأندلس: تاريخه وبنيته وحقيقته الاجتماعية ط عام ١٩٩٢م. إلى الجذر (٦١).

(٣) إلى الجذر (٦١).

(٤) المرجع السابق (٨٠).

(٥) سبقت ترجمته في المؤتمر الأول رقم (٣).

الحسبان التعدد الواسع لمختلف التقاليد الدينية التي توجد عند البشر)(١).

وغاليندو يتجاوب مع أفكار هذا الكاتب الذي يتحدث من موقعٍ نصراني، ويحاول أن يعمم فكرته على جميع الأديان -والإسلام خاصة- للتحلّل من ملة إبراهيم للاندماج بمختلف تقاليده الوثنية. ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٥. شريف عبد الرحمن جاه(٢):

- (... الرسالة لا يمكن أن تقتصر على النطاق الضيق لثقافةٍ واحدة، سواء كانت تلك إغريقية أو عربية أو فارسية، فإنها في هذه الحالة تفقد طابعها العالمي والإلهي، وتنحصر في تيار فلسفي محض، وتكون فكرًا أو أيديولوجية من بين أيديولوجيات أخرى.

- الإسلام لديه رسالة عالمية تذهب إلى ما وراء الصفات والمميزات الثقافية. إن معنى أن يكون شيءٌ عالميًا هو أنه لا يمكن أن يخضع لنماذج ضيقة لثقافات ومميزات شرقية أو غربية.

- لا نحتاج إلى عملية مثاقفة، أن يثقف كلٌّ منا الآخر، ويعلمه، ولا أن نستعمر ونستوطن أراضي الغير، ولا أن ندمر ثقافته، لأن كل واحدةٍ من هذه الثقافات همزة وصلٍ في صفة العالمية التي يشتمل عليها الإسلام.

---

(١) إلى الجذر (٨١).

(٢) ولد في الجديدة - المغرب - عام ١٩٣٤م، وحصل على الدكتوراه في القانون، وتخصص في العلوم الإسلامية والإنسانيات. رئيس مؤسسة الثقافة الإسلامية والمعهد الغربي للثقافة الإسلامية. وهو مدير مجموعة العمل والبحث المتعلق بتأثير الثقافة الإسلامية في الثقافة الأوروبية، الذي وافقت عليه الجمعية البرلمانية للمجلس الأوروبي عام ١٩٩١م. كتب العديد من المنشورات حول الفكر وموضوعات تتعلق بالأندلس، وألقى العديد من المحاضرات في المؤتمرات والجامعات الأوروبية والعربية. إلى الجذر (١٠٥).

- إن محاولة تطبيق المضمون الرسمي بصورة مماثلة في يومنا هذا، كما طبق في قرون خَلت، إنما هو تفسير غير ملائمٍ، ويمكن أن يفسح المجال لمواقف متشددة غير مرنة، ويمكن أن تكون بعيدة عن الرسالة القرآنية الحقيقية)(١).

لقد غالى شريف جاه في إظهار الموافقة لـ«غاليندو» حتى بلغ به التدني إلى نزع خصائص الإسلام العقدية والثقافية والتشريعية والاجتماعية لإبقاء وصف «العالمية» التي يهيم بها غاليندو ورفاقه.

٦. خيسوس آبلينو دي لَابيندا(٢) J.A. De La Pienda:

- (... التوحيد الذي يستثني كل ما سواه هو جوهر «عقدة التفوق» التي تجرجرها أديان هذا التقليد. فينبغي على كل هذه الديانات الإبراهيمية أن تمتحن نفسها، وتمحص نفسها بنفسها ذاتيًا من هذه الرذيلة التي ترتكبها ضد ديانات أخرى، وأن تتنازل عن احتكارها الذي تزعمه.

- إن البعثات التبشيرية قد قامت على أساس من عقيدة تفوق الثقافة والدين الذي تنتمي إليه على الثقافات والديانات الأخرى. فكنا نقول: الله الحقيقي، الدين الحقيقي، ونقول: الشعب المختار، إلخ، وهذه العقائد لا تزال قائمة مستمرة في الديانتين المسيحية والإسلامية الأرثوذكسيتين، أي الملتزمة بالنص والتقليد. وينبغي علينا بصفة عاجلة أن نراجعها بعمق على ضوء التعددية الثقافية والدينية)(٣).

---

(١) إلى الجذر (١٠٥).

(٢) ولد في «اشتورياس» - شمال غرب إسبانيا - عام ١٩٣٩م. حصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة مدريد المركزية، وحصل على الإجازة في اللاهوت من الجامعة الغريغورية في روما. وهو حاليًا أستاذ كرسي الفلسفة في جامعة «أفييدوا»، ومدير مجلة «ماجيستير». من مؤلفاته: «الأنثروبولوجيا اللاهوتية عند K.Rahner عام ١٩٨٢م»، «الشيء الخارق للعادة عند المسيحيين عام ١٩٨٥م»، «دين واحد، وديانات كثيرة عام ١٩٩١م». إلى الجذر (١١١).

(٣) إلى الجذر (١١١).

إن هذا الكاتب الناقم على «التوحيد الإبراهيمي»، الذي ورثه بحقٍّ المسلمون، ويدعيه اليهود والنصارى، ورغبت عنه الوثنيات الأخرى التي ينافح عنها هذا الكاتب، يعد استبعادها وإدانتها رذيلة تجرجرها الأديان المنتسبة إلى إبراهيم. ومن ثم فقد تجاوز مرحلة التقارب الإسلامي - النصراني إلى مرحلة التقارب العالمي بمختلف صوره وأشكاله، إذ يقول: (إن المسلمين والمسيحيين لديهم تقليد فلسفي ولاهوتي ديني مشترك في غاية الأهمية، يحمل معه في طياته بُنًى مشتركة من الفكر الجوهري، وعلى مستوى التقليد الصوفي يمكن أن يكون هناك لقاءٌ يشع بضوئه وعنوانه على الآخرين...)(١). وهذا ما ينشده «غاليندو»، ومِن ورائه «كريسلام».

٧. ماريًّا تسكانو(٢) وخورمان أنكوتشيا(٣) Toscano M. G. Ancochea:

- (... إن التحول من دينٍ إلى دين، إذا فهمناه كتحول القلب إلى الله الحي، يكون ممكنًا في كل دين، وعليه فإننا نؤكد أن المؤمن لا يحتاج إلى أن يخرج من دينه، ولا من ثقافته كي يلج هذه التجربة)(٤).

لقد بلغ هذان الزوجان مرتبة «ابن عربي» الذي صار قلبه قابلًا كل صورة. فلذا يريان الأديان جميعًا تجارب صحيحة، عالمية وجزئية في آنٍ واحد، ومن ثم

---

(١) إلى الجذر (١١٣).

(٢) ولدت في مدريد عام ١٩٤٧م، حصلت على الإجازة في الفلسفة. أستاذ كرسي في الدراسات الثانوية، وأستاذة ملحقة في جامعة كوميسي - أهلية كنسية - بكلية اللاهوت في مدريد. إلى الجذر (١٣١).

(٣) ولد في مدريد عام ١٩٤٤م. حصل على الإجازة في العلوم الاقتصادية. وألف عدة كتب في التحليل الاقتصادي. وهما زوجان. وقد اشتركا في تأليف كتابٍ بعنوان: «رمزية العدد» ط عام ١٩٩٢م. إلى الجذر (١٣١).

(٤) إلى الجذر (١٣١).

فالتنقل دخولًا وخروجًا بينها إنما هو جولة في دينٍ واحد، والحوار هو تأمل الكل مع الواحد. وهكذا تتداخل عقيدة وحدة الوجود مع عقيدة وحدة الأديان.

٨. سميح محمود دغيم(١):

- (... وفي يومنا هذا لا توجد منهجية لقراءة النصوص القرآنية...)(٢).

لقد عالج هذا الكاتب موضوع المؤتمر معالجة خطيرة، وشدد على أن التنزيل القرآني ينبغي أن يفهم في سياق الظروف التاريخية المصاحبة، وعليه فالموقف من أهل الكتاب ومن الجهاد المقدس أملته ظروف تاريخية واجتماعية وسياسية معينة، لا ثوابت عقدية، ومن ثم فلا علاقة لذلك الفتح بتقبل الشعوب للإسلام وانتشاره، وكذلك الحال مع النصرانية، خلص إلى نتيجة مفادها:

(إن فرض الإسلام والمسيحية في العالم، وقبولهما من جانب الشعوب التي كانت لا تعرفهما، يحملنا على البحث عن محور قد مكنهما من التعبير عن نفسهما كرسالتين دينيتين أمام مجتمعاتٍ بشرية كانت لديها طبائعها الخاصة بها من الناحية الروحية والثقافية.

هذا المحور يمكننا أن نجده في «العلي القدير» الذي كشف عن نفسه أمام محمد بواسطة الكلمة. إن هذا «العلي القدير» قد استحال فيما بعد إلى ما

---

(١) ولد في «الرهام» - لبنان - عام ١٩٤٨م. حصل على الإجازة في الفلسفة من الجامعة اللبنانية عام ١٩٧٢م، والدكتوراه في الفلسفة من جامعة القديس يوسف عام ١٩٨٦م. أستاذ اللاهوت والتصوف الإسلامي في الجامعة اللبنانية من عام ١٩٨٢م حتى عام ١٩٨٦م. ومن ذلك العام وهو أستاذ في الجامعة نفسها للأفكار السياسية والاجتماعية وفلسفة العلوم. ومن مؤلفاته: موجز لأفكار الأقدمين، والمحدثين. ط عام ١٩٩٢م، تحقيق لكتاب الغزالي: المنقذ من الضلال. ط ١٩٩٢م، فلسفة القدر. إلى الجذر (١٣٩).

(٢) إلى الجذر (١٣٩).

يعرف بالنص القرآني، وهذا العلي الذي تجسد في المسيح، كلمة الله كما يؤكد المسلمون، وابن الله كما يقول المسيحيون...)(١).

إن «دغيمًا» يحاول أن يدغم الحقائق، ويخلط الأوراق حين يصور العقيدة الإسلامية، «القرآن كلام الله»، ببساطتها ووضوحها تصويرًا فلسفيًّا على غرار كفر النصارى بالقول بالحلول الإلهي في جسد المسيح. إن أيًّا من المسلمين لا يخطر بباله أن الله العلي القدير -سبحانه وتعالى عما يقول الضالون- قد استحال نصًّا قرآنيًا، كما لا يخطر بباله أن كون عيسى بن مريم عليه السلام كلمة الله، أن الله العلي القدير حَلَّ فيه، بل هو مخلوقٌ بكلمته «كن» فكان، كما آدم عليه السلام، فحسب. ولكن دغيمًا يحاول جر العقائد الإسلامية الصافية الواضحة إلى ظلمات الضلالات النصرانية لتحقيق «التقريب» المنشود، أي تقريب الإسلام إلى النصرانية المحرَّفة.

٩. أندروس توريس كِروُّجا(٢) A. Torres Oueiruga:

- (... الديانات... ليس كامل ما يوجد فيها ويقال ويعتقد يكون دائمًا شيئًا صوابًا...)(٣).

١٠. عبد الرحمن شريف شيرغي(٤):

- (... إني أحلم، وهذا من أحلامي الحميمة، أن يأتي يوم نتقارب فيه بعضنا

---

(١) إلى الجذر (١٥٦).

(٢) ولد في لكورنيا - شمال إسبانيا - عام ١٩٤٠م. دكتوراه في اللاهوت من روما سنة ١٩٧٣م، وفي الفلسفة من سَنتياقِب - إسبانيا - عام ١٩٨٨م. أستاذ فلسفة الدين في جامعة «سَنتياقِب» من مؤلفاته: استعادة الخلاص ط ١٩٨٥م، الحوار بين الأديان ط ١٩٩٢م. إلى الجذر (١٦٧).

(٣) إلى الجذر (١٦٧).

(٤) تقدمت ترجمته في أعمال المؤتمر الأول رقم (٦).

من بعض، ونقدم لأنفسنا، ونبحث معًا، ونزرع معًا المحبة، وليس الكراهية، وأن نحمل في أكفنا حمامة السلام، ولا نحمل خنجرًا نخفيه بين ثنايا ملابسنا)(١).

إن أحلام شيرغي لن تتحقق إلا بالتنصل من التاريخ، والتنصل من الذات والضمير الديني، ليبقى بعد ذلك مجتثًا من أصوله ما له من قرار. إن المحبة والسلام من مقاصد الإسلام الاجتماعية والدولية، ولكن لا بعدِّهما معنيين مجردين، بل ضمن العقيدة والشريعة التي جاءت من عند الله.

١١. خيسوس رامون إتشفاري(٢) Jesus Ramon Echeverria:

- (أعتقد أن الرياح التي تشجع نَفَس هذا العالم الذي نحن فيه، ستجعل أنغام الديانات الهندية والمكسيكية... وليس فقط السامية والأوروبية والعربية، تصدح موسيقاها... الديانات إن صمتت واختفت واندمجت في غيرها من جديد في هذا العالم الذي ظهرت فيه، فهي لم تمت...)(٣).

وهذا ما يريده «غاليندو» في هذه الجولة الثانية من مؤتمراته بالمراسلة «البحث عن لغةٍ مشتركة من أجل حوار بين الأديان»، لغةٍ تَنفك من إسار الإرث الإبراهيمي، ذي الأصل التوحيدي، وتنطلق متمردة لتستوعب ملل الكفر والوثنية تقربًا لصنم التقريب الديني.

---

(١) إلى الجذر (١٨٣).

(٢) ولد عام ١٩٤٥م ودرس في إيطاليا وبريطانيا وفرنسا. كاهن من رهبانية الآباء البيض منذ عام ١٩٦٥م. اشتغل خمس عشرة سنة في إفريقيا الغربية. مدير مركز الإعلام والتوثيق الإفريقي «سيداف» في مدريد، لمدة ست سنوات، ويعمل في تونس. وله اهتمام بتفسير وشرح تقليد وتاريخ الكتاب المقدس. إلى الجذر (١٩٧).

(٣) إلى الجذر (١٩٧).

ج- المؤتمر الدولي الثالث بالمراسلة - تنظيم كريسلام: «من أنا في قولكم أنتم؟» إنجيل متىٰ (١٦، ١٦) عام ١٩٩٧م:

وردت هذه الجملة الاستفهامية التي وسم بها غاليندو مؤتمره الثالث بالمراسلة في إنجيل متى، منسوبةً إلى عيسى عليه السلام، ضمن القصة الآتية: (ولما وصل يسوع إلى نواحي قيصرية فِيلبُّس، سأل تلاميذه: من ابن الإنسان في قول الناس؟ فقالوا: بعضهم يقول: هو يوحنا المعمدان، وبعضهم الآخر يقول: هو إيليًّا، وغيرهم يقول: هو إرميا أو أحد الأنبياء. فقال لهم: ومن أنا في قولكم أنتم؟ فأجاب سمعان بطرس: أنت المسيح ابن الله الحي. فأجابه يسوع: طوبى لك يا سمعان بن يونا. فليس اللحم والدم كشفا لك هذا، بل أبي الذي في السماوات) متى (١٦/ ١٣ - ١٨)⁽١⁾.

قال غاليندو: (... وهذا السؤال محور هذا المؤتمر الدولي الثالث: ماذا تريدون أن تقولوا حينما تقولون إن عيسى هو ابن الله، أو ليس هو ابن الله؟)⁽٢⁾.

هذا بيت القصيد. وهذا ما أمضى غاليندو فيه قرابة عشر سنين يُمهد له، ويخطط لبلوغه، من خلال أعمال المؤتمرين السابقين الهادفين لإرساء أسسٍ متحررة للحوار، واصطناع لغة له، وقد حان الوقت للانتقال من التجهيزات الفنية إلى المضامين الموضوعية. والكاهن الإسباني الكاثوليكي، المنتمي إلى الجماعة التنصيرية الشهيرة «الآباء البيض»، إيميليو غاليندو آغيلار، لم يخامره شك، رغم

---

(١) العهد الجديد (٨٢ - ٨٣). إننا نبرىء حواريي المسيح عليه السلام، ورضي عنهم من مقالة الكفر الفاجرة التي ابتدعها من بعدَهم من الخلوف، حتى أن العبارة المنسوبة إلى بطرس: «أنت المسيح ابن الله الحي» متى (١٦/ ١٧)، لم ترد إلا في إنجيل متى فقط، دون سائر الأناجيل، مما يكشف عن درجة الدس والعبث في أخطر مسائل الاعتقاد.

(٢) من أنا في قولكم أنتم (٧، ٨).

دعوته الملحة للتشكك، في نصرانيته، وضرورة صيرورة الناس إليها، فها هو يقول مستبقًا أعمال المؤتمر، وبعد طرح سؤاله السابق، وقبل سماع إجابة المشاركين: (وهكذا فإن ما كان ينبغي أن يكون بالنسبة لنا جميعًا الطريق والحقيقة والحياة، صار آية يناهضها الناس، وعلمًا تتضارب أقوالهم حوله)، يريد بذلك المسيح عليه السلام.

وجريًا على عادته في توجيه أسئلةٍ محددة للمشاركين في مؤتمراته «الموجَّهة»، فقد فصل السؤال السابق في ثلاثة أسئلة:

١ - ماذا نقصد نحن معشر المسيحيين حينما نقول: إن عيسى هو ابن الله؟

وماذا نقصد نحن معشر المسلمين حينما نقول: إن عيسى ليس هو ابن الله؟

٢ - هل تلمح بصيصًا أو بداية إجابة، مع الوفاء للمعتقدات الموروثة، لا تجعلك تقع في تناقضٍ تام بين الديانتين؟

٣ - ما النتائج التي تستخلصها من ردك على السؤالين السابقين لإثراء الحوار الإسلامي المسيحي إثراءً متعمقًا بصفة الخصوص، وللحوار بين الأديان بصفة العموم)⁽¹⁾.

وقد استكتب في جولته الثالثة هذه ثلاثة عشر كاتبًا عامتهم من أتباع ملته الكاثوليك، وما غبر: ما بين صوفي محترق، ومدعٍ للإسلام، ومستغرب يحمل اسمًا إسلاميًّا.

وسنعرض لبعض المقتطفات -لبعض الكُتَّاب- التي أبرزها غاليندو من مقالاتهم، ثم نعود لما كتبه هو في مقدمة الكتاب لاستخلاص النتائج:

---

(١) انظر: المرجع السابق (١٢).

١ . خيسوس سالَس مارتينيث(١) Jesus Salas Martinez:

- (نريد أن نشير إلى أن مجموع ما قيل لنا يستشف منه أنه في عيسى ومن أجله قد قام تلاميذه بتجربةٍ بأقصى حدودها، وبصورة فريدة بالاقتراب من «السر» الذي لا غبار عليه لحياة الإله الذي ظهر أمامهم في صورة الطيبة والترحيب والعفو والتحرير والأمن والبساطة والكمال. وهذا بالنسبة لي هو مغزى ومضمون تعبير أن «عيسى ابن الله».

- هذه التجربة ذات الحد الأقصى التي قاموا بها في عيسى هي التي حملتهم بصورة لا مناص منها أن يقولوا شيئًا بخصوص عيسى نفسه. وبسبب ذلك استخدموا الرتب والتعبيرات التي كانت في حوزتهم، والتي كانت موجودة أساسًا في الثقافة والتاريخ اليهوديين، والتي أضافوا إليها غيرها من أصلٍ إغريقي روماني. ومن تلك التعريفات الكثيرة كان يوجد تعبير «ابن الله». وفي بداية الأمر ربما يكونون قد استخدموا هذا التعبير كغيره، حيث رأوا أنها تعبيرات قادرة على التعريف بشيءٍ يريدون أن يعبروا عنه.

- إذًا، يقع في خطأٍ عميق من يريد أن يستخدم هذه الصياغات أو التعبيرات المتنوعة التي يستخدمها أولئك الكتَّاب، كما لو كانت التعبيرات الوحيدة الممكنة، أو كما لو كانت تشتمل على تعبير محدد ليس بمتغير، وصالحٍ على الإطلاق طبقًا لما يعنيه حرفيًا)(٢).

---

(١) ولد في «سوفلي» المريَّة - إسبانيا - عام ١٩٣٥م. قام بدراسة الفلسفة اللاهوتية في بلجيكا، وفي مدينة «قرطاجنة» «تونس». وهو قسيس من الآباء البيض منذ عام ١٩٦٠م. حصل على الدكتوراه في اللاهوت عام ١٩٦٣م، وعمل أستاذًا للاهوت في بلجيكا عام ١٩٦٤م. ذهب في بعثة تنصيرية إلى زائير سنة ١٩٦٨م. كان المسؤول عن الآباء البيض في إسبانيا عام ١٩٧٠م، وكان المساعد العام للآباء البيض في روما سنة ١٧٤م. وعاد إلى زائير عام ١٩٧٦م حيث كان المسؤول عن تكوين المعلمين الدينيين، والذين كان قد أعد لهم سلسلةً من المنشورات باللغة السواحلية. من أنا في قولكم أنتم (١٠٥).

(٢) من أنا في قولكم أنتم (١٥٠).

والكاتب يحاول تبسيط القضية بتصويرها صياغةً لفظية أملتها الثقافة المحيطة. والأمر ليس مجرد تجوُّز في الألفاظ، فإن النصارى -بما فيهم الكاتب- يخلعون على المسيح عيسى ابن مريم صفات الله وأفعاله -سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا عظيمًا- ويزعمون أن الله ظهر أمامهم في صورة المسيح.

فما الجديد الذي جاء به هؤلاء النصارى الجدد في غمرة نقدهم للتأثير الإغريقي على النصرانية؟

٢. روجيه جارودي(١):

سبق عرض مشروعه الفكري والعملي للتقريب بين الأديان، ونظرًا لأهمية النصوص الواردة في مقالته في المؤتمر نثبتها هنا:

- (البعض كان يعتمد على قراءة حرفية بحذافيرها، دون نقد ولا مفهوم تاريخي للقرآن، فصارت كل كلمة فيه متحجرة بفعل العرف والتقليد، لا مساس به. والآخرون يكررون بالمثل عقائد لا مساس بها بلغةٍ لم يكونوا يعرفونها «الإغريقية، غير القادرة على ترجمة تجربة عيسى التي لا سابق لها».

- المسلمون أعطوا للمسيحيين مفهومًا للثالوث، لم يكن هؤلاء يعتقدونه أبدًا من قبل. لأننا قرأنا القرآن بصورة حرفية، دون أن نأخذ في الحسبان على الإطلاق، السياق التاريخي...

- حقيقي أيضًا أن الصياغات الإغريقية لمفهوم اللاهوت بمجمع نيقية (٣٢٥م) كانت غير قادرة على تفسير وترجمة تجربة عيسى المستحدثة، والتي كانت غريبة تمامًا على الثقافة واللغة الإغريقيتين. فعلى سبيل المثال: حين نقول

---

(١) انظر: ترجمته، ودراسة محاولته للتقريب بين الأديان في المبحث الأول من هذا الفصل.

إن عيسى من نفس مادة الإله فهذا ليس له معنًى إلا عند الإغريق الذين لا تعني كلمة «مادة» بالنسبة لهم سوى الشيء الذي يكون خلف المظهر. وذلك لا يعبر بحالٍ من الأحوال عن الحقيقة الحية لعيسى.

- الحقيقة العلمية بالنسبة للعلاقات بين المسلمين والمسيحيين هي أنه لا يمكن أن يكون هناك حوارٌ حقيقي بين مذهبين، ولا تقارب لاهوتي، إن كان كل طرفٍ يحمل في داخل دينه الحوار العقدي، ويضعه نصب عينيه)[1].

يزعم هذا الدَّعي للإسلام، أن المسلمين هم الذين ألصقوا مفهوم الثالوث بالنصارى! إن الذي وصمهم بذلك رب العالمين، عالم السر والجهر، الذي لا يظلم مثقال ذرة، في كتابه الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، لم تتقاذفه اللغات والعُجمات والترجمات المختلفة التي يعلن جارودي ههنا تأثيرها العميق على المجامع المسكونية النصرانية التي صاغت عقيدة التثليث، وغيرها من العقائد الوثنية. ومن ثم يدرك جارودي استحالة التقارب بينها وبين التوحيد الخالص الذي جاء به محمد ﷺ.

٣. خيسوس آبيلينو دِلابيندا[2] Jesus Avelino de la Pienda:

- (أن يقول المرء: إن عيسى هو ابن الله، لا يمثل مشكلاتٍ كبرى للوهلة الأولى. كذلك نقول: «نحن جميعًا أبناء الله». وفي كثيرٍ من الأديان الأخرى،

---

[1] من أنا في قولكم أنتم؟ (٣٥) واستدلال جارودي بآية: «اتخذوني وأمي إلهين من دون الله» مغالطة، حيث حذف صدرها: «أأنت قلت للناس»، وفسر «من دون الله» ب مع الله ليتحصل له ثلاثة. ولم يفرق بين اتخاذ النصارى لهما إلهين وزعم مريم أقنومًا. ومع ذلك فقد اعترف بنفسه أن بعض النصارى كان يعد «مريم» أحد الثالوث.

[2] تقدمت ترجمته في المؤتمر الثاني رقم (٧).

يكون للآلهة أبناء. فمفهوم البنوة له معانٍ مختلفة. وأهمية هذا المفهوم أو ذاك تتوقف على المحيط الثقافي...)(١).

لقد حاول الكاتب التقليل من بشاعة إطلاق القول بأن عيسى ابن الله بتنظيره باستعمالات أخرى -تفتقر بدورها إلى الصحة- كمقالة اليهود والنصارى: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة: ١٨].

٤. سميح محمود دغيم(٢):

- (إن المجهود المبذول في إخضاع النص القرآني لمتطلبات ومعايير منهجية حديثة، يصطدم مع التبجيل الذي يعطى للقرآن ولِلُغته. ويحدث الشيء عينه في المسيحية، وإن كانت هذه تظهر بصور أكثر مرونة، نظرًا لأن إخضاع الأناجيل للدراسة لا يعني بالنسبة للمسيحيين إخضاعًا للتنزيل...

- في لغة الإيمان، أليس من قبيل الحكمة الإلهية أن يتكلم الله من جديد للبشر بخطابٍ مناسب لكل حقبة؟ ولكن هذا لا يعني أن الله يمكن أن يتحدث لنا الآن أيضًا، بل يعني أن لنا الحق في أن نفهم ما يعرض علينا بصورة ملائمة لظروف عصرنا.

- ونحن في خواتيم القرن العشرين، من الملائم للجميع أن نتطرق ونواجه موضوع الدين من وجهات نظرٍ أخرى)(٣).

إن الفارق بين القرآن العظيم، والأناجيل التي بأيدي النصارى، ليست فقط لكون النصارى لا يعدون نقدها إخضاعًا للتنزيل، وإنما لأن القرآن باقٍ على أصله

---

(١) من أنا في قولكم أنتم؟ (٩١).

(٢) تقدمت ترجمته في أعمال المؤتمر الثاني رقم (٩) (٩٩١).

(٣) من أنا في قولكم أنتم (١٥٥).

الرباني، كلام الله الذي تكفل بحفظه، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وها هي ذي الأناجيل التي أخضعت لمتطلبات ومعايير المنهجية الحديثة، قد تكشفت عن تناقضات ومعارضات للعقل والفطرة، تؤكد امتداد أيدي العبث والتحريف إليها، ومع ذلك لا يزال النصارى على معتقداتهم الشركية العتيقة.

٥. جواد نوربخش(١):

- (في رأينا، «ابن الله» تعني أن عيسى هو الابن الروحي للإله، على النحو نفسه الذي يكون كل «المحبين» لله هم أبناؤه الروحيون.

- في رأينا، قد يكون من الأفضل أن تترك الديانات المختلفة الشعوذات جانبًا، وبعد أن تحطم أصنامها المعبودة، تقبل أن الإله هو «الوجود المطلق»، وأنه لا يوجد كائن ما سواه...)(٢).

لم تزل الصوفية محضِنًا لوحدة الأديان، يجد دعاتها فيها ملجأً ومغاراتٍ ومدَّخلًا لكفرياتهم منذ قديم الزمان. وها هو هذا الصوفي الوجودي المحترق، يجاهر بمذهب أهل الاتحاد والفلاسفة الدهرية القائلين: إن الله (هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق)(٣).

---

(١) ولد في كرمان - إيران - طبيب نفساني. أستاذ ومدير قسم علم النفس بجامعة طهران حاليًا. هو قطب للجماعة الصوفية «نعمة الله» منذ عام ١٩٥٣م. وقد تأسست هذه الجمعية في إيران في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي على يد الشاة نعمة الله والي، ومن معلمي الصوفية. من مؤلفاته: في فردوس المتصوفين؛ في الحانة، سبع مقالات حول الصوفية، عيسى في نظر المتصوفة، منتخبات من نصوص صوفية حول عيسى، علم النفس الصوفي. من أنا في قولكم أنتم؟ (١٩١).

(٢) من أنا في قولكم أنتم (١٩١).

(٣) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٧٣).

٦. نور الدين ريسوني(١):

- (إن الفقرات القرآنية التي تتحدث عن عيسى، أو التي تشير إليه، ليست نافيةً بل هي مؤكدة. فالرفض يتطلب نفي حقيقة ما. والقرآن لا يرفض أي حقيقة. بل على العكس فإنه يعرض صفات هذه الحقيقة المتعلقة بعيسى. فالقرآن لا ينفي أن يكون عيسى ابن الله، بل يعلن ويشهد أن عيسى إنسان، وابن امرأة، ونبي، ورسول من الله.

- نعتقد... أن جميع النقاط المطروحة للتناقش تدور حول أمور تقلق المسيحيين بل بالأحرى، المسيحيين المعتقدين في الثالوث وحسب...)(٢).

إن مسلمًا يعي إسلامه لا يمكن أن تصدر عنه هذه الجملة: «القرآن لا ينفي أن يكون عيسى ابن الله»، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهو القائل سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان: ٢]. وكفَّر اليهود والنصارى بدعوى البنوة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]. فإذا كان الحوار الإسلامي المسيحي الحقيقي والصادق، كما ينشد الكاتب، يستلزم عدم إقلاق النصارى، بل إرضاءهم، بأن القرآن لا ينفي أن يكون عيسى ابن الله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فليبحث له عن اسمٍ آخر، لا يكون الإسلام طرفًا فيه.

---

(١) ولد في تطوان - المغرب - عام ١٩٣٦م. حصل على الإجازة في العلوم الاقتصادية، مشارك في مؤتمرات الحوار الإسلامي المسيحي. من أنا في قولكم أنتم؟ (١٩٧)

(٢) من أنا في قولكم أنتم (١٩٧).

- **خلاصة وتحليل:**

لقد كانت الجولة الأولى من محاولات، أو بالأحرى، مناورات غاليندو، تهدف إلى نقد تجربة الحوار الإسلامي النصراني، بصفتها السائدة حتى نهاية الثمانينيات الميلادية، لإغراقها في الشكليات والمجاملات التي لم تثمر سوى خبرة في المداراة، وتحاشت الموضوعات الأساسية والعميقة التي تفصل بين الراغبين في التقارب خشية أن ينقطع الخيط الرقيق الممدود بين الجانبين، ومن ثم انصبت أعمال المؤتمر الأول على ذكر العقبات الحقيقية، وتوصيف الشروط الضرورية من الناحية الفنية فحسب، لإجراء حوار حقيقي. ودعا غاليندو إلى مطلبه الثلاثي: الانفتاح على ما هو عالمي، والانطلاق من النواة، والاعتراف بالتعددية. وكان من لوازم ذلك مواجهة المؤسسات الدينية التقليدية التي تحاول قمع التحرر، والتخلص من المطلقات، وإعطاءها صفة نسبية.

وجاء المؤتمر الثاني تحت ستار البحث عن لغةٍ مشتركة، كخطوة أولى لترك القشرة، والدخول إلى اللب، أو الذهاب إلى الجذر. وكان هدفه الانعتاق من الإرث الإبراهيمي الذي تنتسب إليه الأديان الثلاثة، عن طريق الإجابة بالإيجاب أنه يمكن للمرء أن يكون مسلمًا أو نصرانيًّا دون أن يكون من الناحية الدينية من أصلٍ ساميٍّ، أي على ملة إبراهيم، ويمكن أن يكون كذلك أيضًا دون أن يكون من الناحيةِ الثقافية عربيًّا أو إغريقيًّا، أي يعبر عن إيمانه بلغة تينك الثقافتين. وثمرة هذا الإنجاز أن تتسع دائرة الدين لتشمل سائر الوثنيات الآسيوية والإفريقية. فبالتخلص من «الإبراهيمية»، يتم التحرر من إسار «التوحيد»، وبالاستغناء عن الثقافة الإغريقية والعربية، يتم التحلل من مدلولات الألفاظ والاصطلاحات العقدية التوفيقية المقننة، واستبدالها بعتادٍ لغوي جديد، يصبح لغةً عالمية تستوعب مختلف المقاصد.

وإلى هذا الحد يقف كثيرٌ من دعاة وحدة الأديان من أمثال جارودي. فقصارى ما يتمنون تصويب جميع الأوضاع الدينية والتقاليد والحِكَم -كما يسمونها- شريطة ألا تتضمن دعاوى الفوقية، ونزعة بسط السيطرة، والتشبث بأوضاع تاريخية وفقهية خاصة. ولكن غاليندو يذهب إلى أبعد من ذلك. فأين يريد؟! إنه يسعى إلى وحدة دينية، على أساس ألوهية المسيح، وبنوته لله تعالى، لكن بصياغة جديدة، وطرحٍ جديد! وهذه مقتطفات من سعيه: (... واليوم، كالأمس، علينا أن ندفع ثمن الوساطة الثقافية للحضارة التقنية، ذات الأبعاد العالمية، التي تدعونا نحن وهم لاحترام التعددية في الآراء تجاه شخصية عيسى الناصري... إن ضرورة تنفيذ هذه الوساطة الثقافية في عالمنا المعاصر بالنظر لعيسى الناصري، ابن الله، هو ما تريد كريسلام أن تثيره في هذا المؤتمر الثالث... كان بداخل هؤلاء المفكرين والمؤمنين رغبة سرية، وغير مفصح عنها لإجراء طرحٍ جديدٍ لعيسى ابن الإله. ويقول ذلك بكل دقةٍ وإصابة غونثاليث فاوس: «... إن صيغ العقيدة بشأن ظاهرة يسوع قد جرى التعبير عنها بأمور صارت صلاحيتها في عالم اليوم أمرًا مشكوكًا فيه)... يقول فرايخور: «كل حقبة تحتاج بصورة ملحة إلى أن تقول لنفسها من هو عيسى بالنسبة إليها. فليس يكفي أن نكرر الصياغات العقدية التي اعتدناها في قرون خلت»... وهذا ما يفعله المسيحيون، فإنهم لا يرفضون ماضي المجامع المسكونية واللاهوتية، بل إنهم يحاولون صياغة هذه العقيدة نفسها داخل تفهماتنا وثقافتنا المعاصرة)(١).

وصدق من سماهم «ضالين»، فبينا يقول المرء قد رَجَعُوا ﴿إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، إذا بهم قد نكسوا علىٰ رؤوسهم، وعادوا لما نهوا عنه! لقد نزل غاليندو بثقله في مؤتمره الثالث، الذي جعل محوره ماهية عيسىٰ

---

(١) انظر: من أنا في قولكم أنتم (٨ - ١٢).

عليه السلام ليغوص بحثًا عن «السر»، وتلفُّه دوَّامة «البؤرة» ليقع فيها، ويَعَضَّ بأصل «الجذر»، وينخنق فيه، علىٰ حد تعبيراته الباطنية.

(هذه الصفحات ليست سوى أن تكون عملية تقريبيةً للتعريف بألوهية عيسى. وينبض تحت كثير من هذه السطور الصدى الحقيقي لما أقرَّ به ابن عربي، المعلم العالمي المولود بمرسية، والذي يوجز لنا أفضل إيجاز للهدف من وراء هذا المؤتمر: «من يقع مريضًا في عيسى لا يبرأ أبدًا»(١).

هذه نهاية المطاف مع غاليندو نحو الجذر. إنه اعتقاد ألوهية المسيح وأنه ابن الله، والعيش في ذلك عن طريق التجربة، التي يسميها أولياؤه من أهل وحدة الوجود الذوق. فلا عجب أن تهوي قلوب بعضهم إلى بعض، فإن ما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف. وجدير بالذكر أن غاليندو أثبت أبيات ابن عربي المشهورة في وحدة الأديان(٢) باللغة العربية على الغلاف الخلفي لكل واحدٍ من كتبه الثلاثة في الحوار الإسلامي - النصراني. وحين سألته عن سِرِّ ذلك قال: (إنني أعتقد أن هذا النص هو أفتح وأوسع نصٍّ في الإسلام يتقبل الآخرين. فقلت له: ماذا عن التقاليد الأخرى كالهندوسية والبوذية، وغيرهما؟ فأجاب: (على مقتضى الفهم الصوفي، الأمر يتسع للجميع. ونحن في كريسلام لم نرفض أحدًا، ولكن الجهود القائمة حاليًّا بين المسلمين والمسيحيين.

قلت: وماذا عن اليهود؟ لم يرد لهم ذكر! فأجاب: لقد أجلنا الحديث مع اليهود حتى يتبين موقفهم من القضية الفلسطينية(٣).

---

(١) من أنا في قولكم أنتم (١٣).

(٢) التي مطلعها: لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي... إلخ وقد تقدم ذكرها.

(٣) ترى أي موقف ينتظره غاليندو لليهود من القضية الفلسطينية بعد نصف قرن من الاحتلال والإذلال والتشريد وتدنيس المقدسات.. الخ؟ أم هو الصلح المزعوم الذي احتضنته بلاده في ذكرى سقوط غرناطة؟

قلت: لكن هذا خلطٌ بين السياسي والفكري! فأجاب: نحن لم نرفضهم، وهم لم يأتوا إلينا.

قلت: هل تقصدون الوصول إلى نوعٍ من الدين الموحد من الإسلام والنصرانية؟

فأجاب: علينا أن نمضي في طرح الآراء والفهم المتبادل، ثم نصل إلى ما يقودنا إليه البحث⁽¹⁾.

والحق الذي لا مرية فيه، أن غاليندو قد حزم أمره، وبيَّت النية، بعد أن وقع مريضًا في عيسى، وراح يستدرج أهل الإسلام إلى بيئته الموبوءة، ومؤتمراته المأفونة، وقد نهى ﷺ أن يُورَد المُمرِض على المُصِحِّ⁽²⁾.

وصدق الله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النساء: ٨٩].

---

(١) جرت هذه المحاورة في مكتبه في (دارك - نيومبا) بمدريد يوم الأربعاء ٥/ ٤/ ١٤١٩هـ.

(٢) صحيح البخاري (٧/ ٣١)، صحيح مسلم (٤/ ١٧٤٣، ١٧٤٤).

المبحث الثالث

محاولات «صن مون» لتوحيد الأديان

نشأت مذاهب شتى بعضها من داخل الفكر الديني النصراني، وبعضها وافدٌ من الشرق الوثني، حيث باضت وفرَّخت وبنت أعشاشها في ذلك الخواء الروحي المتهيِّئ لتلقف ما هبَّ ودبَّ من الأفكار التافهة، والعقائد المنحطة.

ويصف د. محمد هلال هذه الظاهرة وتوجهاتها العامة بقوله: (تنتشر المذاهب الدينية الجديدة في أوروبا وأمريكا بشكلٍ لافتٍ للنظر، وهناك منها ما يناسب كل الأذواق والميول...)(١).

ومن بين هذا الركام من العقائد والنحل، وجدت «المونية» Moonism التي تنسب إلى مؤسسها الملياردير «صن مون»، لتلبي نزعةً تراود الكثير من أدعياء التدين، نحو توحيد الأديان.

إننا أمام محاولة متطرفة تسعى لا إلى تقارب الأديان، ولا إلى تعايش الأديان، بل نحو دمج الأديان وتوحيدها ضمن إطار فكري ساقط متهافت، توحي به شياطين الإنس والجن، وتسنده بلايين الدولارات.

- **أولًا: السيرة الذاتية لـ«صن مون»:**

- ولد في كوريا الشمالية عام ١٩٢٠م لعائلة تنتمي إلى «المذهب الكالفني»(٢)

---

(١) ينظر: مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام (٥٣ - ٥٤).

(٢) نسبة إلى كالفن (يوحنا) Calvin (١٥٠٩ - ١٥٦٤م). «إصلاحي فرنسي». نشر في فرنسا وسويسرا مذهبًا حمل اسمه. أنشأ في جنيف حكومة ثيوقراطية. له كتاب: «الأسس المسيحية». جُعل منه أكبر لاهوتي عرفه «الإصلاح». المنجد في الأعلام (٥٩٢).

البروتستانتي.

- درس «الهندسة الكهربائية» في اليابان، ورجع إلى بلاده عام ١٩٤٥م.

- التحق عام ١٩٤٦م بمجموعة دينية في «سيئول»، وأمضى ستة أشهر في «دير إسرائيل». كوَّن فيها أفكاره الأساسية.

- اعتقل في كوريا الشمالية والجنوبية عدة مرات بسبب ممارسات جنسية وقيامه بطقوس جنسية.

- أسس في مطلع الخمسينيات «كنيسة توحيد النصرانية العالمية» في كوريا، ونشر كتابه «المبادئ الإلهية» عام ١٩٥٧م، ونال اعتراف السلطات الكورية الجنوبية بكنيسته عام ١٩٦٣م.

- شرع منذ عام ١٩٦٥م في نشر دعوته عالميًّا عن طريق المحاضرات، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٣م.

- في عام ١٩٧٥م تقدم بطلب انضمام كنيسته لمجلس كنائس مدينة نيويورك فقوبل طلبه بالرفض.

- سجن مدة سنة ونصف في السجن الفدرالي في كنكتيكت عام ١٩٨٢م، باعتبار الحركة المونية شركة تجارية وليست منظمة دينية، بحيث ألغت حق الإعفاء من الضريبة الخاص بالحركة الدينية، وأدين «مون» بتهمة التهرب من دفع الضرائب البالغة ١٦٢ ألف دولار، ولكن مون وأتباعه استغلوا هذا الحدث بوصفه «اضطهادًا دينيًّا»، فتظاهر ١٧٠٠ من المعجبين به فيهم اثنا عشر قسيسًا أمريكيًّا، فخفف الحكم بذريعة حسن السيرة والسلوك.

- قام عام ١٩٨٣م بجولة أوروبية لنشر دعوته، ورفضت سلطات ألمانيا الغربية استقباله.

- يملك مون ثروة هائلة من العقارات والشركات والمؤسسات في شتى أنحاء العالم، كما أسس جريدة «الواشنطن تايمز».

- يقدر أتباع مون بحوالي مليونين إلى ثلاثة ملايين شخص معظمهم في كوريا، واليابان، والولايات المتحدة(١).

- **ثانيًا: مزاعم «صن مون» في سبيل «توحيد الأديان»:**

لا يمكن أن نطلق على ما ادعاه «صن مون» من مزاعم «فكرًا» يستحق المناقشة، فهو لا يعدو أن يكون دجلًا.

وسنقتصر فقط على ما له صلة بقضية «وحدة الأديان»، التي اتخذها «مون» عمدة لحركته ودعوته. فقد جاء في نص البيان الذي ألقاه مساعده، وأكبر معاونيه شانج هوان كواك، أمام ثلة من العلماء والمفكرين المسلمين في إسطنبول عام ١٩٨٥م، ما يأتي: (تلقى مون الوحي من المسيح سنة ١٩٣٦م، عندما كان في السادسة عشرة من عمره. وفي السنوات التالية تتبع التعاليم الروحانية المشتركة بين مؤسسي الأديان، ودرس عن الأنبياء والقادة الدينيين، أمثال: بوذا وموسى ومحمد وآخرين. ومن خلال هذه الخبرات التي اكتسبها تحقق من أن إرادة الله، والقيم الأساسية، هي التي تجمع بين الأديان والأمم، وتجعلها تعيش في سلام...)(٢).

---

(١) انظر: مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام (٦٠ - ٦٧)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (٤٩١ - ٤٩٦)، جريدة المسلمون. الأعداد (٣٥ - ٣٨).

(٢) عن جريدة المسلمون. عدد (٣٥) السبت ٢١ محرم عام ١٤٠٦هـ ١١ أكتوبر عام ١٩٨٥م (٩).

- وفي كتابه «المبادئ الإلهية» الذي نشره عام ١٩٥٧م، يقول: (... الخالق قد قام بعملية إحياء جديدة للإنسانية، حيث في نهاية الزمن أرسل رسوله ليحل المسائل الأساسية للحياة والكون، واسم هذا الرسول «صن ميونغ مون»(١).

- جاء في القانون الأساسي لحركة «مون» المنقح سنة ١٩٨٤م ما نصه: (إن الهدف الرئيس هو العمل من أجل توحيد العالم تحت راية إلهٍ واحد، بحيث تضمحل من هذا العالم كل الحواجز والعوائق الكنسية والسياسية والوطنية والقومية والاجتماعية)(٢).

- ومن مخاريق «مون» زعمه أن الله قد اصطفى شعبًا مختارًا جديدًا هو الشعب الكوري، وأرض ميعادٍ جديدة هي كوريا(٣).

- اعتمد «صن مون» في تفعيل حركته على عنصري السياسة والاقتصاد، فأقام علاقاتٍ واسعة مع العناصر المؤثرة في المجالات السياسية والعسكرية في بعض دول آسيا وأمريكا الجنوبية، كما أسس مشاريع استثمارية عملاقة، وقال: (علينا أن نحتضن الوسط الديني بذراع، والوسط السياسي بالذراعٍ الأخرى)(٤).

- يركز على أوساط الأكاديميين، ورجال الإعلام، ويستحوذ على الشباب بأساليب شبيهة بأساليب الباطنية(٥).

---

(١) عن مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام (٦١ - ٦٢).

(٢) عن: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (٤٩٢).

(٣) مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام (٦٢).

(٤) المرجع السابق (٦٦).

(٥) انظر: جريدة المسلمون. عدد (٣٨) السبت ٢٢ صفر عام ١٤٠٦هـ (٢).

ثالثًا: المحاولات العملية لـ«صن مون» لتوحيد الأديان:

سلك مون أسلوب العمل المؤسسي المنظم لنشر دعوته. فأسس في الخمسينيات «الكنيسة الموحدة العالمية»، تفرع عنها بعد انتقاله للولايات المتحدة: «المؤسسة العالمية المتحدة للأديان» {IRF}، والتي تشرف بدورها على «المجلس العالمي للأديان» الذي نيط به عقد المؤتمرات العالمية لتوحيد الأديان.

*** المجلس العالمي للأديان Council For The World's Religions:**

يترأسه «صن مون»، ومن أبرز أعضائه: اليهودي فرانك كوفمان، والقس الكاثوليكي يوسف كلارك.

وقد جاء في مذكرة المجلس أن أبرز أهدافه:

- (المناداة بوحدة الإنسانية.

- دعوة الناس من كل الأديان إلى نوعٍ من الوحدة الروحانية، واحترام خصوصيات كل دين.

- الدفاع عن حقوق الإنسان، بما في ذلك حق حرية الاعتقاد الديني وممارسته)(١).

وهذه الأهداف لا تحمل النص على نبوة «مون»، ورسالته المزعومة في توحيد الأديان، ولكنها تمهد الطريق للقيام بأنشطة متنوعة، ضمن أطرٍ مقبولة عالميًّا، ومن خلالها يتم تمرير دعوته والوصول إلى مواقع يتعذر بلوغها بالصفة الصريحة المنبوذة.

---

(١) انظر: جريدة المسلمون. عد (٣٥). السبت ٢١ محرم عام ١٤٠٦هـ ـ ١١ أكتوبر عام ١٩٨٥م.

وقد منحت المؤسسة العالمية المتحدة للأديان IRF المجلس العالمي للأديان إمكانات مالية واسعة، وتعيين ممثلين من مختلف أديان العالم.

وقد عقد المجلس عدة مؤتمرات عالمية في أنحاء متفرقة من العالم بهدف توحيد الديانات في ذاتها، تمهيدًا لتوحيدها جميعًا تحت راية المونية، فمن ذلك:

*** مؤتمر: «اتحاد العالم الإسلامي»:**

وقد عقد في إستانبول -تركيا- في المدَّة: ١٩ - ٢٢ سبتمبر عام ١٩٨٥م، بالتعاون مع كلية «الإلهيات» بجامعة مرمرة، تحت شعار: (نحو فهم ووحدة العالم الإسلامي). وقد ضم هذا المؤتمر ثلاثة وعشرين مشاركًا؛ ستة عشر مسلمًا، وخمسة مستشرقين، وممثلَينِ عن المجلس، هما:

١. القس الكاثوليكي يوسف كلارك.

٢. المسؤول المالي والإداري للمؤتمر: اليهودي فرانك كوفمان.

ومن أبرز من استدرج لهذه «المصيدة» من العلماء والمفكرين المسلمين -وللأسف-:

١. الدكتور صلاح الدين المنجد. عضو المجمع العلمي في بغداد والهند.

٢. الدكتور كمال الهلباوي. الخبير في مجلس التعليم العربي لدول الخليج.

٣. الدكتور عبد الله جوب. مفتي البنجول في جامبيا.

٤. الدكتور رفعت يوسالتين. مفتي جمهورية قبرص. وآخرون.

وكانت المفاجأة المؤلمة أن ألقى شانج هوان كواك مساعد رئيس المجلس العالمي للأديان، صن مون، وأكبر معاونيه، بيانًا مطولًا في اليوم السابق لإعلان

البيان الختامي، أعلن فيه على رؤوس الملأ أن صن مون يتلقى الوحي من المسيح، وأنه أصبح نبيًّا. ثم دُعي الحاضرون إلى مأدبة فاخرة على شرف كواك، ولم يمتنع عن الحضور سوى عالم مسلم واحد(١).

وبعد: فهذه محاولة «فردية» من محاولات توحيد الأديان انتدب لها أفاك أثيم، نشأ في أحضان النصرانية البروتستانتية، واصطبغ بأحلامها المسيحانية، وراح يداعب مشاعر التائهين الضالين من بني آدم.

ومما يزيد الأمر سوءًا، أن نجد بعض المنسوبين إلى العلم والفكر من المسلمين يسارعون في مثل هذه المحاولات المكشوفة المفضوحة، دون رويَّة، أو رادع من عقل، أو وازع من دين.

---

(١) المرجع السابق.

المبحث الرابع

محاولات الشيخ أحمد كَفتارو للتقريب بين الأديان

لا يكاد الباحث -ولله الحمد والمنة- يجد من علماء المسلمين الذين تبوؤوا المناصب الدينية الشرعية الكبرى، كالإفتاء والمشيخة ورئاسة دور العلم العريقة، من اشتهر بالدعوة إلى تقارب الأديان، والسعي في سبيلها، اللهم إلا أن تكون هِنات افتقرت إلى أناة، أو موقف ضعفٍ ومجاملة أملاه وضع رسمي، أو تأويل غير سائغ، أو رقة في الدين، والله على كل شيء وكيل.

وما ذاك إلا لأن العلم بـ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وأن محمدًا ﷺ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤]، من المعلوم من الدين بالضرورة. وأن ليس ثَمَّ في مجادلة أهل الكتاب بالتي أحسن، التي أرشد الله إليها بقوله: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] إلا ما دل عليه قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وما دل عليه هدي النبي ﷺ مع يهود المدينة، ونصارى نجران، ومكاتبة ملوك الأرض ودعوتهم إلى الإسلام. ثم ما سار عليه أصحابه وخلفاؤه، وأئمة المسلمين. وما سوى ذاك وسواس الشياطين، وسبيل الزنادقة الملحدين كإخوان الصفا، وأهل وحدة الوجود.

ولولا أن الشيخ أحمد كفتارو يجهر بالدعوة إلى هذا الأمر صراحةً، ويعده محمدة تحتذى، ويعلن أنه يسعى جاهدًا في هذا السبيل منذ أكثر من خمسين سنة، ويجوب أقطار العالم النصراني داعيًا إلى التقارب(١)، لما أفردناه بالذكر والبحث، ولضربنا عن ذكره صفحًا، كآخرين ما بلغوا مبلغه.

- **أولًا: تعريفٌ موجز، وسيرة ذاتية:**

هو الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد أمين ابن الشيخ موسىٰ الشهير بـ«كَفتارو». ولد سنة (١٣٣٠هـ=١٩١٢م)، وتلقىٰ العلوم الشرعية وعلوم الآلة علىٰ كبار علماء دمشق في زمانه. وسلك الطريقة «النقشبندية» الصوفية، فكان مريدًا لشيخه ووالده، الذي أجازه بالوعظ والإرشاد العام، وما أجازه به شيوخه، زاعمًا أن رسول الله ﷺ أمره أمرًا صريحًا بذلك في رمضان عام ١٣٥٠هـ(٢)!

وقد زاول التدريس والوعظ في مسجد أسلافه «جامع أبي النور»، معتمدًا التربية الصوفية، ألَّف جماعة باسم «جماعة الأنصار»، منذ عام ١٩٥١م ذات مقاصد اجتماعية وثقافية.

وقد أتاح له منصبه «مفتي سوريا» أن يطوف عشرات البلدان الإسلامية وغير الإسلامية(٣).

---

(١) وإنصافًا للشيخ سوف نعتمد على ما كتبه تلميذه د. محمد حسن الحمصي في عرض مواقفه ونقل كلامه.

(٢) زعم أحد مريديه (أنه وصل إلى حالٍ من السمو الروحي، كان يرى فيها النبي المصطفى ﷺ يقظة في كل وقت يتجه فيه بقوة روحه إلى روحانية النبي ﷺ). الدعاة والدعوة الإسلامية المنطلقة من مساجد دمشق (١/ ٢٠٦).

(٣) انظر ترجمته فيما كتبه تلميذه د. محمد حسن الحمصي، وغلا فيه، في كتاب: (الدعاة والدعوة المنطلقة من مساجد دمشق) (١/ ٢٢٣ - ٢٤٥)، (٢/ ٩٠٧ ٩١٧). ومعظم مادة هذين المجلدين تدور حوله.

- **ثانيًا: محاولاته العلمية والعملية للتقريب بين الأديان:**

أ. محاولاته على الصعيد المحلي:

بدأ الشيخ أحمد كفتارو رحلة «التقارب الديني»، وخصوصًا التقريب بين الإسلام والنصرانية، في مستهل شبابه، في إثر استقلال سوريا عن الانتداب الفرنسي عام ١٩٤٥م، بدوافع وطنية. وذلك عن طريق المحاضرات العامة، والأحاديث الإذاعية والمتلفزة - لاحقًا - وتحرير المقالات في الصحف. ولعله أول من أحدث في الإسلام عبارة: «إخواننا المسيحيين»⁽¹⁾.

ومن محاضراته:

- «التعاون الإسلامي المسيحي، وهل يمكن أن يتغلب على الإلحاد؟»، و«وحدة الأديان، والتآخي بين المسيحية والإسلام»، و«مصافحة المسيحية والإسلام في ظلال القرآن»... ومن هذا المنطلق راح يعلن -خلال حديثه الإذاعي الديني - على رؤوس الأشهاد تهانيه للعالم المسيحي، في ذكرى ميلاد سيدنا عيسى⁽²⁾ ذاكرًا نبذة

---

(١) انظر: مقالة (النصارى ليسوا إخواننا كما يقول بعضهم) للشيخ د. صالح الفوزان. مجلة الدعوة السعودية. عدد ١٦٩٣. عدد صفر ١٤٢٠هـ.

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: (وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به، فحرامٌ بالاتفاق. مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك عليك، أو تهنأ بهذا العيد، ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر، فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب بل ذلك أعظم إثمًا عند الله، وأشد مقتًا من التهنئة بشرب الخمر، وقتل النفس، وارتكاب الفرج الحرام ونحوه، وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل. فمن هنأ عبدًا بمعصية أو بدعة فقد تعرض لمقت الله وسخطه). أحكام أهل الذمة (١/ ٢٠٥ - ٢٠٦). ومعلوم أن «عيد الميلاد» عند النصارى يجري فيه من إعلان الكفر العظيم من التثليث، وتأليه عيسى، والقول ببنوته، ما الله به عليم.

من تعاليمه...»(١). ومن نماذج دعوته للتقريب بين الإسلام والنصرانية في محاضراته وأحاديثه ما يأتي:

- قال في محاضرة إذاعية ألقيت بتاريخ ١٦/ ٣/ ١٣٨٠هـ الموافق ٧/ ٩/ ١٩٦٠م بمناسبة «المولد النبوي»: (... أجد تقاربًا، بل اتحادًا ووحدة تتمثل بين أبناء سيدنا عيسى، وأبناء سيدنا محمد.. أجد تجاوبًا وتعاونًا صادقًا يتحقق بين أبناء الإنجيل وأبناء القرآن... فَقَرَّ عينًا - يا ربيعنا الأول - بما ترى وتشهد من مناظر المحبة والائتلاف، ودفن الضغائن والاختلاف... لقد صار - يا ربيع - ميلاد الرسولين الكريمين عيدًا مقدسًا عند المسلمين والمسيحيين)(٢). فهل وجد كفتارو أحدًا من النصارى يقدس بدعته؟

- وكتب في جريدة «الأيام» بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩٥٦م: (الأديان كلها من مصدر واحد، وليتحابب أهل الأديان السماوية، ويناصر بعضهم بعضًا)(٣).

إن وحدة مصدر الأديان تقتضي أن يقبل أتباعها برسالة النبي الخاتم، ويصدقوها ويعملوا بشريعتها، كما أخذ الله بذلك الميثاق على أنبيائهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، لا أن يستنكفوا عن اعتناق الإسلام ويستكبروا، فلا محبة إذًا ولا ولاية، وهذا من بدهيات الإسلام كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ

---

(١) انظر: الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مسجد دمشق. (٢٣٧) حاشية (٤، ٥١٨، ٥٢٦).

(٢) المرجع السابق (١/ ٥٢٧).

(٣) المرجع السابق (١/ ٥٢٩).

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال في الولاية والمناصرة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وبالمقابل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. ونهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين في غير ما موضع: قال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]. فهل خفيت هذه النصوص على المفتي العام؟

هذه نماذج من أقواله، وهو بين ظهراني المسلمين، في أرض الشام المباركة، أما الأفعال، فضِغثٌ على إبّالَة(١)، فلقاءات المجاملة والتهاني، والزيارات الودية المتبادلة مع بطاركة النصارى الشرقيين لا تنقطع، وعبارات الادِّهان، وتحريف الكلم عن مواضعه، تطغى على تلك المناسبات. ومن أمثلة ذلك قوله مخاطبًا البطريرك «تيوديوس» في أثناء حفل إفطار في رمضان، على مائدة رئيس الجمهورية الأسبق شكري القوتلي(٢) (١٩٥٥-١٩٥٨م): (متى نرى الوقت الذي يتم فيه التلاقي والتعاون؟ أما آن الوقت لكي ننبذ الخصام؟ أما آن الوقت لنتلاقى على كلمة سواء؟!

---

(١) قال الميداني: (الإبّالة: الحزمة من الحطب. والضغث قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس، ويروى: إيبالة. وبعضهم يقوله إبالة مخففًا. وأنشد:

لي كل يوم من ذؤالة ضغث يزيد على إبالة

ومعنى المثل: بلية على أخرى). مجمع الأمثال. (١/ ٤٣٢).

(٢) شكري القوتلي: (١٣٠٨ - ١٣٨٧هـ). أول زعيم وطني تولى رئاسة الجمهورية السورية. حكم عليه الفرنسيون إبان احتلالهم سوريا بالإعدام غيابيًا. انتخب رئيسًا للجمهورية عام ١٩٤٣م. وفي عهده كان جلاء الفرنسيين عام ١٩٤٦م. دخل ببلاده في وحدة مع مصر عام ١٩٥٨م باسم «الجمهورية العربية المتحدة» متنازلًا باختياره عن الرئاسة. توفي في بيروت، ودفن في دمشق. له مجموعة خطب ومذكرات. انظر: الأعلام (٣/ ١٧٣).

وما كان من البطريرك الذي سمع هذه الدعوة المخلصة إلا أن هب من مقعده يصيح، نعم لقد آن الأوان.. آن الأوان. ومد يده لتلاقي يد فضيلة الشيخ، ويتصافحا عن بعد، وتهز اليد اليد، وسط تصفيق الجميع، وإعجاب الجميع)(١).

نعم لقد آن الأوان للالتقاء على كلمة سواء بين المفتي والبطريرك، ولكنها ليست ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن﴾ [آل عمران: ٦٤]. وإضافةً إلى ذلك فقد تحول «جامع أبي النور» في دمشق إلى «مزار» يؤمه دعاة التقريب بين الأديان، وغير الأديان، من النصارى والبوذيين وأمثالهم. وممن شد الرحل إلى مسجد أبي النور من أعيان غير المسلمين:

- الكاردينال فرنسيس كوينج، رئيس أساقفة النمسا. مطلع عام ١٩٧٨م.

- وفد اتحاد الكنائس العالمي، الذي ضم ممثلين للكنائس الروسية والألمانية والبريطانية عام ١٩٨٨م.

- المفكر الفرنسي «روجيه جارودي» عام ١٩٨٤م. وغيرهم.

ب. محاولاته على الصعيد العالمي:

لعل أول «مشهد» يشهده الشيخ أحمد كفتارو على صعيد التقارب الإسلامي - النصراني العالمي، كان مؤتمر «القيم الروحية للديانتين المسيحية والإسلامية» المنعقد في ضاحية «بحمدون» في لبنان في شعبان ١٣٧٣هـ، الموافق إبريل ١٩٥٤م، وعاد علماء دمشق مثل الدكتور مصطفى السباعي، والشيخ محمد أمين الحسيني، مفتي فلسطين، بقناعة تامة بعدم جدوى مثل هذه الملتقيات، وتبينوا الأغراض المبيتة من ورائها، وعاد الشيخ كفتارو بقناعة تامة في المضي في هذا السبيل، رغم الفشل الذريع الذي مني به المؤتمر وملحقاته.

---

(١) المسجد المنتج. د. محمد حسن الحصمي (٧٩).

تتالت سلسلة من رحلات التقارب إلى عدة بلدان، وأبرز تلك الرحلات الرحلة إلى:

١. الولايات المتحدة الأمريكية: زار الولايات المتحدة الأمريكية بناءً على دعوة من رابطة جامعة البحيرات الكبرى، حيث ألقى فيها ما يزيد على أربعٍ وأربعين محاضرة. كان من بينها: (تلاقي الأديان السماوية نحو هدفٍ واحد هو إيجاد الإنسان الفاضل السعيد). وفي «النادي الدولي»، بواشنطن، نادى النصارى قائلًا: (أيها الإخوة: هلا ترون أن حماية العالم والحضارة الإنسانية - في هذه الظروف المنذرة بالأخطار - تقضي علينا بأن ندرس تلاقي وتعاون الإسلام والمسيحية، وتآخي أبنائهما)⁽¹⁾.

٢. الاتحاد السوفيتي: في إثر زيارة رسمية قام بها الشيخ على رأس وفدٍ من علماء دمشق إلى الاتحاد السوفيتي، جرى الاتفاق والتمهيد لعقد مؤتمر دولي ديني يرعاه الشيوعيون. فكان مؤتمر «زاغورسك» قرب موسكو.

- وفي يونيو من عام ١٩٨٦م، شارك في الاحتفال بمرور ألف سنة على وجود وإنشاء الكنيسة في روسيا!

- وعلى مائدة الشيوعي - غروميكو - رئيس مجلس الدولة في الكرملين، في تلك المناسبة، قال كفتارو بمحضرٍ من جميع الوفود المشاركة: (منذ أربعين سنة وأنا أعمل على تلاقي الدينين الإسلامي والمسيحي، وإقامة جسور التعاون والتآخي بينهما... لقد استطعت خلال أربعين سنة - بالمحاضرات والمؤتمرات - أن أبني جسورًا للتعاون والتآخي بين أبناء الديانتين لم تكن موجودة من قبل. وهأنذا أطرح عليكم السؤال، حول إمكانية إنشاء حوار آخر، بين العلم والعقل

---

(١) انظر: الدعوة والدعاة (١/ ٥٤٦، ٢/ ٦٤٩ - ٦٦٤).

وبين الإيمان، بين العلم والدين، لعلنا بذلك نستطيع أن نقيم بينهما حلفًا، ليقفا معًا في خندق واحد، يقف أمام دعاة الحروب والاستعمار، لا ليتحقق السلام العالمي فقط، بل لتتحقق الأخوة العالمية)(١).

أي شيء يخيل للشيخ كفتارو، ومريدوه، أنه يحققه للإسلام والمسلمين، وهو يطوف حول نصرانية محرفة، وشيوعية تحتضر، ويسعى بين الكنيسة والكرملين؟!

وماذا حمل للبشرية الضالة، الشاردة عن عبادة ربها، من دعوة الإسلام سوى حجة الحضور الإسلامي، التي يستطيل النصارى والشيوعيون برسمها على مسلمي الجمهوريات الإسلامية المقهورين؟! وهل تغيرت مقاصد الإسلام، وحكمة الخلق من ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، إلى مجرد إقامة حلفٍ مع الشيوعيين لتحقيق الأخوة العالمية؟!

٣. أوروبا: بعد عشرين سنة من جولته الأولى في عددٍ من البلدان الأوروبية عام ١٩٥٩م عاود الشيخ أحمد كفتارو، بعد أن صار مفتيًا عامًّا لسوريا.

- وكانت أول محطة له «النمسا» في مايو عام ١٩٧٩م، استجابة لدعوةٍ من رئيس أساقفة النمسا، الكاردينال فرانسيس كوينج، المعروف بحماسه للتقريب بين الإسلام والنصرانية أيضًا، كما التقى بالقادة السياسيين، (وأكد في أحاديثه الصحفية «أن الوقت قد حان لتلاقي الإسلام والمسيحية»)(٢).

وقد ألقى محاضرة في جامعة فيينا بعنوان: «وحدة الأديان السماوية، واللقاء بين الإسلام والمسيحية»(٣).

---

(١) الدعاة والدعوة (٢/ ٧٢٦).

(٢) الدعاة والدعوة (٢/ ٦٦٦ - ٦٦٧).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٦٧٠).

ولما كان الخلاف أمرًا واقعًا، وحقيقةٌ لا تطمسها العبارات الخطابية العاطفية، فالإسلام هو الإسلام، والنصرانية هي النصرانية، بسَّط الشيخ أمره، وهوَّن من شأنه، قائلًا: (وأما ما قد يبدو من وجود خلاف في بعض التفسير والتأويل، فإن اختلاف الرأي والفكر موجود بين أبناء كل دينٍ، ومع ذلك فهذا التباين لا يحول دون اتحاد القلوب، وصفاء النفوس، والتعاون لمصلحة السلام، والإيمان، والإنسان. ويكون مثله مثل الزهور المتنوعة الألوان، التي إذا اجتمعت في باقة متناسقة بهرت العيون، وهزت الشعور)⁽¹⁾.

ونقول: إن كان التباين في أمر الاعتقاد بالله ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، لا يحول دون اتحاد القلوب، وصفاء النفوس، فأي أمر يحول دون ذلك، تتحقق به ولاية الله ورسوله والمؤمنين، وعداوة أعداء الله ورسوله والمؤمنين؟!

وماذا يُعمِل الشيخ من قول الله تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وأمثالها من الآيات. وهل المسألة مجرد اختلاف رأي وفكر بين أبناء كل دين، على حدِّ تعبيره، وقد أعظم القرآن على هؤلاء النصارى النكير وذمهم، وسفههم، وكفَّرهم في غير ما آية، ودعاهم إلى أن ينتهوا عما يقولون من التثليث والغلو، فكيف يخاطبهم «المفتي» بهذه اللغة الخاضعة؟! ألم يكن له في رسول الله أسوة حسنة، حين جمع بين أدب الخطاب، وصراحة الدعوة إلى الحق، والبداءة بأهم المطالب، مستجيبًا لأمر ربه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

- وفي عام ١٩٨٠م، زار الشيخ أحمد كفتارو «ألمانيا الديمقراطية»، ألمانيا

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٦٧١).

الشرقية قبل الوحدة، وكانت تابعة للمعسكر الشيوعي حينذاك، بدعوةٍ من نائب رئيس الدولة، وألقى عدة محاضرات في كنائس برلين، إضافة إلى المقابلات الإذاعية والتلفزيونية، دعا فيها إلى التقارب بين الديانتين(١) واستشهد ببيتين من الشعر:

لعمرك ما الأديان إلا نوافذ
ترى الله منها مقلة المتعبد
فألمس في القرآن عيسى بن مريم
وألمح في الإنجيل روح محمد(٢)

كما عقد الوفدان السوري برئاسة كفتارو، والألماني برئاسة الأسقف «البريشت شونهير» رئيس اتحاد الكنائس البروتستانتية في ألمانيا، حوارًا عقديًّا، صدر عنه بيان مشترك بتاريخ ٢٦ إبريل عام ١٩٨٠م، موقعٌ من الشيخ كفتارو، ورئيس مؤتمر السلام المسيحي البروفيسور كارل هاينتز بيرنهارد، وليس من الأسقف شونهير! تضمن وصف النبي ﷺ بالنبوة، والاعتراف المتبادل، جاء فيه: (إن اللقاء تم بروح من الاحترام والاعتراف بالرسالتين السماويتين اللتين نزلتا على عيسى رسول الله، ومحمد نبي الله، واللتين تهدفان إلى سعادة الإنسان وسلامته. لقد خدم هذا اللقاء التعارف المتبادل للمؤمنين من الدينين، كما ساعد على إزالة سوء التفاهم، وحقق إمكان تعاون مستقبلي مشترك. إن ما تم إبرازه خصوصًا في هذه المباحثات هو إجماع الديانتين الإسلامية والمسيحية على الإيمان بالله الخالق الواحد الأحد،

---

(١) الدعاة والدعوة المنطلقة من مساجد دمشق (٢/ ٧٣٣).

(٢) انظر: ملحق رقم (٢٦) من المرجع السابق (٢/ ١٠١٩ - ١٠٢١) نص المحاضرة. والبيتان للشاعر اللبناني حليم دموس «نصراني».

الذي أرسل عيسى ومحمدًا رحمة للناس، وعملًا على إسعادهم)(١).

والإنصاف يقتضي الاعتراف بأن هذا البيان المشترك يمثل تقدمًا نسبيًّا من جانبٍ نصراني، تجاوبًا مع دعوة الشيخ كفتارو للتقارب، ولكننا نسجل ملاحظتين:

الأولى: أن البيان لم تتبنَّه جهة كنسية، بل مؤتمر السلام المسيحي، ولم يوقعه مرجع كنسي، كما كان مفترضًا أن يوقعه الأسقف ألبريشت شونهير، رئيس اتحاد الكنائس البروتستانتي، وإنما وقعه البروفيسور: كارل هاينتز بيرنهارد، رئيس المؤتمر المذكور. وهذه قضية لا تغيب عن فطنة النصارى ودهائهم، ومن ثم يفقد الاعتراف أهميته، لا سيما أنه قد صدر في دولة محسوبة على الكتلة الشيوعية.

الثانية: وهي الأهم، أنه اعترافٌ قاصر لا تترتب عليه مقتضياته من القبول بكل ما جاء به محمد ﷺ واتباعه، والانخلاع عن كل ما خالف الحق الذي جاء به. وغاية ما فيه أنه اعترافٌ لفظي بوصف «النبوة» أو «الرسالة» على نحو مطلق، كما يعترف النصارى برسالة موسى أو إبراهيم على أحسن تقدير.

ولهذا لم يكن لهذا البيان تأثيرٌ في الأوساط النصرانية في أوروبا والعالم، بل ولا في ألمانيا نفسها، وإنما صفق له أتباع الشيخ أحمد كفتارو ومريدوه، وعدوه فتحًا مبينًا، ونصرًا عزيزًا. والواقع أن ما تنازل عنه الشيخ أضعاف ما ناله بحساب الربح والخسارة، فكيف إذا كان ليس مخولًا، ولا غيره، بالتنازل عن شيءٍ من عقائد الإسلام؟!

- في عام ١٩٨٦م قام الشيخ أحمد كفتارو بزيارة إلى إيطاليا والفاتيكان ونقتطف من مقولاته في تلك الرحلة ما يأتي:

---

(١) انظر نص البيان. الملحق رقم (٣٢) من المرجع السابق. (٢/ ١٠٤٤).

- (نحن المسلمين، عندما آمنا بالمسيح وإنجيله، من خلال عقيدتنا، لم يؤثر ذلك علينا، وبقينا مسلمين، وأنتم - كمسيحيين - إذا عرفتم ما هو الإسلام، فستبقى لكم مسيحيتكم).

- (لا بد من الإسراع في التعاون والتنسيق، والتقارب واللقاء بيننا. ليبقَ كلُّ واحدٍ منا على دينه، مسلمًا أو مسيحيًّا.. لكن ليتعرف كل منا على ما عند أخيه، من خبرة وتجربة، نتعاون على ما نشترك فيه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما يُختلف فيه من فروع. وفي هذا ما فيه من خيرٍ يعود على الجميع).

وقد دأب الشيخ في جميع محاضراته أمام النصارى أن يبين منزلة المسيح وأمه في القرآن، ويطنب في ذلك، وهذا أمرٌ حسن، ولكن دون أن يتطرق إلى المساس بعقائد النصارى الشركية الوثنية، أو يجبههم صراحة بالدعوة إلى الإيمان برسول الله محمد ﷺ إيمان تصديق واتباع، وقصارى ما قاله في إيطاليا:

(إزاء هذا الموقف الإسلامي - والذي هو عقيدة المسلمين - فهل للمسيحيين أن يقابلوا هذا التقدير بتقديرٍ مثله، وهذا الاعتراف باعترافٍ مثله؟!)(١).

ورغم طمأنته إياهم - كما سبق - أنه لا يدعوهم إلى ترك نصرانيتهم، بل يأمرهم بالبقاء عليها، ورغم عبارات الود والولاء والملاطفة، ورغم ساعةٍ كاملة أمضاها الشيخ مع البابا في ختام زيارته، فلم يقابل النصارى تقديره بتقديرٍ مثله، ولا اعترافه باعترافٍ مثله.

- وفي عام ١٩٨٦م ترأس الشيخ أحمد كفتارو مؤتمر السلام العالمي، بمشاركة صديقه البرفيسور كارل هاينتز بيرنهارد، رئيس مؤتمر السلام المسيحي، في العاصمة التشيكية «براغ»، وصدر عن المؤتمر بيان مشترك تضمن الإشارة إلى

---

(١) النقول السابقة: انظر الدعاة والدعوة (٢/ ٦٧٨ - ٧٠٠).

قضية التوحيد، وإلى نبوة محمد ﷺ بعبارات حمَّالة أوجه، مثل: (نحن المشتركين في هذا اللقاء المنتمين إلى دينين سماويين نتفق في الإيمان بالله الواحد الأحد، خالق الأرض والسماوات، كما نتفق بأنه لا إله إلا هو، ونشهد، كأناس تابعين للسيد المسيح رسول الله، وللنبي محمد رسول الله بإيماننا بالله، وبالرسائل المرسلة من قبل الله...)[1].

فمن جهة التوحيد فإن وصف الله - سبحانه وتعالى - بالتثليث لا يعارض التوحيد بزعمهم، كما في نص الإيمان النيقاوي: «(١) أومن بإله واحدٍ قادر على كل شيء، خالق السماء والأرض، وكل ما يرى ولا يرى (٢) وبربٍّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب... (٣) وأومن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب والابن، المسجود له والممجد مع الآب والابن...)[2].

ولكن المستغفلين من المريدين يحسبون أن الشيخ أفلح في إقناع النصارى بالتوحيد، ونبوة محمدٍ ﷺ، فيقول الحمصي: (هل هناك... من نتيجةٍ أعظم من أن يتوصل المتحاورون المسلمون والمسيحيون، في «براغ» إلى الإقرار بالله الواحد الأحد، خالق السماوات والأرض، والإيمان بالرسالات المرسلة من عند الله، بعد الإشارة إلى أن النبي محمدًا رسول الله، وأن عيسى رسول الله؟! لقد كان هذا الأمر الخطير من ثمار الحوار الإسلامي المسيحي)[3].

فإن كان الحمصي يريد «توحيد الربوبية» فليعلم أن المشركين عبدة الأوثان قد أقروا به، وهؤلاء النصارى يشركون في الربوبية. وإن كان يتوهم أنهم أقروا بـ«توحيد الألوهية» فقد أبعد النجعة، فلا يزال النصارى يتخذون عيسى وأمه إلهين

---

(١) انظر نص البيان المشترك في الأصل الملحق رقم (٣٣).

(٢) راجع العقائد النصرانية في التمهيد.

(٣) الدعاة والدعوة (١/ ٥٦٤).

من دون الله، ويعبدون الروح القدس وله يسجدون.

وأما الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ فلا يتخرج إلا على «التفسير الإشاري الصوفي» الذي لحظه الأستاذ الحمصي، هداه الله.

- كما كان للشيخ أحمد كفتارو زيارات لبلغاريا الخاضعة للحكم الشيوعي، التي يتعرض المسلمون فيها لاضطهادٍ مستمر، وقد ألقى محاضرة مرتجلة بعنوان: «الإسلام والسلام العالمي» ختمها بالقول:

(... وأرجو أن تتاح الفرصة لحوار إيماني - اشتراكي، لأن الإمبريالية تتهم الاشتراكية بالكفر. وأنا -من وجهة نظري - أعتقد أنه لا يوجد كافرٌ واحد على وجه الأرض، لكن من يسمى كافرًا هو من عُرض عليه الإيمان بشكلٍ مشوهٍ)(١).

إن هذه مقالة كفرية، وتكذيب للنصوص القرآنية، وما هو معلوم من الدين بالضرورة! والله تعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] وقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

ومثل هذا الكلام لا يتخرج إلا على أصول أهل وحدة الوجود من غلاة الصوفية، حيث اليهود والنصارى، بل والشيوعيون ليسوا كفارًا كما قال كبيرهم الذي علمهم الإلحاد، ابن عربي:

---

(١) نص المحاضرة في الأصل الملحق رقم (٣٤).

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلًا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائفٍ
وألواح توراةٍ ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنَّى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني
ومن ورد ماءً صدر عنه.

• ثالثًا: المعالم الفكرية والمنهجية لمحاولاته للتقريب بين الأديان:

إن دعوة التقريب بين الأديان، بالنسبة للشيخ أحمد كفتارو «مشروع عُمْر»، و«هدف حياة». وعلى مائدة رئيس مجلس الدولة في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٦م، بمسمع من الوفود العالمية يقول: (منذ أربعين سنة وأنا أعمل على تلاقي الدينين: الإسلامي والمسيحي)[١]، وقبل ذلك وفي جامعة فيينا عام ١٩٧٩م، يقول: (هذه فكرة وعقيدة أعمل لها منذ خمس وثلاثين سنة)[٢].

فمنذ أكثر من خمسين سنة والشيخ يدعو إلى التقارب بل والاتحاد، ولم يثنِه عن ذلك انتقادات أهل الإسلام في الداخل، ولا مراوغة أعداء الإسلام في الخارج.

---

(١) الدعاة والدعوة (٢/ ٧٢٦).

(٢) الدعاة والدعوة (٢/ ٦٧٠).

فما البواعث التي حملت الشيخ كفتارو على تجشم الصعاب، ومخالفة ما هو معلوم من الدين بالضرورة؟ وما الأسس التي بنى عليها أركان دعوته؟ وفهم البواعث ضروري لإدراك معالم دعوته.

أما البواعث، فيعرب عنها قائلًا: (يدفعني إلى ذلك شيئان: أولهما: عقيدتي الإسلامية. لأن كل من يقرأ القرآن يجد فيه خلاصة عن كل ما أتى به السيد المسيح، وعن كل ما أتى به نبي الله موسى. فنحن - كمسيحيين(١) - نعتقد بأن القرآن ثلاثة أقسام: قسم لأنبياء التوراة، وقسم لحياة سيدنا المسيح، وقسم أتى متممًا لما جاء به أنبياء الكتاب المقدس المنزل من عند الله. لذلك فإنني أجد أن من عقيدتي الإسلامية، ومن واجبي الديني أن أعمل على التقاء العالمين الإسلامي والمسيحي؛ لأننا دينيًّا ملتقون.

وثاني ذينك الأمرين، هو مصلحة السلام العالمي... إذ إن الإنسان أصبح الآن على شفا جرفٍ من الانهيار)(٢).

وأما منهجه وتصوره لتحقيق تقارب الأديان، فيلخصه في ثلاث نقاط، حيث يقول في ورقة عمل قدمها إلى مؤتمر منبر الأديان العالمي المنعقد في سان فرانسيسكو في أغسطس عام ١٩٩٠م تحت عنوان: (الإسلام والقرآن يمد يده لكل أبناء البشرية، وخصوصًا أهل الكتاب المقدس):

(بين أيدينا اليوم أكثر من طريق للقاء الأديان. منها:

١ - أن نرجع إلى كتبها الأصلية الأولى، فنجمع منها ما اتفقت عليه الأديان، من وحدانية الله العظيم، خالق كل شيءٍ على أبدع نظام، وأن الإنسان أخو الإنسان.

---

(١) كذا في الدعاة والدعوة، ولا شك أنها هفوة قلم، أو خطأ مطبعي والمراد - كمسلمين.
(٢) الدعاة والدعوة (١/ ٥٤٥).

٢ - أن ننظر إلى الوصايا الأخلاقية، التي تجعل العالم سعيدًا موحدًا إذا عمل بها، بعد اتفاق رجال الأديان عليها، ثم تعميم التعليم والإعلام بها بمختلف الوسائل الحديثة، الأمر الذي لا يوصل العالم إلى السلام فحسب، بل يجعل من العالم كله أسرة واحدة متآخية متحابة، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

٣ - أن ننظر - وبكل شجاعةٍ وصدقٍ وإخلاص - إلى أن مرور الزمن، وكثرة الترجمات، ووجود أصحاب المطامع والأهواء، قد أثر على بعض أصول الدين الداعية إلى المحبة والتعاون، وفسح المجال لبذور التعصب والحقد بين عباد الرب الواحد... الأمر الذي يجب مراقبته وتصحيحه... وإعادة النظر في التأويلات المعاكسة للقاء الأديان، مستعينين بالعقول النيرة، والأبحاث العلمية الصحيحة.. ولا بد لهذه الوسائل وما يشبهها، من مؤتمرات حوار حر، يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة، واللقاء الحقيقي بين الأديان السماوية)(١).

من خلال ما سبق تتبين معالم محاولات الشيخ أحمد كفتارو للتقريب بين الأديان؛ من حيث الأساس، والهدف، والمنهج، والثمرة:

أولًا: أن الأساس الذي بنى عليه دعوته هو اعتقاد إيمان أهل الكتاب، وأن الإسلام بصورته التي جاء بها محمدٌ ﷺ غير ملزمٍ لجميع الناس، بل يسع اليهود والنصارى أن يبقوا على دينهم.

فالشيخ يصدر دعواه بوحدة الأديان بذكر الآيات والأحاديث الدالة على أن رسالة الأنبياء واحدة، وأنهم كما جاء في الحديث الصحيح: «إخوة من علَّات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد»(٢). وهذا حق لا مرية فيه، ولكنه يقطع الحديث عن

---

(١) الدعاة والدعوة (٢/ ١٠٧٢).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٨٣٧).

بيان نسخ شريعة محمدٍ ﷺ للأديان السابقة، وضرورة الإيمان به واتباعه، وكفر من لم يحقق ذلك، وأنه من أهل النار، كما جاء في الحديث الصحيح: (والذي نفس محمدٍ بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)⁽١⁾، وهذا أمر معلومٌ بالضرورة من دين الإسلام، إذ هو شق الشهادة الثاني، الذي لا يتحقق شقها الأول إلا به. هذا لو سلمنا أن نصارى اليوم على دين الحواريين، فكيف وقد كفَّرهم الله بتأليه عيسى، وادعاء بُنوته، وقولهم ثالث ثلاثة؟

ولكن الشيخ يخاطبهم بوصف الإيمان، والأخوة الإيمانية، قبل أكثر من نصف قرن، ويقدس إنجيلهم، الذي أخبرنا ربنا أنهم حرَّفوه عن مواضعه، ويهون من شأن الخلاف العقدي معهم، عادًّا إياه نوعًا من اختلاف الرأي والفكر في مسائل فرعية، كما يختلف أصحاب الدين الواحد في الفروع الفقهية، بسبب خلافٍ في التفسير والتأويل - على حد تعبيره - وأن هذا التنوع العقدي، مثله مثل الزهور المتنوعة الألوان، إذا جمعت في باقةٍ متناسقة بهرت العيون، وهزت الشعور⁽٢⁾.

ولكن مفهوم الإيمان يتسع أكثر فأكثر لدى سماحته، فيستعيض عنه بمصطلح «الروحانيات»، ليجد الوثنيون من عبدة بوذا والأبقار والطواطم مكانًا تحت عبارته الفضفاضة، في مقابل «الماديات» الكافرة، ويتسنم الشيخ منصب ممثل الروحانيين في المؤتمرات العالمية، ويضم «بوذا» إلى قائمة أنبياء الله الكرام لاتفاقهم في جوهر الدين، ويستشهد بأحواله بعد استشهاده بمواقف أنبياء الله، إبراهيم، ويوسف، وموسى، وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم، فيقول: (ووجد

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٣٤).

(٢) الدعاة والدعوة (٢/ ٦٧١).

بوذا السعادة في رفض المادة بالالتجاء إلى الروح)(١)، ثم يتبعه بذكر نبينا محمد ﷺ شرَّفه الله وكرمه، وإخوانه، عن مقارنة الكافرين.

وتتسع الدائرة لتحيط بالشيوعيين الملحدين، فيعرض على أندريه غروميكو حلفًا مشتركًا ضد دعاة الحرب والاستعمار، لتحقيق الأخوة العالمية(٢)!! من بقي يا ترى لم تشمله سماحته؟ بقي، قطعًا للريبة، ودفعًا للشك، أن يعلن في «بلغاريا» وغيرها اعتقاده الصميم: (أنه لا يوجد كافرٌ واحد على وجه الأرض)(٣).

إن هذا لهو حجر الأساس في مشروع الشيخ أحمد كفتارو للتقريب بين الأديان، وغيره من دعاة التقارب، ولو كانوا يميزون بين حزب الله وحزب الشيطان، وأولياء الرحمن وأولياء الشيطان ما سلكوا هذا المسلك، بل لسان حالهم كما قال أولهم: لقد صار قلبي قابلًا كل صورة.

ثانيًا: هدف التقارب الذي يسعى إليه الشيخ ليس اجتذاب أهل الكتاب إلى الإسلام، فليس ذلك مطلبًا في حد ذاته، بل يدعوهم إلى البقاء على نصرانيتهم، مستشهدًا لذلك بمقالة ينسبها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه تارة، وإلى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه تارة أخرى: (لا ننهاك عن النصرانية ولكن نأمرك بها)(٤)، فيقول في إيطاليا: (إذا عرفتم ما هو الإسلام فستبقى لكم مسيحيتكم)، (ليبقَ كل واحدٍ منا على دينه مسلمًا أو مسيحيًّا، لكن ليتعرف كل منا على ما عند أخيه)(٥).

---

(١) من محاضرته: (الروحانية في القرن العشرين) في الأصل ملحق رقم (٣٧).

(٢) انظر: الدعاة والدعوة (٢/ ٧٢٦).

(٣) من محاضرته في أكاديمية العلوم البلغارية. الدعاة والدعوة (٢/ ١٠٥٧).

(٤) انظر: الدعاة والدعوة (١/ ٥٢٦، ٢/ ٦٨٢).

(٥) الدعاة والدعوة (٢/ ٦٨١ - ٦٨٢).

وغاية ما تصبو إليه مساعي الشيخ الدؤوب هو طلب الاعتراف بالإسلام، والإقرار بأن نبينا محمدًا ﷺ نبي بإطلاق! لا الإقرار بأنه مرسلٌ إلى الناس كافة، وأنه خاتم النبيين، وشريعته ناسخة للشرائع السابقة.

فهل مجرد المعرفة هو مقصود الشيخ؟ إن من يعتقد أن الإيمان هو مجرد المعرفة دون تصديق القلب، أو قول اللسان، أو عمل الجوارح، هم غلاة المرجئة من الجهمية. أما القرآن فيقول غير ذلك: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إن الشيخ يهدف إلى «التقارب» من حيث هو «تقارب» بصرف النظر عن الأصول العقدية والضوابط الشرعية، فالمهم عنده أن نقترب، لا كيف نقترب، فمن ثم وسعت دعوته الاشتراكيين والشيوعيين والبوذيين وأتباع مون.

إن دين الله عزيز، ولا يغض منه أن يتخذه بعض المنتسبين إليه سلعةً أو سلَّمًا، إلى هذا الحد المسِف الذي يحاول الشيخ كفتارو إلصاقه بطوائف النصرانية الضالة، ولو بوصفه هرطقة من الهرطقات كما زعم بعض النصارى.

ثالثًا: منهجية التقارب عند الشيخ تقوم على:

١ - استخلاص المتفق عليه بين الأديان حول ربوبية الله.

٢ - استخلاص المتفق عليه بين الأديان حول الوصايا الأخلاقية.

٣ - إعادة النظر في التأويلات المعاكسة للقاء الأديان.

٤ - العمل ضمن قاعدة: (نتعاون على ما نشترك فيه، ونتسامح فيما يختلف فيه من فروع)(١).

أما الوسائل والأدوات لتحقيق هذه المقاصد، فيقترح:

١ - (هيئة أمم عالمية روحية، متعاونة، ترعاها السماء)(٢)!

٢ - (تعميم التعليم والإعلام بها بمختلف الوسائل الحديثة)(٣).

٣ - المصافحة والمعانقة والتآخي والمحبة وتبادل التهاني في الأعياد، وتبادل المزايدات الكلامية من جنس روايته الآتية: (قال لي قداسة البابا «يوحنا بولس الثاني» في أحد لقاءاتي الحوارية معه: إنني أقرأ القرآن كل يوم، فكان جوابي له: وأنا أحفظ الإنجيل)(٤). وغير خافٍ أن هذا المنهج ووسائله ليس من دين الله في شيء، ولا من سبيل المؤمنين.

رابعًا: ثمرة التقارب الذي ينشده الشيخ أحمد كفتارو هو تحقيق السلام العالمي، فيقول: (وأما ثمرها فهو تحقيق الأسرة العالمية، وأخوة الإنسان للإنسان، حتى نعيش على فردوسنا الأرضي، فنحوله من جحيم القنابل التي تتهدد البشرية، إلى فردوس الحب الإيماني)(٥).

إن شعارات «السلام» و«العالمية» و«الأخوة الإنسانية» المجردة وما شابهها، ليست إلا مبادئ الماسونية، والاتجاهات الأرضية غير الدينية، وليست سوى جُملٍ عامة لم تأتِ بها الشريعة، ولا هي بحدِّ ذاتها من مقاصد الإسلام.

---

(١) الدعاة والدعوة (١/ ٥٦٠).

(٢) الدعاة والدعوة (١/ ٥٦٠). ولاحظ التعبير الكنسي بـ«السماء» عوضًا عن «الله».

(٣) الدعاة والدعوة (٢/ ١٠٧٢).

(٤) الدعاة والدعوة (٢/ ١٠٧٥).

(٥) الدعاة والدعوة (١/ ٥٧٣).

فالمقصود الأعظم لكل مؤمن وداعية يسير في ركب الأنبياء تحقيق عبودية الله، لا العالمية، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والدخول في السلم، لا مطلق السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، والجهاد في سبيل الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وأخيرًا، تحقيق «الحب الإيماني» الموصوف أهله بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤]، وليس «الحب المطلق». وبذلك تتبين الأسس التي تجمع دعاة التقريب بين الأديان في القديم والحديث، فلا عجب إذًا أن يطري روجيه جارودي الشيخ أحمد كفتارو بقوله: (عرف العالم الوجه الحقيقي للإسلام بوجه سماحة المفتي)(١).

---

(١) من كلمته في جامع أبي النور في ٢٣/ ٣/ ١٩٨٤م. انظر: روجيه جارودي من الإلحاد إلى الإيمان.

الفصل الثاني

المحاولات الجماعية للتقريب بين الأديان ونقدها

يجد الباحث نفسه أمام حشد هائل من المحاولات الرامية إلى التقريب بين الأديان في العصر الحديث، حتى أصبحت هذه الظاهرة سمة بارزة من سمات عصرنا في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري، حتى وقتنا هذا، النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، فتتابعت هذه المحاولات كعقدٍ انفرط نظامه.

وقد كانت الدعوة، مجرد فكرة يتمتم بها الزنادقة على وجل في مطاوي التاريخ، أو تتبناها جمعياتٌ سرية في دهاليز مظلمة، أو ينبري لها أفرادٌ انسلخوا من معتقداتهم، ونبذتهم مجتمعاتهم، تنتهي بانتهائهم(١).

ولكن في هذا العصر حظيت هذه الدعوة بانتشار واسع، وتأييدٍ دولي، وسلطت عليها الأضواء، وبشرت بها وسائل الإعلام.

ونهدف في هذا الفصل إلى الوقوف على حجم هذه الظاهرة العالمية الخطيرة، وإيجاد ثبتٍ تاريخي يستوعب مختلف المحاولات الجماعية المبذولة للتقريب بين الأديان في العصر الحديث. وتشمل هذه الدراسة مدًى زمنيًّا يمتد لأكثر من ستين سنة (١٩٣٥ - ١٩٩٩م)، ورقعة جغرافية تمثل معظم المعمورة.

وقد تم حصر أكثر من ثلاثمئة مؤتمر من مؤتمرات التقارب، رعتها أكثر من مئة هيئة دينية أو مدنية، أو مركز متخصص أنشئ لهذا الغرض.

---

(١) راجع فصل: الأصول التاريخية. الباب الأول.

وتتنوع هذه المؤتمرات فبعضها ثنائي الأطراف (مسلمون، نصارى)، وبعضها ثلاثي (مسلمون، نصارى، يهود)، وبعضها متعدد يشمل العقائد الوثنية المحضة (بوذيين، وهندوس)، إضافة إلى الثلاثة السابقة. ومن تلك المؤتمرات ما هو عالمي، ومنها ما هو إقليمي، أو محلي.

وعامتها لا ترعاها الحكومات والدول، وقليل منها حكومي. أما موضوعاتها فأشد تنوعًا، فبعضها ينزع نحو العموميات، وبعضها يعالج مسائل خاصة.

وبعد الفحص والتأمل لمجمل هذه المحاولات - باستثناء المحاولات المبكرة - بدا أن من الأوفق تصنيفها بناءً على اعتبارين: أحدهما: الجهة المنظمة المعروفة بأخذ زمام المبادرة في هذه المحاولات. الثاني: الموقع الجغرافي الذي تجمعه خصائص مشتركة.

فتمخض ذلك عن التقسيمات الآتية:

١ - المحاولات المبكرة، قبل المجمع الفاتيكاني الثاني.

٢ - محاولات الكنيسة الكاثوليكية.

٣ - محاولات مجلس الكنائس العالمي.

٤ - محاولات التقريب في أوروبا الغربية.

٥ - محاولات التقريب في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي -سابقًا-.

٦ - محاولات التقريب في الولايات المتحدة الأمريكية.

٧ - محاولات التقريب في قارة آسيا.

٨ - محاولات التقريب في العالم العربي.

٩ – محاولات عالمية متفرقة.

ولا يعزب عن البال أن مداولات هذه المؤتمرات وبياناتها وتوصياتها كتبت – بطبيعة الحال – بأقلام اليهود والنصارى، وبعض المتحررين من الإسلاميين، فلا عجب أن تتضمن تعبيراتٍ كفرية، وصياغاتٍ يأباها الدين الإسلامي(١)، وإنما ترد بين أقواس التنصيص، لكن المقام اقتضى نقلها لبيان الحال، ثم كشف ما تضمنته من باطل ونقده.

---

(١) مثل حكاية عقائد النصارى، من القول ببنوة المسيح ونحوها. ومما يكثر في هذه المؤتمرات وصف «النصارى» بالمسيحيين، وأن أديان أهل الكتاب «سماوية».

المبحث الأول

المحاولات المبكرة للتقريب بين الأديان قبل المجمع الفاتيكاني الثاني

ظهرت في إثر الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م)، والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) محاولات للتواصل الديني بين معتنقي الديانات المختلفة، كرد فعل للتغيرات الكبرى التي اجتاحت العالم من الناحية الفكرية العقدية، المتمثلة بالنظريات الإلحادية التي اكتسحت العالم الغربي، كالشيوعية، ومن الناحية الإنسانية التي منيت بالدمار الشامل، والهلاك المروع لملايين البشر، فغدا السلام حلمًا ينشده الجميع بشتى الوسائل، ومن ذلك الدعوة إلى تقارب الأديان. وساعد على ذلك انفتاح شعوب العالم بعضها على بعض، طوعًا وكرهًا، بالتجارة والهجرة، وبالاستعمار والتهجير.

وبعض تلك المحاولات المبكرة كان ذا صبغة علمية بحثية، وبعضها ذا دوافع سياسية، وبعضها ذا غايات تنصيرية، إلا أنها كانت جميعًا إرهاصات لما تمخض عنه المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥م) من إطلاق العنان للمحاولات الواسعة المكثفة للتقريب بين الأديان.

- **أمثلة لمحاولات التقريب المبكرة:**

١. مؤتمر «تاريخ الأديان الدولي - عام ١٩٣٥م»:

عقد هذا المؤتمر في مدينة «بروكسل» عام ١٩٣٥، الموافق ١٣٥٤هـ. وقد وجهت الدعوة إلى الأزهر لحضوره، فأوفد شيخ الأزهر إذ ذاك محمد مصطفى

المراغي(١) كلًّا من الأستاذين مصطفى عبد الرازق، وأمين الخولي، وقد قدم هذا الأخير بحثًا إلى المؤتمر بعنوان: «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية»، تناول فيه: الاتصال المادي بين الإسلام والمسيحية في أوروبا -أي تاريخ المواجهة الحربية- والاتصال المعنوي من حيث اللغة والفلسفة وآثار ذلك الاتصال في نشأة أفكار الإصلاح المسيحي «البروتستانتي»(٢).

٢. المؤتمر «العالمي للأديان - عام ١٩٣٦م»:

عقد هذا المؤتمر في «لندن» في عام ١٩٣٦م، بمبادرة من المجلس العالمي للأديان. وقد وجهت الدعوة لشيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي، فاعتذر عن الحضور، ووجه كلمة إلى المؤتمر ألقاها نيابة عنه أخوه عبد العزيز جاء فيها(٣): أن شيخ الأزهر يرجو من تقارب الأديان أن يؤدي إلى تكوين جبهة موحدة ضد أعداء الأديان من الملحدين والإباحيين والماديين، ويأسف لعوامل التفريق فيهم. وكأن الأصل فيهم أن يكونوا يدًا واحدة، يجمعهم إيمان واحد، يتعاونون على درء الخطر عنه!! ومن جانبٍ آخر ينعى على أهل الأديان استعمال الإكراه، والإغراء بالمال وغيره، والركون إلى القوة المادية للدول، في إشارةٍ واضحة إلى التنصير المدعوم من الاستعمار الأوروبي في تلك الحقبة.

---

(١) محمد بن مصطفى بن محمد المراغي. ولد سنة (١٢٩٨هـ - ١٨٨١م)، باحث مصري من دعاة التجديد. ولد بالمراغة، وتعلم بالقاهرة، وتتلمذ لمحمد عبده. عين قاضي قضاة السودان (١٩٠٨ - ١٩١٩م)، وعين شيخًا للأزهر سنة (١٩٢٨م) فمكث عامًا، وأعيد سنة (١٩٣٥م) فاستمر إلى أن توفي في الإسكندرية سنة (١٣٦٤هـ ١٩٤٥م). له رسائل في التفسير. انظر: الأعلام (٧/ ١٠٣).

(٢) انظر: «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية» أمين الخولي. من سلسلة الأعمال الكاملة رقم (٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م. (٩).

(٣) نشرت الكلمة في مجلة الأزهر ج٥، مج ٧، جمادى الأولى عام (١٣٥٥هـ) (٣٠١).

٣. (جمعية الإخاء الديني):

وهي من أقدم جمعيات التقارب بين الأديان، إذ يرجع تأسيسها إلى عام (١٣٦٠هـ - ١٩٤١م). وتضم في عضويتها بعض علماء الأزهر وبعض آباء الكنيسة، وشخصيات اجتماعية من المسلمين والنصارى. وقد اتخذت من المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة مركزًا لممارسة نشاطاتها الحوارية(١).

وقد تفرع عن الجمعية ندوات حوارية عرفت باسم «دار السلام» عام ١٩٤٤ وما بعده، انعقدت بصورة دورية منتظمة في القاهرة، في حقبة الخمسينيات بتوجيهٍ من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية «الفاتيكان»(٢).

وكانت جمعية الإخاء الديني محاولة مبكرة للتقريب بين الإسلام والنصرانية قُيِّض لها كاثوليكي جلْد معمَّر، فظلت باقية إلى أيامنا هذه في قلب العالم الإسلامي.

٤. (جمعية الأصدقاء الأمركيان للشرق الأوسط):

هي جمعية ذات دوافع سياسية، أسسها يهودي أمريكي يدعى «المير برجر» في حدود سنة ١٩٤٨م، وقد (نشأت واتخذت مقرًّا لها في الولايات المتحدة الأمريكية...كان بعض المتحمسين لها من العرب يقولون...: إن هذه الجمعية أخذت على عاتقها تغيير اتجاه السياسة الأمريكية، وإفهام الساسة الأمريكان حقيقة الوضع في العالم العربي، لكي يقلعوا عن سياسة الكيد للعرب، ومظاهرة إسرائيل عليهم)(٣). ويبدو أن هذه السمعة الإعلامية كانت طُعمًا لاصطياد هؤلاء

---

(١) انظر: الإخاء الديني، ومجمع الأديان وموقف الإسلام. د. محمد البهي (٥، ٢١، ٢٢).

(٢) انظر: Dialogue Between Christians and Muslims ١/ ١٥.

(٣) هرطقات... فِريسية...: د. جورج حنا. دار العلم للملايين. بيروت - لبنان. طبعة ١٩٥٤م..

المعجبين بما يخدم الأهداف الصهيونية والغربية في المنطقة العربية(١). وقد تبنت هذه الجمعية المشبوهة عقد أول مؤتمر تقارب إسلامي مسيحي في المنطقة في بحمدون عام ١٩٥٤م(٢)، تمخض عن تكوين لجنة دائمة للتعاون.

ولعل القائمين على الجمعية شعروا بالحاجة إلى تدعيم موقفهم ببعض القيادات والزعامات العلمية، فاستدرجوا الشيخ محمد بهجة البيطار(٣) رحمه الله،

---

(١) وقد كشف الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين، رحمه الله، أن نائب رئيس الجمعية غارلند إيفانز هوبكنز (قسيس بروتستانتي، معاد للإسلام، وكان من جملة الوفد المشارك في محادثات جنيف عام ١٩٤٩م، المتعلقة بقضية فلسطين ليحث العرب على الاعتراف بما يسمى دولة إسرائيل، وقضية التقسيم آنذاك). مجلة لواء الإسلام عدد ١٢ عام ١٩٥٥م، عن الحوار الإسلامي المسيحي. بسام داود عجك (٢٤٤).

(٢) عقد هذا المؤتمر الإسلامي النصراني في بلدة «بحمدون» في لبنان في الفترة: ٢٢ - ٢٩ إبريل عام ١٩٥٤م بمبادرة من جمعية الأصدقاء الأميركان للشرق الأوسط، وشارك فيه أربعة وسبعون مسلمًا ونصرانيًا من أقطار شتى. وقد حددت الجمعية المذكورة الهدف المعلن من عقد المؤتمر وهو: (بحث النواحي الروحية، والقيم المثلى... وتحقيق أهداف الديانتين الواحدة، ومقاومة الشيوعية، ومكافحة مغرياتها الدنيوية وأغراضها المادية). كما صرح مدير الأبحاث والنشر بالجمعية «إريك ولدمار»: (إن غاية المؤتمر... والعمل على التقارب بين المسيحيين والمسلمين، وتوحيد القوى ضد التيارات التي تحاول النيل من عقائد هاتين الديانتين). وسُئل مدير الأبحاث والنشر في جمعية أصدقاء الشرق الأوسط عن مشكلة الشرق الأوسط المتمثلة في قيام دولة إسرائيل، وتشريد الفلسطينيين قال: (إننا هنا نبحث أمورًا علمية، ولن نتدخل في الأمور السياسية). ومن ثم فقد قوبل المؤتمر برفضٍ واسع النطاق وصدر عن المؤتمر بيان مشترك تضمن خلاصات هذه البحوث، ومنها: (...مجابهة تيارات الإلحاد والمادية التي تتسرب إلى الجماعات والأمم... احترام الإنسان حقوق أخيه التي لا يمكن تغييرها...تدعيم التفاهم والأخوة بين المؤمنين بالديانتين الإسلامية والمسيحية). انظر مرجع النصوص السابقة في: هرطقات فريسية(٨- ٩)، البيانات المسيحية - الإسلامية (١٥). ونحن بدورنا بعد كل هذه السنين العديدة، ندرك خطة الاستدراج، التي كان ينتهجها اليهود والنصارى لتضليل ذلك الجيل عن أسباب النصر والخذلان الحقيقية.

(٣) محمد بهجة البيطار، ولد في دمشق عام (١٣١١هـ - -١٨٩٤م)، وتتلمذ على جمال الدين القاسمي، وبدر الدين الحسني. استبقاه الملك عبد العزيز آل سعود ليشرف على المعهد=

وسوَّغوا له المشاركة، حتى قَبِل بمنصب نائب رئيس الجمعية، ولكنه اكتشف أن منصبه ذاك ليس ذا معنى، ولم يحقق فيه شيئًا للإسلام كما كان يؤمل. وقال لاحقًا: (كنت أدعو إلى هذا التعاون بين المسلمين والمسيحيين)(١).

=العلمي السعودي، ثم دار التوحيد بالطائف، ثم عاد إلى دمشق ليدرس في جامعتها، وانتخب عضوًا بمجمع اللغة العربية بدمشق. وكان سلفي المعتقد. توفي عام (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م) رحمه الله. انظر: ذيل الأعلام (١٦٧ - ١٦٨).

(١) انظر في هذا: الدعاة والدعوة المنطلقة من مساجد دمشق. د. محمد حسن الحمصي (١/ ٥٤٥ - ٥٤٦، ٢/ ٦٤٩).

المبحث الثاني

محاولات الكنيسة الكاثوليكية

يعد المجمع الفاتيكاني الثاني لأساقفة الكنيسة الكاثوليكية (١٩٦٢ - ١٩٦٥م) معلمًا بارزًا في محاولات التقريب بين الأديان. ولم يقف الأمر بمجرد إصدار الدساتير والقرارات والبيانات المجمعية، بل تبعته محاولات عملية لجعل مضامينها موضع التنفيذ، فالثقل الديني والتاريخي الذي تتمتع به الكنيسة في العالم النصراني، إضافة إلى التجديد اللاهوتي لمفهوم الخلاص، يجعلها في المرتبة الأولى في سياق المحاولات المبذولة.

وثم عامل ثالث وهو أن الكنيسة مؤسسة إدارية ذات هياكل وفروع تنظيمية راسخة الجذور، بخلاف الجهات الأخرى التي تفتقر إلى المرجعية الثابتة.

وسوف نحاول التعرف على الجهود المبذولة للتقريب بين الأديان لديها من خلال الحديث عن الجوانب الآتية:

أولًا: أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين، «المجمع البابوي للحوار بين الأديان - لاحقًا».

ثانيًا: المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية.

ثالثًا: الرحلات البابوية.

رابعًا: المؤتمرات والندوات.

- **أولًا: أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين:**

أنشأ البابا بولس السادس هذه «السكرتارية» في عام ١٩٦٤م.

مهام أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين: (... أولًا: تشجيع ونقل الدراسات الجادة للأديان الأخرى لفهم المعتقدات عند غير المسيحيين. ثانيًا: أن تحث المجتمعات المسيحية... لرؤية أهمية الحوار... لإرساء علاقات جيدة وودية مع مؤمني الأديان الأخرى. ثالثًا المشاركة المباشرة في الحوار مع أتباع الأديان الأخرى(١).

رؤساء الأمانة: تعاقب على أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين عددٌ من كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية، معظمهم برتبة «كاردينال»، ومنهم: - الكاردينال باولو ماريلَّلا:

وهو أول رئيس للأمانة من عام ١٩٦٤م حتى عام ١٩٧٣م. وخلال مدَّة رئاسته تم إعداد ونشر دراسات عن الأديان الأخرى(٢).

- الكاردينال سيرجيو بينيدولي: وقد شغل هذا المنصب منذ عام ١٩٧٣م حتى وفاته عام ١٩٨٠م. وتميزت مدَّة رئاسته بحركة دائبة، ونشاط ظاهر من الاتصالات والزيارات والاستضافات، مع المسلمين والبوذيين والهندوس(٣).

- الكاردينال فرانسيس آرينزي: كان يشغل رئيس أساقفة نيجيريا، وقد أبدى نشاطًا منقطع النظير في إقامة العلاقات والاتفاقات مع المسلمين وغيرهم، عبر سلسلة من الرحلات والاستضافات المتتابعة(٤).

---

(١) انظر: Recognize The Spiritual Bonds Which Unite Us. P. ٤٨-٤٩.

(٢) انظر المرجع السابق (٤٩).

(٣) انظر: Recognize The Spritual Bonds. P.٤٩-٥٠.

(٤) انظر: Twenty-Five Years Of Dialogue. P. ٨-١٢.

ومن المعالم البارزة في عهده، طرح إشكالية (الحوار والبشارة)، داخل البيت النصراني، وتبلور الهدف التنصيري من وراء ستار الحوار(١).

وقد أدت هذه الحركة النشطة إلى تغيير اسم الأمانة إلى «المجمع البابوي للحوار بين الأديان»، مما يشعر بالأهمية المتزايدة لهذا المرفق الفاتيكاني(٢).

هذا وينشر المجمع البابوي نشرة فصلية بعنوان {Bulletin} أي النشرة أو البلاغ، باللغتين الإنجليزية والفرنسية. (تنشر دراسات لاهوتية في الحوار الديني بكل جوانبه، وتعكس أخبار اللقاءات، وتُصدي للكتب والمجلات التي تعالج موضوع الحوار)(٣).

وقد دأب المجمع البابوي للحوار بين الأديان منذ حوالي ثلاثين عامًا على توجيه رسائل تهنئة للمسلمين بمناسبة عيد الفطر المبارك تتضمن حديثًا عن موضوع معين. ومن هذه الموضوعات المدرجة في تلك الرسائل:

- (الصداقة بين النصارى والمسلمين) عام ١٩٧٢م. - (صيانة الأبعاد الروحية للحياة الإنسانية) عام ١٩٨٤م. - (التقرب إلى الله معًا في روح الصلاة) عام ١٩٨٧م.- (تقليل التوتر في المجتمعات التعددية) عام ١٩٩٣م. - (التعاون المسيحي الإسلامي لتعزيز نمط الأسرة) عام ١٩٩٤م.

وجميع هذه التهاني موقعة من قبل رئيس الأمانة، أو المجمع، سوى تهنئة عام ١٩٩١م، فقد وجهها البابا يوحنا بولس الثاني إلى المسلمين، بسبب أحداث حرب الخليج(٤).

---

(١) انظر: موقف الكنيسة الكاثوليكية من دعوة التقريب، في الفصل الثالث من الباب الأول.

(٢) Bulletin. ٦٩ (١٩٨٨) p. ١٨٥.

(٣) توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (١٦٢ - ١٦٣).

(٤) انظر: Recognize The Spiritual Bonds.. P. ٥٢-٥٤.

بقي أن نشير إلى حقيقة غريبة؛ وهي أن الحوار مع اليهود لا يندرج في اختصاصات أمانة السر الفاتيكانية، بل يتبع مفوضية خاصة تحمل اسم: المجمع البابوي لتشجيع الوحدة المسيحية.

- **ثانيًا: المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية P.I.S.A.I:**

يعد هذا المعهد من أبرز المؤسسات الكاثوليكية، العلمية، المعنية بالحوار مع المسلمين، إن لم يكن أبرزها فعلًا(١). ويهدف هذا المعهد إلى إعداد النصارى وتأهيلهم للحوار مع المسلمين. ويرجع تاريخ هذا المعهد إلى وقت مبكر في هذا القرن(٢).

ومن أبرز مناشطه العلمية إصدار نشرة شهرية منذ عام ١٩٧٤م، اسمها {Encounter} أي «اللقاء»، ومجلة سنوية شهيرة منذ عام ١٩٧٥م اسمها: {Islamochristiana} أي: دراسات إسلامية مسيحية.

ويمنح المعهد درجتي الليسانس والدكتوراة في الحقول العربية والإسلامية والبابوية، ويضم طلابًا من مختلف الطوائف النصرانية، بل والمسلمين، ويشرف المعهد على الحلقات الدراسية التي تعرف باسم: «الأيام الرومانية» {Journees Romaines} أو «JR اختصارًا. وهي سلسلة من الأيام الدراسية التي تنتظم في الأصل عشرات النصارى الملتزمين الذين يعيشون بين المسلمين، بغرض تعميق فهمهم ووعيهم النصراني تجاه ما يمكن توقعه في علاقاتهم بالمسلمين.

ويتخلل برنامج الأيام الرومانية زيارة للبابا، والمواقع النصرانية المختلفة من كنائس وآثار. ومن الموضوعات التي تم بحثها في هذه المناسبات:

---

(١) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي، ضرورة المغامرة (١٥٣).

(٢) انظر: Recognize The Spirtual Bonds. P. ٤٩-٥٠.

- (من هو عيسى بالنسبة للمسيحيين الذين يعيشون بين المسلمين) عام ١٩٩١م.

- (الأسرة المتغيرة، والحوار المسيحي الإسلامي) عام ١٩٩٣م.

- **ثالثًا: الرحلات البابوية:**

وسوف نسلط الضوء على المبادرات التي قام بها البابا يوحنا بولس الثاني -الذي رُسم في منصبه في أكتوبر عام ١٩٧٨م- في مجال الدعوة إلى التقريب بين الأديان، وعلى الخصوص بين النصرانية والإسلام.

اتضح موقف البابا يوحنا بولس الثاني من قضية الحوار بين الأديان بصفة رسمية، من خلال الخطاب الذي وجهه إلى أمانة السر الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين في أبريل عام ١٩٧٩م. ومما جاء في خطابه: (إن العالم غير المسيحي، في الحقيقة، أمام عيني الكنيسة والبابا دومًا.. إن أمانة السر هي الرمز والتعبير للكنائس التي ترغب في الدخول في اتصال مع كل شخص، وعلى وجه الخصوص مع الجماهير من التقاليد الدينية غير المسيحية، التي تبحث عن معنى وهداية في حياتها... إن أملي ورغبتي أن يتعزز الالتزام بحوار الخلاص من خلال الكنيسة)(١).

وفي اجتماع الأمانة المنعقد في أبريل عام ١٩٨٧م، وصف البابا يوحنا بولس الثاني الحوار مع الآخرين بأنه فريضة على المسيحيين، وأنه لا تعارض بين الإعلان المسيحي والحوار، بل الحوار مشمول بالبشارة، واستشهد بحواراته الشخصية مع الآخرين(٢).

---

(١) Inter-religious Dialogue. The Official Teaching of the Catholice Church (1963-1995) .p. 216 - 217

(٢) انظر: المرجع السابق (٣٧٣ - ٣٧٥).

وفي إبريل عام ١٩٩٠، زعم في أحد خطاباته أن الروح القدس يقود الكنيسة في الحوار لكي يصل ذراع الكنيسة إلى جميع المؤمنين⁽¹⁾.

وفي عام ١٩٩٢م، قال: لا تعارض بين الحوار والإعلان «البشارة»، وذكر فوائد الحوار، ودعا إلى إعداد قادة للحوار وتأهيلهم عن طريق جامعات الكنيسة وكلياتها⁽²⁾.

لقد كانت المتابعة الشخصية، والاهتمام الخاص الذي يبديه البابا يوحنا بولس الثاني بأمانة السر، المجمع البابوي لاحقًا، للحوار بين الأديان، معلمًا بارزًا في سياسته البابوية لتحقيق رسالة الكنيسة وأهدافها⁽³⁾.

أما رحلات البابا يوحنا بولس الثاني فلم يشهد التاريخ البابوي لها مثيلًا كثرة وتخطيطًا وتنوع مقاصد. فقد تجاوز عدد رحلاته مئتين وعشر رحلات، يصاحب ذلك لقاءات متعددة مع أتباع الأديان الأخرى، بهدف التقريب وتعزيز حوار الخلاص - كما يسميه - وحماية مصالح الجماعة النصرانية⁽⁴⁾.

تلك فقط الرحلات البابوية التي تضمنت نوع اتصالٍ بالمسلمين، وأما سائر رحلاته فأضعاف ذلك. وفي خطاباته لممثلي المسلمين أو جماهيرهم في البلدان المزورة، يزجي عبارات التقارب والسلام والتعاون والتعايش، ويدعو إلى الحوار، في الوقت الذي يمارس مهمة «الشهادة» و«البشارة» الكنسية دون مواربة.

---

(١) انظر: المرجع السابق (٤٢٩ - ٤٣٢).

(٢) انظر: المرجع السابق (٤٩٨ - ٥٠١).

(٣) راجع موقف الباب يوحنا بولس الثاني من دعوة التقريب في الفصل الثالث من الباب الأول.

(٤) ذكر المصنف في الأصل مسردًا بلقاءات البابا يوحنا بولس الثاني بممثلي المسلمين في مناطق متعددة من العالم، حتى عام ١٩٩٥م.

وقد أوضح البابا يوحنا بولس الثاني هدفه المزدوج الذي يستصحبه في رحلاته العالمية فقال:

(خلال مدة حبريتي، ظل حرصي الدائم أن أحقق المهمة الحوارية والراعوية للحوار والإعلان معًا... كما أني أكدت كذلك في مناسباتٍ أخرى أهمية إعلان البشارة، والتنصر، وأقمت الكنائس المحلية، ومراسم التعميد الإيمانية المناسبة)⁽¹⁾. أما لقاءات البابا للمسلمين في حاضرة الفاتيكان فلا يتسع لها حصر.

- **رابعًا: المؤتمرات والندوات:**

نقتصر في هذا الموضع على عرض بعض المؤتمرات والندوات التي أخذت فيها الكنيسة الكاثوليكية بزمام المبادرة والدعوة إلى انعقادها، أو كانت شريكًا أساسيًا في ذلك.

* الفاتيكان ومصر «الأزهر.. المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية»:

١. لقاء المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة بأمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين:

في عام ١٣٩٠هـ، الموافق ١٩٧٠م. وقد ترأس الوفد المصري السيد محمد توفيق عويضة، الأمين العام للمجلس، وترأس الجانب الفاتيكاني الكاردينال بول مريللا، رئيس أمانة السر. وقد صدر عن اللقاء بيان مشترك من الطرفين، جاء فيه:

(... أن يبذلا كل الجهود لتعزيز العلاقات الجيدة بين المسيحيين والمسلمين، فتقوى هذه الأخوة القائمة بين مؤمنين يشتركون في احترام كل القيم الدينية

---

(١) Inter- religious Dialogue. The Official Teaching of the Catholic Church (١٩٦٣ – ١٩٩٥) p. ١١٩.

والإيمان بالله. أن يقوما بعمل دؤوب في سبيل العدالة والسلام في العالم. وبهذا الصدد فإنهما يشجبان باسم الإيمان الخاص بكل منهما جميع أنواع التفرقة...)(١). وقد تعهد الطرفان بالاتصال المستمر والتشاور بصورة منتظمة.

٢. مؤتمر «من أجل تفاهم أعمق»:

عقد في القاهرة عام ١٣٩٨هـ، بين وفدٍ كبير «٢٣ عضوًا» من أمانة السر الفاتيكانية وإدارة جامعة الأزهر. وهي المرة الأولى التي يقع فيها اتصال بين الكنيسة الكاثوليكية والأزهر يتمخض عن بيانٍ مشترك، جاء في مقرراته:

- الإيمان بجميع أنبياء الله(٢) والتيقن من أن الله اختارهم من أجل توجيه الناس وتطوير الإنسانية.

- التعاون والتساعد، وخلو الإسلام من التعصب: إن الأخطار التي يتعرض لها الإسلام والمسيحية تتمثل في التيارات المادية التي تنكر وجود الخالق، والبعث يوم الدين.

- يتلخص الجو اللاهوتي في الكنيسة الكاثوليكية تجاه الإسلام بالنقاط الثلاث الآتية:

- يرغب العالم المسيحي في أن تتحسن معرفته بالإسلام، وأن تتحسن معرفة المسلمين بالمسيحية.

- يرغب المسيحيون في أن يعملوا مع إخوتهم في البشرية جمعاء، من أجل العدل وسعادة الجميع.

---

(١) البيانات المسيحية - الإسلامية (٤٣).

(٢) لا يخفى أن هذه الجملة لا تمثل اعترافًا بنبوة نبينا محمد ﷺ من الجانب النصراني، وغاية ما فيها بالنسبة لهم الإيمان بنبوة من ثبتت نبوته عندهم فقط، فهي تحصيل حاصل.

- ثمة قيم مشتركة بين المسيحيين والمسلمين قادرة على أن تحمي المجتمع من الانحراف والإلحاد.

- كما أجمع رأيهم على ضرورة تحرير الإنسان من كل عبودية، عدا عبوديته تجاه الله...

- وعد المشتركون... أن تعلقهم المخلص بقيمهم الدينية الصحيحة يقرب تلقائيًّا بينهم، على طرق المحبة والتعاون...)⁽¹⁾.

يبدو أن ثَمَّ عوامل عدة أثرت على مسيرة الحوار النصراني - الإسلامي مع مصر. فقد تأخر بدء الاتصالات بين الفاتيكان والمؤسسات الدينية في مصر إلى حقبة السبعينيات لأسبابٍ سياسية وفكرية. فقد كانت معظم البلاد العربية في الستينيات، وخاصة مصر، غارقة في بحر الأفكار الشيوعية الإلحادية، وما تفرع عنها من توجهات تقصي النزعات الدينية بشكل عام وتجافيها، كما أن الموقف السياسي الظاهري في الفترة الناصرية، عهد الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٤ - ١٩٧٠م).

وكانت روح التهمة تجاه محاولات التقارب الديني سائدة في المنطقة العربية والإسلامية، كما حدث في مؤتمر بحمدون عام ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

وحين ولت مصر وجهها شطر الغرب في مطلع السبعينيات، ظهرت بواكير الاتصال بين المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وليس الأزهر - وأمانة السر الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين عامي (٣٩٠هـ، ١٣٩٤هـ)، كما أن شيوخ الأزهر لم يبدوا ارتياحًا للمساعي المبذولة للحوار الإسلامي المسيحي، لا سيما

---

(١) البيانات المسيحية - الإسلامية المشتركة (١٢١ - ١٢٣).

الشيخ عبد الحليم محمود(١) رحمه الله، الذي شغل مشيخة الأزهر في أواسط السبعينيات (١٩٧٣م - ١٩٧٤م)، وأبدى تحفظاتٍ عدة تجاه المشاركة في مؤتمرات التقريب بين الإسلام والمسيحية.

وفي آخر عهد الشيخ عبد الحليم محمود طلب الفاتيكان إجراء حوار مباشر مع الأزهر، (وكره الشيخ عبد الحليم محمود، عليه رحمة الله، هذا اللقاء، وتردد كثيرًا في الأمر، وأخذت الاتصالات بالأزهر تترى من جهات عديدة، واضطر الشيخ عبد الحليم أن يستقبل مونسنيور جادو والوفد المرافق له، وأن يعقد الأزهر مع هذا الوفد حوارًا في يومين، على أربع جلساتٍ)(٢).

والمتأمل في مقررات لقاء الأزهر بالفاتيكان عام (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) يلمس فيه - خلافًا لسابقَيه - أثر محاولاتٍ إسلامية لتحقيق مكاسب عقدية، تقترب من النداء القرآني الصريح في سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فقد وردت الجمل الآتية في البيان المشترك: (ضرورة تحرير الإنسان من كل عبودية، عدا عبوديته تجاه الله)، (الإيمان بجميع أنبياء الله)، ولكنها لم ترتقِ إلى المستوى المطلوب صراحةً ووضوحًا.

---

(١) عبد الحليم محمود (١٣٢٨ - ١٣٩٨هـ) شيخ الأزهر، وأحد علماء مصر المكثرين من التصنيف، ذو نزعة صوفية، سافر إلى فرنسا سنة ١٩٣٢م لدراسة الدكتوراه فنالها سنة ١٩٤٠م، في التصوف. ودرس في جامعة السربون علم النفس والاجتماع والأديان. وعين وكيلًا للأزهر عام ١٩٦٨م، فوزيرًا للأوقاف عام ١٩٧١م. وانتهى به المطاف شيخًا للأزهر عام ١٩٧٣م. حتى وفاته. انظر: ذيل الأعلام (١١٥)، وتتمة الأعلام (١/ ٢٧٠).

(٢) رسالة إلى البابا والفاتيكان ذي الألف وجه: د. عبد الودود شلبي. المختار الإسلامي. القاهرة. (١٥). وانظر العلاقات الإسلامية المسيحية. قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٨٢ - ٨٣).

وقد توفي الشيخ عبد الحليم محمود في العام نفسه، (وحين توفي تحدثت عنه بعض الصحف الأوروبية، وعدته متعصبًا ضد المسيحية، لأنه أبى أن يشترك في ندوات تدعو إلى تعاون المسيحية والإسلام)(١).

* ندوة «حقوق الإنسان في الإسلام والمسيحية»:

عقدت هذه الندوة التاريخية في حاضرة الفاتيكان في التاسع من شهر شوال عام ١٣٩٤هـ، الموافق ١٩٧٤م، في أثناء الزيارة التي قام بها تسعة من علماء المملكة العربية السعودية، على رأسهم وزير العدل حينذاك الشيخ محمد الحركان(٢) رحمه الله، استجابة لدعوة من الفاتيكان لعقد هذه الندوة فيه.

والواقع أن هذه الندوة حلقة من سلسلة ندوات تمت بين فريقٍ من علماء المملكة، وآخرين من كبار رجال الفكر والقانون الأوروبيين، بمبادرة ومسعى من جمعية الصداقة الفرنسية السعودية، في باريس، بغية تعميق مفاهيمهم فيما يتعلق بحقوق الإنسان في الإسلام، والوقوف على النظام القضائي الإسلامي المعمول به في المملكة العربية السعودية، في الشؤون المدنية والجزائية والأحوال الشخصية، المبنية على القرآن الكريم، وكيفية ملاءمتها للعصر الحديث)(٣).

وقد عقدت الندوة الأولى في «الرياض» في السابع من شهر صفر عام ١٣٩٢هـ، الموافق الثاني والعشرين من مارس عام ١٩٧٢م. وقد أعرب الوفد

---

(١) تتمة الأعلام للزركلي. محمد خير رمضان يوسف (١/ ٢٧١).

(٢) محمد بن علي الحركان (١٣٣٣ - ١٤٠٣هـ) أمين عام رابطة العالم الإسلامي. تقلب في مناصب قضائية حتى صار وزيرًا للعدل عام ١٣٩٠هـ حتى عام ١٣٩٦هـ، حيث إنتخب أمينًا عامًا للرابطة. انظر: تتمة الأعلام (٢/ ١٢).

(٣) انظر: ندوات علمية «حقوق الإنسان في الإسلام» في التعريف بهذه الندوات والمشاركين فيها من الجانبين (٥ - ٩).

الحقوقي الأوروبي، عن إعجابه ودهشته لما سمع من حقائق عن الشريعة الإسلامية، وللأجوبة الصريحة التي أجاب بها العلماء عن بعض الشبهات التي أبداها الوفد بغرض الاستيضاح، حتى طالب رئيس الوفد الأوروبي سين ماك برايد(١) (العلماء المسلمين أن يعلنوا هذه الحقائق المجهولة عند الرأي العام العالمي، والتي كان الجهل بها سببًا لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين والحكم الإسلامي)(٢).

وبناءً على هذا الاقتراح، وجهت الدعوة للوفد السعودي لإقامة أمثالها في عددٍ من البلدان الأوروبية، وفي هذا السياق جاءت ندوة الفاتيكان، وقد تحدث العلماء عن «حقوق الإنسان الثقافية في الإسلام»، وقدم الجانب الفاتيكاني ثلاثة موضوعات(٣)، ولم يصدر عن أي من هذه الندوات قرارات أو توصيات، إذ كانت أقرب إلى الطرح العلمي منها إلى الحوار الإسلامي النصراني، على النحو المتبع في مؤتمرات التقارب(٤). وقد التقى البابا بولس السادس وفد العلماء(٥).

* الفاتيكان وليبيا «جمعية الدعوة الإسلامية العالمية»:

١ . ندوة الحوار الإسلامي المسيحي – طرابلس:

تعد هذه الندوة التاريخية من كبريات الندوات المعقودة في مجال الحوار الإسلامي النصراني، من حيث عدد المشاركين، ونوعيتهم، وحجم البيان

---

(١) شغل المذكور مناصب هامة منها: وزير خارجية إيرلندة، ورئيس اتحاد المجلس الأوروبي، وسكرتير اللجنة التشريعية الدولية، بالإضافة إلى كونه أستاذًا في جامعة دبلن.

(٢) ندوات علمية (٢٦).

(٣) انظر: Dialogue Between Christians and Muslims (١/ ٢٦).

(٤) راجع الأصل.

(٥) ينظر الأصل و Recognize The Spiritual Bonds. P.١١ .

الختامي، وتعدد جوانبه، ثم الآثار الفكرية والإعلامية التي احتفت بها وتلتها.

وقد انعقدت فعاليات هذه الندوة في طرابلس الليبية، في عام ١٣٩٦هـ، الموافق ١٩٧٦م، وذلك بمبادرة مشتركة من دولتين:

١ - الجمهورية العربية الليبية (الاتحاد الاشتراكي العربي الليبي).

٢ - دولة الفاتيكان.

وقد حضر الندوة أربعمئة وخمسة وثمانون مشاركًا من اثنتين وسبعين دولة⁽¹⁾ من علماء الدين الإسلامي، ورجال الدين النصراني؛ من الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس، ومن رجال الفكر والسياسة والصحافة والإعلام.

وقد صدر عن الندوة بيان مشتركٌ مطول، نقتطف من بنوده الفقرات الآتية:

(١ - يؤكد الجانبان إيمانهما بالله الواحد الأحد، ويوصيان بالعمل الدائب صفًّا واحدًا، وجبهة واحدة، من أجل تعميق القيم الدينية والأخلاقية في النفوس.

٢ - يكرم الجانبان جميع الأنبياء والرسل في الديانات السماوية كلها، ويستنكران التعرض بالمساءة لهم، والتجرؤ على مقامهم، لأن في ذلك اعتراضًا على إرادة الله الذي أرسلهم...

٨ - يؤكد الجانبان وجوب حرية الاعتقاد الديني، وإقامة الشعائر الدينية، وحق الأسرة في تنشئة أبنائها تنشئة دينية...

١٢ - إن كلا الجانبين يشجع على ترجمة الكتب السماوية إلى جميع اللغات...

---

(١) انظر مسردًا بأسماء المشاركين وبلدانهم في الكتاب الوثائقي الصادر عن المكتب الشعبي للاتصال الخارجي في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية بعنوان: «بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي» (٢١ - ٤٨).

١٣ - يتمنى الجانب المسيحي على الجانب الإسلامي أن يواصل الأبحاث التاريخية والتفسيرية الرصينة المتعلقة «بتقييم» الكتاب المقدس «تقييمًا» علميًّا صحيحًا...

١٥ - يوصي الطرفان بضرورة العمل المشترك لتتبع ما ورد من أغلاط ومفتريات في المناهج والكتب الدراسية، وفي كتب بعض المستشرقين والعلماء حول معتقدات كل طرف، وذلك بغية تصحيحها وفق معتقدات أصحابها. وقد تقبل الجانب الإسلامي بالتقدير مبادرة الجانب المسيحي بالوعد باستشارة العلماء المسلمين في كل ما يكتب عن الإسلام في المدارس التابعة له...

١٧ - وفي سبيل التعاون الحقيقي بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي، يوصي الفريقان بالكف عن المحاولات الرامية إلى صرف المسلمين عن معتقداتهم من قبل المسيحيين أو صرف المسيحيين عن معتقداتهم من قبل المسلمين)[١].

تلك أبرز التوصيات المتعلقة بالجانب العقدي، من الناحيتين النظرية والعملية. وعند الفحص والتأمل نستنتج ما يأتي:

أولًا: اتسمت صياغة البندين الأول والثاني بالعموم، ونأت عن المساس بجوانب الاختلاف العقدي الرئيسة. فالإيمان بالله الواحد الأوحد لا يتعارض في المفهوم النصراني مع عقيدة التثليث: «الأب والابن وروح القدس إله واحد»! وليست بصراحة كلمة التوحيد الإسلامية: «لا إله إلا الله»، المتضمنة إثبات الألوهية لله ونفي الشريك عنه. ومن ثَمَّ فالجملة المقَرَّة في البيان يفسرها كل طرف حسب معتقده الخاص، كما أن الجملة المتعلقة بالأنبياء في البند الثاني:

---

(١) بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي - طرابلس: إعداد ونشر: المكتب الشعبي للاتصال الخارجي في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية. تنفيذ: المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان والمطابع. طرابلس - ليبيا. (١٤٦ - ١٤٨).

(يكرم الجانبان جميع الأنبياء والرسل في الديانات السماوية كلها) لا ترتقي إلى درجة الاعتراف الصريح بنبوة محمد ﷺ من قبل الجانب النصراني، وإن كان بعض النصارى يعده (مرحلة متقدمة ومدهشة في العلاقات الإسلامية - المسيحية)(١). وغاية ما فيها تكريم كل جانب لمن يعتقده الجانب الآخر نبيًّا أو رسولًا فحسب، وهو أمر مفروغ منه بالنسبة للمسلمين، إذ يكرمون جميع أنبياء الله ورسله بوصفهم أنبياء ورسل في اعتقادهم الخاص، بل هو ركن من أركان إيمانهم، في حين يظهر الجانب النصراني إكرامهم، دون النص على نبينا محمد ﷺ، مع أنه محل الخلاف الوحيد في هذه المسألة، بوصفه نبيًّا في اعتقاد الجانب الإسلامي فقط. وأي إكرام يا ترى يتصور صدوره ممن كذَّب نبوته، واتهمه ضمنًا بالتقول على ربِّ العالمين.

وقد تعرض الوفد النصراني لضغوط عدة من قبل المسلمين لحمله على الاعتراف الصريح بنبوة نبينا محمد ﷺ، لا سيما في كلمة رئيس الجمهورية... حيث حمل عليهم حملة صريحة لعدم اعترافهم بنبوة محمد ﷺ، مع وجود البشارة به في كتبهم، وأن الأناجيل حُرفت، وشَطَبت - على حد تعبيره - الآيات الدالة على اسمه ونبوته وأنه خاتم النبيين، وخلص إلى القول: (نقول لأهل الكتاب: هل يستمر نكران نبوة محمد، وطبعًا هذا خطأ في حق الله سبحانه وتعالى، وجهل كبير من قبل الناكرين لنبوة محمد)(٢).

ورغم أنه تملقهم ببعض التنازلات العقدية الخطيرة، كادعاء أن القرآن لا يعد اليهود والنصارى كفارًا، وأن القرآن لا يقر جهاد أهل الكتاب، إلا أن القوم لم يقبلوا الرشوة، ولم يحيدوا عن معتقدهم قيد أنملة، ولم يستجيبوا أيضًا لدعوة رئيس الوفد الإسلامي في جلسة الافتتاح إلى (تَعَرُّف المسيحيين على حقيقة نبوة

---

(١) البيانات المسيحية - الإسلامية (٩٤).

(٢) بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي (٧٤).

محمد عليه السلام، الذي بشر المسيح برسالته، ضمانًا فعالًا لانطلاق حقيقي في التعاون الإسلامي المسيحي)(١)، في الوقت الذي سطر الجانب النصراني في مقررات الندوة أمنيتهم على الجانب الإسلامي بمواصلة الأبحاث التاريخية والتفسيرية «الرصينة»، وتقويم الأناجيل تقويمًا «علميًّا» و«صحيحًا»، كما في البند رقم (١٣)، في لمزٍ لدعاوى المسلمين تحريف الأناجيل.

وفي مجال الحريات الدينية في الاعتقاد وممارسة الشعائر، كما في البندين ٨ و١٢، سرعان ما يقطف النصارى ثمرة هذا البيان المشترك، ففي ديسمبر من العام التالي ١٩٧٧م افتتح المونسنيور روسانو والأب أبو مخ كنيسة كاثوليكية في مدينة بنغازي الليبية.

وقد تضمن البيان الختامي بندين تحفَّظ عليهما الوفد النصراني، رغم تلاوة البيان النهائي، وانتهاء الجلسة الختامية. ثم صدر بيان مشترك أعلن في روما وطرابلس يوم ٨ صفر ١٣٩٦هـ، ٧ فبراير ١٩٧٦م - أي بعد انتهاء الندوة بيومين - هذا نصه: (يؤكد الجانبان اغتباطهما بالطابع الإيجابي لنتائج هذا الحوار التاريخي المعبر عنهما في البيان النهائي المشترك. أما في ما يتعلق بالبندين: (٢٠، ٢١) من البيان المشترك، فإن البعثة المسيحية ستنقل مضمونهما إلى سلطات الكرسي الرسولي المؤهلة وحدها في بت مسائل من هذا النوع)(٢). والبندان المشار إليهما هما:

(٢٠ - إن الجانبين ينظران إلى الأديان السماوية نظرة احترام. وعلى هذا فإنهما يفرقان بين اليهودية والصهيونية، باعتبار الصهيونية حركة عنصرية عدوانية أجنبية عن فلسطين، وعن كل منطقة الشرق.

---

(١) المرجع السابق (٥٤).

(٢) بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي (١٥١) «الحاشية».

٢١ - إن التزام الحق والعدل، والحرص على السلام، والإيمان بحق الشعوب في تقرير مصيرها، يحمل كلا الجانبين على تأكيد الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، وحقه في العودة إلى دياره، وعلى تأكيد عروبة مدينة القدس، ورفض مشروعات التهويد والتقسيم والتدويل، واستنكار كل مساس بحرمة الأماكن المقدسة...)⁽¹⁾.

ورغم أن المطالب المذكورة في البندين مطالب عادلة، بل أقل من مقتضى العدل، ورغم أن قرارات الأمم المتحدة تنص عليها، وتحظى بتأييدٍ عالمي في تلك الحقبة، فإن (سلطات الكرسي الرسولي امتنعت عن التصديق على هذين البندين)⁽²⁾! لتضمنهما إشارات سلبية إلى الصهيونية، ومن ثم فلم يعد الفاتيكان اللقاء ناجحًا تمامًا⁽³⁾.

وبعد هذه الجولة، انقطعت العلاقات بين الجانبين لمدة عشر سنواتٍ تقريبًا. ويبدو أن هذه الندوة الحافلة وضعت الكنيسة الكاثوليكية في تجربة حقيقية صعبة، تجاوزت حدود المجاملات⁽⁴⁾.

ولم تعد المياه إلى مجاريها بين الجانبين إلا في شعبان ١٤٠٩هـ، مارس ١٩٨٩م، بسلسلة من اللقاءات⁽⁵⁾.

*** الفاتيكان وتركيا «جامعة أنقرة»:**

بعد اثنتي عشرة سنة من زيارة البابا بولس السادس لتركيا «يوليو ١٩٦٧م»، قام البابا يوحنا بولس الثاني بزيارة مماثلة بعد أكثر من سنة من سيامته بابا للكنيسة

---

(١) المرجع السابق (١٤٩ - ١٥٠).

(٢) المرجع السابق (١٥١) «حاشية».

(٣) انظر: Recognize The Spirtual Bonds. p.١٠.

(٤) Twenty-Five Years of Dialogue p.٣.

(٥) ينظر الأصل.

الكاثوليكية، وذلك في نوفمبر ١٩٧٩م. وهي أول بلدٍ إسلامي يزوره البابا الحالي، إلا أنها لم تكن زيارة مشجعة⁽¹⁾.

وظلت العلاقات فاترة، حتى قام الكاردينال فرانسيس آرينزي بزيارة لتركيا في مايو ١٩٨٧م، والتقى ببعض الزعامات الإسلامية، وألقى محاضرة في جامعة أنقرة. وقد أدى ذلك إلى توقيع اتفاقية «أكاديمية» بين جامعة أنقرة، والجامعة الجريجورية الفاتيكانية عام ١٩٨٨م، يتم بموجبها تبادل الأساتذة والطلاب، وتنظيم ملتقيات علمية بين الجانبين⁽²⁾.

* الفاتيكان والأردن «مؤسسة آل البيت»:

تأخرت الاتصالات الثنائية بين الفاتيكان والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن «مؤسسة آل البيت»⁽³⁾ إلى أواخر الثمانينيات. ولكنها بدأت بداية نشطة بسلسلةٍ متتابعة من اللقاءات ذات الموضوعات المتخصصة، تعقد بالتناوب بين روما وعمَّان⁽⁴⁾.

* مؤتمرات إقليمية:

عمد المجمع البابوي للحوار بين الأديان إلى تنظيم لقاءاتٍ إقليمية للحوار بين المسلمين والنصارى في مناطق معينة من العالم تجمعها خصائص مشتركة، وحتى يصبح المشاركون نواة فرقة لتفعيل الحوار في بلدانهم، فمن ذلك:

---

(١) ينظر: مجلة (٣٠ يومًا) عدد ٢ - ١٩٧٧م للكاتب: ماركو بوليتي (١٤).

(٢) ينظر أبرزها في الأصل.

(٣) يأتي التعريف بالمجمع في موضعه من هذا الباب.

(٤) ينظر الأصل.

مؤتمر «مؤمنون يسيرون ويعملون معًا» لمنطقة شمال إفريقيا:

عقد هذا المؤتمر في بلدة أسيزي الإيطالية في أكتوبر عام ١٩٨٨م، وضم وفودًا من ست دولٍ من شمال إفريقيا، كلها عربية، وهي: موريتانيا، والمغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر. ثم التقوا البابا يوحنا بولس الثاني، الذي دعاهم إلى إشاعة السلام والتعاون بين المسلمين والنصارى في بلدانهم(١).

مؤتمر «التعاون في التنمية الإنسانية» لمنطقة غرب إفريقيا (نيجيريا، وغانا، وغامبيا، وسيراليون):

عقد هذا المؤتمر في مدينة «إبادان» النيجيرية في ١٤١٢هـ، الموافق ١٩٩١م، بمبادرة من المجمع البابوي للحوار بين الأديان.

وقد تضمن البيان الختامي توصية(٢) بـ(توعية المسيحيين والمسلمين كي لا يعدوا مؤمني الديانة الأخرى كأنهم كفار، بل يعاملونهم بكل احترام)(٣).

- **نقد وتحليل:**

لقد مرت محاولات الكنيسة للتقريب بين الأديان بمراحل موازية لتلك المراحل التي اعترت نظرتها إلى فلسفة التقريب وحقيقته، التي سبق الكشف عنها في الباب الأول، فكانت المحاولات العملية انعكاسًا صادقًا للأسس النظرية:

١. المرحلة الأولى: التي امتدت من عام ١٩٦٥م، حتى عام ١٩٧٨م، من الناحية الموضوعية، كانت الشعارات المعلنة في تلك الحقبة: الدعوة إلى تعاون

---

(١) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. p. ٥١.

(٢) تنظر بقية التوصيات في الأصل.

(٣) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (١٧٧).

العالمين الإسلامي والنصراني على محاربة الإلحاد «الشيوعية الغازية»، والتحلل الخلقي، إضافة إلى المناداة بالتعرف على الآخر، ونبذ الأحكام السابقة، والتخلص من عبء التاريخ، والمصالحة، ونحو هذه المعاني.

وأبرز مؤتمر جرى في تلك الحقبة مؤتمر طرابلس عام ١٩٧٦م، الذي تعلمت منه الكنيسة الكاثوليكية درسًا مهمًّا، وعته في جميع المحاولات والمشاركات اللاحقة: تجنب البحث في المسائل العقدية والسياسية.

٢. المرحلة الثانية: في المدَّة (١٩٨٠ - ١٩٨٤م). وقد اتسمت بتراجع المحاولات والمبادرات الفاتيكانية تجاه عملية التقريب، مكتفيةً بالمحاولات المحلية والإقليمية، دون أن يظهر الفاتيكان طرفًا في الحوار، نتيجة لما حصل من صراع وخلافٍ بين أجنحة الكنيسة تجاه قضية التقارب والحوار، وتنامي الاتجاه المضاد في إثر وفاة البابا بولس السادس.

٣. المرحلة الثالثة: وتقترن بتنصيب البابا يوحنا بولس الثاني كاردينالًا من أصلٍ إفريقي - نيجيري - هو الكاردينال فرانسيس آرينزي عام ١٩٨٤م، في إثر جولته في بلدان إسلامية في إفريقيا حيث لمس البابا بنفسه بوادر الصحوة الإسلامية التي ظهرت في مطلع الثمانينيات الميلادية، رأس القرن الهجري، وتوجس أن تتيح نصوص المجمع الفاتيكاني الثاني دعمًا لانتشار الصحوة الإسلامية في أوساطٍ نصرانية، على حساب التنصير.

وقد اتسمت محاولات الكنيسة من الناحية العملية في هذه المرحلة بما يأتي:

١. الرحلات البابوية المتتابعة إلى مختلف مناطق العالم.

٢. دعوة القيادات الدينية في العالم إلى إيطاليا، باسم الصلاة من أجل السلام، التي انطلقت عام ١٩٨٦م من أسيزي، فتظهر الكنيسة الكاثوليكية بصورة الديانة الأم.

٣. الحضور الفاعل في الأحداث الدولية ذات الصلة، من خلال جمعيات وسيطة «جمعية سانت إيجيديو» بما يرفع الحرج عن الكنيسة، ويُبقي لها دورًا مؤثرًا في مناطق التوتر، بما يحقق لها مكاسب تنصيرية.

٤. عقد مؤتمرات حوار ثنائية مع مؤسسات في العالم العربي، وإقامة مؤتمراتٍ إقليمية في كلٍّ من إفريقيا وآسيا.

أما من الناحية الموضوعية، فإضافة إلى الجمل الثابتة التي دأبت الكنيسة على تردادها، برزت اهتمامات أخرى مثل: - التأكيد على الحريات الدينية، والعدالة الاجتماعية. - قضية «الرسالة التبشيرية» و«الدعوة الإسلامية». - التعايش بين الأديان، ونشر روح التسامح والسلام. - العناية بالمسائل الاجتماعية كالمرأة، والطفل، والنزعة القومية. - إبراز الجوانب الصوفية لدى الجانبين، من خلال الأولياء والقديسين.

كما شهدت حقبة التسعينيات تقاربًا مع «إسرائيل»، واعترافًا بها، وحديثًا عن «القدس» بصورةٍ أكثر وضوحًا من ذي قبل، حول أحقية الجميع بها، خلافًا لما سبق في السبعينيات حين كان يكتفى بتمني حلول السلام على المدينة المقدسة.

المبحث الثالث

محاولات مجلس الكنائس العالمي

تكاد تنحصر محاولات مجلس الكنائس العالمي للتقريب بين الأديان بعقد المؤتمرات المتتابعة في مناطق عدة من العالم. وقد أنشأ المجلس لهذا الغرض وحدة فرعية تحمل اسم: «لجنة الحوار مع أصحاب العقائد والمثل الحية» عام ١٩٦٩م، وترتبط ببرنامج الوحدة الأولى في المجلس المعروفة باسم: «الإيمان والشهادة».

وسوف نسوق فيما يأتي مسردًا بأهم المؤتمرات التي تبنى المجلس الدعوة إليها، أو كان شريكًا أساسيًّا في ذلك، مع التعريف بكل مؤتمر، والتقاط بعض الفقرات المهمة الواردة في البيانات الختامية لتلك المؤتمرات.

- **المؤتمر «الإسلامي المسيحي الاستشاري»:**

عقد هذا المؤتمر في كارتيني «جنيف - سويسرا) في ١٣٨٨هـ، الموافق ١٩٦٩م. شارك فيه اثنان وعشرون شخصًا من الجانبين.

وقد صدر عن اللقاء بيان مشترك، بَرَّر ضرورة الحوار والتوسع فيه، وهدفه، ومهامه. ومما جاء فيه ما يأتي:

- (غاية الحوار الأولى هي حمل الديانتين على تأمين الاحترام المتبادل، وتعزيز التفاهم...)(١).

ولتحقيق الغاية الأولى يقرر البيان الواجبات الآتية:

---

(١) البيانات المسيحية - الإسلامية (٣٧).

(أ - أن يسعى كل جانب ليفهم الآخر كما يفهم ذاته.

ب - أن تؤدي الشهادة للحقيقة في جو احترام الآخر وحريته.

ج - أن يتجنب الحوار كل تشويه لديانة الآخر، ويحاربه.

د - أن يتم النقاش بطريقة يسهم فيها كل جانب في التعلم من الآخر، على الصعيدين الفكري والروحي)(١).

لقد تلاقى هذا المؤتمر مع التوجه السائد لدى الكنيسة الكاثوليكية في مفهوم الحوار وأهدافه في تلك الحقبة، أنه لا يرمي إلى «التوفيقية» بل يشدد على التغاير، ويدعو إلى الفهم المتبادل والاحترام المتبادل.

- **مؤتمر «تحقيق التفاهم والتعاون الإنساني»:**

عُقِد هذا المؤتمر الإسلامي النصراني في «برُمانا» قرب بيروت «لبنان»، في عام ١٣٩٢هـ، الموافق ١٩٧٢م. وقد بلغ عدد المشاركين ثمانية وأربعين؛ خمسةً وعشرين نصرانيًّا، وثلاثة وعشرين مسلمًا. وقد صدر عن المؤتمر بيان مشترك مطول(٢).

ومن قراءة نصوص البيان تبرز الاستنتاجات الآتية:

١. التأكيد علىٰ الصفة الشخصية للمشاركين في اللقاء، والتنصل من الصفة التمثيلية والرسمية، وعدم التزام جميع المشاركين بمضامين البيان. وهذا الاتجاه يعبر بوضوح عن روح الحذر والتردد الذي يساور محاولات مجلس الكنائس العالمي تجاه الحوار والتقارب، وذلك

---

(١) المرجع السابق (٣٨).

(٢) ينظر: البيانات المسيحية - الإسلامية (٤٧ - ٥٣).

لتأمين خطة الرجعة. وحفاظًا علىٰ هذا الاتجاه فضلت الوحدة الفرعية للحوار مع أصحاب العقائد والمثل الحية الحوار مع الأفراد المسلمين، وغيرهم، بصفتهم الشخصية، ونأت عن محاورة الجهات الدينية الرسمية ذات الصفة المرجعية، حتىٰ لا تجد نفسها مسوقة لتوقيع اتفاقية ثابتة، أو إعلانٍ يتضمن التزامًا أدبيًّا، قد لا يقع موقع القبول من فسيفساء الكنائس المكونة للمجلس العالمي في جنيف، خلافًا لأسلوب أمانة السر الفاتيكانية التي تتعامل غالبًا مع الهيئات الدينية، وتبرم الاتفاقيات والبيانات بثقة.

٢. ينبئ البيان عن وقوع حوار ساخن وصريح في المسائل العقدية العميقة وعدم الاكتفاء (بجامع مشترك صغير). وسر ذلك - في نظري - أن الحركة المسكونية أصدق لهجة، وأقل مجاملة من الكنيسة الكاثوليكية، وتحاول أن تقفز بسرعة فوق جدران الحوار للوصول إلىٰ البشارة والشهادة النصرانية.

٣. أقر البيان بالصفة «الرسولية» للديانتين، لكنه ندد بمحاولات الجذب والاقتناص بأسلوب الضغط أو استغلال الضعف.

٤. سوَّغ البيان بحذر بالغ، واحترازات متكررة، إمكانية القيام بصلاة مشتركة.

إن هذا المؤتمر محطة مهمة في فهم موقف مجلس الكنائس العالمي من قضية التقريب(١).

---

(١) انظر حقيقة التقريب عند مجلس الكنائس العالمي في الفصل الثالث من الباب الأول.

• مؤتمر «وحدانية الله، والجماعة الإنسانية بين المسلمين والمسيحيين الأفارقة على صعيد العمل والشهادة»:

عُقد هذا اللقاء الإسلامي النصراني في مدينة «لاغون» في غانا، في عام ١٣٩٤هـ، الموافق ١٩٧٤م، بمشاركة قسم الأبحاث الدينية في جامعة غانا، و«المشروع الإسلامي في إفريقيا» التابع لكنائس إفريقيا الإنجيلية. وتكون المؤتمر من تسعة مسلمين، وأحد عشر نصرانيًّا، قدموا من ثمانية بلدان إفريقية، إضافة إلى حضور من بلدانٍ إفريقية وغير إفريقية[١].

وقد وصف البيان المشترك هذا اللقاء بأنه (الأول من نوعه. إذ تم على مستوى منطقة إفريقيا العام)[٢]. كما رافقه بعض الممارسات الغريبة التي تعد سابقة في تاريخ العلاقة بين أتباع الديانتين منها:

- مشاركة النصارى المسلمين في صلاة الجمعة!
- حضور المسلمين صلاة الأحد مع النصارى!

كما حدد البيان الأسس المشتركة بين الديانتين، المسوغة للتلاقي والتعاون بقوله: (... كلا المجموعتين، من خلال اعتقادهما بإلهٍ واحدٍ، وعبادتهما له تشاركان في «التقليد التوحيدي». وهما تعترفان بعدة نقاط متلاقية في اللاهوت والروحانية، بما فيها احترام يسوع «عيسى». ولذلك فالمنتمون إلى الديانتين لديهم أسباب وأسس للاعتراف والاحترام المتبادل والتعاون. وهم متحدون في تقديرهم للقيم الدينية والأخلاقية...)[٣].

---

(١) البيانات المسيحية - الإسلامية (٥٦ - ٥٧).

(٢) المرجع السابق (٥٧).

(٣) المرجع السابق (٥٧ - ٥٨).

وقد ركز البيان على معالجة الأوضاع الواقعية، ويتضح هذا الملحظ بالشواهد الآتية من البيان الختامي:

- (على المسيحيين أن يتقاسموا مع جيرانهم المسلمين الإمكانات والتسهيلات التي يستطيعون الاضطلاع بها في حقول التربية والاجتماع والتنمية الاقتصادية.

- علينا أن ننمي روح الضيافة... خاصة تجاه «الغرباء»...

- كل هذا يجعل المسلمين والمسيحيين يتخطون الانطواء على جماعتهم ومصالحهم، ليلتقوا بروحية المشاركة والتعاون. وانطلاقًا من ذلك يمكن أن يخطوا معًا خطواتٍ عملية متعددة:

الخطوة الأولى: يمكن إقامة صلوات مشتركة من أجل تطور المجتمع ككل.

الخطوة الثانية: يمكن تبادل التهاني لمناسبة الأعياد الدينية كرمضان، وعيدي الفطر والأضحى، وأعياد الميلاد والفصح والعنصرة، يعبَّر فيها عن معاني هذه الأعياد...

- إن التعليم الديني في المدارس يجب ألا يقتصر على ديانةٍ واحدة، بل أن يشمل الديانتين...

- حتى إذا كانت المدرسة لا تضم إلا تلاميذ من ديانة واحدة، يجب أن يثقف هؤلاء التلاميذ حول الديانة الأخرى...)(١).

إن الجانب الاجتماعي يطغى على توصيات البيان، حيث تمليه المواجهات اليومية، والتنافس بين الدعوة والتنصير. وكأن هاجس المحاور المسلم في هذا

---

(١) البيانات المسيحية - الإسلامية (٥٨ - ٦١).

المؤتمر إدانة عمليات التنصير التي كانت تجري على قدم وساق في تلك الحقبة، مستغلةً التخلف الاجتماعي في المجالات التربوية التعليمية والصحية والسياسية لدى المسلمين. وكأن هاجس المحاور النصراني محاولة إزالة الشعور بالنبذ والغربة، والسعي لتحقيق الندية في مجتمعات غالبية سكانها من المسلمين، ليتمكن من تنفيذ برامجه المختلفة، وتأنيس وجوده، إلى درجة المطالبة بتدريس ديانته في المدارس التي لا تضم سوى تلاميذ مسلمين كما هو الغالب، والعكس نادر.

- **مؤتمر «المسلمون والمسيحيون في المجتمع: لأجل الإرادة الحسنة، والتشاور والعمل معًا في جنوب شرق آسيا»:**

عُقد هذا المؤتمر الثنائي في «هونغ كونغ»، في ١٣٩٤هـ، الموافق ١٩٧٥م، برعاية مجلس الكنائس العالمي، ولجنة الحوار الإسلامي المسيحي لجنوب شرق آسيا، والمؤتمر المسيحي في آسيا. وقد ضم اللقاء ثلاثة عشر مسلمًا، وثلاثة وعشرين نصرانيًّا، وفدوا من دول جنوب شرق آسيا: إندونيسيا، وماليزيا، وسنغافورة، والفلبين(١).

وهذا اللقاء الإقليمي لمنطقة جنوب شرق آسيا أصدر البيان المشترك بالتأكيد أنه لا (يتكلم باسم أي منظمة أو جماعة دينية). وهو ملحظ يتكرر في المناشط التي يرعاها مجلس الكنائس العالمي.

وتطرق لجوانب متعددة في العلاقة بين الديانتين وأتباعهما من النواحي العقدية والتاريخية والاجتماعية(٢).

---

(١) Dialogue Between christians and Muslims (١/ ٢٧).

(٢) ينظر: الأصل، والبيانات المسيحية - الإسلامية (٧٥، ٧٧).

- **مؤتمر «التبشير، والدعوة الإسلامية»:**

عقد هذا المؤتمر في «شامبيزي» في سويسرا، بمشاركة ثلاث جهات:

١ - مجلس الكنائس العالمي «لجنة الرسالة والبشارة».

٢ - المؤسسة الإسلامية في «ليستر» بريطانيا.

٣ - مركز الدراسات الإسلامية، والعلاقات الإسلامية المسيحية في جامعة سلي أوك -برمنجهام- في عام ١٣٩٦هـ، الموافق ١٩٧٦م(١). وقد شارك في هذا المؤتمر أربعة من المسلمين المقيمين في بلاد الغرب، وتسعة نصارى.

وكانت قضية «الحريات الدينية» محور الاتفاق بين الطرفين. ونتيجة لذلك قدم كل طرف «اعترافًا وأسفًا» للطرف الآخر؛ فمن الجانب الإسلامي: (عبر المشتركون في اللقاء عن الأسف، عند اطلاعهم على حالة المسيحيين في بعض البلدان الإسلامية، حيث ثمة حدود لحريتهم الدينية، إذ منعوا من حق تشييد أمكنة عبادتهم: فالمسلمون المشاركون في اللقاء يعدون أن ذلك مناقض للشريعة الإسلامية، ولمبدأ الحرية الدينية)(٢).

بهذه السهولة استلَّ النصارى هذا الحكم الجائر الجريء من محاوريهم المسلمين، الذين يجهلون أو يتجاهلون أحكام معاملة أهل الكتاب في الشريعة الإسلامية، التي تمنع إحداث كنائس لهم، وخصوصية بعض البقاع الإسلامية، كجزيرة العرب عمومًا، والحرمين خصوصًا، كما هو مبين في كتب الفقه والأحكام السلطانية(٣)، ودون أن يكشفوا مثل هذه المحظورات وأشد منها في بعض بلاد النصارى.

---

(١) البيانات المسيحية - الإسلامية (١٠٤ - ١٠٥).

(٢) المرجع السابق (١٠٥ - ١٠٦).

(٣) انظر مبحث (حكم الإسلام في أهل الكتاب) في التمهيد.

وبالمقابل سجل النصارى في هذا المؤتمر اعترافًا تاريخيًّا هذا نصه:

(عبَّر المشتركون المسيحيون تجاه إخوانهم المسلمين عن عاطفتهم وأسفهم لجميع المساوئ التي عاناها العالم الإسلامي من قبل المستعمرين القدامى والجدد والمتواطئين معهم)(١)، ثم طفق البيان يعدد أسباب تردد المسلمين في تطوير العلاقات مع النصارى وريبتهم في نواياهم، فمنها:

- خدمة الإرسَاليات النصرانية مصالح الاستعمار في القرن المنصرم.

- استغلال النصارى للخدمات المقدمة في حقول التربية والصحة والثقافة والشؤون الاجتماعية، والأزمات السياسية، والتبعية الاقتصادية لدى المسلمين، لأغراض التنصير.

وقد أعلن النصارى شجبهم، وتبرؤهم من «الدياكونيا»؛ أي الاستغلال الخِدمي لأغراضٍ أخرى(٢).

وقد يبدو هذا الاعتراف، وذلك الأسف، والشجب، والتنديد، والتعهد من الجانب النصراني، نصرًا مؤزرًا، وفتحًا مبينًا، تم على أيدي المحاورين المسلمين، إلا أنه في الحقيقة اعتراف ضمني بشرعية التنصير، وحصر للخطأ والانحراف في صورة فرعية، وهي استغلال الخدمات لغرض التنصير. أما التنصير نفسه أو ما يسميه البيان «الرسالة المسيحية» فلا غبار عليها، وتستحق نظرةً جديدة.

وتتضح خطورة هذا «الكمين» وفداحة الثمن بالتوصية الآتية:

(يوصي المشتركون في اللقاء بعد تطبيق الإجراءات المذكورة... بأن يدعى المسيحيون والمسلمون للاشتراك في «جمعية تمثيلية» للديانتين، من أجل تدارس

---

(١) البيانات المسيحية – الإسلامية (١٠٦).

(٢) ينظر: المرجع السابق (١٠٦ – ١٠٧).

الطرق المعتمدة في الرسالة والدعوة، والأنظمة المتبعة في كل ديانة، والتباحث في الأساليب التي تسمح لكل ديانة أن تمارس الرسالة أو الدعوة وفقًا لإيمانها الخاص بها.

ويعترف المشتركون في اللقاء بأن الرسالة والدعوة هما من الواجبات الدينية الأساسية في المسيحية والإسلام)[١]. فهل ظن أولئك النفر من المسلمين الفكريين[٢] أنهم إذا سوغوا للنصارى دعوة التثليث، وتأليه المسيح، أنهم سيهجرون «الدياكونيا»؟ لقد أثبتت السنوات اللاحقة بطلان أمانيهم.

- **مؤتمر «التعايش الإسلامي - المسيحي»:**

عقد هذا اللقاء التخطيطي بين الجانبين في «شامبيزي» - سويسرا، في عام ١٣٩٩هـ، الموافق ١٩٧٩م، وشارك فيه خمسة من المسلمين، وعشرة من النصارى، وكانت أجواء العلاقات الإسلامية النصرانية لا تزال مشحونةً بالتوتر والمصادمات في مواقع كثيرة من العالم كلبنان والفلبيين وإريتريا وغيرها، مما دعا المؤتمرين إلى التنويه بذلك في مستهل بيانهم الختامي، وتأثيره السلبي على الحوار[٣].

وقد أضاف هذا المؤتمر ثلاثة أمور جديدة مقارنةً بالمؤتمرات السابقة أهمها: الدعوة إلى التقليل من النشاط الدعوي! والتنصيري. حيث ورد فيه (إن نشاطات الرسالة المنظمة تحدث علاقات توتر بين المسيحيين والمسلمين، وتخلق اهتمامًا متزايدًا. ففي سبيل تعزيز الثقة والأمل، ومن أجل إنشاء علاقاتٍ أفضل

---

(١) المرجع السابق (١٠٧).

(٢) منهم: إسماعيل الفاروقي، وخورشيد أحمد.

(٣) ينظر: البيانات المسيحية - الإسلامية (١٣١).

في المستقبل، يجب تخفيف مثل هذه النشاطات. على كل، يجب توفير التعليم والمواقف الإيجابية، ليتعرف بعضنا إلى إيمان بعضنا الآخر)(١).

- **مؤتمر «المسيحيون والمسلمون العائشون العاملون معًا: المبادئ الأخلاقية والممارسات في حقل البرامج الإنسانية والتنموية»:**

عُقد هذا المؤتمر الثنائي في كولومبو - سيرلانكا - في عام ١٤٠٢هـ، الموافق ١٩٨٢م، وشارك فيه ثلاثة وثلاثون مسلمًا، وثلاثون نصرانيًّا. وخلافًا للمحاولات السابقة لمجلس الكنائس العالمي في محاورة أفرادٍ مسلمين ليس لهم صفة رسمية تمثيلية، جاء هذا المؤتمر منظمًا مع: «المؤتمر الإسلامي العالمي» في كراتشي. كما أرسل إلى المؤتمر مراقبون وبرقيات من: «الأمانة العامة للعلاقات مع غير المسيحيين - الفاتيكان» و«منظمة المؤتمر الإسلامي» - جدة - واليونسكو - باريس(٢).

وقد استهل البيان الختامي بفقرات تشي بفشل المحاولات السابقة لتحقيق التقارب، وتتحدث بصراحة عن الدوافع العميقة التي تحرك الجانبين لطلب الحوار: (اعترف الجميع أن عوائق كثيرة لا تزال تعترض الطريق من دون تعاونٍ أدنى بين المسلمين والمسيحيين، وجرت مناقشات صريحة حول مواقف الحذر والريبة التي تحدثها معاكسات الحقوق الثقافية والدينية، أكان ذلك ضمن الأكثريات أو الأقليات. كما تحدث الجانبان عن هاجس سوء استعمال بعض الخدمات الإنسانية، إذ يحاول مقدموها بالإقناع الغاصب أو الخاطئ أن يغيروا ديانة الآخرين...

---

(١) البيانات المسيحية - الإسلامية (١٣٢)، تنظر بقية الأمور في الأصل.

(٢) البيانات المسيحية - الإسلامية (١٤٤).

ويشعر المسيحيون في بعض الأمكنة أنهم غير مقبولين، كمواطنين كاملي الحقوق، من قبل المسلمين، في حين اعترف المسيحيون في أمكنة أخرى أنهم مسؤولون عن إثارة الشعور ذاته لدى المسلمين. أما الهاجس الأكبر الذي أبداه المسيحيون فكان إرادتهم ألَّا تؤثر المخاوف والتشويهات الماضية في الحاضر والمستقبل، لذلك كان عليهم أن يبذلوا جهودًا ملحوظة من أجل تفاهم أوثق وتعاون أكثر فاعلية مع المسلمين)(١).

وهكذا بعد قرابة عشرين عامًا من المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥م)، وقرابة ثلاثين عامًا من أول نداء أطلقه مجلس الكنائس العالمي للتعاون الإسلامي المسيحي في «إيفانستون» عام ١٩٥٤م، تظل مشاعر الريبة والحذر والتهمة تساور الطرفين - باعترافهما الرسمي في البيانات المتعاقبة - ويلتقيان ليندد أحدهما بالتنصير المعتمد على الإغراءات، ويشكو الآخر من النبذ ووصمة العار التاريخية(٢).

وقد دعا البيان الختامي إلى: (ضرورة... إصدار إدانة صريحة للاعتداء على الشعب الفلسطيني الذي هجِّر من أرضه...)(٣). ورغم أن البيان تحاشى ذكر الجهات المعتدية لكنه يعد موقفًا متقدمًا إذا ما قورن بموقف الفاتيكان من مقررات مؤتمر طرابلس عام ١٩٧٦م(٤).

ثم اتخذ البيان المشترك توصيات على ثلاثة أصعدة أهمها:

حول التعاون المسيحي - الإسلامي، وتعزيز الحوار...(٥).

---

(١) البيانات المسيحية - الإسلامية (١٤٥ - ١٤٦).

(٢) ينظر الأصل للمزيد من التفصيل وتحليل البيان الختامي.

(٣) البيانات المسيحية - الإسلامية (١٤٥ - ١٤٦).

(٤) راجع محاولات الكنيسة الكاثوليكية، المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٥) البيانات المسيحية - الإسلامية (١٤٦ - ١٤٩).

- **نقد وتحليل:**

كانت محاولات مجلس الكنائس العالمي للتقريب بين الأديان صدًى لما يتردد في ردهاته من منازعاتٍ حول مشروعية التقارب وجدواه. فقد واكبت هذه المحاولات المراحل التي سبقت الإشارة إليها في الباب الأول.

١ - ففي مرحلة الدراسة: تم استطلاع موقف بعض النصارى من خلال ثلاثة ملتقيات: جنيف ١٩٦٨م، وكارتيني ١٩٦٩م، وعجلتون ١٩٧٠م، وأطلقت فيها عدة تساؤلات دون إجابة.

٢ - وفي مرحلة التجربة، جرب المجلس من خلال مؤتمراته المتتابعة كل شيء:

- الحوار في مسائل الاعتقاد.
- المشاركة في حضور الصلوات لدى الطرف الآخر.
- المشاركة في الأنشطة الاجتماعية.
- النقاش في الممارسات التنصيرية.

لقد أدرك المجلس أنه أمام دين لا يمكن اختراقه أو احتواؤه. فمن ثم أقلع عن المضي في الحديث عن الحوار الذي طبع معظم لقاءات السبعينيات.

ومن الناحية الموضوعية تردد في البيانات المشتركة لمؤتمرات هذه الحقبة: التحذير من التلفيقية، وذكر العقائد المميزة لكل جانب، وإدانة استغلال الخدمات الإنسانية لأغراض الاجتذاب الديني، والحرية الدينية، والتعاون في مجالات التنمية والخدمة الاجتماعية، والاعتراف المستمر بوجود رواسب الريبة والحذر لدى الجانبين.

ويلاحظ على محاولات المجلس في هذه المرحلة من الناحية التنظيمية أنه ينأى عن الجهات الحكومية، والهيئات الرسمية، ويختار محاوريه من الجانب الإسلامي بصفتهم الشخصية، ويشركهم أحيانًا في التخطيط.

٣ - أما المرحلة الثالثة: فقد كفَّ المجلس عن عقد المؤتمرات العلائقية، واتجه نحو موضوعاتٍ محددة خلال الثمانينيات والتسعينيات من جنس: الدين والمجتمع والتعددية، والدين والدولة، والدين والتربية، والتعايش.

المبحث الرابع

محاولات التقريب بين الأديان في أوروبا الغربية

إلى جانب المحاولات العالمية للتقريب بين الأديان الصادرة من الكنيسة الكاثوليكية ومجلس الكنائس العالمي، وكلاهما أوروبي المنشأ، ثَمَّ محاولات أوروبية متعددة بعضها ذات صفة عالمية أيضًا، وكثير منها ذات صفة إقليمية، برزت في العقود التالية لانعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي فتح الطريق أمامها للحوار مع غير النصارى. ولكن السبب الرئيس وراء هذه الظاهرة، هو حركة الهجرة الواسعة التي اجتاحت أوروبا الغربية، لا سيما دول الشمال، من قبل العمالة الوافدة، وكثيرٌ منهم من أبناء البلدان الإسلامية.

هذا الواقع الاجتماعي الجديد حمل مؤسسات دينية وأهلية وحكومية، في أوروبا، على الاهتمام بالقادمين الجدد الذين يحملون معهم خصائص عقدية وثقافية واجتماعية مغايرة للوسط المحيط.

كما أن «الجيل الثاني» من أبناء المهاجرين، الذين ولدوا وتعلموا في المدارس الأوروبية باتوا يشكلون معضلةً اجتماعية، للازدواجية التي يعانونها من جراء التجاذبات بين أخلاق أسرهم وبيوتهم المحافظة، وثقافة وممارسات المجتمع الأوروبي المتحرر.

وأخيرًا فإن حركة الإسلام العالمية، والأحداث السياسية الكبرى في العالم، وتصرفات بعض المسلمين الصائبة أو الخاطئة، تلقي بظلالها على الوجود الإسلامي في أوروبا، وتبعث المزيد من الاهتمام بالإسلام، سواء على المستوى

المحلي أو الإقليمي أو العالمي، في الأوساط الدينية والعلمانية الأوروبية...

ومن جانب آخر وهو الأهم، بل هو الباعث الحقيقي على اهتمام الكنائس بأمر الإسلام في أوروبا، التأثر المعاكس، أي تأثر الأوروبيين أنفسهم بالإسلام واعتناقهم إياه بشكل مطرد في الوقت الذي لا تستطيع فيه النصرانية مواجهة الإسلام من الناحية العقدية، ولا الناحية القانونية، حيث تسود أوروبا بصفة عامة مبادئ الحرية والديمقراطية وتكافؤ الفرص(١).

وكان أول لقاء نصراني لتدارس وضع المسلمين في أوروبا قد انعقد بمبادرة من الفاتيكان، الأمانة العامة للعلاقات بغير المسيحيين، في «اللوكسمبورغ»، في مارس عام ١٩٧٤م.

ونظرًا لكون الكنيسة الكاثوليكية غير ممثلة في مجلس الكنائس الأوروبي، فقد برزت الحاجة إلى تكوين لجنة أوسع تمثيلًا، فكانت: **(لجنة «الإسلام في أوروبا»)**:

وقد تألفت هذه اللجنة الأوروبية الموحدة عام ١٩٨٦م من مجلس المؤتمرات الأسقفية الأوروبية (C.C.E.E)، والفيدرالية الأوروبية لمؤتمرات رؤساء الأساقفة الكاثوليك، ومجلس الكنائس الأوروبي، تحت مسمى «لجنة الإسلام في أوروبا»، كما منح كلًّا من الأمانة الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين، والوحدة الفرعية للحوار مع أصحاب المثل والعقائد الحية التابعة لمجلس الكنائس العالمي، صفة مراقب، وبذلك مثلت جميع الكنائس الأوروبية الشرقية، والغربية في مجلسٍ واحد.

---

(١) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. p. ٣٨ - ٣٩..

وقد وجهت الفيدرالية الأسقفية الكاثوليكية (C.C.E.E)، ومجلس الكنائس الأوروبي (C.E.C) في لقائهما المنعقد في مايو ١٩٩٣م اللجنة لتوسيع جهودها، لتشمل:

١. تكيف الزيجات بين المسيحيين والمسلمين.

٢. العلاقة بين الدين والسياسة.

٣. توجيهات للحوار المسيحي الإسلامي في كل بلد.

٤. تصنيف شبكة عمل أوروبية للمسيحيين المهتمين بالحوار مع المسلمين(١).

وهي مباحث تكشف مدى الاهتمام الأوروبي الكنسي بالإسلام في أوروبا.

إن «لجنة الإسلام في أوروبا» تمثل تنظيمًا رسميًّا لموقف النصارى من القضية.

محاولات التقريب في بعض بلدان أوروبا الغربية

سنتناول فيما يأتي تفصيلًا مختصرًا للمحاولات الجارية للتقريب بين الأديان في عددٍ من بلدان أوروبا الغربية(٢).

- **إسبانيا والبرتغال:**

من المحاولات للتقريب بين المسلمين والنصارى على المستوى العالمي التي اتخذت من إسبانيا مقرًّا لها:

---

(١) المرجع السابق (٤٠).

(٢) ذكرنا في المختصر بعض النماذج، ويراجع الأصل للاطلاع على بقية النماذج.

«جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية في إسبانيا»:

أنشَأَ هذه الجمعيةَ سنة ١٩٦٦م، في مدريد، خمسةَ عشرَ من المثقفين المهتمين بالقضايا العربية والإسلامية⁽¹⁾. وقد عقدت الجمعية بالتعاون مع الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية، وبلدية قرطبة ثلاثة مؤتمرات كبرى⁽²⁾، في مدينة قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس.

«المؤتمر «الإسلامي المسيحي الدولي الأول»):

عقد هذا المؤتمر في عام ١٣٩٤هـ، الموافق ١٩٧٤م، وشارك فيه وفودٌ رسمية، وشخصيات عربية وإسلامية ونصرانية، قدموا من ثلاثة وعشرين بلدًا. وقد تخلل المؤتمر (حفل رمزي، ألا وهو إعادة فتح الجامع - الكاتدرائية في قرطبة، حيث أقيمت صلاة الجمعة، وفي اليوم التالي القداس الإلهي)⁽³⁾.

ثم صدر عن المؤتمر بيان مشترك، جاء في توصياته:

- (إقامة تعاونٍ إسلامي مسيحي، لتأكيد الإيمان بالله، وتعميق القيم الدينية، والإنسانية، وقصر دراسة الخلافات العقائدية على مجالات المتخصصين، مع الاحترام المتبادل بين الجانبين.

- الدعوة إلى تأليف في حقل العقيدة، يتعاون فيه متخصصون من المسلمين والمسيحيين لنشر الحقائق الداعية إلى الإيمان...

---

(١) انظر: مجلة «العربي» العدد (٢٢٣). يونيو ١٩٧٧م.

(٢) سنكتفي في المختصر بنموذج واحد، وللمزيد يراجع الأصل.

(٣) البيانات المسيحية الإسلامية (٦٨). والواقع أن السلطات الإسبانية لم تعد افتتاح الجامع للمسلمين، بل قصارى الأمر أن سمحت بإقامة صلاة الجمعة للمشاركين المسلمين أثناء انعقاد المؤتمر ثم أغلقته. وأما الطقوس الكهنوتية النصرانية فإنها لم تنقطع منذ اغتصابهم الجامع العريق حتى يومنا هذا.

- تنقية المناهج والكتب الدراسية في العالمين المسيحي والإسلامي، من الأخطاء التي تسيء إلى أي من الدينين...

- مناشدة المسلمين والمسيحيين بأن يعنى كل منهم بنشر عقائده بين أتباعه.

- تأكيد الحقوق الوطنية والإنسانية للشعب الفلسطيني... وتأكيد عروبة القدس، ورفض مشروعات التهويد، والتقسيم، والتدويل... وتأييد النضال العادل للشعب الفلسطيني، والمطالبة بتحرير الأراضي العربية المحتلة)⁽¹⁾.

ويتضح من بيان قرطبة أن المشاركين أحالوا البحث في المسائل العقدية الكبرى المأمور بها في مجادلة أهل الكتاب إلى متخصصين، دون تسمية لجنة معينة، ودون أن يظهر لهذه التوصية أثرٌ في الأعوام التالية. واكتفوا بالدعوة إلى مفهوم عائم للإيمان والتأليف فيه، ولعله الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى وحسب.

كما يؤخذ على الجانب الإسلامي إقراره لتوصيتين مخالفتين للشريعة الإسلامية:

إحداهما: ما عبر عنه بتنقية المناهج والكتب الدراسية مما يسيء إلى الجانب الآخر. ومعلوم قطعًا بالضرورة من دين الإسلام ذم القائلين بالتثليث، وألوهية المسيح، وبنوَّته، وتكفير من يزعم ذلك في صريح القرآن وصحيح السنة، كما تقدم في التمهيد⁽²⁾.

الثانية: التسليم بالتوصية الداعية إلى قصر الدعوة، ونشر العقيدة بين الأتباع فقط. ومن المعلوم أيضًا بالضرورة من دين الإسلام أن رسالة محمد ﷺ للناس كافة، وأولاهم بالدعوة أهل الكتاب الذين ينتسبون إلى أنبياء الله وكتبه السابقة.

---

(١) تنظر بقية التوصيات: البيانات المسيحية - الإسلامية المشتركة (٧٠ - ٧١).

(٢) انظر مبحث: حكم الإسلام في أهل الكتاب، من الناحية الاعتقادية.

ومع ذلك فإن النصارى ما فتئوا يدعون إلى دينهم، ويسعون لنشر عقائدهم، وينفقون الأموال الطائلة في سبيل ذلك، دون أن تثنيهم توصيات مؤتمر هنا أو هناك.

- كما يلاحظ نجاح الجانب الإسلامي في المؤتمر من إقرار التوصية المتعلقة بالفلسطينيين والقدس وغيرها.

ندوة «تعريف الإسلام بطريقة أفضل في كتب التعليم الديني»:

عقدت هذه الندوة الفكرية في مدريد عام ١٣٩٨هـ، الموافق ١٩٧٨م، بمشاركة من جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية في إسبانيا، ومكتب الإعلام التابع لجامعة الدول العربية، وحضور أربعين شخصًا من الجانبين(١)، (لمناقشة المشكلات المتعلقة بصياغة المعلومات الخاصة بتاريخ الإسلام، والثقافة العربية - الإسلامية في المناهج والكتب المدرسية الأوروبية، للحلقة المتوسطة «الإعدادية»)(٢). وكان الدكتور ميخائيل إيبالسا، أمين عام جمعية الصداقة قد صرح في أثناء انعقاد مؤتمر قرطبة الثاني عام ١٩٧٧م قائلًا: (... كلفنا فريقًا من الباحثين بدراسة ٢٥٠ كتابًا يتداوله التلاميذ في مختلف مراحل التعليم بإسبانيا، وطلبنا منهم حصر العبارات والوقائع التي تقدم الإسلام ونبيه بصورة مشوهة إلى التلميذ، تمهيدًا لتصحيح تلك الوقائع، واستبعاد كل ما هو مختلق ومكذوب منها)(٣).

وبعد الندوة اجتمع عددٌ من الخبراء الإسبان والعرب في مقر المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، لإعادة النظر فيما حُقِّق لجهة تحسين عرض الإسلام في الكتب الثانوية في إسبانيا(٤).

---

(١) انظر: البيانات المسيحية - الإسلامية، اللوحة الملحقة بالكتاب. تسلسل رقم (٩٠).

(٢) الإسلام والمسيحية (١٥٧).

(٣) مجلة العربي عدد (٢٢٣) يونيو ١٩٧٧م (٤٣).

(٤) انظر: البيانات المسيحية الإسلامية (٦٨). حاشية (١).

- **المملكة المتحدة «بريطانيا»:**

أدت الحقبة الاستعمارية لبريطانيا العظمى، التي كانت لا تغيب عن ممالكها الشمس، إلى هجرة أعدادٍ كبيرة من أبناء تلك المستعمرات إلى المقاطعات المكوِنة للمملكة المتحدة (إنجلترا، ويلز، اسكتلندا، شمال إيرلندا)، وكان معظمهم من شعوب شبه القارة الهندية الذين يعتنقون الإسلام، أو الهندوسية، أو السيخية، أو البوذية. وقد أدى هذا التنوع إلى أن تتجه مسيرة الحوار نحو التعددية، ولا تقتصر على الحوار الإسلامي النصراني، وحتى على المستوى النصراني نفسه، فإن بريطانيا تضم خليطًا من الكنائس النصرانية المتباينة، وتختص بوجود الكنيسة الإنجليكانية، التي تمثل الكنيسة الرسمية للبلاد، منذ أن أسسها الملك الإنجليزي هنري الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧م) في إثر خصومته الشخصية مع البابا كليمنت السابع، وانفصاله عن الكنيسة الكاثوليكية، مع عدائه أيضًا للحركة البروتستانتية(١).

وقد أدت هذه الفسيفساء الدينية إلى تكوين شبكة حوار ديني Inter Faith Network، تهدف إلى تنظيم وتشجيع ودعم الاتصال والحوار بين مختلف المجتمعات الدينية في بريطانيا، وقد بلغ عدد أعضاء هذه الشبكة من المجموعات الدينية المحلية، ومراكز الدراسات، والتنظيمات المختلفة للحوار فيما بين الأديان، أكثر من ستين جهة.

ومن أبرز هذه الجهات المعنية بقضية التقارب في المملكة المتحدة:

---

(١) انظر في هذا: تاريخ الكنيسة المسيحية. أفغراف سميرنوف. (٦٣٣ - ٦٣٦).

١. «مجلس الكنائس البريطاني» (British Council of Churches BCC):

أنشأ هذا المجلس الذي يضم الكنائس البريطانية المختلفة، سوى الكاثوليكية، لجنة للعلاقات مع أتباع المعتقدات الأخرى عام ١٩٧٧م، جاعلًا مهمتها المعلنة: مساعدة المسيحيين، طوائف وجماعات، للتعلم من ذوي المعتقدات الأخرى، وتحمل الشهادة لاعتقادهم الخاص⁽¹⁾.

وبدورها قامت الكنيسة الكاثوليكية في بريطانيا عام ١٩٨٤م بتكوين لجنتها الخاصة لذوي المعتقدات الأخرى بغرض: مساعدة الكاثوليك في تعميق إيمانهم الخاص، عن طريق حفز إدراك وفهم أكبر للمعتقدات الأخرى، من خلال الحوار والصلاة والممارسات التي تتم في ضوء تعاليم الكنيسة⁽²⁾.

وجليٌّ أن اهتمام هذه المؤسسات الدينية العتيقة بموضوع الحوار نابعٌ من خوف على الأتباع.

٢. «برنامج وستمنستر للتلاقي الديني»:

منظمة حوارية منبثقة عن أسقفية وستمنستر الكاثوليكية في لندن، وترمي مناشط البرنامج المتنوعة إلى هدفين معلنين:

أحدهما: جمع القادة الدينيين، والأتباع العاديين من مختلف المجموعات الدينية.

الثاني: تثقيف النصارى بشكل أفضل بطبيعة ومطالب المجتمعات متعددة الأعراق والأديان⁽³⁾.

---

(١) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. p. ٣٨.

(٢) المرجع السابق (٣٨).

(٣) يراجع الأصل للمزيد من التفصيل.

٣. (كنيسة «وندسور» الإنجليكانية):

تكتسب هذه الكنيسة أهميتها لكونها كنيسة مدينة «وندسور» التي تنتمي إليها العائلة المالكة في بريطانيا، وتقيم في قلعتها التاريخية منذ عام ١٩١٧م، وقبل ذلك كانت مقرًّا لهنري الثامن مؤسس الكنيسة الإنجليكانية(١).

وقد اقتصرت محاولات كنيسة وندسور في مجال التقريب بين الإسلام والنصرانية واليهودية على مشاركة مؤسسة آل البيت الأردنية في عقد بضع مؤتمرات ذات موضوعات محددة، كانت على التوالي:

- مؤتمر «الحوار».
- مؤتمر «قيم الحياة العائلية في المجتمع الحالي».
- مؤتمر «الأخلاقيات وإدارة الأعمال».
- مؤتمر «ممارسة البنوك وفقًا للإسلام والمسيحية».
- مؤتمر «الأخلاقيات وإدارة الأعمال الثاني».

ويلاحظ في هذه الجولات الإنجليكانية - الأردنية، أنها تنزع إلى موضوعات ذات طرافة وجدة، كأعمال البنوك، وأخلاقيات العمل، مما لم تسبق إليه(٢).

كما يلاحظ عدم دعوة اليهود، مراعاة للظروف الإقليمية السائدة في المنطقة.

٤. «مركز دراسة الإسلام والعلاقات المسيحية الإسلامية - C.S.I.C»:

تأسس هذا المركز بعد عام من المؤتمر التشاوري السابق، أي في عام ١٩٧٦م.

---

(١) انظر: المنجد في الأعلام (٧٤٤، والموسوعة العربية الميسرة (١٩٦٨).

(٢) يراجع الأصل للمزيد من التفصيل.

ويعد حاليًّا أهم مراكز الحوار الإسلامي النصراني في المملكة المتحدة⁽¹⁾. وصار ينظم الملتقيات بالتعاون مع المعاهد الإسلامية، والمجمع البابوي للحوار بين الأديان وغيره. ومن ذلك: المشاركة مع مجلس الكنائس العالمي، ومركز الدراسات الإسلامية، «المؤسسة الإسلامية» في ليستر «بريطانيا»، في مؤتمر: «الرسالة المسيحية والدعوة الإسلامية»، المنعقد في شامبزي في سويسرا عام ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م⁽²⁾.

٥. مؤتمر «الحقل المسيحي الإسلامي من آسيا الوسطى إلى أوروبا»:

يعد هذا المؤتمر نقلة واسعة في مناشط المركز، فقد عقد في ولاية تتارستان الإسلامية المنضوية في جمهورية روسيا الاتحادية، بالتعاون مع «جامعة قازان» عام ١٩٩٣م⁽³⁾.

• إيطاليا:

لئن كان «الفاتيكان» دولة مستقلة عن الجمهورية الإيطالية، يتمتع بحكمٍ ذاتي فوق مساحة محدودة (٤٤ هكتارًا) من العاصمة الإيطالية روما، إلا أن تأثيره الديني بطبيعة الحال يتجاوز محيطه الضيق إلى عموم الأراضي الإيطالية التي يدين معظم سكانها للكنيسة الكاثوليكية، ولو بصورة اسمية.

وفضلًا عن المبادرات والمحاولات الكاثوليكية للتقارب مع الإسلام التي سبق تفصيلها على المستوى العالمي، فإن إيطاليا واجهت في العقود الثلاثة الأخيرة

---

(١) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. p. ٣٨.

(٢) سبق التعريف بهذا المؤتمر في محاولات مجلس الكنائس العالمي المبحث الأول من هذا الباب.

(٣) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. p. ٧٩.

موجة من الهجرات العمالية المسلمة نحو أراضيها، كما هو الحال في سائر دول أوروبا الغربية(١). وقد ساعدت الأنظمة العلمانية المدنية هؤلاء المهاجرين على إقامة مساجدهم ومراكزهم الثقافية، وكان لذلك أثرٌ على المجتمع الإيطالي نفسه.

ولهذا أثيرت المخاوف المستقبلية من المد الإسلامي في إيطاليا(٢).

إن هذا القلق المتنامي من حركة الإسلام العالمية، وقبوله في أوساط ذات تقاليد عريقة معادية له باعتناق أفرادٍ منهم الدين الوافد، حمل كثيرًا من الجهات الدينية وغير الدينية على مد الجسور نحو الإسلام ومحاورته في إيطاليا إلى جانب الكنيسة الكاثوليكية.

ومن أبرز الجمعيات المعنية بالحوار والتقارب مع المسلمين محليًّا وعالميًّا:

«جمعية سانت إيجيديو - {St. Egidio}»:

تعد هذه الجمعية الإيطالية المنشأ، الكاثوليكية التوجه، من أشهر وأنشط مؤسسات الحوار بين الأديان على المستوى العالمي في السنوات الأخيرة. ورغم التأكيدات المتوالية من قبل الجمعية، والفاتيكان أيضًا، على استقلالية أعمالها عن توجيهات الفاتيكان، فإنه يُعتقد أنه يتخذ من الجمعية أداة مرنة فعالة لتناول كثيرٍ من القضايا التي يتحاشى الظهور فيها لاعتباراتٍ شتى. ونظرًا لهذا الارتباط، وللحضور القوي، والمبادرات المتتابعة لجمعية سانت إيجيديو على المستوى

---

(١) ومع ذلك فإن نسبة الهجرة إلى إيطاليا تعد من أضعف النسب في البلدان الأوروبية إذ تبلغ ٦ ,١٪ من مجموع السكان. جريدة الحياة السبت ١٨ نوفمبر ١٩٩٥م.

(٢) ينظر: مجلة ٣٠ يومًا. عدد ٢ عام ١٩٩٦م (٣٠) بقلم إيموايغولي، جريدة الحياة عدد (١٣٧١٧).

الدولي في مسائل التقارب بين الأديان، فسنلقي مزيدًا من الضوء عليها، وتعريفها كما تعرف نفسها(١).

(هي مجموعة جمعياتٍ مسيحية نشأت داخل الكنيسة الكاثوليكية... إن جمعية سانت إيجيديو رابطة كنسية، تُعرَّف قانونيًا بأنها رابطة عالمية شعبية علمانية(٢)، معترف بها لدى الكرسي الرسولي... واليوم تضم سانت إيجيديو عدة مئات من الجمعيات... بما في ذلك جمعيات خارج إيطاليا. والمؤسس الذي كان حينذاك طالب مدرسة ثانوية، أندريا ريكاردي، هو اليوم أستاذ تاريخ المسيحية في جامعة روما الثالثة... إن الخصائص التعريفية للجمعية (كما وردت في نظامها الأساسي الذي وافق عليه الكرسي الرسولي) هي:

- أولوية الكرازة(٣) بالإنجيل، وخاصة في أوساط الناس الأكثر بعدًا عن التجربة والممارسة الدينية.

- أولوية الحوار المسكوني بين الأديان... والصداقة والتعاون مع جميع المؤمنين من الأديان والمذاهب الأخرى، من أجل السلام والتعايش في مختلف بقاع العالم)(٤).

---

(١) قام الباحث بزيارة مقر الجمعية في العاصمة الإيطالية، والتقى بأحد كبار مسؤوليها وهو البروفسور يناري وبعض معاونيه، والحوار معهم حول جمعيتهم وأهدافها ومناشطها. وقدموا لي ملفًا تعريفيًا، ومطبوعات تتعلق بالجمعية، وذلك يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/ ٣/ ١٤١٩ ﻫ.

(٢) الصفة «العلمانية» في العرف الغربي في مقابل «الكهنوتية» فكل من ليس من طبقة رجال الدين «الأكليروس» بمراتبهم المختلفة، يعد علمانيًا، بناءً على النظرة الكنسية التي تفصل الدين عن الدنيا.

(٣) الكرازة: الوعظ بالحقائق المسيحية. «سريانية». المنجد في اللغة (٦٨٠).

(٤) من نشرة تعريفية صادرة عن الجمعية باللغة الإنجليزية (١).

تلك هي جمعية سانت إيجيديو من حيث المنشأ والأهداف والوضعية القانونية. وبه يتبين كما يجهر بذلك القائمون عليها أنها هيئة كنسية تسعى لتحقيق الرسالة الإنجيلية عن طريق الخدمات الاجتماعية والحوار، لتحقيق الكرازة بالإنجيل.

وتنتشر فروع هذه الجمعية في زهاء عشرين بلدًا في أوروبا الغربية والشرقية وإفريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى واللاتينية، وتقوم بالخدمات الاجتماعية الآتية ضمن رسالتها التنصيرية:

- رعاية الأطفال وتعليمهم.
- الاهتمام بالمرضى والمسنين وإيواؤهم وعلاجهم.
- الوقوف إلى جانب المهاجرين.

وقد لمع نجم جمعية سانت إيجيديو في مبادرات السلام بين الفرقاء السياسيين في مناطق مختلفة من العالم(١).

والجمعية لا تخفي مقاصدها الدينية النصرانية الكامنة خلف مبادراتها في السلام والإنماء(٢).

هذا هو الوجه التنصيري السافر لجمعية سانت إيجيديو في مجال الخدمات الاجتماعية، والمبادرات السياسية باسم السلام والإنماء، فما بالك بالمحاولات النشطة للتقريب بين الأديان، والحوار بين أتباعها، الذي ينص عليه النظام الأساسي للجمعية؟

---

(١) تراجع أمثلة ذلك في الأصل.

(٢) ينظر: النشرة التعريفية بالجمعية (٧).

ولقد أنشأت الجمعية رابطة دولية باسم «البشر والأديان»، ومنذ ذلك الحين تبنت الجمعية الدعوة لإقامة الصلاة المشتركة بين الأديان، على غرار يوم الصلاة في أسيزي، فنظمت الملتقيات ومنها(١):

ملتقى «السلام اسم الرب» في روما عام ١٩٩٦م: حضره أكثر من أربعمئة ممثل لمختلف الأديان والتقاليد، وأقيمت سبعون صلاة في الكنائس الرومانية. وكان من بين الحضور أربعة عشر كاردينالًا، وقادة مسلمون، فيهم الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، وأشهر خبير معاصر بالتلمود وأساقفة وكهنة من الكنيسة الإنجليكانية، والكنائس البروتستانتية الأخرى، وبطاركة الأرثوذكس، من اليونان، والصرب، والرومانيين، والسريان، والكلدان، والقبط، والدروز، والقسس المارونيين، وحركات الفقراء والمعاقين العالمية، ورئيس جمهورية إيطاليا، ورئيس وزرائه، والمدير العام لمنظمة الأمم المتحدة، ومنظمة العفو الدولية، ورئيس الصليب الأحمر الدولي، ومنظمة الاتحاد الأوروبي(٢)، كما حضر أيضًا الرئيس البرتغالي السابق ماريو سواريس، وأمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي، ورئيس جمعية العلماء في المغرب(٣).

إن هذا الحضور المميَّز والمتنوع ليكشف حجم الدور الذي تؤديه جمعية سانت إيجيديو، وضخامة الدعم الذي تلقاه، فبالرغم من أن هذه الملتقيات المتتابعة تعقد باسم الصلاة من أجل السلام، بروح أسيزي، كما يعبر القائمون عليها، فإن البرنامج الحافل من الندوات، والموضوعات المطروحة للنقاش، تكشف أبعادًا أخرى لنشاط هذه الجمعية.

---

(١) يراجع الأصل للملتقيات والندوات والصلوات المشتركة التي أقامتها الجمعية وحظيت بحضور لقادة عالميين دِينيين وسياسيين من مختلف الأديان.

(٢) مجلة: داخل الفاتيكان Inside The Vatican. عدد نوفمبر ١٩٩٦م (٨١، ١٩، ٢١).

(٣) جريدة الشرق الأوسط عدد الاثنين ١٤ أكتوبر ١٩٩٦م الصفحة الأولى.

وتلاحظ الهيمنة النصرانية على أعمال الملتقى، كما يلاحظ تبجيل البابا يوحنا بولس الثاني، وتقديمه بصورة الأب الروحي لجميع الأديان والطوائف، من مراسم الافتتاح إلى ديباجة البيان الختامي(١)، وانتهاءً بالصلاة الجماعية في ختام أعمال المؤتمر.

إن هذا ليكشف عن المهمة المزدوجة التي تمارسها الجمعية؛ ففي الوقت الذي تعزز فيه مكانة الكنيسة النصرانية، والأقلية النصرانية حيثما وجدت على وجه الأرض، وتتذرع بالمعونات الإنسانية، ومشاريع الوساطات السياسية لبلوغ أهدافها، تغض الطرف عما يقع للآخرين، والمسلمين خاصة، من مذابح واضطهاد، بل وتنتظر حتى يفرغ الجزار من سلخ ذبيحته، لتلبس مسوح الرهبان، وتربت على أكتاف ذوي الضحية موصية إياهم بالصبر والسلوان!

إن جمعية سانت إيجيديو قد لفتت أنظار العالم منذ منتصف الثمانينيات بمبادراتها المتنوعة، على جميع الأصعدة الدينية والاجتماعية والسياسية، وأثارت تساؤلات كثيرة حول مصادر دعمها وتمويلها، ومن ثم أهدافها وغاياتها. وقد بات جليًّا أنها تلقى دعمًا من الحكومة الإيطالية، إلى حدٍّ أن العديد من المطلعين يعدونها إحدى أذرع الخارجية الإيطالية، وربما وزارات أخرى(٢). والأهم من ذلك، علاقتها الوثيقة بالفاتيكان(٣).

إن هذا الدعم الفاتيكاني، يفسر الانتشار الواسع لجمعية ناشئة في العديد من مواقع التوتر في العالم مثل: إثيوبيا، وإريتريا، رومانيا، وألبانيا، السلفادور، وفيتنام، وأرمينيا، ولبنان، والموزمبيق، والأكراد في إيران، والجزائر، وغواتيمالا، وتركيا، والبوسنة، إلخ.

---

(١) ينظر البيان الختامي Final Appeal لأعمال الملتقى في الأصل.

(٢) انظر: جريدة الأهرام الدولي. حوار الأديان وصدام الحضارات. صلاح الدين حافظ عدد ٢٩.

(٣) ينظر: مجلة Inside The Vatican لـ: أنتونيو كاسباري، وجوينهلجر عدد نوفبمر ١٩٩٦م (١٨).

كما تولي الجمعية اهتمامًا خاصًّا بالأقليات النصرانية في العالم الإسلامي(١).

كما تقوم الجمعية بتمهيد الطريق للفاتيكان في القضايا الشائكة(٢).

كل هذه الأنشطة تلقي بظلالها على مبادرات جمعية سانت إيجيديو في مجال الحوار بين الأديان، وأهدافها.

المحاولات المحلية في إيطاليا للتقارب بين الأديان:

إضافة إلى الدور العالمي الذي تقوم به المؤسسات الدينية في إيطاليا في الدعوة إلى الحوار والتقارب بين مختلف الأديان، نظرًا للخصوصية الدينية لهذا البلد، باحتوائه معقل النصرانية الكاثوليكية في العالم «الفاتيكان»، إضافة لتلك المحاولات العالمية، نمت محاولات محلية للتقارب، أنشأتها حركة الهجرة من الجنوب الإسلامي إلى الشمال النصراني، وفرضت نفسها على جميع الأطراف.

وسوف نعرض لأحد النماذج المحلية في إيطاليا لتأثير دعوة التقريب والحوار على المسلمين والنصارى واليهود.

جمعية (قريش):

«قريش» CO.RE.IS، هي الكلمة الناتجة من الحروف الإيطالية الأولى لـ«الجماعة الدينية الإسلامية» في إيطاليا. وهي جماعة محدودة العدد، تتخذ من مدينة «ميلانو» عاصمة الشمال الإيطالي، مقرًّا لها. وجميع أفرادها ممن يحملون الجنسية الإيطالية أصولًا أو تجنسًا. وتحاول أن تقدم نفسها ممثلًا رسميًّا للمسلمين

---

(١) يراجع الأصل للمزيد من المعلومات عن هذه القضية.

(٢) ينظر مثال ذلك في الأصل.

الإيطاليين لدى الحكومة الإيطالية، رغم أنها لا تضم في عضويتها سوى عددٍ قليل منهم. وثَمَّ ملحظان أساسيان على منهج هذه الجمعية(١):

أحدهما: النزعة الصوفية الغالية في برامجها، وعلاقات أفرادها بمؤسسها، بما يطابق علاقة «المريدين» بـ«الشيوخ» في الطرق الصوفية التقليدية.

الثاني: العنصرية الأوروبية، والتجافي عن سائر المسلمين المهاجرين الذين يمثلون السواد الأعظم (٩٠٪ من المسلمين الإيطاليين)، والرغبة في خصوصية تميزهم عنهم.

وهذان الملحظان شائعان لدى بعض المسلمين من أصل أوروبي، حتى نشأ ما سُمي بـ«الإسلام الأوروبي». وجمعية «قريش» تعبير عن شخصية مؤسسها، وهو السيد عبد الواحد بلافتشيني {Pallavicini}، وهو مسلم إيطالي اعتنق الإسلام قبل أكثر من أربعين سنة(٢)، ونشط على الساحة المحلية والإسلامية كممثلٍ للمسلمين الإيطاليين، وعضوٍ في تنظيمات متعددة. والذي يعنينا هنا موقفه من قضية التقريب بين الأديان كنموذجٍ للمسلم الغربي الذي يعيش في وسطٍ نصراني كثيف، تشده إليه أواصر الرحم والقُربى، والدين السابق.

- ظلَّ عبد الواحد بلافتشيني (يمثل المركز الإسلامي الثقافي في إيطاليا، وبتفويض ذلك المركز، احتل لعدة سنوات منصب سفير في الفاتيكان لدى المجلس البابوي للحوار بين الأديان)(٣).

---

(١) قام الباحث بزيارة مقر الجمعية في ميلانو يوم السبت ١/ ٤/ ١٤١٩هـ والالتقاء بمؤسس الجمعية ومعظم مسؤوليها، والحوار معهم وقتًا طويلًا: والوقوف على نمط التعامل الذي يجري بينهم، والحصول على بعض مطبوعاتهم.

(٢) كما ذكر لي شخصيًا في زيارتي إياه بمقر جمعيته.

(٣) IN Dialogo Can L'Islam. Unita Ix dassier p. ١٩٦ «بالإيطالية».

- شرع من خلال جمعيته في عقد مؤتمراتٍ في الحوار الإسلامي المسيحي.

ويطرح عبد الواحد بلافتشيني ومريدوه فكرة «الإبراهيمية»، كرابط بين الأديان، واعتماد «الإسلام»، بمفهومه العام، دون اشتراط «الإسلام» الخاص الذي جاء به محمد ﷺ(١).

وقد كتب الدكتور: حسن جوليو سورافيا، أستاذ الفلسفة في إحدى الجامعات الإيطالية، وهو من السابقين إلى الإسلام من الإيطاليين، رسالة وجهها إلى الجمعيات والجاليات الإسلامية والسفارات والهيئات الرسمية، للحد من تعديات السيد بلافتشيني على الإسلام والمسلمين، نقتطف ما ورد فيها من نقولات عنه:

- يقول في كتابه «الإسلام الباطني»: (عندما نتعرض لأمثلة من البوذية أو الإسلام، بالتأكيد ليس لأننا نعتقد أن هذه الديانات بالأصل أفضل من المسيحية أو من الديانات القديمة الغربية في حوض البحر المتوسط).

---

(١) قلت لعبد الواحد بلافتشيني: البعض يدعو إلى «الإبراهيمية» ما معنى ذلك؟ فقال: نحن لا ندعو إلى «الإبراهيمية» ولا «المحمدية» نحن ندعو إلى الإسلام. كل من اتبع رسولًا من رسل الله فهو مسلم. قلت: هذا صحيح متفق عليه قبل بعثة نبينا محمد ﷺ، أما بعد ذلك فلا دين صحيح سوى الإسلام. فإذا زعم اليهود والنصارى اليوم أنهم أتباع لموسى وعيسى عليه السلام، وقد خالفوا ما جاءا به فلا يمكن أن نسميهم «مسلمين». قال: وكذلك المسلمين إذا خالفوا ما جاء به محمد. قلت: القول بألوهية المسيح وبنوته والتثليث ليست كبعض المخالفات الفرعية التي تصدر من مسلمين في دائرة التوحيد. فسكت. وتدخل أحمد عبد الولي قائلًا: لا يمكن أن ندعو النصارى إلى الإسلام ونحن نقول لهم أنتم كفار. يجب أن نتقرب إليهم، ونعقد العلاقة معهم بالرفق والمحبة. قلت له: يمكن أن يتم بيان الحق واضحًا جليًا بأدب ورفق، كما أرشد الله تعالى في قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [آل عمران: ٦٤]. ثم كيف نسمي من أنكر رسالة نبينا محمد ﷺ مسلمًا؟! بادر بالرد قائلًا لهذا كان مسيحيًا أو يهوديًا. فأدركت أن القوم يرون أن أهل الكتاب مؤمنين، يسعهم ما هم فيه.

- (إذا كان من الضروري لنا بحثًا عن الحقيقة الروحية، الانتساب إلى منظمة باطنية تابعة لدينٍ سماوي ما، فإن هذا الانتساب يتعدى كونه شكلًا خاصًّا لهذه الديانة، ليصبح انتقالًا حقيقيًّا نحو مركزنا الداخلي الباطن).

إن هذه النزعة الباطنية هي التي تلغي الحدود والفواصل، فلا يبقى فرقانٌ بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في ضمير من تسكنه، ولا يحصل اغتباطٌ بدين الإسلام الذي اصطفاه الله لعباده المؤمنين، ولا يقع همٌّ في قلب من عشعشت فيه تلك النزعة لدعوة الناس إلى الإسلام، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، باعتبار أن «جميع الطرق موصلة إلى روما»!

ولهذا كان من آثارها التخذيل عن اعتناق الإسلام من قبل الأوروبيين. أما لماذا ينزعج من تزايد الإقبال على الإسلام من قبل الأوروبيين، مع أن الإسلام في أقل الأحوال - وفق نظريته - أحد الأديان سارية المفعول، وهو بذاته ينتسب إلى دين الإسلام، ويؤدي الصلاة؟ إن سرَّ هذا الانزعاج يكشف عنه النص الآتي: (هذه هي إذًا المحاولة لبناء جاليات إسلامية منبوذة من بقية الأمة المحيطة بها، كمحاولة لأساس إصلاحي غير واقعي، وكلعبة سياسية كنا شهداء عليها في أوروبا وغيرها. جاليات خاضعة ربما عن غير قصد لأهداف القوى العظمى، أو قوى أخرى على حد سواء. كل ذلك بناءً على الرغبة لغرض عودة إلى الإسلام الشكلي فقط، وليتبعها فرضية خلخلة النظم الحالية، واستبدالها بنظم دينية شكلًا فقط، ليس في البلاد الإسلامية فقط، بل في العالم كله، تقليدًا للحملات التنصيرية الكاثوليكية التي كانت تغطي التوسع الاستعماري الأوروبي، وهكذا يراد القيام بحربٍ صليبية غير معقولة. لكن بالمقلوب، أي من الشرق إلى الغرب)(١).

---

(١) النصوص السابقة منقولة عن رسالة للدكتور حسن جوليو مطلعها: (أخي المسلم هل تعلم من هو بالافيتشيني عبد الواحد) باللغة الإيطالية، ومترجمة إلى العربية في ثلاث صفحات.

فما دلالة هذا الكلام الخطير، وما بواعثه؟ أما دلالته فواضحة؛ فإن القائل يرفض نمو جاليات إسلامية في أوروبا النصرانية، تتسم بالحركة والتأثير والانتشار، والخلاصة أنه خائفٌ من اكتساح الإسلام لأوروبا، بدرجة مبالغ فيها، تلحقه بما اصطلح على تسميته في بعض الدوائر الغربية {Islamo-Phobia} أو «رُهاب الإسلام».

تلك هي دلالة كلامه، أما باعثه وتفسيره - في نظر بعض الدعاة هناك - فأمران أحلاهما مُرٌّ:

أحدهما: اعتناقه «الإسلام الصوفي»، لا الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، إسلام أصحاب القول بالحلول ووحدة الوجود، الذين يضاهئون قول النصارى في المسيح عليه السلام. فهو يمقت إسلام الدعوة والعلم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويستريح إلى همهمات المجذوبين، وطقطقات السبحات، وحضرات الصوفية(١).

الثاني: أنه دسيسة من قبل الفاتيكان في جسم المسلمين لإفساد أمرهم، ودعم محاولات الفاتيكان وتوجيهاته في التقريب بين الأديان، وتحقيق الاحترام المتبادل. والله أعلم.

---

(١) حدثني مرافق لي في هذه الزيارة يتقن الإيطالية، أنه أثناء جلوسي مع بلافتشيني، دعاه ابنه يحيى إلى المشاركة في حلقة لأعضاء الجمعية، ودار فيها كلام صوفي موحش من كلام أهل وحدة الوجود، حتى قال يحيى بن عبد الواحد بلافتشيني وهو يتحدث عن «الإنسان الكامل»: (إن ذلك الإنسان يظل يسمو حتى يصل إلى درجة يصبح خطابه لله تعالى كخطاب إلهٍ لإله)، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

- **فرنسا:**

يعيش في فرنسا قرابة أربعة ملايين مسلم، معظمهم من أبناء المغرب العربي، يضمهم في فرنسا أكثر من تسعمئة وخمسين مسجدًا، حسب إحصائية رسمية في عام ١٩٩٢م⁽¹⁾، ولم يزَل هذا العدد يتنامى⁽٢⁾.

(ويوجد في فرنسا أكثر من مئة مجموعة مسيحية إسلامية محلية، باعثها شؤون مدنية، وأحداث عالمية، وموضوعات عقدية وروحية، تعمل بصورة مستقلة، وتقرر أسلوبها الخاص، وأهدافها، وبرامج عملها، دون أن يضمها اتحاد قومي... وباتت زيارة أماكن العبادة بين الجانبين حدثًا يوميًّا، فيمكن للنصراني أن يدخل المسجد بسهولة، كما أنه ليس مستغربًا أن يوجد المسلمون في الكنائس، خصوصًا في مناسبات التعميد، والزواج، والمآتم، والحفلات الأخرى لأصدقائهم وجيرانهم النصارى. ويحدث غالبًا أن يتصل المسلمون بالأبرشيات للسعي في المساعدة في توفير مكان ملائم للصلاة، خلال شهر رمضان، لطلب توقيع لدعم الجمعيات الإسلامية، ولمواجهة توترات الحوار، ولإظهار التكافل مع طالبي اللجوء في كوارث الانفجار)⁽٣⁾.

وهذا نموذج للجهات المهتمة بالحوار والتقارب بين الأديان في فرنسا⁽٤⁾:

١. (فرقة الأبحاث الإسلامية المسيحية) GRIC:

تعد هذه المجموعة الدراسية من أنشط مجموعات الحوار الإسلامي النصراني في العالم من الناحية البحثية، وقد ولدت في المؤتمر الأخير لدير سيننكا

---

(١) مجلة ٣٠ يومًا. عدد ٢ عام ١٩٩٦م. «المسلمون في القارة القديمة» (٣٠، ٣١).

(٢) تعد فرنسا أعلى البلدان الأوروبية في نسبة الهجرة، إذ تبلغ ٨٪ من مجموع السكان، انظر جريدة الحياة السبت ١٨ نوفمبر عام ١٩٩٥م.

(٣) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. P/36-37.

(٤) ينظر الأصل للمزيد من النماذج.

عام ١٩٧٧م، وتألفت من تنسيق جهود (فرقة أبحاث إسلامية مسيحية) في فرنسا، ونظيرتها في شمال إفريقيا، وتضم ثمانين مثقفًا من الجانبين، يعالجون مسائل عقدية تجمع وتفرق أتباع الديانتين(١).

وهذه الجمعية وسابقتها تمثلان نمطًا نادرًا من محاولات التقريب بين الأديان بطرحهما الاختلافات العقدية على مائدة البحث، مما تحاشاه كثير من المحاولات الأخرى، إما خشية الخصومة والتفرق، أو خشية الوقوع في التلفيقية. وربما وجدتا في متاهة التصوف المتشعبة من الأديان مجالًا للوصول إلى صيغٍ مشتركة في بعض المسائل العقدية.

وقد صدر عن مجموعة {GRIC} ميثاق مشترك يكشف عن طبيعة توجهها وأهدافها، نقتطف منه ما يأتي:

١ - إننا جميعًا، مسيحيين ومسلمين، نعتقد أن الرب قد استعلن بالكلمة. المسلمون يُعرِّفون هذا الاستعلان بالقرآن، والنصارى يرونه في عيسى المسيح نفسه، وكلمة الله صنعت الإنسان، كلٌّ من جماعتينا تعتقد أن إيمانها عطية من الله تقبلها النوع البشري، وأن هذا يعين لها طريقة خاصة جدًّا للاتصال بالله. إنه لهذا السبب نحن نكون نصارى أو مسلمين، ولسنا أتباعًا لدينٍ آخر أو ملاحدة...

٤ - إننا لا نحاول التوفيق فيما لا يمكن توفيقه، إننا لا نسعى لكتمان أو تقليل اختلافاتنا الأساسية، أو لِنجد بعض قاسم مشتركٍ عام يجمع المتناقضات فقط على حساب الحقيقة. هدفنا أن نعرف بالضبط أين تقع الاختلافات الأساسية فعلًا، وليس أن يظن أين تقع، حين تصور من وجهة نظر لأوضاع ثابتة)(٢).

---

(١) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. P. ٣٧-٦٩.

(٢) عن Recognize The Spiritual Bonds. P. ٧٠.

ولا يخفى ما في هذه الصياغة من تعبيرات ومضامين كنسية مجافية للإسلام، بتنظير عقيدة الحلول النصرانية بعقيدة «القرآن كلام الله غير مخلوق»، لتسويغ كفرهم بالله العظيم.

لقد نشطت هذه الفرقة GRIC في مجال الحوار الإسلامي النصراني، وتفرعت عن دير سيننكا، ذي الاهتمام بالحوار بين المسلمين والنصارى واليهود، واتخذت من باريس مقرًّا لها، في حين تعقد مؤتمراتها المتتابعة في دول شمال إفريقيا المسلمة وأوروبا(١).

ويلاحظ في هذه المؤتمرات الصيفية المتتابعة، النزوع إلى الأسلوب البحثي الذي لا يكترث بتكثير الحضور، بل يقتصر على النخب المثقفة، ويتناول موضوعات معينة يتناولها بالبحث والحوار على مدى سنواتٍ متتابعة لحين الوصول إلى صيغة معينة، ثم يقوم بنشر أبحاثه في كتب، وليس في بيانات مشتركة وقد صدر منها فعلًا:

- تلك الكتب التي تُسائِلنا: الإنجيل والقرآن. «عنوان الطبعة الفرنسية» أو: تحدي الكتب المقدسة: الإنجيل والقرآن. «عنوان الطبعة الإنجليزية».

٢. (جمعية الحوار الإسلامي المسيحي) A.D.I.C:

تأسست هذه الجمعية بمبادرات عربية وفرنسية، إسلامية ونصرانية، في نهاية عام ١٩٨٧م، توجت بعقد أول اجتماع تأسيسي في ١٢/ ١٠/ ١٩٨٩م، شارك فيه ثمانون شخصية من فرنسا والمغرب العربي والشرق الأوسط وغرب إفريقيا.

---

(١) ساق المصنف في الأصل المؤتمرات التي رعتها هذه الفرقة.

ومن أبرز الشخصيات المؤسسة من الجانب النصراني: ميشال لولون، مستشار الفاتيكان السابق لشؤون الإسلام، والأمين العام للجمعية. ومن الجانب الإسلامي الدكتور التيجاني هدام، وزير الأوقاف السابق في الجزائر، وعميد المعهد الإسلامي لمسجد باريس، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى في فرنسا، ورئيس الجمعية، مقاسمةً مع السياسي الفرنسي فرناند رويون، سفير فرنسا الأسبق في دمشق وأنقرة⁽¹⁾.

كما رأس الجمعية أيضًا الدبلوماسي المصري عادل عامر، والدكتور علي السمان⁽²⁾. وأبرز أعمال الجمعية على الإطلاق:

المؤتمر «العالمي للحوار الإسلامي - المسيحي»:

عقد هذا المؤتمر بمقر المجلس الأوروبي بمدينة «ستراسبورغ» الفرنسية، يومي ٣ و٤ جمادى الأولى عام ١٤١١هـ، الموافقين ٢٠ و٢١ ديسمبر عام ١٩٩٠م. ويمكن تحديد بواعث الدعوة للمؤتمر، كما تراها إدارة الجمعية بما يأتي:

١ - ازدياد حدة المشاعر العنصرية لدى الفرنسيين، وقلق المسلمين في فرنسا من العداء المعلن من أحزاب اليمين الفرنسي المتطرف ضد العرب والمسلمين.

٢ - الصورة المشوهة عن الإسلام في الغرب، من جراء الحملات الإعلامية ضد الإسلام خصوصًا، بعد تفاعلات قضية الكاتب البريطاني، ذي الأصل الهندي، سلمان رشدي⁽³⁾.

---

(١) انظر: مجلة الموقف. عدد ٧٥. أبريل ١٩٩١م - رمضان ١٤١١هـ (٤٢).

(٢) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (١٥٢).

(٣) وذلك بسبب إصداره كتاب «آيات شيطانية»، الذي تعرض فيه للإساءة إلى زوجات رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهن وبرأهن، وكفريات أخرى. وقد أصدر الزعيم الرافضي «آية الله خميني» فتوى بإهدار دمه، وكان لتلك الفتوى أسوأ الأثر في لفت الأنظار إلى كتابه وترويجه، والنيل من الإسلام وشريعته.

٣ - أحداث لبنان التي صورت للرأي العام الفرنسي بأنها اضطهاد للنصارى في المشرق، ما أدى إلى ظهور كتابات فرنسية متعصبة[١]، ككتاب جان - بيار فالونيه: «حياة مسيحيي الشرق وموتهم»، الذي سبق التعريف به في الباب الأول.

وقد حظي المؤتمر بحضور مميز وكثيف، فقد شارك فيه ثمانون مسلمًا، وثمانون نصرانيًّا، فيهم شخصيات دينية وسياسية بارزة مثل:

- الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي. د. عبد الله عمر نصيف.

- مدير عام الأونسكو. فيديريكو مايور.

- رئيسَي وزراء في حكوماتٍ فرنسية سابقة هما: جاك شابان دلماس، وكلود شيسون.

- وزير الثقافة الفرنسي جاك لانغ، ووزير الدولة الفرنسي للشؤون الخارجية، رولان دوما.

- الأمين العام للمجلس الأوروبي، كاترين لالومبير... وآخرين.

وتليت فيه رسائل من الرئيس المصري حسني مبارك، ورئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان، الكاردينال فرنسيس آرينزي، والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، حامد الغابد.

وشارك في المؤتمر وفودٌ من مصر والسعودية وفلسطين والجزائر ولبنان والإمارات العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ورابطة العالم الإسلامي، وجمعيات إسلامية أوروبية، وجمعيات فرنسية مماثلة، كما مثلت فيه مختلف الكنائس النصرانية الكبرى.

---

(١) انظر: مجلة «الموقف» عدد ٧٥. أبريل عام ١٩٩١م - رمضان ١٤١١هـ (٤٢).

وكانت المحاور الرئيسة لبحوث وكلمات المؤتمر حول ثلاثة موضوعات رئيسة: الأديان والسلام، والدين والمجتمع والثقافة، ومسؤولية المؤمنين اليوم.

ونقتطف بعض الجمل التي وردت على ألسنة بعض المتحدثين:

- السفير أحمد وسيدو، ممثل أمين منظمة المؤتمر الإسلامي حامد الغابد: (الحوار بين الأديان، يجب أن يكون من خلال التعاون في القضايا المشتركة التي يسببها الشقاء والتخلف والبؤس والمرض في العالم).

- الأب ميشال سوران، سكرتير الفاتيكان السابق للعلاقة مع الإسلام: (إن المواقف التي اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية خلال العقود الأخيرة - حول الحوار - قد اتُّخِذت بانسجام تامٍّ مع إيمانها وعقيدتها، وهذه المواقف لم تشكل بالنسبة لها تخليًّا عن هويتها، وإنما شكلت أكثر من عودةٍ مطلوبة إلى هذه الهوية).

- عبد الحق إسماعيل غيدر دوني(١)، ممثل جمعية المسلمين الإيطاليين: (إن الحوار بين الأديان يمكن أن يصبح دليلًا ومرشدًا لتحولنا الداخلي، ويجب علينا أن ندرك أن الإيمان بالله الواحد المتعال، والذي هو أيضًا إله الرحمة، الرحمن. ويجب علينا أن نحرص على ألَّا يسبق ويتقدم الإيمان بالطائفة، على الإيمان بالله)(٢).

ويظهر الفرق جليًّا بين النصين الأخيرين؛ نصراني ينفي نفيًا قاطعًا أن يكون الحوار تخليًا عن الهوية العقدية، ومسلم يرى الحوار دليلًا على تحولٍ داخلي يقدم الإيمان بالله بصورته المبهمة المجملة على إيمان الطائفة الخاص!

---

(١) وهو نائب رئيس جمعية «قريش» عبد الواحد بلافتشيني، الذي سبق التعريف به وبجمعيته في محاولات التقريب في إيطاليا.

(٢) انظر: هذه النصوص في ملف المؤتمر، مجلة الموقف. عدد ٧٥ أبريل ١٩٩١م (٤٣ - ٥٣).

وقد صدر في نهاية أعمال المؤتمر بيان ختامي، جاء في توصياته:

- (... إن المعرفة لا تكفي، فبعد أن تتزود الجماعات المسلمة والمسيحية بغنى القيم الروحية والأخلاقية المشتركة بينها، والنابعة من الإنجيل والقرآن، عليها أن تعمل مع سائر الجماعات الدينية: من جهة، لتحديد أطر الاتفاق الممكن بين مواقفها تجاه المشكلات الحالية والمستقبلية، لا سيما في سبيل السلام والعدالة الاجتماعية والحرية الدينية. ومن جهة أخرى، للعمل معًا للتأثير في السلطات الحكومية والرأي العام بما يخص تلك الحقول وتلك الاتجاهات)[1]. كما تضمن البيان تعهد A.D.I.C بالقيام بدور المنسق والوسيط لتحقيق تلك الأهداف.

- **ألمانيا:**

يقطن ألمانيا جالية إسلامية كبيرة تبلغ أربعة ملايين مسلم، معظمها من الأتراك، وحسب إحصائية رسمية في عام ١٩٩٢م، فإن عدد المساجد في ألمانيا بلغ ستمئة مسجد[2]، ولا شك أن العدد قد ازداد خلال السنوات اللاحقة. ويوجد في ألمانيا، شرقيها، وغربيها، مؤسسات معنية بالتقريب بين الأديان على المستويين المحلي والعالمي. ومن أبرزها:

(**مؤسسة أديناور**[3]): وقد عقدت المؤسسة بضعة لقاءاتٍ ثنائية؛ إسلامية

---

(١) البيانات المسيحية الإسلامية (١٦٥ - ١٦٦). ومجلة الموقف (٥٧/ ٥٤ - ٥٥).

(٢) انظر: مجلة ٣٠ يومًا. عدد ٢ لعام ١٩٩٦م (٣١)، وتبلغ الآن أكثر من ألف مسجد ومصلى، كما في كتاب: المسلمون في ألمانيا أصولًا وهجرات: مصطفى دسوقي كسبه. مجمع البحوث الإسلامية - مجلة الأزهر. طبعة جمادى الآخرة عام (١٤١٨هـ) القاهرة. (٤١).

(٣) (نسبة إلى السياسي الألماني «كونراد أديناور» (١٨٧٦ - ١٩٦٧م) الذي نهض ببلاده من سقطتها إثر الحربين العالميتين، وأسس الحزب الديمقراطي المسيحي، ورأس حكومة ألمانيا الاتحادية «ألمانيا الغربية» للفترة (١٩٤٩ - ١٩٦٣م) انظر: المنجد في الأعلام. (٣٠).

- نصرانية، يهودية - نصرانية، وأخرى ثلاثية الأطراف: إسلامية - يهودية - نصرانية، في عدة مواقع في العالم منذ مطلع الثمانينيات الميلادية من أهمها:

مؤتمر «الأديان تدعو إلىٰ أوروبا بلا عنصرية»:

هو شعار الملتقى الثامن لمؤتمر «عبر الثقافات»، المنعقد في مدينة فرانكفورت في ١٨ - ٢٠ أغسطس عام ١٩٩٧م، بحضور ممثلين عن المسلمين، والنصارى بشقيهما الكاثوليكي والبروتستانتي، واليهود. وانصب الحديث على خطر تصاعد النزعة العنصرية، والتطرف الديني في أوروبا، حيث يجري في ألمانيا سلسلة جرائم ضد المهاجرين المسلمين من قبل «النازيين الجدد»، وأحيانًا إحراق كنائس ومنازل ومساجد.

ومما قيل في المؤتمر المذكور:

- (قال يورجن ميكش، ممثل الكنيسة البروتستانتية: (إن على الأديان أن تقف موحدة في مواجهة العنصرية... إن الامتناع عن الحوار بين الثقافات، والجهل بالأديان، يعزز أجواء عدم الثقة بين الديانات المختلفة، ويغذي التعصب الديني.

- ندَّد نديم إلياس، رئيس المجلس الإسلامي المركزي في ألمانيا، بالممارسات العنصرية التي يقع المسلمون ضحية لها في أوروبا. كما طالب إلياس بتقبل «الوسط الإسلامي المعتدل» كطرفٍ حواري كُفْء مع الأديان الأخرى. وعدَّ ذلك خطوة مهمة تقطع الطريق على «تحول الشباب إلى مواقف متطرفة».

- ودعت رئيسة اتحاد الكنائس الألمانية بيربل فارتنبيرج بوتر، الأديان إلى تقوية إيمانها بعملها المشترك، والابتعاد عن دعاوى انفرادها بامتلاك الحقيقة، كمثل يدفع العنصريين أيضًا للانفراد بها، وتحويلها إلى مدخلٍ لهجماتهم)⁽١⁾.

---

(١) جريدة الشرق الأوسط. عدد (٦٨٤٠) في ٢٠/ ٨/ ١٩٩٧م. ماجد الخطيب. كولون. ألمانيا.

وقد اتفق المؤتمرون على تأسيس رابطة معادية للعنصرية لمواجهة «حملة العداء للأجانب في ألمانيا».

هذا ويلمس الباحث اهتمامًا ملحوظًا بالإسلام والحوار مع المسلمين في الأوساط الرسمية والعلمية في ألمانيا في الآونة الأخيرة، سوى مؤتمرات التقارب المشار إليها آنفًا، ومن صور ذلك:

١. منح اتحاد الناشرين الألمان «جائزة السلام» لعام ١٩٩٥م، لعميدة المستشرقين الألمان الأستاذة: أنا ماري شيمل، المعروفة بدفاعها عن الإسلام، ودحضها الشبهات التي أطلقها الأوروبيون النصارى، من مستشرقين ومنصرين على الإسلام(١). وقد قلدها الوسام رئيس الجمهورية الألمانية الاتحادية د. رومان هيرتزوغ.

٢. استقبل رئيس الدولة الألمانية الاتحادية رومان هيرتزوغ، في قصر الرئاسة ببرلين، شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي، يوم الاثنين الأول من ذي القعدة عام ١٤١٧هـ، الموافق ١٠ مارس عام ١٩٩٧، وصدر بيان عن وزارة الخارجية في إثر الزيارة، أشارت فيه إلى أن كينكل والشيخ الطنطاوي عدًّا أن الزيارة بمنزلة «إشارة مهمة للمسيحيين والمسلمين في أوروبا الذين عليهم أن ينظروا إلى بعضهم بعضًا من دون مواقف مسبقة، وأن يمارسوا حوارًا مفتوحًا على مختلف الحضارات». وذكر البيان أن أوروبا والعالم الإسلامي يملكان تاريخًا مشتركًا عمره مئات السنين، ومع ذلك فإن الطرفين يعرفان القليل عن بعضهما بعضًا، ودعا إلى النظر في الإسلام «بشكل متميز، وعدم السماح بتشويهه بسبب أعمال المتطرفين فيه».

---

(١) انظر: حوارًا معها في جريدة الحياة. عددي (١٢١٢٩)، (١٢١٣٠) يومي السبت والأحد ٢٣، ٢٤ ذي الحجة عام ١٤١٦هـ الموافقين ٢٣، ٢٤ مايو عام ١٩٩٦م. صفحة «تراث» ٢١، ٢٢. حوار: ثابت عيد.

وقد دعت الجمعية الألمانية - العربية، ومؤسسة كونراد أديناور في بون إلى حضور حديث للشيخ الطنطاوي ظهر يوم الثلاثاء في قاعة المركز العلمي الكبيرة(١).

٣. أعلن رئيس ألمانيا الاتحادية، رومان هيرتزوغ يوم الجمعة الموافق ٢٦/ ٦/ ١٤١٩هـ - ١٦/ ١٠/ ١٩٩٨م عن تأسيس معهد دولي للحوار الإسلامي النصراني، بمشاركة ثماني دولٍ أوروبية وإسلامية (النرويج، وفنلندا، وإسبانيا، وإيطاليا وماليزيا ومصر والأردن والمغرب)، بهدف إدارة الحوار الإسلامي الأوروبي بشكل فعال(٢).

إن هذا الاهتمام الحكومي والمؤسسي - العلمي والاجتماعي - بقضية التقارب مع المسلمين، والحوار معهم محليًّا وعالميًّا يندرج في عموم القلق الأوروبي العام من الصحوة الإسلامية، وتزايد الإقبال على الإسلام من مواطنيها، ورغبة المهاجرين المسلمين، في تحسين أوضاعهم، ونيل حقوقهم الاجتماعية والسياسية التي تكفلها الدساتير الغربية من حيث المبدأ، وأيضًا خوف تلك الحكومات من تصاعد وتيرة التعصب الديني النصراني ضد الأجانب أولًا، ثم - ربما - ضد بعض طوائف النصارى من قِبل بعض آخر.

- **نقد وتحليل:**

لقد ضاهت المحاولات الناشئة للتقريب بين الأديان في أوروبا الغربية، من حيث العدد والفاعلية، مثيلاتها الصادرة عن الكنيسة الكاثوليكية ومجلس الكنائس

---

(١) انظر: جريدة الحياة، عددي (١٢٤٣٠، ١٢٤٣٢) يومي الثلاثاء والخميس ٢، ٤ ذي القعدة عام ١٤١٧هـ الموافقين ١١، ١٣ مارس عام ١٩٩٧م. «شؤون عربية».

(٢) جريدة المسلمون، العدد الأخير (٧١٥) السبت ٢٧/ ٦/ ١٤١٩هـ = ١٧/ ١٠/ ١٩٩٨م.

العالمي. ولكنها تنوعت تنوعًا كبيرًا في بواعثها، وموضوعاتها، وأسلوب أدائها، لتنوع وتعدد الجهات التي تبنتها من حكومية أو أهلية. ويمكن أن نميز الاتجاهات الآتية:

١. اتجاه المجمع الفاتيكاني الثاني: الذي يهدف إلى تحقيق التعارف، والتواصل العام، وتبادل المجاملات، وطرح موضوعات معينة من جنس مقاومة الإلحاد، وتعزيز قيم الإيمان والأخلاق، إضافة إلى مناقشة بعض الجوانب العقدية التي تحجم عنها المراجع الدينية الرسمية. وقد ساد هذا الاتجاه في حقبة السبعينيات الميلادية كما في مؤتمرات: قرطبة، مودلينج. كما نشط التقارب على أسس صوفية في فرنسا وإيطاليا.

٢. الاتجاه الاجتماعي: الذي فرضته حركة الهجرة العمالية الواسعة إلى أوروبا في حقبة الثمانينيات وأواخر السبعينيات، مما حمل جهات كنسية وأهلية وحكومية على عقد عشرات المؤتمرات المحلية والإقليمية لمعالجة وضع الجاليات الإسلامية في أوروبا، والتركيز على سبل دمجهم في المجتمع الأوروبي، كما في المؤتمرات المعقودة في فرنسا وبريطانيا وألمانيا.

٣. الاتجاه السياسي: الذي تبنته بعض الحكومات الأوروبية في أواخر الثمانينيات وخلال التسعينيات، واتسم بالصفة الدولية ومناقشة قضايا الإرهاب والأصولية والسلام العالمي، كما في المؤتمرات التي عقدت في النمسا وفرنسا والسويد. وبالجملة، فلا تزال قضية الوجود الإسلامي في أوروبا مصدر قلق لجهات كنسية وحكومية وأهلية، سواء بالنسبة للمهاجرين أو للأهليين من المسلمين، لا سيما أن أعداد المسلمين آخذة بالازدياد، وهذا يؤثر في طموحات دول الاتحاد الأوروبي في (أوروبا موحدة)، التي أهم ركائزها (وحدة الدين).

وقد أثبتت أحداث العقد الأخير من القرن العشرين الميلادي في البلقان (البوسنة، والهرسك، وكوسوفا) عمق الافتراق بسبب الاعتقاد، وأن جذوة التعصب الصليبي لم تطفئها رياح المبادئ العلمانية والليبرالية والإنسانية، بل اتقد أوارها، وزاد ضرامها كأعنف ما تكون، عند أدنى شعور بوجود متميز للمسلمين في أوروبا.

المبحث الخامس

محاولات التقريب بين الأديان في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي (سابقًا)

- **تشيكوسلوفاكيا (سابقًا):**

مؤتمر «الحوار الإسلامي المسيحي حول الدين والسلام في الشرق الأوسط»:

عُقِد هذا المؤتمر في مدينة «براغ» عاصمة تشيكوسلوفاكيا - قبل انقسامها - في ١ - ٣ فبراير عام ١٩٨٦م. وشارك فيه عشرون من المسلمين والنصارى. وقد رأس الجانب الإسلامي مفتي سوريا، الشيخ أحمد كفتارو، ورأس الجانب النصراني، د. كارل هاينتس بيرنهارت، الأستاذ بكرسي العهد القديم في قسم اللاهوت في جامعة «هومبولت» في برلين من ألمانيا الديمقراطية حينذاك، بدعوة من مؤتمر السلام المسيحي.

وقد صدر عن المؤتمر بيان مشترك تضمن الإقرار الصريح بنبوة محمد ﷺ، جاء في مطلعه: (نحن المشتركين في هذا اللقاء المنتمين إلى دينين سماويين نتفق في الإيمان بالله الواحد الأحد، خالق الأرض والسماوات، كما نتفق بأنه لا إله إلا هو، ونشهد كأناسٍ تابعين للسيد المسيح رسول الله، وللنبي محمد رسول الله، بإيماننا بالله، وبالرسائل المرسلة من قبل الله التي تحمل الحكمة والحب والإخاء)، وجاء في أثنائه: (جميع المشاركين في المناقشات أكدوا في كلماتهم النقاط المحددة في المحاضرتين بأن الإيمان بالله، وبرسالتي عيسى ومحمد

السماويتين من جهة، والعمل الشامل من أجل السلام، شيئان متلازمان)(١).

وقد اكتسى البيان صبغة البيانات السياسية، فأشاد على لسان رئيس الوفد المسيحي بالأمين العام للحزب الشيوعي السوفيتي، ميخائيل جورباتشوف، واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، إذ ذاك، على البدءِ من جانبها في وقف الاختبارات النووية، وفي البيان نفسه دعا الدكتور بيرنهارت إلى (كشف الحجج المستترة بالدين للخلافات السياسية). وحول مشكلة الشرق الأوسط دعا البيان إلى: (تأمين حق الشعب الفلسطيني في دولةٍ خاصة به). وأكد المفتي العام لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، طلعت تاج دينوف (ضرورة دحر جميع المحاولات لاتخاذ الدين مبررًا للسياسة الصهيونية التوسعية وغير المشروعة).

• الاتحاد السوفيتي (سابقًا):

إنه لمن دواعي العجب أن تحتضن أكبر دولة شيوعية ملحدة، مؤتمراتٍ دينية، إذ إنها قامت أصلًا على إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى، وتكذيب أنبيائه ورسله، ومحاربة أوليائه، ونشر الكفر والإلحاد والفساد بجميع صوره.

ويزول العجب حين يقف المرء على الدوافع التي من أجلها يُحشد «رجال دين» من شتى الأقطار، للتوقيع على بيان مُسَيَّس يخدم أهداف تلك الدولة. وقبل أن يتفكك اتحاد الجمهوريات السوفيتية عام ١٩٨٩م، جرى فوق أراضيه الشاسعة عقد بضعة مؤتمرات أهمها:

---

(١) انظر: نص البيان باللغتين العربية والتشيكية في الملحق رقم (٣٣) من كتاب: «الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مساجد دمشق» (٢/ ١٠٤٥).

المؤتمر «الدولي للأديان»:

عقد هذا المؤتمر في مدينة «زاغورسك» بالقرب من موسكو، عام ١٩٦٩م، وحضره مفتي سوريا، الشيخ أحمد كفتارو، واتسمت قراراته بالسمة السياسية حول الوضع في الشرق الأوسط، والدعوة إلى النضال في سبيل السلم(١).

مؤتمر «التعاون الديني من أجل السلام ونزع السلاح»: عقد هذا المؤتمر في موسكو، في عام ١٣٩٧هـ، الموافق ١٩٧٧م(٢).

المؤتمر «العالمي لرجال الأديان في سبيل إنقاذ الحياة البشرية من الكارثة النووية»: عقد هذا المؤتمر في موسكو، في عام ١٤٠٢هـ، الموافق ١٩٨٢م(٣).

مؤتمر «من أجل السلام والتآخي بين الشعوب»: عقد هذا المؤتمر الثنائي - إسلامي نصراني - في مدينة تشيكنت في الاتحاد السوفيتي، في عام ١٤٠٣هـ، الموافق ١٩٨٣م(٤).

مؤتمر «من أجل كونٍ تَحَرَّر من جميع الأسلحة النووية في سبيل حياة البشر»: عقد هذا المؤتمر الضخم متعدد الأطراف في موسكو، في عام ١٤٠٧هـ، الموافق ١٩٨٧م، وقد حضره حوالي ألف مشارك من ثمانين بلدًا(٥).

---

(١) انظر: الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة (٢/ ٧١٤ - ٧١٦).

(٢) انظر: اللوحة التابعة لكتاب: البيانات المسيحية الإسلامية. تسلسل (٨٣).

(٣) انظر: نص المحاضرة في الملحق رقم (٢٧) من كتاب: الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة (٢/ ١٠٢٢ - ١٠٢٤).

(٤) انظر: اللوحة التابعة لكتاب: البيانات المسيحية الإسلامية. تسلسل (١٢٨).

(٥) انظر: اللوحة التابعة لكتاب: البيانات المسيحية الإسلامية. تسلسل (١٨٣).

ويظهر من شعارات هذه المؤتمرات أنها موجهة لخدمة أغراض سياسية معينة حول قضايا سباق التسلح والحرب الباردة التي كان المعسكر الشيوعي أحد قطبيها. ولم تكن معنية بمناقشة قضايا دينية عقدية أو اجتماعية أو دعوية، كما هو الشأن مع كنائس أوروبا الغربية، المستقلة عن تأثير حكوماتها نسبيًّا.

المبحث السادس

محاولات التقريب في الولايات المتحدة الأمريكية

يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية عددٌ كبير من المسلمين، هاجروا من شتى بقاع العالم واستوطنوا تلك البلاد ذات التنوع العرقي والديني والثقافي.

إن وجود قرابة سبعة ملايين نسمة في الولايات المتحدة من المسلمين على مشارف القرن الحادي والعشرين قد نبَّه أطرافًا عديدة في الساحة الأمريكية إلى ضرورة التحاور معهم.

نذكر ههنا بعض المحاولات التي تمت على الصعيد الإسلامي النصراني، أو المحاولات التي انتظمتها جميعًا، نظَّم بعضها مركز «كيندي» في واشنطن:

١ . مؤتمر «الحوار الثلاثي بين الأديان الإبراهيمية»:

عقد في نيويورك، في شهر نوفمبر عام ١٩٧٩م ⁽١⁾.

٢ . مؤتمر «في سبيل الحوار»:

عقد في مدينة «ملووكي» بولاية وسكونسن بين مسلمين ونصارى، في عام ١٤٠٣هـ، الموافق ⁽٢⁾١٩٨٣ .

---

(١) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. P.١٠٣ .

(٢) انظر: اللوحة التابعة لكتاب: البيانات المسيحية الإسلامية. تسلسل (١٢٧).

٣. مؤتمر «الفاتيكان والإسلام والشرق الأوسط»:

عقد هذا المؤتمر الكبير في جامعة فيلانوفا الكاثوليكية -فيلادلفيا، عام ١٩٨٥م(١).

كما تكون في عقد السبعينيات والثمانينيات بعض اللجان والجمعيات المحلية المعنية بقضية الحوار، مثل:

- **(المائدة المستديرة بين المسلمين والنصارى واليهود في ديترويت)**: بدأت منذ عام ١٩٨٦م في استضافة منتديات سنوية حول الاحترام، والمصالحة، والحرية الدينية، والالتزام نحو السلام.

- **(الحملة الخاصة Task Force للمجمع الوطني لكنائس المسيح في الولايات المتحدة NCCC)**: التي عقدت ثلاثة ملتقيات سنوية، ونشرت رسائل إخبارية وكتيبات، وشجعت بعض المؤتمرات على الحوار وتفهم الإسلام والتفاعل مع المسلمين(٢).

٤. مؤتمر «السعي للحوار»:

عقد في مدينة واشنطن، بمبادرة من مؤتمر الأساقفة الكاثوليك الوطني {NCCB}، والمجمع الإسلامي الأمريكي، وجامعة العالم الإسلامي في عام ١٤١٢هـ، الموافق ١٩٩١م. ويعد هذا اللقاء أول لقاء إسلامي - نصراني على مستوى الولايات المتحدة، وقد سبق بمؤتمراتٍ محلية بين الجانبين منذ عام ١٩٨٦م(٣)، فقد شارك فيه مشاركون قدموا من شيكاغو وديترويت ولوس أنجلوس

---

(١) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. P.79.

(٢) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. P.108.

(٣) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. P.108.

ونيويورك وواشنطن، بهدف رفع التبادل الإسلامي - النصراني إلى مستوى قومي. وحدد البيان المشترك أهداف المؤتمر بما يأتي:

- مراعاة الاحترام والتفاهم.

- العمل على وضع حدٍّ للصورة المشوهة والمبتذلة عن المعتقدات، بإعادة النظر في العرض الذي ينشره الآخرون في المنشورات الكاثوليكية الرسمية.

- التطرق بالحوار إلى معنى الرسالة والدعوة وطرقهما وأهدافهما.

- ضم جهودهم لتحقيق القيم المشتركة، ولا سيما العدل والسلام واحترام الخليقة.

- التعاون في الحصول على التعايش السلمي بين الجماعتين في الولايات المتحدة، وسائر أنحاء العالم...)(١).

(مركز التفاهم الإسلامي المسيحي):

جاء في أحد منشورات المركز التعريف الآتي: (تأسس مركز التفاهم الإسلامي المسيحي: تاريخ وقضايا عالمية في ١٩٩٣م، من قبل جامعة جورج تاون، و... في جنيف، لتعزيز الحوار بين الديانتين الكبيرتين... إن تأسيس مركز التفاهم الإسلامي المسيحي ينبع من دور الدين في النظام العالمي المعاصر... ولذا فإن دراسة الإسلام في جورج تاون يشمل محتواه الديني، ومغزاه الثقافي، ودوره في القضايا العالمية، إضافة إلى الخبرة المسيحية في العالم الإسلامي.

إن تركيز مناشط المركز، معًا في المجال القومي والعالمي تتم من خلال التعليم والندوات، والمؤتمرات العالمية...)(٢).

---

(١) البيانات المسيحية الإسلامية (١٨٠ - ١٨١).

(٢) Christian - Muslim Relation In The Twenty First Century العلاقات المسيحية الإسلامية في القرن الحادي والعشرين. محاضرة من منشورات المركز - صفحة تعريفية.

ويرعى برنامج المركز الجهات الآتية:

١ - مؤسسة العلاقات المسيحية الإسلامية في جنيف.

٢ - نقابة الموارد الماليزية، الكرسي الماليزي للإسلام في جنوب شرق آسيا.

٣ - سناء صباغ لجناح حسيب صباغ.

٤ - مصانع زينل المحدودة، في العربية السعودية(١).

ولا يزال المركز يمارس نشاطه حتى الآن.

- **نقد وتحليل:**

ونلاحظ في محاولات التقريب بين الإسلام والأديان في الولايات المتحدة الأمريكية ما يأتي:

١. تأخر هذه المحاولات مقارنة بأوروبا الغربية، فجمعية الأصدقاء الأمريكان للشرق الأوسط التي تأسست في حدود سنة ١٩٤٨م لم تكن تمارس نشاطها في الولايات المتحدة، مقرها، بل كانت تتخذ من الشرق الأوسط حقلًا لتجاربها التقريبية التي منيت بالفشل(٢).

أما مؤتمر مجلس الكنائس العالمي المنعقد في إيفانستون عام ١٩٤٨م، فقد كان ومضة عابرة، قدح زنادها حضور مندوبَين من اللجنة الدائمة للتعاون الإسلامي المسيحي المنبثقة عن مؤتمر بحمدون المنعقد في العام نفسه(٣)، ثم خبت.

---

(١) انظر: المرجع السابق (١٧، ١٨).

(٢) انظر: الحديث عن الجمعية ومؤتمراتها في مبحث «المحاولات المبكرة» من هذا الفصل.

(٣) انظر: الحديث عن المؤتمر في مبحث «محاولات مجلس الكنائس العالمي» من هذا الفصل.

ولم يظهر على السطح وجود ملموس لمحاولات التقريب إلا في أواخر عقد السبعينيات الميلادية، حين ابتكر «مركز كيندي» في واشنطن مصطلح «الحوار الثلاثي» {Trialogue}، لأول مرة في تاريخ الحوار الديني، بدءًا من عام ١٩٧٨م مرورًا بعقد الثمانينيات، بتنظيم دورات للقيادات المثقفة من المسلمين والنصارى واليهود، لمناقشة موضوعات عقدية واجتماعية، بل وسياسية حساسة⁽¹⁾.

ولعل هذا الفارق الزمني الملحوظ بين أمريكا وأوروبا الغربية في الاهتمام بقضية التقريب يعود إلى الفاصل الجغرافي والتاريخي والاجتماعي بين العالم الإسلامي والعالم الجديد «الأمريكيتين»، في مقابل الإرث التاريخي، والتواصل الجغرافي والاجتماعي بين أوروبا والعالم الإسلامي، فضلًا عن كون أوروبا محضن النصرانية الذي تأرز إليه منذ قرون، ومنها خرجت دعوة التقريب بين الأديان في ثوبها المعاصر.

وثمَّ سبب مهم آخر، هو تأخر الهجرات الإسلامية المؤثرة إلى القارة الأمريكية.

٢. معظم المحاولات والمبادرات النصرانية تمت من قبل مؤسسات دينية وكنائس كاثوليكية.

وربما كان ذلك لأن الكاثوليك في الولايات المتحدة أقل من البروتستانت، ما يجعلهم حريصين على إبراز التنوع الديني للمجتمع الأمريكي حتى لا تستبد به الأكثرية⁽²⁾. إضافة إلى الارتباط بالفاتيكان الذي يتخذ موقفًا أكثر استقرارًا وانضباطًا من الكنائس غير الكاثوليكية تجاه حوار الأديان.

---

(١) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. P.103.

(٢) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. P.109.

أما الأسباب التي دعت إلى إحياء فكرة التقريب بين الأديان، ومع الإسلام خاصة في المجتمع الأمريكي، فترجع إلى عوامل دولية وعوامل محلية؛ فالمناطق الإسلامية في العالم تعيش توترات مستمرة تجعل الولايات المتحدة الأمريكية، بوصفها أقوى دولة في العالم شديدة الحضور، وأحيانًا تكون طرفًا مباشرًا في تلك التوترات، ما يحمل الباحثين الأمريكان من مختلف التخصصات على دراسة الإسلام من جوانبه المتعددة، والسعي لاحتواء المسلمين. وأما العوامل المحلية فمبعثها الوجود الإسلامي المتنامي بقوة في المجتمع الأمريكي نفسه(١).

المحاولات الأمريكية علىٰ المستوىٰ الدولي للتقريب بين الأديان:

أما المحاولات الأمريكية على المستوى الدولي للتقريب بين الأديان فمنها:

١. (مجمع السلام بين الأديان):

وقد أسسه المونسنيور الكاثوليكي الدكتور جوزيف غريميليون، مدير قسم العدالة والسلام في الفاتيكان، ثم تغير مسماه منذ عام ١٩٧٤م إلى:

٢. المؤتمر «الإسلامي اليهودي المسيحي - {MJCC}»:

وعقد مؤتمره الأمل في «بيلاجيو» عام ١٩٧٥م(٢).

---

(١) ينظر: المسلمون في أمريكا (١٣، ١٤).

(٢) ينظر الأصل.

المبحث السابع

محاولات التقريب بين الأديان في آسيا

تضم قارة آسيا معظم سكان العالم، كما تضم مختلف الأديان والملل الوثنية. ويعيش معظم المسلمين في هذه القارة، ومعظم سكان الهند الذين يبلغون مليار نسمة تقريبًا، ينتمون إلى الهندوسية، في حين يعتنق أكثرية السكان في تايلند، وبورما، واليابان، البوذية.

وتنتشر الكونفوشسية في الصين، أما النصرانية فإنها أقلية في جميع البلدان الآسيوية، باستثناء الفلبين، ومع ذلك، وربما لأجل ذلك، فإن النصارى، وخصوصًا الكاثوليك، ظلوا يأخذون بزمام المبادرة في محاولات التقريب بين الأديان.

والمقصود هنا ذكر بعض المحاولات الوطنية المحلية أو الإقليمية للتقريب بين الأديان في بعض البلدان الآسيوية، دون تلك اللقاءات العالمية، أو حتى الإقليمية التي تبنتها جهات غير آسيوية، مثل: الفاتيكان، أو مجلس الكنائس العالمي، وعقدت في بعض الحواضر الآسيوية، فقد سبق التعريف بها ضمن محاولات تلك الجهات، بما أغنى عن إعادتها هنا.

- **الباكستان:**

يضم هذا البلد الإسلامي العريق، أقلية نصرانية نشأت خلال الاستعمار الإنجليزي لشبه القارة الهندية، ومن أبرز محاولات الحوار في الباكستان:

(الجمعية الباكستانية للحوار بين الأديان - PAIRD): عقدت مؤتمرًا إسلاميًّا نصرانيًّا في لاهور عام ١٤٠٨هـ، الموافق ١٩٨٧م بعنوان: «العناصر المشتركة بين الإسلام والمسيحية»: شارك فيه سبعون شخصًا من الجانبين⁽¹⁾.

(اللجنة الوطنية للعلاقات المسيحية الإسلامية): وهي لجنة كنسية منبثقة عن مؤتمر أساقفة الباكستان، وقد عقدت مؤتمرًا بعنوان:

«**آفاق السلام والانسجام الجديدة في الباكستان**»: في مدينة «فيصل أباد» في عام ١٩٩١م، حضره ستون مشاركًا⁽²⁾.

وإلى جانب المنظمات الوطنية، تحتضن الباكستان في عاصمتها: **(مؤتمر العالم الإسلامي)**: الذي شارك في العديد من مؤتمرات حوار الأديان على المستوى العالمي⁽³⁾.

ونظرًا للضآلة النسبية في أعداد النصارى في الباكستان، وخوفهم من الذوبان في المحيط الإسلامي من حولهم، فقد نشأت فكرة تكوين الجماعات «أو المشاعات النصرانية الأساسية» و(هي عبارة عن مجموعات قليلة الأعداد تمامًا، «مثل مشاعة داراهشان - النور» التي تأسست في السبعينيات في كراتشي بالباكستان، من طرف عددٍ من الفرنسيسكان، ويعرف أعضاؤها بعضهم بعضًا جيدًا. يعيشون مجتمعين، ولا يضعون نصب أعينهم أي أهدافٍ وغايات تبشيرية محددة. أما هدفهم الأساس فإنه يتمثل في العيش ببساطة وسط مواطنيهم المسلمين، دون ازدراء أي عمل، وبالمقابل الالتزام الذاتي بتقديم المساعدة

---

(١) انظر: اللوحة التابعة لكتاب: البيانات المسيحية الإسلامية. تسلسل (١٩٥).

(٢) انظر: اللوحة التابعة لكتاب: البيانات المسيحية الإسلامية. تسلسل (٢٣٨).

(٣) ينظر الأصل.

الطوعية لأولئك الذين يعيشون بين ظهرانيهم أو في أحيائهم، ويحتاجون إلى هذه المساعدة الإنسانية(١).

ومع الالتزام بتحاشي كل ما يشكل إهانة لمشاعر المسلمين الدينية، والاستفزاز لمعتقداتهم وحياتهم السلوكية «مثل تناول لحم الخنزير، وتعاطي المشروبات الروحية(٢) علنًا». وبفضل هذا المسلك تمكنت مجموعة «داراهشان» من أن تجمع حولها عددًا من المتصوفة المسلمين، وتقيم معهم بعض الصلوات المشتركة في مناسباتٍ معينة)(٣).

- **الهند:**

بدأت محاولات التقريب في الهند بين المسلمين والنصارى منذ أواسط عقد الستينيات، وتتسم العلاقة بين الجانبين بالوئام والهدوء، نظرًا لأن كلًّا منهما يمثل أقلية بالنسبة إلى الوسط الوثني المتلاطم، ثم ظهرت محاولات التقريب الجماعية بين مختلف الأديان والملل في أواخر السبعينيات. ونسوق أدناه مسردًا لبعض أهم المؤتمرات المعقودة حسب التسلسل الزمني:

مؤتمر «الكنيسة والجامع ومساهمتهما في انسجام الأديان والمصالحة بينهما»: عقد في «نيودلهي» في عام ١٣٩٨هـ، م، بمبادرة من ثلاث جهات:

- لجنة الحوار في مجلس أساقفة الهند الكاثوليك (CBCI).

---

(١) وهل عامة النشاط التنصيري المخطط إلا من هذا القبيل، حيث يستدرون عواطف الجهال المنكوبين باسم المساعدات الإنسانية؟! وإن زعموا أنهم لا يضعون نصب أعينهم أهدافًا وغاياتٍ تنصيرية، فما تخفي صدورهم أكبر، كما يتبين من آخر الكلام.

(٢) هكذا يسمون الخمر بغير اسمها والحق أنها فساد الروح، إلا أن تكون أرواح النصارى والصوفية.

(٣) الإسلام والمسيحية إلكسي جورافسكي (١٥٩).

- معهد هنري مارتن في حيدر آباد.

- المعهد الهندي للدراسات الإسلامية.

وحضره أربعون مشاركًا من الجانبين، ناقشوا فيه على مدى الأيام الثلاثة قضايا التعليم الديني المتبادل. (وقد تُوِّج الاجتماع الأخير، عفويًّا، بصلاة مشتركة صامتة... واقترح المشاركون في اللقاء ضمن الاجتماع الأخير تأليف لجنةٍ دائمة صغيرة من مسلمين ومسيحيين:

أ - تعمل للحفاظ على العلاقات الجيدة بين الجماعتين الدينيتين، وتصبح محكمة يُلجأ إليها عند حدوث خلافاتٍ بينهما.

ب- تُقرر وتُخطط للقاءات لاحقة مماثلة لهذا اللقاء، وتنشر المعلومات المهمة عن الجماعتين، بواسطة وسائل الإعلام.

ج - تشجع تعليم الإسلام في مؤسسات التعليم الديني المسيحي، والعكس بالعكس، وتقيم بطريقة علمية المواد التعليمية لجهة ملاءمتها التعاطي مع الموضوعات المتعلقة بالمسيحية والإسلام.

د - تُنشئ وتشجع التفكير اللاهوتي حول المسائل الأساسية التي تمس الإيمان والتعليم الأخلاقي في كلتا الديانتين)⁽¹⁾.

وفي الجملة فإن نصارى الهند يبتغون تدريس الإسلام من خلال الرؤية الاستشراقية الحاقدة، وينقمون على المسلمين تدريس النصرانية وفق الرؤية الشرعية والعقيدة الإسلامية.

---

(١) البيانات المسيحية الإسلامية (١٢٧ - ١٢٨).

مؤتمر «تأسيس رابطة الدراسات الإسلامية (ISA)»:

نشأ من لقاء مجموعة كاثوليكية في «أكرا» Agra عام ١٩٧٩م، وينص ميثاق الرابطة على السعي لتشجيع الدراسات والبحوث والتعليم المهتمة بالتاريخ، والثقافة الدينية، والأحوال الاقتصادية والاجتماعية، والجوانب الأخرى للإسلام.

وتصدر الرابطة منذ تأسيسها مجلة ربع سنوية بعنوان «سلام». كما أصدرت كتابًا بعنوان: «مسلمو الهند: العقائد والممارسات»، لا يزال مرجعًا واسع الاستعمال من قبل الكاثوليك، وكتابًا يتعلق بتساؤلات وصلوات المسلمين(١).

- **إيران:**

ترجع العلاقات بين الطائفة الشيعية المرتبطة بالمراجع الإيرانية مع الفاتيكان إلى وقتٍ مبكر، ففي إثر إعلان قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٥م قام ممثل الطائفة الشيعية في أوروبا، الدكتور: مهدي روحاني بزيارة البابا بولس السادس في شوال عام ١٣٨٥هـ-فبراير ١٩٦٦م. وعلى مستوى السلطات الإيرانية، جرت زيارة في يونيو عام ١٩٧٦م من قبل الكاردينال بينيدولي، رئيس أمانة السر الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين، مصحوبًا بالمونسنيور روسانو، والأب أبو مخ، إلى طهران، حيث التقوا الشاه والقادة الدينيين(٢).

وقد ظل الحوار الإسلامي - النصراني في إيران مقصورًا على الكنائس الأرثوذكسية، حيث شارك «المركز الإيراني للدراسات الثقافية الدولية C.I.C.S» في سلسلة من اللقاءات مع كنائس أرثوذكسية في اليونان، ومجموعات نصرانية أخرى(٣).

---

(١) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. P.116.

(٢) انظر: Twenty Five Years of Dialogue. p.3.

(٣) انظر: Recognize The Spiritual Bonds. P.78 - 51.

- **إندونيسيا:**

يمثل هذا البلد أكبر مراكز الثقل السكاني في العالم الإسلامي، إذ يعيش فوق جزره البالغة أكثر من ثلاثة عشر ألف جزيرة قرابة مئة وثمانين مليون نسمة. غالبيتهم العظمى من المسلمين(١).

وقد خضعت هذه الجزر الإسلامية المنتشرة على جانبي خط الاستواء شرقي آسيا، لمختلف صنوف المستعمرين قرابة ثلاثة قرون ونصف، ابتداءً من البرتغاليين والإسبان الذين جلبوا معهم الكاثوليكية في مطلع القرن السادس عشر، ثم الهولنديين والإنجليز الذين جلبوا البروتستانتية في مطلع القرن السابع عشر، وحتى اليابانيين البوذيين في أثناء الحرب العالمية الثانية، وباستسلامهم للحلفاء أعلنت إندونيسيا استقلالها في عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م.

وقد تمكن النصارى خلال هذه العهود المتناقضة، من تحقيق مكاسب كبيرة، ونفوذٍ واسع، والتغلغل في جميع مرافق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بما لا يتفق أبدًا مع حجم تمثيلهم السكاني، وكان من أخطر أعمالهم الانتهازية استغلال فشل الانقلاب الشيوعي، وقيام حملة حكومية وشعبية للقضاء على فلول الشيوعيين ومطاردتهم، فكانت الكنائس تقوم بتنصير هؤلاء بدعوى أنها الوسيلة الوحيدة لحمايتهم وحقن دمائهم، وسجلت قفزاتٍ كبيرة في أعداد المعتنقين للنصرانية، فرارًا من تهمة الشيوعية(٢).

---

(١) انظر: أطلس العالم: مجموعة من المتخصصين - مكتبة لبنان - بيروت. طبعة: ١٤١٧هـ (٩٦).

(٢) المرجع السابق (٤٠). وينظر: غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا: أبو هلال الأندونيسي. دار الشروق. جدة. الطبعة الرابعة (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م). (٧٩، ٨٠).

وقد نقلت مجلة العربي عن مجلة «تايم» الأمريكية، في تلك الفترة الخبر الآتي: (... في غضون الأشهر العشرين الأخيرة التي أعقبت ثورة إندونيسيا على الشيوعية، والتي نشطت فيها أعمال التبشير، بلغ عدد الإندونيسيين الذي تخلوا عن دينهم «الإسلام» واعتنقوا الدين المسيحي ٢٥٠,٠٠٠ نسمة، ويشمل هذا الرقم الذين التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية، وبالكنيسة البروتستانتية على السواء...)(١).

وفي بحثٍ تقدم به المنصِّر ج. إيدرون أور لمؤتمر التنصير الشهير المنعقد في ولاية كولورادو عام ١٩٨٧م بعنوان: «الدعوة إلى التجديد الروحي»، يتساءل الكاتب: (بينما كان المسلمون المسعورون يقومون بقتل ١٠٠,٠٠٠ شخص من أعدائهم الشخصيين والسياسيين، كان النصارى يتعاطفون مع الأصدقاء والأعداء على حدٍّ سواء... في عام ١٩٦٧م أعلنت جمعية الكتاب المقدس الإندونيسية أنه قد تم تنصير ٤٠٠,٠٠٠ نسمة، فيما وُصِف أنه تحول نحو النصرانية بمعدل لم يسبق له مثيل في العصور الحديثة. في حين أعلنت آنذاك وكالة يونايتد برس العالمية بأنه تم تنصير ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة خلال ثلاث سنوات، لكن هذا كان تصريحًا غير مدعمٍ بحقائق أو وثائق...)(٢).

وقد صاحب ذلك كله صلفٌ وغرور واستفزاز للمسلمين في عدة حالات، ما أثار حفيظة ذلك الشعب المتسامح. فجرت أحداث شغبٍ وعنف بين الجانبين عام ١٩٦٧م(٣)، ما حمل الحكومة العلمانية هناك على السعي في محاولة التقريب بين الأديان الخمسة المعترف بها، وهي: الإسلام، والكاثوليكية، والبروتستانتية - حيث تقدِّم هاتان الطائفتان النصرانيتان نفسهما منفصلتين لتحقيق مكاسب

---

(١) مجلة العربي عدد(١٠٧) جمادى الثانية عام ١٣٨٧هـ أكتوبر عام ١٩٦٧م (٣٥).

(٢) التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي (٦٢٧ - ٦٢٩).

(٣) انظر: في المرجع السابق حوادث (ميلابوه) و«مكاسار» (٣٠، ٣١).

مزدوجة - والهندوسية والبوذية. فجرت عدة محاولات حكومية في هذا الصدد منذ عام ١٩٦٧م وحتى الآن، وكانت كما يأتي:

مؤتمر «ممثلي الأديان في إندونيسيا»:

دعت الحكومة عن طريق وزارة الشؤون الدينية جملةً من ممثلي الأديان الخمسة لعقد مؤتمر للأديان في جاكرتا - العاصمة - يوم ٣٠ نوفمبر عام ١٩٦٧م، استهله رئيس الجمهورية، الجنرال سوهارتو ببيان سبب عقد هذا الاجتماع، وهي الأحداث التي وقعت في بعض المناطق (ويخشى أن تتسبب في قيام خلاف بين الأديان هنا)، وأكَّد مبدأين من العناصر الخمسة التي قامت عليها جمهورية إندونيسيا بعد الاستقلال ويسمونها - «البانتشاسيلا»(١) - وهما:

- الدولة قائمة على أساس الربانية المتفردة.

- تكفل الدولة لكل فرد من المواطنين الحرية التامة لاعتناق دينه، وممارسة شعائر ذلك الدين.

وليس للمسلمين أدنى وضع مميز، رغم كونهم عامة أهل البلاد، بل يعاملون على قدم المساواة معاملة النصارى والهندوس والبوذيين الذين لا يمثلون مجتمعين سوى عشر السكان!

---

(١) البانتشاسيلا: Pancasila. أي: الأعمدة الخمسة وهي:
١ - الربانية المتفردة.
٢ - الإنسانية العادلة.
٣ - القومية الإندونيسية.
٤ - الديمقراطية الشعبية.
٥ - العدالة الاجتماعية.
انظر: قانون البانتشاسيلا في أندونيسيا، مجلة الأمة عدد ٧ عام ١٩٨١م (٤١).

وقد ضمن رئيس الجمهورية خطابه الافتتاحي مُقْتَرَحَيْن أساسيين:

(١ - الامتناع عن ممارسة التبشير تجاه أحد الأديان المعترف بها في إندونيسيا، وخاصة إذا كانت هذه الممارسات تتسم بشبهة من القسر أو الإكراه، وباستخدام وسائل الإغراء والإغواء أمام العوز والفاقة والحاجة...

٢ - إذا كان ولا بد من الاستمرار في التبشير، فليوجه إلى المجتمعات البدائية التي لا تزال تعج بها المناطق الداخلية في كاليمنتان وإيريان).

وقد قبل زعماء المسلمين بتلك المقترحات، ورفضها النصارى بشقَّيْهم، مما يكشف صعوبة الموقف الإسلامي في تلك الحقبة، وقوة النصارى، حتى قال الدكتور تامبونان، وزير الشؤون الاجتماعية آنذاك، وأحد زعماء البروتستانت: إن المسيحيين رغم ارتباطهم بالدولة الإندونيسية، لكنهم مرتبطون أكثر بالأوامر الإلهية المذكورة في الإنجيل، التي تطالبهم أن يكرزوا بالإنجيل، الخليقة كلها، ولذلك فهم مضطرون للقيام بهذا الواجب، ومستعدون للبذل والفداء من أجله)⁽¹⁾.

وفي مقابل ذلك جاء على لسان بعض القادة المسلمين ما يأتي:

- (... رغم من أن بعض مضامين الميثاق المقترح سوف يحد من نشاطنا نحن المسلمين أيضًا، فإننا رغبة في وحدة صفوف الأمة وفي تماسكها، أصرح بأنني أوافق من حيث المبدأ على هذا الميثاق المقترح)⁽²⁾.

- (إننا نحن المسلمين لدينا أوامر صريحة بنفس المعنى أيضًا، والمسلمون يحسون بواجب الامتثال لتلك الأوامر أيضًا. ولكن المعضلة تكمن في أن أداء هذه

---

(١) المرجع السابق (٣٩، ٥٣).

(٢) المرجع السابق (٥١).

الواجبات في الوقت الحاضر قد أدى إلى حدوث مضاعفات خطيرة جدًّا، تقتضي منا جميعًا إعمال الفكر والعقل لتفادي أخطار تلك المضاعفات)(١).

ولم تُجدِ تنازلات المسلمين في عقر دارهم في ثني النصارى عن موقفهم المتصلب، والتراجع عن مهمتهم التنصيرية المسعورة. ففشل الاجتماع، ولم يخرج إلا بتوصية واحدة، وهي تكوين هيئة استشارية من ممثلي الطوائف الدينية عرفت باسم: (المنتدى الاستشاري بين الأديان Inter - Religious Consultation Foram).

وقد شرعت الحكومة من خلال المنتدى الاستشاري في إقامة سلسلة من اللقاءات متعددة الأطراف، بهدف إرساء قواعد الوفاق الديني، فعقدت العديد من المؤتمرات في مدن إندونيسيا المختلفة.

حيث أُقيم ثلاثة وعشرون مؤتمرًا خلال ست سنوات فقط(٢)، تكشف عن الحرص البالغ لدى وزارة الشؤون الدينية في الحكومة الإندونيسية على تفعيل قضية التقريب بين الأديان، في بلدٍ تسود فيه ديانة واحدة يعتنقها ٩٠٪ من الشعب. مما يوحي أن المراد هو الحفاظ على المكاسب التي حققتها الأقلية النصرانية في عقودٍ خلت، ووضعها في مصاف الدين الرئيس للأمة، باسم «الحريات الدينية».

وقد قوَّم أحد أركان الحكومة الإندونيسية الأخيرة، وهو الدكتور ترمذي طاهر، وزير الشؤون الدينية، في كتاب صدر عام ١٩٩٧م، محاولات التقريب الوطنية بين الأديان خلال حقبة السبعينيات بقوله: (على الرغم من أن المنتدى

---

(١) المرجع السابق (٥٣).

(٢) تم حصر المؤتمرات من كتاب: Maslah Hubungan Antar Umat Beragama Di Indonesia = = باللغة الأندونيسية ط. (١٩٧٩) لمجموعة من المحررين، واللوحة التابعة لكتاب البيانات المسيحية الإسلامية. تسلسل الأرقام: (٢٧، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٢، ٤٣، ٥٤، ٥٦، ٦٢، ٦٥).

الاستشاري بين الأديان فشل بادئ الأمر في حل المشكلات الدينية، لكنه نجح في عقد سلسلة لقاءات في السبعينيات. وفي تلك اللقاءات صيغت بعض فقرات الاتفاقات الأساسية، أضحت حجر الارتكاز لحوار إضافي، وفي غضون ذلك سنَّت الحكومة الإندونيسية من خلال وزارة الشؤون الدينية عدة تنظيمات، وقد كان أشدها أهمية قراري وزير الشؤون الدينية رقمي ٧٠، ٧٧ عام ١٩٧٨م(١)، المؤيدين بالقرار الوزاري رقم ١ عام ١٩٧٩م... وخلاصة هذه الفقرات كما يأتي:

أولًا: مناشط الوعظ الديني والتبشيري لا يجوز أن توجه لأولئك الذين اعتنقوا دينًا للتو.

ثانيًا: مناشط الوعظ الديني والتبشيري لا يجوز أن تستخدم طرقًا جائرة، كاستعمال الغذاء، والكساء، والدواء، إلخ، في سبيل إغراء الناس للتحول إلى دينٍ معين.

ثالثًا: مناشط الوعظ الديني والتبشيري لا يجوز أن تتم بأسلوب الزيارات من بابٍ إلى باب.

وأخيرًا: المساعدات المالية الأجنبية، والتسهيلات، ودعم الموارد الإنسانية لا يجوز توزيعها دون موافقة الحكومة)(٢).

لقد أدركت الحكومة الإندونيسية بعد ثلاثةٍ وعشرين مؤتمرًا من مؤتمرات الحوار بعض الحقائق، وتكشفت لها بعض نوايا النصارى ومخططاتهم لتنصير هذا البلد الإسلامي العريق، فأصدرت هذا القرار عام ١٩٧٩م، ونرجو أن يكون

---

(١) نصوص هذه القرارات مثبتة في مطبوعة صادرة عن وزارة الشؤون الدينية بعنوان: PEDOMAN PENYARAN - AGAMA DI INDONESIA.

(٢) انظر: Aspiring For the Middle Path. Dr. Tarmizi Taher p.41.

أخذ طريقه إلى التنفيذ لصد الهجمة التنصيرية الشرسة التي كانت تزمع عقد مؤتمر الجمعية العمومية الخامسة لمجلس الكنائس العالمي عام ١٩٧٥م في جاكرتا، عاصمة أكبر تجمع إسلامي على وجه الكرة الأرضية، إمعانًا في الكيد، واحتفالًا بتحقيق الانتصارات، في الوقت الذي يرحبون بالحوار ودعوات التقارب، كجزءٍ من إستراتيجية عامة، صرح بها عتاة المنصِّرين مثل ج. إيدون. أور في «الدعوة إلى التجدد الروحي» حيث يقول في توصياته: (يجب استبدال تشويه سمعة الإسلام، بالتعايش والحوار، دون إضعاف التنصير، على الرغم من زيف الإسلام وعجزه)⁽١⁾.

مجمع سوبود العالمي World Subud Council:

ينسب هذا المجمع إلى رجلٍ إندونيسي يدعى: «محمد سوبود». ولد في عام ١٩٠١م، وشرع في عام ١٩٣٠م في عمل تدريبات «روحية» في مدينة «سميرانغ» في جاوة الوسطى، بغرض إيجاد «وحدة دينية» بين أعضاء من انتماءات مختلفة من الأديان والمعتقدات والاتجاهات الاجتماعية والسياسية، يجمعهم -حسب زعمه- الاعتقاد بألوهية واحدة. وأطلق على محاولته تلك، عام ١٩٤٧م، اسم: «اجتماع الأخوة الروحية لذوي الأخلاق الطيبة والإحسان»، ثم أعلن مبادئها بشكل واسع عام ١٩٥٧م، وظلت تنتشر حتى امتدت إلى ٧٦ دولة.

ويقول سوبود إنه ليس من غرضه إبادة الأديان، وأنه لم يأتِ بدينٍ جديد، بل هي وسيلة لجمع الناس، فكل يعمل على شاكلته، وكل من عمل بمقتضى دينه فإنه يستحق الجنة⁽٢⁾.

---

(١) التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي (٦٣٠).

(٢) المرجع السابق. الباب الرابع «علاقة سوبود بالأديان والاعتقادات الروحية».

وتفشو هذه المزاعم الباطلة في أوساط المثقفين ثقافةً غربية، من الإسلاميين العصرانيين، ويتسنمون المناصب الدينية الرسمية(١).

وقد طفت مظاهر التقارب الديني المصطنع في إندونيسيا إلى حد الاعتراف الرسمي بخمسة أديان، توصف جميعها بأنها «توحيدية»، بما في ذلك الهندوسية والبوذية، إضافة إلى إقامة مجمعات للمعابد الدينية ضمن إطار واحد، كما في «حديقة إندونيسيا المصغرة»، التي تمثل موقعًا وطنيًّا سياحيًّا لعرض التراث والثقافة الوطنية، حيث أقيم فيها مجمع لمعابد الأديان الخمسة المعترف بها، مسجد، وكنيسة كاثوليكية، وكنيسة بروتستانتية، ومعبد هندوسي، ومعبد بوذي، تنتصب جنبًا إلى جنب، ولا يفصل أحدها عن الآخر سوى ممر صغير.

---

(١) انظر: على سبيل المثال مقالات مجموعة لطائفة من هؤلاء العصرانيين في كتاب Passing Over Melintasi Batas Agama تحرير: كرم الدين هداية، وأحمد جوزفا. بإشراف د. نور خالص مجيد. طبعة ١٩٩٨م،

المبحث الثامن

محاولات التقريب بين الأديان في العالم العربي

العالم العربي قلب العالم الإسلامي، من الناحيتين الجغرافية والمعنوية. والعرب وإن كانوا لا يمثلون سوى ٢٠٪ من مجمل مسلمي العالم، لكنهم يمثلون العمق الإسلامي حضارة وتاريخًا وواقعًا ومعاشًا. فلا عجب أن تتوجه إليهم المحاولات الغربية بصفة رئيسة في الدعوة إلى الحوار والتقارب، وكأن الناس لهم تبع. كما أن بعض البلدان العربية تضم بقايا نصارى منذ القدم، صاروا يرفعون لواء الحوار مع مواطنيهم المسلمين، ويقدمون أنفسهم أحيانًا وسطاء بين العالم الإسلامي والعالم النصراني. وفي أماكن عدة تقع بين الجانبين بعض التوترات.

وسنعرض ههنا لمحاولات التقريب بين الأديان التي نشأت ابتداءً في بعض البلدانِ العربية، بصفة مؤسسات متخصصة في هذا الشأن.

- **لبنان:**

يمثل هذا البلد الصغير بمساحته (١٠,٤٥٢كم٢)، وسكانه (٢,٧٠١,٠٠٠) نسمة، منطقة من أشد مناطق العالم حساسية في العلاقات الإسلامية النصرانية. وهناك تكافؤ عددي بين المسلمين والنصارى، وقد ساعد الاستعمار الفرنسي لسوريا ولبنان منذ عام ١٩١٨م على تمكين النصارى، وقد تسبب ذلك في اندلاع حروب أهلية متعاقبة، كان أعنفها في العصر الحديث حرب ١٩٥٨م، وحرب ١٩٧٥م، التي دامت خمس عشرة سنة تقريبًا. لقد حفز هذا الوضع المتوتر القيادات الدينية والفكرية في لبنان إلى تفعيل قضية الحوار، من منطلقين:

أحدهما: واقعي، وهو التعايش السلمي بين أتباع الديانات والطوائف.

الثاني: التشوف المفرط في الأمل أن تكون التجربة اللبنانية السلمية نموذجًا يحتذى للعلاقات الإسلامية النصرانية. لقد نشأت محاولات التقريب بين الإسلام والنصرانية بمبادرات «إسلامية» غالبًا، قبل الحرب الأهلية الأخيرة (١٩٧٥-١٩٩٠م)، ومبادرات نصرانية منظمة بعدها، بصورة معاهد بحوث ومراكز حوار.

(الندوة اللبنانية):

هي عبارة عن منتدى ثقافي متعدد الأغراض؛ فكري، أدبي؛ واجتماعي، وسياسي، يعتمد أسلوب المحاضرة، أنشأها «ميشال أسمر» في خريف عام ١٩٤٦م. إلى أن توقفت عام ١٩٧٤م(١)، ومما ألقي على منبرها سلسلة:

١. **«محاضرات المسيحية والإسلام في لبنان»**: عقدت في موسم عام ١٩٦٥م، وكانت تلك المحاضرات محل اهتمام الرأي العام في تلك الحقبة، وتم نشر بيان مشترك للمحاضرين بعد عدة لقاءات، مما جاء فيه:

- (... لبنان هو الموطن المختار لمثل هذا الحوار المسيحي الإسلامي...

- وإنهم ليعاهدون الله على تحقيق لقاءٍ أخوي مستمر، ينهلون خلاله من معين الديانتين العالميتين، وتعمل فيه كل فئة بتعاليم دينها، جاهدة في تفهمها لما انطوت عليه الديانة الأخرى من عبرٍ وعظات ونظم، تقرب الإنسان من أخيه الإنسان...)(٢).

---

(١) انظر تعريفًا مستفيضًا بالندوة ومؤسسها، ومحاضراتها في المدونة الضخمة الصادرة عن «دار النهار» بيروت ١٩٩٧م، بعنوان: «عهد الندوة اللبنانية. خمسون سنة من المحاضرة».

(٢) البيانات المسيحية الإسلامية (٣٢ ٣٤).

٢. **«محاضرات العدالة في المسيحية والإسلام»: عقدت في موسم عام** ١٩٦٦م (في إطار المشروع الرامي إلى وضع الحوار المسيحي الإسلامي في سياقٍ علمي منظم في لبنان... من ثمراته صدور كتاب «الإسلام» عام ١٩٧٥، وكتاب «الخماسيَّة المارونية» في سبعة مجلدات عام ١٩٨٤، في منشورات «الندوة اللبنانية»)⁽¹⁾.

ويرى أحد المحللين النصارى لمواقف «الندوة اللبنانية» أن تفعيل قضية العلاقات بين المسيحية والإسلام في لبنان بهاتين السلسلتين من المحاضرات في منتصف الستينيات، لمحاولة إرساء تصور مستقل لفكرة «فصل الدين عن الدولة»، حيث (... انبروا للتفكير في كيفية إقامة التعاون بينهما، وفي كيفية الارتكاز عليهما في سياسة الدولة اللبنانية، من دون وقوعٍ في الدمج بين الدين والدولة... أما الجوانب التطبيقية، فقد سعت إلى إيجادها تحت مفاهيم الحوار والتفاهم والمصالحة والقيم المشتركة...)⁽²⁾.

تلك المحاضرات سرعان ما ذهب دفؤها حين هبت رياح العصبية الدينية في السبعينيات.

وقد شهدت السنوات الست السابقة لاندلاع الحرب الأهلية عددًا من المبادرات الإسلامية، دعا إليها مفتي لبنان الشيخ حسن خالد رحمه الله مختلف الطوائف الدينية⁽³⁾.

---

(١) عهد الندوة اللبنانية (٢٨ ٢٩) هامش رقم (٣١).

(٢) عهد الندوة اللبنانية (٢٤). مقالة تحليلية للندوة لناصيف نصار.

(٣) ينظر الأصل.

(مجلس كنائس الشرق الأوسط {MECC}):

معظم نصاراه الشرقيين من لبنان، وقد تأسس في أواخر مايو عام ١٩٧٤م، وقد أقيم مؤتمر عام في «نيقوسيا قبرص»، وأعلنت تشكيل المجلس الذي كان مشبعًا بالروح القومية، وتيار الثورة الفلسطينية. وتضمنت توصياته الدعوة إلى الحوار الإسلامي المسيحي(١).

وقد كان للمجلس دورٌ في التحضير للمؤتمرات العالمية التي عقدت في لبنان(٢)، وفي مطلع عام ١٩٩٠م انضمت الكنائس الكاثوليكية الشرقية إلى المجلس(٣)، ليصبح بذلك أول رابطة نصرانية تجمع مختلف الطوائف النصرانية الكبرى: الأرثوذكس، والبروتستانت والكاثوليك حفزها نحو تناسي الخلافات والعداوة والبغضاء التي أغراهم الله بها، الخوف من الذوبان في المحيط الإسلامي الذي دبت في أوصاله بوادر صحوة إسلامية واعدة.

وفي حقبة التسعينيات شارك المجلس في العديد من محاولات التقريب والحوار، كما شارك مجلس كنائس الشرق الأوسط في تشكيل فريق العمل العربي للحوار الإسلامي المسيحي الذي تكون من:

١- الهيئة الإسلامية اللبنانية للحوار، يمثلها: سعود المولى، ومحمد السماك.

٢- هيئة مصغرة في القاهرة، من: محمد سليم العوا، وطارق البشري.

٣- مجلس كنائس الشرق الأوسط، ويمثله: غبريال حبيب، جورج ناصيف، رياض جرجور، طارق متري(٤).

---

(١) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (١٦٩).

(٢) انظر أمثلة لذلك في الأصل.

(٣) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (ص١٧١).

(٤) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (١٧٥).

مؤتمر «مسلمون ومسيحيون معًا من أجل القدس»:

عقد هذا المؤتمر في بيروت، في عام ١٤١٧هـ، الموافق ١٩٩٦م، بدعوة من مجلس كنائس الشرق الأوسط، حضره مئتان من رؤساء وممثلي الطوائف الإسلامية والنصرانية المشرقية، ومن أبرزهم: مفتي سوريا، ومفتي لبنان، ورئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، وبعض العلماء. ومن النصارى بطاركة الأقباط، والروم الأرثوذكس، والكاثوليك، والسريان، واللاتين، والمارونيين. وقد (توزع المؤتمرون في مناقشاتهم وخطبهم بين الدعوة إلى تأكيد عروبة القدس ورفض تهويدها، وبين الدعوة إلى إعطاء المدينة الطابع العالمي)(١).

كما اتسمت الخطب بالصبغة القومية التي تضع المسلمين والنصارى العرب في جبهة واحدة، في مواجهة الصهيونية واليهودية. ومن ذلك:

قال الشيخ يوسف القرضاوي: (هي ليست ملك الفلسطينيين وحدهم، بل هي ملك المسيحيين والمسلمين)!

وفي مقابل هذا التملق للنصارى الذي لم يحلموا به، ولا في حقبة الحروب الصليبية، جاءت تصريحات بطاركة النصارى في المؤتمر جريئة، فمن ذلك:

- قال بطريرك الكاثوليك، مكسيموس الخامس حكيم: (النتيجة الحتمية الواضحة هي أن القدس لا يمكن أن تكون لدولة واحدة، أو دينٍ واحد من الأديان الثلاثة، بل يجب أن تكون مدينة السلام، وللأديان الثلاثة).

وقد صدر عن هذا المؤتمر الذي وصف بأنه (أهم تظاهرة إسلامية مسيحية لأجل القدس) بيان ختامي، جاء فيه: (... لا توجد سلطة، مهما كانت، لها حق التصرف في

---

(١) جريدة الحياة العدد (١٢١٦٥) الأحد ٣٠ محرم ١٤١٧هـ ١٦ يونيو ١٩٩٦م (٢) شؤون عربية.

هوية القدس المسيحية الإسلامية... ندعو مسلمي ومسيحيي العالم أجمع للوقوف إلى جانب الحقوق الفلسطينية المشروعة، والكنائس وكل هيئات العالم الإسلامي ومنظماته جميعًا إلى أن يكون تحرير القدس شاغلها الشاغل...)⁽¹⁾.

ما كان أحوج المشاركين المسلمين إلى قراءة التاريخ حتى يتبينوا الطبيعة المزدوجة ذات الوجهين لجلسائهم، والتحالفات الدائمة التي قررها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [المائدة: ٥١].

(اللجنة الوطنية الإسلامية المسيحية للحوار):

كانت وثيقة الوفاق الوطني التي وقعتها مختلف الطوائف والأحزاب اللبنانية في مدينة «الطائف» بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٨٩م، إيذانًا بانتهاء الحرب الأهلية المروعة التي دامت قرابة ١٥ عامًا، ثم أعقبها إعلان دستور جديد للبنان عام ١٩٩٠م يعيد ترتيب التوازنات السياسية المعبرة عن الكتل الدينية والمذهبية في ذلك البلد.

وخلال السنوات الثلاث اللاحقة، كانت الأجواء غير مستقرة، فتنادت المراجع الدينية إلى توثيق الوحدة الوطنية، والعيش المشترك، عبر سلسلة من اللقاءات والمداولات على مدى عامين، كانت مادتها (مسوَّدة ورقة تشخص الشكوى المسيحية). وتكونت لجنة وطنية غير حكومية تمثل مختلف المرجعيات الدينية والمذهبية في ذلك البلد الأمشاج⁽²⁾.

---

(١) النقولات السابقة جميعًا من المرجع السابق. وانظر في تقويم المؤتمر أيضًا: مجلة البيان عدد (١٠٨) (٦٠، ٦٩).

(٢) انظر في هذا: ورقة اللجنة الوطنية الإسلامية المسيحية للحوار. سليمان تقي الدين مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٢٦٧، ٢٧٧).

وكانت مهمة هذه اللجنة أوسع من قضية الحوار الإسلامي المسيحي، إذ كانت مدعوة لتثبيت مبادئ سياسية واجتماعية راهنة، مبنية على ميثاق الطائف والدستور الجديد، ومن ثم تضمنت ورقة اللجنة عناوين مثل: «لبنان العيش المشترك»، و«الحوار الإسلامي المسيحي». و(... الحوار المقصود يقوم اليوم بين المسيحيين والمسلمين، أو بين مسيحيين ومسلمين حول الصيغة السياسية الأفضل لقيام حياة وطنية مشتركة، في ظل كيان واحد، وتحت رعاية دولة واحدة)(١).

وقد جاء في نص ورقة اللجنة الوطنية الإسلامية المسيحية للحوار ما يأتي: (الحوار المسيحي الإسلامي: إن العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين بجميع طوائفهم هو قيمة لبنان الكبرى... من حيث إنه نموذج حياة...

إن التآخي الوطني بين المسيحيين والمسلمين في لبنان ليس مجرد التزام تفرضه مرتكزات العيش المشترك، وضرورة تجنب الفتنة، ولكنه قدر وخيار...)(٢).

إننا نسلم بالوضع المتميز للبنان، حيث المسلمون والنصارى متكافئون عدديًا على رقعة جغرافية صغيرة، ولكننا نشك في الدعاوى العريضة التي تحملها الورقة عن «العيش المشترك»، و«رسالة لبنان إلى العالم»، و«مهمته الإنسانية النبيلة».

لقد كانت ورقة اللجنة الوطنية تعبيرًا عن الخوف من انتكاس مشروع العيش المشترك، والعودة إلى كابوس الحرب التي اصطلى جميع الفرقاء بنارها. ومع ذلك لم تتمكن اللجنة من تفعيل الحوار الإسلامي المسيحي، والارتقاء إلى مستوى مؤسسة وطنية جامعة.

---

(١) ورقة اللجنة الوطنية. سليمان تقي الدين. مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٢٧٤).

(٢) انظر النص الكامل للورقة في: الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة (١٨٣، ١٨٩)، ومجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢).

وفضلًا عن ذلك فقد جاء «النداء الأخير» الصادر عن سينودس الأساقفة الكاثوليك «المجمع الراعوي من أجل لبنان»، المنعقد في الفاتيكان روما في ١٩٩٥م، مسكونًا بروح التشاؤم والانكماش، والخوف من فقدان الهوية النصرانية، والاضمحلال الثقافي للكنائس الشرقية، من جراء الانخراط في المشاريع الوطنية الجامعة، والإلحاح على قضية الجماعات المتمايزة منذ القِدم، وتعدد ثقافاتها، مما يشكك في دعاوى «العيش المشترك»، و«بلد الحوار»، فضلًا عن «رسالته إلى العالم»⁽¹⁾.

(مركز الأبحاث في الحوار المسيحي الإسلامي {CERDIC}):

ينتمي هذا المركز إلى معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت في لبنان حصريًّا، حيث أسند إليه المجمع العام للجمعية البولسية، الكاثوليكية الاتجاه، مهمة إنشائه عام ١٩٩٥م، تماشيًا مع توجيهات المجمع الفاتيكاني الثاني.

ويحدد مدير المركز وظيفته بأنه (يعنى بتعزيز الحوار الفكري الأكاديمي البحت، الرامي إلى إظهار مواضع التعاون والتكاتف بين المسيحية والإسلام... وأنه منعتق في بنيته الفكرية من كل أيديولوجية سياسية، ومن كل تسلط خارج عن نطاق إلهامات الفكر الحر الذي يعضده روح الحق، وهو لذلك لا ينقاد إلا لما يمليه عليه إيمانه المسيحي، يحرص على أن يختبره في أوسع مدلولٍ له، وأعمق انتشار له، في مطاوي استفهامات البشر وتساؤلاتهم)⁽²⁾.

---

(١) انظر في نقد بيان السينودس مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٧ ٢٢) الفضل شلق (٣١، ٣٢/ ٢٥، ٣٤) رضوان السيد.

(٢) العدل في المسيحية والإسلام (٥، ٦).

وهو كلامٌ يمتح من بئر المجمع الفاتيكاني الثاني الذي وسع مفهوم الخلاص ليشمل عناصر لا تنتمي إلى الإيمان الكاثوليكي التقليدي، بدعوى أن روح القدس يعمل بطريقة خفية في الآخرين الذين يتلمسون الحقيقة الكاملة في مطاوي استفهاماتهم وتساؤلاتهم، كما يعبر الأب مشير باسيل عون.

وأبرز مناشط «مركز الأبحاث في الحوار المسيحي الإسلامي» في حريصا لبنان إصدار سلسلة من الكتب تحت عنوان: «المسيحية والإسلام في الحوار والتعاون» تهدف إلى إبراز جوانب التشابه والمقارنة، وتستكتب شخصيات نصرانية دينية، وإسلامية عصرانية، وقد تمت طباعة هذه السلسلة في المكتبة البولسية جونية لبنان.

(مركز الدراسات المسيحية الإسلامية):

ينتمي هذا المركز إلى جامعة البلمند، التي تتبع الطائفة الأرثوذكسية في لبنان، وقد تأسس عام ١٩٩٥م وقد تشكل للمركز مجلس إدارة مكون من نصارى ومسلمين، يتولى وضع خطة عمل سنوية ويتابع تنفيذها، ضمن أهداف المركز المعلنة: (١- درس تاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية وتطورها، والتركيز على خصوصيات العالم العربي، انطلاقًا من التجربة اللبنانية في هذا المجال.

٢- تطوير الحوار الإسلامي المسيحي على كل الصعد.

٣- تقديم منهج أكاديمي يؤدي إلى نيل شهادة الكفاءة في العلاقات المسيحية الإسلامية.

٤- فهم مبادئ العيش المشترك، وإغناؤها، انطلاقًا من التجربة اللبنانية، والتفاعل بين طريقتي التفكير الإسلامية والمسيحية)(١).

ويرى الأرثوذكس العرب أنهم أقرب الطوائف النصرانية إلى المسلمين بسبب التاريخ المشترك، ومعاناة العدوان الصليبي اللاتيني على حدٍّ سواء، كما يردد ذلك المطران جورج خضر في طروحاته(٢).

ويتبع المركز وحدة مستقلة تعنى برصد ظاهرة الطائفية في لبنان على الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية تعرف بـ«مرقب العيش المشترك»، يقوم عليها باحثون من الجانبين، يمثلون خلية بحث لتتبع حال العلاقات بين مختلف الطوائف الدينية في لبنان، وتحليل النتائج، دون أن يكون المرقب طرفًا في الحوار(٣).

أما على الصعيد الإسلامي في لبنان فلا توجد مراكز متخصصة، أو معاهد بحوث متفرغة لدرس قضية الحوار، على غرار ما لدى الجانب النصراني، وإنما توجد هيئات أو معاهد تعليمية تولي اهتمامًا لقضية التقارب والحوار، وتضم أفرادًا يمثلون مرجعيات مذهبية، أو مفكرين ليبراليين يتكررون في معظم التشكيلات التي تتفتق في لبنان. فمن ذلك:

(المعهد العالي للدراسات الإسلامية):

وهو معهد ديني شرعي يتبع «جمعية المقاصد الخيرية» العتيقة، لأهل السنة في لبنان، وقد أنشئ المعهد عام ١٩٨١م، وتبعته كلية الدراسات الإسلامية عام ١٩٨٩م.

---

(١) مجلة النهار البيروتية عدد (١٩٨٠٩) ١ أغسطس ١٩٩٧م.

(٢) انظر الباب الأول، مبحث النصارى العرب. (٤٣١). دور ورؤية (٢٩ - ٣٠).

(٣) جريدة النهار البيروتية العدد (١٩٨٠٩) ١ أغسطس ١٩٩٧م.

ويدير المعهد الدكتور: رضوان السيد، ويرتبط بعقدٍ مع جامعة القديس يوسف، يقضي بتبادل الأساتذة، وتقرير دراسة الدين الآخر.

- **الأردن:**

تجري في الأردن ذات الأربعة ملايين نسمة تقريبًا، ٦٪ منهم نصارى، حركة نشطة للتقريب بين الإسلام والنصرانية، على المستوى المحلي والعالمي، تحظى باهتمام ودعم رسمي أدى إلى مشاركةٍ فعالة من قبل بعض الهيئات الثقافية، وتأسيس هيئاتٍ أخرى متخصصة للحوار الإسلامي المسيحي، ومن أبرزها:

(مؤسسة آل البيت «مآب» المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية):

ورئيسه الأعلى الأمير الحسن بن طلال، ولي عهد الأردن سابقًا، الذي يبدي اهتمامًا ملحوظًا بالعلاقات الإسلامية النصرانية، ورئيسه المباشر الدكتور ناصر الدين الأسد.

وقد سبقت الإشارة إلى جملة من مشاركاته الفعالة مع الكنيستين الكاثوليكية والإنجليكانية، التي بلغت تسعة مؤتمرات⁽¹⁾. ونضيف هنا مشاركاته مع الأرثوذكس ومنها:

مؤتمر «التعايش الإسلامي المسيحي، والقيم الإنسانية المشتركة»:

عقد في عمان في عام ١٤٠٨هـ الموافق ١٩٨٧م، مع مركز «شامبيزي» الأرثوذكسي، بحضور ثمانين مشاركًا.

وإلى جانب هذه المؤتمرات الإسلامية النصرانية، قام المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية «مؤسسة آل البيت» بعقد مؤتمراتٍ إسلامية ذات صلة، وبحوثٍ متخصصة، كان أهمها:

---

(١) انظر: المبحث الثاني والثالث من هذا الفصل.

- مشروع بحوث: (معاملة غير المسلمين في الإسلام) صدرت في مجلدين.

(المعهد الملكي للدراسات الدينية):

هو من أحدث مؤسسات الحوار في الأردن وربما في العالم، حيث أسس في عام ١٩٩٤م، بمبادرة وإشراف الأمير الحسن بن طلال، و(هدفه الرئيس: تعميق الفهم المتبادل بين الإسلام والمسيحية، عن طريق الأبحاث والحوار العلمي، وتوضيح أن المسيحية جزء من تاريخ العرب وحضارتهم، وتشجيع حوار الأديان بشكل عام).

جاء هذا المعهد في إثر توقيع معاهدات السلام مع إسرائيل ليسهم في عملية «التطبيع» بين شعوب المنطقة، في أحرج جوانب التطبيع وأشقها، وهو التطبيع الديني. وفي سبيل تحقيق أهدافه، قام المعهد بجملة من المناشط المكثفة منها(١):

- مؤتمر «النظرة المتبادلة بين الإسلام والمسيحية عبر التاريخ».
- مؤتمر «علاقة اللاعنف بالشرق الأوسط المعاصر، في ذكرى المهاتما غاندي».
- مؤتمر «الدين والهوية الشعبية».
- مؤتمر «الخوف من السلام».
- مؤتمر «الحوار المشترك بين الإسلام والمسيحية».
- مؤتمر «الدين والوطنية والهوية، الشرق الأوسط في الإطار العالمي».
- مؤتمر «القدس وما حولها في القرن التاسع عشر: المسيحيون، والمسلمون في بيئة متعددة الأديان».

---

(١) ينظر الأصل.

وصدر عن المعهد خلال مدةٍ وجيزة العديد من الكتب، منها:

١. المسيحية في العالم العربي للأمير الحسن بن طلال. باللغتين العربية والإنجليزية، عمَّان ١٩٩٤م، ولاحقًا بالفرنسية والألمانية.

٢. الإرساليات التبشيرية، تقارير من سوريا العثمانية (١٨١٩-١٨٧٠) في خمسة مجلدات باللغة الإنجليزية، للدكتور كمال الصليبي، والدكتور يوسف قزما خوري. بيروت عام ١٩٩٥م.

٣. الوثائق العثمانية المتعلقة بنصارىٰ البلاد العربية. تأليف وترجمة عبد الرحيم أبو حسين. باللغة العربية.

٤. معجم أعلام المسيحيين العرب في العصور الإسلامية. باللغة العربية، ثم بالإنجليزية ١٩٩٧م.

٥. قاموس عربي بالمصطلحات الكنسية واللاهوتية للمسيحية العربية. ١٩٩٧م.

٦. أهل الكتاب في القرآن والتفاسير.

٧. إسلاموفوبيا «الخوف من الإسلام»، لفواز جرجس.

٨. التبادل الإسلامي المسيحي إثر سقوط بغداد. دراسة لمقابلات الألوسي الكرملي ودوره في إحياء الأدب العراقي، لـ: هالة فتاح.

وإلى جانب هذه الإصدارات المتعاقبة، يصدر المعهد الملكي للدراسات الدينية نشرتين فصليتين كل ثلاثة أشهر:

إحداهما: باللغة العربية عنوانها «النشرة» تتضمن ترجمة لثلاثة من أعلام الإسلام والنصرانية واليهودية، ومقالاتٍ أخرى.

الثانية: باللغة الإنجليزية، عنوانها: (Inter - Faith Quarterly) تغطي موضوعات عن الإسلام والنصرانية واليهودية، ومسألة حوار الأديان.

ويتضح جليًّا من مسرد الكتب التي أصدرها المعهد، وطبيعة المقالات المنشورة في الدوريتين أن المعهد يهدف إلى إحياء «النصرانية» بكل طوائفها بعد أن كادت تنقرض، بنفض الغبار عن تاريخها، وتبجيل أعلامها، والتقريب بينها وبين الإسلام، وبين اليهودية والإسلام وإن بشكل أقل بسبب عدم استقرار الوضع في المنطقة لمواكبة «حاجات المجتمعات الحديثة»، كما جاء في التعريف.

وفي غضون ثلاث سنواتٍ فقط ١٩٩٤م-١٩٩٧م، زار المعهد الملكي للدراسات الدينية أكثر من ثلاثين شخصية علمية أو سياسية أو دينية، من قساوسة، ومستشرقين، وممثلي هيئاتٍ دينية ودولية ومراكز حوار مماثلة، حيث أصبح المعهد إرصادًا لمن حارب الله ورسوله من اليهود والنصارى والهندوس، من شتى أصقاع الأرض، حتى أصحاب الاتجاهات المتعصبة ضد المسلمين.

- **فلسطين:**

يعيش المسلمون في هذا البلد الإسلامي السليب، محنة عظيمة منذ أن دخل القائد الإنجليزي الصليبي «اللنبي» القدس عام ١٩١٧م. وقد سلَّمها النصارى لليهود عام ١٩٤٨م وفاءً بوعد «بلفور»⁽¹⁾.

وقد نشأت منذ صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م جمعيات إسلامية نصرانية مشتركة، من عرب فلسطين، تجمعها الرابطة القومية، وتنافح عن الحقوق الوطنية

---

(١) بلفور (آرثر جيمس) Balfour (١٨٤٨، ١٩٣٠): سياسي إنجليزي، رئيس الوزراء (١٩٠٢)، ثم وزير الخارجية ١٩١٧م. أصدر وعد بلفور الذي ضمنه حق اليهود بإنشاء وطنٍ قومي في فلسطين ١٩١٧م. المنجد في الأعلام (١٤١).

ضد الهجمة الصليبية الصهيونية، فلم تكن الراية متميزة، ولا الأهداف خالصة.

(اختارت الجمعيات شعارًا لها «الهلال وبداخله صليب». وحددت لنفسها مهمة: «المطالبة بحقوق عرب فلسطين في وطنهم، ومناهضة وعد بلفور، والوقوف في وجه الهجرة الصهيونية، والدفاع عن عروبة فلسطين، والحيلولة دون عزلها عن الحركة العربية)(١).

وبالجملة فقد كان هذا اللون من التقارب ذا بواعث وطنية اجتماعية ضد الغزاة. ثم انحلت تلك الجمعيات، وذهبت مطالبها أدراج الرياح أمام الاجتياح الصهيوني، وفي عقد الثمانينيات برز اسم معهد تنطور الفلسطيني أو:

(معهد تنطور المسكوني للأبحاث اللاهوتية):

ومقره ضاحية «تنطور» في القدس. وهو معهد نصراني نظم بعض المؤتمرات(٢).

- **تونس:**

رغم الحجم الذي لا يؤبه له للنصارى في هذا البلد الإسلامي العريق(٣)، فقد نشأت فيه محاولات مبكرة للتقريب بين الإسلام والنصرانية تمت على يد:

(المركز التونسي للدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية {CERES}(٤)):

ويتبع الجامعة التونسية. وقد تولى إدارته الأستاذ: عبد الوهاب بوحديبة، الذي

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية، فلسطين نموذجًا. فايز سارة. مجلة الاجتهاد. (٣٠/ ١٥٦).

(٢) ينظر الأصل.

(٣) مايقارب ٢٠ ألف كاثوليكي «أي نسبة ٣, ٠٪ من إجمالي السكان. راجع الأصل.

(٤) ينظر الأصل للمحاولات التي شارك فيها المركز.

وصف بـ«الأب»(١)! وشارك فيه بفاعلية أحد أقطاب الحوار الإسلامي النصراني المستخذين للنصارى، وهو الأستاذ: محمد الطالبي(٢)، الذي قدم للملتقى الأول بقول المعري:

إن الشرائع ألقت بيننا إحَنًا
وأودعتنا أفانين العداوات

وقد شارك المركز مشاركة أساسية بعدة مؤتمرات(٣).

ولا شك أن للقرب الجغرافي لتونس، وغيرها من دول شمال إفريقيا العربية من إيطاليا التي تحتضن عاصمتها روما، الفاتيكان، دورًا في تفعيل محاولات التقارب الديني بين ضفتي المتوسط، إضافة (إلى تأثير الآباء البيض من الأفارقة... وإلى كون معظم العاملين في أمانة السر الفاتيكانية، أو المجلس البابوي للحوار، درَّسوا وعملوا في تونس وبلاد شمال إفريقيا مدَّة طويلةً من حياتهم)(٤).

---

(١) ولد في القيروان - تونس - عام ١٩٣٢م. حصل على الدكتوراه من باريس عام ١٩٧٢م. عمل أستاذًا لعلم الاجتماع الإسلامي في عدة جامعات، خبير دائم بهيئة اليونسكو في الفترة ١٩٦٧ - ١٩٧٢م. خبير بهيئة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان منذ عام ١٩٧١م. مدير مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بجامعة تونس منذ عام ١٩٧٢. رئيس اللجنة العربية الدائمة لحقوق الإنسان منذ عام ١٩٨٣م، من مؤلفاته: الحوار والسياسة. وانظر: وثائق عصرية في سبيل الحوار (١٣).

(٢) ولد في تونس عام ١٩٢١م. تخصص في الدراسات اللغوية والأدبية، ونال شهادة الدكتوراه من جامعة السربون عام ١٩٦٨م، شغل منصب عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة تونس (١٩٦٦ - ١٩٧٠م)، عضو مجلس الثقافة العالي في تونس، ورئيس المجلس (١٩٨٣م - ١٩٩٣م)، وحصل على جائزة الاستحقاق المدني من أسبانية عام ١٩٦٩م. كتب مؤلفات عديدة ومقالات حول الحوار الإسلامي المسيحي عام ١٩٧٣م. انظر وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (٤٣).

(٣) يراجع الأصل.

(٤) الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (١٧٤).

- **السُّودان:**

السودان كغيره من البلدان الإسلامية التي تحتضن أقلية نصرانية، نشأت محاولات مبكرة لاحتواء الأزمة تحت شعار التقارب.

ومع وصول «الجبهة القومية الإسلامية» بقيادة الدكتور حسن بن عبد الله الترابي، لسدة الحكم في إثر انقلابٍ عسكري عام ١٩٨٩م، صارت الحكومة تعيش تهمة «الأصولية» واستهداف الوجود النصراني في الجنوب، فقامت بتفعيل قضية التقريب بين الأديان، حتى الوثني منها، بشكل لم يسبق له مثيل حتى في البلدان الغربية، ووجد في منظري الجبهة من أصحاب الفكر العصراني المتحرر، من يسوغ هذه الممارسات التي يتحرج من بعضها الفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي، ونشأ في مطلع التسعينيات هيئات تستظل بظل الحكومة التي توصف بـ«الإسلامية»، أجرت محاولاتٍ جريئة، وقدمت طروحاتٍ منكرة لم تعهد في بلاد المسلمين. ومن ذلك:

مؤتمر «من أجل مزيد من التعاون الديني على طريق النهضة»:

عقد «مؤتمر الأديان في السودان» تحت هذا الشعار في العاصمة الخرطوم، في عام ١٤١٣هـ، الموافق ١٩٩٣م. ويعد (أول مؤتمر شعبي جامع للأديان، يعقد في السودان بمباركة الدولة وتأييدها)(١). وقد شاركت فيه وفودٌ كثيرة قدمت من إحدى وثلاثين دولة.

وقدمت في المؤتمر عدة محاضرات منها(٢): تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في مجتمع متعدد الأديان. ل د. أحمد علي الإمام. وهو موضوع ذو حساسية بالغة لدى النصارى. وقد تضمنت المحاضرة الجمل الآتية:

---

(١) من البيان الختامي لمؤتمر الأديان في السودان (٧ صفحات): ٣٠ أبريل عام ١٩٩٣م... و«المباركة» لا تضاف إلا إلى الله.

(٢) العرض أدناه مستخلص من تقرير صادر عن قسم التحقيقات بوكالة الأنباء السودانية.

- إن الواقع التطبيقي في الدولة والمجتمع يؤكد... حرية الاعتقاد والفكر، وحق المساواة القانونية والعدل... والإسلام دين الحرية الفكرية، وأنه لا حجر على أحدٍ في حرية الفكر والتعبير...

- ليس المقصود من عقد الذمة في الإسلام تحصيل المال، إنما هو في المشاركة في واجب الدفاع والحماية.

- يكفل نظام الحكم الإسلامي حق الحكم الذاتي، مع حق التميز الثقافي للأقاليم التي يكون فيها غير المسلمين في مكانٍ يخصهم، ويباشرون بأنفسهم إدارة شؤونهم، مع الاحتكام إلى محاكمهم بما كان يجعلهم في حكم الإقليم الآن.

ولا ندري بأي معيار «إسلامي» سوَّغ المحاضر حرية التعبير عن الشرك بالتثليث وعقيدة ألوهية المسيح وبنوته، وأن ذلك مما تكفله الدولة الإسلامية لمواطنيها؟! ولا كيف سوَّغ سابقه «التنافس التبشيري لصالح الإنسان السوداني»؟! ولكنه الفقه العصراني الترابي الميكافيللي، الذي يعتمد قاعدة: «الغاية تبرر الوسيلة».

ولكن أهم محاضرة من بين الثماني عشرة محاضرة التي ألقيت على مدى خمسة أيام كانت محاضرة الدكتور: حسن بن عبد الله الترابي، الذي يمثل الجانب الفكري لحكومة الإنقاذ ويعبر عن توجهاتها(١). (وكان معظم تركيز الدكتور الترابي في محاضرته منصبًّا على أن التبشير هو عمل إنساني يحترم إنسانية الإنسان، وأن على العالم احترام التنوع الديني... ودعا الترابي في محاضرته إلى ضرورة حفظ الديانات، وتنمية روح الدين المؤدية لتوحيد الأديان... وقال: إن العالم يتجه الآن نحو التوحد، الأمر الذي يستوجب تصنيف هذا العالم من حيث التدين، دون الأخذ

---

(١) ورغم ذلك لم يتضمن تحقيق قسم التحقيقات بوكالة أنباء السودان أدنى إشارة لها، إمعانًا في التظاهر بعدم الارتباط بين الحكومة السودانية وشخصية الدكتور الترابي، في تلك الفترة.

بالتفاصيل)⁽¹⁾. وهذا كلام لا يختلف في فحواه عن كلام زنادقة الصوفية من أهل وحدة الوجود، أو النحل الباطنية كالبهائية⁽²⁾، وربما زاد عليه بالثناء على التبشير.

وقد صدر عن «مؤتمر الأديان في السودان» بيان ختامي مسهب، نقتطف من بنوده ما يأتي:

- (اعتماد الدين كأساس لنهضة البشرية، وتأكيد محاور الالتقاء، وإبراز القواسم المشتركة بين الأديان، والحض على ما يجمع الناس ويوحدهم، لا على ما يفرقهم.

- إشاعة المساواة بين الناس، أيًّا كان دينهم أو معتقدهم أو نظامهم الاجتماعي والأخلاقي، وتكريم الإنسان إنفاذًا لمشيئة الله...

- إن المفهوم الحقيقي للحوار الديني لا يقتصر على مجرد تبادل الآراء، وغرس روح التسامح، وإنما يجب إعماله إيجابيًّا في تغيير نوعية الحياة، وإحلال قيم العدل والقسط في التعامل بين الأفراد والجماعات والدول، وأن يُسعى به إلى خلق نظام عالمي يجعل العدل، وإعلاء قيمة الإنسان، وصون كرامته، وتأمين حقوقه، والاستجابة لحاجاته الأساسية العادلة)⁽³⁾. كما أبدى المؤتمرون غبطتهم لعزم الحكومة السودانية «الإسلامية!» على إعادة النظر في قانون الهيئات التبشيرية!⁽⁴⁾.

---

(١) جريدة «الشرق» القطرية تحقيق عن مؤتمر حوار الأديان، مشاهدات عائد من الخرطوم: يعقوب الزهير. الأحد ٢٣ ذي القعدة عام ١٤١٣هـ-١٦ مايو عام ١٩٩٣م.

(٢) انظر: فصل «الأصول التاريخية» من الباب الأول.

(٣) المواد: (٦، ٧، ٩) من البيان الختامي.

(٤) البيان الختامي. مادة (١٣). وقد أعيد النظر فعلاً في قانون منع التنصير في شمال السودان الذي سن في مطلع الستينيات في عهد الفريق إبراهيم عبود، فألغي في عهد حكومة الترابي «الإسلامية»، وصار المنصرون يذرعون البلاد شمالها وجنوبها، وتفسح لهم منابر الإعلام في أجهزة الدولة الرسمية من إذاعة وتلفاز وصحف، وانشغل الدعاة بمحاربة التنصير في الشمال، مما أثر على مسيرة الدعوة الإسلامية.

إن ما تحاول أن تقوله بعض مؤتمرات التقريب بين الأديان التي عقدت في عواصم غربية على وجل وتردد، يقال في الخرطوم في ظل حكومة «الإنقاذ» الإسلامية بملء الفم!

إن الحوار الديني يُطمح من ورائه في الخرطوم إلى خلق نظام عالمي يحمل مبادئ إنسانية عامة، كتلك التي تتستر بها الماسونية، ويطمس خصوصية الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا سواه.

ولا أدل على ذلك من «ميثاق الحوار الديني في السودان» الذي صدر عن المؤتمر، في سابقة خطيرة من نوعها لم تقع في أي بلدٍ من بلدان المسلمين، ولم تجرؤ عليها حكومة شيوعية أو قومية أو علمانية، في السودان، ولكن صدر بمبادرة الدولة «الإسلامية» وتأييدها، ولخطورة هذا التوجه وتداعياته المستقبلية نورد أهم بنود نص الميثاق:

(نحن المنتمين إلى الديانات السماوية(١) الإسلام والمسيحية في السودان، وقد التقينا في عاصمة وطننا الخرطوم، على اختلاف مللنا ومذاهبنا ولغاتنا وأعراقنا، في مؤتمر الأديان بالسودان... نعلن إيماننا الراسخ بالله خالقنا، وأننا جميعًا أبناء وطنٍ واحد هو السودان، وقد عاهدنا الله على الوفاء بالآتي:...

٢. أن نبذل كل ما في وسعنا لدعوة أبناء شعبنا أن يحرصوا على التمسك بما يجمعنا، وأن ينأوا عن نوازع الفرقة والشتات، فأصل الدين واحد، والأديان السماوية تعمر بالمبادئ والقيم والمثل المشتركة الكفيلة بجمعنا على الهدى وفعل الخيرات.

---

(١) راجع التمهيد مبحث دين الإسلام. في بيان حكم هذا التعبير.

٣. وأن نتعاون جميعًا لصياغة مجتمعٍ سوداني موحد، تسوده المحبة، ويظلله السلام. فالإسلام والمسيحية كلاهما يحثان على المحبة والفضيلة والتراحم والسلام والعدالة، واحترام الإنسان، ورعاية حقوقه وحرماته...

٦. وألا نجعل من اختلاف الدين سببًا للفتنة والفرقة والشتات والاحتراب.

٧. وأن يحترم كلٌّ منا عقائد الآخرين.

٨. وأن نعمل على إزالة كل أسباب النزاعات والخلاف بين جماعات أمتنا، بالحوار الموضوعي المخلص الأمين، عبر لجنة مشتركة من أهل الديانات بالسودان... ووفاءً بما جاء في هذا الميثاق، نتعاهد على أن ندعو للآتي، ونعمل له:

أ- حرية الاعتقاد والتعبير عنه والعمل له.

ب- الاهتمام بدور العبادة، ورعاية حرمتها.

ج- حرية التربية الدينية، والحرص على تيسير سبلها، وإعداد معلميها وتدريبهم.

د- إدخال مادة الأديان المقارنة في مناهج التعليم العالي.

هـ- تشجيع قيام الجمعيات الطوعية الخيرية المشتركة، والحث على التسامح، وعدم إكراه أحد على تغيير دينه وعقيدته.

ز- رعاية الفقراء، وعدم استغلال الفقر والعوز للتأثير على العقيدة... وإننا إذ نعاهد الله مسلمين ومسيحيين على السعي إلى تحقيق ما تقدم، ندعو أهل الديانات في قارتنا الإفريقية وفي قارات العالم الأخرى أن يعملوا على إشاعة روح الحوار بين أهل الديانات والتقريب بينهم، وعلى رفع كل ضروب الظلم عنهم، وبسط معاني المحبة والتعاون وحسن التعايش. ونتعاهد على أن نسعى، بجهود

كل أهل الديانات، إلى الإسهام الفاعل في صياغة نظام عالمي جديد يتحاكم إلى قيم الدين، ويشيع العدل والمساواة والاستقرار والسلام)(١) اهـ.

هذا ما تقاسم عليه القوم، وعاهدوا الله عليه، من دعاة التقريب من المسلمين والنصارى، وهو كما وصفه واضعوه، إسهام في صياغة نظام عالمي جديد.

إن التاريخ العلمي والسياسي للمسلمين طوال القرون لم يشهد مثل هذا اللون من «الاجتهاد» العصراني، الذي فتح بابه على مصراعيه دون شرطٍ أو قيد منظِّر الحركة الإسلامية في السودان الدكتور حسن بن عبد الله الترابي وتلاميذه. إن روح الميثاق ومادته لتطبع في النفس أن ليس فرق بين دين الله الحق الخاتم «الإسلام»، والنصرانية المثلثة المشرِكة، وأنه يسوغ ويصح لمن شاء اعتناق ما شاء، وأن المقصود إعلان راية الدين أيًّا كان ذلك الدين، وبذل الوسع لدعوة الشعب للتمسك به، حتى ولو كان القول بألوهية المسيح، أو بنوته، أو أن الله سبحانه ثالث ثلاثة، وفوق ذلك حرية التعبير عنه والعمل له، وفوق هذا وذاك الالتزام باحترام عقائد الآخرين، حتى ولو كانت عين الكفر والشرك بصريح القرآن والسنة!

فأين هؤلاء من قول الله تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وإنما وصاهم بما تضمنه قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال في شأن النصارى خاصة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا

---

(١) ميثاق الحوار الديني في السودان صفحتان: ٣٠ أبريل عام ١٩٩٣م. وقد نشرته وكالة الأنباء السودانية ضمن تحقيقها عن مؤتمر الأديان.

نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] ؟ فهل علم هؤلاء أن محاوريهم من نصارى السودان فهموا من المادة الرابعة من الميثاق (وأن نتجرد لعبادة الله مخلصين له الدين) ما دلت عليه الآيات المحكمات السابقة؟ قطعًا إنهم ما علموا عنهم ذلك، ولكنه الهوى والادِّهان في دين الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد أراد الإسلاميون العصرانيون في السودان مداهنة النصارى وتملقهم، سعيًا لاسترضاء الإعلام الغربي والحكومات الغربية، فلم ينالوا خيرًا، وتعرضوا لسخط الله عليهم، وأسخط عليهم الناس. وكان أشدهم سخطًا أولئك النصارى الذين حاولوا إرضاءهم، ويطرح أحد الصحفيين ممن شهد وقائع المؤتمر السؤال الآتي، ويجيب عليه: (هل حقق المؤتمر أهدافه؟... إن السودان الذي يحاول أن يغير صورته في الإعلام الغربي، لا أعتقد أنه يفهم حقًّا ذلك الإعلام تمام المعرفة، لأنه راح ينظر إلى رجال الدين المسيحي في الغرب من أجل التأثير على وسائل إعلامهم، وهم يفتقدون ذلك التأثير، وفاقد الشيء لا يعطيه)(١).

مؤتمر «الحوار بين الأديان: (سلامٌ للجميع)»:

عقد هذا المؤتمر بقاعة الصداقة في الخرطوم في ٨-١٠ أكتوبر عام ١٩٩٤م، بدعوة من «مجلس الصداقة الشعبية العالمية جمعية حوار الأديان في السودان». وحضر المؤتمر (أكثر من خمسين كنيسة ومنظمة إسلامية، ومؤسسات وهيئات دينية، وطرق صوفية، من حوالي ثلاثين دولة...)(٢).

---

(١) مجلة «الشرق» القطرية. مشاهدات عائد من الخرطوم. يعقوب الزهير. الأحد ٢٥ ذي القعدة ١٤١٣هـ، ١٦ مايو عام ١٩٩٣م.

(٢) البيان الختامي لمؤتمر الحوار بين الأديان (سلام للجميع ١٩٩٤م): (١، ٢).

ومن البحوث التي طرحت في المؤتمر:

- الحوار بين الأديان «التحديات والآفاق» د. حسن بن عبد الله الترابي:

دعا فيه إلى إقامة «جبهة أهل الكتاب»(١)، و(تكثيف الحوار، وتأسيس المنابر المشتركة، لا لمناقشة القضايا اللاهوتية، ولكن لمناقشة ما يمكن أن نفعله معًا لإشاعة المثل والقيم الدينية... إن البعد عن عصبية الدين، والتحرر من التعصب المذهبي، هو الباب المفضي إلى حوار حقيقي بين الأديان. فإذا ترك أهل الأديان التعصب كل لمذهبه وملته، وأقبل على دراسة الأديان بعقل متفتح، كان أحرى أن ينكشف له الأصل الواحد لهذه الأديان، واشتراكها في القيم الأساسية التي تدعو له)(٢).

إنها ذات المعاني التي أطلقها جمال الدين الأفغاني قبل مئة عام(٣)، تتردد في جنبات قاعة الصداقة، في مؤتمر مجلس الصداقة الشعبية العالمية، على ألسنة العصرانيين من تلاميذه، وكلاهما؛ الأفغاني، والترابي، قد تلطخ بآفة الركون إلى الذين ظلموا، لتحقيق مكاسب سياسية، وها هو الترابي يقول: (إن الوحدة الوطنية تشكل واحدة من أكبر همومنا، وإننا في الجبهة الإسلامية نتوصل إليها بالإسلام على أصول الإبراهيمية، التي تجمعنا مع المسيحيين، بتراث التاريخ الديني المشترك، وبرصيد تاريخي من المعتقدات والأخلاق، وإننا لا نريد الدين عصبية عداء، ولكن وشيجة إخاء في الله الواحد(٤). لقد تقرب هؤلاء الترابيون إلى النصارى بأصناف القرب والمجاملات:

---

(١) راجع مبحث: الإسلاميون العصرانيون. من الباب الأول.

(٢) نص المحاضرة. (٥، ٦).

(٣) انظر: فصل الأصول التاريخية لدعوة التقريب. الباب الأول.

(٤) مجلة المجتمع. العدد (٧٣٦) في ٨/ ١٠/ ١٩٨٥م.

- فحضروا أعيادهم الدينية، وهنؤوهم على صفحات الجرائد والمجلات.

- وشاركوهم صلواتهم في كنائسهم.

- وتبرعوا بمئات الآلاف من الجنيهات السودانية لعمارة كنائسهم في مدينة «واو» الجنوبية(١).

- وفتحوا لهم وسائل الإعلام في يوم الأحد في الفترة الصباحية لإذاعة قُدَّاساتهم.

- واستهلوا جلسات المجلس الوطني بآياتٍ من القرآن الكريم، وترتيل من الإنجيل، إلخ(٢).

فما أغنى عنهم ذلك شيئًا، وما ازداد القوم إلا ازدراءً لهم، واستطالةً عليهم. واندلعت الثورات المسلحة في أقاليم الجنوب لا تطالب بالاستقلال فحسب، بل بإسقاط نظامهم(٣). وصدق الله إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]. فماذا يريدون منهم؟ ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

---

(١) جريدة الإنقاذ الوطني السودانية. عدد ٤/ ١/ ١٩٩٢م.

(٢) انظر: مناقشة هادئة لبعض أفكار الدكتور الترابي. الأمين الحاج محمد أحمد. (١٤٨).

(٣) ثم آل الأمر في السودان إلى انفصال الجنوب، وضعف حكومة الإسلاميين في الشمال لأسباب عدة، منها فقدان أهم الموارد الاقتصادية وهو نفط الجنوب، وكذا الحصار الاقتصادي الغربي للسودان، ونشوء حركات التمرد المسلح... فما أغنت عنهم تلك التنازلات في تلك المؤتمرات واللقاءات شيئا، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، والله المستعان.

المبحث التاسع

محاولات عالمية متفرقة

هذه بعض النماذج لتلك المحاولات:

مؤتمر «**اللاجئون والمهجَّرون: (آفاقٌ وعمل مشترك)**»: عقد هذا المؤتمر الإسلامي المسيحي في مدينة «فالِّيتا» بجزيرة مالطا، في عام ١٤١١هـ، الموافق ١٩٩١م، بمبادرة مجموعة منظمات دولية إسلامية ونصرانية هي:

١. جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

٢. مؤسسة الدعوة الإسلامية العالمية.

٣. المؤتمر الإسلامي العالمي.

٤. اللجنة الدولية الكاثوليكية للاجئين.

٥. الاتحاد اللوثري العالمي.

٦. مجلس الكنائس العالمي.

تباحثوا في مشكلة النزوح، والهجرة الجماعية، واللجوء، التي يعانيها حوالي ثلاثين مليون نسمة في العالم، من بينهم مئات الآلاف من النصارى الذي يعملون في بلدان الشرق الأوسط المسلمة المنتجة للنفط، ومئات الآلاف من المسلمين الذين استوطنوا أوروبا وأمريكا المعلمَنة، ذات الأكثرية النصرانية، وقد تضمن البيان(١) المسهب تحديد العناصر المشتركة في نظر المؤتمرين بين الديانتين

---

(١) انظر: البيانات المسيحية الإسلامية (١٦٩).

في هذه القضية: (أ- الأرض ملك الله، قد عهد بمواردها للبشرية جمعاء، لكي تصبح في متناول الجميع بكل عدالة ورحمة. ب- وقد دعانا الله لنحب بعضنا بعضًا كمحبتنا لذواتنا، ومن ثم لنخدم الجميع من دون أي أنانية أو تمييز عنصري أو طبقي أو اقتصادي أو ديني. يجب أن تقدم مساعداتنا في سبيل أهدافٍ إنسانية محضة، ومن دون أي قصدٍ لاجتذاب الآخرين دينيًا...)(١).

وهذا غير مسلَّم، فالأرض ملك الله، وقد استخلف فيها بني آدم، وسخر لهم ما فيها ليقوموا بعبادته وطاعته، فحينئذٍ تحل لهم زينتها وطيباتها.

وأما العنصر الثاني «ب»، فإن الله دعانا لمحبة أوليائه وبغض أعدائه، وجعل ذلك علامة على الإيمان: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وتوعد من قدم محبة القرابة المشركة، وما سواها من حظوظ الدنيا على محبة الله ورسوله وجهادٍ في سبيله، فقال: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وجعل نبيه ﷺ أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله. فكيف ساغ لممثلي ثلاث جمعيات دعوة إسلامية أن تقر هذا الباطل، وتنسب إلى «الكتب والعقائد المقدسة» كما في البيان هذه الفرية، وتسوي بين أهل التوحيد والإيمان، وأهل التثليث وعباد الصلبان، في المحبة والخدمة دون أدنى تمييز، وتوافق مجاراة للقوم على التبرؤ من أي قصدٍ لاجتذاب الآخرين دينيًّا؟! أين الدعوة إذًا؟! ومتى كان المنصرون الذين يذرعون مخيمات المهجرين المسلمين يرعون هذه المبادئ؟! وبه يتبين أن الخلفية الحقيقية لمشكلات اللاجئين والنازحين والمهجرين من أتباع ديانة معينة، في مجتمع يعتنق ديانة مخالفة، ليست معيشية فحسب، بل الأهم من ذلك كما يتضح من التوصيات، الخلفية الدينية العقدية التي يسعى المؤتمرون إلى إذابتها بالشعارات الإنسانية الفضفاضة.

---

(١) المرجع السابق (١٧٠).

المؤتمر العالمي للدين والسلام {WCRP}:

مقره الرئيس جنيف، وله فروع متعددة في أنحاء العالم، وقد دأب منذ مطلع السبعينيات على عقد مؤتمرات عالمية واسعة النطاق، تضم مختلف الأديان، منها(١):

مؤتمر «الأطفال العالمي»:

عقد هذا المؤتمر في مدينة «برنستون» بولاية نيوجيرسي الأمريكية، في عام ١٩٩٠م، بهدف إصدار إعلان من الأديان العالمية حول أطفال العالم. وقد جاء في مسودة الإعلان، تحت عنوان: «المسؤوليات الدينية والروحية» ما يأتي: (بالنسبة للهندوس، فإن الطفل ليس تجسيدًا فعليًّا للإنسانية فحسب، بل هو تجسيد لجوهر الألوهية... أما بالنسبة للمسيحي، فإن كل طفلٍ يعد انعكاسًا بطريقة فريدة للصورة الإلهية... أما بالنسبة للمسلم، فإن الإنسان هو خليفة الله في الأرض(٢)... أما بالنسبة للبوذيين، فإن الكبار والأطفال يملكون طبيعة بوذا، حيث إنهم جميعًا أبناء أو عيال لبوذا... أما بالنسبة لليهودي، فإن إرادة الله قد أنزلت إلى الشعب اليهودي من أجل الأطفال)(٣).

---

(١) ينظر الأصل.

(٢) هذا كلامٌ موهم؛ إذ أن قوله تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة) أراد به آدم، قال ابن الجوزي: (وفي معنى خلافة آدم قولان: أحدهما: أنه خليفة عن الله في إقامة شرعه، ودلائل توحيده، والحكم في خلقه. وهذا قول ابن مسعود ومجاهد. والثاني أنه خلف من سلف في الأرض قبله. وهذا قول ابن عباس والحسن). زاد المسير (١/ ٦٠). فليس الخليفة هو الإنسان بإطلاق. قال الطبري: (ذلك الخليفة هو آدم، ومن قام مقامه في طاعة الله، والحكم بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حق، فمن غير خلفائه، ومن غير آدم ومن قام مقامه في عباد الله) تفسير الطبري (١/ ٢٠٠).

(٣) مسودة إعلان اجتماع الأديان العالمية حول أطفال العالم (٦، ٧).

إن هذا النص الذي يبتغي «تأصيل» قضية فرعية، لدى مختلف ملل الكفر والشرك والوثنية، ويحشر معهم أهل الإسلام، لَيَكشِفُ عن طبيعة هذه الملتقيات التي تجعل «العالمية» و«التقارب» فوق كل اعتبار، ولا ترى «الحق» و«الباطل» سوى «تعددية ثقافية».

إن على أهل الإسلام أن ينأوا بأنفسهم عن الخوض في هذه الممارسات، ويستحوا من خالقهم ومعبودهم، أن ينسب إليه الشريك ويكفر به ويستهزأ، بمرأى منهم ومسمع، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وإلى جانب ذلك يطالب ممثلو الأديان العالمية بمن فيهم من شهد المؤتمر من المسلمين قائلين: (وكمجموعاتٍ دينية، نجد أنفسنا مطالبين بالآتي: تأكيد الحقائق الروحية التي ورثناها من الماضي، وكذلك الالتزام بها...)⁽¹⁾.

وثالثة الأثافي: (الابتهال من أجل أطفال العالم: من الابتهال وهو صلاة أو دعاء يتكون من مجموعة من الابتهالات، يرفعها أحد الكهنة، ويرددها المصلون من بعده)⁽²⁾. اللهم غفرًا.

---

(١) المرجع السابق (٨).

(٢) المرجع السابق (٩).

الباب الثالث

نقد دعوة التقريب بين الأديان وتقويمها

ويتضمن فصلين:

- الفصل الأول: نقد دعوة التقريب بين الأديان في ضوء العقيدة الإسلامية.
- الفصل الثاني: المنهج الشرعي في مخاطبة أهل الكتاب.

الفصل الأول

نقد دعوة التقريب بين الأديان في ضوء العقيدة الإسلامية

مرَّ في غضون البابين السابقين تعليقات وتعقبات متفرقة اقتضاها السياق، وفرضها وجوب البيان وقت الحاجة، وعدم إرسال كلام المبطلين على عواهنه مفصولًا عن كشف عواره، ودفع شبهته. ونهدف في هذا الباب إلى نظم المتناثر، ورد الفرع إلى الأصل، والمثال إلى القاعدة، والكشف عن كلياتٍ تبلورت مادتها بعد ذاك العرض التفصيلي، في سبيل نقد هذه البدعة الحادثة في الأمة الإسلامية دعوة التقريب بين الأديان.

ولا شك أن الحجة الدامغة في نقد دعوة التقريب بين الأديان، بأشكالها المختلفة، هي العلم أن دين الله واحد لا يتعدد، وهو الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا سواه، وأن رسوله الواجب الاتباع الذي ختم به النبيين واحدٌ، هو محمد ﷺ، وأن كتابه المحفوظ الناسخ لما قبله من الكتب، المهيمن عليها واحد، هو القرآن.

فمن ثم فكل دينٍ سوى الإسلام الذي ابتعث الله به محمدًا ﷺ فهو إما باطل أو منسوخ، غير مقبول عند الله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ولم يبقَ كتاب منزل من عند الله يتعبد بتلاوته والعمل به سوى القرآن، ولا رسولٌ يجب اتباعه سوى محمدٍ ﷺ. كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. وهذه الأصول العظيمة من المعلوم من الدين بالضرورة، لا ينكرها إلا كافر بالله ورسوله وكتابه.

إذا تقرر هذا تهاوت فكرة التقريب بين دين الله الحق، الإسلام، وسائر الأديان المحرفة المنسوخة، فضلًا عن الوثنيات الشركية، بل لم يسُغ أصلًا أن تخطر بالبال، أو تطوف في مجاري التفكير، إلا على سبيل الخطرات الشيطانية التي تستدفع بالاستعاذة، وتنقشع بالذكرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

جاء في فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، برئاسة الإمام الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز(١) رحمه الله: (إن من يحدث نفسه بالجمع أو التقريب بين الإسلام واليهودية والنصرانية، كمن يجهد نفسه في الجمع بين النقيضين، بين الحق والباطل، بين الكفر والإيمان...)(٢).

فكيف يتسلل إلى ذهن مؤمن حنيف التفكير في التقريب بين الإسلام الذي أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، ورضيه لعباده دينًا، فيكفأ ما في إنائه، أو يشوبه بالأكدار والأخلاط الضارة؟! ولهذا كان من دلائل بطلان هذه الدعوة الفاجرة نفرة عوام المسلمين، الباقين على الفطرة السليمة، منها، واستهجانهم إياها.

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله آل باز، ولد في الرياض سنة ١٣٣٠هـ، وطلب العلم في صباه، وكان بصيرًا فحفظ القرآن قبل البلوغ، عمي وعمره ١٦ سنة، تلقى العلم على مشاهير علماء الدعوة السلفية في نجد، ولازم الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ منذ سنة ١٣٤٧هـ إلى سنة ١٣٥٧هـ، حيث ولي القضاء أربعة عشر عامًا، وعين عام ١٣٨١هـ نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية، ثم رئيسًا عام ١٣٩٠هـ حتى عام ١٣٩٥هـ، ثم عاد إلى الرياض رئيسًا لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. وإلى جانب ذلك عضوية المجالس التالية: هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، ثم رئيسًا دائمًا لها، اللجنة الدائمة للإفتاء، ثم مفتيًا عامًا للمملكة، رئاسة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وقد وافاه الأجل صبيحة يوم الخميس ٢٧ محرم ١٤٢٠هـ في مدينة الطائف، وصلى عليه حشد هائل في المسجد الحرام، بعد صلاة الجمعة. رحمه الله.

(٢) انظر النص الكامل للفتوى في الملحق رقم (٢) في الأصل.

ولكن زيادةً في البيان، وتفصيلًا لهذه الجمل العامة، وإزالةً للشبهة العالقة ببعض النفوس، إما بسبب الجهل، أو الهوى، أو داعي المصلحة الملغيَّة، نتناول نقد هذه الدعوة من خلال المباحث الآتية:

١. دلالة الشرع علىٰ بطلان دعوة التقريب بين الأديان.

٢. دلالة الواقع علىٰ بطلان دعوة التقريب بين الأديان.

٣. شبهات دعاة التقريب بين الأديان وكشفها.

المبحث الأول

دلالة الشرع على بطلان دعوة التقريب بين الأديان

نهدف في هذا المبحث إلى بيان بطلان فكرة التقريب بين الأديان، من حيث هي فكرة مجردة، ومناقضتها لأصول الإسلام في ذاتها، ولوازمها العلمية والعملية من خلال الفقرات الآتية:

أولًا: أنها رغبةٌ عن ملة إبراهيم عليه السلام وحَيدة عن «الصراط المستقيم»:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]. فمن رام القرب من اليهودية والنصرانية، فضلًا عن سائر الملل الوثنية، فقد رغب عن ملة إبراهيم، التي هي الحنيفية المسلمة(١). وملته عليه السلام هي ملة الأنبياء قبله وبعده، وهي الإسلام بمعناه العام(٢)، الذي يعني إسلام الوجه لله تعالى بالإخلاص له وحده دونما سواه، ونبذ الشرك، والإحسان في عبادته باتباع شرعه الذي شرعه على لسان نبيه الذي بعث إليه، والإيمان بالمعاد، وذلك أحسن الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقد سَفِهَ اليهود والنصارى أنفسهم حين رغبوا عن ملة إبراهيم عليه السلام، بوقوعهم في أنواع الشرك والبدع، والكفر والفسوق والعصيان، كما قال قتادة

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٥٨).

(٢) راجع مبحث: دين الإسلام في التمهيد (١١٣).

رحمه الله: (رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعةً ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم)⁽¹⁾. ومع ذلك فقد حاولوا انتحاله، والانتساب إليه، فكذَّبهم الله، وأبطل دعواهم، وبرَّأ نبيه الكريم من كفرهم وضلالهم، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وأنكر عليهم أن يكون أحدٌ من أنبيائه من ذريته، على اليهودية أو النصرانية، فقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٤٠]. كما حاولوا استزلال المؤمنين في عهد النبوة إلى طريقهم، بدعوتهم إلى التهود أو التنصر، فرد الله دعوتهم في نحورهم: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وتأسيسًا على ما مضى، فإن الدعوة إلى التقارب مع اليهود والنصارى استجابة لمطلب قديم لدى أهل الكتاب ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ﴾

وقد أرشد الله عباده المؤمنين إلى طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، فقال في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. فوحَّد الصراط، ولم يعدده، وميزه سبحانه عما سواه من السبل، وميزهم عمن سواهم من السالكين، أي: (غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق. وقد أكد الكلام بلا، ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقتا اليهود والنصارى)⁽²⁾. وقد تفتقت عقولهم في العصر الحديث لاستدراج المسلمين

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٥٨). وراجع مبحث: «أهل الكتاب» في التمهيد.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٤٠).

إلى شَرَك التقريب بين الأديان بالدعوة إلى «الإبراهيمية»، كما جرى في ملتقى قرطبة الإبراهيمي، ومتحفها التضليلي الذي أدار رحاه الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي(١) عام ١٩٨٧م، وما تلاه من مؤتمرات ضمت يهودًا ونصارى ومسلمين.

أمَّا من أوغل مع القوم في نفق التقريب، وجرى في دهاليزه المظلمة، فقد أوقفوه على حقيقة أمرهم، وخبيئة نفوسهم، وهي رفض ملة إبراهيم، والتنصل من تبعاتها. ومن شواهد ذلك لدى دعاة التقارب:

- يقول خيسوس آبيلينو دي لابيندا: (إن التوحيد الذي يستبعد أي شيءٍ غيره، والذي يسيطر على التقليد الإبراهيمي بحذافيره، شيءٌ لا يقوم بذاته، ولا يمكن أن يستمر من وجهة النظر التحليلية، وهذا التوحيد الذي يستبعد كل ما سواه، هو جوهر عقدة التفوق التي تجرجرها أديان هذا التقليد. فينبغي لكل هذه الديانات الإبراهيمية أن تمتحن نفسها، وتمحص نفسها بنفسها ذاتيًّا من هذه الرذيلة التي ترتكبها ضد ديانات أخرى، وأن تتنازل عن احتكارها الذي تزعمه)(٢).

ثانيًا: أنها ابتغاءٌ لدين غير الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] . ودين الإسلام هو ما أرسل الله به رسوله محمَّدًا ﷺ من الهدى، الذي هو العلم النافع، ودين الحق، الذي هو العمل الصالح. وقد نسخ الله به سائر الأديان. فلا يوجد على وجه الأرض دينٌ صحيح يُتعبد الله به، ويقبله، سوى ما جاء به محمد ﷺ. وقد دأب دعاة التقريب بين الأديان على محاولة اختراق هذه العقيدة المتينة، بالدعوة إلى ضربٍ من التدين العام الذي يتحلل من العقائد

---

(١) راجع مبحث: (محاولات روجيه جارودي) في الفصل الأول من الباب الثاني في الأصل.
(٢) إلى الجذر (١١١).

المحكمة، والشرائع العادلة، التي تميز دين الإسلام عن سائر الأديان المنسوخة والمبدلة. وسلكوا لبلوغ هذه الغاية مسلكين:

- **المسلك الأول: تمييع مفهوم الإيمان**، بحيث يشمل كل من زعم أنه جمع خصالًا ثلاثًا: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح، ولو لم يكن مؤمنًا برسالة محمدٍ ﷺ، وما جاء به من عند الله، والحكم بنجاته في الآخرة. وهذا مسلك كثير من الإسلاميين العصرانيين، ومن شواهد ذلك: - يقول محمد أبو رية: (إن النجاة من الخوف والفزع، ونيل المثوبة والأجر، أمران منعقدان بأن يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر، وأن يأتي من الأعمال ما هو لصلاح الدنيا والآخرة. فمن فعل ذلك فله أجره عند ربه، ولا خوف عليه ولا حزن، لا فرق في ذلك بين من كانوا على ملة إبراهيم، ومن كانوا على دين غيره من الأنبياء كموسى وعيسى، بل وغيرهم ممن لم يدينوا بشيء من تلك الأديان)(١).

- **المسلك الثاني: محاولة طمس الخصائص المميزة لدين الإسلام** من النواحي التشريعية والتطبيقية، من عباداتٍ ومعاملات وحدود، ومحاربة تطبيق الشريعة الإسلامية. وهو مسلك بعض الزنادقة المندسين بين المسلمين، من أمثال روجيه جارودي. ومن شواهد ذلك: يقول روجيه جارودي: (يكمن هذا المرض، على سبيل المثال، في إرادة مفادها تطبيق القانون الجزائي السائد في القرن السابع، كاليد المقطوعة بسبب السرقة، أو الجلد بالسوط بسبب الزنى، ويضيف إليها الفقهاء، ضد القرآن الكريم وباسم التقليد، الرجم حتى الموت، وفي إرادة مفادها تطبيق القانون المدني والأحوال الشخصية، اللذين كانا يتوافقان مع شروط القرن السابع التاريخية، على الزواج والطلاق والمواريث... إنها جريمة ضد الإسلام،

---

(١) دين الله واحد (٥٢). وللمزيد من النماذج ينظر الأصل.

وليس لـ«تطبيق الشريعة» الحقيقي أي علاقةٍ بهذه الحرفية الكسول)[1]. وهذا مسلك يرمي إلى سلخ المسلمين عن دينهم في أحوالهم الاجتماعية والتشريعية والاقتصادية وغيرها.

وهكذا يلتقي المسلكان على ابتغاء دينٍ غير دين الإسلام، بإذابة الحد الفاصل بين الإيمان وأهله، والكفر وأهله من جهة، وطمس معالم الإسلام وخصائصه وتشريعاته من جهة أخرى. وهو أمرٌ لا بد منه لدعاة التقريب بين الأديان.

ثالثًا: أنها طعن في رسالة نبينا محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ومن المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وجوب الاعتقاد بأن محمدًا ﷺ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وأن رسالته إلى الناس كافة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وأن سائر الخلق بعد بعثته، أمته؛ أمة الدعوة، سواء في ذلك المشركون وأهل الكتاب، قال ﷺ: «والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[2]. ولا ريب أن ذلك يقتضي بداهةً أن الإيمان به شرطٌ لصحة الإيمان، ودعاة التقريب هوَّنوا من شأن الإيمان برسالته ﷺ كشرطٍ للإيمان، ومن شواهد ذلك:

---

[1] الإسلام (٨١، ١٢٦)، وانظر: تفنيد دعاويه في مبحث (محاولات روجيه جارودي) في الفصل الأول من الباب الثاني من الأصل.

[2] رواه مسلم (١/ ١٣٤).

- يقول محمد عمارة: (إذا ما وقف أهل الكتاب، من أتباع شرائع الرسل الذين سبقوا محمدًا ﷺ عند التصديق برسالة رسلهم، وأبوا التصديق برسالة محمد ونبوته مع توحيدهم وعملهم الطاعات، فإن ذلك الوقوف وهذا التوقف لا يخرجهم من إطار الدين الواحد، ولا حظيرة التدين بالإسلام، فموقفهم هذا هو انحراف. والفرق بين من يؤمن بمحمد، وبكل الرسل، وبين الذين يجحدون نبوته ورسالته مع توحيدهم وطاعتهم كمثل الفرق بين إيمان المؤمن الخالي من البدع، وبين إيمان من تشوب البدع إيمانه)(١).

وهذا الغض المتعمد من قيمة الرسالة الخاتمة، وصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام، ضروري لدعاة التقريب لتخطي الحواجز والعقبات أمام صهر الإسلام المتميز المتألق، الوارث لملة إبراهيم، في صهريج الديانات المحرَّفة والملل الوثنية، فلا عجب إذًا أن تخلو بيانات المئات من مؤتمرات التقارب من ذكر نبوته ﷺ.

رابعًا: أنها طعنٌ في القرآن العظيم وهيمنته علىٰ الكتب السابقة:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وهذه قاصمة الظهر لدعاة التقريب، وقد علم القاصي والداني من المسلمين، أن الله تعالى أوحى إلى نبيه محمدًا ﷺ كلامه محضًا لم يُشَب، قاضيًا وحاكمًا وناسخًا للكتب السابقة، فلم يبقَ فيها مستمسك لأحد، فكل ما بين أيديهم إما صحيح منسوخ، أو باطل محرف.

و دعاة التقريب سلكوا لمحاولة تمرير باطلهم مسالك شتى منها:

---

(١) الإسلام والوحدة القومية (٦٤).

١ . المناداة بإخضاع النص القرآني لمعاول النقد التاريخي. فمن شواهد ذلك:

- يقول طريف الخالدي: (أرى من بين تلك المشكلات التي يجب الخوض فيها من جديد مسألة «خلق القرآن». فالقول بخلق القرآن يعني أن القرآن تاريخي، وهذا أمرٌ مهم جدًّا يتيح لنا أن ننظر من خلاله إلى الإسلام كظاهرة تاريخية، لا كنظام أزلي. كنصٍ ينبغي أن نعيد فهمه باستمرار على ضوء آخر ما استجد من العلوم البشرية، وآخر ما وصلنا إليه من فهم لتاريخ الحضارة الإسلامية)⁽¹⁾.

٢ . التأويل المذموم (التحريف)، وذلك بليِّ أعناق النصوص الدالة على كفر اليهود والنصارى، ومن أبرز ما طالته محاولات التأويل:

أ- أن النصارى المذمومين المكفَّرين في القرآن فرقة منقرضة، لا تمثل عامة النصارى اليوم.

ب- أن التثليث المنسوب إلى النصارى في القرآن الكريم، يختلف عن الثالوث الذي قرره مجمع نيقية، إما لكونه ثالوثًا عدديًا، أو لكون أحد أركان الثالوث هو مريم، وهو ما لا يقول به عامة النصارى.

ج- أن الابنيَّة المنسوبة إلى النصارى في القرآن، تختلف عن الابنيَّة التي يقول بها النصارى، لكونها ابنيَّة متجسدة.

وكل ذلك يتم بتأويلات باردة، ومماحكاتٍ لفظية، لا تغني عنهم شيئًا، بل تؤكد التهمة، وتؤيد استحقاقهم للحكم الذي وصمهم الله به في محكم التنزيل⁽²⁾.

---

(١) المسيحيون العرب. دراسات ومناقشات (١٤٥). وللمزيد من الشواهد يراجع الأصل.

(٢) انظر: في هذا مقولات: الأب يوسف درة الحداد، والمطران جورج خضر، والمطران سليم كيرلس في مبحث «النصارى العرب»، والرد على شبهاتهم. وكذا مقولات روجيه جارودي انظر: نحو حرب دينية (٢٣ ٢٧)، الإسلام ص (١٩، ١١٢).

وفي المنتسبين إلى الإسلام «سماعون لهم»، يشاركونهم الرغبة في الانفلات من إحكام النص القرآني الذي يحول بينهم وبين ما يشتهون. ومن شواهد ذلك:

- يقول محمد حسين فضل الله: (إن الحوار لا بد أن يرتكز على مواجهة العقيدة المعاصرة للإسلام والمسيحية، وباعتبار أن الكثير من مفاهيم العقيدة لكل منهما، ربما تجاوزها الواقع الفكري لهذا أو ذاك، مما يجعل الدخول في مناقشتها حركة في الفراغ. كما نلاحظه في بعض الأفكار التي يثيرها القرآن عن التفكير النصراني في عصر النزول، مثل «الابنية المتجسدة»، أو «التثليث المادي العددي»، وأن نحو ذلك مما يقول بعض المسيحيين عنه بأنه لا يمثل العقيدة المعاصرة لهم، بل يمثل لونًا من ألوان التفكير البائد لبعض فرقهم التي يرفضون خطها العقيدي، كما يرفضه المسلمون، فلا يجوز لهم أن يلزموهم به، كما لو كان يمثل الحقيقة الإيمانية للمسيحية في بعدها الفكري العقدي)(١).

خامسًا: أنها اتباع لغير سبيل المؤمنين، ومخالفة لإجماع المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ولا ريب أن دعوة التقريب بين الأديان بدعة في الدين، ليس عليها عمل سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وتابعيهم بإحسان، وإنما هي مُولدة خداج من عمل اليهود والنصارى، ولا يُعلم وقوعها، أو تسويغها في تاريخ الإسلام إلا على أيدي زنادقة الباطنية، كجمعية إخوان الصفا، وأهل وحدة الوجود من الصوفية، والإسلام منهم براء، وأهله لهم أعداء. ثم نفض غبارها، ومهد سبلها في مطلع القرن الرابع عشر الهجري جمال الدين الأفغاني، وتلميذه محمد

---

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي. المقدمة (٣).

عبده التركماني، ونسج على منوالهما، وسار على خطاهما في اتباع غير سبيل المؤمنين، سائر العصرانيين(١).

ومن المعلوم المشهور في السيرة النبوية بمرحلتيها المكية والمدنية، أنه ﷺ لم يسعَ إلى تقاربٍ مع اليهود أو النصارى، رغم توافر الأسباب الداعية لذلك، حسب قانون دعاة التقريب، كمواجهة الشرك في الجزيرة العربية. فقد كان بمكة نفرٌ من أهل الكتاب، كما كان مهاجره بالمدينة محفوفًا بثلاث قبائل كبار من قبائل اليهود؛ بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وقد أبرم معهم عقدًا ذا صفةٍ أمنية وتنظيمية، خلا من أي لونٍ من ألوان التقارب الديني الذي ينادي به دعاة التقريب اليوم، وكاتب ﷺ ملوك النصارى داعيًا إياهم إلى الإسلام، ولم يعرض عليهم وحاشاه التقارب بين الإسلام والنصرانية لمواجهة الوثنيين من المجوس وغيرهم، أو التعاون على إرساء القيم المشتركة للديانتين، كما يلهج بذلك دعاة التقريب، وفاوض وفد نصارى نجران، ودعاهم إلى الإسلام، وجادلهم، وألجأهم إلى المباهلة، دون أن يرضى منهم بموافقته على بعض الكتاب والكفر ببعض، حتى أعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. وعلى هذا سار خلفاؤه الراشدون المهديون في البلاد المفتوحة، لم تزِلَّ بهم قدم، أو يتسلل إليهم وهن، أن يقاربوا أهل الكتاب في شيء من الدين(٢).

ومن لوازم دعوة التقريب، تجهيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وتخطئتهم، حيث لم يسلكوا هذا السبيل.

---

(١) راجع: فصل الأصول التاريخية في الباب الأول. «طلائع العصرانيين» (٣٣٥–٣٤٠).

(٢) راجع نبذة تاريخية في التمهيد.

سادسًا: أنها موالاة لأعداء الدين:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]. وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ.... ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ومن أبجديات دعوة التقريب بين الأديان، ومسلماته، وديباجات مؤتمراته، تأكيد «المحبة» و«الأخوة» و«الصداقة» و«الثقة» و«الاحترام المتبادل» ونحوها من شعارات الولاء الظاهر والباطن، مما يفضي إلى تحطيم عقيدة الولاء والبراء لدى المسلمين، وشواهد ذلك كثيرة منها:

- أقوال الشيخ أحمد كفتارو، مثل: (ليتحابب أهل الأديان السماوية، ويناصر بعضهم بعضًا)(١)، وقوله: (إن العلاج، هو في الدعوة الصادقة إلى تلاقي الديانتين السماويتين الكبيرتين في العالم؛ الإسلام والمسيحية، وإلى وضع الإخاء والحب في ظل إيمان عقلاني، يتعاون فيه الجميع بصدقٍ وإخلاص)(٢).

- ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: (إن المودة ليست واجبة بالنسبة لأبناء الأمة الواحدة، بل هي واجبة للمخالفين في الدين، ما داموا لم يعتدوا على المسلمين ولم يعادوهم... وإذا كانت المودة هي الرابطة التي تربط بني الإنسان، بحكم الإسلام وسائر الأديان، فإن الرحمة تنبعث منها)(٣).

وهذا غيضٌ من فيض من موالاة أعداء الدين. ولا عجب وقد ائتم هؤلاء برائد التقارب في العصر الحديث، محمد عبده، القائل: (الأصل السابع للإسلام: مودة المخالفين في العقيدة)(٤).

---

(١) الدعاة والدعوة الإسلامية المنطلقة من مساجد دمشق (١/ ٥٢٩).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٦٩١). وللمزيد من الشواهد يراجع الأصل.

(٣) تنظيم الإسلام والمجتمع، محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي ط(١٩٧٥م). (٥١ ٥٢).

(٤) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (٧٣).

سابعًا: أنها فتنة عن بعض ما أنزل الله:

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وفكرة التقريب تقتضي الوقوع في هذا المحذور، ونشير ههنا إلى جملٍ عامة من انتهاك بعض حدود الله، والفتنة عن بعض ما أنزل الله، مما تحفل بها مؤتمرات التقريب، ونظرياته تحت مسمياتٍ وشعارات مستحدثة:

١. تصحيح دين اليهود والنصارىٰ وربما غيرهم تحت مسمىٰ «الاعتراف بالآخر». وهو شعارٌ لا يكاد يخلو منه مؤتمر من مؤتمرات التقريب نصًّا أو فحوىٰ، وإقرارهم علىٰ وصف أنفسهم وأديانهم بـ«الأديان التوحيدية» أو «الأديان السماوية» أو «الأديان الإبراهيمية» ونحوها.

٢. رفع الأحكام الشرعية القرآنية والنبوية بكفر اليهود والنصارىٰ، تحت مسمىٰ «التحرر من الأحكام السابقة»، و«تعديل صورة الآخر»، و«فهم الآخر كما يريد»، ونحوها، ليتوصلوا إلىٰ نفي وصمة «الشرك» التي دمغهم بها القرآن تحت مسمىٰ «إزالة التشويه المتبادل في الكتب المدرسية والأدب والإعلام»، لتنشأ ناشئة من أبناء المسلمين، لا ترىٰ فرقًا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

٣. إلغاء أحكام أهل الذمة، وإدانتها تحت مسمىٰ «العدالة الاجتماعية»، و«العيش المشترك»، و«حقوق الإنسان».

٤. إبطال حد الردة، تحت مسمىٰ «الحرية الدينية»، و«التعددية الدينية»، و«التعرف علىٰ الآخر»، و«الإصغاء المتبادل».

٥. إلغاء الجهاد في سبيل الله، تحت مسمىٰ «السلم العالمي»، وإدانة حركة الفتح الإسلامي تحت مسمىٰ «الاعتراف بمظالم الماضي».

٦. التشكيك في الدين، وإضعاف اليقين بخبر الله وخبر رسوله ﷺ، تحت مسمىٰ «النسبية»، ومهاجمة «امتلاك الحقيقة المطلقة».

٧. حل عقد الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله، والموالاة في الله والمعاداة في الله، ورابطة الأخوة الإسلامية، تحت مسميات: «المحبة والاحترام المتبادل»، و«الأخوة الإنسانية»، و«الثقة»، و«نبذ التعصب»، و«نبذ الشك والارتياب بالآخر» ونحوها. وكلها شعارات شائعة باتت في حكم البدهيات والمسلمات لدىٰ دعاة التقريب.

٨. ترك الدعوة إلىٰ الله، وهداية الخلق إلىٰ الصراط المستقيم، مقابل إيقاف نشاط التنصير، بدعوىٰ أن ذلك ينافي أدبيات الحوار والتقارب.

فكل هذه الأصول العقدية، والمقاصد الشرعية، عصفت بها رياح فتنة التقريب بين الأديان لاستزلال المسلمين عن بعض ما أنزل الله، تحت ستار هذه الشعارات البراقة التي نحتها دعاة التقريب، كما فعل أشياعهم من المبطلين من قبل، حين يسمون الأشياء بغير أسمائها لدفع شناعتها، واستجلاب التأييد لها.

وشواهد هذه الفتنة عما أنزل الله كثيرة مبثوثة في غضون ما تقدم من هذا البحث؛ في كتابات دعاة التقريب، وفي بيانات مؤتمراته وندواته.

ثامنًا: أنها تسوية لأهل الإيمان بأهل الشرك وعباد الأوثان:

قال تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. ومن دعا إلى التقريب بين الأديان، فقد سوَّى بين من فرَّق الله بينهم.

وهذه المثلية هي التي يسعى إليها أعداء الإسلام، ويستجرون إليها محاوريهم من دعاة التقارب، ومن شواهد ذلك:

- يقول بول خوري: (الحوار يفترض المساواة بين الأشخاص والجماعات)(١).

- ويقول فهمي هويدي: (ليس صحيحًا أن المسلمين في هذه الدنيا صنفٌ متميز ومتفوق من البشر لمجرد كونهم مسلمين. وليس صحيحًا أن الإسلام يعطي أفضلية للمسلمين، ويخص الآخرين بالدونية. ليس صحيحًا أن ما كتبه أكثر الفقهاء في هذا الصدد هو دين ملزم، وحججٌ لا ترد، إنما هو اجتهادٌ يصيب ويخطئ. إن دعاوى التميز على الآخرين، وتكريس هذا التميز من جنب أكثر الفقهاء، إنما تستخدم لغةً ليست مقبولة دينًا، فضلًا عن أنها لغة باتت محل إدانة هذا العصر)(٢).

تاسعًا: أنَّها مداهنة في دين الله:

قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]. قال ابن جرير رحمه الله: (معنى ذلك: ود هؤلاء المشركون يا محمد، لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم، فيلينون لك في عبادتك إلهك)(٣). وهذا عين التقريب بين الأديان الذي يجترحه دعاة التقريب بملاينة مخالفيهم، وملاطفتهم، وعدم النكير عليهم في شركهم وكفرهم بالله العظيم، وموافقتهم على عدم الخوض في مسائل

---

(١) العقيدة للأمام (١٩٣).

(٢) المسلمون والآخرون، أشواك وعقد على الطريق. مجلة العربي عدد ٢٦٧ ربيع الأول ١٤٠١هـ فبراير ١٩٨١م (ص٤٩).

(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ٢١ - ٢٢).

الاعتقاد الكبرى، ثم تصدير البيانات الختامية لملتقياتهم وندواتهم بعبارات المداهنة والتملق من «المحبة والاحترام المتبادل»، و«الاعتراف بالآخر».

قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥]. فإذا كان هذا قد قيل لسيد ولد آدم ﷺ في شيءٍ قليل، وقد كاد ولم يفعل، فكيف بمن يسعون بأقدامهم، ويكتبون بأقلامهم، ويعتلون المنابر، منادين بالتقريب بين الأديان، ممجدين شعار أهل الكفر وعباد الصلبان؛ من «التعددية الدينية»، و«تبادل الخبرة الدينية»، و«التجارب الروحية»، ونبذ دعوى «امتلاك الحقيقة المطلقة».

ومن شواهد قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] في هذا العصر: - يقول موريس بورمانس: (قد يكون من قبيل اللعب على المكشوف قبول حرية أن يغير المرء دينه... المسيحيون تنازلوا عن تطبيق أي عقوبة في حال الردة)⁽¹⁾. أي فهلمُّوا نتواضع على تسويغ الردة. ويقابل هذه المزايدات النصرانية في «سوق المداهنة» مزايدات التقريبيين من المنسوبين إلى الإسلام، الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على الدين، نظراء على تراثه، يبيعون به ويشترون كيفما شاؤوا، ومن نماذج ذلك: - يقول الشيخ أحمد كفتارو: (ولئن ذهب بعض الناس إلى تأليه المسيح، فذلك لشدة انعكاس نور الله في قلبه، كما تعكس المرآة الصافية نور الشمس)⁽²⁾.

---

(١) العقيدة للأمام (١١٧).

(٢) سلامٌ للبشر (٥٨). للمزيد من الشواهد يراجع الأصل.

عاشرًا: أنها لبس للحق بالباطل، وصدٌّ عن سبيل الله:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]. ولهذا أمر الله نبيه ﷺ، وعباده المؤمنين، بالتميز عن الكافرين في كل شيء، لا سيما في مقام الدعوة والعبادة، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وأمر نبيه أن يقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. قال ابن القيم رحمه الله: (إن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدًا، فإنه دين باطل فهو مختص بكم، لا نشرككم فيه، ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق. فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم)(١).

وقد صور الدكتور علي بن نفيع العلياني هذا الأثر السيئ لِلَبس الحق بالباطل، الناجم عن محاولات التقريب بين الإسلام وأهل الكتاب بالتحليل الآتي: (إن كثيرًا من النصارى وبعض اليهود متعطشون إلى دينٍ شاملٍ كاملٍ كالإسلام، وقد سئموا مما يسمى عندهم بالمسيحية أو اليهودية، التي هي من صنع الأحبار والرهبان، وليستا الدين الصحيح الذي أنزله الله على موسى وعيسى عليهما السلام، فإذا سمع هؤلاء تلك الشنشنة التي تصدر من أشخاصٍ يطلق عليهم ألقاب علمية ودينية كبيرة، المتضمنة لاعترافهم بالدين النصراني والدين اليهودي المحرفين، وسمعوا حرص أولئك العلماء الأكابر على مد أيديهم إلى دين النصارى واليهود، والبحث عن مزاملته بأي ثمن، ومحاولة تقريبه من الإسلام، خاب ظنهم، وقالوا: لماذا ننتقل إلى الإسلام، وهو كديننا الذي نشعر فيه بالتعاسة، بل إن ديننا أفضل منه، بدلالة حرص أصحابه على تقريبنا إليهم، ليكسبوا بذلك شرفًا وعزًّا)(٢).

---

(١) الضوء المنير على التفسير (٦/ ٤٧٥). وانظر: بدائع الفوائد (١/ ١٤٠).

(٢) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، والرد على الطوائف الضالة فيه. (٢٤٩).

المبحث الثاني

دلالة الواقع على بطلان دعوة التقريب بين الأديان

لقد أدت الممارسة العملية الواسعة لدعوة التقريب في العقود الأربعة الأخيرة إلى انكشاف سوءاتها، وظهور آثارها السيئة على عقائد المتصلين بها وأعمالهم. ودلالة الواقع لدى بعض الناس أقوى في النفس من مجرد العلم النظري. كما أن الاستدلال بالواقع والآثار العملية منهج قرآني في إقناع المخالفين، وردهم إلى جادة الصواب. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]. وقال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]. والآيات في معناهما كثيرة. وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

ونهدف في هذا المبحث إلى بيان بطلان دعوة التقريب بين الأديان من خلال الممارسة العملية الميدانية، المتحققة فعلًا، خلافًا للمبحث السابق الذي يعتمد التأصيل الشرعي المجرد، ولذلك سوف نستدعي في هذا الصدد بعض التطبيقات العملية، ونصوص البيانات المشتركة التي تقاسم عليها دعاة التقريب من الجانبين، من خلال الفقرات الآتية:

أولًا: إصرار النصارى على دينهم وعدم اقترابهم من الحق:

إن المتتبع لدعوة التقريب بين الأديان التي أطلقها النصارى في هذا العصر يجد عجبًا! فرغم كل البيانات والشعارات والدعوات المنادية بالتقارب، والتي تقتضي بداهة أن يتقدم كل جانب نحو الآخر خطوة، فإن الواقع يكشف بوضوح

أن النصارى لم يحيدوا قيد أنملة عن مواقفهم العقدية الأساسية، ولم يستجيبوا لبعض الدعوات الملحة، بالتزحزح عن مواقف عقدية تاريخية، حملهم عليها الهوى والعزة بالإثم. وحتى ما عده البعض تحولًا لاهوتيًا في تاريخ الكنيسة بإمكان شمول الخلاص من هم خارجها، فسروه تفسيرًا يقتضي أن يكون سبب الإمكان راجعًا إلى عمل الروح القدس بصورة خفية، وأن مهمة الحوار الأخذ بأيديهم إلى الحقيقة الكاملة(١).

وحقيقة الحال أن النصارى يريدون من غيرهم أن يقتربوا منهم فحسب. ولا يقابلون ذلك إلا بمظاهر جوفاء، وبيانات إعلامية، يتسللون من خلالها إلى أتباع الديانات الأخرى. قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾ [آل عمران: ١١٩]. ومن شواهد ذلك:

أ. إصرار النصارىٰ علىٰ الجهر بالسوء من القول في ملتقيات التقارب:

ومن أمثلة ذلك:

- كلمة البابا يوحنا بولس الثاني في الدار البيضاء بالمغرب، التي حشد له فيها عشرات الآلاف من الشبان والشابات المسلمين، الذين حملتهم الحافلات على حين غرة من مدارسهم وجامعاتهم، حتى غصت بهم مدرجات «الاستاد» الرياضي، في ١٩ أغسطس عام ١٩٨٥م. ومما جاء فيها قوله: (إن الصراحة تقتضي أيضًا أن نعترف بتبايناتنا، وأن نحترمها، ومن البديهي أن أهم هذه التباينات هي نظرتنا إلى شخص سيدنا يسوع الناصري وعمله. إنكم تعلمون أن سيدنا يسوع

---

(١) راجع الأصل الباب الأول في حقيقة التقريب لدى النصارى. وثيقة «حوار وبشارة».

في اعتقاد المسيحيين هو الذي يدخلهم في معرفة حميمة للذات الإلهية التي تفوق كل إدراك بشري، وفي نوعٍ من الاتحاد الابني بعطايا الله ومواهبه، ولذلك فهم يشهدون أنه هو الرب والمخلِّص)⁽¹⁾.

ب. إصرارهم علىٰ إنكار نبوة محمد ﷺ:

لقد أبى النصارى الزاعمون أنهم يسعون إلى التقارب مع المسلمين مجرد التسليم بنبوة محمد ﷺ، حتى ولو لم يتبعوه، كما يؤمنون بعامة أنبياء بني إسرائيل. وقد تعرضت الكنيسة الكاثوليكية لحملة قوية في أثناء انعقاد (ندوة الحوار الإسلامي المسيحي في طرابلس ليبيا عام (١٣٩٦هـ -١٩٧٦م)، من قبل رئيس الجماهيرية الذي قال: (نقول لأهل الكتاب: هل يستمر نكران نبوة محمد؟ وطبعًا هذا خطأ في حق الله سبحانه وتعالى، وجهل كبير من قبل الناكرين لنبوة محمد)⁽²⁾. وبعد الولادة المتعسرة للبيان المشترك، تمخض عن هذه الجملة: (يكرم الجانبان جميع الأنبياء والرسل في الديانات السماوية كلها)⁽³⁾. وغاية ما فيها: تكريم كل جانب لمن يعتقده الجانب الآخر نبيًّا، فقط. وذلك لا يرتقي إلى النص على محمد ﷺ كما أراد الجانب الإسلامي والإقرار بنبوته، وقد تركت هذه التجربة المريرة بالنسبة للكنيسة دروسًا للمستقبل في معرفة مواطئ أقدامها، والاشتراط المسبق على تحاشي موضوعاتٍ بعينها.

وحينما عُقد مؤتمر (التقدير الإيجابي لمحمد وعيسى في المسيحية والإسلام) في قرطبة عام (١٣٩٧هـ-١٩٧٧م)، كان المتوقع من جهة غير كنسية

---

(١) دراسات إسلامية مسيحية (٨). أو: وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين. (١٩٦).

(٢) بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي (٧٤).

(٣) المرجع السابق (١٤٦).

«جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية» أن تعلن اعترافها بنبوة محمد ﷺ، ولكن «التقدير الإيجابي» لم يبلغ هذ الحد، وأفصح الأب جاك جوينيه عن السر الأثيم في ذلك بقوله: (إن الاعتراف بمحمدٍ نبيًّا يعني الاعتراف بكل ما يتضمنه القرآن، ومن ثم بأن محمدًا خاتم المرسلين وخاتم الأديان. وهذا لا يعد سوى إلغاء لإنجيل المسيح)[1]. وبعد هاتين الواقعتين طوي بساط البحث في هذه المسألة، وتحاشى «دعاة التقريب» إثارتها.

ج. إصرار النصارىٰ علىٰ إضلال الناس بما يسمونه «التبشير»:

لعلَّ أهم قضية يثيرها المحاورون المسلمون في مؤتمرات التقارب، ويتمسكون بها، قضية المطالبة بوقف أعمال التنصير في المجتمعات الإسلامية الفقيرة، المضطرة إلى الطعام والكساء والدواء، مما تخلفه الحروب والفيضانات والمجاعات والأوبئة في دول العالم الثالث، ومعظمها «إسلامية». وربما أظهر النصارى الموافقة في حالاتٍ معينة، لكن دون أن يكون له أثر واقعي ملموس، وفي حالات أخرى يعلنون عن إصرارهم التام على ممارسة دورهم الإضلالي والابتزازي، دون مداراة. ومن شواهد ذلك:

- في مؤتمر ممثلي الأديان في إندونيسيا الذي عقدته الحكومة الإندونيسية عام ١٩٦٧م، لمواجهة بعض الاضطرابات الداخلية الناجمة عن النشاط التنصيري الذي كان ينخر في جسم البلاد، في تلك الحقبة، اقترح رئيس الجمهورية الامتناع عن ممارسة التبشير تجاه أتباع أحد الأديان المعترف بها في إندونيسيا، والتوجه إلى المناطق البدائية من البلاد، فأجاب زعماء النصارى بالقول: (إن المسيحيين رغم ارتباطهم بالدولة الإندونيسية، فإنهم مرتبطون أكثر بالأوامر الإلهية المذكورة في

---

(١) مجلة العربي عدد (٢٢٣) يونيو ١٩٧٧م (٤٤).

الإنجيل، التي تطالبهم أن يكرزوا بالإنجيل الخليقة كلها، ولذلك فهم مضطرون للقيام بهذا الواجب، ومستعدون للبذل والفداء من أجله)(١).

يقول الأستاذ أنور الجندي: (الغرب... غير مستعد لأنْ يتنازل عن قيد شبر واحد في هذا الحوار لحساب الالتقاء على قاعدةٍ أو أساس، وإنما هي في الحقيقة، محاولة تعرض الإسلام للذوبان، وتقديم التنازلات، عن طريق أسئلة ماكرة، ومحاورين غاية في الدهاء، وحسن الظن من الطرف الآخر)(٢).

فأي اقترابٍ أبداه النصارى إذًا من المسلمين في باب الاعتقاد والدعوة إليه؟ ليس ثمَّ إلا ما ذكر الله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨].

ثانيًا: مساواة كتاب الله بما كتبوه بأيديهم وقالوا: هو من عند الله:

وهذا أمرٌ مسلَّم في تراث دعاة التقريب، لا نزاع فيه ولا نقاش، فقد تواضع القوم من مختلف الأطراف على احترام الكتب الدينية لكلِّ ملَّة، أيًّا كان مضمونها، وعدُّوا ذلك من شروط التقارب، والنيل منه من نواقضه ومبطلاته. وطفقوا يطلقون على التوراة والإنجيل التي بأيدي اليهود والنصارى اليوم، مع القرآن العظيم اسم: «الكتب السماوية»، و«الأسفار المقدسة»، و«الوحي»، ونحوها من الألقاب والأوصاف التي لا تصدق ولا تنطبق إلا على القرآن. وسلَّم دعاة التقريب من المسلمين لأوليائهم من اليهود والنصارى بهذه القضية، في سابقة هي الأولى من نوعها في تاريخ المسلمين أن يساووا ما كتبه أهل الكتاب بأيديهم، وقالوا هو من عند الله وما هو من عند الله، بالقرآن العظيم الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولم يقتصر الأمر على الكتب

---

(١) غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا (٢٨). وانظر العقيدة للأمام (١١٧).

(٢) تأصيل اليقظة، وترشيد الصحوة (١٧٢).

المحرفة، ذات الأصل السماوي؛ التوراة والإنجيل، فإن دعاة التقريب والوحدة من زنادقة أهل الكتاب لا يقنعون بذلك، بل جروا غيرهم إلى تعظيم كتب الوثنيين، ووحي الشياطين، ومن شواهد هذا الاستدراج:

- نقل أ. تورنس. كوبيلُّو عن أحد رجال الدين الكاثوليك الصينيين قوله: (سيأتي اليوم الذي تكون فيه كتابات «كونفوشيوس»... معترفًا بها مثل «العهد القديم»)(١).

هذا ما رضيه النصارى لأنفسهم، ويريدون أن يستدرجوا إليه نظراءهم من دعاة التقريب من المسلمين.

ومن صور مساواة القرآن العظيم بقراطيس أهل الكتاب:

١. الدعوة الظالمة إلىٰ طباعة المصحف الشريف، والعهد القديم، والعهد الجديد في كتابٍ واحد بين دفتين:

قال فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد(٢): (كيف لا يستحي من المنتسبين إلىٰ الإسلام من يدعو إلىٰ طبع هذه الأسفار، والإصحاحات المحرفة المفترىٰ فيها، مع كتاب الله المعصوم «القرآن الكريم». إن هذا من أعظم المحرمات، وأنكىٰ الجنايات، ومن اعتقده صحيحًا فهو مرتد عن الإسلام)(٣).

٢. عقد المؤتمرات باسم الكتب الدينية، حيث يحشر «القرآن» مع غيره، مما يشعر بالاعتراف بها، وأنها والقرآن علىٰ حدٍّ سواء. ومن تلك المؤتمرات المعقودة:

---

(١) إلى الجذر (١٣).

(٢) عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية.

(٣) الإبطال (٧٧).

مؤتمر «التوراة والإنجيل والقرآن»: في «تولوز» فرنسا ربيع الآخر عام ١٤٠٤هـ، يناير عام ١٩٨٤م، برعاية جمعية الكتبة المؤمنين الناطقين بالفرنسية⁽¹⁾.

وفي لقاء هونغ كونغ الشهير «المسلمون والمسيحيون في المجتمع»، المنعقد في ذي الحجة ١٣٩٤هـ، يناير ١٩٧٥م⁽²⁾، جاء في الفقرة الثامنة من البيان الختامي: (لا شك أن المسلمين والمسيحيين لديهم عناصر مميزة في إيمانهم، ينظرون إليها ككنوز ثمينة. المسلمون لديهم القرآن، يؤمنون أنه وحي من الله، من خلال رسوله... والمسيحيون لديهم «الأخبار السارة» «الإنجيل»، لأعمال الله القديرة في المسيح يسوع، ومن خلاله، لأجل فداء البشرية، فعلاقة المحبة مع كائنات بشرية تقود المسلمين والمسيحيين إلى تقدير هذه الكنوز واحترامها)⁽³⁾.

٣. من أبشع صور التسوية بين كلام الله، وما زعموا أنه من عند الله، ما يوجد في بعض محافل التقريب من استهلال الحفل بالقرآن الكريم، ثم بالإنجيل، كما جرىٰ في مؤتمر الحوار بين الأديان «سلام للجميع»، المنعقد في الخرطوم في أكتوبر عام ١٩٩٤م. بل قد اتخذت هذه الفعلة الشنيعة صفة الديمومة لدىٰ دعاة التقريب في ذلك البلد المسلم العريق، فصاروا يستهلون جلسات المجلس الوطني بآياتٍ من القرآن الكريم، وترتيل من الإنجيل⁽٤⁾.

---

(١) راجع التعريف بالجمعية في الباب الثاني (١٢٥٧).

(٢) راجع التعريف بالمؤتمر في الباب الثاني (١١٥٤).

(٣) البيانات الميسحية الإسلامية المشتركة (٧٧).

(٤) انظر: مناقشة هادئة لبعض أفكار الترابي (١٤٨).

ثالثًا: مساواة بيوت الله بمعابد الكفار:

لقد كان من الآثار لدعوة التقريب التسوية بين بيوت الله، المساجد التي ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]، بكنائس النصارى التي تغص بالتصاوير العارية، والصلبان الضخمة، ويجهر فيها بالتثليث، وتأليه عيسى ابن مريم، وبيع اليهود التي تتلى فيها أسفارهم الموضوعة، المتضمنة أذى الله سبحانه وتعالى وأنبيائه، ومعابد الكفار، من عبدة النار والأبقار والأصنام، بناءً على الأصل الفاسد لدعوة التقريب، التي ترى أن الكل أماكن عبادة.

ومن شواهد التسوية في العصر الحديث:

١. البدعة الفاجرة ببناء مجمعٍ لأماكن العبادة يضم مسجدًا وكنيسةً وكنيسًا، وقد أريد تعميم هذه البدعة الخطيرة في جميع المرافق، في «رحاب الجامعات»، و«المطارات»، و«الساحات العامة»⁽¹⁾، ليقر في قلوب الناس أن الأديان كلها سواء، وأنها توصل إلىٰ الله، وأن أماكن عباداتها علىٰ حدٍّ سواء، وتستحق جميعًا الإكرام والإجلال.

ولم يقتصر الأمر على إقامة المساجد والكنائس والبيع تحت سقفٍ واحد، أو ضمن سور محيط فقط، بل ضُم إلى هذه الثلاث معابد الوثنيين. وقد أنكر علماء الإسلام هذه البدعة ذات اللوازم الكفرية، وحذروا منها، فمن ذلك ما جاء في فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية: (لا يجوز لمسلمٍ الاستجابة لدعوة: «بناء مسجد وكنيسة ومعبد» في مجمعٍ واحد،

---

(١) انظر: الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام، وغيره من الأديان (١٣).

لما في ذلك من الاعتراف بدينٍ يعبد الله به غير دين الإسلام، وإنكار ظهوره على الدين كله، ودعوة مادية إلى أن الأديان ثلاثة، لأهل الأرض التدين بأي منها، وأنها على قدم التساوي، وأن الإسلام غير ناسخٍ لما قبله من الأديان، ولا شك أن إقرار ذلك أو اعتقاده أو الرضا به كفر وضلال، لأنه مخالفة صريحة للقرآن الكريم، والسنة المطهرة وإجماع المسلمين...)(١).

وجميع هذه اللوازم الكفرية المذكورة في الفتوى السابقة حاصلةٌ بدعوى التقريب بين الأديان، وحينئذٍ يصبح «المسجد» الذي أسس ليكون أحد أركان الثالوث (مسجد، وكنيسة، ومعبد) مسجد ضرار، لا يحل القيام فيه أبدًا. يقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: (... «المسجد» والحال هذه، مسجد مضارَّة للإسلام، لا يجوز إقراره ولا الصلاة فيه، ويجب على من بسط الله يده من ولاة المسلمين هدم هذا المجمع، فضلًا عن السكوت عنه، أو المشاركة فيه، أو السماح به، وإن كان والحال ما ذكر في بلاد كفرٍ، وجب إعلان عدم الرضا به، والمطالبة بهدمه، والدعوة إلى هجره...)(٢).

٢. ويلتحق بباب التسوية بين بيوت الله ومعابد الكفار، ما شاع بين دعاة التقريب من تبادل الزيارات بين عمَّار المساجد، ومرتادي المعابد، وتنظيم زياراتٍ لدور العبادة، مما يزيل الجفوة الإيمانية بين المسلم والكافر، ويجلب المودة بين المسلمين، والمحادين لله ورسوله، ومن الوقائع العملية لهذا اللون من التسوية:

---

(١) فتوى صادرة عن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية برقم (١٩٤٠٢) وتاريخ ٢٥/ ١/ ١٤١٨هـ، برئاسة سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله.

(٢) الإبطال (٩٨ - ٩٩).

- جاء في أهداف «برنامج وستمنستر للتلاقي الديني» المنبثق عن الكنيسة الكاثوليكية في لندن، الذي يشمل جميع الأديان، والتقاليد الوثنية، والحركات الدينية الحديثة: (تنظيم زيارات متحضرة لبيوت العبادة، لتشجيع الفهم من خلال التجربة)(١).

- تخلل مؤتمر «الأديان في السودان»: المنعقد في «الخرطوم» في ذي القعدة عام ١٤١٣هـ، إبريل عام ١٩٩٣م، الذي ضم ممثلين لمختلف الأديان في العالم، زيارات لعددٍ من الكنائس والمساجد في الخرطوم، وملكال، وجوبا.

رابعًا: مشاركة أهل الكتاب والمشركين في الصلوات والابتهالات والمناسبات الدينية:

هذا باب خزي وعار في الدنيا، وحسرةٍ وندامة في الآخرة، ولجه دعاة التقريب بين الأديان، وسيقوا إليه رغبًا أو رهبًا، بخطام قبولهم بمبدأ المداهنة والتقريب الذي تقلدوه، وطوقوا به أعناقهم، فلم يملكوا دفعه أو منعه، وإلا وصموا بالتعصب ونبذ الآخرين، وعدم القبول بالتعددية الدينية، ونحوها من شروط التقريب وأركانه.

وقد جرى في غضون العقود الثلاثة الأخيرة ما يندى له الجبين من ممارساتٍ ومواقف ليس لها سابقة في تاريخ المسلمين، ولا تستقيم إلا على قانون الزنادقة والملحدين. وهذا مسردٌ ببعض سِجِلِّ العار، الموجب لسخط الجبار:

١. في مؤتمر «الإيمان بالله الواحد والجماعة الإنسانية. من أجل التعاون بين المسلمين والمسيحيين في إفريقيا علىٰ صعيد العمل والشهادة» المنعقد في «لاغون» غانا في رجب عام ١٣٩٤هـ، يوليو عام ١٩٧٤م، جاء في

---

(1) Recognize The Spiritual Bonds. P.91-92.

توصيات المؤتمر القيام بخطواتٍ عملية للالتقاء بروحية المشاركة والتعاون، ما يأتي: (الخطوة الأولىٰ: يمكن إقامة صلوات مشتركة، من أجل تطور المجتمع ككل).

٢. ضمن فعاليات المؤتمر «الإسلامي المسيحي الدولي الأول» المنعقد في «قرطبة» في شعبان عام ١٣٩٤هـ، سبتمبر عام [١]١٩٧٤. (أقيم في المؤتمر حفل رمزي، ألا وهو إعادة فتح الجامع الكاتدرائية في قرطبة، حيث أقيمت صلاة الجمعة، وفي اليوم التالي القداس الإلهي). ولم تكن تلك «الجمعة» استهلالًا لاستئناف الصلاة الشرعية في رحاب المسجد المغتصب، بل كانت جمعة «يتيمة»، جمعة «رمزية» لمشروع التقريب بين الإسلام والنصرانية[٢].

٣. «يوم الصلاة من أجل السلام» في أسيزي:

لعلَّ هذا الحدث المشين (في يناير، ١٩٨٦م، أعلن البابا يوحنا بولس الثاني مبادرة، أخذت أناسًا كثيرين بما فيهم الكاثوليك، بالدهشة. فقد صرح أنه سوف يدعو قياداتٍ من جميع أديان العالم إلى «أسيزي» في أكتوبر القادم، للمشاركة في يوم صلاةٍ وصيامٍ من أجل سلام العالم، وقد اختار بلدة أسيزي في وسط إيطاليا، لأنها مسقط رأس، ومقر القديس المسيحي «فرانسيس»، الذي ترمز حياته للعديدين كنوعٍ من القداسة المتواضعة، اللطيفة، المنفتحة على الآخرين، المتقبلة لكلِّ الإنسانيّة، إن المسيحيين والمسلمين سيتذكرون أنه في ذروة الحروب الصليبية، رفض فرانسيس النزعة المولعة بالقتال لكثيرٍ من معاصريه من

---

(١) راجع التعريف بهذا المؤتمر في محاولات التقريب في أروبا الغربية (أسبانيا والبرتغال) من الباب الثاني (١١٨١).

(٢) ينظر: العقيدة للأمام (٧).

المسيحيين، وبدلًا من ذلك رحل للقاء السلطان الملك الكامل بسلام وصداقة، في مصر. وفي سبيل تجنب أي شكلٍ من «التلفيقية»، عرض البابا، أنه في يوم الصلاة من أجل السلام في أسيزي سوف تأخذ كل مجموعة دينية مكانها الخاص للصلاة، وبهذه الطريقة ستتمكن كل مجموعة من الشعور بالحرية للتعبد بدقة، وفق تقاليدها الخاصة. بعد الترحيب الأولي من البابا، أوصل مؤمنو كل مجموعة دينية إلى مكان صلاتها. فالمسيحيون، على اختلاف كنائسهم جعلوا في خدمة مسكونية في كاتدرائية القديس «روفينو» حيث يديرها البابا، أما الوفد الإسلامي، بمشاركين من اثني عشر بلدًا، فقد أدوا صلاتهم الإسلامية (الصلاة الطقسية التي يفعلها المسلمون خمس مرات يوميًّا)، في دير القديس «أنطونيو»، مقر الطبقة الكهنوتية الاعتيادية الثالثة للفرنسيسكان. أما المجموعات الدينية الأخرى: اليهود، والبوذيون، والهندوس، والدينيون التقليديون، والسيخ، والجينيون، والبهائيون، والشنتويون، والزرادشتيون، فقد أدوا صلواتهم في مواقع مخصصة حول أسيزي، وخلال اليوم لوحظ الصوم. وفي الطقس الأخير، التأم جميع المشاركين في ميدانٍ قبالة باسيليكا(١) القديس فرانسيس، حيث رتل ممثلو كل مجموعة دينية صلاتهم بصوتٍ عالٍ، في حين أن الآخرين ينصتون بصمت بالغ الاحترام. وقد شكر البابا القادة الدينيين على حضورهم، وألقى الضوء على معنى ما أنجزوه معًا ذلك اليوم في أسيزي، وقد ختم الطقس بإيماءات وإشارات السلام بين القادة الدينيين، وتهادي شتلات الزيتون، ليعاد غرسها في بيوت أوطانهم، ثم اشتركوا بأخوية، في وجبة طعام)(٢).

---

(١) الباسِيليكا: Basilica مصطلح يطلق على كاتدرائية كاثوليكية ذات امتيازات خصها البابا. انظر: المورد (٩٠).

(2) Recognize The Spiritual Bonds.P. 93-94.

هذا وقد ظهر البابا يوحنا بولس الثاني في ذلك اليوم، كما تدل الصور الملتقطة لوقائع الاجتماع، واسطة العقد، وقطب الرحى، لجميع القادة الدينيين، لا بوصفه مضيفًا بل (قدَّم نفسه للعالم بأنه القائد الروحي للأديان جميعًا، وأنه حامل رسالة السلام للبشرية جمعاء)(١). إن تجنب التلفيقية، كما جاء في النص السابق، بأداء كل مجموعةٍ دينية صلاتها الخاصة على حدة، لا يخرج دعاة التقريب من المسلمين من الحرج العظيم الذي أوقعوا أنفسهم فيه، وأهانوا دينهم الذي ينتسبون إليه بسببه، من عدة أوجه:

أ - المشاركة في مناسبة كفرية بدعية، تولىٰ كبرها رأس النصرانية في العالم.

ب - وسم تلك المناسبة بسمة واحدٍ من أعمدة الدين النصراني المحرف، وهو القديس عندهم فرانسيس الأسيزي، الذي بلغ به الحماس لدينه، والتفاني في التنصير أن يقصد أحد ملوك المسلمين، الملك الكامل الأيوبي، بغية تنصيره.

ج- إنزال المشاركين المسلمين في دير شركٍ وتثليث، يحمل اسم كبير من كبار النصارىٰ، القديس أنطونيو، ليؤدوا صلاة التوحيد، وفي مقر طائفةٍ كانت ولا تزال، تجوب بلاد المسلمين حاملةً صليب الشرك لتنصير أبناء المسلمين، هي طائفة الفرنسيسكان، تسير علىٰ خطىٰ مؤسسها فرانسيس الأسيزي.

د - الانخراط، ويا للخزي والعار، مع أمم الشرك والوثنية، في طقوسٍ كفرية، وتراتيل شيطانية، قبالة بيت عذاب تجلله الصلبان الضخمة، والتصاوير المنحوتة، ويؤمها إمام ضلالة! فوا حسرتاه! هل تلي القرآن العظيم، والذكر الحكيم، مع شنشنات الكهان، وما تنزلت به الشياطين علىٰ كل أفاكٍ أثيم؟ يستمعها دعاة

---

(١) سلسلة تقارير. وزادة الشؤون، الإسلامية والأوقاف بالكويت الرقم المسلسل (١٥/ ٨٧) في ٥/ ٨/ ١٩٨٧م.

التقريب ببالغ الاحترام، كما يصف التقرير. فلم يبقَ ما يتجنبه البابا من التلفيقية، إلا أن يتقلد المشاركون الصلبان، ويتناولوا العشاء الرباني «الأفخارسيتيا»، ضمن طقوس القداس الكنسي.

وقد أخذت جمعية سانت إيجيديو(١) على عاتقها تكرار هذه السنة السيئة، فصارت تدعو إلى إقامة الصلاة المشتركة بين الأديان من أجل السلام كل عام، على غرار يوم الصلاة في أسيزي، مضيفةً إلى ذلك ملتقياتٍ فكرية ذات موضوعات متنوعة، تعقد تلك الصلوات والملتقيات في مواقع متنوعة في أوروبا(٢).

خامسًا: إجراء الدراسات الدينية المشتركة، ومقارنة الأديان:

إن من آثار دعوة التقريب بين الأديان العملية، النزوع نحو تأسيس دراسات دينية، ومبادلات ثقافية، ومقارنة بين مختلف الأديان، لا بنية إظهار تفوق دين الإسلام وعلوه على الدين كله، بل بهاجس إبراز أوجه التوافق والتشابه، ومحاولة طمس وإقصاء أوجه الاختلاف. ولعل هذه النزعة بدأت أول الأمر تحت غطاء «علم مقارنة الأديان»، وهو ليس من العلوم الإسلامية أو الفنون الشرعية(٣). ثم نما وتطور حتى صار يصب في قناة تقريب الأديان. ولعل أول من تنبه إلى هذه العلاقة

---

(١) راجع التعريف بجمعية سانت إيجيديو، ومؤتمرات الصلاة من أجل السلام في محاولات التقريب في أوروبا الغربية (إيطاليا) الباب الثاني من الأصل.

(٢) راجع الأصل للمزيد من النماذج.

(٣) يقول الأستاذ محمد خليفة التونسي في مقدمته الحافلة لترجمته لبروتوكولات حكماء صهيون: (وقل مثل ذلك في علم مقارنة الأديان، التي يحاول اليهود بدراسة تطورها، ومقارنة بعض أطوارها ببعض، ومقارنتها بمثلها في غيرها، أن يمحوا قداستها، ويظهروا الأنبياء مظهر الدجالين) الخطر اليهودي (٧٨). وبذلك يتبين الفرق بين هذا المنحى اليهودي، والتراث الإسلامي المتمثل في دراسة «الملل والنحل» و«الفرق» و«المقالات» الذي يهدف إلى إبطالها وكشف عوارها.

بين «مقارنة الأديان» و«تقريب الأديان»، الكاتب الإسلامي الفاضل الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله، حيث كشف في محاضرة ألقاها عام (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م) في جامعة طرابلس ليبيا بعنوان «الإسلام والعالمية»، عن اندراج اتجاهات المقارنة في منظومة العالمية، أو ما يسمى حاليًا بـ«العولمة» بمعنى جعل العالم واحدًا⁽¹⁾. فقال: (وليست الدراسات الحديثة في الدين المقارَن، والأدب المقارن، والقانون المقارن، وعلم اللغة المقارن... وأشباهها، إلا فروعًا من هذا التصور)⁽²⁾.

ودعاة التقريب بين الأديان يحذرون من أن تتجه مقارنة الأديان إلى نوعٍ من البحث والتمحيص في ذات المعتقدات لتمييز الخبيث من الطيب، بل يهدفون إلى تلمس وجوه الشبه فقط، ففي البيان الختامي لأحد مؤتمرات التقريب بين الإسلام والنصرانية المبكرة، عقد في «لاغون» غانا رجب ١٣٩٤هـ، يوليو ١٩٧٤م، جاء بعد تعريف «الحوار» ووسائله وأهدافه، هذا الاحتراز: (خوفًا من أن يعد الحوار، خطأً، نوعًا من المقارنة بين الديانات، للتعرف إلى معتقداتها بطريقة أكاديمية، تصبح هدفًا لذاتها)⁽³⁾. فهو من ثَم اتجاه يستبعد أي صورةٍ من صور «الدعوة» و«المجاملة» و«المناظرة» و«المحاججة» التي جاء بها الإسلام، ونطق بها القرآن.

أما المطلوب حقًّا، والمنفَّذ فعلًا، من قبل دعاة التقريب، فله شواهد ماثلة، ومؤسسات قائمة، ترفع لواء البحث المشترك بين الأديان، ومن ذلك: في ختام سلسلة محاضرات «المسيحية والإسلام في لبنان»، التي عقدتها الندوة اللبنانية⁽⁴⁾ في موسم عام (١٣٨٥هـ-١٩٦٥م)، جاء في البيان الذي وقعه المشاركون من

---

(١) راجع الأصل حقيقة التقريب. الباب الأول.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية (١٨٠).

(٣) ينظر: البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (٦١).

(٤) راجع التعريف بالندوة ومناشطها في الأصل محاولات التقريب في العالم العربي (لبنان) من الباب الثاني (١٣٥٠).

المسلمين والنصارى التوصية الآتية: (يرى الجميع لزامًا عليهم أن يسعوا لإنشاء معهد جامعي عالٍ للدراسات الدينية المقارنة، تشرق فيه المعرفة بحقائق المسيحية والإسلام، ويصبح قبلةً لجميع الباحثين عن هذه الحقائق بحثًا علميًّا)(١).

وقد ترجمت هذه الدعوات والمساعي إلى واقع قائم في لبنان، ترعاه مؤسسات أُنشِئت لهذا الغرض، وعامتها بمبادراتٍ نصرانية، ومنها(٢) مركز الأبحاث في الحوار المسيحي الإسلامي، التابع لمعهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت في حريصا. وهو (يعنى بتعزيز الحوار الفكري الأكاديمي البحت، الرامي إلى إظهار مواضع التعاون والتكاتف بين المسيحية والإسلام)(٣).

ومن أخطر هذه المشاريع البحثية المشتركة ما دعا إليه بيان قرطبة، الصادر عن المؤتمر الإسلامي المسيحي الأول، في شعبان عام ١٣٩٤هـ، سبتمبر عام ١٩٧٤م، وفيه: (الدعوة إلى التأليف في حقل العقيدة، يتعاون فيه متخصصون من المسلمين والمسيحيين لنشر الحقائق الداعية إلى الإيمان... تنقية المناهج والكتب الدراسية في العالمين المسيحي والإسلامي من الأخطاء التي تسيء إلى أي من الدينين)(٤).

سادسًا: عرض الإسلام بصورة مشوهة:

لقد بخس دعاة التقريب من الإسلاميين الدين حقه، حين نظموه في سلك سائر الأديان المحرفة، بله النحل الوثنية، أولًا، وانتقصوه ثانيًا، حين حجبوا دعوة التوحيد المشرقة التي بادأ بها رسول الله ﷺ أمم الأرض كلها: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ

---

(١) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (٣٤).

(٢) ينظر الأصل للمزيد.

(٣) من مقدمة مدير المركز مشير باسيل عون لكتاب (العدل في المسيحية والإسلام) (٥).

(٤) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (٧٠).

تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وأساؤوا إليه وظلموا، حين ألبسوه ملابس طرائق دخيلةٍ عليه، ثالثًا، ليتواءم مع قانون التقريب.

ولعل أبشع ممارسة في هذا السبيل، تقديم الإسلام بثوب الصوفية التي يهيم بها النصارى، لما فيها من مذاهب الحلول والاتحاد، وتمجيد رموز المتصوفة الملحدين، بوصفهم أئمة الإسلام⁽¹⁾، ورواد الفكر والتوحيد، وذم أهل السنة والحديث والفقه، ونبزهم بالجمود والتعصب والانغلاق، فنشأ عن هذه العملية المضلة أثران سيئان:

أحدهما: انصراف الباحثين عن اعتناق الإسلام حيث لم يروا فيه سوى فلسفةً صوفية منحازةً عن الحياة والنشاط الإنساني الطبيعي.

الثاني: انخراط بعض المخدوعين، في هذا اللون من البدع الكفرية، بحسبان أنها الإسلام. ونجد هذا الاتجاه، محبذًا عند كثيرٍ من دعاة التقريب في هذا العصر، ومن أمثلة ذلك:

- يقول جارودي: (إن تجريم الصوفية هو جريمة ضد الإسلام... الصوفية هي باطنية الإسلام، فلعل إسلامًا بلا باطنية، إسلامًا مقتصرًا على طقوسه... هو إسلامٌ ميت. وكل إحياءٍ للفكر الديني للإسلام يمر عبر إعادة الاعتبار للتصوف)⁽²⁾. فمن ثم قدَّم روجيه جارودي صورة مضلِّلة لرواد متحفه في «القلعة الحرة» في قرطبة، البالغ عددهم مئة ألف زائر سنويًّا، حين عرَّف لهم الإسلام من خلال ابن عربي الصوفي الوجودي، وابن رشد الفيلسوف.

---

(١) وقد عقدت مؤتمرات عديدة لإبراز دور المتصوفة، وتمجيد ذكرهم، في سياق مؤتمرات التقريب بين الأديان. انظر سرد تلك المؤتمرات في الأصل.

(٢) الإسلام في الغرب (١٦).

إنها لجريمة عظيمة، وصدٌّ عن سبيل الله، وإضلالٌ للخلق، أن يعرض الإسلام من قبل بعض دعاة التقريب بثوبٍ صوفي، مضاهاةً للنصرانية، وتقربًا إلى زعاماتها، ومداهنةً لهم. وهم بذلك لا يقلون خطرًا عمن يشوهون صورة الإسلام بطرقٍ أخرى، كالعنف والعدوان، إن لم يزيدوا عليهم.

لقد تولد من هذا التضليل مواليد خداج، تمثلت في جماعات اعتنقت الإسلام بعقد الصوفية، وبدعها العقدية والعملية. ومن أمثلة هذه المجموعات المضللة:

- جمعية قريش: (الجماعة الدينية الإسلامية في إيطاليا) ومقرها ميلانو(١).
- الجماعة الإسلامية في إسبانيا(٢).
- جماعة أصدقاء الإسلام في ألمانيا، في برلين(٣).

وقد أشار الأستاذ أنور الجندي إلى وجود (جماعة من الراغبين في الدخول في الإسلام، ترى أن التصوف بالمفهوم الباطني القائم على الرقص والموسيقى والتراتيل، هو مدخلٌ إلى الإسلام في الغرب)(٤). وهذا عين التشويه للإسلام، وإضلال الخلق.

سابعًا: استغلال النصارى شعار التقريب لنشر دينهم.

لقد استغل النصارى شعارات التقريب والحوار بين الأديان لتحقيق مكاسب جديدة، والوصول إلى مواقع متقدمة في مخاطبة مختلف شعوب الأرض، ودعوتهم بطريقةٍ مباشرة أو غير مباشرة إلى «النصرانية». فالتنصير بالمعنى

---

(١) راجع الأصل محاولات التقريب في إيطاليا، في الفصل الثاني من الباب الثاني.

(٢) راجع الأصل محاولات التقريب في أسبانيا في الباب الثاني.

(٣) راجع الأصل محاولات التقريب في ألمانيا في الباب الثاني.

(٤) تأصيل اليقظة، وترشيد الصحوة (٢٠١)، وانظر ص (١٧٧ - ١٧٨).

التقليدي المعهود بات منبوذًا، وإن كان لا يزال قائمًا، وعُدَّ في مناسبات عديدة نوعًا من قهر الضمير، لا سيما إذا كان مصحوبًا بالابتزاز الخدمي، من طعام وكساءٍ ودواء وتعليم وتوظيف، وصار محل إدانة من قبل الجميع، حتى من بعض النصارى أنفسهم(١). وبرزت فكرة «الحوار» و«التقارب» بديلًا عصريًّا مناسبًا للوصول إلى ذات الأهداف، لقد كان البابا يوحنا بولس الثاني واضحًا في الإفصاح عن دور التقريب والحوار، حول قضية «الحوار والبشارة» والعلاقة بينهما، الذي شغل بالهم عقب المجمع الفاتيكاني الثاني(٢). يقول البابا: (بسبب متغيرات الزمن الحديث، وانتشار عددٍ من المفاهيم اللاهوتية الجديدة، يتساءل البعض: هل أن الرسالة إلى غير المسيحيين لا تزال قائمة؟ ألم تستبدل بالحوار بين الديانات؟...

- وفي صدد الإجابة عن هذه التساؤلات... يخلص إلى القول: إن الحوار بين الديانات يشكل جزءًا من رسالة الكنيسة التبشيرية... إنه مرتبط بها، بنوعٍ خاص، وهو تعبير عنها... تريد الكنيسة من خلال «الحوار» أن تكتشف «بذورَ الكلمة»، وأشعة الحقيقة، التي تنير الناس أجمعين... إن الحوار هو الطريق إلى الملكوت)(٣).

ومن أقدم الكتاب المسلمين الذين نبهوا على استغلال النصارى لأسلوب التقارب عن طريق الحوار، الكاتبان: مصطفى الخالدي، وعمر فروخ، في كتابهما الرائد الشهير: (التبشير والاستعمار في البلاد العربية)، الصادر عام ١٣٧٢هـ، ١٩٥٣م، حيث قالا: (يصعب على المبشرين أن يتصلوا بالناس، وخصوصًا بالمثقفين، وذوي المكانة الاجتماعية، فلجؤوا إلى وسيلةٍ جديدة سموها «الحوار»،

---

(١) وهو ما يسمى ب(الدياكونيا) أي: تنظيم الخدمة بمعنى استغلالها لأغراضٍ أخرى. انظر: البيانات الصادرة عن مؤتمر لاغون عام ١٣٩٤هـ، وهونغ كونغ ١٣٩٤هـ، وشامبزي ١٣٩٦هـ.

(٢) راجع حقيقة التقريب عند الكنيسة الكاثوليكية في الباب الأول. (٣٤٣).

(٣) مقتطفات من رسالة الفادي (١١، ٥٥، ٨٨، ٩٠).

تقوم على جمع نفرٍ من المثقفين، ذوي الكلمة المسموعة في قومهم على مناقشات علنية، لا تمت بظاهرها إلى التبشير، وإن كانت غايتها الحقيقية زعزعة العقائد... على ألسنة أشخاصٍ معروفين في قومهم، والحوار كالمعاهدات يظفر بالغنائم فيها من كان أقوى يدًا، وأرفع صوتًا. ومما يؤسف له أن نفرًا قد حملهم تيار هذا الحوار إلى حيث لا يريدون)⁽¹⁾.

ومن جملة «الغنائم الباردة» التي كسبها النصارى من التقريب:

١. استلال اعترافات صريحة وضمنية من محاوريهم المسلمين، من دعاة التقريب، بصحة دينهم، وسلامة كتبهم، وصواب معتقدهم، نضحت بها البيانات الختامية لمؤتمرات التقريب، ولم يجد دعاة التقريب من المسلمين بدًّا، عن وعي أو غير وعي، من إقرارها، والتسليم لهم بها، وهو أمرٌ لم يكن يحلم به النصارى طوال القرون الخالية، من المسلمين، ومن شواهد ذلك:

- في مؤتمر «بحمدون» عام ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م: (نعتقد نحن المؤمنين بالله تعالى وبوصاياه...)⁽²⁾.

- وفي لقاء الفاتيكان عام ١٣٩٠هـ، بين وفدٍ من المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وأمانة السر الفاتيكانية، دعا البلاغ المشترك إلى تعزيز العلاقات الجيدة (فتقوى هذه الأخوة بين مؤمنين يشتركون في احترام كل القيم الدينية، والإيمان بالله)⁽³⁾.

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية. مصطفى الخالدي، عمر فروخ، المكتبة العصرية بيروت. الطبعة الرابعة (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م) (٢٥٧ - ٢٥٨). نظرة على ظاهرة الحوار المسيحي الإسلامي مجلة البعث الإسلامي. جمادى الثانية ١٤١٠هـ (٦٩).

(٢) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (١٥).

(٣) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (٤٣).

- في مؤتمر هونغ كونغ عام ١٣٩٤هـ، ١٩٧٥م: (إن كلتا الديانتين الإسلامية والمسيحية تجدان رسالتهما نابعة من الله الرحيم... إننا ننتمي جميعنا إلى أسرة إبراهيم الروحية)(١).

- في مؤتمر طرابلس ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م: (يؤكد الجانبان إيمانهما بالله الواحد الأحد... إن كلا الجانبين يشجع على ترجمة الكتب السماوية إلى جميع اللغات)(٢).

- وفي البيان الختامي المنعقد في مدينة «إبادان» النيجيرية، برعاية الكنيسة الكاثوليكية عام ١٤١٢هـ، ١٩٩١م توصية بـ(توعية المسيحيين والمسلمين كي لا يعدوا مؤمني الديانة الأخرى كأنهم كفار، بل يعاملونهم بكل احترام)(٣). وهذا قليلٌ من كثير مما تزخر به البيانات الختامية المشتركة لدعاة التقريب، وما يلفظونه من قول في كتبهم ومقالاتهم، لا يحيط به جمع.

٢. بناء الكنائس، ونشر الكتب التنصيرية، ومن شواهد ذلك:

- بعد ندوة الحوار الإسلامي المسيحي في طرابلس عام ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م، قطف الجانب النصراني أولى الثمار بافتتاح كنيسة كاثوليكية في مدينة بنغازي الليبية عام ١٩٧٧م، في حين جنى المسلمون خيبة الأمل في إعادة افتتاح جامع قرطبة العريق للمسلمين، كما تمنوا في البيان الختامي للمؤتمر السالف الذكر، الذي أدان أيضًا كل محاولةٍ ترمي إلى مصادرة الكتب الدينية، أو منع تداولها في أي جزءٍ من أجزاء العالم(٤).

---

(١) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (٧٦، ٧٧).

(٢) بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي (١٤٦).

(٣) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (١٧٧).

(٤) انظر بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي (١٤٦). ينظر الأصل للمزيد من الشواهد.

٣. ظهور النصرانية بصورة «الدين الأفضل»، وزعيمها «البابا» بصفة «القائد الروحي للأديان».

٤. إحياء مطامعهم التاريخية في القدس:

لقد أتاحت روح التقريب بين الأديان للنصارى أن يجددوا أحلامهم الصليبية القديمة في بيت المقدس، وأن يجاهروا علنًا بأن أولى القبلتين، ومسرى رسول الله ﷺ، ومحل ثالث المساجد التي يشد إليها الرحال، ليست ملكًا لأحد، ولا تختص بدينٍ معين، بل انتزعوا من نظرائهم من دعاة التقريب الإسلاميين تصريحات لم يكونوا يحلمون بها، منذ أن استعاد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله القدس منهم.

وقد جاءت هذه الدعاوى على ألسنة أدعياء التقارب منهم، منذ المجمع الفاتيكاني الثاني، في عهد البابا بولس السادس، وحتى الآن، وقد تهيؤوا للألفية الثالثة، وشدوا الرحال من كل مكان في العالم، للاحتفال بالميلاد في القدس والناصرة وبيت لحم:

- قال البابا بولس السادس في رسالته الموجهة إلى المؤتمر الإسلامي لزعماء الدول الإسلامية المنعقد في الرباط عام ١٩٦٩م: (إن تمثيل الأديان التوحيدية الثلاثة في الأراضي المقدسة، وخصوصًا القدس، يمكن أن يكون بداية التوحيد والانسجام والسلام)⁽¹⁾.

- وقال الدكتور يوسف القرضاوي: (هي ليست ملك الفلسطينيين وحدهم، بل هي ملك المسيحيين والمسلمين).

---

(1) Inter - religoue Dialogue. The officia Teaching. P.169.

- وقال البطريرك الكاثوليكي، مكسيموس الخامس حكيم: (النتيجة الحتمية الواضحة هي أن القدس لا يمكن أن تكون لدولةٍ واحدة، أو دين واحد من الأديان الثلاثة، بل يجب أن تكون مدينة السلام، وللأديان الثلاثة).

ثامنًا: موالاة اليهود والنصارى بعضهم بعضًا من دون المسلمين:

حمل دعاة التقريب من المسلمين قوله تعالى: ﴿۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: ٨٢]، على كفر النصارى الذين أصروا على شركهم، وقولهم إن الله ثالث ثلاثة، وليس على من آمن منهم بنبوة محمد ﷺ وما أنزل إليه، واتبعه، كما دلت الآية نفسها، وما بعدها: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤]، وظلوا يستشهدون بها في كلِّ مناسبة من مناسبات التقريب، ليثبتوا رحمًا وولاءً خاصًّا مع عبدة الصلبان وأهل التثليث، يدلون به ويلمزون به اليهود، وما علم هؤلاء أن الفريقين في جبهة مشتركة ضد أهل الإسلام، كما شهد الله بذلك، وحذر عباده من موالاتهما، على حدٍّ سواء فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ يتناصرون فيما بينهم، ويكونون يدًا على من سواهم)(١). وهذا هو الواقع قديمًا وحديثًا، فمن ذلك:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٠٤).

أ - موالاة النصارىٰ لليهود في اغتصابهم أرض فلسطين، واضطهاد أهلها المسلمين بالقتل والسجن والتشريد، علىٰ مدىٰ نصف قرنٍ، بل يزيد، وامتناعهم عن الإدانة العلنية الصريحة لإسرائيل منذ إنشائها، ومن شواهد ذلك:

١. في أول مؤتمرٍ تشهده المنطقة العربية، من مؤتمرات التقريب، وهو مؤتمر بحمدون المنعقد عام ١٩٥٤م، أي بعد ست سنواتٍ من إعلان دولة إسرائيل، وتشريد الفلسطينيين، وإيقاع المذابح المروعة بهم، يقول مدير الأبحاث والنشر في جمعية الأصدقاء الأمريكان للشرق الأوسط، مجيبًا عن سؤالٍ حول «مشكلة الشرق الأوسط»: (إننا هنا نبحث أمورًا علمية، ولن نتدخل في الأمور السياسية»(١).

٢. وظلت مؤتمرات التقريب تتجنب التعرض لوضع إسرائيل، باستثناء مؤتمر قرطبة الذي سبق مؤتمر طرابلس بسنتين(٢)، بل قد بذلت جهود لتطبيع العلاقات بين إسرائيل وجيرانها المسلمين، وإحلال سلامٍ يقر اغتصابها للأرض المسلمة، والمقدسات الإسلامية، بعضها دولية، وبعضها تحت مظلة تقارب الأديان، كان منها:

قامت الكنيسة الكاثوليكية، (الفاتيكان) بالاعتراف بإسرائيل عام ١٩٩٣م، وأقيمت علاقات دبلوماسية بين الكيانين الدينيين اليهود والنصارى(٣).

إن سرَّ هذا التأييد الظاهر والخفي هو العداء المشترك للمسلمين من جهة، والعقيدة النصرانية الأصولية المبنية على تفسيراتٍ حرفية لنصوص العهد القديم،

---

(١) هرطقات فريسية (٨).

(٢) انظر البيان الختامي للمؤتمر في البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (٧١)، فقرة ٢٢.

(٣) انظر مجلة ٣٠ يومًا عدد (٤،١) عام (١٩٩٧ - ١٩٩٨م).

تفيد بضرورة وجود دولةٍ لليهود في الأزمنة الأخيرة، كعلامة على عودة المسيح في الألفية السعيدة التي تخيلها يوحنا في رؤياه، في إثر معركة هرمجدون(١). ومن ثم تكونت النظرة الإنجيلية الأصولية، بضرورة مساعدة إسرائيل، وتأييد مشروع جعل «القدس» عاصمة موحدة لليهود، للتسريع بعودة المسيح. وظل هذا الشعور يتنامى في الأوساط النصرانية عامة، والبروتستانتية خاصة، في مطالع الثمانينيات، حتى بلغ مجموع المنظمات الإنجيلية الموالية لإسرائيل في الولايات المتحدة مئتين وخمسين منظمة، تعكس آراء ورغبات نحو سبعين مليون أمريكي إنجيلي(٢).

ب - موالاة النصارىٰ بعضهم بعضًا في العدوان علىٰ المسلمين:

لقد انطلقت حركة التقريب بين الإسلام والنصرانية من حاضرة الفاتيكان، ومقر مجلس الكنائس العالمي في «جنيف»، في الوقت الذي كانت كثير من بلاد

---

(١) هرمجدون: ليس الحديث عن معركة «هرمجدون» مقتصرًا على النخب المتعصبة من اليهود والنصارى، بل هو حديث الصحف والمجلات والشركات السياحية. ففي استطلاع عن «إسرائيل» نشرته مجلة GEOGRAPHICAL SUPPLEMENT الإنجليزية، في عدد يونيو ١٩٩٩م، ورد ضمن فقرات لتذكير زوار إسرائيل، ما يلي: (إحدى المواقع الأثرية في شمال إسرائيل، مساحة المعركة للأرض المقدسة «ميجيدو». خمسة وعشرون ميلًا جنوب غرب حيفا، وتعرف أيضًا بـ«هرمجدون»، هو المكان الذي يواجه فيه جيش الخير ووصية الرب، قوى الشر، ليعجل «بالمجيء الثاني». الطوائف المسيحية، وغالبًا من أمريكا، تعتقد أن الموعد بات قريبًا: (٧٢).

(٢) من الجماعات المسيحية الصهيونية في الولايات المتحدة مجموعات Moral Majority «الأغلبية الأخلاقية» الذي بلغ عددهم سبعين مليونًا، وأهم مبادئها: ١- أراضي فلسطين والأردن هي أرض إسرائيل، دون سواها. ٢- لا تكتمل الشروط والهيئات لقيام السيد المسيح وانبعاثه، إلا بعد قيام إسرائيل، وبناء الهيكل على موقع المسجد الأقصى، وإقامة مملكة داود. ٣- لا بد من قيام صراع عالمي مدمر Armageddon تهزم في نهايته القوى المعادية للسيد المسيح Antichreist انظر: د. موسى الكيلاني، رئيس المجلس الإسلامي العالمي من كلمة له محفوظة لدى المؤلف (٣). وانظر: مقالة (حمى سنة ٢٠٠٠) عبد العزيز كامل. مجلة البيان عدد (١٣٨) صفر ١٤٢٠هـ، يونيو ١٩٩٩م (٩١).

المسلمين ترزح تحت الاستعمار النصراني الغربي، كما في الجزائر مثلًا، أو تعاني اضطهاد المتنفذين فيها من النصارى، كما في قبرص وبعض دول آسيا كالفلبين، وإفريقيا كالحبشة.

وربما اعتذر بعدم الصلة بين الكنيسة، والقيادات السياسية للحكومات الغربية أو المحلية في دولة ما. ولو سلمنا جدلًا بذلك، فما الذي كان يمنع دعاة التقريب من النصارى من إدانة الظالم، والانتصار للمظلوم، ولو معنويًّا؟

والشواهد على هذا الانخذال وذلك الصمت المعبر كثيرة، فمن ذلك: لم يتغير هذا المسلك من قبل أدعياء التقارب من النصارى، في السكوت عن إدانة الظالم وتجريم المجرم من بني ملتهم، حتى في عقد التسعينيات الميلادية، التي تكشفت فيه الحقائق والمعلومات أكثر من ذي قبل. فقد وقعت فاجعة المسلمين في البوسنة والهرسك في قلب أوروبا المتحضرة! على بعد بضع مئاتٍ من الكيلومترات من مراكز التقريب، ومعاهد الحوار، في روما وجنيف وفيينا، ولم تشأ تلك الجهات التي دأبت على التغني بالشعارات الإنسانية، وحقوق الإنسان، والحريات الدينية، أن تعيِّن الظالم وتوجِّه له الاتهام، بل اكتفت بعزاء المظلوم، ودعوته إلى الصبر والغفران، لقد عُقد في مطلع هذه المأساة المروعة لقاءان مهمان:

أحدهما: يوم الصلاة من أجل السلام في البوسنة، دعا إليه البابا يوحنا بولس الثاني، في بلدة أسيزي في يناير عام ١٩٩٣م، وقصره على ممثلين للمسلمين والنصارى، من البوسنة وكرواتيا ومقدونيا وألبانيا وسائر البلدان الأوروبية، وغاب عنه ممثلو الكنيسة الصربية الأرثوذكسية(١)، ولم يصدر عن الملتقى أي إدانة للصرب، بل كان جملةً من الهمهمات حول السلام، الغرض منه بالدرجة الأولى تبرئة النصرانية، والتنصل من المسؤولية.

---

(1) Recognize The Spiritual Bonds.P.99 - 101.

وقد قامت جمعية سانت إيجيديو المعنية بالتقريب بين الأديان لاحقًا، بعقد لقاء بين البابا يوحنا بولس الثاني، وبطريرك الكنيسة الصربية في روما لتنقية الأجواء(١).

هذه طريقة القوم، كما أخبر الله عنهم «بعضهم أولياء بعض»، فحين تأتيهم الفرصة ينقضون على المسلمين، ضاربين عرض الحائط بسائر دعوات التقارب والمحبة والحوار، فإذا نالوا مقصودهم عادوا إلى تخدير ضحيتهم بعبارات التسامح والسلام.

---

(١) من تقرير صادر عن الجمعية.

المبحث الثالث

شبهات دعاة التقريب بين الأديان وكشفها

على الرغم من صراحة النصوص الشرعية على بطلان فكرة التقريب بين الأديان، ومعارضتها للمعلوم من الدين بالضرورة من أوجهٍ عديدة، وعلى الرغم من دلالة الواقع المعاش الذي أفرزته هذه الدعوة من آثار ينفر منها كل مؤمن، وتأباها فطرته وعقيدته، كما أوضحنا في المبحثين السابقين، فإن هذه الدعوات استهوت نفرًا من المسلمين العصريين، وأشربوا حبها، فاندفعوا إلى الانخراط في برامجها، وإحياء مجامعها، وترديد شعاراتها التي صاغتها الدوائر الكنسية الغربية. وطفقوا يتلمسون المسوغات الشرعية، ويتذرعون بالعلل المصلحية لتصحيح طريقهم البدعي الذي تنكَّبوه، وفارقوا به سبيل السابقين الأولين من المؤمنين والتابعين لهم بإحسان.

وعامة ما يتشبث به هؤلاء العصرانيون:

- إما استدلال بنصٍ شرعي على غير وجهه الصحيح.
- وإما إعمالٌ لنصوص شرعية، وإهمالٌ لأخرى لا يتم الحق إلا بالأخذ بهما معًا.
- وإما اعتقاد مصلحة ما معتبرة، وهي في واقع الأمر ملغيَّة.

وكل ذلك ناتج عن جهل بالشرع، وهوًى متبع، وإعجاب بالرأي، ورقة في الدين.

وسوف نستعرض أدناه أهم الشبهات عند دعاة التقريب، وبعضها مما ألممنا به سابقًا، فنثبت أدنى كل شبهة بضعة نُقول كاشفة لمرادهم، ثم نتبعها بالمناقشة والرد. والله المستعان.

- **الشبهة الأولى: التقريب بين الأديان وسيلة لتحقيق «التعارف» المذكور في قوله تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ **[الحجرات: ١٣]:**

- يقول د. أحمد صدقي الدجاني: (والإسلام يقرر أن الله خلق الناس من ذكرٍ وأنثى، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا... أحد الأهداف التي لها أولوية، هدف التعارف، الذي يتحقق من خلال معرفة الآخر على حقيقته، وتصحيح الصورة الذهنية عنه، الحافلة بركامٍ من الأحكام السابقة، وسوء الفهم، اللذين يفرقان بين أتباع الديانتين)[1].

- ويجعل د. عبد العزيز التويجري «التعارف» على رأس قائمة أهداف الحوار من منظور إسلامي، ويفسر التعارف في آية الحجرات بقوله: (فالتعارف هنا يتسع ليشمل التعاون والتعايش، وكل ضروب العمل الإنساني المشترك لما فيه الخير والمنفعة لبني البشر)[2].

وهذا تأويل عصري حادث لقوله تعالى ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾. وهو معنًى درج دعاة الحوار والتقريب على ذكره، وغالبًا ما يستنسخ بعضهم من بعض، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الرجوع إلى التفاسير المعتبرة للكشف عن مراد الله منه، كما فهمه سلف الأمة. قال ابن جرير رحمه الله: (وقوله ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ يقول: ليعرف بعضكم

---

(١) مجلة «الإسلام اليوم» عدد (١٢). مقالة: آفاق التعاون بين العالم الإسلامي والمجتمعات الأخرى واستشرافها بالحوار (٣٩).

(٢) الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي (٢٢).

بعضًا في النسب)(١). وقال ابن كثير رحمه الله: (أي ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته)(٢). وهذه طريقة عامة المفسرين.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل نقل بعض دعاة التقريب معنى «التعارف» الذي حمله هؤلاء على التعرف على الآخر، والتعاون معه، وبلورة قيم مشتركة، إلى ما هو أبعد من ذلك، وهو «الاعتراف»:

- يقول د. موسى الكيلاني بعد استدلاله بالآية السابقة: (فالمعرفة هي محور الحوار، والاعتراف المتبادل هو ركنه وأسه)(٣).

- ثم تحول تأويل «لتعارفوا» من منح الاعتراف لغير المسلمين إلى طلب الاعتراف منهم واستجدائه والتوق إلى ذلك.

ويقول الأستاذ كامل الشريف في تعداده لمنطلقات الحوار في العصر الراهن: (إن الحوار من وجهة النظر الإسلامية، ينطلق من الاعتراف بالأديان السماوية السابقة وكتبها المقدسة ورسلها الكرام، ويدعو الطرف الآخر لمثل هذا الاعتراف، حتى تكتمل قاعدة الحوار البناء)(٤).

وقد تعقبه الدكتور محمد رشيدي في نقده القيِّم لمقالته، بالقول: (في رأيي أن هذا المنطلق الثاني للحوار لا يمكن حدوثه. إن كلمة «الاعتراف» لها معنًى خاصٌّ. فالديانة اليهودية كانت صحيحة حتى نسختها الديانة المسيحية. والديانة المسيحية

---

(١) تفسير الطبري (٢٦/ ١٤٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٥).

(٣) من كلمة له محفوظة لدى الباحث.

(٤) من كلمة له في اللقاء الإسلامي المسيحي الرابع عام (١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م) المنعقد في عمّان بعنوان: آفاق المستقبل للتعايش الإسلامي المسيحي في ديار الإسلام في ضوء التجارب السابقة، وقد نشرت في مجلة أرض الإسراء عدد (١١٥) رجب ١٤٠٨هـ (٣٣).

كانت صحيحة حتى نسخها الإسلام. فالاعتراف باليهودية معناه الاعتراف بها كدين أنزل قبل مجيء عيسى عليه السلام، والاعتراف بالمسيحية، معناه الاعتراف بها كدينٍ جاء به عيسى عليه السلام ناسخًا لأمور وجدت في تعاليم اليهودية. ولا يتصور أن يعترف اليهود بالمسيحية، إلا بالدخول في المسيحية. كما لا يتصور أن يعترف المسيحي بالإسلام، إلا بدخوله في الإسلام)(١).

ولكن دعاة التقريب يطلقون الكلام على عواهنه في مسألة «الاعتراف» بالدينين السابقين بما يوهم أنهما لا يزالان دينين صحيحين باقيين لم ينسخا، وربما اعتقد بعضهم ذلك. ويفعلون هذا لعلهم أن يظفروا باعترافٍ مقابل، وأنَّى لهم، كما أوضح الدكتور رشيدي.

إن التقرب من الأديان الباطلة أو المنسوخة بدعوى تحقيق هدف «التعارف» شبهة داحضة، وتأويل فاسد، وتفسير بالرأي لا يستند إلى بينة أو أثارة من علم(٢).

● الشبهة الثانية: التقريب وسيلة للدعوة إلى الله، وتفهمها من قبل الغرب:

- يضع الدكتور حسن الترابي على رأس دواعي «الحوار» ومبرراته، ما يأتي: (إنه ضرورة شرعية لتبليغ الرسالة، وحمل أمانة الدعوة، فالأصل هو التفاعل التبليغي، وعدم جواز السكون)(٣). وذاك لعمر الله هدف مشروع، ووسيلة شرعية معلومة، حين يكون الحوار «حوار الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة

---

(١) النقد المذكور صادر عن مكتب رابطة العالم الإسلامي في جاكرتا في مذكرة محفوظة لدى الباحث (٨).

(٢) ينظر: مجلة البعث الإسلامي الهندية. عدد جمادى الثانية ١٤١٠هـ (٦٥).

(٣) محاضرة: أطروحات الحركة الإسلامية في مجال الحوار مع الغرب، نشرة شؤون الأوسط عدد ٣٦ ديسمبر ١٩٩٤م (٩١).

الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن» لإظهار دين الله على الدين كله، بالحجة والبيان، فحيَّهلا. وأما حين يكون «حوار التقريب بين الأديان» فلا، ولا كرامة. وهذا مثار الحذر والريبة، فإن كثيرًا من دعاة التقريب يزفُّون دعواهم إلى التقارب بثوب الدعوة، ويزوقونها بجملة من المحسنات اللفظية ذات المدلولات الشرعية المعتبرة، ولكن ليس تحتها شيء من الحقيقة الشرعية فعلًا، كما يشهد واقع المئات من مؤتمرات الحوار التي لم تحقق شيئًا من مقاصد الدين الحنيف، بل لبَّست الأمر على كثير من الناس.

إن الدعوة إلى التقريب بين الأديان لا يمكن أن تكون بحالٍ من الأحوال دعوةً إلى الله، لأنها تحمل في ذاتها الحيدة عن دين الله، والتنصل عن بعض ما أنزل الله، سواء جرى ذاك التقريب في مجال العقائد والمفاهيم، الذي يخلط الحق بالباطل أو في مجال العلاقات بين أتباع الدينين الذي يقضي على الولاء والبراء.

وأين ثمار هذه الدعوة المزعومة وآثارها منذ أربعين سنة في نشر دين الله، ودخول الناس فيه أفواجًا؟ إنه لا يعلم أن أيًّا من ملتقيات الحوار التي يغشاها دعاة التقريب من الإسلاميين قد تمخضت عن إسلام شخصٍ واحد.

• الشبهة الثالثة: التقريب وسيلة للتعاون بين أتباع الأديان لمواجهة الإلحاد والفساد:

- يقول د. يوسف القرضاوي في مستهل تعداده للأهداف المشروعة من الحوار بين الإسلام والنصرانية: (... الوقوف في وجه تيار الإلحاد والمادية، الذي يعادي كل الرسالات السماوية... وكذلك تيار الإباحية والانحلال الخلقي)(١).

---

(١) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة (١٧٥).

- ويقول الأستاذ كامل الشريف بعد عودته من ندوة جارودي الإبراهيمية في قرطبة عام ١٩٨٧م، تحت عنوان «التعاون ضد الفساد»: (... أكثر الأفكار والتيارات التي تهدد قضية الإيمان والحياة والأخلاق تبرز في منطقة نفوذ الكنيسة... ومن هنا تبدو أهمية التعاون المقترح في هذه الميادين. إنها معركة تدور في النبع وعند المصدر ومن صالحنا أن ندخل فيها. ولو لم تنهض الكنيسة للعمل لكان لزامًا علينا أن نحرضها على ذلك)(١).

لعل هذه الشبهة هي أقدم الشبهات التي جلبت دعوة التقريب بين الأديان إلى بلاد الإسلام، وللإسلام دعوته الخاصة ومنهجه المتفرد في هداية الخلق، وانخراط دعاة التقريب في برامج مشتركة مع اليهود والنصارى يفضي إلى تصويب اليهودية والنصرانية، ومن ثم نقل البشر من ركن من أركان النار إلى ركنٍ آخر، ليس غير. والتعاون معهم لدفع مفسدة جزئية، كالإجهاض والمخدرات، قد يؤدي إلى مفسدة كلية تمس الاعتقاد، فربما توهم الناس أن ليس لدى اليهود والنصارى والمشركين انحراف سوى ذلك.

وفي الرد على هذه الشبهة يقول بعضهم: (وسذاجة أي سذاجة، وغفلة أي غفلة، أن نظن أن لنا وإياهم طريقًا واحدًا نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين. فهم مع الكفار والملحدين. إذا كانت المعركة مع المسلمين!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان، وفي كل زمان، حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب للوقوف في وجه المادية والإلحاد بوصفنا جميعًا أهل دين! ناسين تعليم القرآن كله، وناسين تعليم التاريخ كله... إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعًا

---

(١) مقالة: (الحوار الإسلامي المسيحي) جريدة «الدستور» الأردنية. الاثنين ٢/ ٣/ ١٩٨٧م (٧).

على أساس العقيدة. فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة.. ومن ثم فلا يمكن أن يقوم الولاء وهو التناصر بين المسلم وغير المسلم؛ إذ إنهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة... ولا حتى أمام الإلحاد مثلًا كما يتصور بعض السذج منا، وبعض من لا يقرؤون القرآن، ولا يعرفون حقيقة الإسلام، وبعض المخدوعين أيضًا... يتصورون أن الدين كله دين! كما أن الإلحاد كله إلحاد! وأنه يمكن إذًا أن يقف «التدين» بجملته في وجه الإلحاد. لأن الإلحاد ينكر الدين كله، ويحارب التدين على الإطلاق... ومن ثم فليس هناك جبهة تديُّن يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد! هنا «دين» هو الإسلام... وهناك «لا دين» هو غير الإسلام... ثم يكون هذا اللادين... عقيدة أصلها سماوي ولكنها محرفة، أو عقيدة أصلها وثني باقية على وثنيتها، أو إلحادًا ينكر الأديان.. تختلف فيما بينها كلها. ولكنها تختلف كلها مع الإسلام. ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء.. فكيف يمكن إذًا أن يتعاون المسلم في هذا السعي مع من لا يؤمن بالإسلام دينًا ومنهجًا ونظامًا وشريعة، ومن يتجه في سعيه إلى أهدافٍ أخرى إن لم تكن معادية للإسلام وأهدافه، فهي على الأقل ليست أهداف الإسلام، إذ الإسلام لا يعترف بهدفٍ ولا عملٍ لا يقوم على أساس العقيدة، مهما بدا في ذاته صالحًا ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ [إبراهيم: ١٨]).

• الشبهة الرابعة: التقريب وسيلةٌ لإبراز التسامح الإسلامي، وتحسين صورة الإسلام المشوهة في الغرب:

- يقول محمد حسن الحمصي في طليعة تعداده لمآثر دعاة التقريب بين الإسلام والنصرانية أنهم: (أبرزوا لرجال الدين المسيحي، ولجماهير النصارى

هناك، الموقف الإسلامي النبيل الذي يدعو إلى التسامح مع أبناء الديانات السماوية الأخرى)(١).

إن مفهوم «التسامح» الذي يتكئ عليه دعاة التقريب مفهوم فضفاض يتضمن حقًّا وباطلًا، يحتم ضرورة الاستفصال عن المدلول المراد:

- فإن أريد بالتسامح، العفو والصفح في المعاملة، بالتنازل عن بعض الحقوق الشخصية مالية أو معنوية، أو ما يحيله الشرع الإسلامي إلى اجتهاد ولاة أمور المسلمين في معاملة الحربيين من المنِّ أو الفداء، حسب ما تقتضيه السياسة الشرعية، أو منح الذميين والمعاهدين والمستأمنين في المجتمع الإسلامي حقوقًا مدنية، وإذنًا في البقاء على دينهم وعباداتهم، من غير إكراهٍ لهم على اعتناق الإسلام، فهو حقٌّ جاء به الإسلام، وحفل به تاريخه، وفاق به جميع الأنظمة القديمة والحديثة، وقد شهد له بذلك الأعداء(٢). فهو بهذا المدلول فضيلة خلقية، ومنهجٌ نبيل في العلاقات الدولية، والتنظيم الاجتماعي، لا يثلم عقيدة، ولا يهدر كرامة، ولا يضيع حقًّا.

- وإن كان «التسامح» يعني المداهنة، وإعطاء الدنية في الدين، وتسوية المسلمين بالمجرمين، وإدانة سبيل السابقين الأولين من المؤمنين، وإباحة جناب المجتمع المسلم لجحافل المنصرين والملحدين لإشاعة الفاحشة الفكرية والخلقية في الذين آمنوا، باسم «الحرية الدينية»، و«التعددية الثقافية»، و«التنوع الحضاري»، وما شابهها من زخرف القول، بحجة تحسين صورة الإسلام والمسلمين في أذهان الغربيين، فما هذا بتسامح، بل خنوع واستخذاء، ونزع للباس التقوى.

---

(١) الدعاة والدعوة (١/ ٥٥٤)، وما بعدها. وانظر الأصل للمزيد من مقالات التقريبيين وتسويقهم لهذه الشبهة.

(٢) انظر نبذًا من صور التسامح هذا في كتيب: الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب.

التسامح الذي ينادي به دعاة التقريب، يضفي عباءته الفضفاضة على كل مشركٍ وثني، فضلًا عن اليهودي والنصراني، ويمنحه التقدير والاحترام من جهة حضارته وعقيدته، ويتيح له أن يجهر بالسوء من القول(١)!

إن الغرب الذي يخطب هؤلاء التقريبيون ودَّه، لا يكف ليلَ نهار عن تشويه الإسلام في وسائل الإعلام والسخرية من أهله(٢)، كما لن يوقفه بالمقابل اطراح هؤلاء التقريبيين بين أيديهم في ضعة وانخذال، فتلك عقيدة راسخة، وطبيعة متأصلة في نفوسهم، منذ فجر الإسلام ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. كما لا توصف حملات التشويه والتشهير الإعلامي ضد الإسلام في الغرب بالتطرف وعدم التسامح. ودعاة التقريب، بحكم ثقافاتهم الغربية غالبًا، يدركون هذه الحقائق جيدًا فلا يزيدهم ذلك إلا تقربًا إلى الخصم الذي لا يمل من الابتزاز.

إن تحسين صورة الإسلام في أذهان الغربيين، والناس جميعًا، وإبراز محاسن الإسلام، لا يكون إلا بالتمسك به، والتأدب بآدابه، والدعوة إليه، ولا يكون أبدًا بانتقاصه، واجتزائه، والتخلي عن شيءٍ منه قربانًا إلى الكافرين، وموالاةً لهم من دون المؤمنين.

---

(١) كما يقرره أحد دعاة التقريب: مقالة التسامح الإسلامي المسيحي، والتقارب العربي الأوروبي ليسا بالمستحيلين. عبد الجليل التميمي. جريدة الحياة عدد (١٢٣٩٨) الخميس ٢٨ رمضان ١٤١٧هـ، ٦ فبراير ١٩٩٧م.

(٢) انظر في هذه الدراسة الجادة والمنصفة: (التغطية الإعلامية للإسلام) لإدوارد سعيد، أستاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا. وانظر كتاب: (تسامح الغرب مع المسلمين في العصر الحاضر) دراسة نقدية في ضوء الإسلام. تأليف عبد اللطيف إبراهيم الحسين أطروحة ماجستير دار ابن الجوزي. الدمام. الطبعة الأولى (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).

- **الشبهة الخامسة: التقريب ضرورة يفرضها الواقع العالمي الجديد:**

- يصف د. حسن الترابي الحوار مع الغرب بأنه (ضرورة عملية يفرضها الواقع العالمي القائم على الاتصال، والتفاعل، والاعتماد المشترك بين الأمم والشعوب والجماعات والحركات، مما يوجب علينا فهم الآخرين، وتفهم واقعهم، ومعرفة الحقائق للتعامل معها)(١).

إن هذه المقدمات محل قبول وتسليم من كل أحد، فوسائل الاتصال الحديثة ألغت مفهوم «البعد»، وبات كل شيءٍ قريبًا. فما لم تبلغه الأقدام، تأتي به وسائل الإعلام، قبل أن يقوم المرء من مقامه، بل قبل أن يرتد إليه طرفه، عبر التقنيات الحديثة. ولكن ما رتبه دعاة التقريب من نتائج على تلكم المقدمات محل رفضٍ، وإلزامٌ بما لا يلزم. فليس من مقتضى هذا التواصل العالمي الذوبان في بوتقة الأممية، والانسلاخ من الهوية، والانخراط في ثقافة الغير، وإن بدعوى تجاوزها.

- **الشبهة السادسة: التقريب وسيلة لتحاشي النزاعات والحروب، وصدام الحضارات:**

- يقول د. محمد عثمان صالح: (من دواعي الحوار أيضًا الرغبة العامة في العيش في سلام وأمن، بعيدًا عن التوترات والمنازعات والحروب. إذ إن الحوار كما أدرك الكثيرون يقارب بين الأفكار، أو على الأقل يستل سخائم النفوس)(٢).

---

(١) محاضرة أطروحات الحركة الإسلامية في مجال الحوار مع الغرب. نشرة شؤون الأوسط عدد ٣٦ (٩١). وللمزيد من مقالات التقريبيين في الترويج لهذه الشبهة يراجع الأصل.

(٢) تحديات الحوار بين الأديان وضوابطه. ورقة مقدمة إلى مؤتمر الحوار بين الأديان في الخرطوم عام ١٩٩٤م. وللمزيد من مقالات التقريبيين في الترويج لهذه الشبهة يراجع الأصل.

إن التلويح بخطر النزاعات والحروب، سلاحٌ يشهره بعض دعاة التقريب بين الأديان لتمرير فكرتهم، ويعلم هؤلاء جميعًا أن الذي يملك الآلة العسكرية المتطورة الجبارة ويصنعها، هم النصارى وغيرهم من أمم الكفر، فمحصلة دعواهم أن على المسلمين إذًا، لتحاشي تلك النزاعات والحروب والصدامات الحضارية، مسايرة الأمم التي تملك الترسانة العسكرية، والاقتراب منها، بالتخلي عن مقومات قوتها الذاتية، المتمثلة بعقيدتها المتفردة، التي تشيع في نفوس معتنقيها معاني الاستعلاء والتميز، والتطلع لإظهار دين الله على الدين كله.

كما يعلم هؤلاء التقريبيون أن النبرات العالية بحتمية الصراع بين الإسلام والنصرانية تنبعث من المعسكر المقابل بكل بجاحة، وتصميم، وليس من الصف الإسلامي، فإن الحروب والخصومة ليستا هدفًا للإسلام، ولا شهوةً للمسلمين، كما يزعم المستشرقون، بل هو دين المرحمة، ونبيه نبي الرحمة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فإن حال أحدٌ بين الناس وتبليغ دين الله كان حريًّا أن يقاتل ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]. ومع ذلك فهو ينزع إلى السلم في غير مذلة: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٦١].

أما الغرب النصراني المعاصر الذي يُدعى أهل الإسلام للاقتراب الديني معه، فإنه يطلق على ألسنة كبار منظريه، ومنجميه السياسيين نذر الحظر، وشارات التحفز والتوثب لمنازلة الإسلام وأهله، ومن شواهد ذلك:

مقالة البروفيسور صموئيل هانتنغتون(١)، المنشورة في مجلة Forreign Affairs،

---

(١) أستاذ العلوم السياسية، ومدير مؤسسة جون أولين للدراسات بجامعة «هارفارد» الأمريكية، ومدير أكاديمية هارفارد للدراسات الدولية والإقليمية، ومسؤول سابق في مجلس الأمن القومي عن التخطيط.

الشؤون الخارجية، بعنوان: «صدام الحضارات»، ضمن دراسة مطولة بعنوان: «المصالح الأمريكية ومتغيرات الأمن»، في يونيو عام ١٩٩٣م، ويرشح فيها الحضارة الإسلامية أن تكون أبرز خصوم الحضارة الغربية في القرن الحادي والعشرين، ويحدد زمن الصدام ومكانه؛ فيرى أن العقدين، الأول والثاني من القرن الحادي والعشرين الميلادي، سيشهدان صراعًا على خطوط التماس، شمال البحر الأبيض المتوسط بإزاء جنوبه، وجمهوريات الاتحاد السوفيتي النصرانية مع المسلمة، وباختصار فهو يرى أن للإسلام حدودًا دموية، على حد تعبيره(١).

هذه تقريرات خبير متمرس تبوأ أعلى المواقع الاستشارية والتخطيطية، وليست انفعالات طائشة من زعيمٍ قومي، إنها خلاصة تجارب أئمة الكفر الذين خبروا خصائص الإسلام عن دراسة ودراية، واستيقنتها أنفسهم، فلم تقدهم تلك المعرفة المجردة إلى نصح أنفسهم وشعوبهم، ليدخلوا في السلم كافة، بل حملتهم عاطفة العصبية والعزة بالإثم أن يطلقوا صيحات الخطر بحتمية الصراع بين نقيضين لا يجتمعان؛ الهدى والهوى.

وكلما زاد هؤلاء النصارى صراحة ووضوحًا، زاد دعاة التقريب من بني جلدتنا تعاميًا وإغماضًا.

---

(١) لقد أثارت مقالة هانتنغتون ردود فعلٍ واسعة في الشرق والغرب ما بين منتقد ومؤيد ومعتدل، وانظر في ذلك: ترجمة المقالة، وبعض الردود والتعقيبات في كتاب «صدام الحضارات» الصادر عن مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق. بيروت ١٩٩٥م، وعدد خاص من مجلة «الهلال» المصرية نوفمبر عام ١٩٩٣م، والإسلام والغرب والديمقراطية. جودت سعيد، عبد الواحد العلواني. دار الفكر ١٩٩٦م، والإسلام وصراع الحضارات. د. أحمد القديدي. كتاب الأمة رقم (٤٤). قطر ١٩٩٥م.

إن استدفاع ويلات الحروب وآثارها المدمرة لا يكون بالمقايضة على أمور الدين الاعتقادية، أو التشريعية، فليس ذلك لأحدٍ من الخلق، وإنما يكون بموالاة الله ورسوله والمؤمنين، واتخاذ الأسباب المعنوية والمادية لدفع الشر والعيش بكرامة وعزة. ولا يليق أن يغدو التلويح بالصراع من قبل دهاقنة النصارى المحنكين⁽¹⁾ مثار هلع أهل الإسلام وخورهم، فيستجيبون لدعوتهم إلى التقريب بين الأديان والحضارات، فلا والله لن يرضيهم ذلك عنا، ولن يكف شرهم، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

- **الشبهة السابعة: التقريب وسيلة لتحقيق الوحدة الوطنية بين مختلف طوائف الأمة:**

أسس محمد عمارة كتابه «الإسلام والوحدة القومية» على شفا هذا الجرف الهاري، في إثر أحداث عنفٍ طائفية جرت بين المسلمين والأقباط في مصر. فأثبت للنصارى وصف الإيمان، وجعل كفرهم برسالة محمد ﷺ مجرد بدعة داخل الدين الواحد، ووصف «الجزية» بأنها «ضريبة» وليست حكمًا شرعيًا،

---

(١) تمثل هذه القضية مادة خصبة لكتاب من اليهود والنصارى، ومن أمثلة ذلك: مقالة: (تحدي الإسلام الراديكالي) ل: جوديث ميلر، مقالة: ما هو الخطر الأخضر؟ ل ليون ت. هدار. وهما معربان في نشرة مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، مقالات معربة رقم (١٨)، مقالة: (حتمية الصراع بين الإسلام والغرب) ل: برنادر لويس في مجلة The Monthly سبتمبر ١٩٩٠م. ومقالة (الإسلام والغرب) ل:بريان بيدهام المنشورة في صحيفة الإيكونوميست في ٦ أغسطس عام ١٩٩٤م. انظر عرضًا لها في: الإسلام والغرب والديموقراطية. (٣٧، ٩٧).

وخلص إلى القول: (ما بال البعض يتعلق بثباتها سبيلًا للشقاق الديني، وتمزيق وحدة الأمة، تحت ستار زائف من الدين)⁽¹⁾.

وهذه النزعة التي تقدم رابطة «الوطن» على رابطة الدين نزعة نفاق، لم يزَل أهل الإسلام يعرفون ذلك من أهل النفاق بلحن القول، مذ كان الإسلام محاصرًا في المدينة. قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، رحمه الله، في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ۚ﴾ [الأحزاب: ١٣]. (فقالت هذه الطائفة: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يريدون: «يا أهل المدينة»، فنادوهم باسم الوطن المنبئ عن التسمية فيه، إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ليس لهما في قلوبهم قدر، وأن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي)⁽²⁾.

من عجبٍ أن يساوم دعاة التقريب على دينهم، من أجل حفنةٍ من أهل الكتاب عاشوا آمنين مطمئنين في كنف المجتمع المسلم طوال القرون، وتمتعوا بحقوقٍ مدنية ودينية لا تكفلها الأنظمة الوضعية، فينفخون في صورتهم وقد أقمأهم الله، ويقدمونهم وقد أخَّرهم الله، متلفعين بمرطٍ من دعوى الجاهلية؛ القومية، والوطنية ونحوها. إن تحقيق الوحدة الوطنية يكون بالقيام لله بالقسط، وإرساء معالم الشرع الشريف، ورفع مناره، وحفظ حقوق أهل الذمة والمعاهدين والمستأمنين من أي عدوان يقع عليهم، دون أن يتضمن ذلك تنازلًا عن شيءٍ من الدين، عقيدةً أو شريعة.

---

(١) الإسلام والوحدة القومية (٩٦). والكتاب يعج بمثل هذه الدعاوي. راجع مبحث «الإسلاميون العصرانيون».

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. (٦/ ٢٠٣).

- **الشبهة الثامنة: التقريب وسيلة لتحسين أوضاع الأقليات الإسلامية في الغرب:**

- يقول د. محمد الحسن: (هناك تحديات أخرى أمام الحوار، تستدعي عزيمة وتعاونًا لمواجهتها، من بينها... ضغوط الهجرة الخارجية إليه... وكذلك إشكالات أخرى تتعلق بمسلمين أوروبيين مواطنين، وآخرين مهاجرين، لهم حقوق الاعتراف بدينهم في مجتمعاتهم الأوروبية، وبقوانين للأحوال الشخصية لهم «من زواج وطلاق وإرث وعادات وتقاليد وطعامٍ وملابس». إن تعاون بني البشرية لمواجهة كل هذه التحديات وغيرها قادر على حشد الطاقات، وإن الحوار بين المسيحيين والمسلمين، هو أحد السبل الراشدة للوصول إلى هذا التعاون)(١).

ونسجل في هذا المقام الحقائق الآتية:

١. إن حركة «التقريب بين الأديان» التي تتولاها جهات كنسية وشبه كنسية في الغرب لا علاقة لها عمليًّا بتحسين أوضاع المسلمين المهاجرين والمقيمين في تلك البلاد، وما ناله هؤلاء من حقوقٍ، هي أدنىٰ مما يستحقون، كفلته لهم الأنظمة المدنية العلمانية، وليست المراجع الدينية. وهذا فرقٌ أصيل في مقام التنظير والمقارنة مع وضع أهل الذمة ومن شابههم في المجتمع الإسلامي.

٢. أن وضع الأقليات الإسلامية المهاجرة للعمل في الغرب تعاني كثيرًا صنوف التمييز العنصري والأذىٰ والقسر المنظم للذوبان في المجتمعات الغربية، وعدم تمكينها من نيل حقوقها الاجتماعية والدينية، ويتضح الفرق الهائل بمقارنة ذلك بوضع الأقلية اليهودية التي لا تنسب من

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات. (٥١، ٥٢، ٥٤).

الناحية العددية إلىٰ المسلمين، ومع ذلك فهي محل الرعاية والاعتبار في الأعياد الدينية والعادات وشؤون الطعام والخدمات(١).

٣. أن الذي يحكم وضع الأقليات الإسلامية في الغرب ليس التقدم في التقارب الديني، فهذا يتم مجانًا دون مقابل، وإنما درجة المقايضة بتمكين الأقليات النصرانية في المجتمع الإسلامي، ومنحها الحريات الكاملة لممارسة النشاطات الدينية والتنصيرية، وإلجاء المسلمين إلىٰ القبول بمبدأ الردة وتغيير الدين بمنتهىٰ الحرية.

ومن الشواهد الصارخة على ذلك: في مؤتمر «عالم واحد للجميع: أسس التعددية الاجتماعية والسياسة والثقافية في نظر المسيحية والإسلام». المنعقد في فيينا في محرم عام ١٤١٨هـ، مايو عام ١٩٩٧م. قالت وزيرة خارجية السويد في حفل الافتتاح: (إننا حين نرحب بالمسلمين في أوروبا فإننا نريد أن نؤكد الحاجة لحماية حقوق الأقليات، مسيحيين أو سواهم، لتكون موضع احترام في البلدان الإسلامية. نفس المبادئ التي تنطبق على الأقليات الإسلامية في أوروبا تكون للأقليات المسيحية في البلدان الإسلامية).

فعبثًا يحاول دعاة التقريب تحقيق مكاسب للجاليات الإسلامية في الغرب عن طريق الحوار الديني، وبذل المزيد من المقاربة العقدية والعملية. إن الأقلية المسلمة في الغرب ورقة ضغط ومقايضة في سوق الفتنة عن بعض ما أنزل الله.

---

(١) ينظر: مقالة: (الإسلام في أوروبا.. الاحترام قبل الحوار) السيد علي الصوري. جريدة العالم الإسلامي. الإثنين ١٣/ ٧/ ١٤١٧هـ.

الفصل الثاني

المنهج الشرعي في مخاطبة أهل الكتاب

تبين من كل ما سبق أن «دعوة التقريب بين الأديان» دعوة باطلة من أساسها، وأنها بدعةٌ محدثة في الدين، ليس عليها عمل المسلمين، ولا هي من سبيل المؤمنين، بل هي مضاهاة لليهود والنصارى والملحدين.

وليس من لازم هذا القول أن الإسلام يوصد أبوابه، ويرخي أستاره، ويقطع الجسور بينه وبين أمم الأرض، إما بدافع الاستعلاء وإما بدافع الخوف من الاختراق الخارجي، كلا! بل الأمر على نقيض ذلك تمامًا، فإن إيمان المؤمن، بحد ذاته، وخيرية الأمة بمجموعها، لا يتمان إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعوة مختلف الأجناس والشعوب، لتحقيق هدفٍ نبيل، وغاية سامية، هي هداية الخلق ونفع البشرية. إن التقوقع والانكماش والانكفاء على الذات، صفات لا تتفق مع طبيعة النفس المؤمنة، ولا مع مشروع الأمة المسلمة ودورها في إصلاح البشرية. والنصوص الشرعية في بيان فضيلة الدعوة إلى الله، وهداية الخلق، كثيرة متوافرة تكشف عن روح الإيجابية والعطاء والمبادرة البناءة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ﴾ [الشورى: ١٥]. وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال ابن كثير رحمه الله: (والمعنى أنهم خير الأمم، وأنفع الناس للناس... فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم، والمدح لهم...)(١). فأنى لهذه الأمة التي شهد لها رب العالمين بالخيرية، وقام سوقها على دعوة الخلق إلى سبيل الرشاد، من الانغلاق والتقوقع والسلبية؟!

ولكن انفتاح هذه الأمة الراشدة على سائر الملل والنحل انفتاح مبصر، وليس تقحمًا أعمى. وليس انفتاح «التعرف على الآخر»، فقد استبان سبيل المجرمين، وليس انفتاح البحث المشترك عن الحقيقة، فالحقيقة محفوظة لم تغِب: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧]. ففيمَ الخبط في التيه، والضرب في العماء؟!

إن للإسلام منهجه المستقل، وطريقه المتميز في تحديد مسار العلاقة بأهل الكتاب. وقد تحدد هذا المسار منذ بزوغ شمس الإسلام، بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبهدي رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وأجمعت عليه أمته قولًا وعملًا على مرِّ القرون.

أما «التقريب بين الأديان» فليس من منهج الإسلام في شيء، مهما زوَّقه أهله، وستروا سوأته بأنواع الألقاب، ومن أشهرها في العقود الأخيرة لقب «الحوار»، الذي هو في الأعم الأغلب «حوار التقارب»، وليس «حوار الدعوة»، ولا «حوار المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن»، كما يشهد الواقع العملي. وعليه فهو حوار مرفوض.

يقول الدكتور ظفر الإسلام خان: (من نتائج الحوار إسباغ القبول على دينٍ قد عفا عليه الزمن... ويمكن الإسلام كما رأينا علماءنا عبر القرون أن يناظر ويناقش المسيحية واليهودية، ولكن لا سبيل إلى الحوار معهما، فالمناظرة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٩٣، ١٠٣).

والنقاش يهدفان إلى كشف عيوب الآخر وإبرازها، أما الحوار فيهدف إلى التكيف والتوفيق والاعتراف بالطرف الآخر كندٍّ... ومُثُل الحوار من أفضل السبل للقضاء على ديناميكية الإسلام، ونهضته الحاضرة. إننا لا نحتاج إلى تفاهم أو تسوية مع الكنيسة، بل إلى الإجهار بحقنا الأبدي، والإصرار على ذلك. ولنا هداية واضحة في القرآن ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وهكذا فإن الحوار الديني الوحيد الذي يمكن مع الآخرين، بمن فيهم المسيحيون، هو لأجل الدعوة، وليس للاسترضاء، والاعتراف المزيف)(١).

ونهدف في هذا الفصل الأخير إلى استجلاء المنهج الشرعي في مخاطبة أهل الكتاب بوصفه المنهج الأصيل، ولا نقول البديل عن دعوة التقريب بين الأديان. وقد سبق في التمهيد بيان حكم الإسلام في أهل الكتاب من الناحية العقدية، والعملية، ونعرض ههنا للناحية الدعوية من خلال:

المبحث الأول: مضمون الخطاب الدعوي لأهل الكتاب.

المبحث الثاني: أسلوب دعوة أهل الكتاب.

---

(١) مجلة البعث الإسلامي الهندية. عدد (٩) المجلد (٣٤) جمادى الثانية (١٤١٠هـ) (٧٠).

المبحث الأول

مضمون الخطاب الدعوي لأهل الكتاب

الأصل في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]، فلا بدَّ أن يكون مضمون دعوة أهل الكتاب وغيرهم، (سبيل الله) لا سبيل غيره. وعبارات المفسرين في معنى هذا السبيل متطابقة:

قال ابن جرير رحمه الله: (إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام)(١).

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب خطابًا صريحًا مباشرًا، بصيغة النداء ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾(٢) ست مرات، ومسبوقة بفعل الأمر لنبيِّه ﴿قُلۡ﴾(٣) مثلهن، ومرةً بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾(٤)، ومثلها مسبوقة بـ﴿قُلۡ﴾(٥)، وثلاث مرات بصيغة ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾(٦) المعاصرين لظهور الإسلام، فصار مجموع هذه النداءات: سبعة عشر خطابًا في كتاب الله، مع ما عطف عليه من آياتٍ أُخَر، أو جاء على غير صيغة النداء. وذلك يدلُّ على مزيد العناية بأهل الكتاب.

ونستخلص من تلك الآيات المحكمات الدعوة إلى:

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٩٤).

(٢) سورة آل عمران: الآيات (٦٥، ٧٠، ٧١)، النساء: (١٧١)، المائدة: (١٥، ١٩).

(٣) سورة آل عمران: الآيات (٦٤، ٩٨، ٩٩)، المائدة: (٥٩، ٦٨، ٧٧).

(٤) سورة النساء: الآية (٤٧).

(٥) سورة آل عمران: الآية (٢٠).

(٦) سورة البقرة: الآيات (٤٠، ٤٧، ١٢٢).

أولًا: التوحيد الخالص ونبذ الشرك:

- قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهذه الآية العظيمة هي ميثاق الوفاق الوحيد بين المسلمين وأهل الكتاب، فإما أن يدخلوا في عقدها فيكونون والمسلمين سواء، أمةً واحدة، وإما الافتراق الذي لا تلاقي معه ولا اقتراب، ولا سبيل ثالث. وهذا الخطاب القرآني من الوضوح والبيان بحيث لا يشتبه إلا على من في قلبه زيغ. **ومن صور هذا الزيغ:**

١ . **تحريف معنى** ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا﴾ عن المعنى الذي فُسِّرت به في الآية ذاتها، إلى معانٍ أخرى، بحسبان هذه «الكلمة السواء» هي القدر المشترك المتفق عليه سلفًا، وليس أمرًا يُدعى إليه أهل الكتاب، وهو التوحيد، الخالص من شوائب الشرك، الذي تلبسوا به ووقعوا فيه فعلًا.

- يقول محمد الحسن: (هدف الحوار مع المسيحية هو الوصول إلى «كلمة سواء» لعمل الصالحات والنافعات للبشرية، ولمواجهة الطغيان، وتحقيق معرفة كل طرفٍ بالآخر، وإزالة سوء الفهم، والتعاون على البر والتقوى... على ألَّا ينشغل الحوار بمسائل الاعتقاد، بل ينطلق من احترام كل طرف لعقيدة الآخر)(١).

إنه لا يكتفي بتحريف الآية عن مضمونها العقدي الصريح، حتى يشترط ألَّا تفسر به أيضًا، ليسلم له حواره من مسائل الاعتقاد الذي يخدش عقائد المشركين من أهل التثليث.

---

(١) الحوار الإسلامي. الفرص والتحديات (٤٣).

- وأقبح من ذلك تحريف محمد عمارة حيث يقول: (هل يستطيع جميع الفرقاء أن يتفقوا على كلمة سواء: أن يتخذ أبناء كل شريعة، شريعتهم طريقًا ونهجًا خاصًّا لتدينهم بالعقائد الأصلية للدين الإلهي الواحد... فليحتفظ كل بشريعته... وليعترف الجميع بكل الشرائع)(١).

٢. التهوين من شأن ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾:

- يقول الأستاذ كامل الشريف: (إن الحوار يقنع باللقاء على الحد الأدنى بافتراض أن الاتفاق مهما كان صغيرًا في البداية، إلا أنه يخلق ديناميكية خاصة ترتاد به آفاقًا جديدة في طريق الوفاق ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤](٢).

ولما كان شأن هذه الآية عظيمًا، وكانت فرقانًا بين المسلمين وأهل الكتاب والنصارى خاصة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوكهم، مقرونة بالدعوة إلى الإسلام، لأن مضمونها الإسلام بعينه، كما في كتابه ﷺ إلى هرقل، عظيم الروم: (أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤](٣).

---

(١) الإسلام والوحدة القومية (٢١٧، ٢١٨).

(٢) مستقبل الحوار الإسلامي المسيحي على ضوء التجارب السابقة. مجلة الإسراء عدد (١١٥) رجب ١٤٠٨ (٣٣).

(٣) صحيح البخاري (١/ ٦) من حديث أبي سفيان الطويل.

ثانيًا: النهي عن الغلو في الدين، والقول على الله بغير الحق:

- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١]. والغلو: مجاوزة الحد. ومن صور غلو أهل الكتاب، وقولهم على الله غير الحق:

- دعوى ألوهية المسيح عليه السلام وربوبيته.
- دعوى أن الله سبحانه ثالث ثلاثة.
- دعوى بنوة المسيح والعزير لله سبحانه وتعالى.

فهذا الغلو في الدين هو الذي أوقعهم في الشرك والقول على الله بغير علم. فلا بد من مبادأتهم بالدعوة إلى ترك الغلو والشرك، وإخلاص العبادة، لله وإن من أعظم ما يرتكبه دعاة التقريب تسويغ شرك أهل الكتاب؛ من الغلو والشرك بالتثليث، وتأليه المسيح، ودعوى البنوة لله، وصرف ذلك كله إلى طوائف قد انقرضت بزعمهم، ومن ثم يسبغون عليهم اسم الإيمان، ويرفعون عنهم وصمة الكفر، وأنهم ليسوا من أصحاب النار(١).

ثالثًا: الإيمان برسالة محمد ﷺ واتباعه:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ

---

(١) تقدم ذكر هذه الشبهات في مواضع عديدة. انظر مثلاً: مبحث (الإسلاميون العصرانيون) من الباب الأول.

عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧، ١٥٨].

فلا يجوز لأهل الإسلام بأي مسوغٍ تجاوز هذه الدعوة الأصلية، وإهمالها وإرجائها، أو مواضعة أهل الكتاب على اعترافٍ عام بنبوته ﷺ دون تصديقه واتباعه، واعتقاد أن شريعته ناسخة لشرائعهم، وأن رسالته للناس كافة، عربهم وعجمهم، بل للإنس والجن جميعًا، وأنه لا يسع أحدًا من الخلق التعبد لله بعد بعثة رسوله ﷺ إلا بما شرع عن طريقه.

رابعًا: الإيمان بالقرآن:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤١].

فلا بد من دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بالقرآن العظيم بوصفه كلام الله حقيقة، نزل به جبريل على قلب محمد ﷺ، وأنه مصدق للتوراة والإنجيل مهيمن عليهما، ناسخٌ لشرائعهما، يقص عليهم أكثر الذي هم فيه يختلفون. ولا يحل بحالٍ من الأحوال مساواة الكتب التي بأيديهم به، وحسبانها جميعًا على حدٍّ سواء.

هذه أصول الإيمان التي يجب البداءة بها في مخاطبة أهل الكتاب، تأسيًا بالكتاب العزيز، وتقديمًا لما قدمه الله، وتعظيمًا لما عظَّمه، وبه يتبين إفلاس دعاة التقريب بين الأديان، حين يشيحون بوجوههم عن هذه الأصول كما يتضح من المثال الآتي:

- يقول أحمد صدقي الدجاني: (يجب أن ينأى هذا الحوار، والحوار بين الأديان بعامة، عن استهداف التوحيد بين دينين أو أكثر. وهذا يعني ألا ينشغل الحوار بمسائل الاعتقاد، بل ينطلق من احترام كل طرفٍ لعقيدة الآخر، والتسليم بمبدأ الاختلاف، ومبدأ حرية الاختيار... هدفٌ رئيس لهذا الحوار أن يجهر بالحق في المسائل والأمور التي تهم الناس، وأن يذكر بالمبادئ والقيم العليا التي يجب الالتزام بها، منهم، ومن السلطان، ومن بيدهم مقاليد الأمور... فمنها ما يتعلق بالموقف العقيدي المبدئي من قضايا بعينها، في مقدمتها قضية مقاومة العنصرية والتمييز العنصري، وقضية العدل الاجتماعي، وقضية الحرية والمسؤولية وقضية السلام القائم على العدل)(١).

هذه -وللأسف- أمهات القضايا العقدية التي ينبري دعاة التقريب للذود عن حياضها، ويتواصون بالجهر بها، والصبر على ما يصيبهم من أذى في سبيلها، ويهجرون الدعوة إلى أركان الإسلام، ومعاقد الإيمان.

---

(١) آفاق التعاون بين العالم الإسلامي والمجتمعات الأخرى، واستشرافها بالحوار. مجلة الإسلام اليوم عدد ١٢ (٤٠).

المبحث الثاني

أسلوب دعوة أهل الكتاب

كما بين الله سبحانه وتعالى مضمون دعوة أهل الكتاب، بيَّن أيضًا أسلوب دعوتهم ودعوة وغيرهم من أصناف الناس بوجهٍ عام، فقال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. وأرشد عباده المؤمنين إلى أسلوب مجادلة أهل الكتاب، بوجه خاص، فقال: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فهاتان الآيتان عمدة هذا الباب، والمرجع في كل ما يأتي الداعي ويذر، في دعوة أهل الكتاب.

وقد فصل هذا الإجمال المذكور في الآيتين، النسق القرآني في مخاطبتهم، والتطبيق العملي من لدن رسول الله ﷺ، في دعوتهم بالأساليب المتنوعة، وما سارت عليه الأمة الإسلامية المهدية عبر القرون. وسنتناول في الصفحات الآتية:

١. بيان معنىٰ الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

٢. الأساليب القرآنية في دعوة أهل الكتاب.

٣. الوسائل النبوية في دعوة أهل الكتاب.

٤. عمل الأمة الإسلامية، وسبيل المؤمنين.

- **أولًا: بيان معاني: (الحكمة) و(الموعظة الحسنة) و(المجادلة بالتي هي أحسن):**

أ. الحكمة:

- قال الراغب(١): (الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل)(٢).

- قال ابن جرير: («الحكمة» يقول بوحي الله الذي يوحيه إليك، وكتابه الذي ينزل عليك)(٣).

- وقال الشوكاني: (أي بالمقالة المحكمة الصحيحة. قيل: وهي الحجج القطعية المفيدة لليقين)(٤).

فمجموع هذه العبارات يدل على صفة تجمع الحجة البالغة، والقول الفصل، والفعل الرشيد، مستمدة من الشرع الصحيح والعقل الصريح، ﴿يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ب. الموعظة الحسنة:

قال الراغب: (الوعظ: زجرٌ مقترنٌ بتخويف. قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب)(٥).

---

(١) الحسين بن محمد أبو القاسم الأصبهاني المعروف بالراغب، سكن بغداد كان يقرن بالغزالي، توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر: الأعلام (٢/ ٢٥٥)، آداب اللغة (٣/ ٤٤).

(٢) المفردات في غريب القرآن (١٢٧).

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ١٩٤).

(٤) فتح القدير (٣/ ٢٠٣).

(٥) المفردات في غريب القرآن (٥٢٧).

- قال البغوي[1]: (يعني مواعظ القرآن، وقيل: الموعظة الحسنة هي الدعاء إلى الله بالترغيب والترهيب. وقيل: هو القول اللين الرقيق من غير غلظة ولا تعنيف)[2].

- وقال ابن كثير: (أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى)[3].

ومجموع هذه العبارات يدل على صفة تستخدم المؤثرات العاطفية الوجدانية، المستمدة من آيات الله في النفس والآفاق، وسنن الله الكونية، بما يثير في النفس الرغبة والرهبة، والاستجابة لدعاء الحكمة. فكان لا بد للدعوة التامة من مخاطبة العقل بالحكمة، والقلب بالموعظة الحسنة.

ج. المجادلة بالتي هي أحسن:

- قال ابن منظور: (الجدل: وهو شدة الخصومة... الجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة. المناظرة والمخاصمة)[4].

- قال الشنقيطي[5]: (أمر الله جل وعلا نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن

---

[1] الحسين بن مسعود بن الفراء، يلقب بمحيي السنة، البغوي، فقيه محدث مفسر، ولد سنة ٤٣٦هـ، في «بغا» من قرى خراسان، له: «شرح السنة» وغيره من المؤلفات، توفي سنة ٥١٠هـ. الأعلام (٢/ ٢٥٩)، وفيات الأعيان (١/ ١٤٥).

[2] معالم التنزيل للبغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش. دار طيبة الرياض. الطبعة الثانية (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م). (٥/ ٥٢).

[3] تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦١٣).

[4] لسان العرب (٢/ ٢١٢).

[5] (١٣٢٥ - ١٣٩٣هـ) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي: من علماء شنقيط. حج سنة ١٣٦٧هـ، واستقر مدرسًا في المدينة ثم الرياض، وأخيرًا في الجامعة الإسلامية بالمدينة سنة١٣٨١هـ. وتوفي بمكة. من مصنفاته: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» انظر الأعلام: (٦/ ٤٥).

يجادل خصومه بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة، من إيضاح الحق بالرفق واللين. ونظير ما ذكر هنا من المجادلة بالتي هي أحسن: قوله لموسى وهارون في شأن فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، ومن ذلك القول اللين: قول موسى له: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩].

وهذا يدل على أن «المجادلة بالتي هي أحسن» وصف يتضمن ثلاثة أمور:

١. المخاصمة والمناظرة لكشف الشبهات بالحجج والبينات، وأنواع الاستدلالات لمغالبة الخصم، بغية هدايته، وحصول البلاغ التام رجاء إيمانه.

٢. أن تكون تلك المجادلة بالقرآن والتوحيد والطرق الشرعية في الاستدلال.

٣. أن تنضبط بالآداب الشرعية من اللطف وحسن الخلق والرفق واللين والصبر على الأذى، والبعد عن الغلظة والمخاشنة والفظاظة في القول والفعل.

وهذا سر تقييد «المجادلة» بـ«التي هي أحسن»، لأن الجدل في حدِّ ذاته أقرب إلى الذم منه إلى المدح، ولهذا جاء استعماله في القرآن العظيم في سياق الذم غالبًا، ووردت النصوص النبوية الكثيرة في ذم «الجدل» و«المجادلين»⁽¹⁾. فلما كانت دلالته تنقسم إلى: محمود، ومذموم، بل كان المذموم منه أكثر، احتيج لتقييد المأمور به «بالتي هي أحسن»، واستثناء المنهي عنه بما كان «بالتي هي أحسن».

---

(١) من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله ﷺ: (ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)، وقوله: (أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)، رواه البخاري (٥/ ١٥٩)، رواه مسلم (٤/ ٢٠٥٤).

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن استعمال إحدى هذه الطرق الثلاث يتنوع بتنوع المدعوين. فلكل طائفة من الخلق مرتبة تليق بها، وتدعى بها⁽¹⁾.

والأقرب للسياق القرآني أن تجتمع الدعوة بالحكمة، والدعوة بالموعظة الحسنة في حق المدعو الواحد، لأن الله جمع بينهما، وعلقهما معًا بالفعل «ادع»، لتنوع تأثيرهما في الإقناع، فيعضد أحدهما الآخر. أما الجدل فيحتاج إليه أحيانًا إذا وجدت دواعيه من شُبهٍ عالقة، أو تشبيه وتلبيس للصد عن سبيل الله. فلهذا قطع تعلق المجادلة بباب الدعوة المباشرة، فلم يقُل: ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، بل جعلها من بابٍ آخر، وإن كان يحصل بها ضمنًا دعوة وبيان، ودفع عدوان.

ولما كان أهل الكتاب أحرى أن يقع منهم الجدال، لما يرون عليه أنفسهم من ميراث الكتاب، وآثار النبوة السابقة، ولما ورثوه أيضًا من ركام الجدل الذي ضلوا به عبر القرون، خصهم الله بالذكر، ونبه عباده المؤمنين على الالتزام بمنهج الأدب الشرعي في مجادلتهم فقال: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية من جهتين: إحداهما: في المراد بالذين ظلموا، والذين لم يظلموا من أهل الكتاب، والثاني: في كونها منسوخة أو محكمة. والحق في المسألتين ما ذهب إليه إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله،

---

(١) ينظر: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب. الرازي. فخر الدين، محمد بن عمر. دار الفكر بيروت. الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م) (١٠/ ١٤٠ - ١٤١). تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٤/ ٢٥٤ - ٢٥٥). فالفخر الرازي جعل هذه الأوصاف الثلاثة مراتب متغايرة متباينة بحسب حال المدعوين؛ أعلاها الحكمة، وأوسطها الموعظة، وأدناها المجادلة، يقابل كل مرتبة طائفة من الناس. والسعدي جعلها أحوالًا للداعي يترقى بها مع المدعو من الأسهل إلى الأصعب لتبليغ الدعوة، دون أن يتعلق ذلك بحال المدعوين من الكمال أو النقصان.

حيث قال: (وأولى الأقوال بالصواب، قول من قال: عنى بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٠] : إلا الذين امتنعوا من أداء الجزية، ونصبوا دونها الحرب. فإن قال قائل: أو غير ظالمٍ من أهل الكتاب، إلا من لم يؤدِّ الجزية؟ قيل: إن جميعهم، وإن كانوا لأنفسهم بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ ظلمة، فإنه لم يعنِ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ ظلم أنفسهم. وإنما عنى به: إلا الذين ظلموا منهم أهل الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ، فإن أولئك جادلوهم بالقتال.

وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب، لأن الله -تعالى ذكره- أذن للمؤمنين بجدال ظلمة أهل الكتاب بغير الذي هو أحسن، بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾، فمعلوم إذا كان قد أذن لهم في جدالهم، أن الذين لم يؤذن لهم في جدالهم إلا بالتي هي أحسن، غير الذين أذن لهم بذلك فيهم، وأنهم غير المؤمن، لأن المؤمن منهم غير جائز جداله إلا في غير الحق، لأنه إذا جاء بغير الحق، فقد صار في معنى الظلمة في الذي خالف فيه الحق(١)، فإذا كان ذلك كذلك، تبين أن لا معنى لقول من قال: عنى بقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٦] أهل الإيمان منهم(٢)، وكذلك لا معنى لقول من قال: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال وزعم أنها منسوخة(٣)، لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة عقل)(٤).

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن كان قصده العناد، يعلم أنه على باطل، ويجادل عليه، فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتي هي أحسن، لكن قد نجادله بطرقٍ أخرى نبين فيها عناده وظلمه وجهله جزاءً له بموجب عمله). الجواب الصحيح (١/ ٢١٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٢)، وتوجيه هذا القول في الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٥٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٢)، معالم التنزيل للبغوي (٦/ ٢٤٨)، وزاد المسير (٦/ ٢٧٧).

(٤) تفسير الطبري (٢١/ ٢، ٣).

وقد ادُّعي النسخ أيضًا في آية النحل(١) التي لا تختص بأحدٍ دون أحد، قال القرطبي: (هي محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار، ورجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة)(٢). وهذا الأخير هو الحق، لأن الغاية من بعثة الرسل هداية الخلق، لا وضع السيف على رقابهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وإذا كان النبي ﷺ يحاج الكفار بعد نزول الأمر بالقتال، وقد أمره الله تعالى أن يجير المستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه مأمنه، والمراد بذلك تبليغه رسالات الله وإقامة الحجة عليه، وذلك قد لا يتم إلا بتفسيره له الذي تقوم به الحجة، ويجاب به عن المعارضة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، علم بطلان قول من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ للأمر بالمجادلة مطلقًا)(٣).

فإذا كان الأمر بالمجادلة بالتي هي أحسن محكم لم ينسخ، حتى والغلبة والظهور للمسلمين على أهل الكتاب في القرون الخوالي، فلا ريب أنه يتأكد الأخذ به في هذا الزمان الذي انعكس فيه الحال.

- **ثانيًا: الأساليب القرآنية في دعوة أهل الكتاب:**

خير ما فسر به القرآن هو القرآن. فإن ما أجمل في موضعٍ منه، قد فسر في موضعٍ آخر. فهذه الجمل الثلاث: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، قد فصلت بأساليب شتى في مثاني القرآن العظيم، وتنوعت هذه

---

(١) انظر: معالم التنزيل (٥/ ٥٢)، وزاد المسير (٤/ ٥٠٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٠٠).

(٣) الجواب الصحيح (١/ ٢٣١ - ٢٣٢). وينظر: (١/ ٢١٧ - ٢١٩).

الأساليب تنوعًا كثيرًا لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرًا، ولتكون منهجًا للدعاة إلى الله في كل زمانٍ ومكان في مخاطبة أهل الكتاب، تغنيهم عن الأساليب المستحدثة، والطرق المبتدعة، التي تطيل الطريق، وتبلبل السالك، وتطمس نصاعة المنهج ووضوح الخطاب، وتضيع الجهود، وتهدر الأوقات في غير ما طائل، كما يحصل للمشتغلين بالحوار مع أهل الكتاب، على غير سنة واتباع، ودون ترسم لهدي الكتاب المبين.

وفيما يأتي **ثمانية أساليب مستنبطة من الخطاب القرآني لأهل الكتاب**، مبنية على الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، إلا لمن ظلم، فيتعين على من تصدى لدعوة أهل الكتاب ومحاورتهم الأخذ بها، والنسج على منوالها، وألا يعدل بها شيئًا من أساليب أهل الأهواء والبدع.

١. أسلوب المبادأة الواضحة:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إن أخذ زمام المبادرة في مخاطبة أهل الكتاب ينبغي أن ينشأ من الجانب المسلم، فينادي غيره، ويجمعهم ليلقي عليهم دعوته الواضحة الصادقة، كما يدل النداء في هذه الآية. ولطالما شكا المشتغلون بالحوار الإسلامي النصراني بصيغته المعاصرة من كون المبادرة تأتي غالبًا من الجانب النصراني، وأن المحاورين المسلمين يساقون دون تخطيط مسبق، وأهدافٍ واضحة، من جانبهم، عبر قنواتٍ ومسالك، رسمها لهم سلفًا محاوروهم من أهل الكتاب. وهذا في الواقع ليس بمستغرب، لأن دعاة التقارب من المسلمين جفوا المنهج الشرعي القائم على

دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء، فلم يبقَ لهم ما يدلون به على الآخرين. فأهل الإسلام لا يستقيم أمرهم، ولا يعبِّرون بصدقٍ عن دينهم، إلا أن يكونوا أصحاب مبادرة للقيام بأمر الله، وغاية واضحة في الدعوة إلى الله، وخطة بينة بالالتزام بمنهج الله، كما دلت عليه هذه الآية العمدة، وإلا تقاذفتهم ألاعيب الذين كفروا من أهل الكتاب، ومبادراتهم العبثية الموسومة بالتقارب والحوار ونحوها.

٢. أسلوب العبرة والتذكير:

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

وقد تضمن القرآن العظيم ثلاثًا وعشرين واقعة مصدَّرة بكلمة (وإذ) الظرفية، تذكِّر أهل الكتاب من يهودٍ ونصارى بما جرى من أسلافهم مع أنبيائهم، وعواقب ذلك، لا لمجرد القصص، وإنما للتذكير والاعتبار والاستبصار، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه، وتحل بهم المثلات. فينبغي اعتماد هذا الأسلوب القرآني في مخاطبة أهل الكتاب، لأن الاستشهاد بحقائق التاريخ وعامتها موجودةٌ في كتبهم، والتذكير بدروسه وعبره، من أقوى وسائل التأثير.

٣. أسلوب الإغراء والترغيب:

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٧٤].

فهذا الأسلوب من أنجح الأساليب وأدعاها إلى قبول الحق والاغتباط به. ففيه من الترغيب والإغراء ما يحفز أصحاب الهمم العالية، والنفوس التواقة إلى الكمالات، إلى استشراف الهدى بنفس مستبشرة طامعة بفضل الله ورحمته.

٤ . أسلوب التحذير والترهيب:

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

فهذه الآيات وأمثالها، المتضمنة للتهديد والوعيد والتحذير، ترتجف لها القلوب التي فيها أدنى حياة، فتحملها على إعادة النظر فيما تعتقد وتقول وتعمل، فإذا لم يحفزها حافز الترغيب، ردعها رادع الترهيب، وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

٥ . أسلوب التوبيخ والنكير:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ (٩٨) قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩].

ولا يزال أهل الكتاب مقيمين على ما وبخهم الله فيه، فلا بد من استمرار النكير عليهم وتبكيتهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، تأسيًا بكتاب الله.

٦. أسلوب المحاججة والنقض:

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٦٥) هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٧].

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ (٧٥) قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٥، ٧٦].

قال ابن القيم رحمه الله في فقه قصة وفد نجران: (ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه، إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم. ولا يهرب عن مجادلتهم إلا عاجزٌ عن إقامة الحجة، فليولِّ ذلك إلى أهله، وليخَلِّ بين المطي وحاديها، والقوس وباريها)[١].

---

[١] زاد المعاد (٣/ ٦٣٩).

ويا ليت هؤلاء العصرانيين من أهل التقريب بين الأديان لما قصروا عن هذه المرتبة وكلوا الأمر لأهله، لكنهم أذاعوا دعوة التقريب وأفشوها بين المسلمين، ورددوا أصداء شبهات أهل الكتاب، وسفهوا طريقة السابقين الأولين، وزعموا أنها من سجال الماضي ومظالمه وجراحاته، التي يجب أن تندمل وتمحى.

ولا يكفي في مجادلة، أهل الكتاب أن يعترفوا بنبوة محمد ﷺ دون أن يتبعوه، وينخلعوا مما هم عليه، ويدخلوا في السلم كافة، خلافًا لما يتوهمه بعض دعاة التقريب فتحًا مبينًا، ونصرًا مؤزرًا؛ أن يظفروا بكلمة ثناء من أحد القسس والكهان عن رسول الله ﷺ، واعتراف مجرد بأنه نبي.

قال ابن القيم في فقه هذه القصة: (وفيها: أن إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله ﷺ بأنه نبي، لا يدخله في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته)(١). وكذا قال ابن حجر في فوائدها: (أن إقرار الكافر بالنبوة لا يدخله في الإسلام، حتى يلتزم أحكام الإسلام)(٢).

٧. أسلوب المباهلة:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]. قال ابن جرير رحمه الله: (فمن جادلك يا محمد في المسيح عيسى ابن مريم... فقل تعالوا: هلموا فلندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل يقول: ثم نلتعن: فنجعل لعنة الله على الكاذبين منا ومنكم في آية عيسى)(٣).

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٣٨).

(٢) فتح الباري (٨/ ٧٤).

(٣) تفسير الطبري (٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨).

وهذه درجة متقدمة في سلم مخاطبة أهل الكتاب، يصار إليها عند الإصرار وكمال الإعذار، وانقطاع الخصم، وتقشع الشبه بالحجة والبيان. فإذا أعيت الحيلة، وتبين عناد الخصم ألجئ إلى المباهلة. وهي وسيلة مفيدة من جهتين:

الأولى: إظهار التحدي، والثقة التامة، بأن الداعي إلىٰ المباهلة علىٰ الحق.

الثانية: إرهاب المعاند، وحمله علىٰ الجد والحزم، بالتعرض للعنة الله، فينتقل من حالة المنازعة الجدلية النظرية، إلىٰ مقام المواجهة العملية المخيفة، فربما نزع واستغفر واستعتب.

٨. أسلوب المفاصلة:

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

إن المنهج الشرعي يقوم على الصدق والبينة، فكما أنه يهتبل الفرصة، ويبادئ غيره بالدعوة الواضحة إلى أصول الاعتقاد، فإنه لا يدع الأمر معلقًا لا ينتهي إلى حدٍّ واضح، بل يحزم أمره، ويحمل غيره على تحديد موقفه، بعد البيان التام، وكشف الشبهة، وإقامة الحجة. فإما الإسلام وإما التولي. وحينئذٍ فلا بد من الجهر والإعلان والإشهاد، بعد المحاورات والمفاوضات المنتهية بالتولي والإعراض، بأنا مسلمون، ومن سوانا ليسوا كذلك. وهكذا ينبغي أن يكون «البيان الختامي» من طرفٍ واحد، لا أن يكون بحثًا عن «قضايا مشتركة» يعلنها الطرفان، فيكسب أهل الكتاب تنازل المسلمين عن دعواهم الأساسية: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ٦٤].

- **ثالثًا: الوسائل النبوية في دعوة أهل الكتاب:**

كانت سيرته ﷺ ترجمانًا للقرآن، وبيانًا له، فامتثل أمر ربه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. وانتهى عما نهاه بقوله: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وكلاهما آية مكية، فدعا النبي ﷺ كل من لقيه إلى دين الله دون استثناء، ولم يدُر بخلده يومًا أن ما جاء به من عند الله استمرارٌ لليهودية والنصرانية المحرفتين، أو أن يسعى للحصول على اعترافٍ منهما، أو أراد مزاملتهما، كما زعم بعض دعاة التقريب(١).

وقد كان أهل الكتاب في تخوم الجزيرة العربية، وفي يثرب ونجران، وأفراد قلائل في مكة، فدعاهم جميعًا ﷺ إلى دين الله في العهدين المكي والمدني، وتوسل بعدة وسائل، منها:

١) غشيانهم في محافلهم ومجتمعاتهم وبيوتهم:

ومن شواهد ذلك:

- (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس، فقام النبي ﷺ فناداهم: يا معشر يهود أسلموا تسلموا. فقالوا: قد بلَّغت يا أبا القاسم، فقال: ذلك أريد. ثم قالها الثانية، فقالوا: قد بلَّغت يا أبا القاسم، ثم قال الثالثة، فقال: اعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم، فمن وجد منكم بماله شيئًا فليبعه، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله)(٢).

---

(١) انظر مجلة الاجتهاد (٢٨/ ٥).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ٦٥)، (٨/ ٥٧، ١٥٦)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٧) ومدراس اليهود: كنيستهم... وفسروه بموضع قراءة التوراة. حاشية على صحيح البخاري (٨/ ٥٧)، وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٨٣).

- (عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: انطلق النبي ﷺ يومًا وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدٍ لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر يهود، أروني اثني عشر رجلًا يشهدون أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه، قال: فأسكتوا ما جاوبه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد، ثم ثلث فلم يجبه أحد. فقال: أبيتم. فوالله إني لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا النبي المصطفى، آمنتم أو كذبتم. ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كدنا أن نخرج، نادى رجل من خلفنا: كما أنت محمد. قال: فأقبل، فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلمون فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك. قال: فإني أشهد له بالله إنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة. قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شرًّا. قال رسول الله ﷺ: كذبتم لن يقبل قولكم، أما آنفًا فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، ولما آمن كذبتموه وقلتم فيه ما قلتم، فلن يقبل قولكم. قال فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ وأنا وعبد الله بن سلام. وأنزل الله عز وجل فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠](١).

- (وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان غلامٌ يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه، فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار)(٢).

---

(١) مسند الإمام أحمد (٦/ ٥٢)، ورواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤١٥ - ٤١٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله رجال الصحيح (٧/ ١٠٥ - ١٠٦).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٩٧).

فدلت هذه الأحاديث الصحيحة على ما يأتي:

١. أن من هديه ﷺ غشيان أهل الكتاب في مجتمعاتهم الدينية، وفي زمن أعيادهم، في أماكن عبادتهم وتعليمهم، رجاء كثرتهم، وكذلك زيارتهم، وعيادة مريضهم في بيوتهم، لدعوتهم إلىٰ الإسلام.

٢. مبادأة أهل الكتاب بالدعوة الصريحة إلىٰ الإسلام: «أسلموا»، وعدم الاشتغال بشيءٍ سوىٰ ذلك.

٣. استعمال أسلوب الترغيب والإغراء أولًا، كما في قوله: «أسلموا تسلموا»، وقوله: «يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء والغضب الذي غضب عليه».

٤. استعمال أسلوب الترهيب والوعيد ثانيًا حين الإباء، كما في قوله: «أبيتم. فوالله إني لأنا الحاشر(١) وأنا العاقب(٢)»، وقوله: «اعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم».

٥. استعمال أسلوب التوبيخ والنكير، لقوله: «كذبتم...».

٦. المجادلة بالتي هي أحسن. فإن اليهود لما دعاهم ﷺ إلىٰ الإسلام، قالوا: قد بلغت، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وقولهم: «قد بلغت»، كلمة مكرٍ ومداجاة، ليدافعوه بما يوهمه ظاهرها. ولذلك قال ﷺ: ذلك أريد، أي التبليغ(٣).

---

(١) الحاشر: الذي يُحشر الناس خلفه وعلى ملته دون ملة غيره. النهاية في غريب الحديث (١/ ٣٨٨).

(٢) العاقب: هو آخر الأنبياء، والعاقب والعقوب: الذي يخلف من كان قبله في الخير. المرجع السابق (٣/ ٢٦٨).

(٣) فتح الباري (٦/ ١٩٥)، وانظر فتح الباري (١٣/ ٢٦٥).

٢) دعاؤهم إلىٰ دار الإسلام:

- روى أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث قدوم النبي ﷺ المدينة مهاجرًا الطويل: (... فلما جاء نبي الله ﷺ، جاء عبد الله بن سلام، فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فيَّ. فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا، فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقًّا، وأني جئتكم بحق، فأسلموا. قالوا: ما نعلمه. قالوا للنبي ﷺ، قالها ثلاث مرار. قال: فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم. قال: يا ابن سلام اخرج عليهم. فخرج فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق. فقالوا له: كذبت. فأخرجهم رسول الله ﷺ)(١).

فيستفاد:

١. أن من هديه ﷺ دعوة أهل الكتاب إلى مجلسه لعرض الإسلام عليهم إذا طمع في ذلك، وتجددت أسبابٌ توجب ذلك، كإسلام بعض عظمائهم.

٢. أن من وسائل دعوة أهل الكتاب حكاية إسلام من أسلم منهم، لا سيما أهل العلم والفضل والسيادة منهم، لحفزهم على الإسلام.

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ٢٦٠ - ٢٦١).

٣. لا بأس باستعمال الحيلة وسيلةً لإلزام المدعو بالحق، وحمله على القبول فيؤمن، أو النكوص فيفتضح أمره، وذلك بعد دعوتهم دعوة صريحة إلى الإسلام.

٣) الكتابة إلىٰ ملوكهم:

عن أنسٍ رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه ﷺ(١). فهذا نوع من البلاغ الذي أمره الله تعالى به: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقد حكى أهل السير كتبًا كثيرة بعث بها رسول الله ﷺ إلى ملوك النصارى وعظمائهم، وهم:

- هرقل، قيصر الروم وعظيمها.
- النجاشي ملك الحبشة، وهو الذي وليهم بعد أصحمة رحمه الله، سنة تسع.
- المقوقس، عظيم القبط ملك مصر.
- الحارث بن أبي شمر الغساني، ملك غسان. وغيرهم(٢).

والصحيح الثابت منها كتابه ﷺ لهرقل عظيم الروم، الذي رواه البخاري ومسلم في حديث أبي سفيان الطويل مع هرقل، وفيه: (ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلامٌ على من اتبع

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٧).

(٢) ختم الزيلعي رحمه الله كتابه «نصب الراية» بمسردٍ بنصوص «كتب النبي ﷺ إلى عظماء الأمم» (٤/ ٤١٩ - ٤٢٥).

الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. و ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٦][١].

وهذا الكتاب عمدة وأصل في دعوة أهل الكتاب، مضمونًا وأسلوبًا، وفيه من الفوائد ما يأتي:

١. أن من هديه ﷺ استعمال وسيلة الكتابة في تبليغ دين الله.

٢. مبادأة أهل الكتاب بالدعوة الصريحة المباشرة إلى الدخول في دين الإسلام.

٣. استعمال أسلوب الترغيب والإغراء بقوله: «تسلم»، وقوله: «يؤتك الله أجرك مرتين».

٤. استعمال أسلوب الترهيب والوعيد، كما في قوله: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»، قال الخطابي[٢] رحمه الله: (والمعنى أنك إن لم تُسلم، وأقمت على دينك، كان عليك إثم الزَّرَّاعين والأجراء الذين هم خَوَلٌ وأتباع لك)[٣].

---

[١] صحيح البخاري (١/ ٦)، (٣/ ١٣٩٦)، وراجع مبحث «موقف أهل الكتاب من الإسلام» في التمهيد.

[٢] حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، أبو سليمان، ولد سنة ٣١٩هـ. فقيه محدث، من أهل بست، توفي سنة ٣٨٨هـ، من تصانيفه: «معالم السنن» و«إصلاح غلط المحدثين» و«غريب الحديث» و«أعلام الحديث». انظر: الأعلام (٢/ ٢٧٣)، وفيات الأعيان (١/ ١٦٦)، إنباء الرواة (١/ ١٢٥)، خزانة الأدب (١/ ٢٨٢).

[٣] أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري. الخطابي، أبو سليمان، حمد بن محمد. تحقيق: الدكتور محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود. جامعة أم القرى. معهد البحوث العلمية. مركز إحياء التراث الإسلامي مكة المكرمة الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م). (١/ ١٣٨).

٥. استعمال أسلوب الخطاب الرفيع، الذي لا ينحط إلى دركات المداهنة، والمجاملات الكاذبة، والتملق المستهجن، ولا يتعالى إلى حدٍّ يورث النفرة والجفاء، كما يتضح من وصفه ﷺ لـ«هرقل» بـ«عظيم الروم»⁽¹⁾.

وهذا ملحظٌ مهم يجب أن يتنبه له الذين يتصدون لخطاب النصارى، فلا يخضعون بالقول، ويستخذون لأعداء الله، ويمنحونهم قيادهم، وينزعون هيبتهم بأنفسهم، كقول بعضهم: «إخواننا النصارى»، أو مخاطبة كبيرهم بـ«يا قداسة البابا». كما لا ينبغي لهم أن يقعوا في الجفاء والمخاشنة بترك التحية المناسبة للمقام، وعدم تنزيل الناس منازلهم، ومخاطبتهم بما يليق بمكانتهم عند قومهم، من غير أن يقع المتكلم في الكذب⁽²⁾.

٦. بيان معنى «كلمة سواء» بالتفسير النبوي القاطع لتأويلات الجاهلين، وتحريفات المبطلين، وأنها عين دين الإسلام، ليس غير؛ لا القدر المشترك الذي كان متفقًا عليه سلفًا بزعمهم، ولا بحسبانه حدًّا أدنى واتفاقًا صغيرًا، أو مجرد إطار خارجي لتحقيق تكافؤ طرفي الحوار، على حد تفسير أحدهم للآية بقوله: (لست ربًّا لي، ولست عبدًا لك، كلنا عبيد لربٍّ واحد)⁽³⁾.

فقد عين النبي ﷺ دعوته بوضوح فقال: (فإني أدعوك بدعاية الإسلام)، وفي رواية لمسلم: (بداعية الإسلام). وقال ابن حجر: (أي بالكلمة الداعية إلى الإسلام وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمَّدًا رسول الله)⁽⁴⁾.

---

(١) ينظر: أعلام الحديث (١/ ١٣٥ - ١٣٦).

(٢) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٠٨).

(٣) الإسلام والغرب مع الدكتور يوسف القرضاوي (١٦ - ١٧).

(٤) فتح الباري (١/ ٣٥).

وقد كان هذا الكتاب العظيم في زمن الهدنة التي أعقبت صلح الحديبية، فبعث به النبي ﷺ آخر سنة ست، وكان وصوله إلى هرقل في المحرم سنة سبع على ما حرره الحافظ ابن حجر(١). وقد روى الإمام أحمد رحمه الله ما يدل على أنه ﷺ كتب إلى هرقل كتابًا آخر في السنة التاسعة من الهجرة، في غزوة تبوك التي كانت موجهة إلى الروم. ففي حديث التنوخي(٢) الطويل: (قدم رسول الله ﷺ تبوك، فبعث دحية الكلبي إلى هرقل، فلما أن جاء كتاب رسول الله ﷺ، دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم بابًا، فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إلي يدعوني إلى ثلاث خصال: يدعوني إلى أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا، والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب. والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب، ليأخذن ما تحت قدمي، فهلم نتبعه على دينه، أو نعطيه مالنا على أرضنا، فنخروا نخرة رجلٍ واحد حتى خرجوا من برانسهم، إلخ)(٣).

فبين الكتابين النبويين لهرقل، سنتان ونصف، والأول صدر في حال سلمٍ، وموادعة، والثاني في حال غزوٍ وجهاد، ولم يدع النبي ﷺ الدعوة إلى الإسلام في أيٍ من الحالين(٤).

٤) استقبال وفودهم:

- (عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد، صاحبا نجران، إلى رسول الله ﷺ يريدن أن يلاعناه. قال فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًا فلاعنًا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ٣٥).

(٢) التنوخي: أحد قبيلة تنوخ، وكان رسول هرقل إلى النبي ﷺ.

(٣) المسند: (٣/ ٤٤١- ٤٤٢)، (٤/ ٧٤ - ٧٥).

(٤) ينظر: صحيح مسلم شرح النووي (١٢/ ١٠٧).

ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال: لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين. فاستشرف له أصحاب رسول الله، فقال: قم يا أبا عبيدة ابن الجراح. فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة)(١).

وقصة قدوم وفد نصارى نجران معلومة مشهورة في كتب التفسير والسنة والسير. وقد نزل صدر سورة آل عمران بشأن محاجتهم للنبي ﷺ. ويستفاد من هذه الوفادة ما يأتي:

١. أن من هديه ﷺ استقبال وفود أهل الكتاب، بغرض دعوتهم إلىٰ الإسلام أولًا، أو مفاوضتهم علىٰ صلحٍ ونحوه. وقد كان ﷺ يعرض الإسلام علىٰ وافد أهل الكتاب، حتىٰ ولو كان رسول قومه، كما قال للتنوخي رسول هرقل: (هل لك في الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم، قلت: إني رسول قوم، وعلىٰ دين قوم، ولا أرجع عنه حتىٰ أرجع إليهم، فضحك وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦](٢)، ودعا الجارود بن عمرو، أخا عبد القيس وكان نصرانيًّا، حين وفد إليه علىٰ رأس قومه، ورغبه في الإسلام، (فقال: يا محمد إني قد كنت علىٰ دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. أنا ضامن لك أن قد هداك الله إلىٰ ما هو خير منه)(٣)، ودعا عدي بن حاتم إلىٰ الإسلام وكان نصرانيًّا فأسلم(٤).

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٢٠).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣/ ٤٤٢) وسبق تخريجه.

(٣) سيرة النبي ﷺ (٤/ ٢٤٢ - ٢٤٣).

(٤) مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٥٧، ٣٧٨).

٢. أن في دين الإسلام بحمد الله سعة في معاملة وفود أهل الكتاب، ترفع الحرج، وتؤلف القلوب. فمن ذلك:

أ -تمكينهم من دخول مساجد المسلمين للحاجة.

ب - الإذن لهم بإقامة صلاتهم فيها، بمشهد من المسلمين. ففي رواية ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير أن وفد نجران (دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال النبي ﷺ: دعوهم). قال ابن القيم في فقه هذه القصة: (وفيها: تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفي مساجدهم أيضًا، إذا كان ذلك عارضًا، ولا يمكنون من اعتياد ذلك)(١). وقال: (وأما دخول الكفار مسجد النبي ﷺ فكان ذلك لما كان بالمسلمين حاجة إلىٰ ذلك... فكانت المصلحة في دخولهم إذ ذاك أعظم من المفسدة التي فيه... وأما الآن فلا مصلحة للمسلمين في دخولهم مساجدهم والجلوس فيها. فإن دعت إلىٰ ذلك مصلحة راجحة جاز دخولها بلا إذن، والله أعلم)(٢).

ج - تمكينهم من التعبير عن معتقداتهم، والمحاجة عنها، والمجادلة فيها دون ضغط أو ترهيب، مع أولي الأمر، وأصحاب الشأن، من العلماء الراسخين، وليس أمام العامة السالمين من سماع الشبهات، الباقين علىٰ الفطرة الأصلية، خلافًا لما ينادي به دعاة التقريب اليوم من «الحرية الدينية» لإفشاء ضلالاتهم.

د - استعمال أسلوب المجادلة والمحاجة مع أهل الكتاب، وإن طالت، لاستفراغ حججهم، ودحض شبهاتهم، واحتمال سماع الأذىٰ في هذا السبيل، حتىٰ

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٣٨).

(٢) أحكام أهل الذمة: (١/ ١٩١).

ولو كان طعنًا في القرآن. ففي الصحيح عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرؤون ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٨٢]، وموسىٰ قبل عيسىٰ بكذا وكذا. فلما قدمت علىٰ رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا السؤال الذي هو سؤال الطاعن في القرآن لما أورده أهل نجران على رسول رسول الله ﷺ ولم يجبهم عنه، أجاب عنه النبي ﷺ ولم يقُل لهم ليس لكم عندي إلا السيف، ولا قال: قد نقضتم العهد)(٢).

٥) دعوتهم حال الغزو والجهاد:

- عن سهل بن سعد رضي الله عنه في قصة فتح خيبر أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب، وقد أعطاه الراية: (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه. فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم)(٣). وفي رواية: (قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك، فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم، إلا بحقها. وحسابهم على الله)(٤).

فلا شك أن دعوة أهل الكتاب وغيرهم من المشركين في ظل بارقة السيوف مدعاة لأن يتبصروا في حالهم ومآلهم بعين الجد، بعد أن تنكسر عزتهم بالإثم، وتسقط عن قلوبهم وعقولهم حجب اللامبالاة والإعراض، فيكون للدعوة حينئذٍ وقعٌ مؤثر، فيحملهم الرغب أو الرهب على قبولها والإذعان لها.

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٦٨٥).

(٢) الجواب الصحيح (١/ ٢٢٦ - ٢٢٧).

(٣) متفق عليه. واللفظ لمسلم (٤/ ١٨٧٢).

(٤) متفق عليه. واللفظ لمسلم (٤/ ١٨٧٢).

- **رابعًا: عمل الأمة الإسلامية، وسبيل المؤمنين:**

المنهج الشرعي في مخاطبة أهل الكتاب مضمونًا وأسلوبًا ووسيلة سارت عليه الأمة الإسلامية على مر القرون، واختلاف الأحوال السياسية، من ضعفٍ وقوة، وسلم وحرب، وقلةٍ وكثرة، ملتزمة بما جاء به القرآن، وترجمته السنة والسيرة النبوية اعتقادًا وعملًا، أو اعتقادًا حين لا تحصل القدرة. ولم يخامرها شك قط في استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، واستحداث عقائد جديدة، وابتداع أساليب شاذة، وارتكاب وسائل ليست من سبيل المؤمنين، كالدعوة إلى التقريب بين الأديان.

والتاريخ العلمي والحضاري للأمة الإسلامية مليء بالأمثلة الناطقة على لزوم هذا المنهج الشرعي، في حقل الدعوة والتصنيف، وفي التطبيق الميداني. وما هذه الملايين من البشر الذين يعتنقون الإسلام اليوم، وينتشرون في جميع بقاع المعمورة من مختلف الأعراق والأجناس، إلا ثمرة ذلك المنهج الذي أخرج أسلافهم من الظلمات إلى النور، وأسبغ عليهم وعلى ذراريهم النعمة، وأتمها لهم. ولو سلك المسلمون الأولون -وحاشاهم- مسلك التقريب بين الأديان، والتلفيق بين العقائد لانمحت رسوم الإسلام، وطوي ذكره.

وسنختار مثالًا من تاريخ الإسلام الوسيط يكشف عن إطباق الأمة الإسلامية على سلوك منهج الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

شيخ الإسلام ابن تيمية مع سرجوان ملك قبرص:

كتب شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله، كتابًا جليلًا فخمًا إلى أحد ملوك النصارى في زمانه، وهو «سرجوان» ملك قبرص، يدعوه

ومن معه إلى الإسلام، ويبين محاسنه، ويحضه على فكاك أسرى المسلمين في بلاده، وعدم العدوان. والكتاب مثالٌ نادر لمنهج العلماء الربانيين الذين يقبسون من نور التنزيل، ويستضيئون من مشكاة النبوة، جمع فيه رحمه الله الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، واستعمل فيه مختلف وسائل التأثير الإيجابي من الأدب، والتلطف، وإظهار الشفقة، ومحبة الخير، في غير ما ضعة، مع البيان الشافي، والجهر بالحق، وهتك أستار الشرك الوثني والكتابي دون مداهنة، والترغيب والترهيب في أمر الإيمان، وفي شأن أسرى المسلمين.

فينبغي لعلماء المسلمين، والناطقين باسمه في المحافل والمنتديات أن ينسجوا على منواله، ويتشربوا منهجه، ويترفعوا عن الممارسات البدعية الدنية الحادثة.

ونبرز فيما يأتي مقتطفاتٍ من هذا الكتاب تنبئ عما سواها مما تضمنه من منهج مخاطبة أهل الكتاب:

١. أسلوب التحية وتأليف القلوب:

- (بسم الله الرحمن الرحيم. من أحمد بن تيمية إلى سرجوان، عظيم أهل ملته، ومن تحوط به عنايته، من رؤساء الدين، وعظماء القسيسين، والرهبان، والأمراء، والكتاب، وأتباعهم. سلام على من اتبع الهدى)(١).

- (وإنما نبه الداعي لعظيم ملته وأهله، لما بلغني ما عنده من الديانة، والفضل، ومحبة العلم، وطلب المذاكرة. ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي شاكرًا من الملك: من رفقه ولطفه وإقباله عليه، وشاكرًا من القسيسين ونحوهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٠١). وقارن بكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل.

ونحن قومٌ نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة؛ فإن أعظم ما عُبد الله به نصيحة خلقه)(١).

- (ولما كان أمر الدنيا خسيسًا، رأيت أن أعظم ما يهدى لعظيم قومه، المفاتحة في العلم والدين، بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله... وإن رأيت من الملك رغبة في العلم والخير كاتبته، وجاوبته عن مسائل يسألها. وقد كان خطر لي أن أجيء إلى قبرص لمصالح في الدين والدنيا. لكن إذا رأيت من الملك ما فيه رضا الله ورسوله عاملته بما يقتضيه عمله)(٢).

- (وأبو العباس، حامل هذا الكتاب، قد بث محاسن الملك وإخوته عندنا، واستعطف قلوبنا إليه، فلذلك كاتبت الملك لما بلغتني رغبته في الخير، وميله إلى العلم والدين. وأنا من نوَّاب المسيح وسائر الأنبياء، في مناصحة الملك وأصحابه، وطلب الخير لهم؛ فإن أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس، يريدون للخلق خير الدنيا والآخرة، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويدعونهم إلى الله، ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم)(٣).

- (والله المسؤول أن يعين الملك على مصلحته التي هي عند الله المصلحة، وأن يخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله، ويختم له بخاتمة خير، والحمد لله رب العالمين. وصلواته على أنبيائه المرسلين. ولا سيما محمد خاتم النبيين والمرسلين، والسلام عليهم أجمعين)(٤).

---

(١) المرجع السابق (٢٨/ ٦١٥).
(٢) المرجع السابق (٢٨/ ٦١٦).
(٣) المرجع السابق (٢٨/ ٦٢٨).
(٤) المرجع السابق (٢٨/ ٦٣٠).

والمتأمل في هذه العبارات المسبوكة من العلم والحكمة، يدرك أن في دين الإسلام سعة ورحابة ومرونة، يتمكن بها أهله من مخاطبة المخالف الذي يرجى إيمانه ودعوته، بأدب ولطف وشفقة، دون الوقوع فيما حرم الله من المودة، والمداهنة، والخروج عن سمت الإيمان.

٢. الدعوة إلى توحيد الله، والإيمان برسوله محمد ﷺ:

- (إن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام، وقبل نوح عليه السلام على التوحيد والإخلاص، كما كان عليه أبوهم آدم، أبو البشر عليه السلام، حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأصنام...

فابتعث الله نبيه نوحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه... فبعث الله تعالى إمام الحنفاء، وأساس الملة الخالصة، والكلمة الباقية: إبراهيم خليل الرحمن، فدعا الخلق من الشرك إلى الإخلاص...

ثم بعث الله المسيح ابن مريم رسولًا قد خلت من قبله الرسل... ودعا إلى الله وإلى عبادته، متبعًا سنة إخوانه المرسلين، مصدقًا لمن قبله، ومبشرًا بمن يأتي بعده...

فلما اختلف الأحزاب من بينهم، هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فبعث النبي الذي بشر به المسيح، ومن قبله من الأنبياء، داعيًا إلى ملة إبراهيم، ودين المرسلين قبله وبعده، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله لله... وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل فقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ

بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤](١).

٣. قول الحق في عيسى ابن مريم عليه السلام، وبيان ضلال النصارى:

- (فتفرق الناس في المسيح عليه السلام، ومن اتبعه من الحواريين، ثلاثة أحزاب.

- قومٌ كذبوه وكفروا به، وزعموا أنه ابن بغي، ورموا أمه بالفرية، ونسبوه إلى يوسف النجار...

- وقوم غلوا فيه، وزعموا أنه الله، أو ابن الله، وأن اللاهوت تدرع الناسوت، وأن رب العالمين نزل، وأنزل ابنه ليصلب ويقتل، فداءً لخطيئة آدم عليه السلام. وجعلوا الإله الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، قد ولد، واتخذ ولدًا...

وتفرقوا في التثليث والاتحاد تفرقًا، وتشتتوا تشتتًا، لا يقر به عاقل، ولم يجئ نقل إلا كلمات متشابهات في الإنجيل وما قبله من الكتب، قد بينتها كلمات محكمات في الإنجيل وما قبله، كلها تنطق بعبودية المسيح، وعبادته لله وحده ودعائه وتضرعه)(٢).

- (فأرباب التثليث في الوحدانية، والاتحاد في الرسالة، قد دخل في أصل دينهم من الفساد ما هو بين بفطرة الله التي فطر الناس عليها، وبكتب الله التي أنزلها.

---

(١) المرجع السابق (٢٨/ ٦٠٣، ٦١٣).

(٢) المرجع السابق (٢٨/ ٦٠٧ - ٦٠٨).

ولهذا كان عامة رؤسائهم من القسيسين والرهبان، وما يدخل فيهم من البطارقة والمطارنة والأساقفة، إذا صار الرجل منهم فاضلًا مميزًا، فإنه ينحل عن دينه، ويصير منافقًا لملوك أهل دينه، وعامتهم رضي بالرياسة عليهم، وبما يناله من الحظوظ... وأما الرهبان فأحدثوا من أنواع المنكرات والحيل بالعامة، ما يظهر لكل عاقل، حتى صنف الفضلاء في حيل الرهبان كتبًا. ثم ذكر أمثلة.

ثم إن هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التي يعبدون الله بها، فناقضوا الأولين من اليهود فيها؛ مع أنهم يأمرون بالتمسك بالتوراة، إلا ما نسخه المسيح... وذكر أمثلة)⁽¹⁾.

- (فمن كان لا يؤمن بالله، بل يسب الله، ويقول إنه ثالث ثلاثة، وأنه صلب. ولا يؤمن برسله... ويجحد ما جاء به محمد خاتم المرسلين، ويحرف نصوص التوراة والإنجيل، فإن في الأناجيل الأربعة من التناقض والاختلاف بين ما أمر الله به وأوجبه، ما فيها، ولا يدين دين الحق... فمن هذا حاله، فقد أمر الله ورسوله بجهاده، حتى يدخل في دين الله، أو يؤدي الجزية. وهذا دين محمد ﷺ)⁽²⁾.

هذا منطق العلماء الربانيين، الموقعين عن رب العالمين، لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يروغون روغان الثعالب مداراة للمغضوب عليهم أو الضالين، فيكتمون ما أخذ الله عليهم العهد والميثاق ببيانه، ويغشون عباد الله.

٤. الترغيب والموعظة:

- (وقد آمن جماعات من أهل الكتاب قديمًا وحديثًا، وهاجروا إلى الله ورسوله...)⁽³⁾.

---

(١) المرجع السابق (٢٨/ ٦٠٨ - ٦١٠).

(٢) المرجع السابق (٢٨/ ٦٢١).

(٣) المرجع السابق (٢٨/ ٦١٢).

- (والإسلام في عزٍ متزايد، وخير مترافد، فإن النبي ﷺ قد قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها»(١). وهذا الدين في إقبال وتجديد. وأنا ناصح للملك وأصحابه، والله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة والإنجيل والفرقان)(٢).

- ثم ذكر وفد نجران، وكتاب النبي ﷺ إلى قيصر، وإسلام النجاشي.

- (وأنا ما غرضي الساعة إلا مخاطبتكم بالتي هي أحسن، والمعاونة على النظر في العلم، واتباع الحق، وفعل ما يجب، فإن كان عند الملك من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم وحقائق الأديان. ولا يرضى أن يكون من هؤلاء النصارى المقلدين، الذين لا يسمعون ولا يعقلون؛ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلًا. وأصل ذلك أن تستعين بالله، وتسأله الهداية، وتقول: اللهم أرني الحق حقًّا، وأعنِّي على اتباعه، وأرني الباطل باطلًا، وأعني على اجتنابه، ولا تجعله مشتبهًا عليَّ فأتبع الهوى فأضل)(٣)، وذكر له دعوات أخر.

٥- الترهيب والزجر عن العدوان على المسلمين:

- (فيا أيها الملك: كيف تستحل سفك الدماء، وسبي الحريم، وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسوله. ثم أما يعلم الملك أن بديارنا من النصارى، أهل الذمة والأمان، ما لا يحصي عددهم إلا الله، ومعاملتنا فيهم معروفة. فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا يرضى بها ذو مروءة، ولا ذو دين؟! لست أقول عن الملك وأهل بيته ولا إخوته، فإن أبا العباس شاكر للملك ولأهل بيته

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٤٨٠)، وصححه جمع من الأئمة منهم: ابن حجر، والسيوطي، والعراقي، والألباني. انظر في تخريجه وفقهه مجلة البيان، الأعداد (١ ١٣).

(٢) مجموع الفتاوى(٢٨/ ٦١٩).

(٣) المرجع السابق (٢٨/ ٦١٩).

كثيرًا، معترفًا بما فعلوه معه من الخير، وإنما أقول عن عموم الرعية. أليس الأسرى في رعية الملك؟ أليست عهود المسيح وسائر الأنبياء توصي بالبر والإحسان، فأين ذلك؟ ثم إن كثيرًا منهم أخذوا غدرًا، والغدر حرام في جميع الملل والشرائع والسياسات، فكيف تستحلون أن تستولوا على من أخذ غدرًا؟! أفتأمنون مع هذا أن يقابلكم المسلمون ببعض هذا، وتكونون مغدورين؟! والله ناصرهم ومعينهم؛ لا سيما في هذه الأوقات، والأمة قد امتدت للجهاد، واستعدت للجلاد. ورغب الصالحون وأولياء الرحمن في طاعته. وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذوو بأس شديد، وقد ظهر بعض أثرهم، وهم في ازدياد.

ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية، الذي يغتالون الملوك في فرشها، وعلى أفراسها، من قد بلغ الملك خبرهم، قديمًا وحديثًا. وفيهم الصالحون الذين لا يرد الله دعواتهم، ولا يخيب طلباتهم، الذين يغضب الرب لغضبهم، ويرضى لرضاهم)(١).

(وأما ما عندنا في أمر النصارى، وما يفعل الله بهم من إدالة المسلمين عليهم، وتسليطه عليهم: فهذا مما لا أخبر به، الملك؛ لئلا يضيق صدره. ولكن الذي أنصحه به، أن كل من أسلف إلى المسلمين خيرًا، ومال إليهم، كانت عاقبته معهم حسنة، بحسب ما فعله من الخير، فإن الله يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، والذي أختم به الكتاب الوصية بالشيخ أبي العباس، وبغيره من الأسرى، والمساعدة لهم، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن، والامتناع عن تغيير دين واحدٍ منهم. وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله)(٢).

---

(١) المرجع السابق (٢٨/ ٦٢٢ - ٦٢٣).

(٢) المرجع السابق (٢٨/ ٦٢٩).

هذا منهج إمامٌ ربانيٌّ، وعالم أمة، في مخاطبة أهل الكتاب، مقتفيًا آثار نبي هذه الأمة ﷺ في دعوة الناس، كل الناس، إلى الخير، ودفع غائلة الشر عن المسلمين.

ونشير أيضًا إلى مثال تاريخي يكثر دعاة التقارب من النصارى العرب الاستشهاد به ويردد صداهم بغباء دعاة التقريب من المسلمين **وهو الحوار المزعوم بين الجاثليق «طيموثاوس» من الكنيسة الشرقية، والخليفة العباسي «المهدي»**، الذي تم بزعمهم سنة ٧٨١م. وفيه يظهر الخليفة المهدي بصورة السائل الساذج، سطحي العلم، قصير النَّفس، سهل الانقياد للجاثليق، الواثق من معتقده، الثابت في موقفه، الذي لا يجامل ولا يداهن في إجاباته لمليكه، حتى حين يسأله عن نبيه محمد ﷺ يكتفي بالقول إنه «سلك في طريق الأنبياء»(١).

وقد حاول الأب سمير خليل(٢) توثيق النص، ضمن خطته الساعية لإبراز دور النصارى العرب في الحضارة الإسلامية، وقربهم من الخلفاء، والنفخ في صورتهم وتضخيم أثرهم. وحاشا خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، المهدي، الذي قال فيه الذهبي رحمه الله: (كان... قصَّابًا في الزنادقة، باحثًا عنهم)(٣)، أن يُصغي لنصراني ضالٍّ، فضلًا عن أن يسائله مساءلة التلميذ الخفيض، ويقبل منه إنكار نبوة محمد ﷺ.

---

(١) انظر مقالة: (التراث العربي المسيحي القديم والإسلام) للأب سمير خليل. في كتاب: المسيحية والإسلام مرايا متقابلة (٨٧، ٩٠، ٩٣، ١٠٨).

(٢) سمير خليل جريس. ولد في القاهرة عام ١٩٣٨م. تخصص بدراسة التراث العربي النصراني القديم، أصدر بضعة مجلدات بعنوان «التراث العربي المسيحي». وقد شغل مناصب دينية وعلمية لدى الفاتيكان: أستاذ اللاهوت العربي المسيحي في المعهد البابوي للدراسات الشرقية PIO. أستاذ الإسلاميات في المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية PISAI. مستشار الأمانة الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين - المجمع البابوي للحوار بين الأديان - لاحقًا - عن وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (١٠٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٠١).

الخاتمة

- **أولًا: النتائج:**

١. دين الله واحدٌ من لدن آدم إلىٰ محمدٍ ﷺ، وهو الإسلام بمعناه العام، الذي هو الاستسلام لله بالطاعة، وإفراده بالعبادة، والخلوص من الشرك. وهذا هو المعنىٰ الوحيد الصحيح لـ«وحدة الأديان». أما الشرائع الإلهية فمتعددة.

٢. أن أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ قد رغبوا عن ملة إبراهيم، وفارقوا الدين الحق الذي جاءت به أنبياؤهم، وحرفوا كتب الله المنزلة عليهم؛ بالزيادة والنقصان، والتحريف اللفظي والمعنوي.

٣. أن الإسلام بمعناه الخاص، هو ما بعث الله به محمدًا ﷺ من الهدىٰ ودين الحق، فنسخ الله بالإسلام جميع الأديان السابقة، وختم بنبيه النبوات، وأرسله للناس كافة، فلا يقبل الله دينًا سواه، ولا يتعبد لله بعبادةٍ سوىٰ ما شرع علىٰ لسان نبيه الخاتم ﷺ.

٤. أن من آمن من أهل الكتاب بمحمدٍ ﷺ واتبعه، آتاه الله أجره مرتين، ومن أصر علىٰ دينه، فهو كافر مشرك ضال فاسق، محكوم عليه باللعن والغضب، والخلود بالنار. ولا يحل لأهل الإسلام موادة أهل الكتاب واتخاذهم بطانةً من دون المؤمنين، ولا التشبه بهم في شيءٍ مما يختصون به، من العقائد والعبادات والعادات. ويتعين علىٰ أهل الإسلام، عند القدرة جعل الدين كله لله بدعوتهم إلىٰ الإسلام، أو بذلهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، أو قتالهم، إظهارًا لدين الله، وتمييزًا لأوليائه من أعدائه. ومع ذلك فلا يجوز إكراههم علىٰ اعتناق الإسلام، وتحرم أذية ذميهم

ومعاهدهم ومستأمنهم. ولا يجوز ظلمهم وخفر ذمتهم، ويجب الوفاء بعهدهم وعقدهم، واستعمال العدل معهم. ويشرع الإحسان إليهم بالقول والعمل؛ من هدية وعطية وزيارة وعيادة ونحوها، لا سيما إذا قارنها نية تأليف قلوبهم علىٰ الإسلام. وسر ذلك: التفريق بين قاعدة حفظ الدين وتميز المسلمين، المقتضية تحريم موالاتهم وموادتهم والتشبه بهم، وقاعدة العدل والإحسان، المقتضية جواز برهم، وحفظ حقوقهم، ومنع ظلمهم. ومن لم يدرك الفرق وقع في الغلط من إحدىٰ الجهتين.

٥. اتسم تاريخ العلاقات الإسلامية الكتابية، وخاصة مع النصارىٰ، لكون الملك في أيديهم، بالعداء، والجهاد المستمر، الذي كان فتحًا مبينًا في القرون الفاضلة الأولىٰ، وسجالًا في العصور الوسيطة، وانحسارًا في العصور الحديثة، دون أن تشهد علىٰ الإطلاق أي لونٍ من «الوفاق الديني»، أو «التقارب العقدي».

٦. خلا التاريخ اليهودي من وجود بذور لفكرة التقريب بين الأديان، لما طبع عليه اليهود من الكبر وازدراء الآخرين، واعتقادهم أنهم شعب الله المختار. ولكنهم دعوا إلىٰ هذه الفكرة من خلال الحركة الماسونية، المتفرعة من الشجرة اليهودية الخبيثة، بهدف حلحلة الروابط الدينية الأخرىٰ، وهدم الأديان سوىٰ اليهودية.

٧. خرجت دعوة التقريب بين الأديان من حيز الكمون إلىٰ الاستعلان، ومن نطاق الفكرة إلىٰ التنفيذ، في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري، من خلال مؤتمراتٍ إسلامية نصرانية متفرقة.

٨. تتدرج حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث عبر ثلاثة مستويات:

أ - التقريب دون التوفيق أو التلفيق، بأن يبقى لكل دين خصائصه العقدية والتعبدية المميزة، لكن مع اعتقاد إيمان الآخرين، واحترام عقائدهم وشعائرهم، والدعوة للتعرف عليهم، وإبراز أوجه التشابه والاتفاق، وإقصاء أوجه الاختلاف والافتراق، وتحاشي البحث في مسائل الاعتقاد، والاعتذار عن أخطاء الماضي، والتعاون على تحقيق القيم المشتركة، وإشاعة المحبة والمودة والمجاملات الدينية. وهذا الاتجاه هو السائد، وتمثله قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني.

ب - وحدة الأديان: باعتقاد صواب جميع صور التدين، وانتمائها إلى حقيقة واحدة، وإن تنوعت مظاهر العبادة.

ج - توحيد الأديان: بجعل الدين واحدًا، إما بالالتقاطية التي تستمد عناصر الدين الجديد من مصادر شتى، كما هو الحال في «المونية»، أو بالسعي لاجتذاب الآخرين نحو عقيدة معينة لأحد الأديان، كمحاولات جماعة «كريسلام»، الرامية إلى التوحد حول «تأليه المسيح».

ولا ريب أن الصورة الوحيدة الصحيحة لتوحيد الأديان، أن يتحد أتباع جميع الأديان والملل والنحل على الدين الحق الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، دين الإسلام، الذي لا يقبل الله دينًا سواه.

٩. مصطلح «الحوار»، قد يراد به (حوار التقريب) بين الأديان، وقد يراد به (حوار التعايش) بين أتباع الأديان، لتحقيق مصالح مشتركة من أمور المعاش. فهو بالمعنى الأول مذموم مطلقًا، وبالمعنى الثاني يخضع للسياسة الشرعية للأمة.

١٠. نشأت دعوة التقريب بين الأديان في العصر الحديث، وترعرعت في حجر النصارىٰ الغربيين، علىٰ اختلاف طوائفهم. وانطلقت المبادرات الأولىٰ من المرجعيتين الكبريين لنصارىٰ العالم: الكنيسة الكاثوليكية، ومجلس الكنائس العالمي، وذلك لبواعث شتىٰ: تنصيرية، وعالمية، وسياسية، ولصد المد الإسلامي أمام العالم المفتوح في أعقاب الحربين العالميتين. وأسس كل منهما دائرة مستقلةً للحوار مع غير النصارىٰ.

ويمكن تمييز مراحل ثلاث في موقف النصارى من حوار التقريب:

أ- مرحلة تجربة الحوار: وقد سادت منذ نهاية المجمع الفاتيكاني الثاني حتى أواخر السبعينيات الميلادية وامتازت بعقد العديد من المؤتمرات العالمية والإقليمية، وإعداد الدراسات.

ب- مرحلة تقويم الحوار: وقد امتدت من أواخر السبعينيات إلى أواسط الثمانينيات الميلادية وانحسرت فيها مؤتمرات الحوار.

ج- مرحلة البشارة من خلال الحوار: واستغلال الحوار للأغراض التنصيرية.

١١. تأخرت دعوة التقريب بين الأديان لدىٰ النصارىٰ العرب إلىٰ ما بعد انتهاء الحرب اللبنانية، باستثناء شواهد قليلة، وظلت مفتقَدة بالنسبة لأكبر طائفة نصرانية في البلاد العربية، القبط. وركزت محاولات النصارىٰ العرب، لبواعث أمنية واجتماعية، علىٰ قضيتين: هما:

- محاولة إثبات أن النصارى المذمومين في القرآن، فرقة منقرضة، وأن أحكام الكفر لا تطالهم، ومحاولة فلسفة عقيدة التثليث والبنوة بما يرفع عنهم وصمتها.

- حوار التعايش، وتحقيق مكاسب اجتماعية، وحريات دينية.

١٢. نشأت محاولات محلية واسعة، في العديد من مناطق العالم التي تقطنها جماعات دينية متنوعة، للتقريب بينها إما لتخفيف حدة التوتر والعنف الطائفي، كما في لبنان، والسودان، والفلبين، أو لتحقيق مكاسب تنصيرية كما في شبه القارة الهندية وأرخبيل الملايو (ماليزيا وإندونيسيا)، أو لاستيعاب المهاجرين الجدد من المسلمين، ودمجهم في المجتمعات النصرانية المضيفة، كما في أوروبا وأمريكا.

١٣. استجاب لدعوة التقريب بين الأديان نفر من المسلمين ذوي الثقافة العصرانية، وقد أعوزهم ذلك إلىٰ اعتساف الأدلة، وتأويل الثوابت العقدية، وليِّ أعناق النصوص، إما لبواعث انهزامية أمام الاتجاهات الفكرية الحديثة، أو لبواعث قومية وطنية مراعاة للنصارىٰ العرب، أو بدعوىٰ مواجهة الإلحاد، أو حتىٰ لمجابهة إسرائيل.

١٤. برزت محاولاتٌ فردية في العصر الحديث، لتعزيز فكرة التقريب بين الأديان والدعوة إليها، جمعت بين الجانب التنظيري، والنشاط العملي، منها علىٰ سبيل المثال:

محاولات المفكر الفرنسي روجيه جارودي، الذي زعم الانتساب إلى الإسلام، ثم نادى بتاريخية الشريعة الإسلامية، وما تقوم عليه من آياتٍ قرآنية، وأحاديث نبوية، وهاجم علماء الإسلام، ودعا المسلمين إلى الانخراط أولًا: في «الإبراهيمية» مع اليهود والنصارى، ثم إلى «الإنسانية» ثانيًا: مع سائر ملل الملاحدة والوثنيين، وابتدع قراءة شاذة للتاريخ الإسلامي وتقويم أعلامه، ومشروعًا مستقبليًّا للتحلل من الإسلام عقيدة وشريعة. وبذل في سبيل ذلك جهودًا فكرية وعملية.

١٥. دلت النصوص الشرعية القاطعة علىٰ بطلان «دعوة التقريب بين الأديان»، لأن دين الله واحد هو الإسلام الذي ابتعث الله به محمدًا ﷺ، وما سواه إما باطلٌ أو منسوخ. فمن رام التقريب بينه وبين غيره، فقد رغب عن ملة إبراهيم، وابتغىٰ دينًا غير دين الإسلام، وطعن في صدق محمدٍ ﷺ وعموم رسالته، وأنكر هيمنة القرآن علىٰ الكتب السابقة، ونسخه لأحكامها، وخالف إجماع المسلمين، واتبع غير سبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين، ووالىٰ أعداء الدين، واتبع أهواءهم، وسقط في الفتنة عن بعض ما أنزل الله، وداهن في دين الله، ولبَّس الحق بالباطل، ووقع في الصد عن سبيل الله. وكلها لوازم لا محيد لدعاة التقريب عنها. وفسادها معلومٌ من الدين بالضرورة. وفساد اللازم يدل علىٰ فساد الملزوم، وبطلان الفرع يعود علىٰ الأصل بالإبطال.

١٦. دل الواقع العملي المشاهد، خلال فورة دعوة التقريب بين الأديان في العقود الأربعة المنصرمة علىٰ ظهور بعض النتائج والآثار الملموسة، الناجمة عن تجربة التقريب، كالتسوية بين كلام الله القرآن، والكتب المحرفة ووصفها جميعًا بـ«مقدسة» و«سماوية» و«كلام الله». وكذلك التسوية بين المساجد، ومعابد اليهود والنصارىٰ والمشركين، ومشاركتهم في صلواتهم، واحتفالاتهم الدينية والفكرية، وإقامة المؤسسات البحثية المشتركة بين الأديان، بغرض تنقية المناهج الدراسية، والوسائل الإعلامية من النقد المتبادل، ورفع الأحكام العقدية والشرعية في شأن أهل الكتاب، واستلال اعترافات صريحة وضمنية من نظرائهم المسلمين علىٰ صحة دينهم وكتبهم، وإعادة عرض الإسلام بصورة مشوهة خداج،

كالتصوف الباطني. ومع ذلك كله، لم يحد النصارىٰ قيد أنملة عن معتقداتهم، فلم ينتهوا عن قولهم «ثلاثة»، ولا عن غلوهم في الدين، وأصروا علىٰ إنكار نبوة محمدٍ ﷺ، وعلىٰ المضي في تضليل الخلق بما يسمونه «التبشير»، مستغلين الفاقة المعيشية، والصحية، والأمنية، لكثير من شعوب العالم الثالث وغالبيتهم مسلمون ولتحقيق مكاسب جديدة، ومواطئ أقدام لمنصريهم، وإقامة كنائسهم، تحت شعار التقارب والحوار والتسامح. وفي الوقت ذاته لا يكفون عن موالاة بعضهم بعضًا وموالاة اليهود والمشركين علىٰ الظلم والعدوان ضد المسلمين، وإحياء مطامعهم القديمة في القدس. وكل هذه الآثار والنتائج الواقعية، ثمار فجة لدعوة التقريب، شواهدها ماثلة لا يمكن إنكارها.

١٧. (إن الدعوة إلىٰ «وحدة الأديان» إن صدرت من مسلم فهي تعد ردة صريحة عن دين الإسلام، لأنها تصطدم مع أصول الاعتقاد، فترضىٰ بالكفر بالله عز وجل، وتبطل صدق القرآن، ونسخه لجميع ما قبله من الكتب. وتبطل نسخ الإسلام لجميع ما قبله من الشرائع والأديان. وبناءً علىٰ ذلك فهي فكرة مرفوضة شرعًا، محرمةٌ قطعًا، بجميع أدلة التشريع في الإسلام، من قرآنٍ وسنةٍ وإجماع... وتأسيسًا علىٰ ما تقدم: فإنه لا يجوز لمسلمٍ يؤمن بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا، الدعوة إلىٰ هذه الفكرة الآثمة، والتشجيع عليها وتسليكها بين المسلمين، فضلًا عن الاستجابة لها، والدخول في مؤتمراتها وندواتها، والانتماء إلىٰ محافلها)(١).

---

(١) فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية رقم (١٩٤٠٢) في ٢٥/ ١/ ١٤١٨هـ انظر: النص الكامل في قسم الملاحق رقم (١).

١٨. إن المنهج الشرعي في مخاطبة أهل الكتاب هو دعوتهم إلىٰ سبيل الله المتضمن:

أ- تحقيق توحيد العبادة، ونبذ الشرك بجميع صوره. وهذا هو المراد بـ: «كلمة سواء».

ب- ترك الغلو في الدين، والقول على الله بغير الحق، من التثليث، وتأليه المسيح، ودعوى بنوة المسيح وعزير لله تعالى، وتعظيم الصور والتماثيل...

ج- الإيمان بنبوة محمد ﷺ واتباعه.

د- الإيمان بالقرآن، ونسخه لما سبقه من الكتب.

أما أسلوب هذه الدعوة فيقوم على ثلاثة أوصاف: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما جاءت مبينة في القرآن، وفي هدي رسول الله ﷺ.

وأما وسائل ذلك فأشرفها الوسائل النبوية التي دلت عليها سيرته العطرة، كغشيانهم في محافلهم لدعوتهم مباشرة إلى الإسلام، واستدعائهم إلى دار الإسلام لهذا الغرض، ومكاتبة زعمائهم الدينيين وغيرهم، واستقبال وفودهم استقبالًا حسنًا لدعوتهم ومحاجتهم، وجهادهم بالسيف حتى يقبلوا الإسلام، أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

وفي عمل الأمة الإسلامية عبر القرون، وطريقة السلف الصالح، ترجمة لهذه المقاصد الإيمانية، والوسائل الشرعية، وبيان لسبيل المؤمنين، والصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين.

- **ثانيًا: التوصيات:**

ليس من لازم النتائج السابقة، القاضية ببطلان دعوة التقريب بين الأديان، منع اقتراب المسلمين من غيرهم، وقطع خطوط التواصل مع مختلف أمم الأرض، وانكماشهم وتقوقعهم، بل إبطال هذا المسلك البدعي المتشابه، والعودة إلى المنهج الشرعي المحكم، الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والأصل في الأمة الإسلامية، كما دلت الآية السابقة، وغيرها من النصوص الشرعية، وكما نطق بذلك التاريخ العملي لحركة الدعوة والجهاد في سبيل الله، أن تأخذ بزمام المبادرة، وتبادئ الناس بمشروعها الإيماني الرباني في إقامة بناء الدنيا على قواعد الدين، وتعبيد الناس لرب العالمين، وتحريرهم من رق الهوى وعبودية الشياطين. وحيث قد آلت حال الأمة في العصور الأخيرة إلى ضربٍ من التخلف والضعف والتبعية لغير المسلمين، في العديد من مناحي الحياة، واستلمت دفة التوجيه والتأثير والمبادرة تيارات الضلال العقدي والمسلكي، تغرق البشرية بأمواج الشبهات والشهوات، كان لا بد لأهل الإسلام، وحملة الدين من العمل على صعيدين:

- أحدهما: مواجهة هذه التيارات، ودفعها بالنقد الرصين البناء، المؤسس على الأصول العقدية الصحيحة، وكشف عوارها، وبيان خطرها على مسيرة الأمة.

- والثاني: الاشتغال بالبناء الذاتي، والإعداد الصحيح لجميع مناحي القوة المستطاعة، وأعظمها القوة الإيمانية، التي تستدعي وتقتضي بقية المناحي.

وحين هجمت «دعوة التقريب بين الأديان» على الأمة الإسلامية في حملتها العنيفة في العقود الأربعة المنصرمة، اضطربت مواقف، وتزلزلت قلوب، وهاجت أقلام، واهتزت منابر، بما يُعرف وما لا يعرف. وهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، وثبتهم بالقول الثابت، فلا يمكن القول بحمد الله أن الأمة بمجموعها، ولا بأكثرها، قد رضيت بهذه الدعوة واطمأنت إليها، بل السواد الأعظم باقون على الفطرة القويمة، في النفرة من دعاوى التقريب واستهجانها. فهذه الأمة أمة مهدية، منصورة، مرحومة، حرية بكل خير، قريبةٌ من كل رشد، لا تجتمع على ضلالة.

وعلى أساس هذه الدراسة النقدية لدعوة التقريب بين الأديان في ضوء العقيدة الإسلامية يتقدم المؤلف بهذه التوصيات:

١ . عقد المؤتمرات العالمية والإقليمية والمحلية للدعوة إلىٰ كلمة سواء:

- امتثالًا لأمر الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

- وتأسيًا بهديه ﷺ في مخاطبة أهل الكتاب مشافهةً؛ بالجدال والمحاجة والمناظرة، ومكاتبةً لعظماء أهل الملل.

- واستغلالًا للفرصة النادرة، والإمكانات المتاحة في كثيرٍ من الدول الغربية، التي تسودها أنظمة ديموقراطية، تسمح بحرية التعبير عن الرأي.

وقد جاء في توصيات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الثامنة عشرة المنعقدة عام ١٣٩٦هـ، البند الثامن عشر، تحت عنوان: «المؤتمر الإسلامي»، ما يأتي: (يوصي المجلس أن تقوم الرابطة بعقد مؤتمر يسمى «المؤتمر الإسلامي»، الغرض منه دعوة غير المسلمين إلى كلمة سواء بيننا وبينهم بالمجادلة والموعظة الحسنة. على أن تفتح لهم الأبواب لمعرفة الإسلام، وتدعى لحضور هذا المؤتمر الأديان الأخرى)(١).

كما أن الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي قد اقترحت في مجال «الحوار بين المسلمين وأتباع الأديان الأخرى» ما يأتي:

(١- إنشاء هيئة خاصة تضم العلماء المتخصصين في الحوار مع النصارى وغيرهم من الأديان الأخرى.

٢- الإكثار من عقد ندوات إسلامية، يدعى إليها هؤلاء النصارى واليهود، ويكون ذلك بمبادرة من جهاتٍ إسلامية معروفة)(٢).

إن الأخذ بهذه التوصيات والمقترحات، كفيل بإذن الله أن يقدم التعريف الصحيح، والبلاغ المبين، بالإسلام وعقائده وشرائعه ويمكن التوسل في سبيل إيصال الدعوة إلى الناس كافة بجميع وسائل الإعلام والتبليغ. ومن صور ذلك:

- استئجار بعض القنوات التلفزيونية العالمية والمحلية، للتعريف بالإسلام ومحاسنه.

- المشاركة في المناظرات التلفزيونية من قبل الأكفاء المؤهلين.

---

(١) محضر قرارات وتوصيات الدورة الثامنة عشر. بند (١٨).

(٢) من تقرير صادر عن الأمانة العامة للرابطة: (٢) الحوار بين المسلمين وأتباع الأديان الأخرى (٣٤٧).

٢. المشاركة الإيجابية في المؤتمرات والمنتديات الدينية، بالصفة الشرعية المتميزة:

ثم موقفان من المسلمين حيال المشاركة في ملتقيات الحوار الديني التي تدعو إليها جهات كنسية، أو منظمات دينية نصرانية غالبًا، وهما:

أ - الرفض المطلق وإدانة جميع صور المشاركة، بحسبانها لونًا من ألوان المداهنة، والاستدراج والفتنة عما أنزل الله.

ب - القبول المطلق، والاسترسال التام مع داعي هذه المؤتمرات والندوات، دون قيدٍ أو شرط، والتساهل مع المخالفين، وموافقتهم علىٰ رسومهم التي رسموها لسير الحوار، وعدم الجهر بكلمة الحق، وكشف الباطل، ضمن تعليلات مصلحية فاسدة.

ولا شك والحال هذه أن الموقف الأول هو الحق الذي يجب لزومه، ولكن لا تجوز الصيرورة إليه حتى يثبت ثبوتًا أكيدًا تعذر البلاغ، وإقامة الحجة، في مثل هذه المنتديات.

ذلك أن الرفض والامتناع موقف سلبي. ويمكن أن يتخذه أعداء الإسلام مغمزًا أو مطعنًا في الإسلام وأهله، أو رميهم زورًا وبهتانًا بعدم اعتماد أسلوب المحاورة بالحجة، وأن الإسلام لم ينتشر سابقًا إلا بحد السيف والإكراه.

وقد عد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا المحذور، في معرض رده على من قال إن: (آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف) فقال: (الوجه الثامن: إن كثيرًا من أهل الكتاب يزعم أن محمدًا ﷺ وأمته، إنما أقاموا دينهم بالسيف، لا بالهدى والعلم والآيات، فإذا طلبوا العلم والمناظرة، فقيل لهم: ليس لكم جواب إلا السيف، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب، وكان هذا من أعظم

ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام، وأنه ليس دين رسول من عند الله، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف)(١).

وقد جاء في قرارات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الثامنة عشرة عام ١٣٩٦هـ، البند التاسع عشر، ما يأتي: (درس المجلس الدعوة التي تلقتها الأمانة العامة، للاشتراك في المؤتمر المسيحي الإسلامي، الذي ينظمه مجلس الكنائس العالمي في جنيف في يناير ١٩٧٧م(٢)، وقرر:

١- الموافقة على الاشتراك في هذا المؤتمر، وغيره من المؤتمرات المماثلة، بشرط أن يكون المقصود من ذلك بيان الحق الذي بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ، وبطلان ما سواه من الأديان.

٢- أن يتولى تمثيل الرابطة فيها العلماء المختصون بالموضوعات المطروحة في جدول أعمالها)(٣).

ولكن السائد وللأسف كما تبين من استعراض عشرات، بل مئات، المؤتمرات في الباب الثاني، الإعراض عن الشرط الأول بالكلية، وأيضًا التساهل في تطبيق الشرط الثاني بالنظر إلى عموم المؤتمرات، فلا يتحدث باسم الإسلام أهل العلم والاختصاص، المتمسكون بالكتاب، المُمَسِّكون بالكتاب، بل طائفة من المثقفين ثقافة عصرية، ممن قد تتوافر فيهم العاطفة الإسلامية أحيانًا، ويقصرون في باب العلم الشرعي الرصين، مع غلبة مجاملة، ورقة في الدين.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٢٤٤).

(٢) لعل المقصود مؤتمر الحوار الإسلامي المسيحي المعقود في كارتيني قرب جنيف في أكتوبر عام ١٩٧٦م وليس يناير ١٩٧٧م، وشاركت فيه الرابطة فعلًا. فليس لمجلس الكنائس العالمي مؤتمر في يناير ١٩٧٧م، فربما تقدم عن موعده المشار إليه.

(٣) محضر قرارات الدورة الثامنة عشرة (١٤) لدى المؤلف.

كما ينبغي التنبه في مقام الدعوة إلى المشاركة الإيجابية في ملتقيات الحوار الديني إلى جوانب أخرى:

أ - ألَّا يقترن اللقاء بإحياء مناسبةٍ دينية أو وثنية لدىٰ الطرف المُضِيف، أو بدعةٍ كفرية يساق إليها المحاورون المسلمون.

ب - عدم الاستجابة للمشاركة في مؤتمراتٍ تدعو صراحة إلىٰ فكرةٍ باطلة شرعًا، مثل «وحدة الأديان»، وقد جاء في قرارات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته التاسعة والعشرين المنعقدة في الفترة ٦ ربيع الثاني عام ١٤٠٩هـ، الفقرة (٤) من (ثانيًا) ما يأتي: (وجوب التحذير من الحوار الذي تدعو إليه بعض المنظمات غير الإسلامية المشبوهة، مثل الكنيسة المتحدة التي يترأسها القس الكوري المتنبئ، صون ميونج مون، والهيئات والتنظيمات المنبثقة عنها، والعمل علىٰ كشف النقاب عن أباطيل تعاليمها للمسلمين خاصة، وللعالم عامة)(١).

وأمثال هذه المنظمة، مما يحمل توجهًا مسبقًا، كثير، كالمجموعات الصوفية الباطنية التي ترمي إلى جر المسلمين إلى النصرانية بحبل التصوف الباطني، مثل جماعة «كريسلام»(٢)، أو التي تقصد إذابة المسلمين في الوحدة العالمية، أو الإبراهيمية مثل مؤتمرات جارودي(٣)، أو المنظمات التي تصرُّ على مواصلة أعمال التنصير في صفوف المسلمين، مستغلةً فقرهم ومرضهم وتشردهم، وفي الوقت ذاته تنادي بالحوار.

---

(١) محضر قرارات الدورة التاسعة والعشرين. (ثانيًا) فقرة (٤).

(٢) راجع محاولات الأب غاليندو في الفصل الأول من الباب الثاني من الأصل.

(٣) راجع محاولات روجيه جارودي في الفصل الأول من الباب الثاني من الأصل.

أ - يجب أن يكون للجانب الإسلامي في هذه الملتقيات دورٌ فعال في التخطيط، والاختيار، والتنفيذ، في جميع المراحل، وألا يكون دوره حضوريًّا فقط، أو بصفة مراقب حتىٰ لا يستغفل أو يستدرج إلىٰ مواقف، إعلامية تضليلية، غير مقصودة له.

٣. إسناد قضايا حوار «التعايش» إلىٰ المتخصصين من أفرادٍ ومنظمات:

ينبغي أن يكون التمثيل الإسلامي فيها على يد متخصصين في الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة والطب، من ذوي الفضل والالتزام الشرعي، وأن يبينوا إلى جانب الطرح الموضوعي، المتخصص، محاسن الشريعة، وأثر العقيدة في ذلك. وتشارك فيها هيئات ومنظمات معنية بهذه الشؤون المعيشية(١).

أما الحوار في مسائل الاعتقاد والدين، فليس له إلا صيغة واحدة، هي صيغة الدعوة إلى كلمة سواء، بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، ولا يمكن أن يخضع لأسلوب المفاوضات، والتنازلات، والمقايضات، التي تتسع لها السياسة الشرعية في المسائل الحياتية المشتركة، التي تتعلق بها مصالح الطرفين.

٤. التقويم المستمر لمسيرة الحوار، وتبادل الخبرات بين الجهات الإسلامية.

٥. الاهتمام بالأقليات الإسلامية في أنحاء العالم.

٦. قيام الجامعات الإسلامية، والمعاهد الشرعية، بإحياء فن المناظرات، والمجادلة بالتي هي أحسن، وتأهيل الدعاة والمحاورين للقيام بواجب الدعوة والبلاغ.

---

(١) ينظر: الأصل للمزيد.

الملاحق

وتتضمن:

ملحق (١): فتوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء رقم (١٩٤٠٢) حول الدعوة إلىٰ (وحدة الأديان).

ملحق (٢)(١): الرسالة الجوابية لشيخ الأزهر د. عبد الحليم محمود علىٰ سكرتير عام جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية في إسبانيا حول المشاركة في مؤتمر (قرطبة العالمي الإسلامي المسيحي الثالث).

---

(١) رقم (٤) في الأصل.

فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء رقم (١٩٤٠٢) وتاريخ ١٤١٨/١/٢٥هـ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، استعرضت ما ورد إليها من تساؤلات، وما ينشر في وسائل الإعلام من آراء ومقالات، بشأن الدعوة إلى (وحدة الأديان): دين الإسلام، ودين اليهود، ودين النصارى، وما تفرع عن ذلك من دعوة إلى بناء: مسجد وكنيسة ومعبد في محيط واحد، في رحاب الجامعات، والمطارات، والساحات العامة، ودعوة إلى طباعة القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل، في غلاف واحد، إلى غير ذلك من آثار هذه الدعوة، وما يعقد لها من مؤتمرات، وندوات، وجمعيات، في الشرق والغرب، وبعد التأمل والدراسة فإن اللجنة تقرر ما يأتي:

أولًا: أن من أصول الاعتقاد في الإسلام، المعلومة من الدين بالضرورة، والتي أجمع عليها المسلمون، أنه لا يوجد على وجه الأرض دين حق سوى دين الإسلام، وأنه خاتمة الأديان، وناسخ لجميع ما قبله من الأديان والملل والشرائع، فلم يَبْقَ على وجه الأرض دين يُتعبد الله به سوى الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. والإسلام بعد بعثة محمد ﷺ هو ما جاء به دون ما سواه من الأديان.

ثانيًا: ومن أصول الاعتقاد في الإسلام أن كتاب الله تعالى: (القرآن الكريم) هو آخر كتب الله نزولًا وعهدًا برب العالمين، وأنه ناسخ لكل كتاب أنزل من قبل، من التوراة والزبور والإنجيل وغيرها، ومهيمن عليها، فلم يبقَ كتاب منزل يُتعبد الله به سوى: (القرآن الكريم)، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

ثالثًا: يجب الإيمان بأن (التوراة والإنجيل) قد نُسِخا بالقرآن الكريم، وأنه قد لحقهما التحريف والتبديل، بالزيادة والنقصان، كما جاء بيان ذلك في آيات من كتاب الله الكريم، منها قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله جل وعلا: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]. ولهذا، فما كان منها صحيحًا فهو منسوخ بالإسلام، وما سوى ذلك فهو محرف أو مبدل. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه غضب حين رأى مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة فيها شيء من التوراة، وقال عليه الصلاة والسلام: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟! ألم آتِ بها بيضاء نقية؟ لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي». رواه أحمد والدارمي وغيرهما.

رابعًا: ومن أصول الاعتقاد في الإسلام أن نبينا ورسولنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. فلم يبقَ رسول يجب اتباعه سوى محمد ﷺ. ولو كان أحد من أنبياء الله ورسله حيًّا لما وسعه إلا اتباعه ﷺ، وأنه لا يسع أتباعهم إلا ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. ونبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام إذا نزل في آخر الزمان يكون تابعًا لمحمد ﷺ، وحاكمًا بشريعته، وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. كما أن من أصول الاعتقاد في الإسلام أن بعثة محمد ﷺ عامة للناس أجمعين، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وغيرها من الآيات.

خامسًا: ومن أصول الإسلام أنه يجب اعتقاد كفر كل من لم يدخل في الإسلام، من اليهود والنصارى وغيرهم، وتسميته كافرًا، وأنه عدو لله ورسوله والمؤمنين، وأنه من أهل النار كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وغيرها من الآيات. وثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت

به إلا كان من أهل النار». ولهذا: فمن لم يكفِّر اليهود والنصارى فهو كافر، طردًا لقاعدة الشريعة: (من لم يكفر الكافر فهو كافر).

سادسًا: وأمام هذه الأصول الاعتقادية، والحقائق الشرعية، فإن الدعوة إلى: (وحدة الأديان)، والتقارب بينها، وصهرها في قالب واحد، دعوة خبيثة ماكرة، والغرض منها خلط الحق بالباطل، وهدم الإسلام، وتقويض دعائمه، وجرُّ أهله إلى ردة شاملة، ومصداق ذلك في قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله جل وعلا: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النساء: ٨٩].

سابعًا: وإن من آثار هذه الدعوة الآثمة، إلغاء الفوارق بين الإسلام والكفر، والحق والباطل، والمعروف والمنكر، وكسر حاجز النفرة بين المسلمين والكافرين، فلا ولاء ولا براء، ولا جهاد ولا قتال لإعلاء كلمة الله في أرض الله، والله جل وتقدس يقول: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ثامنًا: أن الدعوة إلى (وحدة الأديان)، إن صدرت من مسلم فهي تعد ردة صريحة عن دين الإسلام، لأنها تصطدم مع أصول الاعتقاد، فترضى بالكفر بالله عز وجل، وتبطل صدق القرآن، ونسخه لجميع ما قبله من الكتب، وتبطل نسخ الإسلام، لجميع ما قبله من الشرائع والأديان، وبناءً على ذلك فهي فكرة مرفوضة شرعًا، محرمة قطعًا بجميع أدلة التشريع في الإسلام، من قرآن وسنة وإجماع.

تاسعًا: وتأسيسًا على ما تقدم:

١- فإنه لا يجوز لمسلم يؤمن بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا، الدعوة إلى هذه الفكرة الآثمة، والتشجيع عليها، وتسليكها بين المسلمين، فضلًا عن الاستجابة لها، والدخول في مؤتمراتها وندواتها، والانتماء إلى محافلها.

٢- لا يجوز لمسلم طباعة التوراة والإنجيل منفردين، فكيف مع القرآن الكريم في غلاف واحد!! فمن فعله أو دعا إليه فهو في ضلال بعيد، لما في ذلك من الجمع بين الحق (القرآن الكريم)، والمحرف أو الحق المنسوخ (التوراة والإنجيل).

٣- كما لا يجوز لمسلم الاستجابة لدعوة: (بناء مسجد وكنيسة ومعبد) في مجمع واحد، لما في ذلك من الاعتراف بدين يعبد الله به غير دين الإسلام، وإنكار ظهوره على الدين كله، ودعوة مادية إلى أن الأديان ثلاثة: لأهل الأرض التدين بأي منها، وأنها على قدم التساوي، وأن الإسلام غير ناسخ لما قبله من الأديان، ولا شك أن إقرار ذلك أو اعتقاده أو الرضا به كفر وضلال، لأنه مخالفة صريحة للقرآن الكريم، والسنة المطهرة، وإجماع المسلمين، واعتراف بأن تحريفات اليهود والنصارى من عند الله، تعالى الله عن ذلك. كما أنه لا يجوز تسمية الكنائس (بيوت الله)، وأن أهلها يعبدون الله فيها عبادة صحيحة مقبولة عند الله، لأنها عبادة على غير دين الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. بل هي: بيوت يكفر فيها بالله. نعوذ بالله من الكفر وأهله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى في

مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٦٢): «ليست أي: البيع والكنائس بيوت الله، وإنما بيوت الله المساجد، بل هي بيوت يكفر فيها بالله، وإن كان قد يذكر فيها، فالبيوت بمنزلة أهلها، وأهلها كفار، فهي بيوت عبادة الكفار».

عاشرًا: ومما يجب أن يُعْلم، أن دعوة الكفار بعامة، وأهل الكتاب بخاصة، إلى الإسلام واجبة على المسلمين بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة، ولكن ذلك لا يكون إلا بطريق البيان والمجادلة بالتي هي أحسن، وعدم التنازل عن شيء من شرائع الإسلام، وذلك للوصول إلى قناعتهم بالإسلام ودخولهم فيه، أو إقامة الحجة عليهم ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. أما مجادلتهم، واللقاء معهم، ومحاورتهم لأجل النزول عند رغباتهم، وتحقيق أهدافهم، ونقض عُرى الإسلام، ومعاقد الإيمان، فهذا باطل يأباه الله ورسوله والمؤمنون، والله المستعان على ما يصفون. قال تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾ [المائدة: ٤٩].

- وإن اللجنة إذ تقرر ذلك وتبينه للناس، فإنها توصي المسلمين بعامة، وأهل العلم بخاصة، بتقوى الله تعالى ومراقبته، وحماية الإسلام، وصيانة عقيدة المسلمين من الضلال ودعاته، والكفر وأهله، وتحذرهم من هذه الدعوة الكفرية الضالة: (وحدة الأديان)، ومن الوقوع في حبائلها، ونعيذ بالله كل مسلم أن يكون سببًا في جلب هذه الضلالة إلى بلاد المسلمين وترويجها بينهم، نسأل الله سبحانه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يعيذنا جميعًا من

مضلات الفتن، وأن يجعلنا هداة مهتدين، حماة للإسلام على هدى ونور من ربنا حتى نلقاه وهو راضٍ عنا.

وبالله التوفيق. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

عبد العزيز بن عبد الله بن باز	**الرئيس**
عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ	**نائب الرئيس**
بكر بن عبد الله أبو زيد	**عضو**
صالح بن فوزان الفوزان	**عضو**

الرسالة الجوابية لشيخ الأزهر، الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله على طلب سكرتير عام (جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية) للمشاركة في مؤتمر قرطبة العالمي الإسلامي المسيحي الثالث(١)

- **بسم الله الرحمن الرحيم**

السيد المحترم:

تحية طيبة، وبعد: فإني أشكر لكم هذه الرغبة في التفاهم بين المسلمين والمسيحيين، وإثراء الفكر المسيحي المعاصر بالحلول التي أوحاها الله تعالى إلى محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم، وذلك فيما يتعلق بالمشكلات المعاصرة.

وقد وصلتني أخبار المؤتمرين السابقين. وأحب أن أنبه، في مودة(٢)، ومن أجل تفاهم عميق، إلى بعض الأمور:

١- أن الإسلام منذ أن بدأ خالف الجو العالمي: اليهودي والوثني... في أمر عيسى عليه السلام، لقد أعلن الإسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه،

---

(١) نشرت في مجلة الأزهر، عدد يونيو ١٩٧٨م وكتاب... أوروبا والإسلام... للشيخ عبد الحليم محمود (١٨٤ ١٨٧).

(٢) لا يخفى ما في هذا التعبير من تجوُّز ومعارضة لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وفي الأسلوب النبوي في مخاطبة الكفار سعة وغنية. راجع الفصل الثاني من الباب الثالث.

أما عيسى عليه السلام فهو وجيه في الدنيا والآخرة. وأما أمه فهي صديقة(١). ووجاهة عيسى عليه السلام جزء من إيمان المسلم، وبراءة أمه وطهرها جزء من إيمان المسلم. ولم يقف الإسلام من عيسى عليه السلام ومن أمه موقف اليهود الذين ما زالوا على موقفهم إلى الآن وأمه، لقد افتروا وما زالوا على عيسى وأمه، ورموهما ببهتان شنيع... أما الإسلام فإنه مجدهما، وما زال مستمرًا في تمجيده لهما.

فماذا لقي المسلمون من المسيحيين في مقابل ذلك؟

٢- أنه لا بد من الاعتراف بالدين الإسلامي وبرسوله، حتى ينال المسلمون في أوروبا ما يناله اليهود، من الاعتراف بأعيادهم وبشعائرهم... وأنه لا يتأتى التفاهم بين أتباع رسول يحترمه المسلمون، وهو عيسى عليه السلام، وأتباع رسول لا يعترف به المسيحيون، وهو محمد ﷺ.

٣- إن المسلمين والمسيحيين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والإلحاد. وكان يجب أن يسيروا في خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة.. ولكن للأسف يسير المسيحيون في طريق تنصير المسلمين بقوة: فهم يعملون ليل نهار على أن ينصِّروا المسلمين في كل مكان في العالم، وكل الدول الغربية، وأمريكا، ترسل إرساليات لتنصير المسلمين بأسلوب مكشوف واضح، أو بأسلوب خفي مستور، ويضيق المسلمون بذلك ضيقًا شديدًا. وبرغم ذلك فإن ملايين الجنيهات تنفق في سعة للتنصير بكل الطرق.

---

(١) يتعين في هذا المقام الصدع بالحق، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

ومما هو ملاحظ أن الدول الإسلامية ليس لها إرساليات تبشيرية... وقد أرسل المسيح عليه السلام لهداية خراف بني إسرائيل الضالة، ومع ذلك فإن المسيحيين تركوا خراف بني إسرائيل الضالة، وأخذوا يعملون على تنصير المسلمين... تساعدهم الثروة، وتساعدهم وسائل الحضارة الحديثة. ولو حصروا نشاطهم على تنصير الوثنيين لما أثار ذلك ضيق المسلمين الشديد، وكراهيتهم للأسلوب، ولموضوع التنصير نفسه(١).

٤- والمسلمون أقليات في بعض الأقطار المسيحية مثل الفلبين، وهذه الأقليات المسلمة ينكل بها باسم المسيحية: تؤخذ أرضها، وييتم أطفالها، وتترمل نساؤها، ولا تجد إلا ارتياحًا في نفوس الأغلبية المسيحية... ونحب أن ينتهي التنكيل بالمسلمين في الأقطار التي بها الأغلبية المسيحية: نحن نحب أن ينتهي ذلك إنسانية، ونحب أن ينتهي دينًا.

٥- وفي المؤتمرات التي تعقد في إسبانيا وغيرها هناك أسلوبان للحديث:

أ- التزام العقل. وهنا يتحلل المسلمون من مبادئ دينهم، فيتناولون المسيح عليه السلام وأمه بالأسلوب العقلي، فيكون موقفهم منهما موقف اليهود(٢)، يقولون على مريم وعلى ابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقًا شديدًا، ويقولون على المسيحية نفسها ما يضيق به المسيحيون ضيقًا شديدًا.

ولكن المسلمين في هذه المؤتمرات يتبعون مبادئ دينهم، فيحترمون المسيح عليه السلام وأمَّه... أما المسيحيون فإن البعض منهم لا يبالي، فيتحدث عن رسول

---

(١) في هذا الكلام إيهام بصحة ما عليه النصارى من الدعوة إلى دينهم الباطل.

(٢) شتان بين موقف المسلمين من عبد الله ورسوله، عيسى ابن مريم، وأمه العذراء الطاهرة البتول، وموقف اليهود. وليس للمسلمين موقف عقلي يخالف الموقف الديني الشرعي. وفي عبارة شيخ الأزهر بعض الخفاء.

الإسلام بما يضيق به صدر المسلمين، فلا تكون هذه المؤتمرات وسائل تفاهم، وإنما تكون وسائل تنافر، وذلك كما حدث في المؤتمرين السابقين من بعض المسيحيين.

ب- التزام ما تمليه روح التفاهم: فلا يساء إلى المسلمين في مقدساتهم.

٦- ونحن من جانبنا قد قدَّمنا أسس التفاهم واضحة سافرة: احترام المسيح عليه السلام، واحترام أمه عليها السلام... فماذا قدم المسيحيون؟... لا شيء. بل على العكس من ذلك، لقد هاجموا وما زالوا يهاجمون رسول الإسلام، ومبادئ الإسلام، فهل يمكن مع ذلك التفاهم؟

٧- وأحب أن أقول: إن الإسلام هو العامل الأكبر في تثبيت المسيحية حين اعترف بوجود المسيح عليه السلام وحين برَّ أمه. ومع ذلك فقد قوبل بجحود لا مثيل له، وما زال يقابل بهذا الجحود من المسيحيين على أكبر خدمة أديت للمسيح عليه السلام.

وبعد: فإني أحب صادقًا أن نتعاون في صدِّ كل انحراف، وأحب أن أقول إنه لولا تقديري لكم لما كتبت لكم هذا. وإنني يسرني أن أقرأ لكم. وسأتحدث إليكم عن رأيي في موضوع المؤتمر في المستقبل إن شاء الله.

ولكم تحيتي وتقديري. د. عبد الحليم محمود شيخ الأزهر